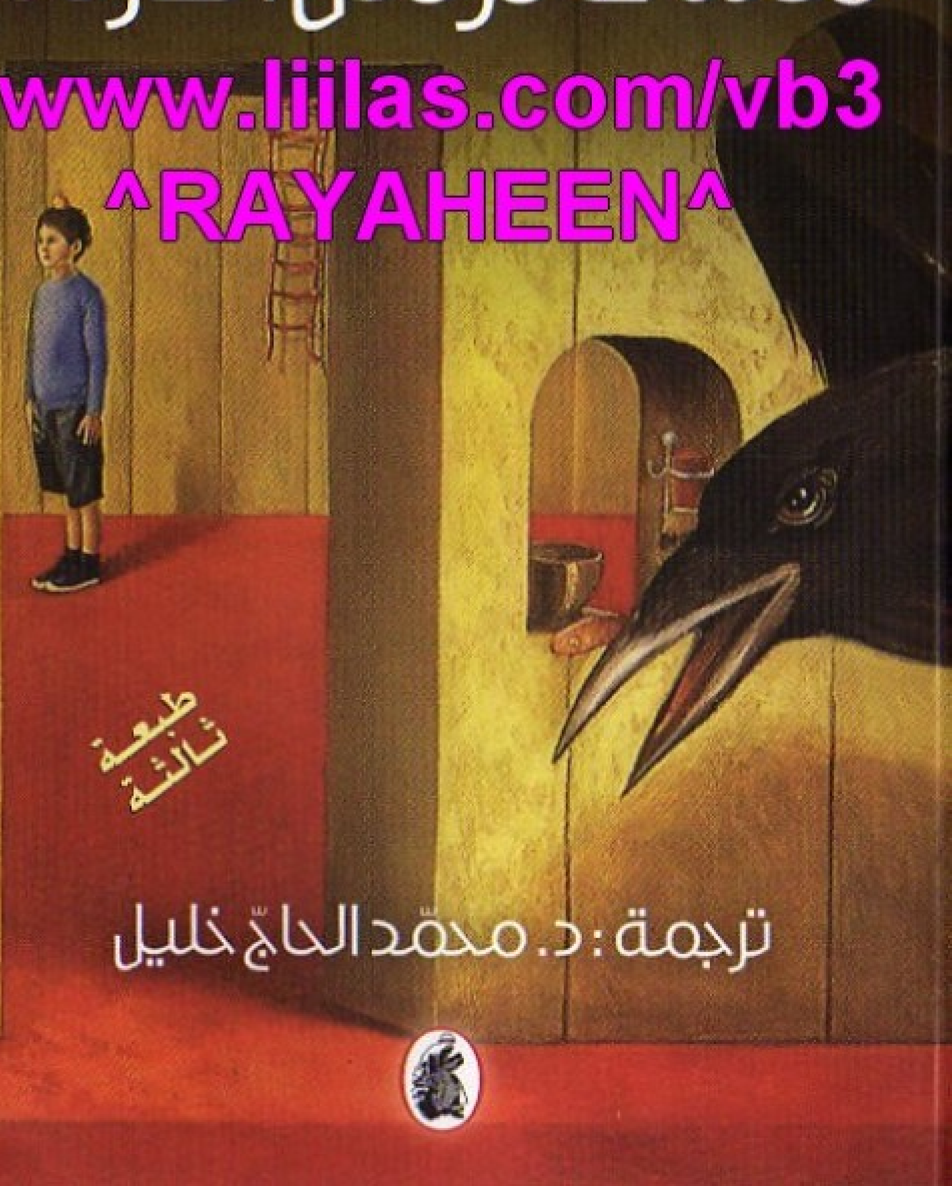
GABRIEL GARCIA MARQUEZ

رواية
NOVEL

غابرييل غارسيا ماركيز

مئة عام من العزلة

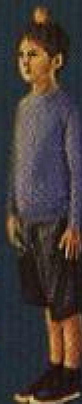


طبعة ثالثة

ترجمة: د. محمّد الحاجّ خليل

ONE HUNDRED YEARS OF SOLITUDE

رواية
NOVEL



مئة عام من العزلة

■ قليلةٌ هي الروايات الّتي تغيّر حياة الناس ، وهذه واحدة من تلك الروايات .

« و . ل . و . ب / الغارديان »

■ هذه رواية كاسحة تتّسم بالألق الفوضويّ ، وهي أقرب إلى الشعر منها إلى النثر ، بل هي ملحمة موسيقيّة لا متناهية .

« التايمز »

■ هذه الرواية عملٌ أدبيٌ غنيٌ ، مكثّفٌ كالأدغال ، حافلٌ بالوهم المتوضّع ، زاخرٌ بالفعل ، ثريٌ بالمرح الحزين ، يتفق بالأحداث والفلسفة والتأمّل ، حتّى ليدفعك إلى العجب .

« صنداي تايمز »

■ تصحو ، بعد قراءة هذه الرواية الرائعة ، كمن يصحو من حلم : عقلك وخيالك جامحان بل ملتهبان .. وأمامك غابرييل غارسيا ماركيز العملاق كخياله وجبريّته وعظمته ؛ فهو والرواية مدهشان .

« نيويورك تايمز »

■ هذه خبرة لا تعدلها ، في الغنى ، خبرةٌ أخرى .

« فاينانشال تايمز »

■ هذه الرواية من أجمل ما قرأت ، وهي على الرغم من سمة العزلة الّتي تنسحب عليها حتّى اختارها لها كاتبها اسماً ، وعلى الرغم من الحتميّة الّتي ينظر بها المؤلّف للأمور من زاويته ، أشبه ما تكون بالحياة : شائقة وشائكة ، بسيطة ومعقّدة ، متفائلة ومتشائمة ، حلوة ومرّة إنها ككلّ الأدب الرفيع جديرة بأن تُقرأ ، وككلّ الحياة تستأهل أن تُعاش .

« د. محمّد الحاجّ خليل »

ISBN 9953-36-701-9





غابرييل غارثيا ماركيز

مقدمة

لقد كان الفن والإبداع دائماً فعل عطاء وتضحية ، وموقفاً ضد الظلم . وكان دائماً دعوة للمعرفة والحرية والحق والخير والجمال .

ومن هنا كانت إنسانية الإبداع ، ومن هنا كان تعملق المبدعين .

ولكن ، هل يقتصر الإبداع على الأعمال التي تتناول التجارب والخبرات الإنسانية الكبرى ؛ كالحب والحرب والجوع والمرض وسواها؟

ألا يمكن للمبدع أن ينطلق من تجربة أو خبرة أو بيئة ضيقة محدودة ، فيعالج الأحداث ، والمشاعر والأمزجة ، والآمال والآلام ، والمطامح والنوازع والرغبات ، لدى شخوص هذه التجربة أو الخبرة أو البيئة؟ فالناس هم الناس في كل الأصقاع . وآمالهم وآلامهم ومطامحهم ورغائبهم تكاد تكون واحدة .

ألم يبلغ الأديب العربيّ الكبير ، نجيب محفوظ ، مرتبة العالمية والإنسانية في قصصه ورواياته ، التي أنشأها حول الناس من أهله ومعارفه في مصر والبلاد العربية؟ أفلا يصدق ما نذهب إليه على رواية نجيب محفوظ «الثلاثية» الرائعة : «بين القصرين - قصر الشوق - السكرية»؟

وتلك هي حال أديبنا الكولومبي لكبير ، غابرييل غارسيا ماركيز .

فقد أنشأ هذا الكاتب روايته الرائعة «مئة عام من العزلة حول سيرة حياة عائلة (بويندیا) في قرية (ماكوندو) ، ابتداء من إنشاء

القرية ذاتها على يد (خوزيه أركاديو بوينديا) الجدّ الأول و(أورسولا) الجدة الأولى ، وانتهاء بحفداء حفدائهم . وتابع ماركيز سلالة هذه الأسرة وما ومن يحيط بها . فعرض بصبر لا ينفد ، ودقة غير متناهية ، تفاصيل حياتهم بشظفها ورفاهها ، بأحلامها ومطامحها ، وآلامها وآمالها ، بتقاليدها المحافظة وعلاقاتها الإباحية المحمومة ، بتديّنها ومجونها ، ومقاومتها للظلم والظالمين والغرباء الطامعين ، وتصدّيها لعناصر الطبيعة القاسية التي لا ترحم ، في سياق ملحمي يفوق التصوّر والخيال .

صحيح أن من تتسع آفاقه وتكثر خبراته يكون مهيأً للإبداع في نقل الخبرات الإنسانية الشاملة الكبرى ، ويقترب بإبداعه من العالمية والإنسانية .

ولكن ، صحيح أيضاً أنّ من يغوص في تجربته ، مهما ضاقت بيئتها ، ويتقصى جوانبها بتحرٍّ وتعمق واعيين ، يكون قادراً على خلق الشمول من الخصوص ، والعالمية من الفردية ، والإنسانية من الذاتية . ذلك أنّ الجواهر تلتقي ، في نهاية المطاف ، عند بؤرة واحدة ، هي من الصّغر بحيث تكاد لا ترى .

فكيف إذا اجتمع الأمران كلاهما لماركيز : سعة الأفق وغنى الخبرات ، والقدرة على الغوص ، حتى الأعماق ، في تجربة بيئته المحدودة ، فينقلها من الضيق والمحدودية إلى العالمية والإنسانية ، بإبداع يندر أن يجارى!!

فمن أحضان التقاليد الأدبية الراسخة التي وعاها ماركيز ، انطلق هذا الأديب من حياة أسرة واحدة في بقعة صغيرة ، هي قرية (ماكوندو) الجديدة ، مستفيداً من منجزات الرواية المعاصرة وثراء ما وعته الأجيال من موروث شعبي وأدب منقول ، ليشيد صرح عالم روائي آسر بما فيه من جماليات العمل الفني ، ولا سيما تصوير جمال القبح ، وما يزخر به من العلاقات ، فيجعله كوناً هائلاً يتحقق فيه قوله : «كل رواية جيدة هي سبر لأغوار العالم» ، كما يقول كامل يوسف حسين في مقدمة ترجمته لقصة ماركيز «في ساعة نحس» .

إنه عالم يضج بالحيوية والتألق ، ويستقطب الاهتمام في بعديه البارزين : الزمن والعزلة .

فالزمن عند ماركيز ينساب في إطار مفهوم الدورة الزمنية . وعجلة الزمن تميط اللثام عن احتمال نهاية السلالة ، ولكن ليس عن نهاية دورة الحياة . إنها تجعل الحاضر مُذَكِّراً على نحو ما سيكون عليه المستقبل ، أو كما يقول ابن خلدون : «الآتي أشبه بالماضي من القطرة بالقطرة» .

إن العزلة في رواية ماركيز «مئة عام من العزلة» تتجاوز كونها حالة معزولة . فهي تضرب جذورها عميقاً في أرض الواقع ، لتغدو طريقة حياة في مواجهة الظلم والأحوال السياسية والاقتصادية والأطماع الخارجية . ولا تتلاشى العزلة إلاّ حين يتصاعد الصراع فيغدو تطاحناً حتى الموت في مواجهة الاغتراب عن الطبيعة

والآخرين وعن الذات . إن تهشّم القوقعة ، كما يقول كامل يوسف حسين ، لا يحدث إلاّ في حالة واحدة : حين يغدو بداخلها كائن آخر مختلف نوعاً عن سابقه ، كائن ينجح في أن يحدّق في وجه اغترابه .

إن تاريخ هذه العائلة كآلة على عجلة ، لا يمكنها تجنب الدوران والتكرار . فهي عجلة يمكن لها أن تستمر في الدوران إلى ما لا نهاية .

أما تاريخ الأفراد من سلالة خوزيه أركاديو بوينديا وأورسولا ، من العقيد أوريليانو وأخيه خوزيه الابن وأمارانتا وروبيكا وفيرناندا، حتى أوريليانو الأخير وأمارانتا - أورسولا ، فملكيادس والغجر ، فلا يعدو أن يكون تنويعات على شتى ضروب العزلة . فهذا التاريخ رحلة طويلة ، ابتدأت بالجدّين الأكبرين وانتهت بحفداء الحفداء ، لقهر العزلة والاغتراب . وقد انتهت في فيافي الفناء بحكم القصور الذاتي . ولكنها تظل تشير إلى مشارف الأدغال ، حيث ترتجف أوراق الشجر بشهوة البقاء ، ورعشة انتظار الحياة من جديد .

فأوّل السلالة مقيّد ومربوط إلى شجرة الكستناء ، والأخير منها فانٍ . . يلتهمه النمل . ولكن الحياة باقية . . وتستمر . . لا يحدّها قيد . . ولا يغلبها فناء .

د . محمد الحاج خليل

(١)

مضى زمن طويل، والآن أمام فريق الإعدام، يتذكر الكولونيل أوريليانو ذلك اليوم البعيد. كان الوقت عصراً عندما اصطحبه أبوه ليكتشف الجليد.

كانت (ماكوندو) يومئذ قرية تضمّ نحو عشرين بيتاً مبنياً من الطين، على ضفة نهر صغير، مياهه صافية تنساب في مجرى تغطي أرضه حصى ملساء متلألئة، بيضاء كبيرة الحجم، كأنما هي من بيض ما قبل التاريخ.

وكان العالم حديثاً، حتى إنّ كثيراً من الأشياء كانت بلا أسماء، وفي شهر آذار / مارس من كل عام، كانت تصل عائلة غجرية فقيرة، فتقيم خيامها قرب القرية. وعلى أصوات الأبواق العالية وهدير الطبول الصاخبة، تقوم العائلة بعرض المخترعات الجديدة.

بدأ الغجر بإحضار المغناطيس . وقد وقف غجريّ ضخم الجسم ، كثّ اللحية ، له يدان كالعصفور الدوريّ ، يقدم نفسه باسم (ملكيادس) . وقد عرض الرجل ما أسماه هو نفسه الأعجوبة الثامنة من أعاجيب علماء الكيمياء في (مقدونيا) . وانطلق الرجل يتجوّل في القرية ، من بيت إلى بيت ، يجرّ خلفه سبيكتين من المعدن . ويا للذهول الذي أصاب الناس وهم يرون القدور والأطباق والملاقط والمواقد تتساقط من مواضعها ، ويرون الأعمدة تتشقّق وتتخلّع من مساميرها وبراغيها ، حتى الأشياء التي كانت ضائعة منذ زمن طويل بدأت تظهر في الأماكن التي طالما بحث الناس عنها فيها ، ثم راحت هذه الأشياء

جميعاً تنسحب مضطربة وراء المعدن السحريّ الذي كان ملكيادس يجرّه خلفه . وكان الغجري يهتف بصوت عال أجشّ ، قائلاً : «للأشياء حياتها الخاصة بها . وما القضية سوى إيقاظ أرواحها» .

وفكّر خوزيه أركاديو بوينديا، وكان رجلاً ذا خيال جموح يتجاوز حدود عبقرية الطبيعة، بل يذهب إلى ما هو أبعد من معجزات السحر، أن بالإمكان الانتفاع من هذا الاختراع في استخراج الذهب من باطن الأرض. ولكنّ (ملكيادس)، وكان رجلاً أميناً، حذّره قائلاً : «إنه لا يصلح لذلك». ولكنّ خوزيه أركاديو بوينديا لم يكن، عندئذ، يؤمن باستقامة الغجر وأماناتهم. وهكذا قايض السيكتين الممغنطتين ببغله وزوج **من ماعزه . ولم تفلح زوجته أورسولا إيجواران في ردّه عن قراره . وكانت** تعتمد على هذه الحيوانات لتحقيق هدفها في زيادة ممتلكات العائلة. فقد كان ردّه : «غداً سيكون لنا من الذهب ما يزيد على حاجتنا لتبليط أرض البيت». وقد بذل، خلال بضعة أشهر، جهداً مضنياً وهو يحاول أن يثبت صحة نظريته. فراح يطوف بالسبيكتين في أرض المنطقة مستكشفاً، فلم يدع شبراً دون أن ينقّبه، حتى نقّب مجرى النهر نفسه، مردّداً بصوت عالٍ تعويذة ملكيادس. ولكنّ الشيء الوحيد الذي استطاع فعله هو الكشفُ عن درع من القرن الخامس عشر، وقد التحمت أجزاؤها بما علاها من الصدأ، ويصدر من جوفها رنين كما لو كانت يقطينة ضخمة محشوّة بالحصى. وبعد أن فكّك خوزيه أركاديو بوينديا، ورفاق حملته الأربعة، تلك الدرع إلى أجزائها، وجدوا في داخلها هيكلاً عظمياً متكلساً، وقد تدلّت من عنقه عُلّيبة (علبة صغيرة) نحاسية فيها خصلة من شعر امرأة.

وعاد الغجر في آذار (مارس). وقد حملوا معهم هذه المرة منظاراً

وعدسة مكبّرة بحجم طبل. وقد عرضوهما بوصفهما آخر مكتشفات يهود أمستردام. وضعوا امرأة غجرية في طرف القرية، وركزوا المنظار في مدخل الخيمة في طرف القرية الآخر. وهكذا جعل الناس، مقابل خمسة ريالات للشخص، ينظرون بالمنظار فيشاهدون المرأة الغجرية البعيدة على بعد ذراع منهم.

وكان ملكيادس يهتف قائلاً : «لقد ألغى العلم المسافات ، ولن يمضي وقت طويل حتى يستطيع الإنسان أن يرى ما يحدث في أي مكان في العالم دون أن يغادر منزله» .

وفي تلك الظهيرة القائظة بشمسها المحرقة ، قدّم الغجر عرضاً مذهلاً للعدسة المكبّرة الضخمة . جمعوا كومة من القشّ اليابس في وسط الطريق ، وأشعلوا فيها النار بتجميع أشعة الشمس وتركيزها عليها .

أما خوزيه أركاديو بوينديا ، وهو الذي لم يبرأ بعد من آثار فشله في المغناطيس ، فقد تراءت له فكرة استعمال هذا الاختراع سلاحاً للحرب . وحاول ملكيادس ، مرة أخرى ، أن يثنيه عن رأيه . ولكنه قبل أخيراً أن يبادله العدسة بالسبيكتين المغنطتين وثلاث قطع من العملة الاستعمارية . وبكت أورسولا المسكينة ، فقد كان ذلك المال من صندوق القطع الذهبية التي جمعها أبوها طوال عمر قضاه في الحرمان ، ودفنتها هي تحت سريرها ، على أمل الإنتفاع بها في فرصة مناسبة . ولم يحاول خوزيه أركاديو بوينديا استرضاءها . فقد استغرقته تجاربه التكتيكية ، فأنكر ذاته كما يفعل العلماء ، دون اهتمام بما قد يترتب على ذلك من مخاطر على حياته . وفي محاولة منه لإظهار أثر العدسة على جنود العدو ، عرّض نفسه لأشعة الشمس المركّزة ، فأصيب بحروق تحولت إلى قروح استمرّت طويلاً قبل أن تشفى . وعلى الرغم من اعتراضات زوجته واحتجاجاتها ، وقد أذهلها هذا الاختراع الخطير ، فقد بلغ الأمر به أنه كاد يحرق بيته . كان يقضي الساعات الطوال في عزلته ، بحسب الاحتمالات

الاستراتيجية لسلاحه الجديد، حتى نجح في وضع دليل غاية في وضوحه ولا يقاوم في حجته وإقناعه. وأرسل هذا البحث الدليل إلى الحكومة، مصحوباً بالكثير من التقارير الوصفية حول تجاربه، وبضع صفحات من الرسوم التخطيطية. وقد حمل كل ذلك رسول منه إلى الحكومة، قطع المسافات الطويلة، فتسلق الجبال، وتاه في المستنقعات اللامتناهية، وعبر الأنهار الصاخبة، وكاد يقتله اليأس المضني، والطاعون، والحيوانات المفترسة، حتى تمكن من العثور على طريق أوصلته إلى الطريق التي تسير عليها بغال البريد. وعلى الرغم من كون الرحلة إلى العاصمة شبه مستحيلة في ذلك الوقت، تعهّد خوزيه أركاديو بوينديا بالقيام بها حال توجيه الحكومة أوامرها له بذلك، لكي يقدّم بعض العروض العملية تخترعه أمام السلطات العسكرية، ولكي يدربهم بنفسه على فن الحرب الشمسية المعقّد.

وانتظر الجواب بضع سنوات، حتى إذا سئم الانتظار شكا أمر إخفاقه في المشروع لملكيادس، الذي قدم له البرهان القاطع على أمانته. فقد أعاد له القطع الذهبية، وزوّده، علاوة على ذلك، ببعض الخرائط البرتغالية وبعض أدوات الملاحة البحرية. وأعدّ بخط يده مؤلفاً وافياً عن دراسات الراهب هرمان، وتركه لخوزيه أركاديو ليستطيع استعمال الأسطرلاب والبوصلة وآلة السدس (١).

وقد أمضى خوزيه أركاديو بوينديا الشهور الطويلة من الفصل الممطر، معتكفاً في غرفة صغيرة كان قد بناها خلف منزله كي يحول دون أن يزعجه أحد ويشوّش تجاربه. وقد أهمل خوزيه واجباته العائلية كلياً، فراح يقضي الليالي بطولها في ساحة يرقب منها مسارات النجوم، حتى كاد يصاب بضربة شمس وهو يحاول الاهتداء لطريقة صائبة لتحديد وقت الظهيرة، ولمّا صار خبيراً في استعمال أدواته ومعالجتها، توصل إلى معرفة بالفضاء مكّنته من الطواف في بحار مجهولة، ليزور أقاليم غير مأهولة، ولينشىء

(١) آلة خاصة بقياس الزوايا.

علاقات مع مخلوقات عجيبة، دون أن يغادر مكتبه. وعند هذا الحدّ، تعوّد خوزيه أن يحدث نفسه، وأن يسير في البيت دون أن يرى أحداً أو يعي شيئاً، بينما كانت (أورسولا) وأطفالها يكدحون بجد في البستان، يزرعون الموز والمانجا والكاسفا والبطاطا والقرع والباذنجان. وفجأة، ودونما سابق إنذار، توقف نشاطه المحموم، وحلّ محله نوع من الذهول. وأمضى بضعة أيام كأنما هو مسحور، يردد بصوت ضعيف أوصافاً وأفكاراً مخيفة، غير آبه بعقله وفهمه لما يقول. وأخيراً، وذات يوم ثلاثاء من كانون الأول (ديسمبر)، وعند وقت الغداء، تخلّص خوزيه، دفعة واحدة، من وطأة العذاب الذي كان يعانيه. ولن ينسى الأطفال، طوال حياتهم، كيف اتخذ أبوهم مكاناً له على رأس المائدة، يجلّله الوقار رغم ارتجافه وسهومه العميق وخياله المضطرب، وكيف أعلن لهم اكتشافه: «الأرض كروية كالبرتقالة».

ونفد صبر أورسولا، فصاحت به: «إذا كان لا بدّ لك أن تجن، فجُنّ وحدك. فلا تحاول أن تزرع في رؤوس الأطفال أفكارك الغجرية. ولكن خوزيه أركاديو بوينديا لم يتأثر بما أصاب زوجته من يأس وغضب، فظلّ هادئاً. فما كان منها، في هياجها، إلا أن ألقت الإسطرلاب إلى الأرض فحطمته. ولكن خوزيه بنى واحداً آخر، وجمع رجال القرية في غرفته الصغيرة، وقدّم لهم نظريات لم يفهمها أحد منهم، وعرض لهم كيف يمكن أن يعود إلى نقطة انطلاقه من يسافر شرقاً بشكل متواصل. واعتقد أهل القرية جميعاً أن خوزيه أركاديو بوينديا قد فقد عقله. ثم عاد ملكيادس ليصوّب الأمور. فأثنى على الرجل، بين الناس، وامتدح ذكاءه لأنه استطاع، بمحض تأملاته الفلكية، أن يتوصل إلى نظرية سبق البرهان عليها عملياً، على الرغم من أنها لم تكن معروفة في ماكوندو حتى ذلك الحين. وتعبيراً منه عن إعجابه بخوزيه، قدّم له هدية كان لها

أثر عظيم على مستقبل القرية، وهي مخبر الكيمياء.

وكانت الشيخوخة، عندئذ، قد سارعت إلى ملكيادس. فقد كان في رحلاته الأولى يبدو في مثل سن خوزيه أركاديو بوينديا. ولكن، بينما كان خوزيه لا يزال يحتفظ بقوته الخارقة، فقد كان يطرح الحصان أرضاً إذا أمسك بأذنيه، كان الرجل الغجري يبدو متعباً منهكاً بسبب مرض غريب ألمّ به. وكان ذلك المرض، في الواقع، نتيجة لعدة أمراض نادرة، تجمعت له في رحلاته التي لا تحصى حول العالم. وقد ذكر لخوزيه أركاديو بوينديا، بينما كان يساعده في إنشاء المخبر، أن الموت كان يلاحقه في كل مكان، يحاوره ويداوره، دون أن يقضي عليه بضربة من مخالبه. لقد نجا من كل المصائب والأوبئة التي أصابت البشرية. فقد سلم من مرض الذرة في بلاد فارس، ومن داء الحفر أو الأسقربوط[1] في الأرخبيل الملايبي، ومن البرص في الإسكندرية، ومن البريبري[2] في اليابان، ومن وباء الطاعون في مدغشقر، ومن الهزة الأرضية في صقلية، ومن كارثة تحطم سفينة في مضيق ماجلان.

كان ذلك الإنسان العجيب يزعم أنه يتحكم بمفاتيح نوستراداموس، وكان رجلاً كئيباً تلفّه هالة من الحزن، له نظرة آسيوية توحي بمعرفة الجوانب الأخرى للأشياء. كان يضع على رأسه قبعة سوداء كبيرة تبدو كأنها غراب نشر جناحيه، ويلبس صدرية مخملية تحمل آثار القرون الخوالي. ولكنه كان، على الرغم من سعة حكمته وعمق غموضه، ينوء بعبء إنساني يشدّه أرضاً ويجعله يغوص في مشكلاته اليومية الصغيرة. فقد كان يشكو من آلام العجز، ويعاني من أبسط المصاعب الاقتصادية. وقد توقف عن الضحك منذ أمد بعيد، لأن مرض الأسقربوط كان قد أسقط أسنانه. في تلك الظهيرة الخانقة، باح ذلك

(١) مرض يصيب اللثة.
(٢) مرض ينشأ عن نقص في الفيتامين (ب).

الغجري بأسراره. وعندها أيقن خوزيه أركاديو بوينديا أن تلك اللحظة كانت بداية صداقة عظيمة. وكثيراً ما كان الصغار يذهلون وهم يستمعون إلى قصصه الرائعة.

أما أوريليانو، ولم يكن فوق الخامسة من عمره عند ذاك، فسوف يذكر، طوال حياته، منظر ذلك الرجل كما رآه في تلك الظهيرة. كان يدير ظهره إلى النافذة المعدنية، بضوئها ووهجها، بينما صوته العميق، كصوت الأرغن، يطوف بالسامع أقصى حدود الخيال، وينساب العَرَق على صدغيه كأنما هو نقط من الشحم تذيبه الحرارة. وأما خوزيه أركاديو، أخو أوريليانو الأكبر، فسيظل ينقل هذه الصورة المدهشة لأبنائه وحفدائه كذكرى من ذكرياته الموروثة. وحدها أورسولا كانت تحتفظ بذكرى سيئة لتلك الزيارة. فقد اتفق أن كانت تدخل الغرفة في اللحظة التي كسر فيها ملكيادس، دون انتباه منه، قارورة من بيكلور الزئبق. فقالت أورسولا: «هذه رائحة الشيطان».

فأجاب ملكيادس مصححاً: «لا. فقد ثبت أن للشيطان خصائص كبريتية. وما هذا سوى نتاج كيميائي متصعّد مزعج».

وهكذا، انطلق كعادته، بأسلوبه التعليمي، يعرض علمياً الخصائص الشيطانية للزنجفر(١). ولكن أورسولا لم تكترث به، فاصطحبت أطفالها للصلاة. ولم تبرح تلك الرائحة المزعجة النفّاذة ذاكرتها، وقد ارتبطت بذكرى ملكيادس.

كان المخبر النواة ـ إضافة إلى مجموعة من القدور والأقماع والقوارير والمراشح والمصافي ـ يتكوّن من أنبوب ماء بدائي، ودورق زجاجي له عنق طويلة رفيعة، وصورة لبيضة الفيلسوف، ومكثّف بناه الغجر أنفسهم حسب المواصفات الحديثة للإمبيق أو القطر[2] ذي الأذرع الثلاث المنسوب لماري

(١) كبريتيد الزئبقيك.
(٢) الإمبيق، أو القطر، هو أداة كيميائية للتقطير.

اليهودية. وقد ترك ملكيادس، إضافة إلى ما سبق، نماذج من المعادن السبعة المقابلة للكواكب السبعة، ومعادلات موسى وزوسيم لمضاعفة كمية الذهب، ومجموعة من المخططات والرسوم المتصلة بعمليات التعليم الكبرى، التي تمكّن من يستطيع تفسيرها من صنع حجر الفلاسفة. وقد أغري خوزيه أركاديو بوينديا بسهولة المعادلات الخاصة بمضاعفة كميات الذهب، فجعل يغازل أورسولا بضعة أسابيع كي تسمح له باستخراج عملتها الاستعمارية المدفونة، ليضاعفها عدداً من المرات يساوي ما يمكنه تجزئة الزئبق إليه. ورضخت أورسولا، كما كانت تفعل دائماً، أمام عناد زوجها الذي لا يعرف التراجع. وهكذا ألقى خوزيه أركاديو بوينديا ثلاث قطع من العملة الإسبانية الذهبية القديمة في مقلاة، وأذابها مع برادة النحاس وكبريتوز الزرنيخ والكبريت والرصاص. وقد ترك كل ذلك يغلي في قدر ملأها بزيت الحوت حتى حصل على سائل كثيف له رائحة قذرة، ويشبه في شكله الكاراميلا الرديئة أكثر مما يشبه الذهب الثمين. وبعد عمليات خطيرة ويائسة من التقطير، ذاب الخليط مع المعادن الكوكبية السبعة الممزوجة بالزئبق المضغوط وأملاح قبرص المركّزة، والمعاد طبخها بشحم الخنزير لفقدان زيت الفجل. وهكذا ضاع ميراث أورسولا الثمين، إذ تحوّل إلى قطعة كبيرة متكلّسة، من لحم الخنزير المتشقق، ملتصقة بشدة في قعر القدر.

ولما عاد الغجر في المرة التالية، كانت أورسولا قد أثارت عليهم أهل القرية جميعاً. ولكن حب الاستطلاع كان أقوى من الخوف. فقد راح الغجر، هذه المرة، يطوفون في أحياء القرية وسط ضجة وصخب شديدين تصدرهما أنواع مختلفة من الآلات الموسيقية. بينما كان المنادي يعلن عن عرض أعظم اكتشاف خرافيّ خارق لدى الناسيانيسيين. وتدافع الناس جميعاً إلى الخيمة، ومقابل سنت واحد من كل منهم،

شاهدوا ملكيادس شاباً وقد استعاد قوته وعافيته، فخلا وجهه من التجاعيد، وتلألأت في فمه أسنانه البيضاء. وأصاب الذهول الناس الذين عرفوا لثته المتآكلة بمرض الأسقربوط، ووجهه المتجعّد، وشفتيه الذاويتين، فجعلوا يرتجفون خوفاً في مواجهة البرهان الساطع على قدرة هذا الغجري الخارقة. ثم تحول الخوف إلى هلع عندما أخرج ملكيادس أسنانه من قمة سليمة مرصوفة، وعرضها على الجمهور لحظة خاطفة ـ بدا فيها رجل الماضي المهدّم في عجزه ـ ثم أعادها إلى فمه وابتسم ثانية بكل ثقة الشباب المستعاد. حتى خوزيه أركاديو بوينديا نفسه اعتبر أن معرفة ملكيادس قد بلغت الحدود القصوى. ولكن الفرح غمره عندما أوضح الغجري له وحده آلية أسنانه الصناعية. فبدا له الأمر نوعاً من السهل الممتنع في آن معاً، حتى فقد اهتمامه فجأة بتجاربه في الكيمياء. وعاش بعد ذلك أزمة جديدة في معنوياته، واضطرب نظام تناوله الطعام، وصار يقضي اليوم بطوله متنقلاً في البيت على غير هدى. قال لزوجته: «هناك أمور لا تصدّق تحدث في العالم. فعلى الطرف الآخر من النهر، توجد كل أنواع الآلات السحرية، بينما نعيش نحن هنا حياة الحمير». ودهش كل الذين عرفوه منذ نشوء ماكوندو، بسبب ما أصابه من تغير بتأثير ملكيادس.

فقد كان خوزيه أركاديو بوينديا شاباً حكيماً يعلّم الناس كيف يزرعون، ويوجههم كيف يربون أولادهم وحيواناتهم. وكان يتعاون مع الناس جميعاً حتى في الأعمال المادية من أجل مصلحة المجتمع. ولما كان بيته، منذ البداية، أفضل بيوت القرية، فقد بنى الآخرون بيوتهم على صورته وشاكلته. وكان البيت يتألف من غرفة جلوس صغيرة حسنة الإضاءة، وغرفة طعام خارجية على هيئة شرفة تحيط بها أزهار زاهية، وغرفتين للنوم، وفناء واسع فيه شجرة عملاقة من شجر جوز الهند،

ويحيط به بستان حسن التنظيم، وتلحق به حظيرة يعيش فيها الماعز والخنازير والدجاج بسلام. أما الحيوانات الوحيدة التي كانت ممنوعة ـ لا في بيته وحده، بل في القرية كلها ـ فقد كانت الديكة المصارعة.

كانت قدرة أورسولا على العمل مثل قدرة زوجها. كانت امرأة نشيطة دقيقة عنيفة قوية الأعصاب، جادة، لا يذكر أحد أنه سمعها تدندن بلحن أو أغنية، تبدو كما لو كانت موجودة في كل مكان في كل آن، منذ الفجر حتى آخر الليل، يلاحقها دائماً حفيف ملابسها الخشنة المنشاة. وكان يعود إليها الفضل في الحفاظ على نظافة أرض الدار غير المبلّطة، والجدران غير المطليّة، والأثاث الخشبيّ الصديء الذي صنعوه بأيديهم، وفي جعل الصناديق العتيقة التي كانوا يحفظون فيها ملابسهم تعبق دائماً برائحة الحبق(١) الدافئة.

وكان خوزيه أركاديو بوينديا رجلاً بعيد الهمة، لم تشهد له القرية مثيلاً. فقد أقام بيوت القرية بشكل يمكّن السكان جميعاً من بلوغ الجدول وجلب الماء منه، دون أن يبذل أحدهم جهداً يزيد على جهد الآخر. وخطّط الطرق بطريقة واعية، تتساوى فيها البيوت في التعرّض لنور الشمس خلال الوقت الحار من النهار. وخلال بضع سنوات، صارت ماكوندو أفضل القرى المعروفة نظاماً وعملاً، بسكانها الثلاثمئة. لقد كانت، حقاً، قرية سعيدة، لم يتجاوز أحد فيها الثلاثين من عمره، ولم يمت فيها أحد.

ومنذ إنشاء القرية، كان خوزيه أركاديو بوينديا قد بنى شراكاً وأقفاصاً. ولم يمض وقت طويل حتى ملأ بيته وبيوت القرية كلها بطيور التروبيال والكناري والوروار وأبي الحنّاء. وقد شكلت أصوات الطيور الكثيرة المختلفة جوقة، غدت مع الوقت مزعجة، حتى إن أورسولا كانت

---

(١) نوع من الريحان، كما يسميه بعض الناس في بعض البلدان العربية.

تسدّ أذنيها بشمع النحل كي لا تفقد إحساسها بالواقع، ولما وصلت قبيلة ملكيادس، أول مرة، تبيع كرات زجاجية ضد الصداع، تعجب الناس كيف اهتدوا إلى القرية الضائعة في سبات المستنقعات. وقد أفاد الغجر أنهم اهتدوا إلى طريقها بزقزقة العصافير.

ولكن روح المبادرة الاجتماعية تلك تلاشت بعد زمن قصير، جنت عليها حمّى المغناطيس، والحسابات الفلكية، وأحلام تحويل المعادن الرخيصة إلى حجارة كريمة، والدوافع إلى اكتشاف عجائب الدنيا. وتغيرت أحوال خوزيه أركاديو بوينديا، فصار كسول الهيئة مهمل الثياب، أشعث اللحية، لا تقوى أورسولا على تشذيبها إلا بجهد ومشقة وبسكين المطبخ. واعتقد الكثيرون بأنه كان ضحية رقية غريبة. ولكن أكثر الناس اقتناعاً بجنونه تركوا أعمالهم وعائلاتهم وتبعوه عندما جلب عدته لتنظيف الأرض، وطلب إلى المجتمعين أن يفسحوا الطريق لجعل ماكوندو على اتصال بالمخترعات والمكتشفات العظيمة.

كان خوزيه أركاديو بوينديا جاهلاً تماماً بجغرافية المنطقة. كان يعرف فقط أنه تقع إلى الشرق سلسلة جبال لا يمكن تسلقها، وتقع خلفها مدينة ريوهاشا القديمة، التي كان السير فرانسيس دريك، منذ زمن سحيق - كما روى له جده أوريليانو بوينديا الأول - يصطاد فيها التماسيح بالمدافع، ثم يحشوها قشاً ويحملها إلى الملكة إليزابيث. وقد عبر خوزيه أركاديو بوينديا تلك الجبال، في شبابه بصحبة رجاله، ومعهم نساؤهم وأولادهم وأدواتهم وأشياؤهم الأخرى، بحثاً عن منفذ على البحر ولكنهم توقفوا عن حملتهم تلك بعد ستة وعشرين شهراً، ثم أسسوا قرية ماكوندو لكي لا يعودوا من حيث أتوا. وما كانت تلك الطريق لتعنيه من بعد، ما دامت تجلب له ذكريات الماضي. أما إلى الجنوب فتمتد منطقة موحلة واسعة تغطيها نباتات عصية، وتليها منطقة المستنقع الكبير المترامية الأطراف،

طبقاً لما كان يرويه الغجر. وكانت هذه المناطق المستنقعية الهائلة الاتساع، في الغرب، سبخات مائية لا تعرف نهاياتها، وتعيش فيها حوتيات شفافة لها رؤوس النساء وجذوعها، تقضي على الملاحين بما تشدههم به من سحر أثدائها وصدورها الغريبة. وكان الغجر يقضون ستة أشهر لعبور هذه المناطق قبل وصولهم إلى اليابسة حيث تمرّ بغال البريد. كانت الطريق إلى الشمال إذن، طبقاً لحسابات خوزيه أركاديو بوينديا، هي الوحيدة التي يمكن أن توصل إلى الحضارة. فأعطى رفاقه القدامى، في بناء ماكوندو، أدوات شق الأرض وأسلحة الصيد. ووضع في حقيبته أدوات التوجيه البحري والخرائط، واستعدّ لبدء المغامرة الطائشة.

مضت الأيام الأولى دون عقبات تذكر، فقد حاذوا الشاطىء الصخريّ للنهر حتى بلغوا المكان الذي وجدوا فيه، قبل سنين، الدرع الحربية، ثم تابعوا سيرهم في الغابات بين أشجار البرتقال البري. في نهاية الأسبوع الأول صادوا غزالاً وشووه، واكتفوا بأن أكلوا نصفه، وملّحوا النصف الآخر واحتفظوا به للأيام القادمة، علهم يؤخرونه للوقت الذي فيه طيور المقو(١) ذات اللحم الأزرق الخشن مسكيّ الطعم والرائحة. ثم مضت عشرة أيام لم يروا فيها الشمس، وغدت الأرض رخوة رطبة كأنها مكسوّة برماد بركانيّ، وتصدّت لهم النباتات الكثيفة بشراكها المتشابكة، وغابت عنهم أصوات الطيور والسعادين. واشتدت وطأة ذلك عليهم، فأصابتهم الكآبة، وازدحمت في خواطرهم الذكريات في تلك الجنة الرطبة الصامتة، وكأنها أسبق من الخطيئة الأبدية، بينما كانت أحذيتهم تغوص في المستنقعات الزيتية وبخاراتها، وتعمل جوانبها الحادة قطعاً في الزنابق الدامية وحيوانات السّمندل(٢). كانوا يسيرون

---

(١) ببغاء أميركي ضخم طويل الذيل.
(٢) السمندل أو السمندر حيوان من الضفدعيات.

صامتين، لا يتبادلون الكلام إلاّ نادراً، فكأنما هم نائمون أو منوّمون، في عالم قفر لا ضوء فيه إلاّ ما يصدر من لمعات خفيفة تصدر عن حشرات فوسفورية، وكانت رئاتهم تضيق برائحة دم خانقة. ولم يكن ثمة مجال للرجوع، فالطريق التي كانوا يشقونها بصعوبة، سرعان ما تنسدّ خلفهم بنبات شائك كأنه نبت جديد ينمو وهم يحدقون إليه. أما خوزيه أركاديو بوينديا فكان يردّد قائلاً: «لا بأس. فالمهم ألاّ نفقد الاتجاه». وتابع قيادة رجاله، معتمداً دائماً على بوصلته، متجهاً إلى الشمال دون معالم هادية، حتى نجحوا أخيراً في الخروج من تلك الأرض المسحورة. وحلت عليهم ليلة ثقيلة دامسة الظلام، غابت نجومها، ولم يخفف من وحشتها سوى نسمات من الهواء المنعش. وأضناهم السفر الطويل الشاق، فعلقوا أراجيحهم وناموا ملء جفونهم للمرة الأولى منذ أسبوعين. حتى إذا استيقظوا كانت الشمس في رأد الضحى. فأصابهم الذهول لما شاهدوا. فعلى مرأى منهم، ومن بين نبات السرخس وأشجار النخيل، وعلى ضوء النهار الساكن، شاهدوا سفينة إسبانية كبيرة بيضاء قد علاها الغبار، وقد جنحت على ميمنتها قليلاً، ومالت صواريها السليمة، فتدلّت منها مزق الأشرعة الملطخة فلامست الآلات الأخرى التي بدت بينها نباتات الأوركيديا(١). كانت الطحالب تكاد تغطي هيكل السفينة، وقد تبعثرت بينها بقايا حيوانات بحرية قشرية، وقد غاص جانب السفينة بين حجارة الشاطىء. كان كل ذلك في عالم قفر منقطع منسيّ بعيد عن عاديات الزمان والطير. وطاف رجال الحملة في داخل السفينة برغبة وحذر، فما عثروا على شيء سوى غابة كثيفة من الزهور.

وقد أثّر اكتشاف السفينة الشراعية على دوافع خوزيه أركاديو بوينديا، بما دلّ عليه من قرب البحر. فكأنما قدره يسخر منه، فيبحث عن البحر عبثاً، مع كل ما يقدمه من تضحيات وما يلاقيه من عذاب، وفجأة،

---

(١) نبتة من الفصيلة السحلبية.

هكذا، يجد البحر مصادفة في طريقه، وكأنما هو شيء لا يقهر.

كانت قد مضت على هذه الحادثة سنون طويلة، حين مرّ الكولونيل أوريليانو في تلك الطريق، وقد أصبحت الطريق التي يسير عليها البريد بانتظام، فلم يجد من السفينة سوى هيكلها الخارجي المحروق وسط حقل من نبات الخشخاش(١). وعندها اقتنع أن القصة لم تكن مجرّد خيال من أبيه، وتساءل كيف استطاعت تلك السفينة الوصول إلى تلك البقعة من الأرض. وهو سؤال لم يحيّر خوزيه أركاديو بوينديا، في حينه، عندما وصل إلى البحر بعد مسيرة أربعة أيام، على بعد اثني عشر كيلومتراً من السفينة الجانحة. فقد توقفت أحلامه عند البحر المزبد، بلونه الرمادي العكر، والذي لم يستأهل كل تلك الأخطار والتضحيات التي تكبدها القوم في المغامرة.

لقد صاح خوزيه عندما رأى البحر: «بئس الأمر. ماكوندو محاطة بالماء من كل الجهات».

وسادت، حتى زمن طويل بعد ذلك، فكرة كون ماكوندو واقعة في شبه جزيرة، حسب الخارطة الأولية التي رسمها خوزيه أركاديو بوينديا لدى عودته من حملته. فقد رسمها وهو مغتاظ، وغالى، عن سوء نية، في إظهار مصاعب الاتصال، وكأنما هو يعاقب نفسه لاختياره موقع القرية دون تبصّر. وكثيراً ما كان يندب حظه لأورسولا، قائلاً: «لن نغادر هذا المكان أبداً. ولسوف نفنى هنا قبل أن تصلنا خيرات العلوم». وسيطر عليه هذا الاعتقاد شهوراً بحالها، وهو معتكف في مكتبه الذي اتخذه مخبراً، حتى توصل إلى فكرة نقل ماكوندو إلى موقع أفضل. ولكن أورسولا التي توقعت ما سيخرج به، كانت قد أعدّت خطة، وإن بدت

---

(١) نبات مخدّر.

ضعيفة، فأخذت تنفذ خطتها بسرية النملة الصغيرة وإصرارها. فأثارت نساء القرية على أهواء أزواجهن حين بدأوا الاستعداد للرحيل. ولم يعرف خوزيه أركاديو بويندبا قط متى ولا كيف، ولا سر القوة المضادة التي أفسدت عليه خطته، فبدأت تواجهه الأعذار المصطنعة الواهية حيناً، والظروف غير المنتظرة حيناً آخر، والتملص من الوعود حيناً ثالثاً. وهكذا ذوت الخطة، ورآها تتحول إلى ما يشبه الوهم. وذات صباح، أخذت أورسولا ترقب زوجها ببراءة وشيء من الشفقة والرثاء، بينما كان يجترّ أحلام الرحيل ويضع أدواته المخبرية في صناديق. راقبته حتى انتهى من ترتيب أدواته، وسمّر الصناديق، وكتب حروف اسمه الأولى عليها بريشة محبّرة، دون أن تنبس ببنت شفة، مع أنها كانت تعرف أنه على علم بأن أهل القرية لن يشاركوه في رحيله. فقد سمعته يحدث نفسه بذلك بصوت خفيض. حتى رأته ينزع باب المكتب من مكانه، فجازفت بسؤاله عن سبب ما يفعله. فأجاب بمرارة وحزن: «سوف نرحل وحدنا، إذا لم يكن أحد يريد الرحيل معنا. ولم تتراجع أورسولا ولم تتأثر، فقالت له: «لا. لن نذهب، بل سوف نبقى هنا، لأننا أنجبنا هنا واحداً من أولادنا».

قال: «ولكن لم يمت لنا أحد هنا. ولا ينتسب الإنسان إلى أرض لا موتى له تحت ترابها»..

فأجابته بشيء من الحزم: «إذا كان لا بدّ من ذلك فسوف أموت أنا هنا». ولم يكن خوزيه أركاديو بويندبا يظن، لحظة واحدة، أنّ إرادة زوجته قوية لا تقهر. فحاول أن يزيّن لها الأمر، فكشف لها عن كنوز خياله الموعودة، فوعدها بعالم جديد عجيب، يكفي أن تصب فيه السوائل السحرية على الأرض حتى تغدق الأشجار والنباتات ثمارها، وحيث تباع بأسعار زهيدة الآلات التي تخفف آلام المزارعين. ولم ترضخ أورسولا لأفكاره وآرائه المغرية، فأجابته قائلة:

«بدلاً من التفكير بمخترعاتك الوهمية، ينبغي لك أن تعتني بولديك. أنظر إلى حالتهما يجريان في الحقول كالحمير البريّة».

وفكر خوزيه أركاديو بوينديا ملياً في ما قالته زوجته، ونظر من النافذة ليرى ابنيه حافيين في البستان الذي تلفحه الشمس بحرارتها. وبدا له، للوهلة الأولى، أنهما إنما خلقا في تلك اللحظة، بفضل إدراك أورسولا ودعائها. شيء ما حدث في داخله. شيء غامض وحاسم اقتلعه من وجوده الحاضر وفصله عن أرجاء مجهولة في ذاكرته. وبينما راحت أورسولا تكنس بيتها متيقنة من أنها لن تغادره أبداً ما دامت حية، كان زوجها غارقاً في تأمل ولديه، ثابت النظر عليهما، حتى اغرورقت عيناه بالدموع، فمسحها بقفا يده، ونفث تنهيدة رضا عميقة، ثم قال:

«حسناً، قولي لهما أن يأتيا لمساعدتي في إفراغ الصناديق». كان خوزيه أركاديو، ابنه البكر، قد بلغ الرابعة عشرة من عمره. كان ذا رأس مربع، وشعر كثيف، وله مثل خلق أبيه. وعلى الرغم من أن وتيرة نموّه، وقوته البدنية، تشبهان ما كان لأبيه، فقد بدا مبكراً أنه كان ضعيف الخيال. فقد حملته أمه وأرضعته في فترة صعبة، هي فترة عبور الجبال قبل تأسيس ماكوندو. وقد شكر أبواه الله عندما لم يجدا فيه، لدى ولادته، أية ملامح حيوانية.

أما الولد الثاني، أوريليانو، الذي كان أول مولود إنساني في ماكوندو، فسيبلغ السادسة من عمره في شهر آذار (مارس). وكان صامتاً ومنكفئاً على ذاته. لقد بكى وهو بعد في رحم أمه، وولد مفتوح العينين، وكان يحرك رأسه ذات اليمين وذات اليسار، وهم يقطعون له حبل الخلاص. فكان كأنما هو يتفقد أشياء الغرفة ويتعرف على وجوه الحاضرين بشيء من الفضول دون أن يبدو عليه أنه يستغربها. ثم ركّز اهتمامه، وكأنه غير معنيّ بمن كانوا يقتربون منه ليتفحصوه، على سطح

أغصان النخيل الآبل للسقوط تحت ضغط المطر الهائل. ولم تتمكن أورسولا من تذكر شدة تلك النظرة طوال فترة طويلة من الزمن، إلى أن جاء يوم دخل فيه عليها، وهي على وشك رفع قدر الشورباء الغالية عن النار لوضعها على الطاولة. عندها قال الصغير وهو يتردد على عتبة الباب : «سوف تسقط».

كانت القدر ثابتة في وسط الطاولة. لكنها، ما إن نطق الصغير بنبوءته، حتى تحركت القدر بثبات في اتجاه حافة الطاولة، كأنما هي مدفوعة بقوة خفية، ثم انقلبت وتدحرجت وتكسرت على الأرض. واضطربت أورسولا، وروت ما حدث لزوجها، ولكنه أولها بأن ذلك أمر طبيعي. وهكذا كان دائما غريبا عن وجود ولديه، أولا، لأنه كان يرى في الطفولة مرحلة ضعف عقلي، وثانياً، لأنه، كان غارقاً في تأملاته الخيالية.

ولكن، منذ أصيل ذلك اليوم، عندما دعا ولديه لمساعدته في إعادة أدواته المخبرية من الصناديق إلى أماكنها في المخبر، بدأ خوزيه يكرس لهما أفضل وقته. كان يعلّمهما القراءة والكتابة والحساب في مكتبه الصغير، الذي بدأت جدرانه تكتسي تدريجاً بالخرائط الغريبة والرسوم البيانية الخرافية. ثم أخذ يحدثهما عن عجائب العالم، فلا يكتفي بما يعرفه، بل يجمح بخياله إلى أقصى حدود الوهم. وهكذا تعلم الطفلان أنّ في أقصى طرف افريقيا الجنوبي بشراً بلغوا من الذكاء والصفاء أنهم يقضون أوقاتهم في التأمل وحسب. وتعلما أن بوسع الإنسان أن يقطع بحر إيجة سيراً على القدمين، وذلك بالقفز من جزيرة إلى أخرى حتى يبلغ مرفأ سالونيك. وقد ظلت هذه الحكايات الخرافية المثيرة محفورة في ذاكرة الطفلين، إلى الدرجة التي جعلتها تعود، بعد سنوات كثيرة، إلى ذاكرة أورليانو في اللحظة التي سبقت إصدار الأمر إلى فريق الإعدام بإطلاق

النار. ففي تلك اللحظة، استعاد ضابط القطعات النظامية - الكولونيل أوريليانو بوينديا - ذكرى عصر ذلك اليوم الرائع من آذار، عندما قطع أبوه درس الفيزياء، ووقف مشدوهاً، ويده مرفوعة في الهواء، وعيناه جامدتان، يصغي لصوت قادم من بعيد لأبواق وطبول وصنوج غجرية. فقد كان الغجر قادمين، مرة أخرى، إلى القرية لكي يعلنوا أحدث الاكتشافات وأكثرها غرابة لدى حكماء ممفيس.

كانوا غجراً جدداً هذه المرة، فتياناً وفتيات لا يتكلمون غير لغتهم الخاصة. كانوا نماذج بشرية لطيفة ظريفة، بشراتهم زيتية اللون، وأيديهم رشيقة حالمة. نشرت موسيقاهم، وما رافقها من رقص في الطرقات، هياجاً ومرحاً وطرباً مجنوناً. فالببغاوات الملونة تردد الأغاني الإيطالية، والدجاجة التي تبيض مئة بيضة على صوت الطبلة، والقرد المدرّب يقرأ أفكار الناس، والآلة متعددة الأغراض التي يمكن أن تخيط الأزرار، وتخفف الحمّى، والجهاز الذي ينسي المرء ذكرياته السيئة، ودواء قضاء الوقت دون عمل، وألف اختراع آخر عبقري وغريب، حتى إن خوزيه أركاديو بوينديا كان يود لو كان بوسعه أن يخترع آلة للذاكرة لكي يتذكر تلك الأشياء جميعاً. ووجد أهل ماكوندو أنفسهم ضائعين في طرقات قريتهم، وقد أذهلهم ذلك المعرض الحاشد.

كان خوزيه أركاديو بوينديا يسير ممسكاً بيدي ولديه، كي لا يضيعا في تلك الزحمة، ويصادف في طريقه مهرجين أسنانهم مغلفة بالذهب، ومشعوذين للواحد منهم ست أذرع، ويكاد يختنق من رائحة الروث الممتزجة برائحة الصندل والفائحة من ذلك الحشد. كان يمشي كالمعتوه، باحثاً في كل مكان عن ملكيادس، عله يشرح له أسرار الكابوس الغريب. سأل عنه الكثيرين من الغجر الجدد، ولكنهم لم يفقهوا لغته. ثم توجه إلى المكان الذي اعتاد ملكيادس أن ينصب فيه خيمته. وهناك

وقع بصره على رجل أرمني قليل الكلام، يتحدث بالإسبانية عن إكسير سائل يحوّل المرء إلى إنسان غير مرئيّ. وقد أدار في حلقه، جرعة واحدة، كأساً كاملة من تلك المادة العنبرية، عندما استطاع خوزيه أركاديو بوينديا أن يشق طريقه بعنف عبر الجماعات المحتشدة لحضور المشهد، فاغرة أفواهها. واستطاع خوزيه أن يطرح سؤاله. وتفحصه الغجريّ بنظرة باهتة، في ما هو فيه من مظهر مخيف، قبل أن يحول بصره إلى بركة صغيرة من الزفت ينبعث منها دخان كريه الرائحة، ليطفو من فوقها صدى جوابه :

«مات ملكيادس».

وصعق خوزيه أركاديو بوينديا بالنبأ. وحاول أن يتغلب على الحزن الذي جلبته له هذه الصفعة الرهيبة، بينما تفرّق الناس يبحثون عن ألاعيب جديدة، وتبخرت بركة الأرمنيّ الصامت فلم يبق منها شيء، وظل خوزيه ذاهلاً في مكانه. ثم أكد له غجر آخرون أن ملكيادس قد مات بالحمّى في مستنقعات سنغافورة، وأنهم ألقوا بجثته في أعمق مكان من بحر جاوا. أما ولداه فما كانا ليأبها بذلك الخبر. فقد كانا ينتظران أن يأخذهما أبوهما كي يشهدا اختراع حكماء ممفيس العجيب، الذي كان الغجر يعلنون عنه عند باب خيمة ادعوا أنها كانت للملك سليمان. وقد ألحّا في الطلب حتى رضخ خوزيه أركاديو بوينديا، ودفع ثلاثين ريالاً، وأدخلهما حتى وسط الخيمة، حيث كان ينتصب عملاق كثيف شعر الجذع، حليق الرأس، علق في أنفه حلقه من نحاس، ووضعت في قدميه سلسلة ثقيلة من الحديد، يقوم على حراسة صندوق قرصان. رفع العملاق غطاء الصندوق، فانبعثت منه هبّة هواء جليدي، وما كان فيه سوى كتلة هائلة شفافة تحوي عدداً لا حصر له من الإبر، تفجرت عليها أضواء المساء على هيئة نجوم مختلفة الألوان. وما كان خوزيه أركاديو بوينديا ليجهل، في حيرته، أن ابنيه كانا ينتظران منه شرحاً سريعاً لما

يشاهدان. فجازف بأن تمتم لهما قائلاً :

«هذه أكبر ماسة في الدنيا».

وصاح الغجريّ مصححاً : «لا. إنها جليد».

ودون أن يدري خوزيه أركاديو بوينديا، مدّ يده إلى الكتلة. ولكن العملاق دفع يده قائلاً : «خمسة ريالات من أجل لمسها». فدفع خوزيه أركاديو بوينديا المبلغ، ووضع يده على الجليد بضع دقائق، وقد شعر بفرح ممزوج بالخوف لمجرد ملامسته للسر. ثم دفع، دون أن يدري ما يقوله، عشرة ريالات أخرى ليمكّن ولديه من تلك الخبرة العظيمة. ورفض خوزيه أركاديو الصغير أن يلمسها. أما أوريليانو فتقدم ووضع يده عليها، ثم سحبها قائلاً : «إنها تغلي». ولم يأبه أبوه لقوله، فقد غمرته الغبطة أمام هذه المعجزة العجيبة الحقيقية، حتى استسلم برهة، فنسي خيبة أمله في مغامراته اليائسة، ونسي جثة ملكيادس التي تركت طعاماً لحيوانات البحار. ثم دفع خمسة ريالات أخرى، وصاح وهو يضع يده على تلك الكتلة الكعكة، كمن يشهد مقسماً على الكتاب المقدّس : «إنه أعظم اختراع في زماننا».

(٢)

لمّا هاجم القرصان فرانسيس دريك ريوهاشا في القرن السادس عشر، أرعبت أصوات أجراس الإنذار وطلقات المدافع جدة أورسولا إيجواران، حتى فقدت صوابها، فجلست على فرن مشتعل. فأحالتها الحروق إلى زوجة لا نفع لها طوال باقي عمرها. فما كانت تستطيع القعود إلاّ منحرفة إلى أحد جانبيها، راكزة نفسها بالوسائد والحشايا. وقد أثر ذلك، كما يبدو، على مشيتها فجعلها غريبة غير طبيعية، فلم يرها أحد، من بعد، تسير بين الناس في محفل عام. تخلّت عن العادات والعلاقات الاجتماعية، وسيطرت عليها فكرة أنّ لجسدها رائحة كريهة. كانت تقضي الليل بطوله دون نوم خشية أن ترى الإنجليز في منامها، بل أن يدخلوا عليها من النافذة، بكلابهم المتوحشة، فتتعرض للعذاب على أيديهم بالحديد المحمى بالنار. وقد بذل زوجها التاجر الأراغوني، الذي ولدت منه طفلين، كل جهد ممكن في سبيل البحث عما يهدّىء روعها، فأنفق نصف رأسمال مخزنه ثمناً لأدويتها وسلواها. وانتهى به الأمر، أخيراً، إلى أن صفّى أملاكه، ورحل بعائلته ليعيش بعيداً عن البحر في قرية هادئة آمنة للهنود عند سفوح الجبال. وهناك بنى لزوجته غرفة نوم بلا نوافذ كي لا يصل إليها قرصان كوابيسها.

في تلك القرية النائية، كان يعيش، منذ عهد قديم، زارع دخان من أبناء البلاد الأصليين، يدعى دون خوزيه أركاديو بوينديا. اتفق معه جدّ جدّ أورسولا على القيام بمشروع ازدهر بعد سنين قليلة ووفّر لهما ثروة

كبيرة. وبعد قرون من ذلك التاريخ، تزوج حفيد حفيد ذلك المواطن المزارع حفيدة حفيد التاجر الأراغوني. ولذلك، كانت أورسولا، عندما تضيق بنزوات زوجها، ترجع ثلاثة قرون إلى الوراء، وتستعيد الأحداث التي لم تكن متوقعة، وتلعن الساعة التي هاجم فيها فرانسيس دريك ريوهاشا. ولم يكن ذلك سوى نوع من السلوى ومواساة الذات، لأن ارتباطها بزوجها كان أقوى من الحب، ارتباطاً حتى الموت. فقد كانت وإياه ابني عم، نشأ في القرية التي جعلها أسلافهما، بتعبهما وشقائهما وطريقة عيشهما، من أحسن القرى في المنطقة. يومذاك، وعلى الرغم من أن كل شيء كان ينبىء منذ ولادتهما بأنهما سيكونان زوجين، فقد حاول ذووهما، عندما أعلنا رغبتهما في الزواج، أن يصرفاهما عنه. . فقد كانوا يخشون أن يعاني هذا الفرعان السليمان من سلالتين، تزواجتا منذ القدم، عار ولادة تمساح منهما. وهناك سابقة لذلك رهيبة. فقد وضعت عمة لأورسولا تزوجت عماً لخوزيه أركاديو بوينديا ولداً أضطر أن يرتدي، طوال حياته، بنطالاً فضفاضاً، ثم مات بعد أن نزف كل دمه وهو في الثانية والأربعين من عمره دون زواج، لأنه ولد وشبّ وله ذنب غضروفيّ لولبيّ في طرفه خصلة شعر، فلم يجرؤ قط على أن تراه امرأة، ثم انتهى بأن كلفه ذلك حياته كلها عندما تطوّع، ذات يوم، لحّام صديق له، فقطعه له بضربة سكين.

ولكن خوزيه أركاديو بوينديا، باستهتار ابن التاسعة عشرة من العمر، حلّ المشكلة بعبارته البسيطة: «لا يهمني أن يكون لي أبناء خنازير ما داموا يتكلمون». وهكذا تزوجا، ودام الفرح ثلاثة أيام، بلياليها، حافلة بالموسيقى والغناء والألعاب النارية. وكان يمكن لهما أن يظلا سعيدين في حياتهما، لو أن أم أورسولا لم ترعبها بما روته لها من نبوءات سوداء عن سلالتها، حتى وصل الأمر بها إلى نصحها بعدم إتمام الزواج، أي

بمنع زوجها من الدخول عليها. وخوفاً من أن ينتهز زوجها القوي الحازم نومها، فيفض بكارتها، ألبستها بنطالاً سميكاً قصته لها من قماش الأشرعة، وقوّته بأشرطة متصالبة، وأغلقته من الأمام بحلقة من حديد. وهكذا عاش خوزيه وأورسولا شهوراً على هذه الحال. فكان هو يرعى في النهار ديكة القتال، وكانت هي تمضي نهارها بالحياكة على النول مع أمها، حتى إذا حلّ الليل نشبت بينهما معركة شديدة دامت عدة ساعات. ولكن هذا النمط من الحياة والعراك حلّ بينهما، على ما يبدو، محل علائق الحب. ثم أدرك الناس أن شيئاً غير طبيعي يسود حياتهما. وبعد سنة من الزواج، انتشر بين الناس خبر أن أورسولا ما زالت عذراء لأن زوجها عنين. ثم تناهى الخبر إلى خوزيه أركاديو بويندیا نفسه.

فقال لزوجته : «أسمعت ماذا يروي الناس يا أورسولا؟» فأجابت : «دعهم وما يقولون. فنحن نعرف أن ذلك غير صحيح». واستمرت الحال على ما كانت عليه ستة أشهر أخرى، حتى جاء ذلك اليوم المأساوي. كان يوم أحد، وقد فاز خوزيه أركاديو بويندیا في معركة الديوك ضد برودينسيو أجويلار. وغضب ذلك الخاسر حتى خرج عن طوره، ولا سيما عندما رأى ديكه دامياً. فأدار ظهره لخوزيه أركاديو بويندیا، كي يمكن الناس المجتمعين من سماع ما يقوله له.

وصاح : «مبارك عليك. أرجو لهذا الديك أن يقوم بواجبات زوجتك».

فحمل خوزيه أركاديو بويندیا ديكه هادئاً، وخاطب الناس قائلاً : «سأعود حالاً». ثم وجه كلامه إلى برودينسيو إجويلار قائلاً : «أما أنت فأسرع إلى بيتك، وأحضر سلاحاً لك، لأنني سأقتلك».

وبعد عشر دقائق، عاد يحمل رمح جدّه المثلم. وكان برودينسيو إجويلار ينتظره عند باب ساحة قتال الديوك، وقد اجتمع نصف أهل

القرية. ولم تتح فرصة كبيرة لبروديـنسيو للدفاع عن نفسه، فقد انطلق إليه رمح خوزيه أركاديو بوينديا بقوة ثور، وبالمهارة التي كانت تمكن أوريليانو بوينديا الأول من قتل نمور المنطقة كلها، فنفذ الرمح من عنقه.

وفي ذلك المساء، وبينما كان الآخرون يقضون الليل حول جثة القتيل، ظهر خوزيه أركاديو بوينديا فجأة في غرفة نومه، بينما كانت زوجته تهم بارتداء بنطال الطهارة. فسدّد الرمح إليها، ونهرها قائلاً : «انزعي هذا». ولم تشك أورسولا لحظة في حزم زوجها آنذاك. فتمتمت قائلة : «أنت المسؤول عمّا سوف يحدث».

ركز خوزيه أركاديو بوينديا رمحه في أرض الغرفة الطينية، وأجاب : «إذا أطفلْتِ تماسيح فسوف نربي التماسيح . ولكن لن يموت أحد آخر في القرية بسببك» .

كانت ليلة جميلة من ليالي حزيران، هواؤها عليل منعش، وقمرها ساطع منير، فبقيا في سريرهما حتى الفجر لاهيين غير عابئين بالهواء الذي كان يدخل غرفة النوم، حاملاً إليهما نحيب عائلة برودينسيو إجويلار.

وانتهت القضية عند هذا الحد، فقد اعتبرت الحادثة مبارزة شرف. ولكنها خلّفت نوعاً من وخز الضمير لدى الزوجين. فقد خرجت أورسولا في تلك الليلة ، إلى صحن الدار كي تشرب ماء ، فرأت شبح برودينسيو إجويلار قرب الجرة الكبيرة. كان ممتقع اللون، يغمر وجهه الأسى والحزن، وهو يحاول أن يسدّ الثقب في عنقه بضماد من الحلفاء. ولم تخف أورسولا، ولكنها أشفقت عليه. ورجعت إلى غرفتها فروت لزوجها ما رأت، فلم يعلّق، ولم يكترث بذلك، بل قال في نفسه : «هذا يعني أننا لا نقوى على احتمال أوزار ضمائرنا». وبعد ليلتين رأت أرسولا برودنيسيو إجويلار، ثانية، في الحمّام، يمسح بضماد الحلفاء الدم المتخثر

على عنقـه. ثـم رآه في ليلة أخـرى يتنزه تحت المطر. وانزعـج خـوزيه أركاديو بوينديا من رؤى زوجته. فحمل رمحه وخرج إلى صحن الدار. فوجد الرجل الميت أمامه وعلى وجهه تعابير الحزن. فصاح به خوزيه أركاديو بوينديا : «إلى الجحيم، وفي كل مرة تعود سأقتلك من جديد».

ولم يبتعد برودينسيو إجويلار، ولم يجرؤ خوزيه أركاديو بوينديا على قذفه بالرمح. ومنذ تلك الليلة لم يعد يعرف الراحة. سيطر عليه حزن الميت العظيم، وهو يرمقـه تحت المطر، ويعـذبه حنينه العـميق لعـالم الأحياء، وقلقه وحيرته وهو يبحث في الدار عن قليل من الماء يبلل به ضماد الحلفاء. وكان يقول لأورسولا : «هل ترين، إنه يتألم كثيراً. إنه يعاني الوحدة». وحزنت أورسولا لذلك، حتى إنها عندما رأت الميت، في المرة التالية، يرفع أغطية القدور الموضوعة على الموقد، أدركت مراده، وجعلت، منذ ذلك اليوم، تضع له بعض الأواني ملأى بالماء في أنحاء الدار. وقـد رآه خوزيه أركاديو بوينديا، ذات ليلة، يغسل جراحـه في غرفته الخاصة، فما استطاع الاحتمال بعد ذلك. . .

قال في نفسه : «حسناً، يا برودينسيو، سوف نرحل عن هذه القرية إلى أبعد ما نستطيع. ولن نعود إليها بعد اليوم. فالآن، تستطيع أن ترحل عنّا مطمئناً».

وهكذا كان عزمهم على عبور الجبال(١). فقد بدأ عدد من أصدقاء خوزيه أركـاديو بوينديا، ممن كـانوا في مثل عـمره من الشبـاب، بحزم أمتعتهم. ثم اصطحبوا نساءهم وأولادهم، متجهين إلى تلك الأرض التي لم يسبق أن وعدهم أحد بها. وقبل الرحيل، دفن خوزيه أركاديو بوينديا رمحـه في أرض الدار، وقام بذبح ديكته المقاتلة الجميلة، واحـداً بعد الآخر، مؤمناً بأنه، بهـذه الطريقـة يمكن أن يدخل الطمـأنينة إلى نفس

---

(١) جبال السييرا.

بروديِنسو إجويلار. ولم تحمل أورسولا معها عدا صندوق ثياب عرسها وبعض أدوات المطبخ، والصندوق الصغير الذي كان يحوي القطع الذهبية التي ورثتها عن أبيها. لم يضعوا للرحلة خطة، ولم يحددوا اتجاهاً دقيقاً، بل ساروا في اتجاه معاكس لطريق ريوهاشا، كي لا يتركوا خلفهم أثراً، ولا يلتقوا بأحد يعرفونه.

كانت رحلة غريبة. وبعد أربعة عشر شهراً من السفر، أنهكت خلالها معدة أورسولا من أكل لحم السعادين وشوربا الأفاعي والسلاحف، وضعت طفلاً كانت كل ملامحه وأجزاء جسده بشرية، فقضت نصف الطريق محمولة على أرجوحة يرفعها رجلان على كتفيهما، لأن ساقيها تورّمتا، وتفجّرت دواليهما كفقاعات الماء. وقد اجتاز الأطفال محن الرحلة ومخاطرها خيراً من والديهم. فعلى الرغم من أن بطونهم المتنفخة وعيونهم الشبيهة بعيون الموتى كانت تثير الشفقة والحزن، فقد كانت المغامرة عندهم، في غالب الوقت، ضرباً من اللهو.

وبعد نحو سنتين من السفر، وذات صباح، اكتشفوا المنحدرات الغربية من سلسلة الجبال. فكانوا أول من يراها بين البشر. ومن على قمة الجبل المختبئة بين الغيوم، أخذوا يتأملون رقعة ماء المستنقع الكبير التي كانت تمتد حتى طرف العالم الآخر.

ولكنهم لم يصادفوا البحر. وذات ليلة، وبعد أن هاموا على وجوههم شهوراً في منطقة موحلة، على بعد سحيق عن آخر من التقوا بهم من الهنود، سكان البلاد الأصليين، أقاموا خيامهم على ضفة نهر كثير الحصى في مجراه، يشبه ماؤه سيلاً من زجاج متجلّد.

وبعد سنين من ذلك التاريخ، وخلال الحرب الأهلية الثانية، حاول الكولونيل أوريليانو بوينديا أن يسلك تلك الطريق لكي يداهم ريوهاشا على حين غرة. ولكنه أدرك، بعد مسيرة ستة أيام أن خطته كانت أشبه

بالجنون.

أما في تلك الليلة، عندما أقام أبوه ورهطه خيامهم على ضفة النهر، فقد كان يبدو عليهم كأنهم قوم نجوا، بعد لأي، بعد أن تحطمت سفينتهم، ولم يبق أمامهم سبيل للنجاة. ولكن عددهم كان قد ازداد خلال رحلة العبور، وكانوا جميعاً متهيئين لئلا يموتوا إلا شيوخاً. وذلك ما كان فعلاً. لقد رأى خوزيه أركاديو بوينديا في ما يرى النائم، في تلك الليلة، أنه ستقوم في ذلك المكان مدينة عظيمة، جدران بيوتها مرايا. وسأل: ما تكون تلك المدينة، فأجيب باسم لم يسمع به من قبل، اسم ليس له معنى، لكنه كان ذا وقع جميل خارق للطبيعة في حلمه: ماكوندو. وفي اليوم التالي، أقنع رفاقه بأنهم لن يصلوا إلى البحر أبداً. وأمرهم بأن يقطعوا الشجر، كي يفسحوا في الغابة قريباً من مجرى النهر، وفي أكثر الأماكن برودة على ضفته. وهناك أسسوا القرية: ماكوندو.

ولم يتوصل خوزيه أركاديو بوينديا إلى تفسير لحلمه عن بيوت جدرانها مرايا، حتى اليوم الذي اكتشف فيه الجليد. وعندها ظنّ أنه أدرك معناها العميق. ظنّ أن المستقبل القريب سيشهد صناعة كتل من الجليد على مدى واسع، من الماء المتوافر، لتنشأ منها البيوت الجديدة في القرية. وبذلك تتبدل قرية ماكوندو من قرية حارة حارقة تتلوّى فيها الأقفال والمصاريع بعامل القيظ، إلى مدينة مشتى(١). ولم يثنه عن محاولاته لبناء مصنع الجليد إلا أنه منصرفٌ بحماسة لتعليم ولديه، ولا سيما أوريليانو الذي أظهر منذ البداية استعداداً وتبصّراً غريبين لتعلم الكيمياء. وهكذا نظف خوزيه مخبره، وأعاد قراءة ملاحظات ملكيادس بتركيز وصفاء ذهن، بعيداً عن الهوس الذي أصابه عندما أطلع عليها للمرة الأولى. وجعل يقضي مع ولديه الجلسات الطوال، محاولاً، بصبر

---

(١) مدينة دافئة يقصدها الناس لقضاء فصل الشتاء البارد.

ومثابرة، أن يفصل ذهب أورسولا عن بقايا الأخلاط المتفحمة في قعر القدر. ولم يكن خوزيه أركاديو الابن يشارك بحماسة في تلك الأعمال. وبينما كان الأب منصرفاً بكل حواسه ووجدانه إلى أتونه، كان ابنه البكر العنيد، والذي كان دائماً يبدو أكبر من سنه، ينمو ويتحول إلى شاب يانع ضخم الجثة. وقد تغيّر صوته إلى شيء من الخشونة، وبدأ بعض الزغب يغطي ما فوق شفته العليا. وفي إحدى الأمسيات، دخلت أورسولا الغرفة، بينما كان الفتى ينزع ثيابه عنه استعداداً للنوم، فأحست بشيء من الشفقة الممزوجة بالحياء. فقد كان أول رجل تراه عارياً بعد زواجها. كانت بنيته قوية العدة للحياة إلى درجة أنه بدا غير طبيعي نوعاً ما.

وحملت أورسولا للمرة الثالثة، فعاودتها المخاوف التي عرفتها في بدايات زواجها.

وفي تلك الأثناء، كانت تتردد إلى البيت امرأة مرحة لعوب وقحة بعض الشيء وبذيئة اللسان مثيرة، وتعرف قراءة المستقبل بورق اللعب. كانت تساعد أورسولا في خدمة البيت، فحدثتها أورسولا عما شاهدته في ابنها، وعن ظنونها في أن عدم التناسب في أحجام أعضائه ربما كان أمراً غير طبيعي، كذيل الخنزير في ابن عمها. فأطلقت تلك المرأة ضحكة رنانة صاخبة تجاوبت أصداؤها في أرجاء البيت كأنما هي أوان من زجاج يتدحرج ويتكسر، وقالت للأم: «على العكس تماماً. فسوف يكون محظوظاً وسعيداً في حياته». وبعد أيام، حملت معها ورق اللعب إلى البيت لتثبت للأم صحة قولها. ثم اختلت بخوزيه أركاديو الفتى في مستودع الحبوب المتصل بالمطبخ من الناحية الخارجية. فوزعت أوراقها بأناة وهدوء على طاولة عتيقة، ثم أخذت تتحدث عن أشياء من هنا وهناك، بينما الفتى إلى جانبها يرقب ما تفعله بشيء من الملل. وفجأة

مدّت يدها إليه ولمسته، ثم هتفت قائلة: «يا إلهي». فقد أصابها الذهول فعلاً، فلم تقوَ على قول شيء آخر. أما خوزيه أركاديو الفتى فقد أحسّ كما لو أن عظامه قد طفحت زبداً، وسيطر عليه خوف شديد ورغبة جامحة في البكاء. ولم تحاول المرأة إثارته قط، ولكنه قضى ليلة كاملة يبحث عنها في رائحة الدخان التي انبعثت من صحونها وانسربت إلى ما تحت جلده. كان يودّ لو أنه يبقى معها طوال الوقت، يودّ لو أنها كانت أمه، ولو أنه يظل معها في المستودع، أو لو أنها تلمسه ثانية وتقول له: «يا إلهي، يا لك من غريب»!. ولم يتمالك نفسه ذات يوم، فمضى إلى زيارتها في بيتها. كانت زيارته رسمية، فبقي في غرفة الجلوس هادئاً دون أن ينبس ببنت شفة. ولم يشعر بأنه يشتهيها في تلك اللحظة. كانت مختلفة تماماً، غريبة عن الصورة التي توحي بها رائحتها. وكأنما كانت امرأة أخرى. فاحتسى قهوته وغادر البيت مكتئباً. ولكنه في غمرة أرقه، في تلك الليلة، اشتهاها بشوق ورغبة وحشيين، لا بالهيئة التي عرفها بها في المستودع، بل بالهيئة التي بدت بها عصر ذلك اليوم.

وبعد بضعة أيام دعته المرأة فجأة إلى بيتها، حين كانت وحدها مع أمها. وأدخلته إلى غرفة النوم بحجة أنها تريد أن تريه مجموعة من ورق اللعب. وهناك راحت تلامسه بدلال مفرط وحرية لا متناهية، حتى أحس بشيء من الوهم بعد الرعدة الأولى، وشعر بالخوف أكثر من اللذة. ثم طلبت إليه أن يأتي إليها تلك الليلة، فوافق سريعاً لمجرد التخلص منها، وهو يعرف أنه لن يستطيع ذلك. ولكنه، ما إن خيم الليل حتى أدرك، وهو في سريره الملتهب، أنّ عليه أن يمضي لرؤيتها، حتى وإن لم يكن قادراً على ذلك. تحسّس ثيابه وارتداها، مصيخاً السمع، في الظلام، لنفس أخيه الهادىء المنتظم، وسعال أبيه الجاف في الغرفة المجاورة، ولهاث الدجاج في فناء الدار، ودمدمة الذباب، ودقات

قلبه الخافقة، وحركة العالم غير العادية التي لم يلحظها قط من قبل. وهكذا غادر البيت إلى الشارع الغافي. وكان يتمنى من كل قلبه لو أنه يجد باب بيتها مقفلاً وليس مغلقاً كما كانا قد اتفقا. ولكنه وجد الباب مفتوحاً، فدفعه بأطراف أصابعه، فندّت عن المصراع أنّة حزينة منتظمة كان لها صدى متجمد في أوصاله. انسلّ إلى الداخل محاذراً أن يحدث ضجة ولو بسيطة. ثم عبقت في أنفه الرائحة التي يميزها. ووجد نفسه في القاعة التي يعلق فيها إخوة الصبية الثلاثة أراجيحهم في وضع يجهله ولا يمكنه تحديده في الظلام الدامس. وكان عليه أن يعبر القاعة متحسساً طريقه بيديه، حتى إذا دفع باب غرفة النوم تبيّن الاتجاه وتخلص مما عليه، دون أن يخطىء السرير. وقد تمَّ له ذلك، ولكنه احتك بحبال أرجوحة علقت أدنى مما توقّع، واستدار. كان ما يزال يغطّ في نومه، وتلفّظ بصوت غير واعٍ: «كان يوم الأربعاء». وعندما دفع باب غرفة النوم لم يستطع أن يحول دون احتكاكه بأرضها غير المستوية. وأدرك فجأة، وهو في ظلام الغرفة الدامس، أنه قد ضلّ سبيله، وسيطر عليه ذلك الشعور الغريب. في تلك الغرفة الصغيرة، كانت ترقد الأم وابنتها الأخرى مع زوجها وابنيها، وامرأة أخرى لم يكن من المنتظر أن تكون هناك. وكان يمكن له أن يستدل بالرائحة المعهودة لو أن تلك الرائحة لم تكن لتعبق في البيت كله، خادعة ونفّاذة، تماماً كما لو كانت حالها منذ انطبعت تحت جلده، فتوقف في مكانه هادئاً وقتاً طويلاً لا يبدي حراكاً، متأملاً، فيما هو فيه من الذعر الشديد، في الحال التي أوصلته إلى هذا الضياع الرهيب، عندما لامست وجهه، فجأة، يد ممتدة بأصابعها الخمس، في الظلام الحالك. ولم يفاجئه ذلك، كأنما كان ينتظره في لا شعوره. فاستسلم لتلك اليد، وهو في حالة من الإرهاق الشديد، تقوده إلى مكان غير واضح المعالم، حيث تنزع عنه ثيابه ويلقى به كما لو كان كيساً من البطاطا، ويقلب من جانب إلى آخر في ليل دامس لا يدرك غوره ولا

يفيد فيه سلاح، وحيث طغت رائحة الأمونيا على رائحة المرأة. ولقد حاول جاهداً أن يتذكر وجهها، ولكنه لم يستطع أن يتذكر غير وجه أورسولا. وكان يشعر شعوراً مبهماً بأنه كان يفعل شيئاً تمنى منذ أمد بعيد لو أنه يتحقق له، ولكنه لم يتخيل قط أن يحدث له. في الواقع، كل ذلك، دون أن يعرف تماماً ما الذي كان يفعله، بل هو لم يكن يدري موقع قدمه من رأسه ولا رأس من من قدم من. فقط، كان يحس أنه غير قادر على أن يقاوم أكثر من ذلك ثورة كليتيه الصمّاء الجليدية، ولا الهواء الذي كان ينفخ بطنه وأمعاءه، ولا الخوف ولا الرغبة والشوق الهائجين والملحين على الفرار، والملحين في الوقت ذاته على البقاء إلى الأبد في هذا الصمت المطبق النزق وتلك الوحدة الرهيبة.

كان اسمها بيلار تيرنيرا. وكانت من رهط المهاجرين الذين آل رحيلهم الكبير إلى نهايته بتأسيس ماكوندو. وقد أرغمتها عائلتها على اصطحابها كي تبعدها عن الرجل الذي اغتصبها، وهي بعد في الرابعة عشرة من عمرها، وأحبها حتى بلغت الثانية والعشرين، ولكنه لم يقرر إعلان علاقته بها على الملأ لأنه كان رجلاً انعزالياً متردداً. وقد وعدها أن يلحق بها حتى آخر الدنيا، بعد زمن قصير يرتب خلاله شؤونه. وأجهدها انتظاره والبحث عنه بقصد التعرف إليه بين الكبار والصغار من الرجال، الشقر والسمر، الذين كان يعدها الورق بقدومهم، من أصقاع الأرض، براً أو بحراً، في غضون ثلاثة أيام، أو ثلاثة أشهر، أو ثلاث سنوات. وفي انتظاره الطويل، فقدت كنازة ردفيها وقوة فخذيها وبروز نهديها وعاداتها الرقيقة اللطيفة، وما بقي فيها سليماً غير جنون قلبها المحب. .

وأصابت اللعبة اللذيذة الجميلة عقل خوزيه أركاديو بالارتباك والتشويش وما يشبه الجنون، فتابعها طوال لياليه في متاهة الغرفة. واتفق، في إحدى المرات، أن وجد الباب مقفلاً بالعارضة التي تسنده من

الداخل، فطرقه عدة مرات، وهو يعلم أنه ما دام قد تجرأ على الطرق مرة أولى، فلا بد من أن يتابع الطرق. وبعد انتظار طويل فتحت له الباب. أما في النهار فكان يمضي وقته بليداً، مستسلماً لأحلامه، ناعساً متكاسلاً، يستعيد في سريره ذكرى الليلة السابقة ومتعتها. وعندما كانت تأتي إلى بيته مبتهجة فرحة، لا مبالية، رشيقة جريئة حتى حدّ الوقاحة، فلم يكن يبذل أي جهد لإخفاء اضطرابه. أما هي فقد كانت قعقعة ضحكها الصاخب تفزع الحمام في فناء الدار. ولم تكن فيها تلك القوة الخفية التي تعلمه كيف يضبط تنفسه ويهيمن على تسارع نبضات قلبه. لقد مكنته من أن يدرك لماذا يخاف الناس الموت.

وهكذا انغلق الشاب على نفسه، وانكفأ على ذاته، حتى إنه لم يدرك سبب الهياج والفرح عندما هاج الأب والأخ، بل البيت كله، فرحاً بنبأ التوصل إلى سحق البقايا المعدنية وفصل ذهب أورسولا عن تلك البقايا.

أجل، لقد نجحا بعد كفاح وصبر طويلين على العمل الدؤوب والعمليات المعقدة. وسعدت بذلك أورسولا، حتى إنها شكرت الله لأنه خلق الكيمياء. وتزاحم أهل القرية في المختبر، حيث قدمت لهم أورسولا الحلوى المصنوعة من الجوافة ورقائق البسكوت احتفالاً بالاختراع العجيب. أما خوزيه أركاديو بوينديا فقد جعل يعرض عليهم البوتقة وفيها الذهب المستعاد، كأنما هو الذي اخترعه. وبينما كان يعرض ابتكاره على الجمهور واحداً واحداً، وجد نفسه فجأة وجهاً لوجه أمام ابنه البكر، الذي نادراً ما دخل المختبر في الفترة الأخيرة بطولها. فوضع الكتلة الصلبة الصفراء أمام عينيه وسأله: «كيف تراها؟». فأجاب خوزيه أركاديو بصراحة:

«براز كلاب».

فما كان من أبيه إلا أن صفعه بقفا يده صفعة أسالت دموعه ودمه.

وفي تلك الليلة حرصت بيلار تيريزا على أن تضع على وجهه الضمادات والرفادات المغموسة بسائل الأرنيكا، وهي تتحسس في الظلام القطن والقارورة. وقد فعلت معه كل ما كانت تهوى من حب ومعاشرة دون إزعاج له، فمارست الحب معه دون أن تدعه يتحرك. وقد بلغا من الود والحب درجة جعلتهما، من بعد، يتهامسان دون وعي منهما:

قال لها: أريد أن أكون وحيداً معك. وسيأتي يوم أحدث فيه الناس عن كل شيء. وعندها سيمضي، إلى غير رجعة، الزمن الذي نتسلل فيه ونختبىء خوفاً من الناس.

ولم تحاول هي تهدئته أو التسرية عنه.

فقالت: «سوف يكون ذلك رائعاً. وعندما نغدو وحيدين سوف ندع المصباح مضاء، فيرى أحدنا الآخر، ونرى ماذا نفعل. وعندها سأكون قادرة على الصياح والصراخ بما أشاء وما أود، دون أن يزعجنا أحد. وعندها سوف تهمس في أذني بكل الكلام المثير والقذر الذي يدور في ذهنك».

وأثاره هذا الحديث، إضافة إلى الحقد الذي كان يكنه لأبيه عندئذ، وولدت لديه رغبته الشديدة في الحب العنيف الحر شجاعة لا متناهية، وبطريقة عفوية، دون أي إعداد أو تفكير في الأمر، أطلع أخاه على تفاصيل كل ما كان يجري معه.

في البدء، لم يدرك أوريليانو الصغير من الأمر كله سوى المخاطر التي تنطوي عليها مغامرات أخيه. لم يستطع فهم السحر والحلاوة الكامنين في الموضوع. ولكن سرعان ما شدّه الشوق وأسرته اللهفة. أدهشته تفاصيل المخاطر والمغامرات، وراح يتوحّد مع أخيه ويعيش وإياه معاناته ومتعته، وشيئاً فشيئاً بدأ يتسلى بتفاصيل جولات أخيه، منساقاً بالحمّى نفسها، طالباً منه أن يروي له كل صغيرة وكبيرة، مشاركاً إياه في ألمه

وخوفه ومسرّته، ممتلئاً معه خوفاً وسعادة. وقد ينتظره يقظان حتى الفجر راقداً في سريره، الذي كان كأنما مليء جمراً، حتى يعود من إحدى لياليه. فإذا عاد ظلا يتحدثان حتى الصباح. فما لبث الأخوان أن بدت على كليهما مظاهر الإعياء والتراخي والكسل. ولم يعد لديهما أيّ اهتمام بالكيمياء، ولا بحكمة أبيهما وعلمه. واكتفى كل منهما على نفسه منقوقعاً متخذاً من ذاته ملاذاً له.

وكانت أورسولا، الأم، ترقب ولديها. فقالت : «لقد جُنّ هذان الولدان. ولا بدّ أنهما مصابان بالدودة». وأعدّت لهما شربة من أيدي الإوز المطحونة، فشربها الشابان بصبر غير منتظر بسبب سوء طعمها. وتناوب كل منهما على قدره إحدى عشرة مرة في يوم واحد، وأسقطا بعض الطفيليات الزهرية اللون عرضاها على من في البيت بسرور وعبث صاخب، لأن ذلك مكنهما من تحويل ظنون أورسولا عن السبب الحقيقي لنعاسهما وكسلهما.

لم يكن أوريليانو يستمع إلى تجارب أخيه وحسب، بل كان يعيشها أيضاً كما لو أنها حدثت له. وفي أحد الأيام، وبينما كان أخوه يشرح له تفاصيل آلية الحب والعملية كلها، قاطعه سائلاً : «وبماذا تحس؟». فأجابه خوزيه أركاديو دون انتظار : «بشيء كأنه هزّة أرضية».

وذات يوم خميس من أيام كانون الثاني (يناير)، وفي الساعة الثانية صباحاً ولدت أمارانتا. وتفقدت أورسولا أعضاءها جميعاً قبل أن يدخل غرفتها أحد. كانت خفيفة ورطبة، كحرذون الجدران، لكن أعضاءها جميعاً كانت إنسانية. ولم يعلم أوريليانو أنّ في البيت طفلاً جديداً إلا حينما غصّ بالناس. وانتهز البلبلة والهرج والمرج وغادر البيت، دون أن ينتبه له أحد، كي يدعو أخاه الذي انسلّ من سريره في الحادية عشرة مساء. وقد كان قرار أوريليانو ذاتياً سريعاً، لم يتوقف للتفكير فيه. فلم

يفكر في الطريقة التي يخرج بها أخاه من غرفة بيلار تيرنيرا. ظل يطوف حول البيت ساعات، يصفر بالإشارة التي اتفقا عليها، حتى قارب الفجر البزوغ، فاضطر للرجوع إلى البيت. وعندما دخل على أمه غرفتها وجد أخاه يداعب أخته الصغيرة الوليدة، وعلى وجهه سيماء براءة لا يرقى إليها شك.

وما كادت أورسولا تنتهي من نقاهة الأربعين يوماً حتى عاد الغجر. كانوا نفس المهرجين المشعوذين الذين جاؤوا بالجليد من قبل. لم يكونوا مثل قبيلة ملكيادس، فقد أظهروا سريعاً أنهم ليسوا مبشرين بالتقدم، بل أصحاب تسلية وناقلو ألعاب تمتع الناس. وقد سبق لهم عندما عرضوا الجليد أن قدموه على أنه من غرائب السيرك وليس على أنه أمر نافع في حياة البشر. أما هذه المرة فقد عادوا يحملون، في ما يحملونه من ألعاب ذكية، بساطاً طائراً لم يدّعوا أنه من أسس تطور النقل، وإنما أداة للتسلية. وعلى الرغم من ذلك، سارع الناس للبحث عن آخر نقودهم الذهبية المطمورة في الأرض، كي ينعموا بالطيران السريع فوق بيوت القرية. واستغل خوزيه أركاديو وبيلار الفوضى العامة التي سببها قدوم الغجر، واستمتعا ببضع ساعات بالحرية. فسارا بين المحتشدين كخطيبين سعيدين، ضاعا في زحمة الجمهور، حتى توصلا إلى الظن بأن الحب قد يكون شعوراً أكثر راحة وهدوءاً وعمقاً من السعادة التي ترافق اللذة، المحمومة، ولكنها الآنية الزائلة سريعاً، في لياليهما السرية.

ولكن بيلار أفسدت روعة الخبرة والتجربة. فقد شجعتها حماسة خوزيه أركاديو وسعادته برفقتها، ولكنها لم تحسن اختيار اللفظة واللحظة، وكأنها قلبت الدنيا على رأسه فجأة. فقالت له : «أنت الآن رجل حقاً». وعندما لم يدرك ما كانت تعنيه، أوضحت له دون مواربة قائلة :

ـ «سوف يكون لك ولد».

قضى خوزيه أركاديو أياماً لا يجد الجرأة فيها على الخروج من البيت. فقد كان يكفيه أن يسمع ضحك بيلار يتردد في المطبخ، حتى يعدو ملتجئاً إلى المختبر الذي عادت أدوات الكيمياء فيه إلى العمل برضا أورسولا ومباركتها. واستقبل خوزيه أركاديو بوينديا ابنه الضال سعيداً مرحباً، وأطلعه على التجارب التي أجراها مؤخراً بحثاً عن حجر الفلاسفة.

وفي عصر أحد الأيام بلغ إعجاب الشابين الأخوين بالبساط الطائر أوجه، لما رأياه يمرّ سريعاً مقابل نافذة المختبر، وهو يحمل الغجريّ الذي يقوده وعدداً من أطفال القرية الذين كانوا يلوحون بأيديهم بفرح وسرور. ولكن خوزيه أركاديو بوينديا لم يكلف نفسه حتى عناء النظر إليه، بل قال: «دعهم يحلمون، أما نحن فسنطير أفضل منهم، وبوسائط أكثر علمية من غطاء تعيس حقير. وعلى الرغم من تظاهر خوزيه أركاديو الابن بالاهتمام، فهو لم يدرك شيئاً من خصائص بيضة الفلاسفة. فما كان يبدو لناظريه لم يكن يعدو قارورة وسخة. فهو لم يستطع الهرب مما كان يشغل باله. وقد فقد شهيته للطعام وقدرته على النوم، وازداد طبعه حدّة، فصار أشبه بأبيه عندما يفشل في إحدى تجاربه ومشروعاته. وقد ازداد اضطراب خوزيه الابن حتى أن أباه نفسه أراحه من واجباته في المختبر، ظناً منه أن ابنه لم يكن يحب الكيمياء.

وأدرك أوريليانو، دون شك، أن البحث عن الحجر الفلسفي لم يكن سبب حزن أخيه، ولكنه لم ينجح في انتزاع أي اعتراف منه. فقد فقد خوزيه أركاديو عفويته القديمة، وانقلب من رفيق يبث الشكوى إلى كتوم معاند انطوائي عدائي.

وفي إحدى الليالي ألحّت عليه الحاجة للوحدة، وضغط عليه تحامله

على العالم من حوله، فغادر سريره كعادته، ولكنه لم يذهب إلى بيت بيلار تيريزا، بل ليلقي بنفسه بين جمهور سوق الفرجة لعله يضيع في زحمته. وبعد جولة أمام مختلف أنواع الألعاب، دون اكتراث بأي منها، توقف عند شيء لم يكن جزءاً من المشهد العام: كانت هناك غجرية صغيرة تكاد تكون طفلة تنوء بحمل حلاها البلورية. كانت أجمل امرأة رآها في حياته. وكانت تقف بين حشد من الناس تشاهد العرض الحزين للرجل الذي تحوّل إلى أفعى لأنه عصى أبويه.

ولم يكترث خوزيه أركاديو لكل ما كان يجري. ففي الوقت الذي كان يجرى فيه الاستجواب المأساويّ للرجل الأفعى، شقّ الشاب طريقه إلى صف النظارة الأول، حيث كانت الفتاة الغجرية. فوقف وراءها، ملتصقاً بظهرها. وحاولت الفتاة الزوغان من أمامه، ولكن خوزيه أركاديو زاد في إلحاحه على ملاحقتها، وزاد من ضغطه عليها والتصاقه بظهرها. وأحسّت الفتاة به جيداً، فلبثت في مكانها جامدة ترتجف دهشة وخوفاً، وهي لا تستطيع إدراك ما ألمّ بها. ثم التفتت نحوه، ورنت إليه بابتسامة عصبية محمومة. وعند هذا الحدّ، أعاد الغجريان الرجل الأفعى إلى قفصه، وحملاه إلى داخل الخيمة، ثم أعلن الغجري الذي كان يدير المشهد قائلاً:

«والآن، سيداتي وسادتي، سوف تشهدون المحنة القاسية التي تعيشها المرأة التي حكم عليها بقطع رأسها في هذا الوقت من كل ليلة، وعلى مدى مئة وخمسين سنة، عقاباً لها لأنها رأت ما كان ينبغي لها ألاّ تراه».

ولم يشهد خوزيه أركاديو والفتاة الغجرية منظر قطع الرأس، بل مضيا إلى خيمتها، حيث تبادلا القبل بنهم محموم، فيما كانا يخلعان ثيابهما. وتجرّدت الفتاة الغجرية من خراطاتها التي كانت ترتديها، بعضها فوق بعض، ومن شلحات الدانتيلا المنشّاة، ومن مشدّها، ومن الحلي البلورية

التي كانت تنقلها، حتى إنها لم يبق منها عملياً شيء يذكر، حتى لكأنها ضفدعة ضئيلة، صغيرة النهدين نحيلة الفخذين، لا يزيد محيط أحدهما عن محيط ذراع خوزيه أركاديو. ولكنها أبدت من الحزم والدفء والحرارة ما كان يعوض عن ضآلة جسمها. ولكن خوزيه أركاديو لم يشأ أن يبادلها ما بدر منها من تجاوب وحرارة، لأنهما كانا في خيمة تكاد تكون عامة، يمرّ فيها الغجر بأدوات السيرك، ذهاباً وإياباً، أو يرتبون ثيابهم ويبدلونها، أو يتوقفون أحياناً، قريباً من السرير، للعب بالنرد. وكان المصباح المعلق بالعمود الرئيس يضيء المكان كله. وبعد وقت أمضياه في المداعبة، استلقى خوزيه أركاديو عارياً على السرير، لا يدري ما يفعل، بينما تحاول الفتاة أن تثير همته. وبعد قليل دخلت امرأة غجرية بدينة مكتنزة اللحم يصحبها رجل من غير القافلة، بل ومن غير القرية أيضاً. وسرعان ما بدآ بخلع ثيابهما عند طرف سرير خوزيه أركاديو والفتاة. وألقت المرأة البدينة نظرة خاطفة على خوزيه أركاديو، ثم توقف بصرها عند حيوانه الكبير الرائع، متفحصة إياه وهو نائم، ثم هتفت قائلة له:

ـ «ليحفظك الله تماماً كما أنت، يا بنيّ».

وطلبت الفتاة، رفيقة خوزيه أركاديو، إلى الرجل والمرأة البدينة أن يتركاهما وحدهما دون إزعاج. فرقد الاثنان على الأرض قرب السرير. وأيقظت حرارة الأخيرين حمى خوزيه أركاديو وهمته. وعندما ضمّ الغجرية هصرها، فقرقع ظهرها قرقعة مخيفة كأنما تخلعت مفاصلها، أو كأنّ علبة دومنو قد انقلبت بما فيها. وغمر العرق بشرتها فتحولت إلى لون شاحب، واغرورقت عيناها بالدموع، وندّت عن جسدها أنّة حزينة ورائحة طين غامض. ولكن الفتاة احتملت الهصرة بشجاعة وصلابة عظيمتين. أما خوزيه أركاديوا فأحس أنه علا في الجوّ، متسامياً إلى حالة إلهام ملائكية فاض بها قلبه المعنّى بيناءات رقيقة عبرت أذن الفتاة

الغجرية، فترجمتها إلى عبارات تلفظت بها في لغتها. كان ذلك يوم الخميس. وفي ليلة السبت، ربط خوزيه أركاديو على رأسه خرقة حمراء، ورحل مع الغجر.

واكتشفت أورسولا غياب ولدها خوزيه أركاديو، فبحثت عنه في القرية كلها. فبعد أن نزع الغجر خيامهم لم يبق في مكانهم سوى كومات من النفايات والرماد المنتشر في المواقد وحولها، وقد انطفأت تلك المواقد إلا من دخان ما زال يتصاعد منها. وأسرّ لأورسولا عابر سبيل، كان يبحث بين النفايات والقاذورات لعله يجد حلية ما، أسرّ لها بأنه رأى ولدها، في الليلة السابقة، يدفع العربة التي كانت تقلّ الرجل الأفعى. فصاحت أورسولا بزوجها:

ـ «لقد صار الولد غجرياً».

لم تبد على الأب أية علامة من علامات الفزع لاختفاء ولده. ولكنه قال لزوجته، وهو يطحن في جرنه المادة التي طحنها ألف مرة ثم سخّنها من جديد وأعاد طحنها:

ـ «أرجو أن يكون ذلك صحيحاً. فبهذه الطريقة سيتعلم كيف يصير رجلاً».

ولكن أورسولا سألت عن الطريق التي سلكها الغجر في رحيلهم. ثم انطلقت على تلك الطريق تغذّ السير، مستعلمة في سيرها عن كل شيء يتصل بأولئك الغجر، وهي تقدّر أن بوسعها أن تلحق بهم قبل مضي وقت طويل. وما زالت أورسولا تبتعد عن القرية حتى أدركت أنها صارت في منأى عنها لا تستطيع عنده الرجوع إليها. ولم يكتشف خوزيه أركاديو بوينديا غياب زوجته إلاّ بعد الثامنة مساء، عندما ترك المادة التي كان يسخنها على كومة سماد، وانصرف إلى تفقد ابنته الصغيرة أمارانتا التي مضى عليها وقت وهي تبكي حتى بحّ صوتها من البكاء. وعندها

جمع زمرة من الرجال المجهزين أحسن تجهيز، وسلّم أمارانتا إلى امرأة عرضت أن ترضعها من لبانها في غياب أمها، وانطلق هائماً على وجهه في الدروب الخفية، باحثاً عن أثر لأورسولا. وقد رافق أوريليانو، الابن الأصغر، أباه في تلك الرحلة. والتقى القوم، عند الفجر، بجماعة من الصيادين من السكان المحليين، يجهلون لغتهم. وقد فهموا بالإشارة من هؤلاء أنهم لم يروا أحداً قط. ومضت أيام ثلاثة في البحث والتفتيش، حتى تبين للقوم أن لا فائدة من ذلك، فعادوا أدراجهم إلى القرية.

واستسلم خوزيه أركاديو بوينديا لحزنه المقيم، وراح يعكف على ابنته الصغيرة أمارانتا يربيها ويعنى بها كأنه أمها. كان يغسلها ويبدل ثيابها، ويأخذها أربع مرات، في اليوم، إلى مربيتها، حتى إذا حلّ الليل جعل يغني لها ويردد ألحاناً ما عرفتها أورسولا.

وذات يوم، عرضت عليه بيلار تيريزا ان تتطوع بخدمة البيت حتى عودة أورسولا. ولكن أوريليانو، وقد أرهف البؤس والحزن حدسه، أحس بشرارة من رؤيا عندما رآها تدخل البيت. فقد أدرك تلك الساعة، وبطريقة غامضة، أنها المسؤولة عن فرار أخيه، وما تلاه من اختفاء أمه. فراح يعذب تلك المرأة بعدائه الصامت المكتوم الذي لا يرحم أبداً، حتى أنها لم تعد لتطأ أرض بيتهم مرة ثانية.

وساءت الأمور، حتى آل كل شيء إلى مألوف كأنه عادة. ولو حاول خوزيه أركاديو بوينديا أن يذكرا متى استأنفا العمل في المختبر بالتحديد لما تمكنا. نفضا عنه الغبار، وأشعلا فيه الأتون، وعادا، من جديد، إلى معالجة المادة التي كانت متروكة مهملة في ثنايا السماد. وكانت الصغيرة، أمارانتا، نفسها، وهي راقدة في سرير من قصب معلق، ترقب أباها وأخاها، وهما يعملان دائبين في الغرفة الصغيرة التي كان هواؤها يعبق بأبخرة الزئبق.

وذات يوم، وبعد أن مضت عدة أشهر على غياب أورسولا، بدأت تحدث أمور غريبة. فقد أخذت قارورة، فارغة منسية في إحدى الخزانات، يزداد وزنها حتى استحال تحريكها من مكانها. كما إن قدر ماء، كانت موضوعة على طاولة العمل، أخذت تغلي دون نار مدة نصف ساعة، حتى تبخر ماؤها تماماً. وكان خوزيه أركاديو بوينديا وابنه أوريليانو يشهدان تلك الظواهر بدهشة وإعجاب ممزوجين بالخوف. ولم يستطيعا تعليل تلك الظواهر فظنّا أنها من دلالات المادة. ثم إن سرير أمارانتا تحرك ذات يوم باندفاع ذاتي خاص، فدار دورة كاملة في الغرفة، على مرأى من أوريليانو المندهش، حتى همّ به فأوقفه. أما أبوه فلم يقلق لذلك ولم ينزعج، بل أعاد السرير إلى مكانه وربطه بقائمة الطاولة، موقناً بأن الحدث الذي طال انتظاره بات وشيكاً. وقد سمعه أوريليانو يشير إلى ذلك بقوله :

ـ «إذا لم تخش الله، فتأمل المعادن، وسوف تخشاه».

وعادت أورسولا، فجأة، بعد غياب خمسة أشهر منذ اختفائها، وهي أجمل وأفتى من أي وقت مضى، وعليها حلى جديدة ما عهدت القرية مثلها. ولم يستطع خوزيه أركاديو بوينديا مقاومة المفاجأة، فصاح :

ـ «هذا ما كنت أتوقع. فقد عرفت أنك ستعودين».

فقد كان موقناً بعودتها في دخيلة نفسه، لأنه كان وهو يعالج المادة، في معتكفه الطويل في المختبر، يدعو الله في أعماقه ألا تكون الأعجوبة المنتظرة اكتشاف حجر الفلاسفة، ولا تحرير الروح التي في المعدن، ولا إمكان تحويل ما في البيت، من مفاصل وأقفال وسواها، إلى ذهب، بل أن يتحقق هذا الذي حدث وحسب : عودة أورسولا .

أما أورسولا فلم يبد عليها أنها تشاطره فرحه، فقبلته قبلة تقليدية، وكأنها لم تغب عنه ألا ساعة أو بعض ساعة، ثم قالت له :

«انظر خارج البيت».

وقد أمضى خوزيه أركاديو بوينديا وقتاً طويلاً حتى استفاق من الدهشة عندما خرج إلى الطريق ورأى جمهور الناس. لم يكونوا غجراً، وإنما كانوا رجالاً ونساء من جنسهم، له شعور مسبلة وبشرات سمراء، يتكلمون لغتهم ويتألمون مثل آلامهم. وقد جلبوا معهم بغالاً محملة مؤناً، وعربات تجرها الأبقار، وقد امتلأت أثاثاً وأدوات وأواني للطبخ، ومتاعاً من أصناف شتى لانتفاع الإنسان، كل ذلك معروض للبيع، دون ضجة ولا صياح، يبيعه تجار صغار عاديون. لقد وصلوا من الطرف الآخر للمستنقع الكبير، الواقع فقط على بعد مسيرة يومين، حيث يوجد مدن وقرى يصلها البريد كل شهر، ويعرف الناس وسائط الحياة الطيبة ذات المستوى الرفيع.

لم تستطع أورسولا العثور على الغجر، ولكنها وجدت الطريق التي لم يستطع زوجها اكتشافها في بحثه الفاشل، والمخيب للآمال، عن الاختراعات الكبرى.

(٣)

جيء بابن بيلار تيريزا، بعد أسبوعين من ولادته، إلى بيت جديه. وقد قبلت أورسولا بذلك الأمر مكرهة مستسلمة لعناد زوجها الذي لم يرض فكرة ترك وليد من نسله للمصادفة والضياع، ولكنه اشترط ألاّ يعرف الطفل هويته الحقيقية. وعلى الرغم من أنهم أسموه خوزيه أركاديو، إلاّ أنهم انتهوا بدعوته باسم أركاديو تجنباً للتشويش والخلط بين الأسماء. وفي تلك الفترة، ساد القرية نشاط كثيف، وغدا البيت نهباً لحركة دائبة، حتى احتلت تربية الطفلين منزلة ثانوية، فعهد بهما إلى فيزيتا سيون، وهي هندية من قبيلة الجواجيرو، جاءت القرية وأخوها هرباً من طاعون الأرق الذي أصاب قبيلتهما منذ عدة سنوات. وكان الاثنان مطيعين لطيفين فاختارتهما أورسولا لخدمتها لعلهما يعينانها في خدمة البيت. وهكذا تعلم الطفلان أركاديو وأمارانتا لغة الهنود الجواجيرو قبل تعلم اللغة الإسبانية، وتعلما احتساء شوربا السحالي وأكل بيض العناكب دون أن تنتبه أورسولا لكل ذلك. فقد كانت مشغولة بشؤون حيوانات الكاراميلا الكاندي الواعدة الصغيرة وبتجارتها.

لقد تبدلت ماكوندو. فاكتشف القوم الذين جاؤوا مع أورسولا خصوبة أرضها وطيب موقعها الممتاز بالنسبة للماريجو، وانقلبت القرية الصغيرة الجرداء سريعاً إلى بلدة نشطة تعج بالمخازن والمعامل والمشاغل اليدوية، وصارت محطة على طريق تجارية لا تنقطع، منها جاء العرب

الاوائل الذين كانوا يتنعلون الأخفاف، ويرتدون السراويل الفضفاضة. ويعلقون الأقراط في آذانهم، ويقايضون الببغاوات بأطواق من الخرز الزجاجي. ولم يذق خوزيه أركاديو بوينديا طعم الراحة. فقد سحرته الحقائق الجديدة المباشرة، وتبدّى له أنها أروع من عالم خياله الواسع. وزال اهتمامه بمخبر الكيمياء، وأهمل المادة التي أجهدته، خلال شهور، بالتجارب المتتابعة، وعاد إلى حياته السابقة، عندما كان رجل المشروعات والخدمات العامة، عندما كان يخطط الشوارع واتجاهات البيوت في القرية، فلا يفيد بيت منها، أكثر من سواه، من امتيازات الموقع. وتوطدت له السلطة بين القادمين الجدد، فلم ينشأ بناء أو سياج إلاّ أخذ فيه رأيه. وتمّ الاتفاق بين السكان على أن يكون هو المسؤول عن توزيع الأراضي. ولمّا عاد الغجر المشعوذون، بسوقهم المتنقلة التي أصبحت مؤسسة كبيرة للألعاب، استقبلهم أهل القرية فرحين، ظانين أن خوزيه أركاديو قد عاد معهم. ولكن خوزيه أركاديو لم يكن بينهم، ولا كان بينهم الرجل الأفعى، الذي كان وحده، حسب رأي أورسولا، عارفاً بأخبار ابنها. ولذلك لم يسمح لهم بالإقامة في البلدة، ومنعوا من العودة إليها في المستقبل. فقد اعتبرهم أهل البلدة سفراء دعارة وفساد. ولكن خوزيه أركاديو بوينديا أعلن صراحة أن قبيلة ملكيادس القديمة، الرجل الذي ساهم كثيراً في تفتيح القرية وتحضيرها وتحديثها، بحكمته العريقة واختراعاته الخارقة، سوف تجد دائماً أبواب البلدة مشرعة لها. ولكن الرحّالة رووا أن قبيلة ملكيادس قد زالت عن وجه الأرض، لأنها تجاوزت حدود المعرفة الإنسانية.

وعندما تحرّر خوزيه أركاديو بوينديا، ولو إلى حين، من عذابات خياله الجموح، استطاع، خلال وقت قصير، أن يقيم نظاماً من الانضباط والعمل، ولم يسمح إلاّ بإجازة بسيطة واحدة سمح لنفسه بها، وهي

إطلاق الطيور، التي كانت منذ تأسيس ماكوندو توقظ القرية على أصوات صداحها الرائعة. فقد بدّل بها ساعات موسيقية حلّت محلها في كل بيت. وكانت ساعات جميلة من الخشب المحفور قايض العرب بها ببغاوات، وضبطها خوزيه أركاديو بوينديا بدقة، فباتت القرية كلها تمرح كل نصف ساعة بنغم لحن واحد، يتصاعد مع الوقت حتى يصل أوجه عند الظهيرة، دقيقاً في القرية كلها، حتى لكأنه جوقة كاملة. خوزيه أركاديو بوينديا هو الذي قرّر في تلك الفترة أيضاً أن تزرع أشجار اللوز في شوارع القرية بدلاً من أشجار الأكاسيا. وهو الذي اكتشف، دون أن يعلن، الطريقة التي تجعل تلك الأشجار خالدة. وبعد زمن طويل، وبعد أن حالت ماكوندو إلى بيوت بسيطة مصنوعة من الخشب والتوتيا، كانت أشجار اللوز ما تزال تعيش على جوانب الطرق القديمة فيها، ولو أنها صارت عجفاء يعلوها الغبار بشكل شبه دائم، ولكن أحداً ما كان ليدري من كان الذي زرعها. وفي الوقت الذي كان الأب فيه ينظم القرية، وكانت الأم تعمل على زيادة ثروة العائلة بعملها الرائع، كصناعة الحلوى على هيئة ديكة وأسماك، تصدرها من الدار مرتين في الأسبوع، مدلاّة من على قصيبات من خشب الكابوك، في هذا الوقت كان أوريليانو يمضي الساعات الطوال في المخبر المهمل يتمرس فيه على فن صياغة الفضة بتجاربه الخاصة. ونما جسمه نمواً سريعاً، حتى صارت ثياب أخيه الأكبر، التي خلفها عند رحيله، صغيرة لا تناسبه، فبدأ يرتدي ثياب أبيه. ولكن فيزيتا سيون جعلت تعالج القمصان والبناطيل ثنياً وتقصيراً، لأن لأوريليانو سمنة الآخرين من أهله. وأدرك مرحلة المراهقة، فاختفت نعومة صوته، وانكفأ على ذاته فبات صامتاً مغرقاً في الوحدة. ولكنه في الوقت ذاته، من جهة أخرى، راجع عينيه البريق الذي كان لهما عند ولادته. وانصرف كلياً إلى تجاربه في الصياغة، فما كان يبرح المخبر إلاّ

لتناول الطعام. أما خوزيه أركاديو بويندا، وقد لاحظ سلوك ولده، فأعطاه مفاتيح الدار وبعض المال، ظناً منه أنه بحاجة إلى امرأة. ولكن أوريليانو صرف المال في شراء حامض الكلوريدريك ليصنع به ماء الذهب، ثم جمّل المفاتيح بطليها به، وما كانت تصرفاته الغريبة لتشبه، بأي شكل من الأشكال، تصرفات أركاديو وأمارانتا اللذين كانا قد بدأ تبديل أسنانهما، وكانا يقضيان اليوم بطوله متشبثين بمعطفي الهنديين ويصران على الكلام بلغة الجواجيرو دون الإسبانية. وقد دأبت أورسولا على القول لزوجها:

ـ «ينبغي ألاّ تشكو من هذا الأمر. فالأطفال يرثون جنون والديهم».

وبينما كانت تمعن في الشكوى من سوء حظها، معتقدة بأنّ هوس أبنائها لم يكن أقل إثارة للخوف من ذنب الخنزير، رمقها أوريليانو بنظرة حيّرتها وتركتها في شك مقيم، ثم قال لها:

ـ «هناك من هو قادم إلينا».

وحاولت أورسولا أن تثنيه بمنطق سيدة البيت، كما كانت تفعل كلما أعلن إحدى نبوءاته. فقد كان من الطبيعي أن يصل أحد ما. فماكوندو كانت تستقبل، كل يوم، عشرات الغرباء، دون أن يثير وصولهم شكاً أو فضولاً أو أية أفكار سرية. ولكن أوريليانو، خلافاً لكل المنطق، كان يبدو واثقاً من نبوءته. فألحّ بالقول:

ـ «لا أدري من هو القادم، ولكنني أعلم أنه الآن في طريقه إلينا».

وفي يوم الأحد التالي وصلت ريبيكا فعلاً. لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها. كانت رحلتها شاقة من مانور، وقد وصلت مع تجار فراء كلفوا اصطحابها، مع رسالة، إلى بيت خوزيه أركاديو بويندا. ولكنهم لم يستطيعوا أن يبينوا له تماماً من كان الذي طلب إليهم القيام بهذه الخدمة. ولم يكن معها من المتاع سوى محفظة ثياب صغيرة، وكرسيّ

هزّاز نقشت عليها باليد أزهار صغيرة ملوّنة، وكيس مصنوع من القنّب (أو الكانفا) الذي يقرقع بصورة دائمة: كلوك ـ كلوك ـ كلوك، وكانت تحمل فيه عظام أبويها.

كانت الرسالة الموجهة إلى خوزيه أركاديو بويندا مصوغة بلغة محببة وعبارات دافئة، من شخص ما زال يحبه على الرغم من مضيّ الزمان وبعد المكان، ورأى من واجبه، نزولاً عند أبسط العوامل الإنسانية، أن يرسل إليه، من باب الرأفة والشفقة، طفلة يتيمة فقيرة لا مأوى لها ولا معيل، وهي ابنة عمّ لأورسولا من الدرجة الثانية، وبالتالي فهي من أقارب خوزيه أركاديو بويندا، وإن تكن قرباها منه أبعد، غير أنها كانت ابنة الصديق الذي لا ينسى: نيكانور أولوا، وزوجته الجزيلة الاحترام ريبيكا مونتييل، تغمدهما الله بواسع رحمته. وكانت الفتاة تحمل رفاتهما لعلهما يمنحان قبراً مسيحياً.

كانت الأسماء المذكورة في الرسالة واضحة، وكذلك كان التوقيع. ولكن خوزيه أركاديو بويندا وأورسولا لم يذكرا قط أنّ لهما أقارب بتلك الأسماء، كما لم يذكرا اسم المرسل ولا مدينة مانور النائية. ولم يكن ممكناً الحصول على مزيد من المعلومات من البنت الصغيرة. فمنذ وصولها وهي جالسة في كرسيها الهزّاز، تمصّ أصابعها وترقب كل من حولها بعينيها الواسعتين الذاهلتين، دون أن يبدو عليها أنها تفهم كلمة مما تسأل عنه. كانت ترتدي ثوباً عرضانيّ التخطيط مصبوغاً باللون الأسود، رثّاً مهترئاً من كثرة الاستعمال، وتلبس حذاء طويلاً كان يلمع قبل أن يتقشّر. وكان شعرها معقوصاً وراء أذنيها وقد ربط به وتدلّى منه شريط أسود. وكانت ترتدي صدرية عليها رسوم اهترأت من كثرة العرق، وفي رسغها الأيمن ناب حيوان لاحم مثبت على أرضية من نحاس أحمر، هو عبارة عن تعويذة ضد الحسد. وكانت بشرتها المزرقّة، وبطنها المتنفخ

المستدير والمشدود كطبل يدلأن على صحتها السيئة وجوعها الشديد، فتبدو أكبر من عمرها. ولكنهم عندما ناولوها بعض الطعام، وضعت الطبق على ركبتيها دون أن تمسه. حتى ظنوا أنها صمّاء خرساء، إلى أن سألها الهنديان بلغتهما ما إذا كانت تريد ماء. عندها تحركت عيناها، كأنها عرفتهما، وأشارت برأسها موافقة.

وهكذا أبقوها عندهم لأنهم لم يجدوا مخرجاً آخر. وقرروا أن يسموها ريبكا، وهو اسم أمها كما جاء في الرسالة، لأن أورليانو أوتي الصبر على أن يذكر لها أسماء كل القديسين دون أن يبدو منها أي ردّ فعل تجاه اسم أي منهم. ونظراً لعدم وجود مقبرة في ماكوندو، في ذلك الوقت، لأنّ أحداً لم يمت فيها بعد، احتفظوا بكيس العظام ريثما يجدون مكاناً مناسباً لدفنها. وهكذا ظل كيس عظام أهل ريبكا يضايق أهل البيت، مدة طويلة من الزمن، وهم ينقلونه من مكان إلى آخر بقرقعته التي تشبه قوقأة دجاجة بيّاضة.

وقد مضى وقت طويل قبل أن تندمج ريبكا في حياة الأسرة. كانت تظل جالسة في كرسيها المتحرك، تمص إصبعها، في أقصى زاوية من البيت. وما كان يشد اهتمامها غير موسيقى الساعات، فكانت تبحث عنها بعينيها الذاهلتين، كل نصف ساعة، كأنها تنتظر أن تراها في مكان ما من الأفق. وكثيراً ما كان أهل البيت جميعاً يخفقون في جعلها تتناول شيئاً من الطعام. ولم يستطع أحد أن يدرك كيف بقيت الطفلة على قيد الحياة، بعد ذلك الجوع الشديد الطويل، إلى أن اكتشف الهنديان، اللذان لم يكن يغيب عنهما شيء، لأنهما كانا يسيران في البيت، دون انقطاع، بخطاهما الرشيقة، غير الملحوظة، أن ريبكا كانت تحب أن تأكل من تراب الدار الرطب ومن رقائق الكلس التي كانت تنتزعها عن الجدران بأظافرها. وقد بدا واضحاً أن أهلها، أو من ربّوها، كانوا يوبخونها

بسبب عادتها الضارّة تلك، لأنها كانت تفعل ذلك في الخفاء، وبشعور من الذنب، وتحاول تخزين ما يتجمّع لها من تلك المواد كي تستطيع التهامها بعيداً عن أعين الجميع. ومنذ ذلك الحين وضعت تحت المراقبة الشديدة، ورُشّت الأرض بمرارة البقر، وطليت الجدران بمرق الفلفل، ظنّاً من أهل البيت أن تلك الوسائل ستقضي على علتها المؤذية. ولكن ريبكا أظهرت مهارة وذكاءً في إيجاد التراب المطلوب، حتى أكرهت أورسولا على استعمال وسائط أقوى وأشد. فأخذت تضع عصير البرتقال والراوند في قدر، تتركها تحت الندى طوال الليل، ثم تسقيها الجرعة في اليوم التالي قبل الطعام. وعلى الرغم من أن أحداً لم يخبر أورسولا أن ذلك الدواء كان مفيداً في شفاء أكلة التراب من علتهم، فقد كانت تظن أن أية مادة مرة لا بد أن تحرك الكبد متى تلقتها المعدة فارغة. وكانت ريبكا، على هزالها، ثائرة قوية، فلا تبتلع الدواء إلاّ إذا ألقوها أرضاً وأوثقوها، وكأنها عجل صغير قويّ. وما كانوا يستطيعون السيطرة على رفساتها إلاّ بصعوبة كبيرة، مع ما يحتملونه، فوق ذلك، مما تجأر به من صراخ وكلام بين العضّ حيناً والبصق حيناً آخر. وقد أثارت شتائمها الهنديين اللذين زعما أنها أقذع الشتائم وأدنأ البذاءات التي تحويها لغتهما. وعندما علمت أورسولا بذلك، أضافت إلى علاجها الضرب بالسوط. ولم يستطع أحد أن يعرف، من بعد، سبب تماثل ريبكا للشفاء بعد أسابيع قليلة. فهل كان الراوند أو الضرب أم كليهما معاً. ولكنّ الواقع أنها برئت فعلاً، بعد بضعة أسابيع، من تلك العادة الذميمة . ثم بدأت تشارك في اللعب مع أركاديو وأمارانتا، اللذين أخذا يعاملانها على أنها أختهما الكبرى. ثم جعلت تأكل بشهية وتستعمل الأطباق بطريقة لائقة. ثم اكتشف أنها تتكلم الإسبانية بالطلاقة التي تتكلم بها اللغة الهندية، وأنها كانت شديدة حذق اليدين، وأنها كانت

تغني مصاحبة أنغام الساعات، بكلمات جميلة من ابتكارها. وبعدئذ بات أفراد الأسرة جميعاً يعدونها واحدة من أهل البيت. وأظهرت روبيكا من الحب والود لأورسولا ما لم يظهره لها أحد من أولادها. وكانت تدعو أمارانتا بالأخت الصغيرة، وأركاديو بالأخ الصغير، وتنادي أوريليانو بالعم، وخوزيه أركاديو بوينديا بالجد. وانتهى بها الأمر أن استحقت، كالآخرين، اسم روبيكا بوينديا، بعد أن كانت بلا اسم، وظلت أهلاً لذلك الاسم طوال حياتها.

وفي إحدى الليالي، بعد أن شفيت روبيكا تقريباً من علة أكل التراب وأتت إلى مشاركة الطفلين غرفتهما، استيقظت الهندية من نومها على صوت جيئة وذهاب في الزاوية. فقعدت مذعورة، وقد ظنت أنّ حيواناً ما قد دخل الغرفة. وإذا بها ترى روبيكا في مقعدها المتحرك، وقد جلست تمص إصبعها، وعيناها تبرقان كعيني هر في الظلام. وأدركت فيزيتا سيون، وقد صعقها الرعب وحطمها القدر الذي يلاحقها، في تينك العينين، أعراض الداء الذي أكرهها وأخاها على الاختيار الطوعي لنفي نفسهما، إلى الأبد، من مملكة قديمة قدم الدهر، حيث كانا أميراً وأميرة. لقد كان ذلك طاعون الأرق.

وعند الصباح، كان الهنديّ كاتور قد غادر البيت. وبقيت أخته، لأن قلبها المؤمن بالقدر أعلمها أنّ الداء المميت سوف يلاحقها حتى آخر منعرجات الأرض. ولم يدرك أحد قلق فيزيتا سيون وذعرها. فخوزيه أركاديو بوينديا كان يقول :

«إذا لم ننم كان أفضل لنا. فعندها نستطيع أن نجني أكثر من الحياة». ولكن الهندية أوضحت له أنّ ما يخشى من مرض الأرق ليس استحالة النوم لأن الجسد لا يحس بأي تعب، وإنما تطوره إلى ما هو أخطر : فقدان الذاكرة. كانت تعني أن المريض، بالقدر الذي يتعوّد فيه حالة السهر،

تمّحي من دماغه ذكريات الطفولة، فأسماء الأشياء والمفاهيم، ثم هويات الأشخاص. وبعد ذلك يتلاشى إحساس الإنسان المريض بوجوده، حتى يصل حالة البله، فيصبح بلا ماض. وانفجر خوزيه أركاديو بوينديا ضاحكاً، ظاناً أن ما تصفه الهندية ليس سوى مرض من الأمراض التي تصفها خرافات الهنود. ولكن أورسولا، من باب الأمان، اتخذت خطوة وقائية، فعزلت روبيكا عن الطفلين.

وبعد بضعة أسابيع بدت مخاوف فيزيتا سيون قد تلاشت. ولكن خوزيه أركاديو بوينديا قضى ليلة بطولها يتقلّب في فراشه يمنة ويسرة دون أن يستطيع نوماً. وسألته أورسولا عمّا به، وكانت، هي الأخرى، مستيقظة، فأجاب : «عدت إلى التفكير بشأن برونسيو إجويلار». ولم يطبق لهما جفن دقيقة واحدة في تلك الليلة. ولكنهما في اليوم التالي شعرا بالقوة والنشاط، حتى نسيا كل ما يتصل بتلك الليلة التعيسة. وقد علّق أوريليانو بشيء من الدهشة، وقت الغداء، بأنه يجد نفسه على أحسن حال مع أنه أمضى ليلته بكاملها في المخبر يُذهّب حليةً ينوي أن يقدمها لأورسولا في عيد ميلادها. ولم يفطن أحد للأمر إلاّ في اليوم الثالث، وقد لاحظوا أنهم لا يرغبون في النوم لدى حلول وقته، ثم تبينوا أنهم قضوا خمسين ساعة دون نوم.

وعلّقت الهندية، القدرية المعتقد، قائلة : «والأطفال يقظون أيضاً. فعندما يدخل المرض بيتاً لا يسلم منه أحد».

لقد أصيبوا فعلاً بمرض الأرق. وكانت أورسولا قد تعلمت من أمها خصائص النباتات الطبية، فأعدّت شراب الأكونيت، وسقتهم منه جميعاً، ولكنهم لم يستطيعوا النوم، وقضوا نهارهم يحلمون أيقاظاً. وأخذوا يرون، في حالتهم تلك من الهلوسة ووضوح الرؤية الرهيب، الصور التي تشكّل أحلامهم، ثم أخذ كل منهم يرى صور أحلام

الآخرين. وبدا كأن البيت امتلأ بالزائرين. وقد حلمت روبيكا، وهي قابعة في إحدى زوايا المطبخ على مقعدها المتحرك، برجل يشبهها كثيراً، يرتدي لباساً أبيض، في ياقة قميصه زرّ من ذهب، وقد جاء يحمل لها باقة ورد. وكانت ترافقه امرأة لها يدان رقيقتان، سحبت وردة من الباقة وعلقتها في شعر روبيكا. وأدركت أورسولا أن الرجل والمرأة لم يكونا سوى أهل روبيكا. وقد بذلت جهداً كي تتعرف إليهما، ولكن روبيكا أكدت لها يقيناً أنها لم ترهما قط من قبل.

وقد ارتكب خوزيه أركاديو بوينديا خطأ لم يغفره لنفسه من بعد. فقد ظلت حلويات الكراميلا، المصنوعة على هيئة الحيوانات، تباع في القرية. وظل أهل القرية، كباراً وصغاراً، يمصون، فرحين، طيات ديوك الأرق الخضراء، وسمكات الأرق الوردية الفاخرة، وخيول الأرق الصغيرة الطرية الصفراء، حتى أن فجر يوم الإثنين قد طلع على القرية وأهلها جميعاً يقظون. ولم يكترث في البدء أحد لما يحدث، بل إنهم فرحوا بأنهم لم يناموا لأن العمل كان كثيراً في ماكوندو، وكان النهار يبدو قصيراً. وقد بذلوا جهوداً كبيرة حتى باتوا بلا عمل، وقد أدركوا الساعة الثالثة صباحاً، وقد جلسوا وأيديهم متصالبة على صدورهم يعدون أنغام دقات الساعات. أما الذين أحبوا منهم أن يناموا، لا عن تعب، بل لكي يحلموا من جديد. فقد لجؤوا إلى مختلف الأساليب المجهدة، ثم اجتمعوا كي يتحدثوا دون انقطاع. فاستعادوا، على مدى ساعات طوال، النكات والطرف المعروفة المألوفة نفسها. ثم راحوا يروون، حتى درجة التعب والسأم، قصة الديك المسمّى. وهي لعبة أو قصة لا نهاية لها. يسأل الراوي فيها السامعين ما إذا كانوا يريدون أن يقصّ عليهم قصة الديك المسمّى. فإذا قالوا : نعم، أجاب بأنه لم يسألهم كي يقولوا نعم، بل ما إذا كانوا يريدون أن يروي لهم قصة الديك المسمّى. وإذا صمتوا جميعاً،

قال الراوي إنه لم يطلب من أحد أن يصمت، بل ما إذا كانوا يريدون أن يقص عليهم قصة الديك المسمّى. ولم يكن أحد منهم يستطيع الذهاب إلى أي مكان، لأن الراوي كان يخاطبهم قائلاً إنه لم يطلب من أحد منهم الذهاب، بل ما إذا كانوا يريدون أن يروي قصة الديك المسمّى. وهكذا، دواليك، في كل حالة ولدى كل جواب وعند أي سلوك، وفي حلقة مفرغة يمكن أن تستمر ليالي بطولها.

وعندما أيقن خوزيه أركاديو بوينديا أن طاعون الأرق قد اجتاح البلدة، جمع رؤساء العائلات ليشرح لهم ما كان يعرفه عن مرض الأرق. فاتفقوا على اتباع طرق معينة، واتخاذ الاحتياطات اللازمة، للحؤول دون انتشار الوباء إلى قرى منطقة المستنقع الأخرى. ومن ذلك، مثلاً، أنهم انتزعوا الأجراس والنواقيس، التي بادل بها العرب الببغاوات، من أعناق الماعز، ووضعوها في مدخل القرية، في تصرف الذين لا يقبلون تحذير الحراس ولا يصيخون إلى تعليماتهم وتنبيهاتهم، ويصرون على الدخول إلى البلدة. فكان كل غريب يتجول، آنذاك، في طرقات ماكوندو، يحمل جرساً يرنّ به، كي يعلم أهل البلدة المرضى أنه سليم من المرض. وما كان يسمح للغرباء بأن يأكلوا أو أن يشربوا خلال إقامتهم في ماكوندو، فقد ثبت أن ذلك المرض ينتقل عن طريق الفم وحسب، وأن الطعام والشراب أصبحا موبوءين بعدوى الأرق. وهكذا أمكن حصر الوباء في البلدة ومحيطها. وقد تمّ اتباع الحجْر الصحي وروعيت حالة الحصار هذه بدقة، حتى صارت هذه الحال هي الحال الطبيعية للبلدة والناس فيها. وسارت الأمور بطريقة طبيعية، استؤنف فيها العمل دون أن يهتم أحد بعادة النوم التي لا نفع فيها.

وكان أورليانو هو الذي استوعب المعادلة التي مكّنت الناس من الحفاظ على أنفسهم، خلال بضعة أشهر، من فقدان الذاكرة. وقد

اكتشف تلك المعادلة بالمصادفة. فقد خبر الأرق مبكراً، إذ انه كان من أوائل الذين أصيبوا به، وبذلك تعلم، يومئذ، من التعلّم لإتقان فنّ صياغة الفضة. فذات يوم، نسي اسم السندان الصغير الذي يستخدمه في تطريق المعادن، بينما كان يبحث عنه. ولم يستطع تذكر اسمه. فأخبره أبوه باسمه: «سندان». فكتب أوريليانو الاسم على قطعة ورق لصقها على قاعدة السندان الصغير: «سندان». وهكذا، أيقن أنه بهذه الطريقة لن ينساه مستقبلاً. ولم يخطر له أن هذا كان أول أعراض فقدان الذاكرة، لأنه كان للشيء اسم يصعب تذكره. ولكنه تبيّن، بعد بضعة أيام، أنه يجد صعوبة في تذكر معظم أدوات المختبر. ولذلك وضع على كل أداة اسمها، فما كان عليه إلا أن يقرأ الاسم لكي يتعرف إلى الأداة.

وعندما أبدى الأب لابنه تخوفه لأنه نسي أهمّ أحداث طفولته، شرح له أوريليانو طريقته التي طبقها خوزيه أركاديو بوينديا في البيت كله ثم نشرها في البلدة كلها. فسجّل على كل شيء اسمه بفرشاة مغموسة بالحبر: طاولة، كرسي، ساعة، باب، حائط، سرير، مقلاة. ثم عمّم الطريقة نفسها على الحظيرة، فسجّل الحيوان والنبات: بقرة، عنزة، خنزير، دجاجة، شجرة مانيوك، مانغا، موز. وبعد أن راح يسبر أغوار احتمالات النسيان وفقدان الذاكرة شيئاً فشيئاً، أيقن أنه قد يأتي يوم يتعرّف فيه الإنسان على الأشياء من أسمائها الملصقة بها، دون أن يتذكر شيئاً من فوائدها أو خصائصها. ولذلك جعل يزيد في الشرح، فعلّق على غارب البقرة لافتة، أرادها مثلاً يحتذي به أهل ماكوندو في كفاحهم ضد فقدان الذاكرة:

«هذه هي البقرة، يجب حلبها كل صباح لكي تعطي الحليب. والحليب يجب أن يغلى كي يخلط بالقهوة، فتحصل على قهوة بالحليب».

وهكذا ظلوا يعيشون في حياة الحقيقة الهاربة، يحاولون الإمساك بها، إلى أجل، فيأسرونها بالكلمات. ولكنها ما تلبث أن تفلت منهم فارّة بلا عودة عندما ينسون معاني الكلمات وقيمة الكتابة.

عند أول الطريق المؤدي إلى منطقة المستنقعات، وضعت لافتة باسم ماكوندو، ولافتة أخرى أكبر من الأولى في الشارع الرئيس كتب عليها: الله موجود. وكتبت في كل بيت، دون استثناء، أدلّة تذكّر بما ينبغي أن يثبت في الذاكرة من أشياء ومشاعر. غير أن مثل هذا النظام كان يتطلب حزماً شديداً وقوة طبع، حتى إن عدداً كبيراً من الناس بدأ يستسلم لسحر الخيال. وراح هؤلاء يغذون هذه الحياة الخيالية في أنفسهم، على الرغم من بعدها عن الواقع، لأنها مريحة. وكانت بيلار تيريزا أكثر من ساهم في الدعوة لهذه الخدعة، عندما خطرت لها فكرة ذكية، مؤداها أن تقرأ الماضي في أوراق اللعب، كما كانت، من قبل، تقرأ المستقبل. وبهذه الطريقة، أخذ الناس الذين لا ينامون يعيشون في عالم ورق اللعب الحافل بالمفاجآت والمصادفات، التي تتوحّد فيها، شئنا أم أبينا، ذكرى الأب الخافتة بذكرى ذلك الرجل الأسمر الذي وصل في أول نيسان (أبريل)، وتبدو صورة الأم، تلك المرأة السمراء التي تحمل في يدها اليسرى خاتماً ذهبياً، وحيث يعود تاريخ ولادة ما إلى آخر ثلاثاء سمع فيها غناء قبرة على شجرة الغار. وشعر خوزيه أركاديو بوينديا بالهزيمة واليأس أمام تلك الممارسات التي كانت تهدىء وتواسي ولكنها لا تعالج، فقرّر أن يبني آلة الذاكرة، التي طالما سبق له أن تمنّاها كي يتذكر اختراعات الغجر العظيمة كلها. وكان الأساس الذي تقوم عليه هو مراجعة كل المعلومات التي يكتسبها الإنسان عبر حياته في صباح كل يوم. وقد تصوّرها على هيئة قاموس محوري، أي ذي حركة دائرية، يستطيع المرء القائم على محورها أن يحركها بوساطة مقبض أو رافعة، فتمرّ أمام عينيه، في بضع ساعات،

الأفكار والمبادىء الضرورية جداً له في الحياة. ولقد تمكن من كتابة ما يقرب من أربعة عشر ألف مُدْخل أو جزء، عندما ظهر على طريق منطقة المستنقعات رجل عجوز، غريب الشكل يحمل جرس النائمين الحزين وحقيبة ضخمة مربوطة بحبل، ويجر عربة عليها غطاء أسود. واتجه الرجل رأساً إلى دار خوزيه أركاديو بوينديا.

لم تعرفه فيزيتا سيون حين فتحت له الباب. فقد ظنت أنه يريد أن يبيع شيئاً، وهو لا يعلم أنه لا يمكن بيع شيء في بلدة تغوص في فيافي النسيان دونما رجاء في الشفاء. وعلى الرغم من صوته المتهدج الذي حطمه الشك وعدم اليقين، ومن يديه اللتين تشكان في وجود الأشياء، كان واضحاً عليه أنه قد جاء من العالم الذي ما زال فيه البشر يستطيعون أن يناموا وأن يتذكروا.

جاء خوزيه أركاديو بوينديا، فوجده جالساً في غرفة الجلوس، يحرّك أمامه، لجلب الهواء، قبّعة سوداء مرقّعة، بينما يقرأ باهتمام اللافتات المثبتة على الجدران. حيّاه بمودّة وعاطفة وحرارة، خاشياً أن يكون قد عرفه في زمان مضى ولكنه لا يستطيع تذكره الآن. ولكن الزائر كان على بيّنة من أنّ ذلك ادّعاء باطل. فقد شعر بأنه قد بات منسياً، وما كان ذلك من نسيان القلب الذي يمكن إصلاحه، وإنما هو نسيان من نوع آخر أدهى وأقسى، لأنه لا شفاء منه. وهو يعرف جيداً أنه نسيان الموت. لقد أدرك الموقف. وعندها فتح حقيبته المكتظّة بالأشياء السريّة، وأخرج منها علبة صغيرة ملأى بالقوارير الصغيرة. فأعطى خوزيه أركاديو بوينديا شراباً لطيف اللون، فعاد النور إلى ذاكرته فوراً، واغرورقت عيناه بالدموع حتى قبل أن يلاحظ موقفه ويكتشف عبث المكان الذي هو فيه، حيث عُلّقت على الأشياء أسماؤها، وقبل أن يشعر بالخجل من تلك التفاهات المكتوبة على الجدران، وقبل أن يتعرّف شخصية الزائر الجديد في أوج دهشته وفي

إشراقة لا توصف من الدهشة والغبطة. لقد كان ذلك القادم الجديد هو ملكيادس نفسه.

وبينما كانت ماكوندو تحتفل باستعادة ذاكرتها، كان خوزيه أركاديو بوينديا وملكيادس ينفضان غبار الزمن عن صداقتهما القديمة. ولقد جاء ذلك الغجريّ إلى البلدة بنيّة البقاء فيها. فلقد مرّ فعلاً بخبرة الموت، ومضى إلى ديار الموتى، ولكنه عاد منها لأنه لم يقوَ على احتمال الوحدة. ولمّا كان قد نفي ونُبذ من قبل قبيلته، بعد أن فقد كل قدراته الخارقة بسبب وفائه للحياة، فقد قرّر أن يلوذ بتلك الزاوية من العالم التي لم يكتشفها الموت بعد، كي يكرّس نفسه للعمل في مخبر للتصوير. ولم يكن خوزيه أركاديو بوينديا قد سمع بمثل هذا الاختراع من قبل. ولكنه، عندما رأى نفسه وقد ثبت وعائلته إلى الأبد على صفيحة معدنية برّاقة، استولت عليه الدهشة ولم ينبس ببنت شفة. ويرجع إلى ذلك التاريخ عهد الصورة المعدنية المؤكدة التي يُرى فيها خوزيه أركاديو بوينديا، بشعره الرماديّ الكثّ، وياقته المقفلة على أعلى عنقه بزرٍّ نحاسيّ، وهيئته الوقورة الكئيبة الصارمة، كأنه، على ما وصفته به أورسولا وهي تكاد تموت ضحكاً، جنرال خائف. والحقّ أن خوزيه أركاديو بوينديا كان خائفاً في ذلك الصباح الصافي الهادىء من شهر كانون الأول (ديسمبر)، الذي التقطت فيه الصورة، لأنه كان يظن أن الناس يزولون شيئاً فشيئاً بينما تبقى صورته منقوشة على اللوحة المعدنية. والغريب أن أورسولا هي التي انتزعت من رأسه هذه الفكرة، وهي التي قررت أيضاً، بعدما نسيت مرارتها وضغائنها القديمة، أن يعيش ملكيادس معهم في البيت. ولكنها لم تسمح لهم قط بتصويرها، لأنها (كما قالت بنفسها حرفياً) لا تريد أن تظل إلى الأبد أضحوكة لأحفادها. في ذلك الصباح، ألبست الأولاد أفضل ثيابهم، وجمّلت وجوههم بالمساحيق، وناولت كلاً منهم ملعقة

من شراب خلاصة النخاع، كي يبقوا جامدين، بلا حراك، خلال قرابة دقيقتين أمام آلة تصوير ملكيادس الرائعة..

كان أوضح ما في تلك الصورة العائلية أوريليانو، بثوبه المخمليّ الأسود، وهو بين أمارانتا وروبيكا. وكانت تبدو على وجهه إمارات التعب نفسها، وفي عينيه تلك النظرة الثاقبة ذاتها، التي سوف تبدو عليه بعد سنين طويلة، وهو يقف في مواجهة فرقة الإعدام. ولكنه، عندئذ، لم يكن يدري شيئاً عن القدر الذي كان ينتظره. فلم يكن سوى صائغ فضة خبير، تقدّر منطقة المستنقعات كلها ذوقه الرفيع وروعة عمله في تلك الصناعة.

لم يكن يسمع له صوت نفس في المشغل، الذي كان يضم معه مخبر ملكيادس الغريب. وكان يبدو كأنه ينتمي إلى زمن آخر غير زمنه، بينما كان أبوه والرجل الغجري يفسران، في ضجة وصياح، نبوءات نوسترادامس، بين قرقعة الدوارق والأنابيب والمكثفات والصواني، ومشكلات اندلاق الأحماض وضياع بروميد الفضة نتيجة اللكزات والعراك في كل ثانية. وقد استطاع أوريليانو، بسبب تكريس نفسه لعمله، وبذكائه ونباهته في تركيز اهتمامه وإدارة مصلحته، أن يجمع من الثروة، في وقت قصير، ما يفوق ما جمعته أورسولا من حلويات الكاراميلا المشكلة على هيئة حيوانات صغيرة، ولكن الناس جميعاً كانوا يستغربون منه أن يبلغ مبلغ الرجال تماماً دون أن يعرف عنه أنه عاشر امرأة. والحقّ أنه لم يعاشر قط أمرأة بعد.

وبعد بضعة أشهر، عاد فرانسيسكو، ذلك الرجل الشريد القديم، الذي كاد يبلغ من العمر مئتي عام، قضاها وهو يجوب العالم، وكثيراً ما مرّ ببلدة ماكوندو، يغني ويوزّع أغاني وألحاناً من تأليفه. وكان فرانسيسكو يروي بأغانيه تلك تفاصيل الأحداث التي كانت تجري في

القرى الواقعة على طريق رحلاته من مانور حتى أقصى أطراف منطقة المستنقعات. حتى كان من يريد إرسال رسالة ما، أو نشر حدث من الأحداث، يدفع له سِنتَين، كي يضيف ذلك إلى تقريره الغنائي. وبهذه الطريقة علمت أورسولا بموت أمها، ببساطة لمجرّد أنها كانت تستمع، ذات ليلة، إلى الأغاني لعلها تعرف شيئاً من أخبار ابنها خوزيه أركاديو. وقد اختفى فرانسيسكو من ماكوندو أيام انتشار طاعون الأرق، اختفى ذلك الرجل الذي دعي بهذا الاسم لأنه غلب الشيطان في مبارزة ارتجال الأغاني. ولم يعرف اسمه الحقيقي. ولكنه عاد فظهر من جديد فجأة في مخزن كاتارينو في البلدة. واجتمع أهل البلدة كافة للاستماع له، لكي يعرفوا ما جرى من أحداث في العالم. وقد جاءت بصحبته، هذه المرة، امرأة بدينة ضخمة الجثة. حتى إن أربعة هنود يحملونها على مقعد هزاز، وتدرأ عنها الشمس مظلة واقية، فتاة مراهقة خلاسية حزينة.

في تلك الليلة، ذهب أوريليانو إلى مخزن كاتارينو. فوجد فرانسيسكو الرجل جالساً كتلة واحدة كحرباء، وحوله حلقة من النظارة مستطلعي الأنباء. وكان يغني الأنباء بصوته القديم المتعب النشاز، وهو يعزف على الأوكورديون العتيق نفسه، ذاك الذي أهداه إليه السير والتر رالي في غوايانا، ويضبط الإيقاع بقدميه المشّاءتين الكبيرتين اللتين شقّقهما ملح البارود. وعند باب القاعة الخلفي، الذي يدخل الناس منه ويخرجون، كانت تقعد العجوز، ذات المقعد الهزّاز، صامتة تحرّك مروحتها. وكان كاتارينو، بوردته المخملية خلف أذنه، يبيع الحاضرين صحاف شراب قصب السكّر المخمّر. وكان يتحيّن هذه الفرصة ليقترب من الرجال فيلامس منهم ما لا ينبغي له أن يفعل. وعندما انتصف الليل باتت الحرارة لا تطاق. وقد أصغى أوريليانو إلى الأخبار المغنّاة حتى نهايتها، فما وجد فيها ما يهم أهله. وبينما كان يهم بالعودة إلى البيت،

أشارت العجوز له بيدها، قائلة :

ـ «ادخل أنت أيضاً. فذلك لا يكلفك سوى عشرين سنتاً».

وألقى أوريليانو قطعة نقود في المطمورة التي كانت العجوز تضعها في حضنها، ودخل الغرفة وهو لا يدري سبباً لذلك. كانت الفتاة الخلاسية الصغيرة، بنهديها الشبيهين بضرع كلبة، مستلقية عارية على السرير. وقبل أوريليانو كان قد مرّ ثلاثة وستون رجلاً في تلك الغرفة. كان الهواء مشبعاً بالرذيلة، مترعاً بالعرق، مجبولاً بالتنهدات، تخالطه، نتيجة لكثرة الاستعمال، رائحة الطين والعفن. شدّت الفتاة غطاءها المبلول فخلعته عنها، وطلبت إلى أوريليانو أن يمسك به من الطرف الآخر. كان ثقيلاً كقطعة من نسيج الكانانا. عصراه وهما يفتلانه من طرفيه حتى عاد إلى وزنه الطبيعي. وقلبا الفراش، وهو حصيرة من تبن وقش، فتحوّل العرق إلى الجهة الأخرى يخرج منها. وكان أوريليانو يرجو ألاّ تنتهي هذه العملية. فقد كان يعرف مبادىء آلية الحب نظرياً، ولكنه لم يستطع الوقوف على قدميه، فقد خار فخذاه تحته لضعف ركبتيه. واقشعرّ بدنه، وبات لا يستطيع مقاومة الاضطراب في أمعائه، وإلحاح شيء ما على الخروج منها، على الرغم من الحريق الذي كان يشتعل في جلده كأنما هو نوع من الوخز. وعندما انتهت الفتاة من إعداد السرير وطلبت إليه أن يخلع ثيابه، قدم لها شرحاً مشوّشاً مرتبكاً، فأجاب دون أن ينتبه لما يقول :

ـ «أدخلوني إلى هنا، وطلبوا إليّ أن ألقي عشرين سنتاً في المطمورة، وقالوا لي أن أسرع في الخروج. ولا أطيل البقاء».

وأدركت الفتاة حيرته، فقالت له بصوت رائق عذب :

ـ «إذا ألقيت عشرين سنتاً أخرى في المطمورة عند الخروج، يمكنك البقاء فترة أطول».

وخلع أوريليانو ثيابه، يعذبه شعوره بالعار وفكره عن الطهارة، وهو لا يستطيع أن يبعد من عقله فكرة مقارنة عريه بعري أخيه. وأحس، على الرغم مما بذلته الفتاة من جهد، أنه بعيد وأنه وحيد وحيد. وخاطبها قائلاً : «سوف أدفع عشرين سنتاً أخرى». فشكرته وهي صامتة.

كان ظهرها عارياً، وقد التصق جلدها بأضلاعها، يهصر أنفاسها تعب غير محدود. فقبل سنتين من ذلك اليوم، وفي مكان قصيّ عن ذلك المكان، نامت في الليل دون أن تطفىء شمعتها، ثم استفاقت والنار ملتهبة تحيط بها فتأكل كلّ شيء في البيت، حتى استحال ذلك البيت، الذي كانت تسكنه وجدتها التي كفلتها، إلى كومة من رماد. ومنذ ذلك اليوم، أخذتها جدتها، وراحت تتنقل بها من قرية إلى قرية، وتكرهها على مضاجعة الرجال لقاء عشرين سنتاً، عن كل رجل، حتى تسدّد ثمن البيت الذي احترق. وقد بقي للفتاة، طبقاً لحساباتها، عشر سنين تقريباً تضاجع فيها كلّ ليلة سبعين رجلاً، لأنها كانت مضطرة لأن تدفع نفقات السفر والطعام لها ولجدتها، وأن تدفع كذلك أجر أربعة هنود يحملون مقعد الجدة المتحرك.

وعندما قرعت العجوز باب الغرفة، للمرة الثانية، خرج أوريليانو دون أن يكون قد فعل شيئاً، وقد اخضلت عيناه رغبة في البكاء. ولم يغمض له جفن، في ليلته تلك، وهو يفكر بالفتاة الخلاسية، وقد اختلطت لديه الشهوة بالشفقة. كان يحس بحاجة لا تقاوم لحبها وحمايتها. وعند الفجر حزم أمره بهدوء، وقد أنهكه النعاس والحمّى، وقرّر أن يتزوجها لعله ينقذها من ظلم جدتها، فيستمتع بكل ما تمنحه من لذائذ الليل لسبعين رجلاً. ولكنه، عندما وصل في الساعة العاشرة إلى مخزن كاتارينو، كانت الفتاة قد رحلت عن البلدة.

وقد أذبل الزمن قراره المتسرع، ذلك القرار الذي اتخذه من غير تبصّر

أو وعي، ولكنه زاد من إحساسه بالحرمان وخيبة الأمل. فلاذ بالعمل، مصمماً على أن يبقى طوال حياته رجلاً بلا امرأة، لكي يخبيء خجله وعاره من أنه رجل لا ينفع لشيء.

في أثناء تلك الفترة، كان ملكيادس قد فرغ من تسجيل وطباعة كل ما يمكن طباعته من ماكوندو على لوحاته، ثم ترك مخبر التصوير لتصوّرات خوزيه أركاديو بويندیا ونزواته، فقرّر هذا الأخير أن يستعمل المخبر لإقامة الدليل العلمي على وجود الله. وبات على يقين بعد استنتاجاته المتلاحقة المعقّدة، التي توصل إليها في أنحاء البيت المختلفة، من أنه، عاجلاً أم آجلاً، سوف يحصل على صورة لله، إذا كان الله موجوداً، وإلاّ فإنه سوف يلغي، مرة وإلى الأبد، فرضية وجوده. وراح ملكيادس يتعمق في تفسيراته لنوستراداموس [1]. فكان يقضي الوقت، حتى الهزيع الأخير من الليل، منزوياً في صدريته المخملية الضيقة الحائلة ألوانها، يكتب بيديه الصغيرتين الشبيهتين بقائمتي عصفور دوريّ، وقد فقدت الخواتم في أصابعه بريقها القديم. وظن في إحدى الليالي أنه توصل إلى نبوءة تتعلق بمستقبل ماكوندو.

وتقول النبوءة إن ماكوندو سوف تغدو مدينة مشرقة باهرة، بيوتها كبيرة من زجاج، ولكن دون أن يبقى فيها أحد من سلالة بويندیا. وصاح خوزيه أركاديو بويندیا هادراً: «هذا خطأ. فلن تكون البيوت من زجاج، بل من جليد، كما رأيت أنا في المنام، وسيبقى فيها دائماً بعض آل بويندیا، حتى آخر الدهر».

كانت أورسولا تكافح كي تحافظ على التوازن والمنطق والحس السليم في ذلك البيت المعتوه المتهوّر. فوسّعت تجارتها في حلويات الكاراميلا المصنوعة على هيئة حيوانات صغيرة، بوساطة فرن تظل، الليل بطوله، تصدر منه سلاّت وسلاّت من الخبز وأنواع شتّى من الفطير والحلوى

(1) صاحب النبوءات الشهور

ورقائق البسكوت، التي كانت توزع، خلال ساعات قلائل، فتعمّ طرف منطقة المستنقعات الملتوية المتعرجة كلها.

وكانت قد بلغت من العمر ما يجعل من حقها أن ترتاح، ولكنها، بدلاً من ذلك، كانت تزداد نشاطاً يوماً بعد يوم. كان النجاح في تجارتها يملأ عليها حياتها ويستغرق كل وقتها. وفي عصر أحد الأيام، وبينما كانت الفتاة الهندية تساعدها في تحلية العجين بالسكر، حانت منها التفاتة عجلى، دون تركيز أو انتباه، إلى الدار. وإذا بها ترى فتاتين جميلتين لم تميزهما وكانت كل منهما تحوك على نولها على ضوء الأصيل. ولم تكن الفتاتان سوى ريبيكا وأمارانتا، وقد نزعتا عنهما ثياب الحداد على الجدة، التي ارتدتاها أعواماً ثلاثة بتزمّت شديد. وكان يبدو عليهما بزينتهما وملابسهما بألوانها الفاقعة كأنهما مولودتان من جديد. كانت ريبيكا خلافاً لكل توقع، هي الأجمل. كان لونها شفّافاً، وعيناها واسعتين هادئتين، ويداها ساحرتين حتى بدت كأنما تصنع تصميم سداة التطريز بخيوط خفية. أما أمارانتا، وكانت أصغر سناً: فكانت قليلة الجاذبية والرشاقة، لكنّ لها ألقاً طبيعياً وعنفواناً داخلياً ورثتهما عن جدتها المتوفّاة. وكان يجلس قريباً منهما أركاديو الذي بدأ يتخذ شكل نمو أبيه الصارخ من الناحية الجسدية، وإن كان لا يزال طفوليّ المظهر. وقد بدأ يتعلم حرفة صياغة الفضة مع أوريليانو، الذي علمه كذلك القراءة والكتابة.

وأدركت أورسولا، فجأة، أنّ البيت قد امتلأ بالناس، وأن أولادها سوف يصبحون قريباً في سن الزواج، ثم يكون لهم أولاد، ويضطرون للرحيل والانتشار بسبب ضيق المكان. فأخرجت المال الذي جمعته، خلال أعوام الشقاء الطويلة، وحصلت على بعض المساعدات من زبائنها، ثم بدأت تخطط لتوسيع البيت. خصّصت غرفة استقبال للزوّار،

وأخرى أكثر حيوية وبساطة لأهل البيت، وغرفة للطعام تسع لمائدة عليها اثنا عشر طبقاً تكفي العائلة والضيوف واشتملت خطة البيت على تسع غرف لها نوافذ تطل على فناء الدار، وشرفات واسعة تقيها الحرّ من شمس الظهيرة وورود كبيرة متدلية، ولها حوافّ عليها أوان وأصص زرع فيها بعض السرخس والبيونيا. وأمرت أورسولا بتوسيع المطبخ ليشتمل على فرنين. وبهدم المخزن القديم، الذي قرأت فيه بيلار تيرنيزا الحظ، بورق اللعب، لخوزيه أركاديو، وبناء مخزن جديد يكبر السابق مرتين، كي لا تنقص مؤونة البيت الاحتياطية. وأنشأت في فناء الدار، في ظل شجرة الكستناء، حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء، وأقامت في طرف الفناء اسطبلاً كبيراً، وزريبة مسيّجة للدواجن، وحظيرة لبقر الحليب، ومأوى للطيور مفتوح السقف مشرع الأبواب، لعلّ الطيور الضالة تأوي إليه على هواها.

وجعلت أورسولا، وكأنّ حمّى زوجها قد أصابتها بدوارها، تخطط وتنظم، يتبعها إثنا عشر من البنائين والنجارين، اتجاه الضوء وانتقال الحرارة، وتوزع المكان من غير أن تكون لديها أية فكرة عن حدوده. وهكذا امتلأ بيت المؤسسين البدائي بالأدوات ومواد البناء والعمال اللاهثين من التعب، والمتصببين عرقاً، وهم يرجون أهل البيت ألا يعرقلوا غدوّهم ورواحهم، دون أن يدركوا أنهم هم الذين يعرقلون حياة من في البيت. وكان أكثر ما يزعجهم إنما هو كيس العظام البشرية، الذي كان يلاحقهم أنّى اتجهوا بقرقعته التي لا تنقطع.

والحق أن أحداً لا يدري كيف أمكن أن تخرج من بين كل تلك الإزعاجات وروائح الكلس والطين الحار، وسائل القطران، ومن أحشاء تلك الأرض، أجمل الدور وأنضرها وأبردها وأكرمها، لا في البلدة وحدها، بل في تلك المنطقة كلها. وكان أقلّ الناس إدراكاً لما جرى

خوزيه أركاديو بوينديا، الذي كان منصرفاً بكل جهده وذهنه، لاكتشاف العناية الإلهية، بينما كان ذلك الانقلاب يتمّ دون هوادة. وعندما قارب البيت على الانتهاء، جاءته أورسولا كي تخرجه من عالم أحلامه، وتخبره أنها قد استلمت أمراً بطلي الواجهة باللون الأزرق لا الأبيض الذي قرّراه. وأطلعته على وثيقة الأمر الرسمي. فدقّق خوزيه أركاديو بوينديا النظر في التوقيع، ودون أن يدرك ما كانت تتحدث عنه، سألها قائلاً :

ـ «من هو هذا؟».

فقالت أورسولا بلهجة حزينة : «إنه الحاكم. ويقول الناس إنه صاحب السلطة الذي أرسلته الحكومة».

لقد وصل الدون أبولينار موسكوت، وهو الحاكم، إلى ماكوندو في غاية الهدوء. فأقام في فندق جاكوب، الذي بناه أحد العرب الأوائل الذين جاؤوه يقايضون الببغاوات ببضاعتهم. واستأجر في صباح اليوم التالي مكتباً صغيراً يشرف على الطريق العام غير بعيد عن بيت آل بوينديا. ثم اشترى من جاكوب طاولة وكرسياً جعلها في المكتب، وعلق على الجدار شعار الجمهورية الذي حمله معه، وكتب على الباب كلمة «الحاكم». وكان أول أمر أصدره أن تطلى البيوت كلها باللون الأزرق احتفالاً بذكرى الاستقلال الوطني. فأسرع خوزيه أركاديو بوينديا، ممسكاً بيده نسخة من الأمر الجديد، فوجد الحاكم الجديد في قيلولته، مستلقياً في أرجوحة معلقة في الغرفة الصغيرة التي اتخذها مكتباً له. سأله : «أأنت الذي كتبت هذه الورقة؟» وكان الدون أبولينار موسكوت رجلاً ناضجاً، غير شجاع، ولكنّ له ملامح مزاج دموي. فأجابه : نعم. فسأله خوزيه أركاديو بوينديا من جديد : «وبأي حق؟». فأخرج الدون أبولينار موسكوت ورقة من درج مكتبه، وأراه إياها قائلاً : «لقد عيّنت حاكماً لهذه البلدة». ولكن خوزيه أركاديو بوينديا لم يقرأ كتاب التعيين، بل قال

له وهو يحافظ على هدوئه : «نحن في هذه البلدة لا نصدر الأوامر على قطع من ورق. وليكن معلوماً لديك الآن، وإلى الأبد، أننا لا نحتاج لحاكم هنا إذ ليس لدينا ما نحتكم بشأنه».

وقف خوزيه أركاديو بوينديا في مواجهة الدون أبولينار موسكوت، الذي بدا هازئاً في موقفه، وراح يروي له بصوت هادىء كيف أسسوا القرية، وكيف وزعوا فيها الأرض، وشقوا الطرقات، وذكر له التحسينات ومظاهر التقدم التي كانت تتحقق عندما تدعو لها الحاجة، وكيف تمّ كل ذلك دون أي ازعاج لأية حكومة ودون أن يزعجهم أحد. وأضاف قائلاً : «نحن قوم مسالمون إلى درجة أنّ أحداً منّا لم يمت حتى الآن، حتى نتيجة الموت الطبيعي. وبوسعك أن ترى أنه لا توجد عندنا أية مقبرة». ولم يتزعج، ولم يشك من أن الحكومة لم تقدم لهم يد المساعدة. على العكس تماماً، فقد أبدى ارتياحه وسروره، لأن الحكومة تركتهم ينعمون بسلام، وودّ لو أنها تستمر في ذلك. فهم لم ينشئوا البلدة من أجل أن يأتيهم أول قادم إليهم فيملي عليهم أوامره في ما يجب أن يفعلوه. وعند هذا الحد نهض الدون أبولينار موسكوت، فارتدى سترته العريضة المصنوعة من الكتان الأبيض، بلون بنطاله، دون أن يخرج، لحظة واحدة عن كياسته أو يتخلى عن أناقته. وختم خوزيه أركاديو بوينديا كلامه قائلاً : «أعني أنك إذا كنت قد جئت إلينا كي تقيم بيننا مواطناً عادياً كالآخرين، فعلى الرحب والسعة. أما إذا كنت قد جئت كي تبذر الفوضى وتجبر الناس على أن يطلوا بيوتهم باللون الأزرق، فتستطيع أن تحمل متاعك وترحل من حيث اتيت. واعلمك ان بيتي سوف يكون أبيض كالحمامة».

شَحُب لون الدون أبولينار موسكوت، واصفرّ وجهه، وتراجع خطوة إلى الوراء، فشدّ فكّيه وقال بشيء من الحزم والتهديد : «احذر فإني أحمل

سلاحاً».

ولم يدر خوزيه أركاديو بوينديا كيف، ولا في أية لحظة، استعاد في يديه القوة التي كان يستطيع بها أن يصرع حصاناً، فأمسك بالدون أبولينار موسكوت من قفا سترته، ورفعه بيديه حتى مستوى عينيه، وقال له :

«اني أفعل هذا لأني أفضّل أن أحملك حيّاً على أن أحمّل وجداني أمر موتك بقية أيام حياتي».

ثم دفعه خوزيه أركاديو بوينديا هكذا إلى منتصف الطريق العام، وهو يمسك به من قفاه، ثم وضعه على قدميه أمام طريق منطقة المستنقعات.

ولم يمض على ذلك أسبوع إلاّ وعاد الحاكم يصحبه ستة جنود حفاة، ممزقة ثيابهم، وهم مسلحون بالطبنجات (البنادق القديمة)، ووراءه عربة يجرها ثوران وفيها زوجته وبناته السبع. ثم وصلت عربتان أخريان تحملان الأثاث من الصناديق والأمتعة وأدوات المطبخ والأدوات المنزلية الأخرى، وأسكن الحاكم أسرته في فندق جاكوب ريثما يجد له بيتاً ويفتح مكتبه بحراسة الجنود.

وتداعى مؤسسو ماكوندو وروادها الأوائل، وتوافدوا إلى خوزيه أركاديو بوينديا، وقد عزموا على طرد الغزاة، فوضعوا أنفسهم تحت تصرفه ، هم وأبناؤهم الكبار. ولكنه اعترض لأن الدون عاد بصحبة زوجته وبناته، ولا يليق برجل أن يهين رجلاً أمام أهله. ومن أجل ذلك قرّر أن يسوّي الأمر وديّاً.

وصحبه أوريليانو، وكان إذ ذاك ذا شارب أسود معقوف مثبت بالدهن وصوت جهوريّ قوي اشتهر بهما في الحرب. ولم يكن الرجلان يحملان سلاحاً. دخلا مكتب الحاكم دون أن يأبها بالحراس، فلم يفقد الدون أبولينار موسكوت هدوء أعصابه، بل عرّفهما بابنتين من بناته كانتا عنده مصادفة، وهما : أمبارو السمراء شبيهة أمها، وهي في السادسة عشرة من

عمرها، وريميديوس الصغيرة الجميلة، وهي في التاسعة من عمرها، وكانت بلون الزنبق ولها عينان خضراوان. وكانت الفتاتان مهذبتين، رشيقتين وناعمتين لطيفتين، قدّمتا للداخلين كرسين كي يجلسا قبل أن يعرف بهما أبوهما. ولكن الأب والابن لبثا في مكانيهما واقفين.

قال خوزيه أركاديو بوينديا: «حسناً، يا صديقي، تستطيع البقاء هنا، لا من أجل قطاع الطرق الواقفين ببابك بطبنجاتهم، بل تقديراً لزوجتك وبناتك».

وبدا الأضطراب على الدون أبولينار موسكوت، ولكن خوزيه أركاديو بوينديا لم يدع له مجالاً للجواب، فأضاف: «ولكن لنا شرطين: الأول أن يطلي كل إنسان بيته باللون الذي يختاره، والثاني: أن يرحل الجنود فوراً. فنحن، من جهتنا نضمن استتباب الأمن». فرفع الحاكم يده اليمنى، قائلاً:

ـ «كلمة شرف؟».

فأجاب خوزيه أركاديو بوينديا:

ـ «بل كلمة عدو».

ثم أضاف بلهجة قاسية جافة:

ـ لأنني يجب أن أخبرك أمراً: فأنت وأنا ما نزال عدوين».

في ذلك اليوم عصراً رحل الجنود الستة، وبعد ذلك ببضعة أيام وجد خوزيه أركاديو بوينديا بيتاً للحاكم وعائلته. وعاد السلام والهدوء إلى نفوس الناس جميعاً باستثناء أوريليانو، لأن صورة ريميديوس ابنة الحاكم الصغرى ظلت عالقة في مخيلته، تؤلمه في ناحية ما من جسده، مع أنها، لصغر سنها، تكاد تكون ابنته في عمرها. وكان ذلك الإحساس البدني الغريزيّ يؤرقه ويزعجه، كيفما سار، كما لو كان حصاة عالقة في داخل حذائه.

(٤)

كان تدشين البيت الجديد الأبيض، كالحمامة، بحفلة راقصة. وقد برزت الفكرة لأورسولا، عصر ذلك اليوم، عندما لاحظت أن روبيكا وأمارانتا أصبحتا صبيتين مراهقتين. ويمكن القول إن السبب الرئيس لبناء البيت هو رغبتها في أن يكون للفتاتين مكان مناسب لاستقبال الزائرين. فقد مضى عليها وقت وهي تعمل كالمحكوم بالأشغال الشاقة في ترتيب البيت وتنظيمه، كي لا ينقص أي شيء، من جماله وبهائه الرائعين. حتى إنها، وقبل أن ينتهي العمل في البيت، أوصت على مجموعة من الأواني وأدوات التزيين الغالية جداً، ومن بينها ذلك الاختراع العظيم، الذي لا بدّ أن يثير إعجاب أهل البلدة جميعاً، وأن يفرح الفتاتين، وهو البيانو الآلي، وقد وصل هذا البيانو قطعاً معبأة في صناديق، فرّغت جميعاً، مع الأثاث المصنوع في فينا، والكريستال البوهيمي المجري والصحاف المصنوعة من قبل شركة جزر الهند، وأغطية الطاولات الهولندية، وتشكيلة غنية متنوعة من القناديل والشمعدانات وأواني الزهور، والمعلّقات وأدوات الزينة الأخرى. وقد أرسلت الشركة المستوردة، على نفقتها، اختصاصياً إيطالياً، يدعى بيترو كريسبي، كي يركب البيانو وينظم إيقاعه، ويدرب المشترين الزبائن على طريقة استعماله، ويعلمهم الرقص على أحدث الألحان التي جاء بستة ملفات منها.

كان بيترو كريسبي شاباً أشقر، لم تر ماكوندو مثله جمالاً وتهذيباً. وكان شديد العناية بأناقته، حتى إنه كان يعمل دون أن ينزع عنه قميص البروكار والصدرية والمعطف الأسود الثقيل، رغم الحرارة الخانقة. ولقد انفرد منزوياً طوال بضعة أسابيع في قاعة الاستقبال، وهو ينضح عرقاً، محافظاً على أن يبقى، تأدباً، بعيداً عن أصحاب المنزل، عاكفاً على عمله عكوف أوريليانو على مخبر صياغة الفضة. وذات صباح، وضع ملف الألحان الأول على البيانو، دون أن يفتح الباب أو أن يدعو أحداً كي يشهد المعجزة. وفجأة توقفت المطارق المزعجة، وطقطقة القضبان التي لا تنتهي، وران على المكان صمت مطبق، ثم صدحت الألحان: موسيقى هادئة صافية متناغمة ومنسجمة. وتدافع من في البيت نحو قاعة الاستقبال. ووقف خوزيه أركاديو بوينديا جامداً في مكان لا يريم. وما كانت روعة اللحن هي التي تهيمن عليه وتأسره، وإنما عزف الآلة نفسها. فجاء بآلة تصوير ملكيادس، لعله يصوّر العازف غير المرئي. وفي ذلك اليوم تناول الشاب الإيطالي طعام الغداء مع العائلة. وكانت ريبيكا وأمارانتا تقومان على خدمة الطاعمين. وقد شدتهما الدقة والأناقة اللتان يتناول بهما طعامه ذلك الرجل الملائكي ذو اليدين الشاحبتين بلا خواتم.

وعلمهما بيترو كريسبي الرقص في غرفة الجلوس المجاورة لقاعة الاستقبال. كان يعلمهما الخطوة تلو الخطوة وهو بعيد عنهما، ويضبط الإيقاع بالمترونوم، بينما أورسولا تراقب بغبطة ومودة. ولكنها لم تغادر الغرفة لحظة واحدة طوال تلقي الفتاتين دروسهما في الرقص. وكان بيترو كريسبي يرتدي، لهذه الغاية، بنطالاً خاصاً، مطاطياً رخواً لاصقاً بجسده، وحذاء خاصاً للرقص.

لاحظ خوزيه أركاديو بوينديا زوجته المراقبة، فقال لها: «ليس عليك أن تقلقي كثيراً، فهذا الرجل خنثى». ولكنها لم تكف عن المراقبة طوال

الدروس، إلى أن رحل الشاب الإيطالي عن ماكوندو. وعندها بدأوا بتنظيم الحفلة. فأعدّت أورسولا قائمة بأسماء المدعوين، الذين انتقتهم انتقاءً دقيقاً. فلم يدع إلى الحفلة سوى مؤسسي ماكوندو الأوائل وسلالاتهم. وكان الاستثناء الوحيد هو عائلة بيلار تيريزا التي كانت قد أطفلت بابنين آخرين من أبوين غير معروفين.

كان المدعوون، في الحقيقة، من أبناء الطبقة العليا، جاء اختيارهم بناء على المشاعر وعلائق الصداقة. فلم يقتصر التفصيل في الدعوة على أقدم أصدقاء خوزيه أركاديو بوينديا وجيرانه من قبل الهجرة التي آلت إلى تأسيس ماكوندو، بل شمل ذلك أبناءهم وأحفادهم، الذين كانوا رفاق أوريليانو وأركاديو الدائمين منذ الطفولة، وبناتهم الوحيدات اللواتي كنّ يزرن البيت للتطريز مع ريبيكا وأمارانتا.

أما الحاكم اللطيف الضعيف، الدون أبولينار موسكوت، فما كان يشغله سوى تسديد المصروفات لرجلي الشرطة، المسلحين بالهراوات، من موارده الضئيلة. أما سلطته فكانت صوريّة. وقد أنشأت بناته مشغلاً للخياطة كي يقمن بنفقات البيت. وكنّ، في المشغل، يصنعن الزهور المخملية، وحلوى الجوياف، وبطاقات الحب والمناسبات الأخرى، حسب الطلب. ولكنهن لم يفلحن في أن يكنّ في عداد المدعوين للحفلة، على الرغم من أنهن كنّ متواضعات ومهذبات ومجتهدات، وأجمل بنات البلدة، وأحذقهن في أداء الرقصات الحديثة.

وبينما كانت أورسولا والفتاتان يخرجن الأثاث المستورد من الصناديق، ويلمّعن الفضيات، ويعلقن على الجدران الصور واللوحات التي تحمل فتيات جميلات على متن قوارب مزيّنة بالأزهار، فتتفتّح حياة جديدة ومناظر بهيجة لأماكن الفراغ التي خلّفها البناؤون، كان خوزيه أركاديو بوينديا قد توصل إلى قراره بالتوقف عن البحث عن صورة الله،

بعد أن قنع بعدم وجوده. ثم تصدّى للبيانو ففتحه بنفسه، وفكّك أجزاءه، سعياً للوصول إلى أسرار السحر فيه. وهكذا، قبل يومين من حفلة افتتاح المنزل، وجد نفسه يغوص من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في كتلة من الأوتار والمفاتيح والأشرطة تلتف حول ذاتها، فإن شدّها من طرف تعقدت من طرف آخر، حتى بدا أنه أفسد الآلة الموسيقية كلها. ولكنه أفلح، في النهاية، في إعادة تجميع البيانو، بطريقة ما، فأرجعه إلى صورته الأولى. لم يعرف القوم فترة كتلك الفترة، لكثرة ما كانت حافلة بالمفاجآت والاضطرابات والتقلبات، ولكن قناديل الزيت الجديدة أضيئت في اليوم والساعة المحدّدين. وفتحت أبواب الدار الجديدة، وهي ما زالت تعبق بروائح القطران والكلس الرطب، وتوافد أبناء مؤسسي ماكوندو وروادها وأحفادهم، وشاهدوا الشرفة بما تنوء به من نباتات السرخس والبيونيا، والغرف، والقاعات الهادئة، والبستان الذي تضوع منه روائح الورود، ثم تجمّعوا في قاعة الاستقبال، أمام ذلك الاختراع العجيب الذي كان مغطى برداء أبيض.

وقد خاب رجاء من سبق لهم أن رأوا أنواعاً من البيانو، تلك الآلة الموسيقية المنتشرة في البلدان المجاورة لماكوندو في المنطقة. وكانت أورسولا أشد الناس شعوراً بالحرج وخيبة الأمل، لأنها عندما وضعت ملف الموسيقى الأول، لكي تفتتح أمارانتا وربيكا الحفلة بالرقص، لم تشأ الآلة أن تحرك ساكناً، فظلت صامتة وظل الجميع صامتين. وحاول ملكيادس أن يصلح الآلة، وكان حينئذ يكاد يكون أعمى، وقد هدّته الشيخوخة، فبدا عجوزاً متعباً يكاد يتهاوى. فراح يلجأ إلى معين معرفته وخبرته محاولاً إصلاحها، وانتهى الأمر إلى أن استطاع خوزيه أركاديو بوينديا، أن يحرك إحدى القطع العالقة، عن طريق الخطأ، فانطلقت الموسيقى صاخبة مزعجة في البداية، ثم تدفقت الأنغام والألحان العذبة، وإن تكن

معكوسة بعضها على بعض في تمازج غريب، وظل خوزيه أركاديو بوينديا يضرب بيده على الأوتار المقلوبة المتشابكة، حتى تمكن من زحزحتها بعضها عن بعض، وانقلبت المطارق الصغيرة، وانسابت الألحان عذبة رائقة. وسيطر عناد أبناء الواحد والعشرين مؤسساً وروّاداً وأحفادهم، أولئك الذي تسلقوا الجبال وشقوا الوعور والشعاب، في طريقهم غرباً سعياً للعثور على البحر، فاستطاعوا تلافي بعض النشاز في الألحان المتمازجة، وظلوا يرقصون حتى انبلاج الفجر.

عاد بيترو كريسبي لكي يصلح البيانو الآلي، وساعدته ربيكا وأمارانتا في إعادة ترتيب الأوتار وتنظيم الأشرطة، وشاركتاه ضحكه من الأنغام النشاز الناشئة عن الألحان المقلوبة، وبدا الشاب لطيفاً جداً، وأميناً حتى إن أورسولا كفّت عن مراقبته، وعمدت إلى تنظيم حفلة وداع له عشية سفره، بعد أن أتمّ إصلاح البيانو الآلي. وفي الحفلة قام بيترو مع ربيكا بعرض للرقصات الحديثة، كان فيها فناناً رائعاً وكذلك ربيكا. ولم يقلّ عنهما أركاديو وأمارانتا فناً ورشاقة وروعة. ثم توقفت الحفلة عندما ثارت بيلار تيرنيزا، وكانت بالباب تشاهد مع المشاهدين، فاندفعت نحو امرأة تجرأت وقالت إن لأركاديو الصغير ردف امرأة، فأعملت فيها عضاً وشدّاً بالشعر.

وقبيل منتصف الليل، غادر بيترو كريسبي البيت، بعد أن ألقى بالمحتشدين كلمة قصيرة مؤثرة، وعد فيها أن يعود إليهم قريباً. واصطحبته ربيكا حتى باب الدار. وبعد أن توارى أغلقت الباب، وأطفأت المصابيح، ثم أوت إلى غرفتها وأجهشت في البكاء. وقد سيطر عليها حزن شديد لم تستطع أمارانتا أن تدرك أسبابه.

لم تكن ربيكا بطبعها غريبة. ولكنها على الرغم من سماحتها ومرحها، كانت تبدو إنطوائية منكفئة على ذاتها، تلوذ بالصمت غالباً فلا

تبوح بشيء. وكانت فتاة، في سن المراهقة، طويلة جميلة القوام والبنية. تطيل الجلوس في مقعدها الخشبي الصغير الهزّاز، الذي جلبته معها يوم جاءت إلى البيت. وقد أصلحوه لها بدعامات خشبية ونزعوا منه مرفقيه. ولم ينتبه أحد أنها، في عمرها هذا، كانت ما تزال تمص إصبعها، وأنها كذلك تطيل المكوث في الحمام، ولا تنام إلاّ إذا أدارت وجهها صوب الحائط. وفي الأيام الممطرة، كانت ربيكا تجلس مع كوكبة من صويحباتها، عند العصر، يطرّزن في الشرفة المغمورة بأزهار البيونيا. وكثيراً ما كانت تبدو شاردة الذهن، فتسهو عن الحديث، وتنهلّ من عينيها دمعتا حنين وشوق تملحان سقف حلقها، عندما ترى أن طبقات الأرض الرطبة قد تشققت، وأكوام الطين التي تجمّعها ديدان الأرض في البستان. تلك الشهوات الدفينة والرغائب الكامنة، التي سبق أن شهدتها في الماضي، عادت فاستيقظت وولّدت فيها نهماً جامحاً، عندما أجهشت في البكاء، لقد عادت إلى أكل التراب. في المرة الأولى كانت مدفوعة إلى عادتها القديمة بحب الاستطلاع، مقتنعة بأن أفضل الدواء لهذا الإغراء هو القرف والطعم السيء الذي ستحس به. والحق أنها لم تطق إبقاء التراب في فمها. ولكنها ثابرت على ذلك، تغلبها رغبة عارمة في الاستمرار. وشيئاً فشيئاً راجعتها شهية الأسلاف لمذاق المعادن البدائية، والشبع الذي لا ينتهي، والذي كان يتخذ منه الغذاء الأصلي. كانت أحياناً تدس في جيوبها حفنات من التراب، ثم تأكلها في دفعات صغيرة خلسة، يداخلها خليط من الشعور بالغبطة والغضب، بينما هي تعلم صويحباتها أصعب خطوات التطريز، وتتحدث عن الرجال الذين لا يستأهلون أن تضحي المرأة من أجلهم، فتأكل طلاء الجدران الكلسي. كانت حفنات التراب تجعل رجلها الحقيقي الوحيد أقرب إليها، ذلك الرجل الذي يهون ذلك الهوان من أجله، حتى لكأنّ التراب الذي تدوسه قدمه بحذائه الجلدي اللمّاع الناعم، في مكان ما من هذا العالم،

يوصل إليها كثافة دمه وحرارته بتلك النكهة المعدنية التي تخلف في فمها مذاقاً خشناً، وترسّب في قلبها دواعي الطمأنينة.

وفي أصيل أحد الأيام، طلبت أمبارو موسكوت إذناً لأن تزور المنزل الجديد. ولم يحظ ذلك الطلب بإعجاب أمارانتا وربيكا، فاستقبلتاها بفتور، وتجولتا معها في الدار شارحتين لها كيف كانت وما آلت إليه بعد الإصلاح. ثم أسمعتاها موسيقى البيانو الآلي، وقدّمتا لها العصير ورقائق البسكوت. وقد عبّرت أمبارو، خلال الزيارة، عن نموذج رائع من الوقار والتهذيب وسحر الشخصية والخلق الحميد، مما كان له أثر كبير على أورسولا خلال اللحظات القصيرة التي شاركتهن فيها الحديث. وبعد نحو ساعتين، وبينما كان الحديث يكاد يصل خاتمته، استغلّت أمبارو لحظة عدم انتباه من أمارانتا، وناولت ربيكا رسالة. وقد لمحت ربيكا بشكل خاطف، ما أتيح لها أن تلمحه بسرعة. فقرأت اسم الآنسة المحترمة سينيوريتا ربيكا بويندا. وقد كتبت الرسالة بالخط الدقيق نفسه، وبالحبر الأخضر نفسه، وبالأسلوب الناعم اللطيف نفسه، التي كتبت بها تعليمات استعمال البيانو الآلي. فطوت الرسالة بأطراف أصابعها، ودسّتها في صدرها، وهي ترمق أمبارو موسكوت بنظرة تعبر عن العرفان بجميل خالد غير مشروط، ووعد صامت وكتمان أبديّ.

انتعشت آمال أوريليانو بهذه الصداقة المفاجئة بين أمبارو موسكوت وربيكا بويندا. ذلك أن ذكرى رميديوس الصغيرة ما زالت تعذبه، وهو لا يجد سبيلاً لرؤيتها. فقد كان عندما يتنزه في البلدة، مع أفضل أصدقائه وأقربهم إليه : ماجنيفيكو وجريتيلدو ماركيز ـ ابني المؤسسين الرائدين اللذين يحملان نفس الاسمين ـ يبذل أقصى جهده كي يلمحها في مشغل الخياطة دون جدوى. فلم يكن يرى سوى أخواتها الكبريات. وقد كانت زيارة أمبارو موسكوت إلى دارهم نوعاً من البشرى أو الوفاء

للحس الداخلي. فقد كان أوريليانو يقول في نفسه: «يجب أن تجيء معها». ثم يكرر ذلك مرات ومرات في نفسه وبصوت خفيض. حتى تيقّن من نبوءته في عصر أحد الأيام، وبينما هو في مخبره يذهّب سمكة صغيرة، فيتأكد من أنها قد استجابت لندائه. والحق أنه ما لبث إلّا قليلاً حتى سمع الصوت الطفولي، فرفع بصره ليتجمّد قلبه فرقاً، عندما رأى الفتاة عند بابه في قطيفتها الوردية وحذائها الأبيض الطويل.

خاطبتها أختها أمبارو موسكوت من داخل القاعة قائلة: «لا تدخلي يا ريميديوس. إنهم يشتغلون». ولكن أوريليانو لم يدع لها الوقت الكافي كي تستجيب لنداء أمبارو. فقد رفع السمكة المذهّبة المتدلية بسلسلة تمرّ عبر فمها، وقال لها: «ادخلي».

فتقدمت ريميديوس داخل المخبر، وطرحت بضعة أسئلة عن السمكة المذهبة لم يستطع أوريليانو الإجابة عنها. بسبب ما كان يشعر به من حرج وضيق مفاجيء من هذه البشرة الزنبقية، وتينك العينين الزمرّدتين، وذلك الصوت، الذي كان كلما سأله سؤالاً بادره بكلمة «سيدي» وبلهجة احترام، حتى لكأن الفتاة تكلم أباها. كان ملكيادس متقوقعاً على مكتبه، يرسم بعض الإشارات التي لا يدرك كنهها. ولطالما كرهه أوريليانو في تلك اللحظات. ولم يستطع أن يفعل شيئاً غير أن يقول لريميديوس إنه يريد أن يقدم لها تلك السمكة الصغيرة. وفوجئت البنت وأجفلت من الهدية، واندفعت راكضة خارج المشغل. عصر ذلك اليوم عيل صبر أوريليانو، ولم يعد يطيق انتظار رؤيتها، فترك عمله وانقطع عنه. ولطالما كان يناديها، في نفسه، بجهد يائس وتركيز نفسي شديد، ويرجو أن تظهر له. ولكن ريميديوس لم تكن تستجيب. بحث عنها في مشغل أخواتها، ووراء كل ستائر البيت، وفي مكتب أبيها. ولكنه لم ير منها إلّا صورتها التي كانت تهيمن على حياته في وحدته القاسية. وقد

كان يقضي الساعات الطوال في قاعة الاستقبال، مع روبيكا، يصغي لأنغام البيانو الآلي. وكانت روبيكا تصغي معه أيضاً. فهي تصغي لتلك الألحان لأن بيترو كريسبي علمها الرقص عليها، وهو يصغي للألحان لأن أي شيء، حتى الموسيقى، يذكّره بريميديوس.

وغاص البيت في الحب، الذي عبّر عنه أوريليانو بقصائد لا نهاية لها، كان يكتبها على رقاع خشنة أهداها إليه ملكيادس، وعلى حيطان الحمام، وعلى ذراعيه. وفي كل ذلك كانت ريميديوس تظهر له، وكأنها تجسّدت في كل مكان: فريميديوس في جو الساعة الثانية من بعد الظهر الحذر، وريميديوس في أنفاس الورود المخملية الناعمة، وريميديوس في وسوسات العثّ في الخشب، وريميديوس في البخار المنبعث من خبز الصباح، وريميديوس في كل مكان، وريميديوس في كل زمان، وإلى الأبد. وكانت روبيكا تنتظر رسالة حبيبها في الساعة الرابعة عصراً، وهي تطرز قرب النافذة. وكانت تعرف أن بغلة رجل البريد لا تصل إلّا مرة واحدة كل أسبوعين، ولكنها ما تنفك تنتظر، موقنة أنها قد تخطيء ذات يوم فتجيء في غير موعدها. ولكنّ عكس ذلك هو الذي حدث.

فذات مرة، لم تصل البغلة في موعدها المحدّد. وجُنّ جنون روبيكا، فنهضت عند منتصف الليل، وخرجت إلى البستان، وراحت تغبّ من التراب، حفنة إثر حفنة، ما كاد يقضي عليها. ثم بكت ألماً وحنقاً، وهي تمضغ لحم الديدان الطريّ، وتكسّر أسنانها وأضراسها وهي تطحن محار الحلزون. ثم جعلت تتقيأ المرة تلو المرة حتى الصباح. ثم أصابتها كآبة، وأظلمت الدنيا في وجهها، فخشعت خائرة القوى، ثم فقدت وعيها، وراحت تحدث نفسها بنجوى ملتاثة غير طهور.

وأغاظ الأمر أورسولا، التي شعرت بالفضيحة والعار، فعمدت إلى صندوق روبيكا الصغير، فكسرت قفله، ووجدت في أسفله ستّ عشرة

رسالة معطرة مربوطة بأشرطة حريرية وردية، وبقايا أوراق ورد وتيجان أزهار جُفِّفت في كتب قديمة، وفراشات مصبرة، استحالت جميعاً عند أول لمسة لها إلى مسحوق وغبار.

كان أوريليانو الوحيد الذي استطاع أن يدرك معنى تلك العزلة ومعنى ذلك الحزن. ففي عصر اليوم الذي كانت فيه أورسولا تحاول أن تخرج ربيكا من حمأة دوارها، ذهب أوريليانو بصحبة ماجنيفيكوفيسبال وجيرينيلدو ماركيز إلى مخازن كاتارينو، التي اتسعت مؤسستها وازدادت بضع غرف خشبية خارجية، كانت تسكنها نساء وحيدات لهنّ رائحة زهور ميتة، وكانت مجموعة موسيقية مؤلفة من جهاز أكورديون وبضعة طبول تعزف بعض أغاني فرانسيسكو، الرجل الذي لم تطأ قدماه أرض ماكوندو منذ عدة سنين. وشرب الأصدقاء الثلاثة عصير قصيب السكر المخمّر. أما ماجنيفيكو ويرينيلدو، صديقا أوريليانو اللذان كانا أكثر خبرة وتجربة منه بشؤون الحياة، مع أنهما كانا في مثل عمره، فقد شربا وفي حضن كل منهما امرأة. وقد داعبت إحداهن أوريليانو، وهي امرأة مهترئة أكثر من الأخريات، وبدا في فمها صفٌّ من الأسنان الذهبية. فأحس الشاب بقشعريرة في بدنه. فنفر منها، ثم تبيّن له أن يتذكر ريميديوس بالقدر الذي يشربه، ولكنه يزداد احتمالاً للعذاب الذي تصيبه به ذكراها. ولم يدر تماماً متى بدأ يشعر بأنه يطفو. فقد رأى صديقيه والنساء يسبحون في نوع من الإشعاع المضيء، بلا وزن ولا كتلة، ويتفوّهون بكلام ما كانوا ليتفوّهوا به من قبل، وتندّ عنهم حركات وإشارات خفية لا تشبه أبداً حركاتهم وإشاراتهم المألوفة لديهم. ووضعت كاتارينو يدها على كتفه قائلة له: «قاربت الساعة الحادية عشرة». والتفت أوريليانو فرأى الوجه الضخم المشوّه، ووراء أذن صاحبته وردة مخملية، وما لبث أن فقد ذاكرته كما حدث له في أيام طاعون الأرق. ولم يستعد ذاكرته إلاّ عند

الفجر. وقد تبدّى له الصباح ضارياً في الزمن السحيق، وفي غرفة غريبة يجهلها تماماً، كانت تقف فيها بيلار تيريزا بشلحتها الداخلية، حافية، وقد تدلى شعرها. وكانت تحمل قنديلاً فوق رأسه، ولا تكاد تصدّق ما تراه، وقد بدا عليها الذهول الشديد. وهتفت قائلة:

ـ «أوريليانو».

فاستوى أوريليانو، وتفقّد قدميه ورفع رأسه. كان لا يعرف كيف جاء إلى هناك، ولو أنه يدرك الهدف الذي جاء من أجله، فقد كان ذلك الهدف خبيئاً منذ طفولته في شغاف قلبه.

فقال لها: «جئت كي أنام معك».

وكانت ثيابه ملطخة بالوحل والقيء. ولم توجه إليه بيلار تيريزا، التي كانت تعيش آنئذٍ وحيدة مع ولديها الصغيرين، أي سؤال، بل قادته إلى السرير، حيث نظّفت له وجهه بخرقة مبلّلة، ثم نضت عنه ثيابه، وخلعت هي الأخرى سائر ثيابها، وأسدلت ستارة تفصل ما بينهما وبين ولديها النائمين، في حال استيقاظهما. لقد عيل صبرها من انتظار الرجل الذي يمكن أن يبقى معها، وتعبت من الرجال الذين يرحلون، وأجهدها الرجال الكثيرون الذين يسيرون على طريق بيتها مرتبكين على غير هدى، وقد اختلط يقين وجودهم بريب ورق اللعب. لقد تجعّدت بشرتها، وهي تنتظر، وضمر نهداها وأصابهما الذبول، وانطفأت جمرات قلبها. تحسست جسد أوريليانو في الظلام، ووضعت يدها على بطنه، ثم قبّلت عنقه بحنان أمّ، وتمتمت قائلة:

ـ «يا للولد الصغير المسكين».

فانتفض أوريليانو. وفي مهارة وحذق بالغين، ودون أن تخطىء قدمه موقعها، خلّف وراءه شعاب الألم الوعرة، والتقى في خياله بريميديوس وقد استحالت إلى مستنقع عظيم لا يحده أفق، تفوح منه رائحة حيوان

برّي وثياب حديثة الكيّ. وعندما خرج من لجة خياله، كان ما يزال يبكي. وقد بدأ نحيبه جهشات متقطعة لا إرادية، ثم أحسّ أن ورماً ما مؤلماً قد انفجر في نفسه، فأطلق له العنان، وأفرغ الأعماق منه في فيض من الدموع. وكانت بيلار تيريزا واقفة بالقرب منه تنتظر، وهي تحك له رأسه بروؤس أصابعها، حتى استطاع أن يطرد من جسده كل السواد الذي كان يحول بينه وبين أن يعيش. وعندها سألته بيلار تيريزا :

ـ «من هي؟».

فأخبرها أوريليانو. فصدرت عن بيلار تيريزا ضحكتها التي كانت تفزع الحمام في فناء دارهم من قبل، ولكنها باتت الآن لا توقظ حتى الأطفال النائمين. وقالت له ساخرة :

ـ «عليك أن تربّيها أولاً».

ولكنّ أوريليانو لمح وراء هذه السخرية تفهماً منها كبيراً. وبينما كان يغادر الغرفة، وقد خلّف وراءه شكوكاً بشأن فحولته والعيب المرّ القاسي الذي كان يثقل قلبه طوال شهور من الزمن، قدّمت له بيلار تيريزا وعداً عفوياً، إذ قالت له :

ـ «سوف أتحدث إلى البنت، وسوف ترى أنني سأقدمها لك على طبق».

وقد وفت بيلار تيريزا بوعدها. ولكن ذلك جاء في فترة سيئة شاقة فقد فيها البيت هدوء الأيام الخوالي. فلقد أصيبت أمارانتا بنوبة حمّى عندما اكتشفت عشق ريبيكا، الذي كان من المستحيل أن يظل خافياً بعد كل الصراخ الذي صدر عنها. وقد كانت أمارانتا، هي الأخرى، تعاني من آلام حب من طرف واحد. فكانت تحبس نفسها في الحمّام، وتحاول التخفيف من عناء عشقها، الذي لا رجاء فيه، بكتابة رسائل محمومة لا ترجو منها غير أن تخبئها في أسفل صندوقها. وتعبت أورسولا بسبب

الجهود التي تبذلها للعناية بالمريضتين. ولم تتمكن من إدراك الأسباب الكامنة وراء كآبة أمارانتا، على الرغم من الاستجواب الطويل وما استخدمته من أساليب وحيل. وأخيراً، وفي لحظة من الإلهام، خلعت قفل صندوق أمارانتا، وفتحته فوجدت فيه، كذلك، رسائل ربطت بأشرطة وردية وقد تضخمت لكثرة ما حُشر في ثناياها من زهور السوسن والزنبق التي كانت ما تزال طرية بسبب ما كانت تبللها به من الدموع. وكانت الرسائل كلها معنونة، دون أن ترسل، إلى بيترو كريسبي.

وقد بكت أورسولا حنقاً، ولعنت الساعة التي خطرت لها فيها فكرة البيانو الآلي. وقد عمدت إلى منع دروس التطريز، ثم أعلنت نوعاً من الحداد، دون موت أحد، يستمر حتى تقلع الفتاتان عن آمالهما. ولم يجد تدخل خوزيه أركاديو بوينديا، الذي سبق أن عدّل انطباعه عن بيترو كريسبي وأبدى إعجابه بقدرته على معالجة الآلات الموسيقية.

وهكذا، عندما نقلت بيلار تيريزا إلى أوريليانو موافقة ريميديوس وقبولها الزواج منه، أيقن الشاب أن هذا الخبر، في حينه، لن يزيد أبويه إلاّ تعباً وتعاسة. ولكنه قرّر الإعلان عن رأيه، فدعا أبويه لمقابلة رسمية في غرفة الاستقبال. وأصغى خوزيه أركاديو بوينديا، وأصغت أورسولا لإعلان ابنهما، دون أن تبدو عليهما أية علامة. ولكن وجه الأب قد اربدّ ثم احمرّ غضباً عندما علم باسم الخطيبة، وصاح بصوت هادر :

ـ «الحب مرض. أفمن بين كل البنات الجميلات الشريفات، لا يخطر لك أن تختار للزواج إلاّ ابنة عدونا؟ !».

ولكنّ أورسولا وافقت على الاختيار، واعترفت بأنها تحب بنات موسكوت السبع، لجمالهن ونشاطهن في العمل، وتواضعهن واحتشامهن، وأخلاقهن الحميدة. وقد أعلنت عن سعادتها بحكمة ابنها.

تراجع خوزيه أركاديو بوينديا أمام حماسة زوجته، فأبدى موافقة

مشروطة، وذلك أن تتزوج روبيكا من بيترو كريسبي. ولكي يتمّ ذلك، تقوم أورسولا باصطحاب ابنتها أمارانتا إلى عاصمة الإقليم، في رحلة، لعلّ اتصالها واحتكاكها بأناس آخرين يجعلها تنسى خيبة أملها. ولما علمت روبيكا بهذا الاتفاق استعادت صحتها، وكتبت إلى حبيبها رسالة تفيض بالفرح، وأطلعت عليها أهلها، ثم أرسلتها بالبريد علناً ودون وسيط، بعد أن وافقا عليها، وتظاهرت أمارانتا بقبول القرار، وبدا عليها أنها تتجه شيئاً فشيئاً نحو الشفاء من نوبات الحمى التي كانت تصيبها. ولكنها عاهدت نفسها على ألاّ تسمح لروبيكا بالزواج وهي على قيد الحياة.

في يوم السبت التالي، ارتدى خوزيه أركاديو بوينديا بزته الداكنة وياقته المنشاة، وحذاء الشاموا الطويل، تلك الملابس التي ارتداها للمرة الأولى ليلة الاحتفال، ومضى كي يطلب يد ريميديوس موسكوت. فاستقبله الحاكم وزوجته بفرح وقلق في الوقت ذاته، لأنهما كان يجهلان سبب هذه الزيارة غير المتوقعة. ثم تبادر لهما أنه ربما أخطأ في اسم العروس المقصودة، ولكي تزيل الأم احتمال الخطأ، ذهبت إلى الداخل، وأيقظت ريميديوس من نومها، ثم حملتها بين ذراعيها إلى غرفة الاستقبال، وما يزال النوم يثقل جفنيها. وعندما سألوها ما إذا كانت فعلاً عازمة على الزواج، أجابت باكية بأنها ترغب فقط في أن يدعوها تنام. وعندما أدرك خوزيه أركاديو بوينديا حرج الوضع الذي كان فيه آل موسكوت، عاد إلى أوريليانو يستوضحه الأمر. وعندما عاد إليهم كانوا قد ارتدوا ثيابهم الرسمية، ورتبوا أثاث بيتهم، ونسّقوا الزهور في الأواني، واستقبلوه بصحبة بناتهم الكبريات الست. وكان خوزيه أركاديو بوينديا يشعر بضيق شديد من حرج الموقف، ومن ياقته القاسية الضاغطة على عنقه، ولكنه أكد لهم أن ريميديوس هي الفتاة المختارة. فأجاب الدون

أبولينار موسكوت باستغراب شديد:

ـ «لا أجد لهذا الاختيار معنى. فعندنا ست بنات أخريات جميعهن عازبات وفي سنّ الزواج، ويسعد كلاً منهن ويشرفها أن تكون زوجة فاضلة لسيد فاضل جاد دؤوب كابنك. ولكن أوريليانو يختار الوحيدة التي ما تزال تبول في فراشها». غير أن زوجته، وهي امرأة ما زالت محافظة على فتوتها، رغم جفنيها المصابين المهمومين، لامت زوجها على خطئه. وما إن انتهوا من تناول مربّى الفواكه حتى وافق الجميع على قرار أوريليانو. ولكن السنيورة موسكوت رجت أن يسمح لها بالحديث، على انفراد، مع أورسولا. وقد احتارت أورسولا، محتجة على حشرهم لها في شؤون الرجال، ولكنها وافقت بشيء من السعادة والعاطفة الداخلية. وقد قامت بالزيارة في اليوم التالي. وبعد نصف ساعة عادت تحمل نبأ مفاده أن ريميديوس لم تبلغ بعد مبلغ النساء. ولم ير أوريليانو في ذلك مانعاً. فقد انتظر طويلاً، ويستطيع أن ينتظر المزيد، ما لزم الأمر، حتى تصبح خطيبته في سن الحمل.

ونشأ عن هذا الانسجام الجديد صفاء في البيت لم يعكره سوى موت ملكيادس ومع أن موته كان متوقعاً، إلاّ أن الظروف والملابسات التي سبقته ورافقته لم تكن كذلك. فقد داهمته الشيخوخة سريعاً بعد شهور من عودته، وبشكل يبعث على القلق. فقد غدا الرجل عجوزاً هرماً، يتنقل، كالظلّ، زاحفاً من غرفة إلى أخرى، وهو يجرّ قدميه، ويردد بصوت مسموع ما يستعيده من عهد جميل مضى، لا يذكره ولا يعبأ به أحد سواه، تماماً كجد عجوز مهترىء ينساه ذووه إلى أن يجيء يوم يجدونه فيه ميتاً في سريره في الصباح. في البداية، كان خوزيه أركاديو بوينديا يساعده في عمله، مدفوعاً بحماسته بسبب جدة آلة التصوير ونبوءات نوستراداموس. ولكن، لم يمض وقت طويل حتى بات التفاهم

معه صعباً. وشيئاً فشيئاً تركه لوحدته. وبعد لأي بدأ ملكيادس يفقد السمع والبصر شيئاً فشيئاً، وصار يختلط عليه محدثوه بأولئك الذين عرفهم في الأزمنة الغابرة من تاريخ الإنسانية. وكان يجيب عن الأسئلة التي تطرح عليه بخليط عجيب من اللغات واللهجات. وكثيراً ما كان يمشي متلمساً طريقه في الفراغ، يتخلل الأشياء متسرباً بينها بيسر لا يمكن تفسيره، حتى لكأن له ملكة تحدّد له الاتجاه اعتماداً على الإحساس المباشر. وقد نسي في يوم من الأيام أن يضع في فمه طقم أسنانه، الذي اعتاد أن يحفظه في كأس ماء، إلى جانب سريره عند النوم. ومنذئذ لم يعده قط إلى فمه. ويوم عملت أورسولا على توسيع الدار، بنت له غُرفة خاصة مجاورة للمشغل حيث يعمل أوريليانو، بعيداً عن الضجة وصخب العاملين في البيت. وجعلت للغرفة نافذة كبيرة تسمح بدخول ضوء الشمس أمواجاً، ووضعت فيها خزانة مكتبة رتبت له فيها بنفسها كتبه، التي علاها الغبار، وبدأ يأكلها العث، وامتلأت أوراقها بإشارات غريبة عجيبة. ونقلت إليها الكأس التي تحتوي على طقم أسنانه، وقد نمت عليها نباتات مائية لها زهيرات صفراء صغيرة.

وبدا أن ملكيادس قد أحب المكان الجديد، إذ لم يعد يراه أحد حتى في غرفة الطعام. فلم يكن يذهب إلاّ إلى مشغل أوريليانو، حيث يمكن أن يقضي ساعات يسوّد ألغاز أدبه وأحاجيه على رقاع من ورق، أتى بها معه ، كانت مصنوعة من رقائق جافة تتشقق كعجينة رقيقة جافة . وهناك كان يتناول طعامه الذي كانت تحمله إليه فيزيتا سيون مرتين كل يوم. ولكنه فقد الشهية في الفترة الأخيرة، واقتصر في غذائه على الخضر. وسرعان ما بدا عليه شكل النباتيين المهمل المهجور. وغطّت جلده رغوة ناعمة، كالطحالب الرقيقة، شبيهة بتلك التي نمت على صدريته العتيقة التي لم يخلعها قط في حياته. وأخذت تفوح مع أنفاسه رائحة شبيهة برائحة

حيوان نائم. وانتهى الأمر بأوريليانو إلى أن نسيه تماماً، لدى انغماسه بتأليف قصائده. ولكن، خيِّل إليه مرة أنه يدرك بعضاً مما يناجي ملكيادس به نفسه دمدمة، فانتبه عله يفهم شيئاً، فلم يدرك من سيل أحاديثه المبهمة غير كلمة كان يلح في تكرارها : اعتدال الفصول، اعتدال الفصول، اعتدال الفصول، ثم اسم ألكسندرون هومبولت. ثم بدأ أركاديو يقترب منه، عندما بدأ يساعد أوريليانو في أشغال صياغة الفضة. واستجاب ملكيادس لمحاولات أركاديو التقرّب منه، فراح يطلق بين الفينة والأخرى عبارات بالإسبانية لا علاقة واضحة لها بالواقع.

وبدا في أصيل أحد الأيام وقد أشرقت فيه عاطفة مفاجئة. وبعد سنين طويلة من هذه الأيام ، وأمام فصيل الإعدام ، قد يذكر أركاديو صوت ملكيادس الراجف، الذي جعله يصغي له وهو يقرأ بضع صفحات، من خط يده الذي لا يقرأ، والتي لم يفهم منها شيئاً بطبيعة الحال، ولكنه كان يتلوها بصوت عال مهيب كأنما يرتل كلاماً مقدّساً. ثم ابتسم للمرة الأولى، منذ أمد بعيد، وقال بالإسبانية : عندما أموت احرقوا الزئبق في غرفتي على مدى ثلاثة أيام. ونقل أركاديو ما سمعه إلى أبيه، الذي حاول أن يحصل على مزيد من المعلومات، ولكنه لم يحظ إلاّ بجملة واحدة من ملكيادس، وهي : «لقد عثرت على الخلود» . ولما أصاب الفساد نفس ملكيادس، أخذ أركاديو يصحبه صباح كل يوم خميس إلى النهر كي يستحم. وقد بدا عليه شيء من التحسن. وهناك، كان يخلع ثيابه، ثم يلقي بنفسه في الماء، مع الأولاد، ويتجنب بحسه الخفيّ الأمكنة العميقة الخطرة . وقد سمع في إحدى المناسبات وهو يقول : «نحن جئنا من الماء». ثم مضى زمن طويل، كان ملكيادس خلاله لا يُرى في البيت. وكان الاستثناء تلك الليلة التي بذل فيها جهداً كبيراً كي يصلح البيانو الآلي، وأيام الخميس التي يصحب فيها أركاديو إلى النهر. وكان

عندها يتأبط قرعة وقطعة من صابون النخيل ملفوفتين بمنشفة. وقد سمعه أوريليانو، ذات خميس قبل أن يدعى للذهاب إلى النهر، وهو يقول: «لقد متّ من الحمّى في مستنقعات سينغافورة». وفي ذلك اليوم، اندفع ملكيادس إلى الماء عبر مجرى خطير، ولم يعثروا عليه من بعد إلاّ في اليوم التالي، وعلى بعد أميال، في اتجاه مجرى النهر، حيث جرفه التيار إلى منعرج يغمره الضوء وقد حط على بطنه طائر الأوروبو وحيداً.

رفض خوزيه أركاديو بوينديا أن يدفنه، على الرغم من احتجاجات أورسولا واعتراضاتها الفاضحة، مع أنها بكته وأبدت من الحزن عليه أكثر من حزنها على أبيها. قال: «إنه خالد. وهو نفسه الذي كشف عن معادلة بعثه». وجاء بالأثون المنسيّ منذ زمن، ووضع عليه وعاء ملأه بالزئبق، وتركه يغلي قرب جثة ملكيادس، التي بدأت، رويداً رويداً، تغطيها بقع وفقاعات زرقاء.

وتجرأ الدون أبولينار موسكوت، فأبدى ملاحظة ذكّر بها أن الغريق إذا لم يدفن كان خطراً على الصحة العامة. فكانَ جواب خوزيه أركاديو بوينديا: «ليس كذلك، لأنه حيّ». ثم استمر في عملية التبخير بالزئبق اثنين وسبعين ساعة، حتى جعلت جثة ملكيادس تتشقق، وتتناثر منها مواد شاحبة يسمع لها صفير خفيض، وتملأ البيت بخاراً موبوءاً. وعندها فقط سمح خوزيه أركاديو بوينديا بدفنه، لا كشخص عاديّ، ولكن بكل مراسم التكريم التي يستحقها أعظم من أحسن لماكوندو. فكانت جنازته أول جنازة شهدتها البلدة، وأفضل جنازة عرفتها من حيث الحشود، ولم يتفوق عليها في ذلك إلاّ الحشد الذي شهدته البلدة، بعد قرن من الزمن، في مهرجان جنازة الماما الكبرى (كرنفال جنازة لا ماماراندي) وقد واروه الثرى في ضريح حفر في وسط بقعة من الأرض قُدّر لها أن تصبح مقبرة البلدة. وأقاموا على الضريح نصباً نقشوا عليه الشيء الوحيد الذي كانوا

يعرفونه عنه، وهو اسمه: ملكيادس. وقد أحيوا للعزاء فيه تسع ليال.

واستغلت أمارانتا الهرج والمرج اللذين كانا يسودان الدار، من شرب القهوة، ورواية الطرف والنكات، واللعب بالورق، ثم تحينت الفرصة، وصرّحت بحبها لبيترو كريسبي، الذي كان قد خطب ريبيكا رسمياً منذ بضعة أسابيع، وفتح مخزناً لبيع آلات الموسيقى والألعاب الآلية، في نفس الحي الذي كان العرب يمكثون فيه في الماضي ويقايضون الببغاوات بالألعاب، والذي أطلق الناس عليه اسم «شارع الأتراك». ولكنّ الشاب الإيطالي الذي كان شعره الأجعد الملمّع يثير في النساء رغبة عارمة في التأوه، عامل أمارانتا معاملة طفلة غيورة متقلبة الطبع لا تستأهل الأخذ مأخذ الجد. فقال لها:

ـ «لي أخ أصغر مني، وسوف يحضر لمساعدتي في المخزن».

شعرت أمارانتا بالإهانة التي لحقت بها، وأخبرت بيترو كريسبي، بحنق وغضب شديدين، انها على استعداد لمنع زفاف أختها، ولو أدّى الأمر إلى أن تهوي جثة هامدة على الباب. وقد تأثر الإيطالي بالصورة المسرحية لهذا التهديد، حتى إنه لم يستطع أن يقاوم الرغبة في الحديث عنه لريبيكا. ومن أجل ذلك تقرّر الإسراع في سفر أمارانتا، قبل مرور أسبوع، في الرحلة التي كانت أورسولا تؤجلها بسبب مشاغلها الكثيرة. . ولم تبد أمارانتا أية مقاومة، ولكنها همست في أذن ريبيكا، وهي تقبلها قبلة الوداع، قائلة:

ـ «لا تأملي كثيراً. فلو أرسلوني إلى أقصى طرف الأرض، فلن أعدم الوسيلة التي أحول بها دون زواجك، حتى ولو اضطررت إلى قتلك».

في غياب أورسولا، وفي الحضور غير المرئيّ لملكيادس، الذي كان يتابع تجواله وبحثه الخافت في غرف الدار، كانت الدار تبدو واسعة ومقفرة. وكانت ريبيكا تشرف على نظام البيت، فيما أخذت المرأة

الهندية تهتم بالخبز. وفي الليل، عندما يصل بيترو كريسبي مسبوقاً بعبق رائحة الخزامى المنعشة، ويحمل بيده، دائماً لعبة هدية، كانت خطيبته تستقبله في قاعة الاستقبال، حيث تبقي الأبواب والنوافذ مفتوحة دفعاً للظن والشكوك. ولم يكن ذلك سوى مبالغة، لا لزوم لها، في الحيطة والحذر، لأن ذلك الإيطالي قد برهن عن احترام بالغ، حتى إنه لم يلمس قط حتى يد المرأة التي سوف تصبح زوجته في غضون العام الحالي. ونتيجة لزياراته الكثيرة، محمّلاً بالهدايا من اللُّعب، امتلأ البيت باللعب الغريبة، من الراقصات الآلية، وصناديق الموسيقى، والقردة البهلوانية، والخيول الرهوانة (العادية)، والمهرجين الذين يقرعون الطبول. وكان لتلك اللعب الكثيرة المتنوعة أثرها الكبير على خوزيه أركاديو بوينديا، فانتشلته من حزنه المضني لموت ملكيادس، وأعادته إلى أيامه الخوالي، كيميائياً. وعاش بعد ذلك في جنينة من الحيوانات، يبقر بطونها، ويفكّك آلاتها، ويفصل ما بين أجزائها، ثم يعكف عليها محاولاً تحسين حركاتها وتنظيمها بشكل دائم قائم على أساس حركة نواس (رقّاص) الساعة.

وتخلّى أوريليانو عن مشغله كي يتفرغ لتعليم الصغيرة ريميديوس القراءة والكتابة. وكانت الصغيرة، في البدء، تفضل لعبها على هذا الرجل، الذي كان يأتيها عصر كل يوم، فينتزعها أهلها من لعبها، من أجله، كي يغسلوها ويلبسوها ويجلسوها في غرفة الاستقبال انتظاراً لزيارته. ولكن صبر أوريليانو ومثابرته ووفاءه أثمرت جميعاً بأن فاز بحب الصغيرة، إلى الدرجة التي جعلتها تقضي برفقته ساعات طويلة، وهي تدرس معاني الحروف والكلمات، وترسم في دفترها، بأقلام ملوّنة، بيوتاً صغيرة في حظائرها أبقار، وفوقها شمس مدوّرة لها أشعة صفراء وهي تغيب خلف التلال.

روبيكا وحدها لم تكن سعيدة، بسبب تهديد أماراتنا. فقد كانت تعرف طباع أختها وغرورها وعنف ضغائنها، مما كان يبعث في قلبها المخاوف، عندما تتذكر حدة غضبها. فكانت تمضي ساعات في الحمام تمص إصبعها، وتبذل جهداً حديدياً مضنياً من الإرادة، كي تمنع نفسها من أكل التراب. وسعياً منها للبحث عمّا يخفف من وساوسها، أرسلت في طلب بيلار تيريزا لتقرأ لها مستقبلها.

وبعد المقدمة التقليدية الطويلة الحافلة بأشياء عامة غير واضحة، أوردت لها النبوءة التالية :

ـ «لن تعرفي السعادة أبداً ما دام أبواك غير مدفونين في قبر».

فانتفضت روبيكا. وكما لو كانت في منام، راحت تستعيد بخيالها كيف وصلت إلى البيت، وهي بنت صغيرة، ومعها صندوق ثيابها وكرسيها الخشبي الهزاز الصغير، وكيس لم تعرف قط شيئاً عن محتوياته. ثم تذكرت سيداً أصلع، يرتدي بزة من كتان، وفي عروة ياقة قميصه زرّ ذهبي، وليس له علاقة بملك الكبّة (في ورق اللعب). وتذكرت امرأة شابة جميلة، لها يدان ناعمتان دافئتان معطّرتان، ولا تشبه شاب الديناري (في ورق اللعب) بيديه العصبيتين. وقد كانت هذه السيدة تزين لها شعرها بالزهور، وتصحبها عصراً للنزهة، عبر البلدة، في طرق كثيرة الأشجار.

قالت روبيكا :

ـ «لا أفقه شيئاً مما تقولين».

وبدا الاستغراب على بيلار تيريزا، فقالت :

«وأنا أيضاً لا أفقه ذلك، ولكن هذا ما يقوله الورق».

وأرّق هذا الأمر روبيكا وصار شغلها الشاغل، حتى اضطرت إلى أن

تفضي به إلى خوزيه أركاديو بوينديا، الذي لامها لأنها تثق بنبوءات ورق اللعب. ولكنه، من جهة أخرى، جعل يبحث، بصمت، بين الصناديق والخزائن، وينقل قطع الأثاث من أماكنها، ويقلب الأسرّة، ويفتش تحت خشب الأرضية، لعله يعثر على كيس العظام. وهو لا ينكر أنه شاهده من أيام إعادة البناء. وقد استدعى البنّائين سراً، فأخبره أحدهم أنه دفن الكيس في أساس أحد الجدران من إحدى الغرف، لأنه كان يضايقه في عمله. وقد أمضوا بضعة أيام وهم يتفحصون الجدران بإلقاء آذانهم إليها، حتى اهتدوا إلى صوت الكلوك ـ كلوك العميق. فنقبوا الجدار، وإذا بهم يعثرون على العظام في كيسها الذي كان لم يمسّ. وقد دفنوها في اليوم نفسه في قبر بلا نصب، بجوار قبر ملكيادس. وعاد خوزيه أركاديو بوينديا إلى بيته وقد أزال عن كاهله عبئاً أثقل على وجدانه إلى حين، كما أثقلت عليه ذكرى برودينسيو أجويلار. وعندما مرّ بالمطبخ طبع قبلة على جبين ريبيكا، وقال لها:

ـ «انزعي من رأسك تلك الأفكار السيئة، فسوف تكونين سعيدة».

مهّدت الصداقة بين ريبيكا وبيلار تيريزا الطريق للأخيرة لزيارة البيت، وكانت أورسولا قد منعتها من ذلك منذ ولادة أركاديو. فصارت تجيء في أية ساعة من النهار، كقطيع الماعز، لا يقيدها نظام، وتجد في أشق الأعمال متنفساً لطاقتها النارية. وقد تدخل المشغل وتساعد اركاديو وهو يحدّد حساسية لوحات التصوير ويحللها، بمهارة ولطف وحنان، مما أدّى إلى إرباك الفتى واختلاط الأمر عليه. فقد كانت تلك المرأة تقلقه وتسبب له الاضطراب. فكان لون بشرتها، ورائحتها الدخانية، والصخب الفوضوي الذي تحدثه ضحكتها في الغرفة المظلمة، كثيراً ما تشدهه وتشتت انتباهه، فتجعله يصطدم بالأشياء.

وفي أحد الأيام كان أوريليانو منهمكاً بأعمال صياغة الفضة، فجاءت

بيلار تيريزا واتكأت على الطاولة، تتأمل صبره ومثابرته على العمل. وقد حدث ذلك بسرعة. فقد تيقّن أوريليانو من أن أركاديو كان في الغرفة المظلمة، قبل أن يرفع عينيه لتلتقيا بعيني بيلار تيريزا، التي كانت أفكارها واضحة، كأنها معروضة تحت أشعة شمس الظهيرة. قال لها أوريليانو:

ـ «حسناً، ما الذي تريدين قوله؟».

فعضت بيلار تيريزا على شفتها بابتسامة حزينة، ثم قالت له:

ـ «أريد أن أخبرك بأنك محارب جيد. فرصاصتك لا تخطىء هدفك».

فارتاحت أسارير أوريليانو بعد أن اطمأنّ إلى البشارة بالفأل الحسن. وعاد إلى تركيز انتباهه على عمله، كأنّ شيئاً لم يحدث، ثم قال لها بصوت حازم هادىء:

ـ «سوف أعترف به. وسوف يحمل اسمي».

تمكّن خوزيه أركاديو بوينديا أخيراً من التوصل إلى قطف ثمار بحوثه التي كان يتشوّق لها: فقد ربط ما بين آلية النابض (الرقّاص) في ساعة الحائط والراقصة الآلية، فصارت الراقصة اللعبة ترقص ثلاثة أيام متوالية، دون انقطاع، على لحن موسيقاها الخاصة، وقد أثاره اكتشافه هذا أكثر مما أثارته كل مغامراته الجنونية السابقة. فامتنع عن تناول الطعام، وتوقف عن النوم. ولولا قدرات أورسولا الخارقة على العلاج لجنح به خياله إلى حال من الدوار الدائمة لا يبرحها طوال عمره. فقد كان يقضي الليالي بطولها يدور في غرفته، ويفكر بصوت مسموع، باحثاً عن طريقة يطبق بها مبادىء نابض الساعة (النواس) على العربات التي يجرها البقر، وعلى سكك الحراثة، وعلى كل ما ينفع الإنسان إذا دبّت الحركة فيه. وأنهكته حمّى الأرق وهدّت قواه، فلم يستطع التعرف إلى ذلك العجوز أبيض الرأس ذي الحركات والإشارات المرتابة الذي دخل عليه غرفة

نومه. كان الرجل ذاك هو برودينسيو إجويلار. ولقد أصابه الذهول عندما عرف من هو: فهل يشيخ الموتى أيضاً؟ وألحّ به الحنين وهزّه فصاح هاتفاً: «برودينسيو. لقد وصلت إلينا بعد أن قطعت مسافة طويلة جداً».

فبعد سنين طويلة من الموت، برّح الشوق برودينسيو أجويلار لعالم الأحياء والحياة. وشدّت عليه حاجته لرفقة الناس، وأرعبه قربه من الموت الآخر وهو في قلب الموت، وانتهى به الأمر إلى أن أحب عدوّه اللدود. فأمضى وقتاً طويلاً وهو يبحث عنه. سأل عنه الموتى من ريوهاشا، وسأل بين الموتى الآتين من وادي أوبار والآتين من مناطق الماريجو المستنقعية. ولكن أحداً لم ينبئه بشيء من خبره. ذلك لأن ماكوندو كانت بلدة يجهلها الموتى، حتى ذلك اليوم الذي وصل فيه ملكيادس، فبيّن موقعها بنقطة صغيرة سوداء وضعها على خارطة الموت البلقاء. وجعل خوزيه أركاديو بويندا يحادث برودينسيو إجويلار حتى الفجر.

وبعد بضع ساعات من ذلك، وقد أجهده السهر، دخل إلى مشغل أوريليانو، وسأله: «في أي يوم نحن؟» وأجابه أوريليانو بأنه الثلاثاء. فقال خوزيه أركاديو بويندا:

«هذا ما ظننت. ولكنني تبيّنت فجأة أننا ما نزال في يوم الاثنين، كالبارحة. أنظر إلى السماء، أنظر إلى الجدران، أنظر إلى أزهار البيجونيا. فاليوم هو الاثنين أيضاً». وكان أوريليانو قد ألف المفارقات التي يأتي بها أبوه، فلم يعر قوله ذاك انتباهاً.

وفي اليوم التالي، يوم الأربعاء، عاد خوزيه أركاديو بويندا إلى المشغل. وصاح قائلاً:

ـ «إنها لمصيبة. أنظر إلى الهواء. أصغ إلى طنين الشمس. ما أشبه اليوم بالبارحة وباليوم الذي سبقه. إنّ اليوم هو الاثنين أيضاً». وفي مساء ذلك اليوم وجده بيترو كريسبي عند عتبة الشرفة ينتحب باكياً وهو يرثي

برودينسيو أجويلار، ويرثي ملكيادس، ويرثي والدي روبيكا، ويرثي أمه وأباه، ويرثي كل الذين استطاع أن يتذكرهم ممن يلفهم، في وحدتهم، دثار الموت. فقدّم له هدية عبارة عن دبّ آليّ، يمشي على حبل مشدود، على قائمتيه الخلفيتين، ولكنه لم يستطع بذلك أن ينتزعه مما كان يسيطر عليه. فسأله عن المشروع الذي عرضه عليه قبل أيام، من إمكان بناء آلة تعمل بنابض يستطيع الناس بها أن يطيروا، ولكن خوزيه أركاديو بويندا أجابه بأن ذلك غير مستطاع. فالنابض قادر على رفع كل شيء إلى الهواء ولكنه لا يقدر على رفع ذاته. ثم ظهر مرة أخرى في المشغل يوم الخميس، وهيئته حزينة تطفح بالألم، كما يبدو على الأرض المحروثة. وقال متنهداً وهو يكاد ينتحب:

ـ «لقد خربت آلة الزمن. وأورسولا وأمارانتا بعيدتان بعيدتان».

فلامه أوريليانو، موبّخاً، كما يلام الطفل، فتقبّل الأمر بهدوء وانكسار. ثم أمضى ست ساعات يتفحّص الأشياء، لعله يعثر في مظاهرها على فرق يجعلها تختلف عما كانت عليه في البارحة، مؤملاً أن يكتشف فيها اختلافاً يدل على مرور الزمن. ورقد في سريره الليل بطوله، وعيناه مفتوحتان، ينادي برودينسيوأجويلار، وملكيادس، وكلّ الموتى، لعلهم يحضرون ويشاطرونه حزنه. ولم يلبّ النداء أحد. وفي يوم الجمعة، وقبل أن ينهض أحد من نومه، تفقّد مظاهر الطبيعة مرة أخرى، حتى لم يبق لديه أي شك في أن اليوم ما يزال الاثنين. وعندها تناول إحدى العوارض التي تستخدم في إسناد الأبواب من الداخل، وبعنفه الهائل وقوته الخارقة، حطم أجهزة مختبر الكيمياء حتى أحالها غباراً، وفعل الشيء نفسه بغرفة التصوير، ومشغل صياغة الفضة، وهو يصرخ، كرجل أصابه مسّ، وبلغة غريبة طلقة لم يفهم أحد منها شيئاً. وكاد يهمّ بهدم سائر البيت لولا أن أوريليانو استعان بالجيران طالباً

مساعدتهم.

وقد تعاون عشرة من الرجال حتى استطاعوا أن يلقوه أرضاً، وأربعة عشر رجلاً حتى شدوا وثاقه، وعشرون رجلاً حتى تمكنوا من جرّه إلى شجرة الكستناء في فناء الدار. حيث أبقوه مشدوداً إليها، وهو يعوي بتلك اللغة الغريبة، ويخرج من فمه زبداً أخضر. وعندما عادت أورسولا وأمارانتا، كان ما يزال مشدود اليدين والقدمين إلى شجرة الكستناء، وقد بلله المطر، بينما بدت عليه حالة من الهدوء والبراءة التامة. تحدثتا إليه، فنظر إليهما دون أن يعرفهما، وتلفّظ بكلام لم تفهما منه شيئاً. ففكّت أورسولا رسغيه وقدميه، وقد تركت الحبال آثارها جروحاً على جسده، وتركته مربوطاً من وسطه. وفيما بعد، بنوا له مأوى من سعف النخيل ليقيه حرّ الشمس ويدرأ عنه المطر.

(٥)

في يوم أحد من آحاد شهر آذار (مارس)، كان زفاف أوريليانو بويندايا وريميديوس موسكوت. وقد تمّت المراسيم أمام المذبح الذي أقامه الأب نيكانور رينا في قاعة الاستقبال. وقد كان يوم الزفاف تتويجاً لأربعة أسابيع قضاها آل موسكوت في جوّ من الهزّات والمفاجآت والاستعدادات المحمومة. ذلك لأن ريميديوس الصغيرة أدركت البلوغ وهي بعد على عاداتها الطفولية. فعلى الرغم من أن أمها قد علّمتها وأطلعتها على التغيرات التي ترافق المراهقة والبلوغ، ففي عصر أحد الأيام من شهر شباط (فبراير)، اندفعت ريميديوس إلى غرفة الجلوس، حيث كانت أخواتها وأوريليانو يتحادثون، وهي تصرخ وتعرض عليهم لباسها وقد اتسخ بمعجون دهان بلون الشوكولاتة. ولقد تمّ تحديد موعد العرس بعد شهر. ولم يكن الوقت ليكفي لأكثر من تعليمها كيف تغتسل، وترتدي ملابسها وحدها، وتعليمها الأمور الأساسية لحياة البيت. وقد أجبروها على التبوّل فوق قطع القرميد الساخن لكي تبرأ من عادة التبول في سريرها. وقد بذل أهلها جهداً كبيراً لإقناعها بعدم البوح بأسرار الزواج، ولكن ريميديوس كانت في حالة من الطيش والارتباك، وفي الوقت نفسه في حالة من الدهشة، بحيث أنها عندما علمت بما ينتظرها ليلة الزفاف فرحت وأرادت أن تشرك الحيّ كله في فرحتها، وتحدث كل الناس عن تفاصيل تلك الليلة. واستدعى ذلك كله جهداً هائلاً، ولكن الطفلة، في الموعد المحدّد لحفلة الزفاف، كانت تعرف عن أشياء الحياة مثل ما تعرف

أية واحدة من أخواتها.

صحبها الدون أبولينار موسكوت : وهي تتعلق بذراعه، وقادها عبر الطريق المزدان بالأزهار والأكاليل، وسط انفجارات صواريخ الأفراح وألحان موسيقى مجموعة من الفرق. وكانت ريميديوس تحيي الناس بيدها، وتردّ شاكرة بابتسامة على أولئك الذين كانوا يرجون لها، من نوافذهم، حظاً سعيداً.

كان أوريليانو يرتدي بزة سوداء، ويحتذي الحذاء الجلديّ الطويل اللماع ذا العرى المعدنية، الذي سوف يحتذيه بعد بضعة أعوام عندما يواجه فصيل الإعدام. وكان أصفر الوجه شاحب اللون، يحس كأنه في حلقة كرة قاسية عندما استقبل عروسه لدى باب البيت ثم قادها إلى المذبح. أما هي فكانت تتصرف بشكل غير طبيعي. وكانت أنيقة هادئة، حتى إنها لم تفقد رزانتها واتزانها عندما سقط الخاتم من يد أوريليانو وهو يستعد لوضعه في إصبعها. فظلت مادة يدها بكفّ الدانتيلا، الذي لا يغطي أصابعها، وسط همس الضيوف واضطرابهم، وبنصرها مستعدة للبس خاتم الزواج، حتى تمكن العريس من إيقاف الخاتم بقدمه، قبل أن يتدحرج إلى الباب، وعاد إلى المذبح وقد علت الحُمرة وجهه خجلاً.

وقد عانت أمها وأخواتها كثيراً خوفاً من الحرج الذي يسببه أي تصرف خاطىء يمكن أن يصدر عن الطفلة العروس خلال الحفلة، إلى الدرجة التي جعلتهن، عند النهاية يندفعن نحوها ليرفعنها إليهن ويقبّلنها بحرارة. وقد أثبتت ريميديوس، منذ ذلك اليوم، جدارة في تحمل المسؤولية، ولباقة طبيعية، وهدوء أعصاب لم يبارحها حتى في أحلك الظروف وأصعبها. ولقد كانت المبادرة منها عندما اختارت أحسن قطعة من كعكة الزفاف، ووضعتها في طبق وحملتها مع شوكة تناول الطعام إلى خوزيه أركاديو بوينديا. كان الرجل ما يزال مشدوداً إلى جذع شجرة

الكستناء، وقد تكوّم على مقعد خشبي، تحت المظلة التي صنعوها له من سعف النخيل، وقد تغيّر لونه بفعل تعاقب الشمس والمطر. فابتسم لها ابتسامة عرفان بالجميل، وتناول الحلوى بأصابعه فالتهمها وهو يدمدم بصلاة غير مفهومة.

ودامت الأفراح، التي لم تشهد لها ماكوندو مثيلاً، حتى فجر يوم الاثنين. وقد اشترك جميع الناس ما عدا روبيكا بوينديا، التي زوت نفسها بعيداً عن الفرحة العامة الصاخبة. فقد كانت المناسبة خيبة أمل لها. وقد كانت أورسولا خططت أن يتم زواجها في اليوم نفسه، ولكن بيترو كريسبي تلقى رسالة يوم الجمعة تخبره أن أمه في حالة النزع الأخير المفاجىء. ولذلك تأخر زفافها إلى موعد آخر. وبعد ساعة من تسلم الرسالة غادر بيترو كريسبي ماكوندو إلى عاصمة الإقليم، وشاء سوء حظه ألاّ تصادفه أمه في الطريق، لأنها وصلت ليلة السبت في الموعد المحدّد تماماً. وهناك غنّت في عرس أوريليانو الأغنية التي أعدّتها للغناء في عرس ابنها.

وعاد بيترو كريسبي المسكين ليصل في مساء يوم الأحد، ليجد الاحتفال قد انتهى، بعد أن نفقت تحته خمسة جياد، أملاً منه في أن يبلغ العرس في الوقت المناسب.

ولم يكتشف أحد من الذي كتب تلك الرسالة. ولما ألحّت أورسولا على أماراتنا بالأسئلة أقسمت الأخيرة على المذبح، قبل أن ينتهي النجارون من تفكيك أجزائه، أنها بريئة من ذلك.

- كان الأب نيكانور رينا - الذي أحضره الدون أبولينار موسكوت من منطقة المستنقعات لكي يقيم قداس الزفاف - عجوزاً عانى كثيراً من جحود رعيته. كان كئيباً حزيناً، وضعيفاً تكاد عظامه تبرز من تحت جلده، وقد نتأ بطنه على الرغم من ذلك. ولكنه يحتفظ بهيئة ملاك

عجوز، تغلب عليه بساطة الروح أكثر من طيب الطبع. وقد كان ينوي العودة إلى كنيسته مباشرة بعد الزواج، لولا ما هاله من جفاف نفوس الناس في ماكوندو، الذين كانت الرذيلة تزدهر بين ظهرانيهم، ويعيشون على الطبيعة وقوانينها، فلا يعمّدون أطفالهم ولا يقدسون أيام الأعياد. فعزم على أن يبقى أسبوعاً آخر في ماكوندو، اعتقاداً منه بأنه لا توجد بقعة في الأرض تحتاج مثل ماكوندو إلى بذرة الله، عله يهدي للمسيحية المختونين والوثنيين ويسوي أمور الزواج غير الحلال، ويقوم على اعتراف الميتين. ولكنّ أحداً في البلدة لم يعره انتباهاً. فكانوا يجيبونه بأنهم قضوا سنين وسنين دون أن يكون بينهم كهنة. فقد كانوا يرتبون شؤون أرواحهم مباشرة مع الله. وأنهم قد فقدوا من نفوسهم الشعور بالخطيئة.

ولما يئس الأب نيكانور من الوعظ والدعوة في العراء، قرّر أن يبني هناك أكبر كنيسة في الدنيا، وأن تشتمل الكنيسة على تماثيل للقديسين بالحجم الطبيعي، وأن تكون لها نوافذ مزدانة بالزجاج الملوّن في كل جانب، كي يجيء إليها الناس من روما، يقدسون الله في أرض الفسق والضلال. وراح يجمع الصدقات من كل مكان في إناء من نحاس. وتصدق المتصدقون، ولكنه كان يريد المزيد، لأنه كان يريد للمعبد ناقوساً ينتشل الغرقى من غرقهم. وقد ألحّ في الطلب وأكثر من الاستعطاف حتى بحّ صوته، وضجت عظامه تعباً وصخباً، وفي يوم سبت، استسلم لليأس وأصابه الارتباك عندما لم يستطع جمع ثمن الأبواب. فبنى مذبحاً مرتجلاً في الساحة، وراح يدور في القرية يدق ناقوسه الصغير، كما كان يحدث في أيام الأرق، داعياً الناس للصلاة في العراء. وجاء البعض حباً بالاستطلاع، وجاء بعضهم الآخر شفقة ورأفة، وجاء آخرون لأنهم لا يريدون أن يغضب الله لأن ممثله على الأرض كان ضحية للإهانة والاحتقار. وهكذا، اجتمع نصف سكان البلدة، في الساعة الثامنة

صباحاً، في تلك الساحة، حيث أخذ الأب نيكانور يرتل الصلاة بصوت بُحّ من طول الاستجداء والنداء. وفي النهاية، ولما بدأ الحاضرون يتفرقون، رفع ذراعيه إلى أعلى طالباً منهم الانتباه، وصاح قائلاً:

ـ «انتبهوا لحظة واحدة. فسوف تشهد الآن دليلاً قاطعاً على قدرة الله اللانهائية».

وجلب له الصبي الذي يساعده في مراسيم الصلاة فنجاناً من الشوكولاتة كثير القشطة يتصاعد منه البخار، فجرعه دفعة واحدة دون توقف للتنفس. ثم مسح شفتيه بمنديل أخرجه من كمه، ثم مدّ ذراعيه إلى الأمام وأغمض عينيه. وعندها ارتفع الأب نيكانور ستّ بوصات عن مستوى الأرض. وكان الإجراء مقنعاً. وبعدها راح يتابع، على مدى أيام، سعيه من بيت إلى بيت، ويكرّر تجربة الارتفاع بوساطة الشوكولاتة، بينما يجمع بمساعدة الصبي المال الكثير في كيس اتخذه لهذه الغاية، حتى استطاع، في أقل من شهر، أن يبدأ بناء الكنيسة.

ولم يشكّ أحد في القدرة السماوية الكامنة وراء تلك التجربة باستثناء خوزيه أركاديو بوينديا. فقد جعل يتأمل، دون كثير اهتمام، جماعة من الناس الذين احتشدوا في صباح أحد الأيام، حول شجرة الكستناء كي يرقبوا مشهد التجلّي مرة أخرى. ولم يتحرك هو من مكانه، ولكنه اعتدل في جلسته على المقعد الخشبي الصغير، ثم هزّ كتفيه حين بدأ الأب نيكانور يرتفع فوق الأرض مع الكرسي التي كان يجلس عليها، وقال خوزيه أركاديو بوينديا:

ـ «إنّ هذا لأسهل من اكتشاف الإنسان لحالات المادة الأربع».

ثم رفع الأب نيكانور يديه، فانحطت قوائم الكرسي الأربع على الأرض جميعاً، وفي آن معاً. فقال خوزيه أركاديو بوينديا، مضيفاً:

ـ «أرفض أن تكون هذه التجربة برهاناً يثبت وجود الله دون ريب».

وهكذا أدرك الناس أن ثرثرة خوزيه أركاديو بوينديا الشيطانية كانت باللاتينية. واستغل الأب نيكانور كونه الوحيد الذي يستطيع التواصل معه بالحديث، لعله يفلح في إدخال الإيمان إلى عقله المنحرف. فجعل يجلس بجانب شجرة الكستناء، عصر كل يوم، ويعظه باللاتينية. ولكن خوزيه أركاديو بوينديا أصرّ على رفض الاستجابة لطرائق التفلسف اللفظية الملتوية والتحولات الشوكولاتية، وتمسّك بدليل وحيد على وجود الله، وهو ظهوره على لوحة آلة التصوير. وبعد ذلك جاءه الأب نيكانور بأوسمة وميداليات وصور دينية، بل وبنسخة من صورة القديسة فيرونيكا، ولكن خوزيه أركاديو بوينديا دحض كل هذه الأدلة، معتبراً إياها خرافات وأشياء فنية ليس لها أساس علمي. ولقد أبدى من العناد ما جعل الأب نيكانور يتخلى عن فكرة هدايته. ولكنه تابع زيارته مدفوعاً بمشاعره الإنسانية.

وعندئذ جاء دور خوزيه أركاديو بوينديا. فتحول للهجوم، وهو يهدف إلى زعزعة إيمان الكاهن، معتمداً على حيله العقلانية. ففي إحدى المناسبات، وبينما كان الأب نيكانور يزوره، تحت شجرة الكستناء، ومعه طاولة لعب (دامة)، دعاه للعب. ولكن خوزيه أركاديو بوينديا رفض الدعوة، قائلاً إنه لا يستطيع فهم لعبة منافسة يكون فيها الخصمان متفقين على القواعد. ولم يعد الأب نيكانور يستطيع اللعب لأنه لم يشهد من قبل هذه اللعبة تلعب بتلك الطريقة. وكان في كل مرة تزداد دهشته من صحة آراء خوزيه أركاديو بوينديا. فسأله مرة كيف أمكن لهم أن يشدوه إلى الشجرة. فأجابه :

ـ «هذا أمر بسيط : لأنني أحمق».

وانصرف الخوري، منذئذ، للاهتمام بشؤون الدين، فكرّس وقته للإسراع في بناء الكنيسة، ولم يعد إلى زيارة خوزيه أركاديو بوينديا.

وشعرت ريبيكا ببارقة أمل يولد من جديد، فقد بات مستقبلها يتعلق بالانتهاء من بناء الكنيسة. ففي يوم من أيام الآحاد، وكان الأب نيكانور مدعواً لتناول طعام الغداء في بيت العائلة. فوقف متحدثاً، بينما تحلّق حوله أفراد العائلة على المائدة. فحدثهم عن عظمة الصلوات والاحتفالات الدينية وفخامتها عندما ينتهي تشييد الكنيسة. فقالت أمارانتا : «ستكون ريبيكا أوفر الناس حظاً». ولمّا لم تدرك ريبيكا المعنى المقصود، شرحت لها الأمر بابتسامة بريئة :

ـ «أنت التي ستدشنّين الكنيسة بزفافك».

وحاولت ريبيكا أن تدلي بتعليق. فالطريقة التي تبنى بها الكنيسة، إذا استمرت بمعدل السرعة الحالية، لن تصل مرحلة الانتهاء من ذلك قبل عشر سنين. ولكن الأب نيكانور لم يوافق على ذلك : لأن كرم المؤمنين يتزايد باستمرار، مما يسمح بحسابات أكثر تفاؤلاً. وانتهى حديث الغداء هنا، وريبيكا المسكينة في قمة الغضب، حتى إنها لم تكمل طعامها. ولكنّ أورسولا، وقد أعجبتها فكرة أمارانتا، تبرعت بمبلغ كبير كي تسرّع عملية البناء. وقدّر الأب نيكانور أن مساعدة أخرى، كمساعدة أورسولا، كفيلة بإنجاز العمل في ثلاثة أعوام. ومنذئذ انقطعت ريبيكا عن الكلام مع أمارانتا، لأنها اقتنعت بأن بادرتها لم تكن بريئة كما ظهر عليها.

وعندما نشبت بينهما مناقشة حادة ذلك المساء، قالت أمارانتا لريبيكا : «كان ذلك أفضل حلّ عندي. فبهذه الطريقة، بات لديك ثلاثة أعوام قبل أن أقتلك». وقبلت ريبيكا التحدي.

وأصيب بيترو كريسبي بخيبة أمل شديدة عندما علم بأمر التأجيل الجديد. ولكن ريبيكا قدّمت دليلاً جديداً على وفائها وإخلاصها. فقالت له : «سوف نفرّ معاً عندما تريد». ولكن بيترو كريسبي لم يكن له طبيعة

خطيبته المغامرة. فقد كان يحترم كلمة الشرف المعطاة، ويعد الوعد ثروة لا يجوز تبديدها. وعندها عمدت روبيكا إلى وسائل أكثر جرأة. فقد هبّت ريح خفية، ذات مرة، فأطفأت قناديل قاعة الاستقبال كلها. وفاجأت أورسولا الخطيبين، وهما يتبادلان القبل في الظلام. وتلعثم بيترو كريسبي في اختلاق الأعذار المختلفة، وفي الحديث عن سوء القناديل الحديثة التي تضاء بالقطران، حتى إنه ساعد أورسولا في عمل جهاز إنارة في القاعة أفضل وآمن. ولكن، في مرة ثانية نفد الوقود، وفي مرة ثالثة احترق الفتيل، وفي كل مرة كانت أورسولا تفاجئهما وقد جلست روبيكا في حضن خطيبها. فلم تعد بعد ذلك تقبل عذراً. فأحالت العناية بالمخبز إلى الخادمة الهندية، ثم دأبت على الجلوس، في مقعد متحرك هزّاز، تراقب منه الخطيبين، وقد عزمت على ألاّ تدعهما يخدعانها بحيل باتت قديمة منذ أيام صباها. وكانت روبيكا تعلق ساخرة، وقد أثارها مشهد أورسولا وهي جالسة، تتثاءب شبه نائمة، في مواعيدها مع خطيبها :

ـ «مسكينة أمي. فعندما تموت ستذهب مباشرة إلى الجنة، بعد أن كفّرت عن ذنوبها في هذا الكرسي الهزّاز».

ولما سئم بيترو كريسبي الانتظار، طوال شهور ثلاثة من الغرام تحت المراقبة، وهو يرقب العمل البطيء في تشييد الكنيسة، الذي كان يذهب يومياً للاطلاع على سيره، عزم على أن يدفع للأب نيكانور المبالغ التي كانت ما تزال تلزمه لإتمام بناء الكنيسة. واستطاعت أمارانتا أن تحافظ على هدوئها، ولو أنها كانت، وهي تحادث صويحباتها اللاتي كنّ يجئن عصر كل يوم للتطريز وشغل الصوف، تفكر بمكائد ووسائل أخرى. وقد ارتكبت خطأً في الحساب أفسد عليها ما كانت تظنه أفضل تلك المكائد. فقد أزالت حبات النفتالين التي وضعتها روبيكا في ثوب زفافها حين طوته

ورتبته في الصندوق الذي في غرفتها. وقد نفّذت ذلك ولم يكن قد بقي على الانتهاء من بناء الكنيسة سوى شهرين. ولكن روبيكا كانت قد نفد صبرها نتيجة البطء في اقتراب موعد الزفاف، فعمدت إلى تجهيز ثوب العرس في موعد أقرب من التاريخ الذي قدّرته أمارانتا. وعندما فتحت الصندوق وفضّت الأوراق التي لفّت الثوب بها، وفضّت كذلك قطعة القطيفة التي تغطيه، وجدت أن العث قد عاث فيه فساداً، فأحال حرير الثوب، وغرز الحجاب، بل وتاج البراعم البرتقالية إلى خرقة مثقّبة رثّة. وعلى الرغم من تيقّنها من أنها قد وضعت حفنة من حبّ النفتالين، فقد بدت لها الحادثة أمراً طبيعياً. ولم يتبادر إلى ذهنها التجرؤ على الشك في أمارانتا. ولكنها خشيت إذ لم يبق على موعد الزفاف سوى شهر أو أقل قليلاً. ولكن أمبارو موسكوت وعدت بخياطة ثوب جديد للزفاف في غضون أسبوع. وشعرت أمارانتا بثقل على صدرها كاد يفقدها وعيها عندما جاءت أمبارو في ظهيرة ذلك اليوم المطير، وهي تكاد لا تبين مما كانت تحمله من الحرائر، تريد من روبيكا أن تقوم بتجربة الثوب للمرة الأخيرة. وغار صوت أمارانتا، وتعثرت الكلمات في حلقها، وشعرت بشلال من العرق البارد يتسرب في خط عمودها الفقري. فلقد قضت شهوراً طويلة في انتظار هذه الساعة. فهي إذا أخفقت في اختلاق ما يحول دون زواج روبيكا، ولم تنجح كل الوسائل والطرق التي دبّرتها ؛ فقد كانت متيقنة من أنها، في اللحظة الأخيرة، وعندما تخونها كل موارد خيالها، تمتلك الشجاعة الكافية لدسّ السمّ لها.

وبينما كانت روبيكا، في عصر ذلك اليوم، تكاد تختنق من حرارة الحرير الذي كانت تخللها به أمبارو موسكوت، وتصبر صبراً غير محدود على آلاف الدبابيس التي تربط ما بين أجزاء الثوب، كانت أمارانتا ترتكب الخطأ تلو الخطأ وهي تساعد في خياطة لقطات الثوب، فتخز إصبعها

بالإبرة بضع مرات، بينما كانت تتخذ قرارها ببرودة أعصاب مخيفة. فضربت لنفسها موعداً لتنفيذ فعلتها يكون يوم آخر جمعة تسبق موعد الزفاف. أما الوسيلة فجرعة من سمّ اللاودانوم توضع في قهوة روبيكا.

وشاء القدر أن تبرز هناك عقبة كأداء لم يكن ينتظرها أحد، ولم يكن لأحد حيلة فيها، مما أدّى، اضطراراً، إلى إرجاء الزفاف إلى أجل غير مسمّى. فقبل أسبوع واحد من الموعد المحدّد للحفلة، استيقظت ريميديوس الصغيرة في الهزيع الأخير من الليل وهي غارقة في مياه غالية انفجرت في أحشائها، وهي تتجشأ تجشؤاً ممزقاً قاتلاً. وظلت تعاني من ذلك طوال ثلاثة أيام ثم فارقت الحياة، بعد أن تسمّم دمها، مما قضى عليها وعلى توأمين في أحشائها.

وكان وقع هذه المأساة ثقيلاً على ضمير أمارانتا. فقد صلّت لله بخشوع ومرارة لاهبة، راجية أن يصنع شيئاً غير منتظر يثنيها عن تسميم روبيكا، ولذلك اعتبرت نفسها مسؤولة عن موت ريميديوس. وما كان هذا هو الذي أرادته في صلواتها. فقد جلبت ريميديوس نسمة الفرح والسرور إلى البيت. كانت تسكن وزوجها في غرفة صغيرة، بجوار المشغل، زينتها بلعبها ودُماها التي احتفظت بها منذ عهد طفولتها المبكرة. وكانت حيويتها المرحة تفيض حبوراً على الجدران الأربعة.

وتغمر الشرفة أزهار البيجونيا كأنما هي تيّار صحة وعافية. كانت تبدأ الغناء عند الفجر. وكانت الوحيدة التي تجرؤ على التدخل بين روبيكا وأمارانتا عندما تختصمان وتحتدم مناقشاتهما. وقد أخذت على عاتقها مهمة العناية الشاقة بخوزيه أركاديو بوينديا. فكانت تحمل له طعامه، وتعينه في قضاء حاجاته اليومية، فتغسله بالصابون والفرشاة، وتنظف شعر رأسه ولحيته من القمل والصئبان، وتعنى بكوخه المصنوع من سعف النخيل، فتقويه بالخام المطليّ بالقطران، كي لا ينفذ منه ماء المطر عندما

تسوء الأحوال الجوية. وقد تمكنت في الشهور الأخيرة من التفاهم معه، بعد أن تعلمت بعض العبارات اللاتينية. وعندما ولد ابن زوجها أوريليانو من بيلار تيرنيرا وجيء به إلى بيت العائلة من أجل العمّاد، ومنح اسم أوريليانو خوزيه، قررت أن يعتبر ابنهما البكر. وقد فوجئت أورسولا بغريزة الأمومة عندها. أما أوريليانو فقد وجد فيها سبباً يدفعه للتعلق بالحياة، وما كان لديه مثل ذلك قبلاً. فقد كان يمضي سحابة نهاره يعمل في المشغل، وكانت ريميديوس تأتيه عند الضحى بكأس القهوة دون سكر. وكانا يذهبان كل مساء لزيارة أهلها، آل موسكوت، فيلعب أوريليانو مع حميه الداما مرات ومرات، بينما تثرثر ريميديوس مع أخواتها أو تتحدث مع أمها في الشؤون المهمة.

وقويت سلطة الدون أبولينار موسكوت في البلدة بعد مصاهرته لآل بوينديا. وقد تمكن، بعد وساطات ومداخلات كثيرة في عاصمة الإقليم، من الحصول على موافقة الحكومة على بناء مدرسة يديرها أركاديو الذي ورث عن جده حماسته التربوية: ثم نجح، عن طريق الإقناع، بطلاء الناس بيوتهم باللون الأزرق في مناسبة عيد الاستقلال الوطني. وأصدر أوامره، بناء على طلب من الأب نيكانور، بنقل بيت كاتارينو إلى طريق خلفية بعيدة: وأغلق عدة أماكن للدعارة كانت تملأ مراكز البلدة صخباً.

وفي أحد الأيام، عاد الدون أبولينار موسكوت من العاصمة وبصحبته ستة رجال شرطة مسلحين بالبنادق، عينهم مسؤولين عن الحفاظ على الأمن في البلدة. ولم يذكر أحد الاتفاق القديم الذي كان يمنع دخول المسلحين إلى البلدة.

وقد سرّ أوريليانو بفعالية حميه وجدارته. وكان رفاقه يقولون له: «سوف تغدو سميناً ضخماً مثله»، على الرغم من أن الحياة الزوجية لم تزد في وزنه ولم تبدل من طبعه المتحفظ، بل أنها على العكس، أبرزت

عظام وجنتيه، وركّزت بريق نظرته، وزادت من قسوة انحناء شفتيه العنيد الذي يعبر عن تأمل صارم وحزم وعزم لا يترددان. ولقد كان هو وزوجته موضع حفاوة عائلتيهما وحبهما، حتى أن روبيكا وأمارانتا أعلنتا الهدنة بينهما يوم صرّحت ريميديوس بأنها تنتظر مولوداً، وانصرفتا إلى حياكة ثياب زرقاء من الصوف للوليد المنتظر إذا كان ذكراً، وثياب صوفية وردية اللون إذا كان أنثى. ولقد كانت ريميديوس آخر ما طاف في خيال أوريليانو، بعد بضع سنوات، وهو يواجه فصيل الإعدام.

أمرت أورسولا بإعلان فترة حداد، تغلق فيها الأبواب والنوافذ ويمنع الدخول والخروج إلاّ في حالات الضرورة القصوى. ومنعت الحديث بصوت عال لمدة سنة، ووضعت صورة ريميديوس في المكان الذي ووري فيه جثمانها، مجلّلة بغلالة سوداء، وبقربها قنديل زيت يظل مضاء. وقد ذهلت الأجيال التالية، التي حرصت على بقاء القنديل مضاء، من منظر تلك الفتاة الصغيرة بخراطتها (تنورتها) المكسّرة، وحذائها الأبيض الطويل، والشريط الأورغاندي المحيط بشعرها. وما كان الناس، من بعد، بقادرين على أن يروا في صورتها صورة عادية لإحدى جدات جداتهم.

وتعهّدت أمارانتا بتربية أوريليانو خوزيه الصغير، واتخذته ابناً لها يشاركها وحدتها وينقذها من فكرة سمّ اللاودانوم المجنونة التي هيىء لها كأنما هي قد صبتها، عن غير قصد، في قهوة ريميديوس.

أما بيترو كريسبي فكان يدخل البيت عند هبوط الليل، متسللاً على رؤوس قدميه، وعلى قبعته شريط أسود، فيؤدي زيارة صامتة لروبيكا، التي زاد في شحوبها لون ثوبها الأسود، بكميّه الطويلين حتى رسغيها، فتبدو لناظرها كأنما أفرغت من دمها. كان مجرّد التفكير بموعد جديد للزفاف ضرباً من انعدام الاحترام. فتحولت الخطوبة، بعد حين، إلى نوع من العلاقة الخالدة. اللذان كثيراً ما كانا، من قبل، يعطلان القناديل كي

يحظيا بقبلة، يرزحان لإرادة الموت الغلاّبة. ونفد صبر روبيكا، وانهارت معنوياتها كلياً، فاختل توازنها، فعاودت أكل التراب.

وفجأة، وبعد أن مضت على سريان الحداد فترة طويلة حتى عادت جلسات التطريز إلى سابق عهدها، وفي حوالى الساعة الثانية بعد الظهر في يوم من أيام الحرارة الشديدة بصمتها المطبق، دفع رجل باب الدار دفعة قوية اهتزت لها الأعمدة ومصاريع الأبواب، حتى ظنت أمارانتا وصويحباتها اللواتي كنّ يطرّزن في الشرفة، وروبيكا التي كانت تمص إصبعها في غرفة نومها، وظنت أورسولا في مطبخها، وأوريليانو في مشغله، بل ظنّ خوزيه أركاديو بوينديا نفسه في جلسته تحت شجرة الكستناء المعزولة، أنّ هزّة أرضية قد ضربت الدار. لقد وصل رجل هائل الجسم، لم يكد الباب الخارجي يتسع لمرور كتفيه العريضين. وقد تدلت من عنقه، الذي يشبه عنق الثور الوحشي، مدلاّة فيها صورة العذراء سيدة النجدة. وقد امتلأ ذراعاه وصدره بوشم جنائزي، وقد أحاط بمرفقه الأيمن سوار أظهر الصليب النحاسي، كانت بشرته مدبوغة بملح تقلبات الأنواء، وكان شعره قصيراً ومستقيماً كأنه عرف بغل، وكان فكّاه من حديد، وتعلو وجهه ابتسامة حزينة. وكان على وسطه حزام يبلغ في عرضه ضعفي حزام الحصان، ويتنعل حذاء طويل الساق له مهمازان وكعبان من حديد. وكان مجرّد حضوره، بما يرافقه من ضجة، يولد لديك انطباعاً بحدوث هزة أرضية.

مرّ الرجل بقاعة الاستقبال وغرفة الجلوس، وهو يحمل كيسي سرج شبه مهترئين. ثم ظهر كالرعد على الشرفة ذات أزهار البيجونيا، فصعقت أمارانتا وصويحباتها، وظلت إبرهن عالقة في الهواء. فحيّاهن بصوت متعب، ورمى بكيسيه على طاولة الشغل، ثمّ مضى، دون أن يتوقف عندهن، إلى مؤخرة البيت. وألقى التحية كذلك على روبيكا، التي

أرعبها مروره بباب غرفة نومها. وحيّا أوريليانو الجالس إلى طاولة شغله في صياغة الفضة بكل حواسه المتوثبة. ولم يتوقف عند أحد، بل ظل ماضياً في طريقه إلى المطبخ. وهناك توقف للمرة الأولى في رحلة بدأت من الطرف الآخر للعالم. وهناك ألقى التحية. وفغرت أورسولا فاهاً جزءاً من الثانية، ثم حدّقت في عينيه، وصاحت صيحة هائلة، ووثبت مطوّحة بذراعيها، وتعلّقت بعنقه وهي تصرخ وتبكي فرحاً. .

لقد كان خوزيه أركاديو.

وقد عاد فقيراً كما كان يوم رحيله، حتى إن أورسولا أعطته بيزوين (قطعتي نقود) لكي يدفع أجر الحصان. وكان يتكلم إسبانية ممزوجة بلهجة أبناء البحر العامية. سألوه أين كان، فأجاب: «هناك». ثم علّق أرجوحته في الغرفة التي كانوا قد خصّصوها، له ونام ثلاثة أيام بطولها.

وعندما استفاق، وبعد أن التهم ست عشرة بيضة نيئة، مضى مباشرة إلى مخزن كاتارينو، حيث أثارت بنيته الهائلة بين النساء رغبة في معرفته مشفوعة بالرعب من منظره.

طلب شيئاً من الموسيقى، وقدّم للحاضرين عصير قصب السكر على حسابه. ثم خاض جولة من الرهان. كان أولها أن تحدى خمسة رجال أن يثنوا قبضته. ولكنهم تبينوا أنهم لا يستطيعون تحريك ذراعه، فقالوا: «ذلك مستحيل، لأنه يلبس سوار الصليب». وقد روي عنه أنه كان يشقّ عروق ذراعه قبل أن يلبس السوار، كي تخرج منها قوة فوق إنسانية. ولم تصدق كاتارينو تلك الرواية، فراهنته على أن يرفع منضدة الحاجز (طاولة البار) لقاء اثني عشر بيزواً(١). فانتزعها خوزيه أركاديو من الأرض، ورفعها فوق رأسه، ثم حملها إلى الطريق العام. وقد استعانت كاتارينو، من بعد، بأحد عشر رجلاً كي يعيدوا المنضدة إلى مكانها.

---

(١) البيزو Peso قطعة من النقود.

وفي حمّى تلك الحفلة، عرض خوزيه أركاديو فحولته الخارقة على الموجودين جميعاً. كان كله موشوماً، وقد غطت جسده كتابات حمراء وزرقاء بلغات مختلفة. وكانت النسوة يحاصرنه من كل جهة برغباتهن العارمة. فوافق على أن يوافي منهن من تدفع له أكثر. فقدّمت له أغناهنّ عشرين بيزواً، ولكنه عرض أن تجرى عليه قرعة، وأن يكون سعر التجربة عشرة بيزوات. وكان هذا السعر عالياً جداً، لأن أكثر النساء حظوة، عندئذ، ما كانت لتجني في الليلة أكثر من ثمانية بيزوات. ولكنهن وافقن جميعاً، وكتبن أسماءهن كلاً على قطعة ورق، ووضعن الأوراق في قبعة. ثم سحبت كل منهنّ ورقة واحدة، وعندما لم تبق سوى ورقتين في القبعة عرف الجميع صاحبتي الحظ. فقال خوزيه أركاديو: «لتدفع كل منكما خمسة بيزوات أخرى فأكون لكما معاً». فقد كان يعيش من هذه الحرفة. وقد طاف حول العالم خمساً وستين مرة، مع طاقم من البحارة لا ينتمون لبلد. وقد أعادته المرأتان، اللتان قضتا الليلة معه في مخزن كاتارينو، عارياً إلى قاعة الرقص والحفلات، لكي يرى الناس أنه لم يكن في جسده شيء واحد دون أن يغطيه الوشم، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

ولم يستطع خوزيه أركاديو التكيف للحياة العائلية، ولم يتمكن من الانسجام مع أفراد أسرته. كان يقضي النهار كله نائماً، ويمضي الليل بطوله في حي الأضواء الحمراء وبيوت اللهو، يراهن على قوته الجسدية. وفي المرات القليلة التي ألحت فيها أورسولا في ضمه إلى أفراد الأسرة، وفي اتخاذه مكانه معهم إلى مائدة الطعام، كان يبدو رقيقاً مشرقاً ولطيفاً، وخصوصاً عندما يتحدث عن مغامراته في بلدان العالم البعيدة. فلقد تحطمت السفينة التي كان فيها، مرة، وغرقت، وظل هائماً على وجهه، في بحر اليابان طوال أسبوعين، بعيداً عن اليابسة. كان يأكل من

جثة رقيق له قتلته ضربة شمس. وكان لحم الجثة، الذي أشبع بملح البحر، وأنضجته حرارة الشمس الشديدة، يبدو عجيباً ولكنه طيب المذاق حلو. وفي خليج البنغال، وفي ظهيرة يوم مشرق رائع، ارتطمت سفينته بتنين بحر فقتلته. فوجدوا في بطنه خوذة وزرداً وسلاح فارس صليبي. وقد رأى في البحر الكاريبي شبح سفينة القرصان فيكتور هوج، وقد مزّقت أشرعتها ريح الموت، وقضمت صواريها ديدان البحر وحشراته، وهي ما تزال تبحث عن مجرى الوادبلوب. وكانت أورسولا تبكي حينئذ، وهي تصغي، وكأنها كانت تقرأ رسائله، التي لم تصل إليها، التي يحدثها فيها عن أعماله ومغامراته الفاشلة والناجحة. ثم تقول وهي تنتحب وتتنهّد: «كل هذا، والبيت الكبير هنا ينتظرك، يا بنيّ. كل هذا ونحن نلقي بفضلة زادنا للخنازير!».

والحق أنّ أورسولا الأم لم تكن تستطيع، في أعماقها، أن تتصور أن ذلك الفتى الصغير، الذي صحبه الغجر، قد غدا هذا العملاق الذي يلتهم نصف خنزير رضعي في غدائه، وأن هموم العيش ورياح الشقاء قد أذبلت كل أزهاره.

ولم تكن مشاعر سائر أفراد الأسرة إزاءه لتختلف عن إحساسات الأم. فما كانت أمارانتا لتقوى على إخفاء قرفها من تجشئه الحيواني على المائدة. وما كان أركاديو، الذي لم يعرف قط سرّ علاقته الأبوية به، ليجيب عن أسئلته إلاّ باقتضاب. ولم يكن يدري أن غايته من طرح أسئلته عليه أن يكسب وده وعاطفته. وقد حاول أوريليانو أن يستعيد ذكريات الفترة التي كانا يعيشان فيها في غرفة واحدة، وأن يذكره بحياتهما معاً وتعاونهما الطفولي. ولكن خوزيه أركاديو قد نسي كل شيء، ذلك أن الحياة في البحر قد استأثرت بذاكرته وأشبعتها حتى التخمة. وحدها ريبيكا هي التي شغفت به، ووقعت في حبه من النظرة

الأولى. فمنذ اليوم الذي رأته فيه يمرّ قرب غرفة نومها، وجدت أن بيترو كريسبي لم يكن سوى قطعة حلوى تافهة أمام هذا الفحل العظيم الذي تسمع أنفاسه البركانية في كل أرجاء الدار. وقد حاولت التقرّب منه بشتى الذرائع. وفي إحدى المرات، حدّق خوزيه أركاديو فيها، متفحصاً كل جسدها باهتمام لا يعرف الخجل، وقال لها: «لقد صرت امرأة حقيقية، أيتها الأخت الصغيرة». وفقدت ريبيكا السيطرة على نفسها، وعادت، بعدئذٍ، إلى عادتها في أكل التراب وطلاء الجدران الكلسي بشره الماضي. وعادت إلى مصّ إبهامها في نهم شديد، سبّب لها نشوء آلام في رأسها. وجعلت تتقيأ سائلاً أخضر فيه علقات ميتة. وقضت بعد ذلك ليالي طويلة لا تعرف فيها النوم، وهي تعاني الدوار الدائم، وتنتظر عودة خوزيه أركاديو في الهزيع الأخير من الليل، فيهتز البيت كله لقدومه. وفي وقت القيلولة من أحد الأيام، وقد هجع كل من في الدار، لم تستطع ريبيكا المقاومة، فمضت إلى غرفته. فوجدته مستلقياً عارياً، إلاّ من سرواله، وقد تمدّد في أرجوحته التي علّقها بنفسه بين عارضتين ضخمتين، بوساطة حبال غليظة من تلك التي تستعمل في ربط السفن. وأذهلها عري جسده الهائل المزيّن بمختلف الألوان، وأحست بدافع للعودة من حيث أتت، وقالت معتذرة متلعثمة: «عفواً، لم أكن أعلم أنك هنا». قالت ذلك بصوت خفيض كي لا توقظ أحداً في الدار.

فقال لها: «تعالي». وأطاعت ريبيكا. ووقفت قرب الأرجوحة، وقد أحسّت بعرق جليدي يغمر جسدها، وباضطراب في أمعائها، حينما أخذت رؤوس أصابع خوزيه أركاديو تداعب كاحليها، ثم ربلتي ساقيها، ثم ردفيها، وهو يتمتم: «آه، أيتها الأخت الصغيرة. الأخت الصغيرة». وقد بذلت ريبيكا جهداً غير إنساني، وغير معقول، كي لا تغادرها روحها، عندما ضمتها قوّة كالإعصار، ورفعتها من خصرها، ثم جرّدتها

من ثيابها، وغمرتها ولفتها بحركات ثلاث، كما لو كانت عصفوراً صغيراً. ولقد وجدت روبيكا متسعاً من الوقت، وبقية من الجهد، كي تشكر الله لأنه أوجدها قبل أن تستسلم طائعة، وغير واعية تماماً، لتلك اللذة العجيبة وذلك الألم الذي لا يطاق، في غمار مستنقع الأرجوحة اللاهب، الذي امتصّ، كورق النشاف، انفجار دمها.

وبعد مضيّ ثلاثة أيام على ذلك، تزوّج خوزيه أركاديو وروبيكا، خلال صلاة الساعة الخامسة. وكان خوزيه أركاديو قد ذهب في الليلة السابقة إلى مخزن بيترو كريسبي. فوجده يعطي درساً في الموسيقى عن القيثارة، فقال له، دون أن يتنحى به جانباً: «سأتزوج روبيكا». فامتقع وجه بيترو كريسبي، وناول القيثارة، التي كانت في يده، إلى أحد طلابه، وأعلن انتهاء الدرس، وصرف الطلاب. وعندما بقيا وحيدين في الصالة التي كانت مزدحمة بالآلات الموسيقية، واللعب الآلية واللعب الأخرى ذات النوابض، قال له بيترو كريسبي: «إنها أختك».

فأجاب خوزيه أركاديو: «لا يهمني ذلك».

وجفف بيترو كريسبي العرق عن جبينه بمنديله المعطّر بالخزامى، وأضاف قائلاً: «هذا أمر ضد الطبيعة، وعلاوة على ذلك فإنه ضد القانون».

وأثار اصفرار بيترو كريسبي وشحوبه خوزيه أركاديو أكثر مما أثارته حججه. فقال محتداً: «أبول على الطبيعة، ولتذهب إلى الجحيم. وقد جئت لأنبئك بالأمر، ولأجنبك عناء سؤال روبيكا عن أي شيء».

ولكن لهجته لانت بعض الشيء عندما رأى عيني بيترو كريسبي تغرورقان بالدموع، فخفف من حدّة أسلوبه، وقال له بلهجة أخرى: «والآن، إذا كانت العائلة هي التي تعجبك فقد بقيت لك أمارانتا».

أعلن الأب نيكانور، في موعظة يوم الأحد، أن خوزيه أركاديو

وروبيكا ليسا أخاً وأختاً.

ولم تغفر لهما أورسولا قط ما أقدما عليه من عدم الاحترام والخرق غير المعقول للتقاليد. ولدى عودتهما من الكنيسة لم تسمح للعروسين الشابين بالرجوع إلى البيت. فقد اعتبرتهما ميتين. فاستأجرا بيتاً صغيراً، عند الطرف الآخر من المقبرة. وانتقلا إليه، ولم يكن عندهما من الأثاث سوى أرجوحة خوزيه أركاديو؟.

وفي ليلة الزفاف، لسعت عقرب قدم روبيكا بعد أن اندست في حذائها، فسببت لها خدراً في لسانها. ولكن ذلك لم يحل دون أن يقضيا ليلة كانت فضيحة، بل شهر عسل ظلّ حديثاً للناس. فلقد ذعر الجيران من الصياح والصراخ الذي أيقظ الحيّ كله ثماني مرات في ليلة واحدة، وثلاث مرات في وقت القيلولة، حتى أخذوا يصلون عسى ألا تزعج تلك العاطفة الهائجة راحة الموتى في قبورهم.

وكان أوريليانو الوحيد الذي اهتمّ بهما، فاشترى لهما بعض الأثاث، وقدّم لهما من المال ما كان كافياً حتى يعود خوزيه أركاديو إلى حياة الواقع، فيبدأ بالعمل على استغلال قطعة الأرض المجاورة للدار، والتي لا يملكها أحد.

أما أمارانتا فلم تستطع قط أن تتغلب على ضغينتها وحقدها على روبيكا، مع أن القدر هيّأ لها من الحظ، ومنحها من الرضا، ما لم تكن تحلم به.

وما كانت أورسولا لتدري كيف تغطي العار الذي تعرّضت له الأسرة، فبادرت بأن عرضت على بيترو كريسبي أن يستمر على عادته في تناول طعام الغداء معهم في البيت كل يوم ثلاثاء. ففعل، وهو يبذل أقصى جهده في تجاوز فشله والارتفاع فوق ألمه في هدوء ووقار. وقد واظب على إبقاء الشريط الأسود على قبعته احتراماً منه للعائلة. وكان

يسعده أن يعبر عن حبه وتقديره لأورسولا، فدأب على تقديم الهدايا الغريبة الغالية لها : كالسردين البرتغالي، ومربّى (حلوى) الورد التركي. وقد حمل لها مرة شالاً جميلاً من مانيلا. وكانت أمارانتا تهتم به وتستقبله باندفاع حنون. كانت تعرف رغائبه ومطالبه قبل أن يعلنها، حتى تنزع الخيوط الناسلة من كُمّيه. وقد طرّزت له اثني عشر منديلاً، تحمل الحروف الأولى من اسمه، هدية في عيد ميلاده. وكان كلّ ثلاثاء يجلس معها، بعد الغداء، ويسعد بصحبتها وهي تطرز في الشرفة. لقد كانت تلك المرأة، التي طالما تجاهلها وعاملها كطفلة، اكتشافاً جديداً بالنسبة له. وعلى الرغم من أن مزاجها كانت تنقصه الرشاقة، وجمالها تنقصه الجاذبية القوية، فقد كانت تتمتع بحساسية نادرة في تقدير الأمور وتفهم أشياء الحياة. وكانت، إضافة إلى ذلك ذات رقة خفية.

وفي أحد أيام الثلاثاء، طلب بيترو كريسبي يد أمارانتا، فتحقق تقدير كل الذين كانوا يظنون أن هذا الأمر لا بدّ أن يتحقق عاجلاً أم آجلاً. ولم تتوقف أمارانتا عن التطريز، فانتظرت حتى تبددت حمرة الخجل الحارّة التي صبغت أذنيها، ثم قالت بصوت وقور رزين مفعم بالنضج والوعي :

«طبعاً يا كريسبي، ولكن بعد أن يعرف أحدنا الآخر بشكل أفضل. فليس حسناً أن تستعجل الأمور».

وارتبكت أورسولا. فهي، على الرغم من احترامها وتقديرها العظيم لبيترو كريسبي، لم تكن تدري ما إذا كان قراره جيداً أم سيئاً، من الناحية الخلقية والمعنوية، بعد خطبته الطويلة المشهورة لروبيكا. ولكن الأمر انتهى بأورسولا إلى الموافقة وقبول الأمر كحقيقة، لا بالحسنة ولا بالسيئة، لأن أحداً لم يكن يشاركها شكوكها ومخاوفها.

لكنّ أوريليانو، وقد غدا رجل البيت الآن، قد زاد في حيرتها وارتباكها عندما أدلى برأيه الحازم والغريب، قائلاً : «ليس هذا أوان

التفكير في الزواج».

ولم تدرك أورسولا مغزى ذلك الرأي إلاّ بعد بضعة أشهر. وقد كان ذلك هو الرأي الوحيد المخلص الذي يرتئيه أوريليانو، وهو صادق مع نفسه. فهو ما كان ليهتم بالزواج أو غيره من الأمور، باستثناء الأمر الذي كان شغله الشاغل، وهو الحرب. ولم يكن هو نفسه يدرك بوضوح، وهو يواجه فصيل الإعدام. كيف تتالت الأحداث وتداخلت المصادفات البسيطة، على خطورتها، فأدّت به إلى حيث كان يقف. لم يسبب له موت ريميديوس اليأس الذي كان يخشاه. فقد أورثه ذلك غضباً عارماً، راح يزول بعامل الزمن، مخلفاً وراءه إحساساً سلبياً بالحرمان، تحوّل إلى شيء من التقوقع والعزلة، شبيه بالشعور الذي أوصله إلى عزمه على أن يكون بلا امرأة. فقد أغرق نفسه في عمله، وإن كان قد واظب على عادة لعب (الدومينو) مع حميه. وقد وطّدت أحاديثهما المستمرة علاقات الصداقة بينهما، في بيت كان ما يزال غارقاً في الحداد. ولطالما كان الرجل يقول لصهره : «تزوج ثانية يا أوريليانو. فلديّ ستّ بنات، ولك أن تختار من تشاء منهن».

وفي إحدى المرات، عاد الدون أبولينار موسكوت من إحدى رحلاته الكثيرة، عشية الانتخابات، وهو موزّع الفكر مشغول البال بسبب حالة البلاد السياسية. فقد كان الأحرار عازمين على خوض الحرب ضد الحكومة. وما كان لدى أوريليانو، في تلك الفترة، سوى أفكار مشوشة وسطحية وغامضة عن الفرق بين الأحرار والمحافظين. فقام حموه بتوضيح الأمور له في عدة دروس تفصيلية. فذكر له أن الأحرار ماسونيون، وسيئون، يريدون شنق الكهنة ورجال الدين، ويدعون إلى الزواج المدني وإقرار الطلاق. وينادون بالمساواة في الحقوق بين الأبناء الشرعيين والأبناء غير الشرعيين. ويعملون على تمزيق وحدة البلاد بإقامة نظام اتحادي

(فيدرالي) ينتزع الامتيازات من السلطة المركزية. أما المحافظون فيستمدون سلطتهم من الله نفسه مباشرة، وهم يسهرون على حفظ النظام العام والأخلاق العائلية، وهم المدافعون عن دين المسيح ومبدأ السلطة، ولا يقبلون بتجزيء البلاد إلى كيانات مستقلة ذاتياً.

وقد تعاطف أوريليانو مع الأحرار، وأحبهم، مدفوعاً بعواطفه ومشاعره الإنسانية، بسبب موقفهم من حقوق الأبناء الطبيعيين (غير الشرعيين). ولكنه، على أية حال، لم يدرك كيف يمكن للناس أن يصلوا إلى درجة إعلان الحرب من أجل أشياء وأمور غير ملموسة. وقد اعتبر أن حماه قد بالغ حين استقدم، في فترة الانتخابات، ستة رجال مسلحين بالبنادق، بإمرة رقيب، إلى بلدة خالية من كل العواطف والمشاعر السياسية.

ولم يقتصر الأمر على وصول الجنود إلى البلدة، ولكنهم فتشوها بيتاً بيتاً، وصادروا من البيوت أسلحة الصيد والمناجل، بل سكاكين المطابخ نفسها، قبل أن يوزعوا على الرجال، الذي هم في الحادية والعشرين فما فوق، أوراق اقتراع زرقاء تحوي أسماء المرشحين المحافظين، وأخرى حمراء فيها أسماء المرشحين الأحرار. وفي عشية الانتخابات تلا الدون أبولينار موسكوت، بنفسه، أمراً يمنع بيع المشروبات الكحولية، كما يمنع الاجتماعات التي تضم أكثر من ثلاثة أشخاص ليسوا من نفس العائلة.

ومرّت الانتخابات دون حوادث. ففي الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد، وضع صندوق الاقتراع الخشبي في الساحة العامة، وقام الجنود الستة على حراسته. وأدلى الناس بأصواتهم بحرية تامة، كما لاحظ أوريليانو بنفسه، وقد ظل اليوم بطوله، مع حميه يسهر مهتماً بألاّ يدلي أحد بصوته مرتين. وفي الساعة الرابعة من بعد الظهر، أعلن قرع الطبل، في الساحة العامة، نهاية الاقتراع، وقام الدون أبولينار موسكوت بختم

الصندوق بقطعة ورق ألصقها عليه ووضع عليها توقيعه. وفي مساء ذلك اليوم نفسه، وبينما كان الدون أبولينار موسكوت يلعب الدومينو مع أوريليانو، أمر الرقيب بأن ينزع ختم الورقة المصمغة الموقعة والملصقة على صندوق الاقتراع، كي يقوم بحساب الأصوات. فكان عدد الأوراق الزرقاء والحمراء متساوياً تقريباً، ولكن الرقيب لم يدع من الأوراق الحمراء سوى عشر منها وأكمل الفرق بأوراق زرقاء. ثم ختم الصندوق ثانية بورقة مصمّغة جديدة. وفي ساعة الصباح الأولى، أرسل الصندوق إلى عاصمة الإقليم وعندها قال أوريليانو: «سوف يخوض الأحرار الحرب». فأجاب الدون أبولينار موسكوت، وهو ما يزال يركز اهتمامه على لعبة الدومينو: «إنهم لن يعلنوا الحرب بسبب تبديل أورق الاقتراع، لأننا أبقينا بعض الأوراق الحمر كي لا تكون هناك اعتراضات وشكاوى». فأدرك أوريليانو، عندئذ صعوبة كون الإنسان في المعارضة، وقال: «لو كنت من الأحرار لقاتلت بسبب تبديل هذه الأوراق». فنظر إليه حموه من فوق نظارته، وقال له: «لو كنت من الأحرار، يا عزيزي، لما شهدت تبديل أوراق الاقتراع حتى ولو كنت صهري».

ولم تثر نتائج الانتخابات حنق أهل البلدة، ولكن الذي أثارهم حقاً هو أن الجنود لم يعيدوا السلاح إلى أصحابه. وتحدث وفد من النساء إلى أوريليانو عله يقنع حماه برد سكاكين المطبخ إلى البيوت. ولكن الدون أبولينار موسكوت أبلغه خبراً في غاية السرية، مفاده أن الجنود نقلوا السلاح المصادر، كي يقيموا الدليل على استعداد الأحرار للحرب. فأزعجته السخرية القاتلة الكامنة في تلك الملاحظة ولؤم ذلك التصريح. ولم يعلّق بشيء قط، ولكنه كان ذات ليلة يتحدث مع جيرينيلدو ماركيز وماغنيفكو فيسبال، وبعض الأصدقاء الآخرين، عن حادثة السكاكين، فسألوه إن كان من الأحرار أو المحافظين. ولم يتردد أوريليانو في القول:

«إذا كان لا بد من الانتساب فسوف أكون من الأحرار، لأن المحافظين غشاشون».

وفي اليوم التالي، قام أوريليانو بزيارة الطبيب ألبريو نوجويرا، بناء على تشجيع أصدقائه، متذرعاً بعلاج ألم وهمي في كبده. ولم يكن يدرك معنى هذه الحيلة أو التمثيلية.

وكان الطبيب ألبريو نوجويرا قد وصل إلى ماكوندو قبل بضع سنوات، ومعه صندوق أدوية مليء بحبات دواء لا طعم لها، وشعار طبي على لافتة، لا يقنع أحداً، هو: كل مسمار يسحب آخر. والواقع أنه كان دجّالاً. فلقد كان يختفي وراء مظهر الطبيب البريء، عديم الشهرة، مخرباً ساتراً تحت جلد حذائه الطويل، حتى منتصف فخذه، ندوباً(١) خلّفتها على رجليه خمس سنوات قضاها مقيداً بالأغلال. وكان قبض عليه إبّان الحملة الفيدرالية الأولى، ولكنه نجح في الفرار إلى كوراساو، متنكراً بجبة كاهن، وهو لا يمقت شيئاً مثل مقته لهذا الثوب. وبعد نفي طويل، حرّكته الأخبار المثيرة التي كان ينقلها المنفيون، عبر الكاريبي، إلى كوراساو، فنجح في ركوب سفينة للمهربين، ليظهر بعد ذلك في ريوهاشا، ومعه قوارير حبوب الدواء، التي لم تكن سوى حبات سكر مصفّى، ومعه شهادة من جامعة لايبزيج(٢) زوّرها بنفسه. وكانت خيبة آماله كبيرة، فبكى بكاء مراً. فحماسة الفيدراليين، التي شبهها المنفيون ببرميل بارود على وشك الانفجار، لم تكن سوى موجة سرعان ما ذابت في الأوهام الانتخابية. وآلمته مرارة الإخفاق، فانكفأ إلى البحث عن مكان يمضي فيه بقية أيامه آمناً. فلاذ بماكوندو يعمل فيها طبيباً زائفاً. وعاش في هذه البلدة في غرفة صغيرة تملؤها القوارير، استأجرها

(١) آثار الجروح.
(٢) University of Leipzig جامعة لايبزيج في ألمانيا.

عند طرف الساحة العامة، حيث أمضى بضع سنوات يعتمد في رزقه على دخله من المرضى اليائسين، بعد أن جرّبوا كل دواء، ثم انتهوا إلى الرضا ببعض أقراص السكر عزاء لهم. وظلت هادئة في داخله غرائز المرّض الكامنة فيه ما دام الدون أبولينار موسكوت يكتفي بمظهر السلطة. فكان يقضي وقته في استعادة ذكرياته وفي الصراع ضد مرض الربو. ولما اقتربت الانتخابات كانت له بمثابة البداية التي أوصلته إلى قمة التخريب. فراح يتصل بشباب البلدة الذين كانت تنقصهم الثقافة السياسية، ثم بدأ بحملة سرية للتحريض والإثارة. ولم تكن أوراق الاقتراع الحمر التي وجدت في الصندوق، وعزاها الدون أبولينار موسكوت إلى حب الاستطلاع والتجديد لدى الشباب، لم تكن في الحقيقة سوى واحد من أجزاء خطته: فقد جعل أتباعه يقترعون لكي يثبت لهم أن الانتخابات لم تكن سوى مهزلة. فقد كان يقول لهم:

«إن الشيء الوحيد المفيد هو العنف».

واستجاب معظم أصدقاء أوريليانو، بحماسة، لفكرة إنهاء النظام المحافظ، ولكنّ أحداً لم يجرؤ على دعوته للانضمام إلى خططهم، لا بسبب علاقاته بالحاكم وحسب، وإنما بسبب سلوكه الانعزالي وطبعه المراوغ. ولقد كان معروفاً، علاوة على ذلك، أنه قد اقترع للقائمة الزرقاء، أي للمحافظين، بناء على توجيهات حميه.

وهكذا، لم يكن إفصاحه عن عواطفه السياسية سوى محض مصادفة، ولم تكن فكرة زيارته للطبيب، كي يعالج مرضاً لا يشكو منه، إلاّ بدافع حب الاستطلاع. ولما وصل إلى ذلك الكوخ العتيق، الشبيه ببيوت العناكب، والذي تفوح منه رائحة البخور، وجد نفسه مقابل عجوز شبيه بالحرباء الغبراء، التي تصفر رئتاها لدى كل شهيق أو زفير. وقبل أن يطرح عليه الدكتور أي سؤال، قاده إلى النافذة وفحص له داخل

جفنه الأسفل. فقال له أوريليانو، حسب تعليمات أصدقائه: «ليس هنا». ثم ضغط برؤوس أصابعه بقوة على مكان الكبد، مضيفاً: «هذا الألم الذي يحول دون نومي».

وعندها أغلق الطبيب نوجويرا النافذة، بحجة أن نور الشمس قويّ، ثم شرح له، بكلام بسيط، أن الواجب الوطني يقضي بذبح المحافظين. وقد ظل أوريليانو أياماً، يحمل في جيب قميصه قارورة صغيرة، يخرجها كل ساعتين، ويصب في راحته منها ثلاث حبات يقذفها في فمه، لكي تذوب ببطء على لسانه.

وقد سخر الدون أبولينار موسكوت من ثقة أوريليانو بقدرة الطبيب الزائف. ولكن أولئك الذين كانوا أعضاء في المؤامرة رأوا فيه واحداً من جماعتهم. والواقع أن أبناء روّاد ماكوندو جميعاً، تقريباً، كانوا ضالعين في ذلك الأمر، دون أن يعرف أحد منهم تماماً ماذا كانوا يفعلون. ولكن أوريليانو استطاع أن يستنتج أبعاد المؤامرة في اليوم نفسه الذي أحاطه الطبيب فيه علماً بالسر. ولقد أخافه المخطط، على الرغم من اقتناعه بضرورة إنهاء النظام المحافظ.

كانت للطبيب نوجويرا طريقة غريبة غامضة في الاغتيالات الشخصية. وتتلخص طريقته في تنسيق سلسلة من الأعمال الفردية، تبدو على هيئة ضربة متقنة على مستوى الأمة، فتصفّي فعاليات النظام وموظفيه وعائلاتهم، ولا سيما الأطفال، لكي تستأصل فكرة المحافظين من جذورها. وكانت أسماء الدون أبولينار موسكوت وزوجته وبناته الست في القائمة بطبيعة الحال.

قال له أوريليانو دون أن يفارق هدوءه: «أنت لست من الأحرار ولا من غيرهم. أنت سفّاح». ولكن الطبيب أجاب بلهجة هادئة: «وفي هذه الحال، أعد إليّ القارورة، فلست بحاجة إليها».

ولم يعلم أوريليانو إلاّ بعد مضي ستة أشهر أنّ الطبيب قد يئس من اعتباره رجل عمل، وأنه كان يعتبره عاطفياً لا مستقبل له، سلبيّ الطبع، مقضياً عليه أن يعيش وحيداً في عزلته. وحافظ الأصدقاء على صلاتهم به، وعدم الانقطاع عنه، خشية أن يشي بهم، فتنفضح مؤامرتهم. فطمأنهم أوريليانو بأنه لن يتفوّه بكلمة واحدة. ولكنهم في الليلة التي ذهبوا لكي يقتلوا عائلة موسكوت وجدوه يحرس باب الأسرة ويدافع عنها. وقد بدا عليه قراره وموقفه الحازمان، مما اضطرهم إلى تأجيل الخطة إلى أجل غير مسمّى.

ولقد كان في تلك الأيام أن سألت أورسولا أوريليانو رأيه في زواج بيترو كريسبي من أمارانتا، وكان جوابه لها أن ليس هذا أوان التفكير في الزواج. فقد كان، منذ أسبوع، يحمل تحت قميصه مسدساً قديماً. وكان يواظب على مراقبة أصدقائه. وكان، في عصر كل يوم، يذهب لتناول القهوة مع خوزيه أركاديو وروبيكا، اللذين رتبا بيتهما بشكل أفضل. وكان، بعد السابعة، يذهب كي يلعب الدومينو مع حميه. وكان يقضي ساعة الغداء في الحديث والنقاش مع أركاديو، الذي غدا يافعاً ضخماً، وقد تبين أنه يزداد، مع الأيام حماسة لابتداء الحرب، وقد تزايدت حمّى الأحرار في المدرسة التي كان أركاديو يعلم فيها طلاباً أكبر منه سناً، إلى جانب أطفال لم يتقنوا الحديث بعد. فقد كان هناك حديث متزايد حول إعدام الأب نيكانور، وتحويل الكنيسة إلى مدرسة، وتكريس حرية الحب، وقد حاول أوريليانو التخفيف من دوافعه وتهدئة حماسته. فنصحه بالكتمان والتعقّل، ولكن أركاديو لم يصغ إلى منطقه العاقل وواقعيته الحكيمة، بل عاب عليه، علناً، ضعف طبعه وشخصيته. وانتظر أوريليانو صابراً. وأخيراً، وفي بداية شهر كانون الأول (ديسمبر)، اندفعت أورسولا إلى المشغل، وهي ترتجف خوفاً وفزعاً، وقالت: «لقد

اندلعت الحرب».

والواقع أن الحرب كانت قد انفجرت قبل شهور ثلاثة. وقد أعلنت الأحكام العرفية في البلاد. وكان الوحيد الذي عرف ذلك في حينه هو الدون أبولينار موسكوت، ولكنه لم يطلع حتى زوجته على الخبر، بينما كانت كتيبة الجيش، المكلفة باحتلال البلدة على حين غرة، في الطريق إليها.

دخل الجيش البلدة، دون ضجة، قبل بزوغ الفجر، وبصحبتهم قطعتان من المدفعية الخفيفة تجرهما البغال. وأقام الجنود مركز قيادتهم في المدرسة. وفي الساعة السادسة مساء، أعلن منع التجول. وقام الجنود بعملية تفتيش من بيت إلى بيت أشد وأدق من العملية السابقة. وفي هذه المرة، صادروا حتى أدوات العمل الزراعي. وقد اقتادوا الطبيب نوجويرا من بيته، وربطوه إلى شجرة في الساحة العامة، وأعدموه رمياً بالرصاص، دون أية محاكمة.

وقد حاول الأب نيكانور أن يؤثر على السلطات العسكرية بعرض ارتفاعه العجائبي، ولكنّ أحد الجنود شجّ رأسه بعقب بندقيته. وانطفأت طفرة الأحرار، ونشوة بهجتهم، أمام عنف الإرهاب الصامت. ولكنّ أوريليانو، بلونه الشاحب المتقع، وغموض تفكيره وسلوكه، تابع لعب الدومينو مع حميه، في شيء من التقوقع على ذاته، وقد أدرك أن الدون أبولينار موسكوت لم يكن سوى صورة مظهرية للسلطة، على الرغم من اللقب الذي كان يحمله، أي الحاكم المدنيّ العسكريّ للبلدة. فالقرارات كان يتخذها نقيب من الجيش، كان كل صباح يجمع ضريبة استثنائية بحجة الدفاع عن النظام العام. وقد انتزع أربعة من الجنود، العاملين بإمرته، امرأة، عضها كلب، من بين أفراد عائلتها، وقتلوها ضرباً بأعقاب بنادقهم. وفي يوم الأحد، بعد أسبوعين من الاحتلال، دخل

أوريليانو بيت جيرينيلدو ماركيز، وبطريقته الرزينة الهادئة المألوفة، طلب كأساً من القهوة دون سكر. حتى إذا كانا وحدهما في المطبخ، قال له أوريليانو بلهجة آمرة حازمة لم يعهدها فيه أحد :

«أعدّ الشباب، فسوف نبدأ الحرب».

ولم يصدّق جيرينيلدو ماركيز ما سمعه، فسأله : «بأي سلاح؟».

ـ وأجاب أوريليانو : «بسلاحهم».

وفي يوم الثلاثاء، وعند منتصف الليل، وفي عملية جنونية، قام واحد وعشرون رجلاً، جميعهم دون الثلاثين من العمر، بقيادة أوريليانو بوينديا، وسلاحهم سكاكين الموائد والأدوات الأخرى الحادّة، بمفاجأة الحامية. فاستولوا على السلاح، ونفّذوا حكم الإعدام في النقيب والجنود الذين قتلوا المرأة.

وفي الليلة نفسها، وبينما كانت طلقات فصيل الإعدام تتردّد في الأفق، سُمّي أركاديو قائداً مدنياً وعسكرياً للبلدة. وفي وقت جدّ قصير، لم يكد يسمح للثائرين المتزوجين بوداع زوجاتهم، فتركوهن يتدبّرن مصائرهن. ورحلوا مع بزوغ الفجر، يحييهم الشعب الذي حرّروه من الإرهاب، كي يلتحقوا بقوات القائد الثوري الجنرال فيكتوريو مدينا، الذي أفادت الأنباء أنه كان يزحف باتجاه ماناور. وقبل أن يرحل أوريليانو، أخرج الدون أبولينار موسكوت من الغرفة الصغيرة التي اختبأ فيها، وقال له : «اطمئن، يا عمّ. فالحكومة الجديدة تضمن لك، بشرف العهد، سلامتك الشخصية وسلامة عائلتك».

ولم يكن من اليسير على الدون أبولينار موسكوت أن يميز ذلك المتآمر، بحذائه الطويل، وببندقيته المعلقة، عرضاً، في كتفه، من ذلك الشخص الذي يلعب الدومينو معه حتى الساعة التاسعة مساء.

صاح قائلاً : «هذا جنون، يا أوريليانو».

فأجاب أوريليانو : «ليس هذا جنوناً. إنّها الحرب. ولا تدعُني باسم أوريليانو بعد الآن. فأنا، منذ الساعة العقيد (الكولونيل) أوريليانو بويندیا».

(٦)

لقد نظّم العقيد (الكولونيل) أوريليانو بويندیا اثنتين وثلاثين انتفاضة مسلّحة، كان بطلها جميعاً. وقد خسرها جميعاً. وقد أنجب سبعة عشر ولداً ذكراً، من سبع عشرة امرأة. وقد أعدموا جميعاً، الواحد بعد الآخر، في ليلة واحدة، ولم يبلغ أكبرهم الخامسة والثلاثين من عمره. وقد نجا العقيد أوريليانو بويندیا من أربع عشرة محاولة اغتيال، ومن ثلاثة وسبعين كميناً، ومن فصيل إعدام واحد. ولم تقتله كمية كبيرة من سمّ الستريكنين، وضعت في قهوته، وكانت تكفي لقتل حصان.

لقد رفض وسام الاستحقاق الذي منحه إياه رئيس الجمهورية. ورقّي إلى رتبة القائد العام للقوات الثورية، وامتدت سلطته وصلاحياته إلى كل أنحاء البلاد، حتى أقصى حدودها، وكان الرجل الذي لم ترهب الحكومة أحداً مثله، ولكنه لم يسمح قطّ بأن تؤخذ له صورة واحدة. ولم يقبل راتباً تقاعدياً، مدى الحياة، بعد أن وضعت الحرب أوزارها. فعاش أيام شيخوخته من الدخل الذي كانت تدره عليه السمكات الذهبية الصغيرة التي كان يصنعها في مشغله في ماكوندو. ولقد قاتل دائماً على رأس رجاله، ولكنه لم يجرح سوى مرة واحدة، جرحاً هو الذي أوقعه بنفسه، بعد أن وقّع معاهدة نيرلانديا، التي وضعت حداً لما يقرب من عشرين سنة من الحرب الأهلية. عندما أطلق رصاصة من مسدسه في صدره، فنفذت الطلقة من ظهره، دون أن تصيب منه مقتلاً. أما الشيء الوحيد الذي بقي من كل تلك الأفعال العظيمة فهو شارع صغير باسمه

في ماكوندو. ومع ذلك، فقد صرّح قبل وفاته، وفاة الشيخوخة، ببضع سنوات، أنه لم يكن يتوقع شيئاً من ذلك، في فجر ذلك اليوم عندما رحل مع رجاله الواحد والعشرين لكي ينضمّ إلى قوات القائد الثوري الجنرال فيكتوريو مدينا.

كان كل ما قاله عند الرحيل، يومئذ:

«أركاديو، نحن نستودعك ماكوندو، ونغادرها وهي في حال جيدة، فاحرص على أن تكون في وضع أفضل عندما نعود».

وفسّر أركاديو ذلك التوجيه تفسيراً شخصياً خاصاً، فاخترع لنفسه بزّة عسكرية خاصة، وعلّق عليها شارات مشير. وقد اقتبس شكلها عن صورة وجدها في أحد كتب ملكيادس. وعلّق في حزامه سيف النقيب الذي أعدم، بمدالياته الذهبية، وركّز المدفعين في داخل القرية، وألبس قدامى طلابه الزيّ العسكريّ، بعدما شحذ حماستهم بخطبه الملتهبة. وسمح لهم بالسير في طرقات البلدة مسلحين، قاصداً أن يوحي للغرباء أن البلدة أمنع من أن تغلب. وقد كان لهذه الحيلة أو المظاهرة أثران أو حدّان مختلفان. فمن جهة، ظلت الحكومة ستة أشهر وهي لا تجرؤ على مهاجمة البلدة، ومن جهة أخرى، عندما عزمت على مهاجمتها، دفعت إليها بقوات كبيرة استطاعت أن تحتلها خلال نصف ساعة، تحطمت فيها كل المقاومة.

وقد بدا أركاديو، منذ اليوم الأول لتسلمه الحكم، مولعاً جداً بالشكليات والمراسيم. وبلغ به الأمر أنه كان يصدر أربعة مراسيم في اليوم الواحد، لمجرد أن يأمر وينفذ كلّ ما يعنّ له. وقد فرض الخدمة العسكرية الإجبارية على من بلغوا الثامنة عشرة من العمر، واعتبر الحيوانات الهائمة في الطرقات، بعد الساعة السادسة مساء، ملكاً للحكومة، وأجبر الرجال الكبار في السن، أي المتقاعدين، على حمل شرائط حمراء على

سواعدهم. وقد فرض الإقامة الجبرية على الأب نيكانور في الأبرشية (الدير)، تحت طائلة الإعدام إذا ضبط في الخارج. ومنعه من أداء خدمة الصلاة، وقرع جرس الكنيسة، إلاّ إذا كان ذلك احتفالاً بانتصار الأحرار. وأمر فصيل الإعدام بأن يتدرب، في الساحة العامة، على إطلاق النار على فزّاعة عصافير.

ولم يحمله أحد، في البدء، محمل الجد. فقد كان هو ورفاقه، في نظر الناس، مجرّد تلاميذ مدارس يمثلون أدوار الكبار. وذات مساء، دخل أركاديو بيت كاتارينو، فحيّاه عازف البوق بلحن عسكريّ أضحك الحاضرين. فما كان من أركاديو إلاّ أن أعدمه لإهانته السلطة. وأما الذين احتجوا على ذلك فقد كبّل أرجلهم بالأغلال، وسجنهم في غرفة الصف، ولم يقدم لهم سوى الماء والخبز.

وكانت أورسولا تثور عليه وتصرخ في وجهه، كلما علمت بواحد من تصرفاته الجائرة، قائلة: «أنت مجرم قاتل. وسوف يعدمك أوريليانو عندما يعلم بأمرك. وسأكون أول من يفرح بموتك». ولكن ذلك لم يكن مجدياً. فشدّد أركاديو قبضته أكثر، دونما مبرّر أو سبب موجب، حتى صار أقسى حاكم عرفته ماكوندو.

ولقد قال الدون أبولينار موسكوت ذات يوم: «دعهم يجربوا الفرق. تلك هي جنة الأحرار». ولما علم أركاديو بقوله، هاجم بيته على رأس دورية من الجنود، وحطم كل أثاثه، وجلد بناته، ثم سحب الدون أبولينار موسكوت نفسه وراءه سحباً إلى الطريق العام. وفي اللحظة التي كان أركاديو على وشك أن يصدر الأمر لفصيل الإعدام بإطلاق النار على الدون أبولينار موسكوت، اندفعت أورسولا إلى ساحة القيادة، بعد أن طافت البلدة وهي تصرخ وتولول بالعار الذي لحق بها، وهي هائجة وتحمل بيدها سوطاً مطلياً بالقار. وعندما وصلت إلى أركاديو، صاحت

به قائلة : «تجرأ، أيها اللقيط».

وقبل أن تبدر من أركاديو أية حركة أو أي فعل، ضربته أول سوط، وهي تصرخ : «تجرأ، أيها القاتل. ثم اقتلني أيضاً، يا ابن المرأة الشريرة. اقتلني، فلا تعود لي عينان تبكيان عاراً لأنني ربّيت وحشاً مثلك». ثم راحت تمطره بالسوط ضرباً بلا رحمة، حتى تصاغر أركاديو وانطوى على نفسه كبزّاقة صغيرة في صدفة.

كان الدون أبولينار موسكوت، خلال ذلك، مغمى عليه، وهو مشدود إلى عمود في مكان فزّاعة العصافير التي مزّقتها طلقات التدريب والمزاح. وتفرق الفتيان الذين كانوا يؤلفون فصيل الإعدام، خشية أن تصب أورسولا عليهم جام غضبها، ولكنها لم تنظر إليهم مجرّد نظر. وتركت أركاديو، ملقى على الأرض، وقد تعفّر زيه العسكري بالتراب، وهو يزأر ألماً وغضباً، وتقدمت من الدون أبولينار موسكوت، ففكت قيده وأعادته إلى بيته. وقبل أن تغادر القيادة حرّرت جميع المسجونين من القيود والأغلال.

منذ ذلك اليوم، تسلمت أورسولا قيادة البلدة وحكمها. فأعادت صلاة الأحد إلى الكنيسة، وأوقفت حمل الشرائط الحمراء، وألغت كل القيود التي فرضها تقلب المزاج. ولكنها، على الرغم من القوة التي أبدتها، لم تكن تنفك عن بكاء حظها العاثر. وقد شعرت بوحدتها القاسية، حتى لاذت بصحبة زوجها غير ذات النفع، وكان هناك منسيّاً تحت شجرة الكستناء.

كانت تخاطب زوجها، وأمطار حزيران (يونيو) تكاد تهدم مأواه : «أنظر إلى ماذا آلت حالنا. فقد تفرّق أولادنا في كل أنحاء الدنيا. أنظر إلى بيتنا الخالي من الناس، فها نحن وحيدان من جديد، كما كنا في أيامنا الأولى».

لكن خوزيه أركاديو بوينديا، وهو الغارق في هوّة اللاشعور، كان أصمّ عن نحيبها وحزنها ورثائها لما آلت إليه الحال. لقد كان، في بداية حالة اللاوعي وفقدان الرشد لديه، يعبر عن حاجاته اليومية بعبارات لاتينية مقتضبة. وكانت تمرّ به ومضات صحو قصيرة عندما تجيئه أمارانتا بالطعام، فيتحدث عن آلامه وما يرزح تحته من عناء، ثم يستسلم بلطف وخضوع لكؤوس حجامتها وكمّاداتها الخردلية. ولكنه، في الفترة التي بدأت أورسولا تلوذ به لتنتحب لديه وتشكو حظهما، كان قد فقد كلّ صلة له بالواقع. فكانت تغسل له جسمه، عضواً عضواً، وهو جالس على مقعده الخشبي الصغير، وهي تقص عليه أخبار العائلة. فتقول له وهي تفرك ظهره بليفة مبلولة بماء الصابون : «ذهب أوريليانو إلى الحرب منذ أربعة أشهر، ونحن لا نعلم عنه، حتى الآن، شيئاً. وقد عاد إلينا خوزيه أركاديو، وهو الآن رجل كامل، أطول منك، وقد غطى الوشم جسمه كله فكأنه شغل الإبرة، ولكنه ما عاد إلاّ ليدنس بيتنا بالعار». وخيّل إليها أنّ زوجها كان يزداد حزناً عندما يسمع الأخبار السيئة. فقررت أن تكذب عليه. فجعلت تقول، وهي تلقي الرماد على برازه قبل أن تجرفه بعيداً : «لن تصدق ما سأقول لك. فقد شاء الله أن يتزوج خوزيه أركاديو وريبيكا، وهما الآن في غاية السعادة».

وكان عليها أن تكون مخلصة في خداعها، فإذا بأكاذيبها تغريها هي نفسها. فتابعت تقول : «صار أركاديو الآن رجلاً عاقلاً وجاداً، وشجاعاً جداً، وفتى جميلاً ببزته العسكرية وسيفه المصقول».

ولكنها كانت كمن يتحدث للموتى، فقد كان خوزيه أركاديو بوينديا أبعد من أن تدركه الهموم. ولكنها أصرت وثابرت على ذلك. ولكنه كان هادئاً جامداً، لا يبالي بشيء، فعزمت على إراحته مما كانت تبثه إياه . فلم يكن ، حتى يبرح مقعده الخشبي الصغير ، بل يظل في مكانه

عرضة للشمس والمطر، حتى لكأن الحبال لم تكن هي التي تشده إلى شجرة الكستناء، بل هي قوة خفية لا ترى. ولما اقترب شهر آب (أغسطس)، وتبدّى الشتاء كأنه لا يعرف انتهاء، كان بوسع أورسولا، أخيراً، أن تنقل إليه نبأ على شيء من الصحة، فقالت له :

«هل تصدق أن حسن الحظ لا يريد أن يتخلى عنّا. إنّ أمارانتا والشاب الإيطالي صاحب البيانو الآلي سوف يتزوجان».

والواقع أن أمارانتا وبيترو كريسبي قد عمّقا صداقتهما هذه المرة. تصونهما أورسولا، التي لم تعد تجد ضرورة لمراقبة مواعيدهما ولقاءاتهما. وقد كانت خطوبتهما في مثل لون الشفق. فقد كان الإيطالي يصل قبيل الغسق، وزهرة الجاردينيا في عروة سترته. فيترجم لأمارانتا قصائد غنائية من شعر بيتزارك. ويجلسان في الشرفة التي تعبق برائحة الدانتيلا، غير عابئين بالحرب وتقلباتها ومناوراتها وأخبارها، حتى يكرههما الدانتيلا، غير عابئين بالحرب وتقلباتها ومناوراتها وأخبارها، حتى يكرهها البعوض على الدخول إلى الصالة. وشيئاً فشيئاً، نسجت حساسية أمارانتا ورقتها الصامتة الودودة الحانية ما يشبه بيت العنكبوت الخفي حول خطيبها. وكانا يظلان على تلك الحال من الجو المفعم بالعاطفة والحب حتى تأزف الساعة الثامنة صباحاً عندما يهصرها بذراعيه وأصابعه الرقيقة العارية من الخواتم، ويفارق البيت والحب يعمر كيانه. وقد ملأ حافظة(١) صور جميلة كاملة بالبطاقات البريدية التي كان بيترو كريسبي يتلقاها من إيطاليا. وكانت البطاقات صوراً لعشاق في متنزهات منعزلة، وعليها رسوم وأشكال لقلوب نفذت منها سهام، وأشرطة ملهبة تحملها حمائم بيض. وكان بيترو كريسبي يقلب تلك البطاقات، ويقول لأمارانتا : «لقد زرت هذا المتنزه، فأنا أعرفه جيداً . ويكفي أن يمدّ الإنسان

---

(١) ألبوم Album .

يده كي تأتي الطيور فتحط عليها وتطعم منها». وكان إذا توقف أمام لوحة مائية لمدينة البندقية (فينيسيا) يستبد به الحنين، فيشم رائحة عطر الورد في وحلها وأصداف البحر المهترئة على أطراف الأقنية، قرب بحرها. وكانت أمارانتا تتنهد وتتأوه، وتضحك، وتحلم بوطن ثان، فيه رجال ظرفاء لطفاء أنيقون، ونساء جميلات يتحدثن بلغة كلغة الأطفال، وفيه مدن عريقة قديمة لم يبق من عظمتها الغابرة غير قطط تجوس بين خرائبها.

وأخيراً وجد بيترو كريسبي الحب، بعد أن عبر المحيط باحثاً عنه، وبعد أن اختلط عليه الأمر وضيعه هوى ريبيكا الجامح بنزواتها العنيفة. وتوافقت السعادة عنده مع النجاح، فصار مخزنه يشغل واجهة بعرض مجموعة من البيوت، وبات مكاناً يقصده الناس للنزهة والمشاهدة والترويح عن النفس، يحلو لهم الوقوف أمامه، بما كان يشتمل عليه من نسخ مصغّرة لبرج الجرس في فلورانسا الذي كان يعلن عن الوقت بموسيقى جوقة رائعة، وصناديق سورنتو الموسيقية، وعلب المساحيق الصينية، التي تعزف خمسة أنغام عندما يرفع غطاؤها، وكل أنواع الآلات الموسيقية التي يمكن أن يتصورها الخيال، واللعب الآلية ذات النوابض التي يمكن أن يدركها الاختراع.

وكان أخو بيترو كريسبي الأصغر، واسمه برونو كريسبي، هو الذي يدير المخزن ويشرف عليه، لأن بيترو كريسبي لم يكن يجد من الوقت ما يزيد على انشغاله واهتمامه بمدرسة الموسيقى. ويعود له الفضل في أنّ شارع الأتراك، بما كان فيه من واجهات متلألئة بالدمى الرائعة، قد أصبح واحة تملؤها الأنغام الحلوة، حتى ينسى فيها المرء أفعال أركاديو الظالمة التعسفية وكابوس الحرب البعيد.

وعندما أمرت أورسولا باستئناف الصلوات الكنائسية يوم الأحد من

كل أسبوع، قدّم بيترو كريسبي للكنيسة، هديةً، آلة موسيقية ألمانية (أرغن)، ونظم جوقة من الأطفال الذين درّبهم وهيّأهم، وأعدّ أنغاماً جريجورية أضافت إلى طقوس الأب نيكانور الهادئة أبهة وعظمة. ولم يكن في البلدة أحد يشك في أنه سوف يجعل أمارانتا شريكة حياة سعيدة محظوظة.

وقد ترك الخطيبان قلبيهما على سجيتهما، دون أن يستحثا عواطفهما، حتى بلغا فترة وجدا فيها أنه لم يبق أمامهما إلا أن يحددا موعد الزواج. ولم يواجها في ذلك أية صعوبة. وكانت أورسولا تتهم نفسها، في أعماقها، بأنها هي التي أساءت إلى مستقبل روبيكا بتكرار تأجيل زواجها. ولكنها، الآن، لم تكن مستعدة للتفكير بتأنيب الضمير. وقد نشأ عن أحداث الحرب أن تراجع الحداد القاسي على ريميديوس إلى الدرجة الثانية، فبات شيئاً في خلفية الذهن. وقد سبّب ذلك، إضافة إلى شؤون الحرب، أموراً أخرى منها : غياب أوريليانو، ووحشية أركاديو، وإبعاد خوزيه أركاديو وروبيكا.

ولما اقترب موعد الزفاف، ألمح بيترو كريسبي إلى أنه يود اعتبار أوريليانو خوزيه ابنه البكر، لأنه يحبه حباً يكاد يكون أبوياً. وكان كل شيء ينبىء بأنّ أمارانتا كانت مقبلة على سعادة وهناء، ولو أنها لم تكن تستعجل الأمور، كما كانت روبيكا، ولم تكن تبدي أي نوع من القلق. فقد انتظرت اليوم الذي يذعن فيه بيترو كريسبي لنداء قلبه، فلا يستطيع له مقاومة، في صبر وأناة، تماماً تفعل وهي تصبغ الأقمشة وتزينها بالألوان، وهي تخيط القطع الفنية الرائعة، وهي تطرز بإبرتها الطواويس الملكية المزخرفة.

وأخيراً، حلّ يومها متوافقاً مع أمطار تشرين الأول (أكتوبر) العاثرة السوداء. سحب بيترو كريسبي من يدها إطار التطريز، الذي كانت تركزه

على ركبتيها، وتناول يدها فضغط عليها بيديه، وقال لها :

«سوف نتزوج في الشهر القادم».

ولم تتأثر أمارانتا بلمس يديه الجليديتين، فسحبت يدها من بين يديه، كحيوان صغير خائف، وعاودت عملها، وقالت له مبتسمة :

«لا تكن بسيطاً، يا كريسبي. فلن أتزوج منك حتى ولو كنت ميتة».

وفقد بيترو كريسبي السيطرة على نفسه، وأخذ يبكي بذل، ودون خجل، حتى كاد يحطم أصابعه يأساً وقنوطاً، ولكنه لم يفلح في زحزحتها عن موقفها. ولم تجد أمارانتا سوى جملة وحيدة أخرى تضيفها، فقالت له :

«لا تضع وقتك. وإن كنت تحبني فعلاً إلى هذا الحدّ، فلا تطأ هذه الدار بعد اليوم أبداً».

وكادت أورسولا تفقد صوابها خجلاً. واستنفد بيترو كريسبي كل أساليب الرجاء والاستعطاف. وعانى أشكالاً لا تصدق من الإهانة والإذلال. فقد أمضى عصر أحد الأيام كله يبكي بين ذراعي أورسولا، وهي تودّ لو تقدم روحها ثمناً لمواساته والتسرية عنه.

كان يُرى في بعض الليالي الماطرة وهو يدور حول البيت، حاملاً مظلته، لعله يلمح بعض النور في غرفة نوم أمارانتا. ولم يرتد في حياته ثياباً أحسن من تلك التي كان يرتديها في تلك الفترة. وقد اكتسى وجهه، الشبيه بوجه أمبراطور معذّب، هيئة من العظمة العجيبة. ولطالما توسّل لصويحبات أمارانتا، اللواتي كنّ يذهبن للتطريز معها في الشرفة، لعلهنّ يحاولن إقناعها. وقد أهمل عمله، وراح يقضي اليوم بطوله جالساً في مؤخرة المخزن، وهو يكتب الأوراق والملاحظات غير المعقولة، يبعث بها إلى أمارانتا، وفي داخلها أوراق أزهار وفراشات جافة، ولكنها

كانت تعيدها إليه غير مفتوحة. كان ينزوي مغلقاً الباب على نفسه، ساعات طويلة، وهو يعزف على قيثارته. وقد غنّى ذات ليلة، كما لم يسمع غناء من قبل، فاستفاقت ماكوندو كلها مذهولة مندهشة، وقد رفعتها إلى السماء السابعة قيثارة لا يليق بها أن تعزف في هذا العالم، وصوت يحمل من الحب ما لا يمكن أن يحمله صوت أو يوجد مثله على الأرض.

وعندها رأى بيترو كريسبي الأنوار كلها تضاء في كل نوافذ القرية ما عدا نافذة أمارانتا. وفي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر)، يوم جميع الأرواح، فتح أخوه المخزن فوجد كل القناديل مضاءة، وجميع صناديق الموسيقى مفتوحة، وقد توقفت الساعات جميعاً عند رقم ساعة معيّنة لا تبرحها. ثم وجد في وسط تلك الفوضى المرية بيترو كريسبي على مكتبه في آخر المخزن، وقد انقطع رسغاه بموسى وألقيت يداه في حوض من البخور.

وقد أمرت أورسولا بأن يكون السهر على الجثمان في بيتها. وقد اعترض الأب نيكانور على أن تقام مراسم دينية، وعلى دفنه في المقبرة المسيحية. ولكن أورسولا تصدّت له قائلة:

- «إن هذا الرجل قديس، ولكن من كان مثلك ومثلي لا يستطيع فهم ذلك. ولذلك، فإنني سأدفنه، على الرغم من إرادتك، إلى جانب ضريح ملكيادس».

وقد نفذت أورسولا إرادتها، فأقيمت له جنازة مهيبة عظيمة، بتأييد أهل البلدة كافة. ولكنّ أمارانتا لم تغادر غرفة نومها. فقد لزمت مكانها تستمع لانتحاب أمها ودمدمة الحشود الكبيرة، وعويل النساء الباكيات الحزينات وخطا الجماهير التي كانت تملأ الدار. ثم تلا ذلك كله صمت عميق، تعبق فيه رائحة الأزهار التي كانت تدوسها الأقدام. وظلت

أمارانتا، لأمد طويل، تشم رائحة الخزامى التي كانت تميز بيترو كريسبي وتسبق وصوله مع المساء إلى الدار. ولكنها كانت على قدر من القوة لم تستسلم معه للدوار.

وقد نبذتها أورسولا وتجاهلتها تماماً: حتى إنها لم ترفع عينيها لتنظر في وجهها مشفقة مواسية، يوم اندفعت أمارانتا، عصراً، إلى المطبخ، ودفعت يدها بين جمر الموقد، حيث أبقتها حتى بلغ الألم ذروته وزايلها الإحساس به، فلم تعد تشعر إلاّ بما تشمّه من رائحة لحمها المحترق. وقد كان ذلك منها دواء فاجعاً وغبياً لتأنيب الضمير. وبقيت بعد ذلك أياماً تدور في أنحاء البيت ويدها مغمورة في بياض البيض ولما شفيت الحروق بدا كأنّ بياض البيض قد خلّف، لا على يدها وحسب، بل على أوجاع قلبها أيضاً ندوباً باقية. ولم يبق من أثر خارجي لتلك المأساة سوى ضماد أسود كانت تربط به يدها التي احترقت، وظل يرافقها طوال حياتها.

وقد أبدى أركاديو كرماً نادراً حين أصدر أمراً بالحداد العام على بيترو كريسبي. وقد أوّلت أورسولا بادرته تلك بأنها عودة الحمل التائه إلى الحظيرة. ولكنها كانت مخطئة. فهي لم تفقد أركاديو يوم ارتدى البزة العسكرية، وإنما فقدته منذ البداية. فلقد كانت تعتقد أنها قد ربّته ابناً لها تماماً كما ربّت ريبيكا دون امتياز أو تمييز. والواقع أن أركاديو قد كان خلال المدة المنصرمة، أيام وباء الأرق، وأيام الحمّى التي أصابت أورسولا، وأيام جنون خوزيه أركاديو بوينديا، وأيام انطواء أوريليانو على نفسه واعتزاله الناس، وأيام العداء المستفحل بين أمارانتا وريبيكا، كان خلال ذلك كله طفلاً يعيش منعزلاً خائفاً في وحدته. فقد علمه أوريليانو القراءة والكتابة، وهو دائماً يفكر بأمور أخرى كان مشغولاً بها، تماماً كما لو كان يعلّم طفلاً غريباً. وكان يعطيه ملابسه عندما تضيق عليه، فتعدّلها فيزيتا سيون كي تناسبه بدلاً من أن ترمى. ولطالما كان يعاني من الحذاء

الكبير على قدميه، ومن بنطاله المرقّع، ومن قفاه الشبيه بردفي امرأة. ولم يكن يستطيع قط أن يبوح بما يعتمل في صدره إلاّ لفيزيتا سيون وكاتور بلغتهما.

كان ملكيادس هو الوحيد الذي يهتم به فعلاً، فيقرأ عليه نصوصاً غامضة لا تفهم، ويعلمه فنّ التصوير. ولا يعلم أحد كم بكى أركاديو في سره، وكم حاول جاهداً أن يبعثه من موته، وهو يقرأ بيأس الأوراق المبعثرة التي خلفها له.

ولكن المدرسة التي كان يعلم فيها الأولاد، وقد جلبت له اهتمام الآخرين واحترامهم، ثم ممارسة السلطة وإصدار المراسيم والأوامر الصارمة، من بعد، وبزة المجد العسكرية التي ارتداها، كلّ ذلك حرّره من مرارات الماضي وأثقال ذكرياته القاسية. ففي مساء أحد الأيام، تجرأ رجل في مخزن كاتارينو، وقال له:

ـ أنت لا تستحق الاسم الذي تحمله.

ولكن أركاديو لم يأمر بإعدامه، خلافاً لما كان ينتظر منه، بل أجاب:

ـ هذا من دواعي فخري، فلست من آل بوينديا.

وقد ظن من كانوا يعرفون سرّ ولادته، عندما سمعوا جوابه، أنه كان مطلعاً على السر. والواقع أنه كان في جهل تام من أمره. فهو عندما رأى أمه بيلار تيريزا، التي منحته الدم الذي يسري في عروقه، في مشغل التصوير، سحرته وملكت عليه لبه أكثر مما فعلت بأبيه خوزيه أركاديو وعمه أوريليانو من بعده. فقد كان يبحث عنها، على الرغم من أنها كانت قد فقدت الكثير من إغرائها ورواء ضحكتها، ثم يعثر عليها مهتدياً برائحة الدخان التي ترافقها.

وفي ظهيرة أحد الأيام، قبيل نشوب الحرب بفترة قصيرة، تأخرت قليلاً في المجيء لأخذ ولدها الصغير من المدرسة. وكان أركاديو ينتظرها

في الغرفة التي يقضي فيها قيلولته أحياناً. وهي الغرفة نفسها التي اتخذها سجناً فيما بعد. وبينما كان الطفل يلهو في باحة المدرسة في انتظار أمه، كان أركاديو يرتجف قلقاً وشوقاً في أرجوحته، مدركاً أن بيلار تيريزا سوف تمرّ من هناك.

ولما وصلت أمسك أركاديو بيدها وحاول أن يشدها إلى أرجوحته. فقاومته بيلار تيريزا خائفة، قائلة:

ـ لا أستطيع. لا أستطيع. آه لو تعرف كم أحبّ أن أجعلك سعيداً. ولكنّ الله يعلم أنني لا أستطيع..

وطوّق أركاديو خصرها بتلك القوة الخارقة التي ورثها من أبيه، وأحس كأن العالم كله يتبخر عندما لامس جسدها. ثم قال لها:

ـ لا تتظاهري بأنك قديسة. فالناس جميعاً يعلمون أنك عاهرة.

وكظمت بيلار تيريزا غيظها وألمها وحنقها على قدرها البائس. ثم تمتمت قائلة:

ـ سوف ينتبه الأولاد للأمر.. ومن الأفضل ألاّ تقفل الباب بالعارضة هذه الليلة.

وانتظرها أركاديو في تلك الليلة، وهو يرتعد، في أرجوحته، من الحمّى التي يغلي بها جسده. وطال انتظاره دون أن يغمض له جفن ولو للحظة واحدة، بينما كان يصيخ السمع لأصوات الصراصير التي بدأت تنبيء بقرب بزوغ الفجر، ويستمع لوطء أقدام حرس الدوريات في الطرقات بين ساعة وأخرى، وهو يزداد قناعة، لحظة بعد أخرى، بأنه كان ضحية خدعة منها.

وفجأة، وفي اللحظة التي استحال فيها قلقه إلى غضب. انفتح الباب. وبعد شهور من تلك الليلة، وأمام فصيل الإعدام، عاودته تلك

اللحظة، بما كان فيها من جيئة وذهاب وسير على غير هدى في غرفة الصف، وتعثر بمقاعد الطلاب، وأخيراً بروز ذلك الجسم في ظلال الأشياء في الغرفة، والتقاء يديه بذلك الجسد في الظلام، وذلك النفس المضطرب الصادر من قلب، غير قلبه، كان سريع الخفقان. وفي الظلام مدّ يده فصادفت يداً أخرى، في إصبع من أصابعها خاتمان، وصاحبة اليد غارقة في سواد الظلام الحالك. فتقرّى[1] تعرّج عروقها وانسيابها، ونبضها اليائس، وتحسس راحة يدها الرطبة، تلك اليد التي هصرت فيها مخالب الموت خط الحياة عند أسفل الإبهام.

وعندما أدرك أركاديو أن تلك المرأة لم تكن بيلار تيريزا. لم تكن المرأة التي كان ينتظر. فهو لم يشم فيها رائحة الدخان المألوفة، بل رائحة عطر زهري. ولامس فيها ثديين ممتلئين ناتئين أعميين، لهما حلمتان شديدتان كأنهما حلمتا رجل، ولامس فيها هَناً(٢) رابي الجسّة مدوّراً كجوزة كبيرة، وحناناً ولطفاً عديم التجربة ولكنه ملتهب.

كانت عذراء، ولها اسم غريب: سانتا صوفيا(٣) التقية. وقد دفعت لها بيلار تيريزا خمسين بيزواً، وهو نصف ما اقتصدته في حياتها كلها، لكي تقوم بهذه المهمة. ولقد سبق لأركاديو أن رآها، من قبل، عدة مرات، وهي تدير دكان البقالة لذويها، ولكنه لم يركز اهتمامه عليها. فقد كانت فيها تلك الخلة النادرة، فهي لا تبين، بمعنى أنها لا تسترعي الانتباه، إلاّ في اللحظة المناسبة. ولكنها منذ ذلك اليوم أخذت تأتي إليه دائماً، تفيء كقط صغير إلى حرارة ذراعيه، فكانت تجيء إلى المدرسة، ساعة القيلولة، بموافقة أهلها، بعد أن قدمت لهم بيلار تيريزا النصف

---

(١) تحسس.
(٢) عضو الجنس في المرأة.
(٣) القديسة صوفيا.

الآخر مما اقتصدته في حياتها. وعندما أخرجه جنود الحكومة، فيما بعد، من المدرسة، حيث كانا يتبادلان الحب، أخذا يتبادلان الحب في الجزء الخلفي من المخزن بين علب الدسم وأكياس الذرة. وفي الفترة التي سمّي فيها أركاديو قائداً مدنياً وعسكرياً، تقريباً، رزق طفلة كانت ثمرة ذلك الحب.

ولم يدر بالأمر أحد من أفراد العائلة غير خوزيه أركاديو(١) وزوجته روبيكا. فقد كان أركاديو على علاقة حميمة معهما، مبنية على شعور بالمشاركة والمودّة أكثر منها على القربى.

وكانت قد دانت غطرسة خوزيه أركاديو لنير الزواج، بعد أن لطّفه طبع روبيكا الحازم وطاقة جسدها الهائلة، وطموحها غير المحدود، مما أمكن معه توجيه قدرة زوجها الخارقة إلى العمل. فتحوّل من رجل كسول وزير نساء إلى رجل عامل ليس له مثيل. وصار لهما بيت نظيف منظم، كانت روبيكا تشرع أبوابه ونوافذه منذ الفجر، فيدخل إليه الهواء المار بالمقابر من النوافذ، ويغادره من الأبواب المطلة على فناء الدار، فيصبغ طلاء الجدران الأبيض، وأثاث البيت بدبق فيه ملح الموتى. أما جوعها ونهمها لأكل التراب، وطقطقة عظام أبويها، ونفاد صبرها واشتعال دمها أمام عواطف بيترو كريسبي الباردة، فقد دفنت جميعاً في طيات النسيان والذكريات. فكانت تقضي نهارها وهي تحوك أمام النافذة، جاهلة أمور الحرب وويلاتها، حتى تغلي قدور السيراميك على النار، فتنهض لطهو الطعام، قبل أن تظهر كلاب الصيد النحيلة، وهي تتقدم العملاق، بأطقم رجليه ومهمازيه، وهو يحمل بندقيته ثنائية الطلقات، وعلى كتفه، أحياناً، غزال، وفي كل مرة تقريباً عدد من الأرانب والبط البريّ المشكوك بشريط يتدلى من كتفه كالقلادة.

---

(١) والد أركاديو.

وفي أصيل أحد الأيام، جاء إليهما أركاديو، وكان ذلك بعد أن تسلم السلطة، بقصد الزيارة دون موعد سابق. ولم يكن سبق لهما أن رأياه منذ غادرا الأسرة. ولكنه بدا لهما ودوداً، وأظهر لهما من المحبة ما أشعرهما بأنه ما زال يعتبرهما من أفراد العائلة، فدعياه إلى مشاركتهما الطعام.

وعندها، وبينما كانوا يحتسون القهوة أفصح لهما أركاديو عن سبب زيارته. فقد تلقى شكوى ضد خوزيه أركاديو. فقد نقل عنه أنه، بعد أن بدأ بزراعة أرضه الخاصة، قد هدم الحواجز والأسيجة بينه وبين جيرانه، وأزال بيوتهم بثيرانه، واستولى بالقوة على أفضل قطع الأرض المجاورة. وأما الفلاحون الذين أبقى على أرضهم، لأنه لم يكن مهتماً بها لأنها لم تعجبه، فقد فرض عليهم أتاوة (ضريبة) يجمعها منهم كل يوم سبت، حين يجيئهم بكلابه وبندقيته. ولم ينكر خوزيه أركاديو تلك التهمة، بل زعم أن ذلك حق له، لأن الأرض التي اغتصبها إنما كان قد وزّعها أبوه خوزيه أركاديو بويندايا على الناس، عند تأسيس القرية. وكان يعتقد أنه كان بوسعه، منذ ذلك الحين، أن يثبت أنّ أباه كان أحمق، لأنه تصرف بأملاك هي للعائلة كلها. ولكنّ دفاعه كان بلا معنى، لأنه كان مجرّد زعم لا ضرورة له. وما كان مجيء أركاديو لكي يقيم العدالة. فقد بيّن له أنه يريد إنشاء دائرة للتسجيل، يسجل فيها المالكون عقاراتهم، وبذلك يستطيع خوزيه أركاديو أن يسجل الأرض، فيجعل ما اغتصبه شرعياً، شريطة أن يتخلى للحكومة المحلية عن حق جمع الأتاوات والضرائب. وتمّ الاتفاق على ذلك. وبعد سنوات من تاريخ هذه الاتفاقية، وعندما راجع العقيد (الكولونيل) أوريليانو بويندايا سندات التمليك، اكتشف أنّ أخاه خوزيه أركاديو كان قد سجّل باسمه كل الأرض التي يمكن أن يدركها النظر، من المرتفع الذي كان يقع عليه بستانه، حتى آخر الأفق،

بما في ذلك المقبرة. واكتشف كذلك أن أركاديو قد ملأ جيوبه من عائدات الضرائب والأتاوات، وما كان يختلسه من المواطنين لقاء دفن موتاهم في المقبرة الواقعة في أرض خوزيه أركاديو.

ولم تدر أورسولا بهذا الأمر إلا بعد بضعة أشهر، بينما كان الخبر شائعاً بين الناس. وقد أخفى الناس عنها ذلك الأمر كي لا يزيدوا في معاناتها وآلامها. وقد خامرتها الشكوك في ذلك، فأسرّت إلى زوجها، وهي تحاول أن تدخل بين أسنانه ملعقة من العصير، قائلة له:

ـ إن أركاديو يبني بيتاً.

ولكن قولها ذاك لم يمنع تحسّرها، فمضت قائلة وهي تتنهّد:

ـ ولكنني لا أدري لماذا. فهو لا يعني لي شيئاً، بل كأنني أشمّ رائحة شيء غير مريح.

وأخيراً انقلبت ظنونها إلى يقين عندما تبيّنت أن أركاديو كان يختلس الأموال العامة، ولا سيما عندما عرفت أنه لم يفرغ من بناء البيت وحسب، بل طلب أيضاً أثاثاً للبيت من فيينا. وذات يوم أحد، وبينما كانت خارجة من الكنيسة بعد الصلاة، شاهدته في بيته الجديد وهو يلعب الورق (ورق اللعب) مع ضباطه، فصاحت به قائلة:

ـ أنت عار لاسم عائلتنا.

ولكن أركاديو لم يكترث لها. وعندئذ فقط علمت أورسولا أن له طفلة عمرها ستة شهور، وأنه يعيش حياة غير شرعية مع سانتا صوفيا، وأنّ هذه حامل من جديد. فعزمت على أن تكتب لابنها العقيد أوريليانو حيثما كان، لتطلعه على ما آلت إليه الأوضاع. ولكن الأحداث تسارعت، حتى إنها لم تصرفها عن تنفيذ ما أرادت وحسب، بل إنها جعلتها كذلك تندم على مجرّد التفكير في ذلك. فقد كانت الحرب،

حتى ذلك الحين، مجرد فكرة غامضة بعيدة عن الناس، ولكنها ما لبثت، بعد ذلك، أن أصبحت واقعاً مأساوياً ملموساً.

ففي أواخر شباط (فبراير)، وصلت إلى ماكوندو امرأة عجوز غبراء شعثاء، تترنح على ظهر حمار محمّل بالمكانس. وكانت من العجز والضعف بحيث لم يأبه لأمرها الحرس القائمون عند مداخل البلدة. فمرّت كما يمرّ غيرها من الباعة الذين كانوا يفدون دائماً من قرى مستنقعات الماريجو. وقد ذهبت مباشرة إلى مركز القيادة. واستقبلها أركاديو في المكان الذي كان من قبل غرفة صف، ثم تحوّل مع ما يحيط به إلى نوع من المعسكر المحصّن، مليء بالأراجيح المطوية المعلقة بملحقاتها، والفرش المكدّسة في الزاوية، والبنادق والغدّارات وأسلحة الصيد المبعثرة على الأرض هنا وهناك. فاتخذت العجوز هيئة جدية، وأدّت التحية العسكرية، ثم أعلنت عن هويتها وعرّفت بنفسها:

«أنا العقيد (الكولونيل) جريجوريو ستيفنسون».

وكان العقيد يحمل أخباراً سيئة. فحسب أقواله، كانت آخر معاقل الأحرار على وشك السقوط. وقد طلب إليه العقيد أوريليانو بوينديا، الذي ظلّ وراءه يقاتل متقهقراً في منطقة جوار ريوهاشا، أن يزور أركاديو ويطلعه على الأمر. ثم بلغه أن عليه أن يستسلم وأن يسلم البلدة دون مقاومة، شريطة عدم المساس بحياة الأحرار وممتلكاتهم التي ينبغي أن تصان وتحترم. وراح أركاديو يتفحص ذلك الرسول الغريب الذي يشبه عجوزاً هاربة تستحق الشفقة. ثم قال له:

ـ «لا بدّ أنك تحمل لنا شيئاً مكتوباً.

فأجاب الرسول:

ـ طبعاً لا. فالحق أنني لا أحمل شيئاً من هذا. فمن السهل أن تدرك أننا في مثل هذه الظروف لا يمكن أن نحمل معنا ما يمكن أن يكشف

أمرنا.

وبينما كان يتحدث، أخرج من حزامه سمكة ذهبية صغيرة، وضعها على الطاولة، وقال:

ـ أظن أن هذه تكفي.

وأدرك أركاديو أنها فعلاً من تلك السمكات الصغيرة التي كان يصنعها العقيد أوريليانو بوينديا. ولكن، ألا يمكن أن يكون شخص ما قد اشتراها قبل الحرب، أو حتى سرقها. وعلى ذلك، فهي لا قيمة لها كإمارة أو علامة على كلمة سر. ولذلك، اضطر الرسول لعمل أقصى ما يستطيع، وهو إفشاء سرّ عسكري علهم يصدّقونه ويتيقنون من هويته، فكشف لهم أنه موكل بمهمة إلى كوراساو، حيث يأمل أن يجند المنفيين من كل أرجاء منطقة الكاريبي، وأن يحصل على السلاح والعتاد والمؤن الكافية لمحاولة القيام بإنزال قبيل آخر السنة. وإيماناً من العقيد أوريليانو بوينديا، وثقة منه، بهذه الخطة، فهو يفضل عدم تقديم أية تضحيات لا جدوى منها في الوقت الحاضر. ولكن أركاديو بوينديا لم يلن ولم يصدق الرسول، بل زجّ بالرسول في السجن، ريثما يتحقق من هويته، وقد عزم على الدفاع عن البلدة حتى الموت.

ولم ينتظر طويلاً، فما لبث أن وصلته الأنباء عن تقهقر الأحرار، ثم تواترت تلك الأنباء يوماً بعد يوم. وفي أواخر شهر آذار (مارس)، وقبيل بزوغ الفجر، بعد ليلة شهدت مطراً غزيراً، في غير حينه، تفجر الهدوء المتوتر الذي خيّم على البلدة طوال أسبوعين، وكان كالهدوء الذي يسبق العاصفة. وقد تمثل ذلك بأصوات أبواق رهيبة، تلتها قذيفة مدفع أطاحت ببرج الكنيسة. والواقع أن قرار أركاديو بالمقاومة كان ضرباً من الجنون. فلم يكن لديه سوى خمسين رجلاً مسلحين بأسلحة بسيطة، وهم سيئو التدريب قليلو الذخيرة، إذ لم يكن لدى الواحد منهم أكثر من

عشرين طلقة. ولكنهم، وهم قدامى طلابه الذين ألهب حماستهم بخطاباته النارية، قرروا أن يصمدوا مضحين بأنفسهم في معركة خاسرة.

وفي غمرة وقع أقدام الجند، المختلط بالأوامر المتضاربة، ودويّ المدافع الذي كانت ترتج له الأرض بما عليها، وأزيز الرصاص المنهمر جزافاً، وأصوات الأبواق التي لا تعني شيئاً، تمكن الرسول الذي سمّى نفسه العقيد ستيفنسون من مقابلة أركاديو ومخاطبته. فقال له :

ـ جنّبني عار الموت مقيداً وفي أسمال امرأة. فإذا كان لا بدّ لي من الموت، فلأمت وأنا أقاتل.

واقتنع أركاديو برأيه، وأمر جنوده بأن يعطوه سلاحاً وأن يسلموه عشرين طلقة، وكلفه، مع خمسة رجال آخرين، بالدفاع عن القيادة العامة، بينما ينتقل هو وأركان حربه إلى خطوط المقاومة الأولى.

ولكنه لم يتمكن من بلوغ طريق المستنقعات، فقد تحطمت الاستحكامات، وتراجع المدافعون إلى الوراء، في قتال مكشوف في الشوارع. وقد قاوموا فعلاً حتى نفدت ذخائرهم القليلة، فقاتلوا بمسدساتهم ضد البنادق، ثم كان الالتحام بالسلاح الأبيض والأيدي والأجساد. وعندما بدت الهزيمة واضحة للعيان، اندفعت النساء إلى المعركة، سلاحهن العصيّ وسكاكين المطابخ. وفي خضم هذا الأتون المضطرب، من الصراع والفوضى، وجد أركاديو نفسه وجهاً لوجه أمام أمارانتا، التي خرجت، في ثياب النوم، تبحث عنه كالمجنونة، وبيدها مسدسان قديمان كانا لأبيها خوزيه أركاديو بوينديا. فناول بندقيته إلى ضابط فقد بندقيته في المعركة، وانسلّ مع أمارانتا إلى شارع جانبي كي يوصلها إلى البيت. فوجد أورسولا في الباب تنتظر، وكأنها غير معنيّة بالرصاص المنهمر، ولا بالفجوة التي أحدثتها قنبلة في واجهة البيت المجاور. وتوقف المطر عن الهطول، ولكنّ الطرقات كانت ما تزال موحلة

رخوة كأنها صابون مذاب. ولم يكن من السهل تقدير المسافات ليلاً.

ترك أركاديو أمارانتا مع أورسولا، واندفع محاولاً التصدي لجنديين كانا يطلقان النار الغزيرة من زاوية الشارع، ولكن المسدسين اللذين كانا محفوظين لسنين طويلة في الخزانة لم يستجيبا. فاندفعت أورسولا تحمي أركاديو بجسدها، محاولة أن تجرّه نحو البيت. وصاحت به :

ـ تعال بحق الله. يكفيك جنوناً.

وصوّب الجنديان بندقيتيهما نحوهم، وصاح أحدهم قائلاً : دعي هذا الرجل يا سيدتي، وإلا فنحن غير مسؤولين . فدفع أركاديو أورسولا إلى داخل المنزل، واستسلم. وصمتت بعد ذلك بقليل أصوات المدافع والبنادق، ثم ارتفعت أصوات قرع الأجراس. فقد سحقت المقاومة في أقل من نصف ساعة. ولم يسلم واحد من رجال أركاديو، ولكنهم قبل أن يقضوا استطاعوا أن يقضوا على ثلاث مئة جندي. وكانت القيادة العامة آخر الحصون، إذ لم يستطع الجنود اقتحامها. فقد حرّر من سمّى نفسه العقيد جريجوريو ستيفنسون جميع السجناء قبيل الهجوم. وأمر رجاله بالخروج والقتال في الطرقات. وكانت قدرته الخارقة على الحركة، والتنقل من مكان إلى مكان، وكذلك الدقة التي كان يطلق بها طلقاته العشرين، سبباً في جعل المهاجمين يظنون أن القيادة كانت شديدة الحراسة. ولما أعياهم أمرها دمّروها بالمدافع تدميراً كاملاً. وقد ذهل النقيب الذي كان يقود عمليات الجيش حين لم يجد بين خرائب الدمار إلاّ رجلاً واحداً يرتدي سروالاً داخلياً، وما تزال في قبضته بندقيته الفارغة تماماً من الرصاص، وقد انفصلت قبضته مع ذراعه عن جسده، وما زالت البندقية ثابتة، وعلى رأسه شعر امرأة كثيف ملتف حول عنقه ومثبت بمشط، وحول عنقه سلسلة تدلّت منها سمكة ذهبية صغيرة. وعندما قلبه النقيب بمقدمة حذائه ، وسلّط الضوء على وجهه ، اندهش

واحتار، وصاح قائلاً :

ـ يا إلهي.

وتدافع الضباط الآخرون نحوه، فقال لهم :

ـ أنظروا أين ظهر هذا الإنسان. إنه جريجوريو ستيفنسون.عند الفجر، وإثر محاكمة عسكرية سريعة، أعدم أركاديو رمياً بالرصاص عند سور المقبرة. ولم يستطع أركاديو، خلال الساعتين الأخيرتين من حياته، أن يدرك لماذا تلاشى من نفسه الخوف الذي كان ينغص عليه حياته منذ طفولته المبكرة. استمع صامتاً هادئاً لنص الاتهامات الكثيرة، دون أن يبدر منه أي اهتمام بإظهار ما يعبر عن شجاعته التي عرفها الناس مؤخراً. وانصرف خياله وتفكيره إلى أورسولا التي لا بد أن تكون الآن تحت شجرة الكستناء، تشرب القهوة مع خوزيه أركاديو بوينديا، وفكر بابنته التي كانت في شهرها الثامن ولم تحمل بعد اسماً، وبابنه الذي سيولد في شهر آب (أغسطس) القادم. وفكر بسانتا صوفيا التقية، وقد تركها في الليلة الماضية تملّح غزالاً تعده لغداء اليوم التالي، وافتقد شعرها المسترسل فوق كتفيها، وحنّ إلى رموش عينيها التي تشبه الرموش الاصطناعية. وافتكر، بلا عواطف، بكل الذين كان يعرفهم من الناس، وكأنه يغلق حساباته مع الحياة. وبدأ يتبيّن كم كان فعلاً يحب الأشخاص الذين كان يكرههم أكثر من غيرهم. وبدأ رئيس المحكمة العسكرية بإلقاء خطابه الأخير، عندما أدرك أركاديو أنّ ساعتين من الزمن قد انقضتا على المحاكمة. ومضى الرئيس يقول :

ـ حتى لو أن التهم الموجهة إلى المدّعى عليه لا تدعمها الأدلة والبيّنات، فإن الجسارة والطيش الإجراميّ غير المسؤول، الذي دفع به المتهم رجاله إلى الموت عبثاً ودون نفع، يكفيان للحكم عليه بالموت.

وفي بناء المدرسة، التي صارت الآن أنقاضاً، حيث أحس للمرة

الأولى بالثقة التي تمنحها السلطة، وعلى بعد أمتار قليلة من الغرفة التي عرف فيها قلق العشق، اكتشف أركاديو سخافة تقاليد الموت. والواقع أن الموت لم يكن بالأمر الذي يهمه، فما كان يهمه هو الحياة. ولذلك، فعندما سمع النطق بالحكم، لم يشعر بأي خوف، وإنما راوده الحنين. ولم يتكلم حتى سألوه عن طلبه الأخير. فأجاب بصوت معبر قوي النبرات، قائلاً :

ـ أخبروا زوجتي أن تسمي الطفلة الصغيرة أورسولا. ثم صمت لحظة، وأعاد القول :

ـ أورسولا، مثل جدتها. وقولوا لها أن تسمي طفلها الذي سيولد، إذا كان ذكراً، خوزيه أركاديو، ذكرى لجدّه لا ذكرى لعمه.

وحاول الأب نيكانور أن يجعله يعترف ويتوب، قبل أن يأخذوه إلى سور الإعدام، فأجاب أركاديو قائلاً :

ـ ليس لديّ ما أتوب عنه.

ثم وضع نفسه في إمرة فصيل الإعدام بعد أن شرب فنجاناً من القهوة. ولم يكن اسم قائد الفصيل المختص بالإعدام السريع مجرد مصادفة : النقيب روكه كارنيسيرو، وهو يعني «الجزّار». وفي الطريق إلى سور المقبرة، رأى أركاديو، عبر الرذاذ المتساقط، أنّ يوم أربعاء مشعاً كان على وشك الإطلال من الأفق. وزال حنينه مع زوال الضباب، وحلت محله رغبة جامحة لاستطلاع ما حوله. ولم ير أركاديو روبيكا إلا في اللحظة التي أمروه فيها أن يقف وظهره إلى السور. كان شعرها مبتلاً، وكانت ترتدي ثوباً وردياً كثير الأزهار، وقد أخذت تشرّع أبواب بيتها. بذل جهده في محاولة منه كي تميزه. وألقت روبيكا فعلاً نظرة عابرة في اتجاه السور، فصعقتها الدهشة، ولم تستطع إلاّ بجهد أخير أن ترفع يدها وداعاً لأركاديو. ورفع أركاديو يده لها مودعاً بالطريقة نفسها. وفي تلك

اللحظة نفسها صوّبت إليه أشداق البنادق الفاغرة السوداء، فسمع تراتيل ملكيادس واضحة، حرفاً حرفاً، وسمع وقع الخطوات التائهة لسانتا صوفيا، وهي عذراء، في غرفة الصف في المدرسة، وأحسّ في أنفه صلابة الجليد التي استرعت انتباهه في فتحتي الأنف من جثة ريميديوس. وفجأة افتكر، وراح يناجي نفسه قائلاً :

ـ آه. اللعنة. فقد نسيت أن أقول : إن كان المولود الجديد بنتاً، فليسموها ريميديوس.

ثم أحس ثانية بذلك الرعب الذي كان يعذبه طوال حياته، يتجمع كله كما لو في ضربة مخلب حاد موجعة. وأمر النقيب بإطلاق النار، فلم يترك لأركاديو من الزمن إلا ما يرفع فيه رأسه وصدره، دون أن يدري من أين كان ذلك السائل الحار يتدفق فيحرق ساقيه. فصاح بأعلى صوته :

ـ أيها السفلة أولاد الزناة. فليعش حزب الأحرار.

(٧)

انتهت الحرب في أيار (مايو). وكان العقيد أوريليانو بوينديا قد وقع في الأسر، قبل أن تصدر الحكومة، بأسبوعين، بياناً مدوياً تهدد فيه بأن عقاب مدبري التمرد وبادئيه سوف يكون بلا رحمة ولا شفقة. وقد كان أسر العقيد أوريليانو بوينديا قريباً من الحدود الغربية، وقد تنكّر بزيّ طبيب هندي ساحر. وكان قد سقط في ساح الوغى أربعة عشر رجلاً من الرجال الواحد والعشرين الذين لحقوا به، وجرح ستة آخرون، ولم يبق معه في لحظة الهزيمة النهائية سوى رجل هو العقيد جيرينيلدو ماركيز.

وأعلن نبأ القبض على العقيد أوريليانو في ماكوندو ببلاغ خاص. فأعلمت أورسولا زوجها بالخبر، قائلة :

ـ إنه حيّ. فلندعُ الله أن يرأف به أعداؤه.

وبعد ثلاثة أيام من البكاء المتواصل، وفي عصر أحد الأيام، وبينما كانت في المطبخ تخفق بعض الحليب لصنع الحلوى، سمعت صوت ابنها واضحاً قريباً من أذنها. فراحت تصيح وهي تعدو باتجاه شجرة الكستناء، لكي تنقل الخبر إلى زوجها، قائلة : «إنه أوريليانو». لا أعرف كيف حدثت المعجزة، ولكنه حيّ يرزق وسوف نراه قريباً. وكان إيمانها بذلك يقيناً لا يتزعزع، فغسلت أرض البيت ونظفتها. وبدلت مواضع الأثاث. وبعد أسبوع شاع خبر في البلدة، ولكنّ أحداً لم يدرك مغزاه المأساوي. وكان مفاد الخبر الشائعة أنه قد حكم على العقيد أوريليانو بالموت، وسوف ينفذ فيه حكم الإعدام في ماكوندو، كي يكون عبرة

للناس. وفي أحد أيام الإثنين، وفي الساعة العاشرة والنصف، سمعت أمارانتا، وهي تلبس أوريليانو خوزيه(١) ملابسه، من بعيد، صوت جلبة غامضاً لمسيرة قطعة عسكرية تتقدم نحو البلدة. ثم تلا الجلبة صوت بوق. وبعد ثانية اندفعت أورسولا وأمارانتا إلى الغرفة صائحتين: «ها هم قد جاؤوا به الآن».

كان الجنود يشقون طريقهم بصعوبة في خضم الجمهور الحاشد، ويضربون بأعقاب بنادقهم الناس الثائرين المتوافدين، كي يبعدوهم عنهم. وأسرعت أورسولا وأمارانتا، في وسط الزحام، تدفعان الناس بمناكبهما، كي تشقا طريقهما. ثم شاهدتاه، كانت له هيئة فقير شحاذ في ثياب رثة مهترئة. كان أشعث شعر الرأس واللحية، يمشي حافياً، يطأ التراب الحارق وكأنه لا يشعر بشيء، وقد كبّلت يداه بحبل شدّ إلى خلف ظهره، وربط في مؤخرة سرج الحصان الذي يمتطيه ضابط. وإلى جانبه، وفي هيئة كهيئته، وثياب رثة كثيابه، وحالة مهزومة كحالته، كان العقيد جيرينيلدو ماركيز. ولم يكن يبدو عليهما أنهما حزينان لما هما فيه. وقد أذهلتهما ضخامة الجمهور الحاشد الذي يصيح ويهتف بسيل من الشتائم ضد الجنود.

وفي وسط صخب الزحام، صاحت أورسولا:

ـ ابني.

ثم صفعت الجندي الذي حاول أن يردّها صفعة شديدة على وجهه. فأجفل حصان الضابط وتراجع إلى الوراء. فتوقف العقيد أوريليانو بوينديا مرتجفاً، وتحاشى ذراعي أمه، وحدّق في عينيها بنظرة قاسية ثابتة، وقال لها:

ـ عودي إلى البيت يا أمي. واطلبي إذناً من السلطات، ثم تعالي كي

(١) ابن العقيد أوريليانو بوينديا من بيلار تيرنيرا.

تريني في السجن.

ثم نظر إلى أمارانتا التي وقفت على بعد خطوتين خلف أورسولا، وسألها باسماً: «ماذا حدث ليدك؟». فرفعت أمارانتا يدها بضمادها الأسود، وأجابت: «إنه حرق». وجرّت أورسولا بعيداً كي لا تدوسها الخيل. وعندها أحاط حرس خاص بالأسيرين وتحركت القطعة العسكرية، تعدو بخطوات منتظمة، وهي تنقلهما إلى السجن.

عند الغروب كانت أورسولا تزور العقيد أوريليانو بوينديا. وكانت قد حاولت الحصول على إذن من السلطات بوساطة الدون أبولينار موسكوت. ولكن هذا كان قد فقد سلطاته لدى وصول السلطة العسكرية العليا الطاغية. أما الأب نيكانور فكان طريح الفراش بسبب الحمى الكبدية التي أصابته. وقد حاول والدا العقيد جيرينيلدو ماركيز رؤيته، فردّهم العسكر بأعقاب البنادق، مع أنه لم يكن محكوماً بالإعدام. وبدا واضحاً لأورسولا أن الوساطات كانت كلها مستحيلة، وكانت شبه متيقنة بأن ابنها سوف يعدم عند الفجر. وهكذا جمعت كل ما كانت تريد أخذه له، ولفّته في صرة ومضت وحدها إلى السجن.

وعند وصولها، أعلنت قائلة:

ـ أنا أم العقيد أوريليانو بوينديا.

فاعترض الحرس طريقها، فصاحت محذرة إياهم:

ـ سوف أدخل مهما كانت الظروف. وإذا كانت لديكم أوامر بإطلاق النار. فهيّا أطلقوا النار عليّ منذ الآن.

ودفعت أحد الحراس بشدة، واندفعت متقدمة إلى داخل قاعة الصف القديمة، حيث كان جماعة من الجند، قد تعرّوا من بعض ثيابهم، وانهمكوا في تنظيف أسلحتهم وتزييتها. فتقدم ضابط أحمر الوجه يرتدي

بزة عسكرية، ويضع على عينيه نظارة سميكة، ويبالغ في التلطف بسلوكه، فأشار للحراس بالتراجع. وأعادت أورسولا القول :

ـ أنا أم العقيد أوريليانو بوينديا.

فصحح لها الضابط القول بابتسامة ودية، وقال :

ـ تعنين أنك أم «السيد» أوريليانو بوينديا.

وأدركت أورسولا في لهجته المصطنعة، على طريقة علية القوم، والتي تمط فيها الألفاظ، لهجة سكان المرتفعات أو المناطق الجبلية. فوافقته على قوله، مرددة :

ـ كما تقول يا «سيد» ما دمت أستطيع أن أراه.

كانت الأوامر العليا تقضي بمنع زيارة المحكومين بالإعدام، ولكن الضابط تحمّل المسؤولية على عاتقه، وسمح لها بمقابلة مدتها خمس عشرة دقيقة. وأرته أورسولا ما كانت تحمله في الصرة : الثياب الداخلية النظيفة، وحذاء ابنها القصير الساق الذي لبسه يوم عرسه، والحلوى المصنوعة من الحليب، التي احتفظت له بها منذ اليوم الذي شعرت فيه، حدساً، بعودته.

وجدت أورسولا العقيد أوريليانو بوينديا في إحدى الغرف التي باتت تتخذ زنزانة، وكان ممدداً على سرير عسكري، وقد باعد ما بين ذراعيه وسائر جسمه، لأنّ الدمامل والبثور كانت تملأ ما تحت إبطيه. وكانوا قد سمحوا له بأن يحلق لحيته، فبات شاربه الكثّ المعقوف من طرفيه يزيد من بروز وجنتيه، فبدا لأمه أكثر شحوباً واصفراراً، وأطول قليلاً مما كان يوم رحيله، وأنه أكثر إغراقاً في وحدته وانزوائه من أي وقت مضى.

كان يعرف كل أحداث البيت، حتى أدق التفاصيل : من انتحار بيترو كريسبي، إلى جبروت أركاديو وطغيانه ثم إعدامه، إلى تبلّد الإحساس الذي أصاب خوزيه أركاديو بوينديا ولزومه الحياة تحت شجرة الكستناء.

وكان يعرف أن أمارانتا قد كرّست ترمّلها العذري لتربية أوريليانو خوزيه، وأنّ هذا قد أخذت تظهر عليه علائم الذكاء المتوقد، وأنه قد تعلم القراءة والكتابة، في الوقت الذي تعلم الكلام. وقد شعرت أورسولا، منذ أن دخلت الغرفة، أنها قد هيمن عليها نضج ابنها والتفوق الذي يبدو كهالة عليه، والسلطة التي تشع منه، وقد اندهشت لمعرفته كل شيء عن أحداث البيت بالتفاصيل الدقيقة. فقال لها مازحاً :

ـ أظنك تعرفين أنني ساحر.

وأضاف بشيء من الجد :

ـ في هذا الصباح، عندما كانوا يجيئون بي، كنت أشعر كأنني عشت كل هذه الأمور.

والحقّ أنه بينما كان الجمهور الحاشد يهدر بالهتاف، لدى مروره، كان هو مستغرقاً في أفكاره، يعجب للبلدة كيف شاخت خلال عام واحد، وكيف تساقطت أوراق شجر اللوز وتهرّأت، وكيف طليت البيوت بلون أزرق، ثم لون أحمر، فآلت إلى خليط من الألوان غير قابل للتحديد.

فتنهدت أورسولا قائلة :

ـ ماذا كنت تنتظر؟ فالزمن يمضي.

فقال أوريليانو معبراً عن إقراره بهذه الحقيقة، في شيء من التمرد :

ـ هذا هو الواقع.. وهكذا تسير الأمور، ولكن ليس إلى هذا الحد.

وهكذا تحولت الزيارة، التي انتظرها كلاهما طويلاً، وأعدّ لها الأسئلة والأجوبة، إلى محادثة يومية عادية. وعندما أعلن الحارس انتهاء الزيارة، أخرج أوريليانو من فراش القش، الذي كان يستلقي عليه، رزمة من الأوراق قد بللها العرق. كانت كلها أشعاراً، فهي القصائد التي ألهمته إياها ريميديوس، وقد حملها معه يوم رحيله. وقد أضاف إليها ما كتبه،

من بعد، عندما كانت تسنح له الفرص في فترات تراخي الحرب والقتال.

ناول أمه الرزمة قائلاً :

ـ عديني بألاّ يقرأها أحد. أشعلي بها الموقد هذا المساء. فوعدته بذلك، ثم نهضت كي تقبله قبلة الوداع، وتمتمت في أذنه قائلة :

ـ جئتك بمسدس.

وتأكد العقيد أوريليانو بوينديا من أن الحارس بعيد لا يرى، فقال لأمه بصوت خفيض :

ـ لا فائدة لي منه : ولكن أعطينيه على كل حال، فقد يفتشونك عند الخروج.

فأخرجت المسدس من صدارها ودسته تحت فراش السرير العسكري المصنوع من القش. أما هو فخاطب أمه قائلاً بصوت هادىء خاشع :

ـ لا تقولي لي وداعاً. ولا تستعطفي أحداً . ولا تذلي نفسك لأحد. بل تظاهري كما لو أنهم أعدموني منذ زمن بعيد.

فعضت أورسولا على شفتها كي تقاوم البكاء. ولكنها قالت له :

ـ ضع حجارة حامية على الدمامل والبثور.

ودارت نصف دورة ثم غادرت الغرفة. وبقي العقيد أوريليانو بوينديا واقفاً يتأمل حتى أغلق الباب. وعندها عاد إلى اضطجاعه وذراعاه ممدودتان بعيداً عن جسمه. وتتالت الذكريات، فمنذ يفاعه وشبابه المبكر، وبداية إدراكه معالم المستقبل، كان يقول في نفسه : عندما يجيئني الموت لا بد من أن يعلن لي عن قدومه بدليل محدّد واضح لا لبس فيه ولا غموض. ولذلك، فهو الآن يعجب كيف لم يبق بينه وبين الموت سوى بضع ساعات دون أن يأتيه النذير.

ذات مرة جاءت لزيارته امرأة رائعة الجمال، وطلبت من الحراس إذناً بالدخول عليه في القيادة العامة في توكورينكا. فسمحوا لها بذلك، علماً منهم بالوطنية والحماسة التي كانت لدى بعض الأمهات اللاتي كنّ يدفعن بناتهن إلى أسرّة المقاتلين المشهورين سعياً منهن لتحسين النسل والأعراق. وكان العقيد أوريليانو بوينديا. في تلك الليلة، ينهي قصيدته عن الإنسان التائه تحت المطر المنهمر، حينما فاجأته الفتاة في الغرفة، فأدار لها ظهره كي يضع الورقة في الدرج الذي يحفظ فيه أشعاره. وعندها نبهّه حدسه، فأمسك بمسدسه الذي في الدرج. ودون أن يدير لها وجهه، خاطبها قائلاً :

ـ لطفاً، لا تطلقي النار، أرجوك.

حتى إذا استدار إليها مصوباً مسدسه، كانت الفتاة قد أخفضت مسدسها، وهي لا تدري ما تفعل. وهكذا نجا بعد أن نجح في الكشف عن أربع محاولات لاغتياله من أصل إحدى عشرة محاولة. وفي حالة أخرى، استطاع رجل، لم يتمكن أحد من القبض عليه قط، أن يتسلل ذات ليلة إلى القيادة الثورية في مانور، وأن يقتل طعناً بالخنجر أعز أصدقائه، العقيد ماجنيفيكو فيسبال، الذي كان أوريليانو قد تخلى له عن سريره لعله يشفى من الحمى، بينما كان هو يرقد في الغرفة ذاتها، في أرجوحته، على بعد أمتار، دون أن ينتبه لشيء مما حدث.

ولطالما بذل جهده كي ينظم نبوءاته، ولكن جهوده ذهبت هدراً. فلقد كانت النبوءات تهبط عليه دفعة واحدة، كأنما هي الومض أو اللمح المشع الخارق للطبيعة. كأنها لحظات يقين مطلق، ولكنها عابرة لا تدرك، ولو أنها كانت أحياناً تلم به طبيعية، فلا يدرك ساعتها أنها نبوءات، وكانت، في أحيان أخرى، تبدو نيرة صافية ولكنه لا يدركها إلا بعد أن تتحقق. وكثيراً ما كانت لا تعدو حالات من التطير والخرافة العادية.

ولكنه، عندما حكم عليه بالإعدام وطلب إليه أن يذكر رغبته الأخيرة، لم يجد أدنى حرج أو أية صعوبة في اكتشاف الحدس الذي ألهمه جوابه :

ـ أطلب أن ينفذ فيّ الحكم في ماكوندو.

وقد انزعج رئيس المحكمة العسكرية، وقال له :

ـ لا تتظاهر بالذكاء يا بويندبا.. فما هذه إلا حيلة لكسب بعض الوقت.

فأجابه العقيد :

ـ إذا لم تنفذ ذلك، فالشأن شأنك.. ولكنّ هذه هي رغبتي الأخيرة.

ومنذئذ تخلى عنه وحيه، وتوقفت نبوءاته. وانتهى به الأمر بعد طول تأمل وتفكّير، عندما زارته أمه، إلى أنه بات يقدر أنه لن ينذر بموته هذه المرة، لأن ذلك غير خاضع للمصادفات، بل لحزم جلاديه. وأمضى الليل دون أن ينام، بسبب ألم دماملة وبثوره الذي كان يعذبه ويضنيه. وفي الهزيع الأخير من الليل سمع وطء أقدام في السرادق، فقال في نفسه :

ـ لقد جاؤوا.

ودونما سبب ظاهر، أخذ يفكر بخوزيه أركاديو بوينديا(١)، الذي كان في تلك اللحظة يفكر فيه أيضاً تحت شجرة الكستناء، في جو ذلك الفجر المخيف. ولم يكن هو خائفاً، ولم يكن يحس بأي حنين أو بأي شعور، غير أن غضباً عضوياً قد اجتاحه، فسبب له ألماً وهياجاً في أمعائه. ذلك أنه مقضيّ عليه أن يموت زوراً وبهتاناً، فلا يعرف ما تؤول إليه أشياء كثيرة بدأها ولم يفرغ منها بعد. وانفتح الباب، ودخل منه حارس يحمل طاس قهوة. وفي اليوم التالي. وفي تلك الساعة ذاتها، كان ما يزال عند النقطة نفسها، يتميز غضباً وألماً من الدمامل والبثور تحت إبطيه. ثم حدث له ما

(١) والده.

كان حدث في اليوم الأول. وفي يوم الخميس شارك حراسه أكل حلوى الحليب التي جلبتها له أمه، ولبس ثيابه النظيفة، وقد وجدها ضيقة عليه. ثم احتذى حذاءه الجلدي اللامع. وحلّ يوم الجمعة دون أن يكونوا قد أعدموه.

والواقع أنّ أحداً ما كان ليجرؤ على تنفيذ الحكم. فتمرد أهل البلدة وتململهم جعل العسكريين يعتقدون أن إعدام العقيد أوريليانو بوينديا سوف تكون له أبعاد وعواقب سياسية خطيرة لا في ماكوندو وحدها، وإنما في منطقة المستنقعات (الماريجو) كلها. ولذلك أرسلوا من يراجع في الأمر السلطات العليا في عاصمة الإقليم. وفي مساء يوم السبت، وكانوا ما يزالون ينتظرون الجواب، ذهب النقيب روكه كارنيسيرو (الجزار) إلى مكان كاتارينو برفقة بعض الضباط، فلم تجرؤ سوى امرأة واحدة، وبعد كل أصناف التهديد، على الدخول معهم إلى غرفتها. فقد قالت المرأة له بصراحة ووضوح :

ـ «إنّ النساء لا يردن معاشرة رجل يعرفن يقيناً أنه سوف يموت. ولا أحد يعرف كيف سيتمّ ذلك. ولكن الناس ما ينفكون يقولون، في حلهم وترحالهم، أن الضابط الذي سيأمر بإطلاق النار على العقيد أوريليانو سوف يقتل هو وجنود فصيلة الإعدام واحداً بعد الآخر، عاجلاً أم آجلاً، وبلا رحمة، حتى ولو اختبؤوا في أقصى أصقاع الأرض». ونقل النقيب روكه كارنيسيرو ما سمعه إلى سائر الضباط، الذين نقلوه بدورهم إلى رؤسائهم المباشرين. وفي يوم الأحد كانت البلدة كلها تعرف أن الضباط يريدون أن يتفادوا، بمختلف الأعذار، مسؤولية تنفيذ حكم الإعدام، على الرغم من أن أيّ عمل مسلح لم يعكر صفو الأمن والهدوء في البلدة في الأيام الأخيرة.

ثم وصل البريد يوم الإثنين، وفيه الأمر الرسميّ : يجب أن ينفذ حكم

الإعدام خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة. في ذلك المساء، ألقى الضباط في إحدى قبعاتهم سبع وريقات كتبوا عليها أسماءهم، واقترعوا. فشاء قدر النقيب روكه كارنيسيرو (الجزار) أن تقع القرعة عليه. فقال في مرارة عميقة:

ـ إنّ سوء الحظ لا يخطىء أبداً. لقد ولدتُ ابن قحبة.. وسوف أموت ابن قحبة.

وفي الساعة الخامسة صباحاً، اختار فصيل الإعدام بالقرعة، وأمرهم بأن يصطفوا في الباحة. ثم أيقظ المحكوم عليه بعبارة تدل على نذير الشؤوم، فقال:

ـ هيا يا بويندیا، فقد حانت ساعتنا.

فأجابه العقيد:

ـ هذا إذن ما كنت أحلم به. فقد رأيت في منامي أن الدمامل والبثور قد تفجّرت.

كانت روبيكا بويندیا تستيقظ كل يوم في الساعة الثالثة صباحاً منذ أن علمت أن أوريليانو قد يعدم. وكانت تظل في غرفتها، الغارقة في الظلام، ترقب من نافذتها، نصف المفتوحة، سور المقبرة، فيما كان السرير، الذي كانت جالسة فيه، يهتز من غطيط خوزيه أركاديو. وقد أمضت الأسبوع بطوله تنتظر بنفس العناد الذي كانت تنتظر به، من قبل، رسائل بيترو كريسبي. وكان زوجها، خوزيه أركاديو، يقول لها:

ـ «لن يعدموه هنا.. سوف يطلقون عليه النار في الثكنة. فلا يعلم أحد من كان من الجنود في فصيل الإعدام. وأراهن أنهم سيدفنونه هناك». ولكن روبيكا واظبت على الانتظار، وكانت تجيب عن كل ذلك قائلة:

«إنهم أغبياء، سوف يعدمونه هنا».

كانت موقنة بذلك كل اليقين، حتى إنها تصورت الطريقة التي ستفتح بها الباب كي تلوّح له بيدها إشارة الوداع. وكان خوزيه أركاديو يصرّ على رأيه قائلاً:

ـ لن يحضروه عبر الشوارع والطرقات بصحبة ستة من الجنود الذين يرتعدون خوفاً وهلعاً، لعلمهم أن الناس مستعدون لعمل أي شيء.

ولم تقتنع روبيكا بتحليل زوجها وتعليله، فثابرت على مراقبتها عبر النافذة. وقد كانت تدأب على القول له:

ـ سوف ترى أنهم من الغباء بحيث يفعلون أي شيء».

في يوم الثلاثاء، وفي الساعة الخامسة صباحاً منه، وبعد أن شرب خوزيه أركاديو قهوته وأطلق كلابه، أغلقت روبيكا النافذة وتعلقت بأعلى السرير كي لا تسقط. وعندها تنهدت قائلة:

ـ ها هم قد جاؤوا به. إنه جميل وأنيق.

فنهض خوزيه أركاديو، ونظر عبر النافذة، فرآه يرتعش تحت ضياء الفجر. وكان يلبس بنطالاً كان له في أيام شبابه. وقد وقف وظهره إلى السور. ويداه على خاصرتيه، لأن البثور المحرقة تحت إبطيه كانت تحول دون إسبال يديه على جسده. وقد سمع العقيد أوريليانو يقول:

ـ اللعنة. هل يتمكنون منك بهذه الطريقة. أتصل الأمور إلى أن يصطف أمامك ستة نوادين، فتهوي تحت رصاصهم دون أن تستطيع شيئاً !».

ثم راح يعيد هذه العبارات ويعيدها بغضب وهياج يكاد يكون وجداً وخشوعاً، حتى تأثر النقيب روكه كارنيسيرو (الجزّار) الذي ظنّ أن العقيد كان يصلي. ولما صوّب رجال فصيل الإعدام إليه بنادقهم، تحوّل الهياج والغضب إلى نوع من الشعور اللزج بالمذاق المر القاسي، مما خدّر لسانه

وأنامه وأكرهه على أن يغمض عينيه. وعندها انطفأ أمامه ضوء بزوغ الشمس، كما يخبو لمعان الألومينيوم. وراح يرى نفسه طفلاً صغيراً في بنطال قصير، يرتدي حول عنقه ربطة. ثم رأى أباه في أصيل يوم رائع يصحبه إلى خيمة السوق في معرض الغجر، حيث شاهد كتلة الجليد. وفجأة سمع صرخة، فخيّل إليه أنها الأمر للفصيل بفتح النار، ففتح عينيه وهو يرتعش مقدراً أن يواجه الرصاص المشتعل المنهمر على جسده. ولكنه فوجىء برؤية النقيب روكه كارنيسيرو رافعاً يديه، ورؤيه خوزيه أركاديو يعبر الطريق ببندقيته الرهيبة مصوباً ومتأهباً لإطلاق النار.

صاح النقيب بخوزيه أركاديو :

ـ لا تطلق النار، فالعناية الإلهية هي التي أرسلتك.

وعندئذ بدأت حرب أخرى. فقد انطلق النقيب روكه كارنيسيرو ورجاله الستة، بصحبة العقيد أوريليانو بويندیا لكي يحرروا القائد العام الثوري فيكتوريو ميدينا، الذي كان قد حكم عليه بالموت في ريوهاشا. وقد ظنوا أنهم يختصرون الوقت إذا هم عبروا الجبال من نفس الطريق الذي سلكه خوزيه أركاديو بويندیا في طريقه لإنشاء ماكوندو. ولكنهم اقتنعوا، قبل انقضاء أسبوع على انطلاقهم، أن محاولتهم تلك كانت مستحيلة. فكان عليهم أن يسلكوا طريق الأعالي المحفوف بالمخاطر، ولم يكن في حوزتهم غير الذخيرة التي كانت مع فصيل الإعدام. كانوا يخيمون قريباً من القرى، التي يمرون بها، ثم يدخل أحدهم القرية في وضح النار متخفياً، ، وقد حمل بيده سمكة ذهبية صغيرة، فيتصل بالأحرار المتقاعدين، دون أن يلتحقوا بالثورة. فيحثهم على الذهاب للصيد في صباح الغد، كي لا يعودوا بعدها أبداً. ولما وصلوا إلى أحد منعرجات الجبال، حيث يطلون على مدينة ريوهاشا، كان القائد فيكتوريو ميدينا قد أعدم. وعندها اتفق رجال العقيد أوريليانو بويندیا

على إعلانه رئيساً للقوات الثورية في ساحل البحر الكاريبي، برتبة قائد عام. وقد استلم المنصب، وقبل المهمة، ولكنه رفض الرتبة، واتخذ موقفاً بألاّ يقبلها ما دام النظام الحاكم في السلطة.

وقد نجح الثوار، خلال ثلاثة أشهر، في تسليح ألف رجل. ولكنهم أبيدوا عن بكرة أبيهم. وانسحبت القلة الناجية منهم إلى الحدود الشرقية. ثم انقطعت أخبارهم، ولم يعد يسمع شيء عنهم، حتى علم أنهم هبطوا في كابو دي لافيلا، واصلين إليها من جزر الأنتيل الصغيرة. ثم صدر بيان حكومي رسمي، نقلته أسلاك التلغراف والبريد إلى كل أنحاء البلاد، على شكل خبر مفرح سعيد، يعلن نبأ موت العقيد أوريليانو بويندیا. وبعد يومين اثنين، صدرت برقية أخرى، ألغت البرقية السابقة، وكانت تخبر عن اندلاع الثورة في سهول الجنوب. وهكذا ولدت أسطورة العقيد أوريليانو بويندیا الموجود في كل مكان. ثم تتالت الأنباء المتناقضة المتلاحقة عنه. بعضها يروي أنه منتصر في فيلا نوفا، وآخر أنه هزم في جواكامايال، وثالث أن الهنود مزّقوه وافترسوه، ورابع أنه مات في قرية صغيرة من قرى الماريجو (إقليم المستنقعات). ثم أنه ثار من جديد في نواحي أوروميتا. وفي تلك الأثناء، صرح قادة الأحرار، الذين كانوا يفاوضون آنذاك لدخول مجلس النواب، أن العقيد شخص مغامر لا يمثل الحزب. واعتبرته الحكومة الوطنية واحداً من قطاع الطرق، ورصدت، للحصول على رأسه، مبلغ خمسة آلاف بيزو.

ثم خرج العقيد أوريليانو بويندیا، بعد ست عشرة هزيمة من منطقة جواجيرا، على رأس ألفي رجل من السكان الهنود الأصليين الجيدي التسليح، وفاجأوا حامية ريو هاشا، وهي نائمة، فأكرهوها على الانسحاب منها. وأقام العقيد هناك قيادته العامة، وأعلن الحرب، التي لا هوادة فيها، ضد النظام. وكان أول ما تلقاه برقية تهديد من الحكومة

تنذره بإعدام العقيد جيرينيلدو ماركيز، خلال ثمان وأربعين ساعة، إذا لم ينسحب بقواته إلى الحدود الشرقية. وقدم له البرقية العقيد روكه كارنيسيرو، الذي أصبح رئيس أركانه، وقد بدت عليه هيئة الخوف والقلق. ولكنه دهش عندما رآه يقرؤها راضياً خلافاً لما كان يتوقع. وقد عبر عن فرحه بهتافه قائلاً :

ـ ما أروع الخبر. فقد صار لدينا مركز للتلغراف في ماكوندو. وكان جوابه حاسماً، فقد كان ينتظر أن ينشىء قيادته العامة في ماكوندو خلال ثلاثة أشهر. فإذا لم يجد فيها العقيد جيرينيلدو ماركيز فإنه سيعدم، دون أية محاكمة، جميع الضباط الأسرى، بادئاً بالقادة من الضباط الكبار، كما إنه سوف يصدر أوامره إلى مساعديه بعمل الشيء ذاته حتى نهاية الحرب. وهكذا كان أول إنسان يعانقه، على طريق الماريجو (إقليم المستنقعات)، بعد ثلاثة أشهر، هو العقيد جيرينيلدو ماركيز.

كان البيت مليئاً بالأطفال. وكانت أورسولا قد جاءت بسانتا صوفيا (التقية) وابنتها البكر وتوأمين لها ولدا بعد خمسة أشهر من إعدام أبيهما أركاديو. وخلافاً لوصية أبيها أركاديو، عمّدت البنت باسم ريميديوس. وقد أعلنت أورسولا عن ذلك بقولها :

ـ أنا على يقين من أن هذا ما كان يريده أركاديو. لن ندعوها أورسولا، لأن من يحمل هذا الاسم سوف يعاني كثيراً. أما التوأمان فسمّيا خوزيه أركاديو الثاني وأوريليانو الثاني. وتولت أمارانتا أمر العناية بالجميع. فوضعت الكراسي الخشبية الصغيرة في غرفة الجلوس، وأنشأت لهم ولأبناء الأسر المجاورة حضانة أطفال.

ولما عاد العقيد أوريليانو بوينديا إلى ماكوندو وسط غابة من الأسهم النارية وخليط هائل من قرع الأجراس، رحبت به جوقة من الأطفال

بالنشيد عند مدخل داره.

أما أوريليانو خوزيه(١)، وكانت له قامة طويلة كقامة جده، فكان يرتدي بزة ضابط ثوري. وقد أدّى التحية العسكرية لأبيه العقيد أوريليانو بوينديا.

لم تكن الأخبار كلها جيدة.

فبعد سنة من فرار العقيد أوريليانو بوينديا من ماكوندو، انتقل خوزيه أركاديو وربيكا من بيتهم إلى البيت الذي بناه أركاديو عندما كان حاكماً لماكوندو. ولم يدر أحد بالتدخل الذي قام به خوزيه أركاديو للحؤول دون إعدام أوريليانو. وقد حوّل وزوجته البيت الجديد إلى بيت من أفضل بيوت الضيافة وأكرمها. وكان موقع البيت في أفضل زاوية من الساحة، في ظل شجرة لوز باسقة تحمل ثلاثة أعشاش لطائر أبي الحناء. وكان للبيت باب واسع عال ونوافذ أربع كبيرة. وقد استأنفت صويحبات ربيكا القديمات، ومعهن أربع من بنات موسكوت بقين عازبات، جلسات التطريز التي كانت تنعقد في الشرفة ذات أزهار البيجونيا ثم انقطعت منذ سنين.

وتابع خوزيه أركاديو استغلال الأرض التي اغتصبها واعترفت بسندات ملكيتها حكومة المحافظين. وكان أهل البلدة يرونه، عصر كل يوم، عائداً من الجبال على حصانه، وأمامه ووراءه كلابه، وهو يحمل جفته (بندقية مزدوجة السبطانة) وطوقاً كبيراً من الأرانب يتدلّى على سرج مطيته.

وذات يوم من شهر أيلول (سبتمبر)، شعر خوزيه أركاديو باقتراب العاصفة، فعاد من رحلة صيده بعد الظهر مبكراً عن عادته. فحيّا ربيكا التي كانت جالسة في غرفة الطعام، وربط كلابه في الدار، وعلق

(١) ابن العقيد أوريليانو بوينديا من بيلار تيريزا.

الأرانب في المطبخ كي يملحها بعد قليل، ثم دخل إلى غرفته ليبدل ثيابه.

وقد روت روبيكا فيما بعد، أنها دخلت إلى الحمام كي تغتسل، بينما دخل زوجها إلى غرفة النوم، ولم تنتبه بعدئذ لأي شيء، ولم تسمع بأي شيء. وقد كانت تلك الرواية غير معقولة وبعيدة عن التصديق. ولكن أحداً لم يعرف رواية أخرى أقرب إلى التصور، ولم يدر بخلد أحد أن روبيكا يمكن أن تقتل الرجل الذي أسعدها. وربما يكون ذلك هو السر الوحيد الذي لم يستطع أحد من ماكوندو أن يكتشف كنهه. فحالما أغلق خوزيه أركاديو باب الغرفة على نفسه سمع في البيت صدى طلقة من مسدّس. وسال خيط من الدم تحت باب الغرفة، عابراً غرفة الجلوس إلى الطريق العام، سالكاً أقصر الطرق بين الأرصفة الكثيرة، هابطاً أدراج البيوت، والسطوح غير المستوية، صاعداً فوق الأفاريز، محاذياً شارع الأتراك، متعرجاً يمنة ويسرة، مشكلاً زاوية قائمة نحو بيت آل بوينديا، ماراً من تحت الباب المغلق، وعابراً صالة الجلوس بمحاذاة الجدران، محاذراً أن تتسخ البسط والسجاجيد، متابعاً طريقه إلى الغرفة الثانية، ثم راسماً خطاً منحنياً طويلاً، مبتعداً عن طاولة الطعام، نافذاً إلى ما تحت الشرفة ذات أزهار البيجونيا، ماراً بشكل غير مرئيّ تقريباً تحت كرسي أمارانتا وهي تشرح درساً في الحساب لأوريليانو خوزيه، داخلاً مستودع الحبوب، منهلاً في المطبخ حيث كانت أورسولا تستعد لفقس ست وثلاثين بيضة لإعداد الخبز.

صاحت أورسولا بأعلى صوتها:

ـ يا مريم العذراء.

واقتفت أثر الدم، تابعة خطة في عكس مساره، باحثة عن مصدره. فدخلت مستودع الحبوب، مارة بالشرفة ذات أزهار البيجونيا، حيث كان أوريليانو الصغير يردد غناءً: «ثلاثة وثلاثة تساوي ستة، ستة وثلاثة

تساوي تسعة». ثم عبرت غرفة الطعام وصالات الجلوس، وتابعت ـ في خط مستقيم ـ طريقها في الشارع، ثم راحت تنحرف يميناً ويساراً حتى شارع الأتراك، دون أن تدري أنها ما زالت تلبس صدارة المطبخ والحذاء البيتي. ووصلت إلى الساحة، ثم دخلت باب البيت الذي لم تطأه قدماها من قبل.

دفعت باب غرفة النوم، فكادت تخنقها رائحة البارود المحترق، ورأت خوزيه أركاديو منبطحاً، ووجهه إلى الأرض فوق حذائه الطويل الذي خلعه لتوّه. وحدّقت فتبيّنت مصدر خط الدم الذي تدفق من أذنه اليمنى. وقد توقف الآن عن النزف. لم يكن في جسمه أي أثر لجرح، ولم يكن في المكان أثر للسلاح. ولم يكن ممكناً تخليص الجثمان من رائحة البارود المنتشرة. غسلوه أولاً ثلاث مرات بالليف والصابون، ثم فركوه بالخل والملح، ودهنوه بعد ذلك بالرماد والليمون. وبعد كل ذلك، غطسوه في برميل ملؤه بماء الغسيل طوال ست ساعات، ودلكوه فيه جيداً حتى حال لون الوشم الذي يغطيه. وبعد أن يئسوا قرروا أن يملحوه بالفلفل والكمون وأوراق الغار، وأن يسخنوه يوماً كاملاً على نار هادئة. وعندما تمّ ذلك، بدأ الجثمان يتفسّخ، فاضطروا لدفنه على عجل. فوضعوه في تابوت بحجمه، أحكموا إغلاقه، طوله سبع أقدام ونصف القدم، وعرضه أربع أقدام، مسلّح من الداخل بصفائح من حديد، وسمّروه بمسامير فولاذية ضخمة. ولكن ذلك كله لم يحل دون نفاذ رائحة البارود وانتشارها في الطرقات التي مرّت فيها الجنازة. وقد منحه الأب نيكانور بركته، وهو مريض يرقد في سريره، لأن كبده كانت قد انتفخت وصارت مثل طبل. وقد حاولوا في الشهور التالية، عبثاً، أن يقوّوا الضريح بجدران استنادية. بعضها خلف بعض، وعزلوا ما بينها بأكداس الرماد والنخالة ونشارة الخشب والكلس، ولكن رائحة البارود

ظلت تنفذ من القبر على مدى سنين عدة، حتى جاء مهندسو شركة الموز، فغطوا الضريح بطبقة من الإسمنت المسلّح. ومنذ أن أخرج الجثمان من البيت، أغلقت رويبكا الأبواب على نفسها، وعكفت على ذاتها، دافنة إياها في الحياة، يلفها صغار هائل وازدراء شديد، لم تفلح أية محاولة من الإغراء الأرضي في هذا العالم الدنيء أن تكسر حدته. فلم تغادر البيت إلى الطريق سوى مرة واحدة، عندما عجزت وصارت طاعنة في السن. وقد احتذت يومها حذاء بلون الفضة العتيقة، ووضعت على رأسها قبعة مصنوعة من أزهار صغيرة ناعمة. وكان ذلك خلال الفترة التي شهدت فيها البلدة مرور اليهودي التائه، الذي جلب معه الحرارة الشديدة التي ألهبت الجوّ، حتى كانت الطيور تحطم زجاج النوافذ، في اندفاعها إلى غرف البيوت لتموت فيها.

وقد رأى الناس رويبكا، وهي حية، مرة أخرى وأخيرة. وكان ذلك يوم قتلت، بطلقة صائبة من مسدسها، لصاً كان يحاول أن يخلع باب بيتها بالقوة. ولم يتصل بها، فيما عدا ذلك، أو يراها أحد عدا خادمتها وكاتمة أسرارها أرجينيدا. وقد علم، ذات مرة، أنها كانت تكتب رسائل إلى المطران، الذي كانت تعده ابن عمها، ولكن أحداً لم يذكر أنها تلقت أي جواب. ثم نسيتها البلدة.

لم يدع العقيد أوريليانو بوينديا المظاهر تستأثر باهتمامه، على الرغم من عودته المظفرة.

فقد كانت القطعات العسكرية الحكومية قد تخلت عن مواقعها دون مقاومة، مما كان يولد لدى صفوف الأحرار وهماً بالنصر، لم يكن من المناسب إحباطه. ولكن الثوريين كانوا يعرفون الحقيقة. وكان أكثرهم معرفة بذلك العقيد أوريليانو بوينديا. فعلى الرغم من أنه كان، حينذاك، يقود خمسة آلاف رجل، ويسيطر على مقاطعتين ساحليتين، إلا أنه كان

يشعر أنه محشور، وظهره إلى البحر، وأنه محاصر في وضع معقّد. حتى إنه، عندما أمر بترميم برج الكنيسة، الذي هدمته مدافع الجيش النظامي، جاءه تعليق الأب نيكانور، وهو على فراش المرض:

ـ إنه لمن سخرية القدر أن الذين يدافعون عن دين المسيح يهدمون الكنيسة، بينما يعيد تشييدها الماسونيون.

كان العقيد دائماً يبحث عن زاوية يخلو فيها إلى نفسه. فيفرّ إلى مكتب التلغراف، حيث يقضي الساعات الطوال، يبحث الأحوال مع قادة المواقع والبلدان الأخرى. ولكنه كان في كل مرة يزداد شعوراً بأن الحرب آخذة بالتعقد والركود. وكان كلما بلغه خبر عن انتصار جديد للأحرار، صيغ إعلانه بلهجة مفعمة بالجذل والفرح، لاذ بخرائطه يقيس عليها حقيقة تقدم قطعاته، فيجد أنها ما فتئت تغوص في الغابات، حيث يتعين عليها أن تدافع عن نفسها ضد الملاريا والبعوض، فكأنها تتقدم في اتجاه معاكس للواقع. ولطالما كان يشكو لضباطه قائلاً:

ـ إننا نضيع الوقت، ما دام أوباش الحزب يستجدون المقاعد في مجلس النواب.

كان، في ليالي القلق الشديد، يستلقي على ظهره في أرجوحته التي علقها في الغرفة ذاتها التي كان ينتظر فيها الإعدام، فيتخيل صور أولئك المحامين، بأزيائهم السوداء، وقد غادروا القصر الرئاسي مع الفجر المتجلد، وقد رفعوا ياقات معاطفهم حتى آذانهم، يفركون أيديهم، ويهمس بعضهم لبعض، وقد لاذوا ببعض المقاهي والمطاعم الصغيرة الخافتة الأضواء، التي تفتح أبوابها مع الفجر، لكي يناقشوا ما كان يعنيه الرئيس عندما قال «نعم». وما أراده عندما قال «لا». ثم ينشئون افتراضات لما يمكن أن يكون قد فكر فيه الرئيس، أو يتخيلون ما كان يفكر

فيه عندما قال شيئاً مخالفاً تماماً. كل ذلك، وهو يطارد البعوض في حرارة تبلغ خمساً وتسعين درجة(١)، ويحس باقتراب الفجر المخيف، عندما قد يكون عليه أن يأمر رجاله بأن يلقوا بأنفسهم في البحر.

وفي إحدى ليالي القلق الشديد، وبينما كانت بيلار تيريزا تغني مع الجنود في الساحة العامة، أرسل في طلبها كي تقرأ له مستقبله بورق اللعب. فوزعت بيلار تيريزا ورقها ثم جمعته مراتٍ ثلاثاً، وكان كل ما قالته له:

ـ احترس من فمك.

وبعد يومين من ذلك، قدّم شخص ما طاساً من القهوة إلى وصيف (خادم)، فأعطاه هذا بدوره إلى وصيف آخر، ثم إلى ثالث. وهكذا انتقل الطاس من يد إلى يد حتى وصل إلى مكتب العقيد أوريليانو بوينديا، ولم يكن قد طلب القهوة. ولكنه شربها لمجرد أنها قدمت إليه. وكان الطاس يحوي كمية من جوز القيء تكفي لقتل حصان. فنقلوه إلى البيت، وكان جسمه متصلباً ومقوّساً، وقد عضّ بحدة على لسانه.

جعلت أورسولا تصارع الموت فيه، محاولة أن تنتزعه من براثنه، فغسلت له معدته بالمقيئات، ثم غطته بأغطيه حارّة، وواظبت على تبليعه بياض البيض على مدى يومين، حتى استعاد جسمه المسمّم حرارته الطبيعية. وفي اليوم الرابع. زال الخطر عنه، ولكنه أرغم على التزام سريره أسبوعاً آخر، خاضعاً لرجاء أورسولا وضغطها، وتوسّلات ضباطه.

وعندها فقط علم أن أشعاره لم تحترق. قالت أورسولا:

ـ لم أكن على عجلة من أمري، في تلك الليلة، لإشعال الموقد.

---

(١) ٩٥ درجة فهرنهايتية، وهي تساوي ٣٥ درجة مئوية.

فقلت في نفسي: يفضل أن أنتظر حتى يحضروا الجثة.

وأعاد العقيد أوريليانو بوينديا قراءة أشعاره، بينما كان يشفى من مرضه، ويعود رويداً رويداً من جوه الضبابي، وحوله دمى ريميديوس المغمورة بالغبار. فاستعادت ذاكرته كل لحظات حياته الحاسمة. وعاد إلى الكتابة، وتفجرت أوزان قوافيه، تسيل شعراً، على مدى ساعات طويلة تمر في ثنايا انتفاضات حرب لا مستقبل لها، تظل الحياة فيها، دائماً وأبداً، على شواطىء الموت. وأصبحت أفكاره على أوضح ما تكون، فاستطاع أن يقلبها متفحصاً كل نواحيها. وذات يوم، سأل صديقه العقيد جيرينيلدو ماركيز:

ـ هلاّ أخبرتني أيها الصديق الأصيل.. قل لي: لماذا تحارب أنت؟

فأجاب العقيد جيرينيلدو ماركيز قائلاً:

ـ وهل يكون هناك سبب آخر؟ أحارب من أجل حزب الأحرار العظيم.

فقال:

ـ هنيئاً لك لأنك تعرف السبب. أما أنا فقد اكتشفت، الآن فقط، أني إنما أقاتل مدفوعاً بالكبرياء والغرور. فعلّق العقيد جيرينيلدو ماركيز:

ـ هذا أمر سيء.

وأضحكته سرعة استجابة العقيد جيرينيلدو ماركيز، فقال العقيد أوريليانو بوينديا:

ـ طبعاً. ولكنه، على كل حال، أمر أفضل من عدم معرفة الإنسان لماذا يحارب.

ثم حدّق في عيني صديقه، وأضاف مبتسماً:

ـ أو أفضل من أن تحارب من أجل أمر لا معنى له لدى أيّ إنسان،

كما هي الحال معك.

وقد حالت كبرياؤه دون أن ينشىء علاقات مع المجموعات المسلحة في المناطق الداخلية من البلاد، حتى تراجع قادة الأحرار وأعلنوا على الملأ الرجوع عن قرارهم الذي أعلنوا فيه أن العقيد أوريليانو بوينديا لم يكن سوى واحد من قطاع الطرق. ولقد كان يشعر، على كل حال، أنه حالما يتخلص من تلك الهواجس، فسوف يستطيع كسر حلقة الحرب السيئة المفرغة. وقد منحته فترة النقاهة فرصة للتفكير والتأمل في ذلك كله. وتمكن من إقناع أورسولا بأن تعطيه بقية الميراث المدفون تحت الأرض وكل ما كانت قد ادّخرته حتى الآن. ثم عيّن العقيد جيرينيلدو ماركيز حاكماً مدنياً وعسكرياً لبلدة ماكوندو، ثم غادر البلدة لكي يقيم الصلة مع العناصر الثائرة والمجموعات المسلحة في داخل البلاد.

ولم يكن العقيد جيرينيلدو ماركيز أكثر إنسان يثق به العقيد أوريليانو بوينديا وأقرب الناس إليه وحسب، وإنما كانت أورسولا تستقبله في بيت العائلة كواحد من أفراد الأسرة. كان نحيلاً وخجولاً، وذا أخلاق طبيعية وتربية حسنة، ولكنه كان رجل حرب أكثر منه رجل إدارة. فكان من السهل على مستشاريه السياسيين أن يضللوه في متاهاتهم النظرية. ولكنه، على الرغم من كل ذلك، نجح في توطيد جو ريفي هادىء يسود ماكوندو، تماماً كما كان يحلم العقيد أوريليانو بوينديا، حتى بات بوسعه أن يفارق هذه الدنيا مطمئناً، بعد أن يقضي شيخوخته في صنع السمكات الذهبية الصغيرة.

كان، على الرغم من إقامته عند ذويه، يتناول طعام الغداء مرتين أو ثلاثاً، في الأسبوع، في بيت الأسرة عند أورسولا. فعلم أوريليانو خوزيه استعمال الأسلحة النارية، وثقفه ثقافة عسكرية مبكرة، وكثيراً ما اصطحبه إلى الثكنة العسكرية، بموافقة جدته أورسولا، كي يعيش فيها

بضعة أشهر لعله يصبح رجلاً.

وكان جيرينيلدو ماركيز قبل سنوات طويلة من هذا التاريخ، وكان ما يزال بعد طفلاً، قد أعلن عن حبه لأمارانتا، في الفترة التي كانت لا ترى في الدنيا سوى عشق بيترو كريسبي الذي كان يسيطر على كل أحلامها. وقد ضحكت منه آنذاك، ولكنه ظلّ ينتظر. وقد أرسل لها جيرينيلدو ماركيز من سجنه، ذات يوم، رسالة يرجوها فيها أن تطرز له دزينة مناديل من الكتان، تحمل الحروف الأولى من اسم أبيه، وبعث لها بالتكاليف مع الرسالة. وبعد أسبوع واحد من ذلك، زارته أمارانتا في السجن، وأعطته المناديل المطرزة، وأرجعت له الدراهم التي أرسلها. وقد أمضيا، عندئذ، ساعات طويلة يسترجعان ذكريات الماضي. وقال لها جيرينيلدو ماركيز عندما همّت بالانصراف :

ـ عندما أغادر السجن سوف أتزوج منك.

وابتسمت أمارانتا، ولم تكف من بعد هذا عن التفكير فيه، بينما كانت تعلم الأطفال القراءة. ولكم تمنت لو أنها تستطيع أن تعيش، مرة ثانية، ذلك العشق الطفولي الذي كانت تكنه لبيترو كريسبي. وكانت، في أيام السبت، أيام زيارة السجناء، تمر بأهل جيرينيلدو ماركيز، كي تصحبهم إلى السجن. وقد عجبت لها أورسولا، في أحد تلك الأيام، عندما وجدتها في المطبخ تنتظر أن تخرج من الفرن أفضل أقراص البسكوت، ثم تضعها في منديل طرزته لهذه الغاية .

فقالت لها :

ـ تزوجي منه. ليس من السهل أن تجدي رجلاً مثله

وتظاهرت أمارانتا بالاستياء، وأجابت :

ـ لست مضطرة للسعي وراء الرجال. وأنا آخذ هذه الأقراص

جيرينيلدو ماركيز، لأنهم سوف يعدمونه عاجلاً أو آجلاً، مما يبعث على الشفقة والحزن.

قالت ما قالته دون تفكير كثير. ولكن ذلك صادف الفترة التي أعلنت فيها الحكومة تهديدها بإعدام العقيد جيرينيلدو ماركيز، ما لم تتخلّ قوات الثوار عن مدينة ريو هاشا. وعندها منعت عنه الزيارة. وقد حبست أمارانتا نفسها في غرفتها، كي تغرق في البكاء، يرهقها شعور بالذنب شبيه بذلك الذي عذبها بعد موت ريميديوس، كما لو كانت الكلمات التي قالتها عفواً تسبب للمرة الثانية موت إنسان. وقد طيبت أمها خاطرها، وطمأنتها إلى أن أخاها العقيد أوريليانو بوينديا سوف يفعل شيئاً ما لمنع إعدامه. ووعدتها بأن تقوم هي نفسها باجتذاب جيرينيلدو ماركيز بعد أن تنتهي الحرب. وقد نفذت وعدها قبل الموعد المنتظر.

ولما عاد جيرينيلدو ماركيز إلى البيت، بعد أن عيّن قائداً مدنياً وعسكرياً، استقبلته كواحد من أبنائها. ولم تضنّ عليه بأحسن المديح علها تمسك به. وكثيراً ما صلت بحرارة لعله يذكر مشروع زواجه من أمارانتا. ويبدو أن صلواتها قد أثمرت: فقد جعل العقيد جيرينيلدو ماركيز، كلما جاء للغداء في البيت، ينتظر بعد الظهر في الشرفة ذات أزهار البيجونيا كي يلعب مع أمارانتا جولات وجولات من الدامة. وكانت أورسولا تجلب لهما الشاي والحليب والبسكوت، وتعتني بالأطفال خشية أن يزعجوهما. وجهدت أورسولا كي تشعل في قلب أمارانتا، من جديد، رماد عواطفها الطفولية المنسية. وراحت أمارانتا تنتظر، بضيق صدر، الأيام التي كان يأتي فيها إلى البيت لتناول الغداء ولعب الدامة بعد الظهر، وترقب السويعات القصيرة التي كانت تقضيها بصحبة ذلك المحارب، الذي كان في اسمه حنين، وفي أصابعه رجفة خفيفة ترافق مسّه حجارة الطاولة. ولكنها في اليوم الذي صرح لها

العقيد جيرينيلدو ماركيز فيه برغبته في الزواج منها، رفضته قائلة:

ـ لن أتزوج من أحد، ومنك أنت بصورة خاصة. فأنت تحب أوريليانو إلى الدرجة التي تدفعك للزواج مني، لأنك لا تستطيع الزواج منه.

كان العقيد جيرينيلدو ماركيز رجلاً صبوراً، فقال لها:

ـ سوف تجدين مني إصراراً. وسوف أقنعك إن عاجلاً أو آجلاً.

وواظب على المجيء إلى البيت. أما هي فكانت تسجن نفسها، فتعكف على ذاتها تجترّ دموعها، وتسدّ أذنيها كي لا تسمع صوت ذلك الرجل الطامح إلى الزواج منها، وهو يروي لأورسولا آخر أنباء الحرب، على الرغم من أنها كانت تتلهف شوقاً لرؤيته. وقد استطاعت أن ترغم نفسها، فلم تخرج قط للقائه.

كان العقيد أوريليانو بوينديا قد بدأ يجد من وقته ما يمكنه من إرسال تقرير مفصل إلى ماكوندو مرة كل أسبوعين. ولكنه لم يكتب لأورسولا سوى مرة واحدة بعد ثمانية شهور من مغادرة البلدة. وقد حمل كتابه إليها رسول خاص، وصل البيت ومعه مغلّف مختوم يحتوي على ورقة تحمل خط العقيد الجميل. وجاء في الرسالة:

ـ «اعتنوا جيداً بأبي لأنه سوف يموت».

فذعرت أورسولا، ولكنها قالت:

ـ ما دام أوريليانو هو القائل فهو يعرف ما يقول.

ثم طلبت من الآخرين مساعدتها على نقل خوزيه أركاديو بوينديا إلى غرفة نومه. كان وزنه أثقل من ذي قبل. فقد اكتسب، خلال بقائه الطويل تحت شجرة الكستناء، القدرة على أن يزيد وزنه حسب مشيئته، حتى إن سبعة من الرجال لم يستطيعوا حمله، فجروه إلى سريره جراً. وامتلأ هواء الغرفة برائحة فطر طرية،* وأزهار أشجار برية طفلية، ناشئة

عن تنفس ذلك العجوز العملاق الذي صهرته الشمس والمطر وطوّره تعاقب الحر والبرد.

في صباح اليوم التالي لم يكن الرجل في سريره. ولم يعثر عليه في أي من غرف البيت. فقد عاد إلى شجرة الكستناء. ولم يكن خوزيه أركاديو بوينديا في حال يقاوم معها، ولو أن قوته ما زالت على ما كانت عليه دائماً. ولم يشعر بأي فرق بين ما كان فيه وما نقلوه إليه. فلم يرجع إلى شجرة الكستناء لأنه أراد ذلك، ولكن بفعل ما تعوّد عليه جسمه. وكانت أورسولا تعتني به، فتأتيه بالطعام، وتروي له أخبار أوريليانو.

والواقع أن الشخص الوحيد الذي كان يستطيع أن يقيم معه علاقة ما، ومنذ عهد بعيد، هو برودينسيو أجويلار، فقد كان برودينسيو أجويلار، وإن يكن الموت قد أحاله إلى تراب، يجيئه مرتين كل يوم ليثرثر معه. وكانا يتحادثان عن ديكة القتال، ويتواعدان على أن يتعهدا تربية حيوانات جميلة، ليس من أجل الاستمتاع بالنصر، فلم يعودا بحاجة إليه، بل من أجل أن يحتفظا بما يسرّيان به عن نفسيهما إزاء الضجر الذي تجلبه لهما أيام آحاد الموت. وكان برودينسيو أجويلار هو الذي يغسل له جسمه، وهو الذي يطعمه، وهو الذي يروي له الأخبار الرائعة عن شخص مجهول يدعى أوريليانو الذي كان عقيداً في الحرب.

كان خوزيه أركاديو بوينديا، عندما يكون وحيداً، يسلي نفسه بأن يحلم بغرف تتتالى حتى اللانهاية. كان يحلم بأنه ينهض من سريره، فيفتح الباب ليدخل غرفة مشابهة تماماً فيها السرير ذو الطرف الحديدي وإلى جانبه مقعده الهزاز، وعلى جدار الغرفة الخلفي صورة صغيرة للعذراء سيدة النجدة. ومن تلك الغرفة، ينتقل إلى غرفة أخرى مشابهة تماماً كأنها الغرفة الأولى ذاتها، ويؤدي باب الغرفة الثانية إلى غرفة أخرى

مشابهة، فأخرى، وهكذا حتى اللانهاية. فقد كان يحب التنقل من حجرة إلى أخرى، كأنه في رواق نصبت على جانبيه مرايا متوازية. ويظل على تلك الحال حتى يصل برودينسيو أجويلار، فيلمس كتفه. وعندها يعود من حجرة إلى حجرة، سائراً بخط عكسيّ، عائداً على أثره، ويستيقظ شيئاً فشيئاً، بقدر ما يرجع إلى الوراء، حتى يجد أمامه برودينسيو أجويلار في غرفة الحقيقة. ولكنه ذات ليلة، وبالتحديد بعد أسبوعين من نقله إلى السرير في غرفة نومه، لمس برودينسيوأجويلار كتفه، في غرفة متوسطة، فبقي فيها إلى الأبد، وهو يظن أنها غرفة الحقيقة.

وفي صباح اليوم التالي، رأت أورسولا، وهي تحمل له طعام الفطور، رجلاً يقترب من الممر. كان قصيراً ضخم الجثة، يرتدي بزة من قماش أسود، ويلبس قبعة كبيرة ذات لون أسود أيضاً، وقد أنزلها فوق عينيه. ففكرت أورسولا في نفسها وهمست :

ـ يا إلهي، أكاد أقسم أنه ملكيادس.

ولكنه كان كاتور، أخا فيزيتا سيون الذي رحل عن البيت فاراً من طاعون الأرق، وانقطعت أخباره منذ ذلك الزمن. فسألته فيزيتا سيون عن سبب عودته، فأجابها قائلاً :

ـ جئت كي أحضر دفن الملك.

دخل الجميع إلى غرفة خوزيه أركاديو بوينديا، وهزّوه بكل قواهم، وصاحوا في أذنه، ووضعوا مرآة أمام منخريه، فما استطاعوا أن يوقظوه. وبعد قليل، وعندما حضر النجار كي يأخذ القياس لصنع النعش رأوا، عبر النافذة، رذاذاً من الأزهار الصغيرة الصفراء. كانت الأزهار تهمي طوال الليل، في وابل خفيف على البلدة الساجية، حتى غطت السطوح

والسطوح، وتراكمت عند أسفل الأبواب، وخنقت الحيوانات النائمة في العراء. وقد تساقط من السماء من الأزهار ما كان كافياً لكي يغطي في الصباح شوارع البلدة ببساط سميك، فاضطر الناس لجرف الأزهار بالجارف، لكي يتمكن موكب الجنازة من المرور.

(٨)

كانت أمارانتا تجلس في مقعدها المتحرك، وقد وضعت في حضنها قطعة قماش التطريز التي هجرتها منذ زمن، وأخذت ترقب خوزيه أوريليانو، بذقنه المغطاة برغوة الصابون، وقد أمسك بالموسى يشحذها على سير الجلد كي يحلق ذقنه للمرة الأولى. وقد أسال الدم من بثور وجهه الصغيرة، من حب الشباب، وجرح شفته العليا، وهو يحاول تنظيم شاربيه بإزالة بعض الزغب الأشقر من حولهما. ولما انتهى من ذلك لم يطرأ على وجهه تغير يذكر. ولكن هذا العمل، وما بذله فيه من جهد ولّد لدى أمارانتا شعوراً بأنها قد بدأت تشيخ. فقالت له:

ـ إنك تشبه أوريليانو عندما كان في سنك. لقد صرت الآن رجلاً.

والحق أنه صار رجلاً منذ عهد بعيد، منذ ذلك اليوم القصيّ الذي ظنت فيه أمارانتا أنه كان ما يزال طفلاً، فتعرّت أمامه في الحمام على عادتها، وكما كانت تفعل منذ سلمتها إياه أمه بيلار تيريزا فتعهدت تربيته، وكان الشيء الوحيد الذي أثار انتباهه، للمرة الأولى التي رآها فيها عارية، هو انخفاض ما بين نهديها. وكان بريئاً إلى الحد الذي جعله يسألها عما أصابها. فأجابته أمارانتا، وهي تتظاهر بأنها تحك صدرها برؤوس أصابعها:

ـ لقد أحدثوا فيّ جروحاً هائلة.

وبعد ذلك بحين، وبعد أن برئت مما رافق انتحار بيترو كريسبي، وعادت إلى الاغتسال مع أوريليانو خوزيه من جديد، لم يعد هذا ليهتم بذلك الانخفاض بين نهديها، ولكنه كان يحس بقشعريرة غريبة عندما كان يرى نهديها الرائعين وحلمتيها البنفسجيتين. ولكنه ظل يتفحصها، ويكتشف الانحناء بعد الآخر من تعرجات جسدها المدهش وتثنياته، وهو يحس أن جسده يقشعر لدى هذا التأمل، كما يقشعر جسدها أول ما يلامس الماء. وقد تعوّد منذ طفولته المبكرة أن يغادر أرجوحته ليجد نفسه في الصباح في سرير أمارانتا، لأن ملمس جسدها كان يبعد عنه الخوف من الظلام. ولكنه منذ اليوم الذي وعى فيه على عريه ذاته، لم يعد الخوف من الظلام هو الذي يدفعه إلى سرير أمارانتا وتحت الكلة التي ترد عنها البعوض. بل كان يدفعه إلى ذلك شمّ تنفسها الطري عند طلوع الشمس.

وذات صباح، من الفترة التي ردّت فيها عرض العقيد جيرينيلدو ماركيز، استفاق أوريليانو خوزيه وهو يحس بضيق في التنفس. وشعر بأصابع أمارانتا، كأنها حشرات صغيرة دافئة وقلقة، تعبر منطقة معدته وبطنه. فغير وضع نومه، وهو يتظاهر بالنوم، كي يسهل حركة يدها. فإذا يد أمارانتا، بلا ضمادها الأسود، تطوقه وتغوص، كسمكة محار عمياء، بين شعيرات عانته حيث يكمن قلقه وانتظاره. ومنذ تلك الليلة، وعلى الرغم من تظاهرهما بأنهما يجهلان ما يعلم كل منهما وما يعرف كلاهما أن الآخر يعلمه، ظلا متحدين في كتمان لا تنفصم عراه.

كان أوريليانو خوزيه لا يستطيع النوم إلا حين يسمع الساعة في غرفة الجلوس تعزف الموسيقى منتصف الليل، ولا تعرف تلك العذراء الناضجة، التي كان جسدها قد بدأ يسمر ويذبل حزناً، لحظة راحة، إلا إذا أحست بالسائر في نومه، ذلك الذي رعته وربّته، يندس في سريرها

تحت كلتها. وما كانت لتدري أن يوماً سيأتي فيصبح فيه الدواء المسكن لوحدتها. ومنذئذ لم يكفّا عن النوم معاً عاريين يتبادلان عناقاً لا يروي، بل أخذا يلاحق أحدهما الآخر في كل أنحاء الدار وزوايا البيت، فيغلقان عليهما أبواب الغرف، وهما في حالة هيجان دائمة. وكادت تفاجئهما أورسولا، ذات عصر، حين دخلت مستودع الحبوب، بينما كانا يتبادلان القبل، فسألت أوريليانو خوزيه ببراءة:

ـ هل تحب عمتك كثيراً؟

فأجابها موافقاً، وأضافت هي قائلة:

ـ هذا أمر جيد.

ثم تابعت كيل الطحين اللازم لصنع الخبز، وعادت إلى المطبخ. وقد أثرت تلك الحادثة في أمارانتا، فأخرجتها من دوامتها، عندما اكتشفت أنها قد تمادت، وأن الزمن الذي كانت تعبث فيه بالقبل مع طفل قد ولّى وانقضى، وأنها إنما كانت تنزلق في هوى خريفي خطير لا مستقبل له. فوضعت حداً لتلك العلاقة مرة واحدة. وصحا أوريليانو خوزيه أيضاً على واقع ما كان فيه، وكان على وشك الانتهاء من تدريبه العسكري، فجعل ينام في الثكنة. وكان يرافق العسكريين كل يوم سبت إلى مخزن كاتارينو، حيث كان يعزي نفسه ويسرّي عنها، في وحدته القاسية وبلوغه المبكر، بنساء لهن رائحة الأزهار الميتة، فيتخيل لهن في الظلام صوراً مثالية رائعة يتقمصن فيها شخصية أمارانتا، ولطالما كان يسرف في هذا ويكد خياله.

وبعد فترة قصيرة، من هذا التاريخ، بدأت تتوارد عن الحرب أنباء متناقضة. ففي الحين الذي كانت تعترف فيه الحكومة بتقدم الثورة، علم الضباط، عن طريق بعض التقارير السرية، عن قرب نجاح مفاوضات الصلح. وفي أوائل نيسان (أبريل)، وصل رسول خاص إلى العقيد

جيرينيلدو ماركيز، فأكد له أن زعماء الحزب قد اتصلوا بقادة الثورة في الداخل، وأنهم باتوا على أهبة توقيع الهدنة لقاء ثلاثة مقاعد وزارية تعطى للأحرار، وتمثيل نيابي يشكلون فيه الأقلية، ويمنحون العفو العام عن الثوار جميعاً شريطة أن يلقوا السلاح . وكان الرسول يحمل كتاباً في غاية السرية من العقيد أورليانو بوينديا الذي كان يرفض شروط الهدنة. وقد طلب من العقيد جيرينيلدو ماركيز أن يختار خمسة من أفضل رجاله وأخلصهم، ويستعد ليغادر بهم البلاد.

وقد نفذ الأمر في منتهى الكتمان. فقبل أسبوع من إعلان الاتفاق، ووسط عاصفة من الشائعات المتناقضة، وصل إلى ماكوندو سراً، وبعد منتصف الليل، العقيد أورليانو بوينديا، مع عشرة من ضباطه الموثوقين، بينهم العقيد روكه كارنيسيرو. فسرّحوا الحامية، ودفنوا السلاح في الأرض، وأحرقوا الملفات وأوراق المحفوظات. ثم غادروا البلدة عند الفجر، ومعهم العقيد جيرينيلدو ماركيز وخمسة من ضباطه. وقد نفذت العملية سراً وبسرعة، حتى إن أورسولا لم تعلم عنها شيئاً إلاّ في الدقيقة الأخيرة، عندما طرق رجل نافذة غرفة نومها طرقات خفيفة، وهمس قائلاً :

ـ إذا كنت تريدين رؤية العقيد أورليانو بوينديا، فاخرجي الآن إلى الباب، والقي عليه نظرة.

فقفزت أورسولا من سريرها، وسارعت إلى عتبة البيت، وهي بعد في قميص النوم، فما استطاعت إلاّ بصعوبة رؤية جماعة من الخيّالة، وهي تغادر البلدة خبباً، تظللها سحابة غبار صامتة. ولم تدر إلاّ في صباح الغد أنّ أورليانو خوزيه قد رحل مع أبيه.

وبعد عشرة أيام من صدور البيان المشترك باسم الحكومة والمعارضة، وصلت الأنباء الأولى عن انتفاضة مسلحة يقودها العقيد أورليانو بوينديا

على الحدود الغربية. ولكن قواته القليلة العدد والسيئة التسليح لم تصمد أكثر من أسبوع. وعلى الرغم من ذلك، استطاع العقيد أورليانو بوينديا، خلال تلك السنة نفسها، أن يشعل الثورة في سبعة مواقع جديدة، بينما كان الأحرار والمحافظون يحاولون معاً إقناع البلاد بالاتفاق والمصالحة. وذات ليلة أطلقت مدافعه النار على ريوهاشا من مركب صغير، فخرج جنود الحامية من أسرّتهم فزعين وأعدموا انتقاماً أربعة عشر من وجوه الأحرار في المدينة. وقد احتل مركز جمارك على الحدود، لمدة خمسة عشر يوماً، وقد أذاع منه للأمة نداء دعاها فيه إلى الحرب الشاملة. وقد استمرت إحدى حملاته عبر الأدغال شهوراً طويلة، في محاولة جنونية لقطع مسافة تزيد على ألف ميل من أرض عذراء لم تطأها قدم من قبل، مستهدفاً إعلان الثورة في ضواحي العاصمة. وفي إحدى المرات وجد نفسه على بعد خمسة عشر ميلاً من ماكوندو، ولكن الدوريات الحكومية أجبرته على التقهقر إلى الجبال الغربية من المنطقة المسحورة التي وجد فيها أبوه، منذ عهد بعيد، درعاً إسبانياً متحجراً.

في تلك الفترة، ماتت فيزيتا سيون، وكان موتها طبيعياً. وهي التي عافت عرشاً خوفاً من مرض الأرق. وكان آخر ما أوصت به أن ينبش من الأرض تحت سريرها ما ادّخرته من أجرها ما يزيد على عشرين سنة، كي يرسل إلى العقيد أورليانو بوينديا لعله يستطيع الاستمرار في الحرب. ولكن أورسولا لم تكلف نفسها عناء نبش الأرض لاستخراج المال، لأن الأنباء التي وصلت كانت تزعم أن العقيد أورليانو بوينديا قد قتل عندما نزل بعاصمة الإقليم.

وكان مصدر الخبر الإعلان الرسمي ـ وهو رابع إعلان من نوعه خلال السنتين الأخيرتين ـ ولكن الناس صدقوه هذه المرة على مدى ستة أشهر، لأن أحداً لم يسمع عنه شيئاً خلال تلك الفترة. وبعد أن ارتدت أورسولا

وأمارانتا ثياب الحداد ـ كما كانتا تفعلان في كل مرة يصلهما نبأ موته ـ سمعتا فجأة خبراً جديداً. فقد كان العقيد أوريليانو بوينديا حياً، ولكن يبدو أنه قد كفّ عن إزعاج سلطات بلاده، وتحالف مع الفيدراليين المنتصرين في جمهوريات أخرى من بلاد البحر الكاريبي. وكان يظهر بأسماء مختلفة كلما شط به المزار عن أرض وطنه. واتضحت أخيراً الفكرة التي كان يعيش لها، وهي توحيد القوى الفيدرالية في أميركا الوسطى، وزوال الأنظمة المحافظة من ألاسكا إلى باتاغونيا. وكان أول ما وصل منه مباشرة إلى أمه أورسولا، بعد عدة سنوات من مغادرته البلدة، رسالة ذابلة مجعّدة وشبه مهترئة، قد أمّحت بعض حروفها، بسبب انتقالها من يد ليد، ابتداء من سانتياغو في كوبا.

وقد صاحت أورسولا لدى قراءة الرسالة :

ـ لقد فقدناه إلى الأبد. وإذا تابع ما هو فيه فسوف يقضي عيد الميلاد بعيداً في أقصى أطراف الأرض. وكان محدثها الذي ذكرت له قولها ذاك، هو أوّل من اطلع على الرسالة. وهو القائد العام (اللواء) المحافظ خوزيه راكيل مونكادا، محافظ بلدة ماكوندو منذ نهاية الحرب. وقد علّق على الرسالة بقوله :

ـ من المؤسف ألاّ يكون هذا الأوريليانو من المحافظين. ولقد كان معجباً به فعلاً. وكان اللواء خوزيه راكيل مونكادا من أولئك المدنيين المحافظين الذين خاضوا الحرب دفاعاً عن حزبهم. وقد ترقى إلى رتبة لواء في ساحة المعركة، مع أنه لم يكن يميل إطلاقاً للحياة العسكرية. ولكنه كان، على العكس من ذلك، ككثير من رفاقه في الحزب، ضد الروح العسكرية. كان يعد العسكريين بلا نفع ولا إيمان ولا شريعة. فهم في نظره مناورون طموحون، وليس شأنهم سوى معاندة المدنيين كي ينشروا الفوضى. وكان ذكياً ولطيفاً، أشقر الوجه ميالاً للحمرة، وذا مزاج يحب

الأكل الطيب، ومن أشد الناس حماسة لقتال الديكة. وقد كان في وقت من الأوقات من أشد خصوم العقيد أوريليانو بوينديا. وقد نجح في فرض سيطرته وسلطته على العسكريين المحترفين في قطاع واسع على الساحل. وفي يوم من أيام القتال، وقد اضطرته ضرورات الحرب الاستراتيجية للتخلي عن أحد مواقعه لقوات العقيد أوريليانو بوينديا، ترك له رسالتين. كانت الأولى طويلة دعاه فيها للتعاون معه في قيادة حملة غايتها جعل المعارك والحرب أكثر إنسانية. أما الرسالة الثانية فكانت موجهة إلى زوجته، التي كانت تعيش في منطقة تحت سيطرة الأحرار. وقد تركها بعد أن خط عليها رجاء بإيصالها إليها.

ومنذئذٍ، وفي أحلك فترات القتال ضراوة، جرى القائدان على اتفاق ينظمان به هدنات يتم فيها تبادل الأسرى. وكان جو من الاحتفال يسيطر على تلك الفترات، فيمتد توقف القتال، ويستغله اللواء مونكادا في تعليم العقيد أوريليانو بوينديا لعبة الشطرنج. وقد نشأت بينهما علاقة طيبة جعلت منهما صديقين حميمين. وقد توصلا إلى التفكير بإمكان جمع العناصر الشعبية في كلا الحزبين، كي يتخلصا من هيمنة العسكريين ومحترفي السياسة، ويقيما نظاماً إنسانياً يستفيد من أفضل ما في مبادىء الحزبين.

وحينما انتهت الحرب، توارى العقيد أوريليانو بوينديا عن الأنظار، في شعاب الأدغال، متابعاً خط الثورة الدائمة الضيقة الإطار، بينما عيّن اللواء مونكادا حاكماً لبلدة ماكوندو. فارتدى البزة المدنية، وعيّن رجال شرطة بلا سلاح ليحلوا محل العسكريين، واحترم قوانين العفو العام، فساعد عائلات الأحرار الذين قضوا في الحرب. وحصل على مرسوم حكومي يجعل ماكوندو بلدية، فكان أول محافظ لها، وأشاع فيها جواً من الثقة، حتى إن أحداً لم يعد يذكر الحرب أو يفكر فيها إلاّ بصفتها

كابوساً من عبث الماضي.

وعيّن الأب كورونيل (الملقب بالشبل) مكان الأب نيكانور الذي أنهكته حمى الكبد. وهو رائد مخضرم من رواد الحرب الفيدرالية الأولى.

وتزوج برونو كريسبي من أمبارو موسكوت، وازدهر أكثر وأكثر مخزنه للألعاب والآلات الموسيقية. ثم بنى مسرحاً وضعته الفرق الاسبانية ضمن برنامج جولاتها. وقد كان واسعاً، أقيم في الهواء الطلق، ووضعت فيه مقاعد من خشب لها مساند، وجعلت له ستارة من المخمل تزينها أقنعة يونانية، وأنشئت على مداخله ثلاث نوافذ للتذاكر على شكل رؤوس الأسود، تباع التذاكر في أشداقها المفتوحة.

وفي تلك الفترة أيضاً رممت الأبنية المدرسية، وتولى إدارة المدرسة الدون ملكور إسكالونا، وهو معلم عجوز جاء من منطقة الماريجو (المستنقعات). وكان يعاقب الطلاب بجعلهم يسيرون على ركبهم في باحة المدرسة الملأى بالرمل، ويطعم الثرثارين منهم الفلفل الحار. وكان كل ذلك يتم بموافقة أولياء الأمور. وكان أول من جلس في قاعة الصف توأما سانتا صوفيا (التقية)(١) : أوريليانو الثاني، وخوزيه أركاديو الثاني، ومعهما لوحاهما الحجريان وقلماهما الحجريان، وإبريقاهما المصنوعان من الألومنيوم وقد نقش عليهما اسماهما.

وبدأت ريميديوس، وارثة جمال أمها النقي الباهر، تعرف باسم ريميديوس الجميلة.

وكانت أورسولا تقاوم العجز والشيخوخة، على الرغم من الأحزان المتتالية، وارتداء ثياب الحداد المرة تلو الأخرى. فعادت إلى تجارة الحلوى، بمساعدة سانتا صوفيا (القديسة التقية)، فاستعادت، خلال

(١) زوجة اركاديو، الذي طغى في غياب اوريليانو بويندیا.

سنوات قليلة، الثروة التي بذرها ابنها في الحرب، وزادت عليها بأن ملأت القرعات المطمورة في الأرض في غرفتها، من جديد، ذهباً خالصاً. وكانت تقول دائماً :

ـ لن ينقص المال من بيت المجانين هذا مهما مدّ الله في عمري.

تلك كانت الأحوال عندما هجر أوريليانو خوزيه(١) القوات الفيدرالية، وانضم إلى البحارة في مركب تجارة ألماني، ثم ظهر فجأة في مطبخ البيت، قوياً كالحصان، أسمر غزير الشعر طويله كالهندي. وقد قرّر في سره أن يتزوج من أمارانتا.

وعندما رأته أمارانتا داخلاً، أدركت لتوّها سبب رجوعه دون أن يقول شيئاً. وكان أحدهما لا يجرؤ على النظر إلى الآخر، إذا جلسا إلى مائدة الطعام. وبعد أسبوعين من تاريخ رجوعه، وبحضور جدته أورسولا، حدّق في عيني أمارانتا، وقال لها :

ـ كنت دائم التفكير فيك.

وتجنبت أمارانتا النظر إليه، وكانت تفرّ منه وتتفادى احتمال أي لقاء طارىء به وحدهما. فتعمدت ألاّ تبتعد عن ريميديوس الجميلة. وسألها ابن أخيها، ذات يوم، إلى متى ستظل تربط يدها بالضماد الأسود. ففهمت من سؤاله أنه يلمح إلى بكارتها، وأثارته الحمرة التي ضرّجت وجنتيها . ومنذ وصوله إلى البيت دأبت على أن تقفل باب غرفتها ليلاً بالمزلاج. وانقضت ليال كثيرة وهي تسمع غطيطه الهادىء في الغرفة المجاورة، حتى أقلعت عن حذرها وعن احتياطاتها. وفي صباح أحد الأيام، وكان قد انقضى شهران على إيابه، أحست به يدخل غرفتها. وبدلاً من أن تفرّ منه، وبدلاً من أن تصيح كما عزمت أن تفعل، أسلمت نفسها لإحساس ناعم بالراحة. وشعرت به يدخل تحت كلتها، وينزلق

(١) ابن العقيد أوريليانو الذي ربته أمارانتا.

في سريرها، كما كان يفعل عندما كان طفلاً. ولم تستطع أن تدفع عنها العرق البارد الذي بلل جسمها، ولا اصطكاك أسنانها عندما رأته عارياً تماماً. فتمتمت قائلة له :

ـ أخرج من هنا.

قالت ذلك وهي خائفة من أن تتعرف إلى النهاية التي تختنق منها فزعاً. وأعادت القول :

ـ أخرج، وإلاّ فسأصرخ.

ولكن أوريليانو خوزيه كان يعرف جيداً ما الذي بقي عليه أن يفعله. فهو لم يعد الطفل الذي يخاف الظلام. صار كأنه وحش أفلت من قفص كان فيه مأسوراً. وأستأنفا، منذ تلك الليلة، المعارك الصامتة الصماء الطائشة التي كانت تمتد حتى الصباح، وكانت أمارانتا تتمتم وهي مجهدة :

ـ أنا عمتك. فكأنني أمك. لا من حيث السنّ وحسب، ولكن لأنني ربيتك أيضاً.

كان أوريليانو خوزيه يغادرها فاراً مع الفجر، ليعود إلى البيت في صباح اليوم التالي. فيزداد هياجه عندما يلاحظ أنها لم تقفل الباب بالمزلاج.

لم يسبق أن فترت رغبته فيها لحظة واحدة. فكان يراها في الغرف المظلمة في القرى المغلوبة الواقعة تحت الاحتلال، ولا سيما الغرف الزرية، ويتصور وجودها في رائحة الدم المتجمد على ضمادات الجرحى، وفي الخوف المخيم من خطر الموت في كل ساعة وفي كل مكان. فقد هرب منها، وحاول جاهداً أن يمحو ذكراها، لا في الابتعاد عنها وحسب، ولكن بضروب الشجاعة الباسلة المتوحشة أحياناً، التي كان يبديها في الحرب، والتي كان رفاقه في السلاح يسمونها تهوراً. ولكنه

كان كلما طوى صورتها وحاول وأدها في مزبلة الحرب، كانت الحرب تصبح شبيهة بأمارانتا. فقد احتمل البعد والنفي، وهو يبحث عن فرصة يقتل فيها صورتها بموته هو، حتى جاء اليوم الذي سمع فيه قصة قديمة عن رجل تزوج عمته. وكانت، إضافة إلى ذلك، ابنة عمه، وخلّفت ولداً فإذا هو جدّه.

وقد تساءل بذهول :

ـ هل يمكن للمرء أن يتزوج عمته؟

فأجابه أحد الجنود قائلاً :

ـ بل يستطيع ذلك وأكثر. فنحن إنما نخوض هذه الحرب ضد الكهنة ورجال الدين، حتى يستطيع الإنسان أن يتزوج من أمه نفسها.

وبعد أسبوعين من ذلك، فرّ أوريليانو خوزيه من الجيش. فوجد أمارانتا وقد ازدادت ذبولاً عما كانت في ذاكرته. وقد ازدادت كآبة وحزناً وخجلاً. وقد كانت فعلاً تطوي آخر أشرعة نضجها. ولكنها، في ظلام غرفتها، كانت أشد التهاباً مما كانت عليه قط، وأكثر إثارة وتحدياً مما كانت عليه قط في شراسة مقاومتها. فكانت تقول له، وقد همّ بها يهصرها بسعارة وشبقه الناريّ غير المحدود :

ـ أنت وحش. فأنت لا تستطيع فعل ذلك مع عمة مسكينة ما لم تحصل على موافقة وعفو خاص من البابا.

وكان أوريليانو خوزيه يعدها بأن يذهب إلى روما. كان يعدها بأن يقطع أوروبا زاحفاً على ركبتيه، وأن يقبل خف الحبر الأعظم، لعلها تسمح له بأن يطأها.

وكانت أمارانتا تجيب :

ـ ليس الأمر هكذا وحسب. فسيولد الأطفال بهذه الطريقة ولهم

أذناب خنازير.

ولكن أوريليانو خوزيه كان يصم أذنيه عن كل تلك الحجج. ويتوسل إليها قائلاً :

ـ لا يهمني حتى ولو ولدوا كالقنافذ.

وفي صباح أحد الأيام، ذهب إلى مخزن كاتارينو، وقد قهرته الآلام الناشئة عن كبت فحولته التي كانت لا تطاق. وهناك وجد امرأة رخوة الثديين، لعوباً رخيصة، استطاعت أن تهدىء ثورة جسده حتى حين.

وحاول بعدها أن يعامل أمارانتا بازدراء. فكان يراها في الشرفة تعمل بآلة خياطة ذات يد، تعلمت استعمالها بمهارة فائقة، فلا يبادرها بكلمة واحدة. وأحست أمارانتا بأنها قد تحررت من عبء ثقيل. ولم تدرك كيف بدأت تفكر من جديد بالعقيد جيرينيلدو ماركيز. ولم تدرك كيف بدأت تذكر، بحنين شديد، أصائل الأيام التي كانت تمضيها معه في لعب الدامة، وكيف صارت تشتهيه شريكاً في مخدعها.

وفي إحدى الليالي، لم يعد أوريليانو خوزيه يطيق هزلية الانصراف عن أمارانتا واللامبالاة في التعامل معها، فعاد إلى غرفتها. . فردّته رافضة إياه بصورة لا مرونة فيها، وبشكل حازم لا يقبل التأويل والخطأ. ثم أقفلت باب غرفتها بالمزلاج نهائياً وإلى الأبد.

بعد بضعة أشهر من عودة أوريليانو خوزيه، وصلت إلى البيت امرأة صاخبة الحركة كثيرة البهجة أغدقت على نفسها فيضاً من عطر الياسمين. وكان بصحبتها طفل يبلغ من العمر خمس سنين. وقد أفادت أنه ابن العقيد أوريليانو بوينديا، وأنها جاءت به إلى جدته أورسولا كي تعمده. ولم يشك أحد بنسب الطفل الذي كان ما يزال بلا اسم. فقد كان تامّ الشبه بملامح العقيد أوريليانو في العهد الذي اصطحبه فيه أبوه لمشاهدة الجليد. وحدثتهم المرأة كيف ولد الطفل وعيناه مفتوحتان،

وكيف كان ينظر في وجوه الناس نظرات رجل راشد كأنه يتفحصهم، وأنها خافت من طريقة تحديقه في الأشياء دون أن يطرف له جفن. وقد علقت أورسولا قائلة :

ـ إنه مثله تماماً. ولا ينقصه سوى شيء واحد، وهو أن يجعل الكراسي تهتز وتتحرك بمجرد النظر إليها.

وقد عمّدوه باسم أوريليانو وكنية أمه، لأن القانون لم يكن يسمح بأن يحمل الطفل كنية أبيه ما لم يعترف به. أما عرابه فكان اللواء مونكادا. وقد ألحت أمارانتا على الأم أن تتركه لها كي تربيه وتعتني به، ولكنها رفضت ذلك.

وكانت أورسولا تجهل، في ذلك الوقت، عادة إرسال البنات العذارى إلى غرف نوم المحاربين كما ترسل الدجاجات إلى الديكة الأصيلة. ولكنها وجدت في ذلك العام متسعاً من الوقت لتتعرف فيه على ذلك التقليد. فقد وصل إليها في البيت تسعة آخرون من أبناء العقيد أوريليانو بوينديا، من أجل التعميد. وكان أكبرهم سناً، وقد تجاوز العاشرة من عمره، غريب الشكل أسمر البشرة، ذا عينين خضراوين، لا يشبه عرق الأب، إذ لم يكن فيه ما يشبهه. وجيء بالأولاد من كل الأعمار والألوان. وكانوا جميعاً ذكوراً، يغلب عليهم طابع الوحدة، مما يدفع أي شك بنسبة قرابتهم، وكان اثنان منهم يختلفان عن البقية. إذ كان أحدهما يبدو أكبر من عمره بكثير. وقد حطم آنية الأزهار وعدداً من صحون الطعام، لأن يديه كانتا تكسران كل ما يقع تحتهما. وكان الآخر ذا عينين زرقاوين كعيني أمه، وقد أرخى شعره الأجعد ليتدلى على كتفيه كشعر بنت. وقد دخل البيت وكأنه يألفه ويعرفه تماماً، بل كأنه قد ولد فيه وتربى ونشأ في أكنافه. واتجه مباشرة إلى الصندوق الكبير في غرفة أورسولا، وخاطبها قائلاً :

- أريد الراقصة الآلية ذات النابض.

فصعقت أورسولا، وفتحت الصندوق، وفتشت فيه بين الأشياء القديمة التي يغطيها الغبار، والتي كانت ترقد هناك منذ عهد ملكيادس، فوجدت الراقصة الآلية ذات النابض ملفوفة بزوج من الجوارب. وهي اللعبة التي كان أحضرها إلى البيت بيترو كريسبي، ولكن الجميع قد نسوا أمرها.

وفي أقل من اثنتي عشرة سنة عمِّد الأطفال جميعاً، كل باسم أوريليانو وكنية أمه، فشكلوا بذلك فريقاً من الأبناء الذين زرعهم العقيد في ميادين الحرب، في طول البلاد وعرضها. وكان عددهم سبعة عشر طفلاً. كانت أورسولا، في البدء، تملأ جيوبهم بالدراهم. وكانت أمارانتا تحاول أن تستبقيهم. ولكنّ الأمر انتهى بهما إلى تقديم الهدايا لهم في المناسبات، وإلى أن تكونا عرابتين لهم. وكانت أورسولا ما تفتأ تقول:

- لقد قمنا بواجبنا بتعميدهم.

بينما تسجل في سجل خاص اسم أم كل واحد منهم وعنوانها وتاريخ ولادة كل واحد منهم ومكان ولادته أيضاً، وتتابع في نفسها قائلة:

- سوف يحتاج أوريليانو إلى سجلات بمعلومات دقيقة، لكي يستطيع اتخاذ القرارات المناسبة، بشأن الأمور المختلفة، عندما يعود.

وكانت تتحدث، ذات يوم، مع اللواء مونكادا، على مائدة الغداء، حول موضوع هذا النسل العجيب، فأسرّت برغبتها في أن ترى العقيد أوريليانو بوينديا، وقد عاد ذات يوم يجمع شمل أبنائه كلهم في بيت واحد. فأجابها اللواء بلهجة غامضة:

- لا تقلقي أيتها الصديقة. فسوف يعود بأسرع مما تظنين.

فقد كان اللواء مونكادا يعلم، دون أن يشاء الإفصاح عن ذلك على مائدة الغداء، أن العقيد أوريليانو بوينديا كان على وشك أن يقود أطول

ثورة، وأكثر الثورات التي قادها، حتى الآن، دموية وجدّية.

وتوترت الأحوال، تماماً كما حدث في الأشهر التي سبقت الحرب الأولى. وتوقفت معارك الديكة التي كان يشرف عليها رئيس البلدية نفسه. وتسلم السلطة البلدية النقيب أكويليس ريكاردو، قائد الحامية. وقد اعتبره الأحرار مثيراً للفتنة. وأسرت أورسولا لأوريليانو خوزيه:

- سوف يحدث شيء رهيب. فإياك أن تخرج من البيت إلى الطريق العام بعد الساعة السادسة مساء. ولم يثمر رجاؤها، فقد انقلب أوريليانو خوزيه إلى ما كان عليه أركاديو من قبل، وكأنه لا تربطه بها أية علاقة. فكأن عودته إلى البيت، وكأن إمكان وجوده دون أن يهتم بضرورات الحياة اليومية؛ كأن كل ذلك قد أيقظ فيه ميله إلى ذاته، والكسل والخمول، تماماً كما كان أمر عمه خوزيه أركاديو. وانطفأ هواه لأمارانتا دون أن يترك في نفسه أثراً. فكان يدع نفسه على هواها، فلا يأوي إلى البيت إلاّ لتغيير ثيابه، ويقضي وقته باللهو والعبث، ويخفف عناء وحدته بالمجون مع النساء العابرات. وكان يدأب على البحث والتفتيش في المخابىء المنسية، عله يجد ما خبأته أورسولا من دراهم. فتقول المسكينة عندما تكتشف شيئاً من ذلك، نادبة حظها:

- إنهم جميعاً سواء. تربيتهم سهلة في البداية، فهم مطيعون وجادون، لا يبدو على الواحد منهم أنه قادر على قتل ذبابة. ولكن ما إن تظهر في ذقونهم أولى الشعرات حتى يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة.

وكان أوريليانو خوزيه يختلف عن أركاديو في أنّ الأخير لم يعرف أمه. أما هو فقد عرف أنه ابن بيلار تيريزا(١)، التي علقت له في بيتها أرجوحة، كي يقضي عندها وقت القيلولة. فكانا أكثر من أم وابنها. كانا شريكين في شعورهما بالوحدة. وكانت بيلار تيريزا قد فقدت كل أمل،

(١) هي أم الاثنين.

فابتسمت ضحكتها الصاخبة بنغمة أرغن، وتهدل نهداها تحت وطأة ما شهداه من عبث. وتثنى بطنها، وارتخى ردفاها، نتيجة لقدرها المحتوم في أن تكون امرأة داعرة. ولكن قلبها كان يشيخ بلا مرارة. كانت سمينة، وكانت نمّامة، وفيها الكثير من غرور قوّادة فاشلة. وقد تخلت عن أوهامها الفارغة في أوراق اللعب، ووجدت عزاءها ومواطن سلواها في محبة الناس. وكانت فتيات الجوار، في الحيّ، يلتقين ـ تحت السقف الذي يقيل تحته أوريليانو خوزيه ـ بعشاقهن العابرين. وكان يسمعهن أحياناً يقلن لبيلار ببساطة، بعد أن يكنّ قد دخلن الغرفة فعلاً :

ـ هل تعيرينني غرفتك يا بيلار؟.

وكانت بيلار تجيب ببساطة أيضاً :

ـ طبعاً.

وإذا صادف أن كان عندها أحد الحاضرين، تشرح له قائلة :

ـ يسعدني أن أعرف أن الآخرين يسعدون في سريري. ولم تقبل قط ثمناً لهذه الخدمة، ولم ترفض قط تقديمها لمن يريد، تماماً كما لم ترفض قط العدد الذي لا يحصى من الرجال الذين كانوا يريدونها هي لأنوثتها، حتى بعد أن بدأ تألقها بالأفول، دون أن يمنحوها مالاً أو حباً، ولكنهم يمنحونها اللذة أحياناً. وقد ضاعت بناتها الخمس، اللاتي ورثن عنها بذرتها الحارة، وهن مراهقات، في شعاب الحياة الوعرة. أما ابناها اللذان استطاعت تربيتهما فقد قتل أحدهما في الحرب، وهو يقاتل في جيش العقيد أوريليانو بويندیا، وجرح الآخر واعتقل، وهو في الرابعة عشرة من عمره، بينما كان يحاول سرقة زريبة دواجن كبيرة في إحدى قرى الماريجو (منطقة المستنقعات).

وكان ابنها، أوريليانو خوزيه، شاباً طويلاً أسمر شبيهاً، على نحو ما،

بذلك الرجل الذي أنبأها عنه ملك الكبّة(١) منذ نصف قرن. وكان، ككل الكائنات التي يظهرها ورق اللعب، قد وصل إلى شغاف قلبها عندما شارفته دلائل الموت. ولقد قرأت كل ذلك في ورق اللعب. فقالت له :

ـ لا تخرج الليلة. ابق هنا ونم في غرفتك. فكارميليتا مونتيل لم تعد تطيق الصبر، وهي ما تفتأ تتوسل إليّ أن أدعها في غرفتك.

ولم يدرك أوريليانو خوزيه معنى رجائها، ولا المشاعر التي كانت تكمن خلف هذا العرض، فأجاب :

ـ أخبريها أن تنتظرني عند منتصف الليل.

ثم مضى إلى المسرح، حيث كانت فرقة إسبانية تمثل مسرحية «مخلب الثعلب» التي لم تكن سوى مسرحية زوريا «خنجر الغودو». ولكن النقيب أكويليس ريكاردو أمر بتغيير اسمها، لأن الأحرار كانوا يسمون المحافظين (الغودو) سخرية. ولم ير أوريليانو خوزيه النقيب أكويليس ريكاردو إلاّ ساعة كان يقدم تذكرته عند باب المسرح. وكان مع النقيب جنديان مسلحان ببندقيتين يفتشان الجمهور. فأنذره أوريليانو خوزيه قائلاً :

ـ انتبه أيها النقيب، فلم يولد بعد الرجل الذي يضع يده عليّ.

وحاول النقيب أن يفتشه بالقوة، ولكن أوريليانو خوزيه، الذي لم يكن مسلحاً، قد راح يعدو. ولم يطع الجنديان الأمر بإطلاق النار، وقال أحدهما :

ـ إنه من آل بويندیا.

وثارت ثائرة النقيب، الذي أعماه غضبه، فانتزع البندقية من يد

---

(١) آس الكبة في ورق اللعب.

الجنديّ، ووقف في منتصف الشارع مصوباً سلاحه وهو يصيح بأعلى صوته :

ـ أيها الجبناء. لكم كنت أرجو لو كنت العقيد أوريليانو بويندا.

كانت كارميليتا مونتيل، العذراء ذات العشرين ربيعاً، خارجة من الحمام، بعد أن استحمت بماء زهر البرتقال، وقد بدأت تنثر أوراق الزهور على سرير بيلار تيرنيرا، عندما دوّت طلقة الرصاص. لقد كان مقدّراً لأوريليانو خوزيه أن يعرف معها طعم السعادة، التي حرمته إياها أمارانتا، وأن يكون له منها سبعة أطفال، وأن يموت بين ذراعيها شيخاً طاعناً في السن. ولكن الرصاصة التي اخترقت ظهره، فمزّقت صدره، قد ساقها إليه تأويل خاطىء لورق اللعب. أما النقيب أكويليس ريكارد، الذي كان مقدراً له هو أن يموت في تلك الليلة، فقد مات فعلاً، قبل أن يموت أوريليانو خوزيه بأربع ساعات. فما إن سمعت طلقة بندقيته حتى هوى بطلقتين دوّتا معاً، ولم يعرف أحد قط مصدرهما. ثم تلت ذلك صيحة جماعية هزّت الليل :

ـ عاش حزب الأحرار! عاش العقيد أوريليانو بويندا. ولما انتصف الليل، ونزف أوريليانو خوزيه دمه حتى الموت، كانت كارميليتا مونتيل ترى أن أوراق اللعب التي تبين لها مستقبلها لا تظهر لها سوى فراغ. وقد مرّ أمام المسرح أكثر من أربعمئة رجل، فأفرغوا مسدساتهم في جثة النقيب أكويليس ريكاردو المهجورة. وقد استخدم رجال الدورية عربة لنقل جثته التي ثقل وزنها بالرصاص، وتشققت كرغيف خبز مبلول.

وأثار هياج الجيش النظامي ومغالاته اللواء راكيل مونكادا، الذي ما كان منه إلاّ أن حشد تأثيره وطاقاته السياسية وارتدى بزته العسكرية من جديد، واستلم القيادتين المدنية والعسكرية في ماكوندو، ولو أنه لم يكن ينتظر أن يكون موقفه التصالحي الحكيم قادراً على ردّ الأمر المحتوم. فقد

حلّ شهر أيلول (سبتمبر) مثقلاً بالأنباء المتناقضة. وصلت أخبار سرية للأحرار تفيد بحدوث انتفاضات مسلحة في المناطق الداخلية، في الوقت الذي كانت الحكومة تعلن فيه أنها قد أحكمت سيطرتها على البلاد كلها. ولم يكن النظام ليعترف بأن البلاد في حالة حرب، حتى اليوم الذي أعلن فيه عن إنشاء محكمة عسكرية حكمت على العقيد أوريليانو بويندا غيابياً بالإعدام. وأعطيت الأوامر بتنفيذ الحكم فيه إلى أية حامية تلقي القبض عليه. ولما سمعت أورسولا بالنبأ، قالت للواء مونكادا سعيدة فرحة :

ـ هذا يعني أنه عاد.

ولكن اللواء مونكادا لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك.

والواقع أن العقيد أوريليانو بويندا قد كان في المنطقة منذ أكثر من شهر. ولقد سبقته إشاعات متناقضة عن مكان وجوده. فروت أنباء أنه في مكان ما من أقاصي الشمال. وذكرت أنباء أخرى أنه في أقصى الجنوب. ولم يصدق اللواء مونكادا أياً من تلك الأنباء، حتى وصل خبر رسمي يفيد بأنه قد سيطر على مقاطعتين في الساحل. فقال اللواء مونكادا لأورسولا، وهو يريها البرقية :

ـ تهانيّ، أيتها العرابة. فسوف ترينه بعد قليل هنا.

فسألته أورسولا، وهي قلقة بعض الشيء :

ـ وأنت، ماذا ستفعل أيها العرّاب؟.

وكان اللواء مونكادا قد ألقى هذا السؤال على نفسه مرات ومرات. فأجابها قائلاً :

ـ سأفعل ما يفعله هو، أيتها الصديقة. سوف أقوم بواجبي.

في فجر اليوم الأول من تشرين الأول (أكتوبر)، هاجم العقيد

أوريليانو بويينديا بلدة ماكوندو بألف رجل كاملي العتاد والسلاح. وتلقت حامية البلدة الأمر بالدفاع حتى النهاية. وعند الظهر من أحد الأيام، وبينما كان اللواء مونكادا يتناول طعام الغداء عند أورسولا، دوّت قنبلة مدفع للثوار في كل البلدة، وحطمت واجهة دائرة المالية فيها. فتنهد اللواء مونكادا قائلاً :

ـ إن سلاحهم يضاهي سلاحنا، ولكنهم فوق ذلك يحبون القتال أكثر منا.

وفي الساعة الثانية من بعد الظهر، وبينما كانت الأرض تهتز تحت وابل القذائف التي تطلقها المدافع من هنا وهناك، وقف اللواء مونكادا مودعاً أورسولا وهو موقن أنه يحارب في معركة خاسرة. فقال لها :

ـ أرجو الله ألاّ يأتي إليك أوريليانو اليوم في البيت. أما إذا أتى فعانقيه وقبّليه عني، لأنني لا أتوقع أن أراه بعد اليوم أبداً.

وقد أُلقي القبض على اللواء مونكادا، وهو يحاول الفرار من ماكوندو، بعد أن كتب رسالة مطوّلة للعقيد أوريليانو بويينديا، يذكره فيها بمشاريعه المشتركة لجعل الحرب أكثر إنسانية، ويرجو له أن يحرز النصر النهائي على فساد العسكريين المتهورين وفساد الساسة الحزبيين المتعصبين. وفي اليوم التالي، كان العقيد أوريليانو بويينديا يتناول معه طعام الغداء على مائدة أورسولا، وقد ظل في البيت محبوساً حتى قرّر مجلس الحرب الثوري مصيره. كان الاجتماع عائلياً، ولكن أورسولا كانت تشعر، بينما كان العدوان يستعيدان ذكريات الماضي، وقد تناسيا الحرب وشؤونها، أنّ ابنها كان يبدو كالدخيل على البيت. والواقع أنها شعرت بذلك منذ رأته يدخل عليها بحماية قوة عسكرية صاخبة، قلبت كل ما في الغرف من أثاث، رأساً على عقب، كي تطمئن من عدم وجود خطر على حياته. ولم يكتف العقيد أوريليانو بويينديا بذلك، بل

إنه أصدر أوامره الصارمة، وبمنتهى الحزم والقسوة، بألاّ يقترب أحد منه أكثر من ثلاثة أمتار، بمن في ذلك أمه، أورسولا نفسها، حتى ينتهي حراسه من وضع الحراسة حول المنزل كله. وكان يرتدي بزة عمل من القنب العادي، ولا يحمل أية رتبة أو شارة عسكرية، وينتعل حذاء عالي الساق، اتّسخ جانباه وجفّ عليه الوحل والدم. وكان يحمل في حزامه مسدساً آليّاً في قراب مفتوح، ويده على أخمصه دائماً، مما يدلّ على توتره المقيم، واستعداده وعزمه الجليّ في نظراته. ويستطيع المدقق أن يرى الآن في هيئة رأسه تراجعاً في صدغيه الخاليين من الشعر، وكأنه شوي على نار خفيفة. وقد اكتسب وجهه، بعد أن دبغه ملح منطقة الكاريب، قسوة بلون المعادن. وقد حصنته ضد الشيخوخة الوشيكة حيوية ناشئة، نوعاً ما، عن هدوء وبرودة في أعماقه. كان يبدو أطول مما كان عليه في اليوم الذي رحل فيه، وأشد شحوباً واصفراراً، وقد نتأت بعض عظامه، فبدت عليه بوادر مقاومة الحنين. وقد عبرت أورسولا عن قلقها قائلة :

ـ يا إلهي، إن هيئته تنبىء الآن بأنه قادر على فعل أي شيء.

وقد كان كذلك فعلاً. وما الشال الأزتيكي الذي أهداه لأمارانتا، والذكريات التي استعادها عند الغداء، والقصص المسلية التي رواها إلاّ من بقايا خفة ظله السالفة. وحالما جرى تنفيذ أمره بدفن القتلى في حفرة جماعية، أوكل إلى العقيد روكه كارنيسيرو مهمة الإسراع بمحاكمات المجلس الحربي، واحتفظ لنفسه بالمهمة الشاقة التي كان يحبها، وهي فرض الإصلاحات الجذرية، التي لا تبقي ولا تذر شيئاً من هيكلية النظام المحافظ البالي. كان يقول لمعاونيه :

ـ يجب أن نكون أسبق من محترفي السياسة في الحزب. فعندما يفتحون عيونهم على ما تمّ يجدون أنفسهم أمام الأمر الواقع.

فقرّر أن يراجع سندات ملكية الأرض حتى مئة عام خلت، وكشف

سرقات أخيه خوزيه أركاديو التي كان قد ثبّتها قانونياً. فألغى بجرّة قلم كل السجلات. وقام بآخر بادرة لياقة، فتخلى عن مشاغله ساعة من الزمن، زار فيها روبيكا كي يبلغها بقراراته الجديدة.

ولم تكن روبيكا، التي تعيش حياة الوحدة في ظلال بيتها الكبير شبه المهجور، والتي كانت فيما مضى الأمينة على قصص عشقه وحبه المكتوم، والذي أنقذ عنادها وإصرارها حياته، يوماً من الأيام ؛ لم تكن سوى طيف من الماضي. كانت تكتسي بالسواد حتى قبضتي يديها، وكان قلبها بقايا من رماد، ولم تكن تسمع من أنباء الحرب إلا القليل القليل. وأحس العقيد أوريليانو بوينديا أنه يستشف لمعان عظامها الفوسفوري، وهو يخترق جلدها، وأنها تمور في جوّ من الشرار اللامع، جوّ نتن يعبق برائحة البارود الخفية. فراح ينصحها بالتخفيف من مظاهر الحداد وقسوته، وبأن تفتح نوافذ البيت للتهوية، وأن تغفر للعالم ذنبه في موت خوزيه أركاديو. ولكن روبيكا كانت أصلاً أبعد من الغرور. فقد بحثت عنه عبثاً في تذوق طعم التراب، وفي رسائل بيترو كريسبي المعطرة، وفي سرير زوجها العاصف، ولكنها وجدت السلام والطمأنينة أخيراً، في هذا البيت، الذي غدت فيه الذكريات، من طول ما ألحت في استعادتها، صوراً تتلاشى وتتكوّن من جديد بين الغرف على هيئة كائنات بشرية.

كانت روبيكا جالسة في كرسي الخيزران المتحرك، وقد انكفأت إلى الخلف، تنظر إلى العقيد أوريليانو بوينديا، وكأنه طيف من الماضي. ولم يزعجها نبأ أن الأراضي التي كان قد اغتصبها زوجها، وأخوه، خوزيه أركاديو، سوف تعود إلى مالكيها الشرعيين، فقالت متنهدة :

ـ سيكون ما تشاء يا أوريليانو. فقد كنت أظن دائماً ـ وها أنت تثبت ذلك الآن ـ أنك لست سوى جاحد.

وقد تمت مراجعة سندات الملكية في الوقت نفسه الذي صدرت فيه الأحكام العسكرية السريعة، برئاسة العقيد جيرينيلدو ماركيز، وقضت بإعدام كل ضباط الجيش النظامي الذين أسرهم الثوريون. وكان آخر مجلس حربي هو الذي مثل أمامه اللواء خوزيه راكيل مونكادا. فتدخلت أورسولا، وقالت للعقيد أوريليانو بوينديا :

ـ كانت حكومته أفضل حكومة عرفناها في ماكوندو. ولن أضيف شيئاً عن طيب قلبه، ولا عن حبه لنا، فأنت خير من يعرف ذلك عنه.

ولكن العقيد أوريليانو بوينديا نظر إليها نظرة عدم الموافقة، وقال :

ـ لا أستطيع أن أمارس السلطة على العدالة . فإذا كان لديك ما تقولينه ، فقوليه للمحكمة العسكرية. ولم تتردد أورسولا في القيام بذلك، ولم تكتف به، بل جاءت معها بكل أمهات الضباط الثوريين المقيمات في ماكوندو كي يؤدين الشهادة. ووصلت العجائز من رائدات ماكوندو، وبينهن بعض من خاطرن بعبور الجبال، فأدلين الواحدة تلو الأخرى بشهادات تفيض مديحاً بفضائل اللواء مونكادا. وكانت آخر الشاهدات أورسولا، التي استطاعت بوقارها الحزين، وبوزن اسمها، وشدة أسر بيانها وحجتها، أن تخلخل توازن العدالة فترة من الوقت. ومما قالته لأعضاء المحكمة :

ـ لقد أديتم لعبتكم الرهيبة أداءً حسناً، وقمتم بواجبكم خير قيام. ولكن إياكم أن تتناسوا، أن الله مهما مدّ في آجالنا فلن نغير من طبيعتنا. فسوف نبقى أمهات، وسيبقى لنا الحق، مهما بلغت درجة ثوريتكم، بأن لا تخلّوا بواجبات احترامكم لنا.

وانسحب أعضاء المحكمة للتداول وتبادل الرأي، بينما كانت آخر كلماتها تدوّي في آذانهم وفي باحة المدرسة التي تحولت إلى ثكنة. وعند منتصف الليل، صدر الحكم بالإعدام على اللواء خوزيه راكيل مونكادا.

وقد رفض العقيد أوريليانو بوينديا إلغاء الحكم، على الرغم من الكلام القاسي الذي وجهته له أورسولا. ولكنه ذهب لزيارة اللواء مونكادا المحكوم بالإعدام، في زنزانة السجناء قبل الفجر بقليل. وهناك قال له :

ـ تذكّر، أيها الصديق القديم، أنني لست أنا الذي أعدمك، بل هي الثورة.

ولم يكن اللواء مونكادا قد نهض من سريره العسكري، الذي كان يرقد فيه، عندما رأى العقيد أوريليانو بوينديا داخلاً عليه، فأجابه بقوله :

ـ لتذهب إلى الجحيم، أيها الصديق.

حتى تلك اللحظة، ومنذ إيابه، لم يتح العقيد أوريليانو بوينديا لنفسه فرصة النظر إليه بعين القلب. وقد أذهله مشهده، عندما تبيّن ما فعلته الشيخوخة به، ومدى ارتجاف يديه، والرضا النفسي الذي كان ينتظر به الموت وكأنه أمر عاديّ. وشعر بالاحتقار الشديد لنفسه، ممتزجاً ببدايات من الرأفة والشفقة. فقال له :

ـ أنت تعرف، خيراً مني، أن المحاكم العسكرية ليست سوى مهازل، وأنك الآن تدفع ثمن جرائم الآخرين، لأننا قد عزمنا، هذه المرة، أن نربح الحرب ولو بأي ثمن. وأنت لو كنت في مكاني، أما كنت تفعل الشيء نفسه؟

فاعتدل اللواء مونكادا في جلسته، وجعل ينظف نظارته، ذات الإطار العريض، بطرف قميصه. وأجاب :

ـ ربما، ولكن ما يقلقني ليس إعدامي. ففي آخر المطاف، يجد من كان مثلنا من الرجال أن هذه الميتة ميتة طبيعية. ثم وضع نظارته على جانب سريره، وانتزع ساعته من سلسلتها، وتابع قوله :

ـ إن الذي يقلقني أنك، لشدة ما كرهت العسكريين، ولطول ما قاتلتهم، وما فكرت فيهم، انتهى بك الأمر إلى أن صرت تشبههم في

كل شيء. ولا أجد في الحياة مثالاً أصدق من هذا يدعو للازدراء.

وانتزع من إصبعه خاتم زواجه، وإيقونة مريم العذراء، ووضعهما قرب النظارة والساعة، وخلص إلى القول :

ـ إذا تابعت سيرك على هذا المنوال، فإنك لن تغدو أشد الديكتاتوريين ظلماً وأكثرهم دموية في تاريخنا كله وحسب، بل إنك سوف تقتل صديقتي العزيزة أمك، أورسولا، لكي تريح ضميرك.

فتسمّر العقيد أوريليانو بوينديا في مكانه مذهولاً كتمثال بلا حياة، بينما سلمه اللواء مونكادا نظارته وساعته، والإيقونة والخاتم، وخاطبه بلهجة أخرى :

ـ ولكنني لم أطلب إليك المجيء كي أعنّفك، بل لأطلب منك إسداء معروف، وهو أن ترسل هذه الأشياء إلى زوجتي.

فتناولها العقيد أوريليانو بوينديا، ودسّها في جيوبه، وسأله :

ـ أما زالت في مانور؟

فأجاب اللواء مونكادا بالإيجاب :

ـ نعم، ما زالت في مانور، وفي البيت نفسه، وراء الكنيسة، حيث أرسلت إليها في الماضي الرسالة.

فقال العقيد أوريليانو بوينديا :

ـ سوف أنفذ ذلك بكل سرور، يا خوزيه راكيل.

ولما خرج العقيد إلى الهواء الطلق المصاحب للضباب، تبلّل وجهه، كما حدث له ذات يوم من أيام الماضي، عند الفجر. وعندئذ فقط أدرك لماذا قرّر أن يكون تنفيذ حكم الإعدام في الباحة، لا عند سور المقبرة. فقد كان فصيل الإعدام مصطفاً مقابل الباب. فأدى له الجنود تحية رئيس دولة. فأصدر الأمر قائلاً :

ـ بوسعهم أن يخرجوه الآن.

(٩)

لقد كان العقيد جيرينيلدو ماركيز أول من أدرك فراغ الحرب وعبثها. فقد كان، بصفته حاكماً عسكرياً ومدنياً لبلدة ماكوندو، يتحدث تليغرافياً مع العقيد أوريليانو بوينديا مرتين في الأسبوع. وكانت تلك المحادثة، في البدء، تتناول تطورات الحرب على حقيقتها، وبتفاصيلها، وتحديدات ملامحها على الأيام. وكانت تلك المكالمات تتيح لهم، في كل لحظة، معرفة الوضع الدقيق للحرب، والتنبؤ بمسيرتها في المستقبل. وكان العقيد أوريليانو بوينديا يحرص دائماً على الحفاظ على لهجته الودية، مما يمكن سامعه من تبين صوته ومعرفته على الطرف الآخر للخط، ولو أنه لم يكن يسمح قط بأن تصل الأمور إلى رفع الكلفة بينه وبين أصدقائه المقربين. وكثيراً ما كان يطيل تلك المكالمات، متجاوزاً الوقت المحدّد لها، فيتحدث في أمور ذات طبيعة عائلية. ولكن صورته كانت قد بدأت تذبل وتغرق في عالم اللاواقع، بقدر ما كانت الحرب تشتد ويتسع مداها. فجعلت خصائص حديثه، ونبرات صوته، تغمض شيئاً فشيئاً، وتبتعد عن اليقين، فتختلط كلماته، بعضها ببعض، حتى تصبح بلا حس ولا معنى. وكان العقيد جيرينيلدو ماركيز يكتفي، في مثل تلك الحالات، بالإصغاء البحت، بينما يزداد شعوره بأنه يتحادث مع مجهول من عالم آخر. فكان ينهي مثل تلك المحادثات، بإدارة مفتاح الجهاز مغلقاً إياه، وهو يقول :

ـ فهمت يا أوريليانو. عاش حزب الأحرار.

وانتهى أمره إلى أن فقد كل صلة له بالحرب، وفقد ما كان لديه، في الزمن الغابر، من فعالية حقيقية، وعاطفة شباب لا تقاوم، فلم يبق له من كل ذلك إلاّ أثر يدخل في باب الذكريات البعيدة، يحيط به الغموض. وكان ملاذه الوحيد غرفة أمارانتا المخصصة للخياطة. فكان يذهب لزيارتها كل يوم عصراً، فيرقبها وهي تعالج طيات الموسلين على آلة الخياطة ذات اليد، التي كانت تديرها ريميديوس الجميلة. وكانا يمضيان الساعات الطوال دون أن يكلم أحدهما الآخر، وكأنهما قد عزما على أن يحافظ الواحد منهما على رفقة صاحبه ليس إلاّ. وفيما كانت أمارانتا تسعد، في قرارة نفسها بإذكاء نار وفائه واستمرار إخلاصه، كان هو يجهل أية خطة خفية تمور في قلبها الذي لا يسبر غوره. فعندما انتشر خبر إيابه، كادت أمارانتا تختنق شوقاً لرؤيته. ولكنها، عندما شاهدته يدخل البيت بصحبة أخيها العقيد أوريليانو بوينديا وحرسه بضجيجهم وصخبهم، رأت فيه رجلاً قد أضنته حياة المنفى بقسوتها، وأشاخه العمر وأتعبه النسيان، وغمره العرق المختلط بالغبار، حتى لتشم فيه رائحة القطيع. وزاد في بشاعته أن يده اليسرى كانت مربوطة إلى عنقه. فانقشعت عنها غمامة الوهم، وشعرت كأنها يكاد يغمى عليها، وقالت في نفسها :

ـ يا إلهي. ليس هذا هو الرجل الذي كنت أنتظر.

ولكنه عاد إلى البيت، في اليوم التالي، نظيفاً، وقد حلق لحيته وعطّر شاربه بماء الخزامى، ونزع عن عنقه رباط يده الملطخ بالدم. وكان يحمل إليها كتاب صلوات هدية، له غلاف جلدي مرصع بالصدف. فقالت، دون وعي لما تقول :

ـ ما أغرب الرجال! يقضون أعمارهم في محاربة رجال الدين، بينما

يقدمون كتب الصلوات هدايا.

ومنذ ذلك الحين، حتى في أحلك أيام الحرب، كان يزورها كل يوم عصراً. وكان في كثير من الأحيان، وعندما تغيب ريميديوس الجميلة، يدير، بدلاً منها، عجلة آلة الخياطة. وكانت أمارانتا تشعر بالاضطراب والدهشة أمام ذلك الصبر والإخلاص والخضوع من رجل يتمتع بكل تلك السلطات. وكان يخلع سلاحه في صالة الجلوس، ويدخل إلى غرفة خياطتها دون سلاح. ولم يكف، طوال أربع سنين، عن التصريح لها بحبه، لكنها كانت دائماً تجد طريقة لصده دون أن تجرحه. ذلك أنها، وإن لم تتوصل إلى حبه، إلا أنها لم تكن تستطيع العيش دونه. ولم تكن ريميديوس الجميلة، التي كان يبدو عليها عدم الاهتمام بأي شيء، والتي كان يُظن أنها كانت متخلفة عقلياً، غير شاعرة بذلك الإخلاص والحب. فآثرت التدخل لصالح العقيد جيرينيلدو ماركيز. ثم اكتشفت أمارانتا فجأة أن تلك الطفلة، التي كانت تربيها، والتي لم تكد تتفتح بعد أو تدرك سن الرشد، هي أجمل مخلوق رآه البشر في ماكوندو. وأحسّت بشيء من الحقد يولد في قلبها، شبيهاً بذلك الذي أحست به يوماً إزاء ريبيكا. فراحت تصلي لله لكي لا تنزلق في حقدها إلى الدرجة التي تشتهي فيها موت ريميديوس. فأبعدتها عن مشغل الخياطة.

وصادف ذلك الوقت الذي كان العقيد جيرينيلدو ماركيز قد بدأ فيه يشعر بالضيق والتبرم من الحرب. فجمع كل طاقته، وقدرته على الإقناع، وكل حنانه الذي كان يخفيه في داخله حتى الآن، وأعلن استعداده للتخلي، من أجل أمارانتا، عن كل أمجاده التي كلفته أفضل سني عمره. ولكنه لم يفلح في إقناعها.

وفي عصر يوم من أيام شهر آب (أغسطس)، حبست أمارانتا نفسها في غرفة نومها، تحت وطأة عنادها الذي لا يطاق، وعزمت على أن

تندب حظها وتبكي وحدتها حتى الموت، بعد أن أعلنت لخاطبها الصبور الدؤوب رأيها الأخير، قائلة :

ـ لينس واحدنا الآخر إلى الأبد. فقد كبرنا عن مثل هذه الأمور.

بعد ظهر ذلك اليوم، اتصل العقيد أوريليانو بوينديا بالعقيد جيرينيلدو ماركيز. وكانت المكالمة محادثة عادية، لا تقدم ولا تؤخر في تطورات الحرب الراكدة. وقبيل انتهاء الحديث، وكان العقيد جيرينيلدو ماركيز يتأمل الطرقات المقفرة في البلدة، وقطرات الماء المتلألئة على فروع أشجار اللوز. وقد بدأ يحس بالضياع في وحدته، فقال لمحادثه وهو يدير الآلة حزيناً :

ـ أوريليانو، إن المطر يهطل في ماكوندو.

وأعقب ذلك صمت طويل. ثم اهتز الجهاز فجأة لكي ينقل عبارات العقيد أوريليانو بوينديا الجافة التي لا ترحم :

ـ لا تكن غبياً، يا جيرينيلدو. فطبيعي أن تمطر السماء في شهر آب (أغسطس).

وكان الرجلان لم يلتقيا منذ زمن طويل، فانزعج العقيد جيرينيلدو ماركيز من قسوة ردة الفعل. ولكن انزعاجه وقلقه انقلبا إلى دهشة وتعجب، عندما عاد العقيد أوريليانو بوينديا، بعد شهرين، إلى ماكوندو. فأورسولا نفسها استغربت التبدل الذي كان قد طرأ عليه. لقد وصل دون ضجة ولا حرس. وقد لفّ جسمه بدثار رغم الحرارة الشديدة، وكان بصحبته ثلاث عشيقات أسكنهن في غرفة واحدة، كان يقضي فيها معظم وقته راقداً في أرجوحته. وكان يكاد لا يقرأ حتى البرقيات التي تنقل إليه أنباء عمليات الحرب الرتيبة. وذات يوم، جاءه العقيد جيرينيلدو ماركيز، ليسأله رأيه في إخلاء نقطة حدودية، حيث كان الخطر بأن تنقلب الحرب بسببها إلى صراع دولي. فأمره قائلاً :

- لا تزعجني بهذه الصغائر. أطلب النصح من العناية الإلهية.

كانت تلك أكثر مراحل الحرب حرجاً. فقد أخذ الملاكون الأحرار، الذين أيدوا الثورة في البدء، يعقدون اتفاقات مع الملاكين المحافظين، للحيلولة دون إعادة النظر في سندات الملكية. أما السياسيون، الذين كانوا يسهرون في الحرب على مصالحهم وهم في المنفى، فقد أعلنوا معارضتهم لقرارات العقيد أوريليانو بوينديا الحازمة. ولكنه لم يعر اعتراضاتهم أدنى اهتمام. وأهمل قراءة أشعاره التي كانت تملأ خمسة دواوين، وكانت مهجورة في قعر صندوق خاص بها. وعند المساء، أو في وقت القيلولة، كان يدعو إحدى نسائه لقضاء بعض الوقت معه، فيتلذذ بها لذة عارضة، ثم ينام نوماً عميقاً لا يؤرقه فيه اهتمام بأي شيء. كان هو وحده الذي يعلم أن قلبه قد أفعم بالدوار، وقد قضي عليه بعدم اليقين إلى الأبد.

في البداية، أسكرته نشوة العودة، والانتصارات المذهلة، فترك نفسه على هواها مشدوهة بهوّة العظمة. كان يسعده أن رفيقه ويده اليمنى هو الدوق مارلبورو، أستاذه في فن الحرب، والذي كانت بزته الفاخرة، المصنوعة من الفرو ومخالب النمر، تبعث في الكبار مشاعر الاحترام، وتثير في الصغار مشاعر الرهبة.

وعندها قرّر ألاّ يقترب منه أي إنسان، حتى أمه أورسولا، إلى ما دون ثلاثة أمتار. حتى إذا حضر إلى أي مكان، سارع أعوانه إلى رسم دائرة حوله، بطبشور الحوار، لا يتخطاها أحد سواه، حيث يقف ليقرر، مصير العالم، بأوامر مقتضبة لا رجعة فيها ولا اعتراض عليها. ولما ذهب إلى مانور، للمرة الأولى، بعد إعدام اللواء مونكادا، سارع إلى تلبية الرغبة الأخيرة لضحيته. فأخذت الأرملة النظارة والوسام والساعة والخاتم، ولكنها لم تسمح له بأن يطأ عتبة بيتها. فقالت له :

- لا تستطيع الدخول، أيها العقيد. فقد تكون قائداً في حربك، ولكنني قائدة بيتي.

ولم يبد العقيد أوريليانو بوينديا أية إمارة للغضب، ولكن روحه لم تعرف الهدوء إلاّ عندما نهب حرسه الخاص بيت الأرملة وحوّلوه إلى رماد.

كان العقيد جيرينيلدو ماركيز يقول له آنئذ :

- انتبه لقلبك، يا أوريليانو. فأنت تتعفّن وأنت حيّ.

وفي تلك الفترة، دعا قادة الثوار الرئيسيين إلى مؤتمر ثان. فوجد بينهم كل أشكال البشر وأنماطهم المختلفة : المثاليين، والطموحين، والمغامرين، والمنبوذين الحاقدين، والمجرمين العاديين. بل لقد كان بينهم موظف محافظ سابق لجأ إلى الثورة تخلصاً من حكم صدر بحقه لسرقته أموال الدولة. ولم يكن الكثيرون منهم يعرفون لماذا يقاتلون. وسط ذلك الاجتماع المتعدد الألوان، والذي كادت دوافعه المتعارضة تؤدي إلى انفجار داخلي، برزت شخصية ذات سلطة غامضة : اللواء تيوفيلو فارغاس. كان هندياً قحاً بكل عروق دمه، متوحشاً غير مدجّن، أمياً، موهوباً ببصيرة وإيمان ومهنة طبيعية، كانت تثير حماسة رجاله الهوجاء.

كان هدف العقيد أوريليانو بوينديا، من ذلك المؤتمر، توحيد قيادات الثوار ضد مناورات السياسيين. فتجاوز اللواء تيوفيلوفارغاس مقاصده. وفي ساعات من وقت المؤتمر استطاع أن يفكّك التحالفات القائمة بين أفضل القادة المؤهلين، وأن يقيم بدلاً منها تحالفات أخرى تولى قيادتها العليا بنفسه. وقد قال العقيد أوريليانو بوينديا لضباطه، تعليقاً على ما كان يلحظه :

- إنه وحش شرس، ويجب مراقبته والحذر منه. فهذا الرجل أخطر علينا من وزير الحربية. وعندها رفع أحد النقباء الشباب، وكان يتميز

دائماً بخجله ؛ رفع إصبعه بتأنٍّ وتردد، واقترح قائلاً :

ـ الأمر بسيط، أيها العقيد. يجب قتله.

ولم يضطرب العقيد أوريليانو بوينديا نتيجة للؤم هذه الفكرة وبرودتها، وإنما من الطريقة التي جاءت بها. فقد سبقت، بجزء من الثانية، أفكاره هو. فقال :

ـ لا تتوقعوا مني أن أصدر أمراً بذلك.

والواقع أنه لم يصدر بذلك أمراً، ولكن اللواء تيوفيلو فارغاس وجد بعد خمسة عشر يوماً وقد قطع إرباً. فقد قطعته ضربات من فأس إثر كمين نصب له. فتسلم العقيد أوريليانو بوينديا القيادة العليا. وفي الليلة التي اعترف فيها قادة الثوار بسلطته، استفاق راجفاً وهو يصيح طالباً دثاراً. فقد اجتاحه برد داخلي حتى العظم، يعذبه والشمس طالعة. الأمر الذي كان يحول دون نومه شهوراً بطولها، حتى تكيف لوضعه هذا وتعوّد عليه. وهكذا أخذت الأحداث المرة تفسد عليه نشوة السلطة. فبحث عن دواء للبرد. فلم يجد إلاّ إعدام الضابط الشاب الذي سبق له أن اقترح قتل اللواء تيوفيلوفارغاس. وكانت أوامره تنفذ قبل أن يصدرها، بل أحياناً حتى قبل أن يتصورها، وتشتط أكثر مما كان يجرؤ عليه هو نفسه. وظل بانفراده في خضم سلطات هائلة ، فبدأ يفقد توازنه.

كان أحياناً يغضب من سكان القرى المجاورة الذين كانوا يحيونه : فقد كانوا عنده نفس الذين يحيون العدو. وكان أنّى حلّ يلتقي بفتيان ينظرون إليه بعينيه ويتكلمون بصوته، ويسلّمون عليه بنفس الحذر الذي كان يرد به على سلامهم، ويزعمون أنهم أبناؤه. فأحسّ بأنه موزّع يكرّر نفسه ويجترها، وبأنه كان وحيداً أكثر من أي وقت مضى. وتولدت لديه قناعة بأنّ ضباطه الخاصين يكذبون عليه. واختصم مع الدوق مارلبورو، وصار

يردد :

ـ إن خير الأصدقاء من مات أخيراً.

وأتعبته ظنونه، وحلقة الحرب المفرغة الدائمة، التي كان يواجهها دائماً في هذا المكان أو ذاك. حتى الأمكنة نفسها كانت تبدو وقد شاخت أكثر فأكثر كلما عاد إليها، بل تبدو أكثر خراباً، وأشد جهلاً. فلماذا؟ وكيف؟ وإلى متى؟ فلقد كان هناك دائماً شخص آخر خارج الدائرة المرسومة بطبشور الحوار، شخص ما بحاجة للمال، شخص كان له ابن مصاب بالسعال الديكي، أو شخص ما كان يريد أن يذهب بلا رجعة لينام نومة أبدية، لأنه لم يعد يطيق طعم الحرب النتن في فمه، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يجمع آخر قواه لكي يؤدي التحية العسكرية، ويقول :

ـ كل شيء عادي، سيدي العقيد. لا شيء جديد.

ولم يكن هناك أفظع من تلك الرتابة «الأشياء عادية» و «كل شيء على حاله» و «لا شيء جديد»، وأشد منها إثارة للمخاوف في تلك الحرب التي لا تعرف نهاية. . فمعنى ذلك أن تتوقف عربة الزمن، فلا تحدث أية أشياء.

وهكذا كان وحيداً، وقد تخلت عنه النبوءات، يحاول الفرار من البرد الذي لم يفارقه حتى موته. ولذلك عاد إلى ماكوندو، يبحث عن ملاذ أخير حيث يعيش في حرارة ذكرياته القديمة. وقد بلغ من عضال مرضه وشدته ، أنه لما أخبروه بقدوم لجنة مفوّضية الحزب ، جاءت لتناقش معه الاتجاهات التي ينبغي أن تأخذها الحرب بعد جمودها، تململ في أرجوحته دون أن يستيقظ تماماً، وقال :

ـ خذوهم إلى بيت البغايا.

كانوا ستة محامين، يلبسون المعاطف الفاخرة والقبعات العالية.

ويحتملون بذلك حرارة شمس تشرين الثاني (نوفمبر) بصبر وتأمل رواقيّ. فاستضافتهم أورسولا في بيتها، وكانوا يقضون معظم نهارهم، داخل غرفة مغلقة، في مناقشات سرية. حتى إذا جنّ الليل طلبوا حرساً ومجموعة من الأكورديونات، وذهبوا إلى مخزن كاتارينو. وقد أمر العقيد أوريليانو بويندیا قائلاً :

ـ دعوهم وحدهم. فأنا أعرف، في النهاية، ماذا يريدون.

وفي أوائل كانون الأول (ديسمبر)، تمّ اللقاء الذي طال انتظاره، ولم يستغرق أكثر من ساعة، مع أن الكثيرين كانوا يتخيلون أنه سيتمخض عن مناقشات ومجادلات لا تعرف النهاية.

رفض العقيد أوريليانو بويندیا، هذه المرة، أن يجلس وسط دائرة الطبشور الحواري التي رسمها له مساعدوه في صالة الجلوس الدافئة، قريباً من بقايا البيانو الآلي. وقد اتخذ له مقعداً بين مستشاريه السياسيين، وزمّل نفسه بدثار من الصوف، وأصغى صامتاً إلى مقترحات المندوبين الموجزة.

كانوا يطلبون، أولاً، إعادة النظر في صكوك الملكية لكي يحصلوا على تأييد الملاكين الأحرار، ويطلبون، ثانياً، التخلي عن الكفاح ضد سلطة رجال الدين، علهم يحصلون على تأييد الجماهير الكاثوليكية. ويريدون، أخيراً، الحفاظ على سلامة الأسرة، والتراجع عن القول بالمساواة بين الأولاد الطبيعيين والأولاد الشرعيين.

وكان تعليق العقيد أوريليانو بويندیا، بعد أن انتهت قراءة المقترحات، أن ابتسم، وقال :

ـ هذا يعني أننا لا نقاتل إلاّ من أجل السلطة. فأجاب أحد المبعوثين :

ـ هذه تغييرات تكتيكية وإصلاحات مرحلية. فالهدف الرئيس حالياً هو توسيع القاعدة الشعبية للحرب، وبعدها ستكون لنا نظرة ومراجعة

أخرى.

فسارع أحد مستشاري العقيد أوريليانو بويندیا السياسيين ليقول :

ـ هذا تناقض. فإذا كانت هذه التغييرات جيدة، فذلك يعني أن النظام المحافظ جيد. وإذا كنا بفضلها سنتوصل إلى توسيع القاعدة الشعبية للحرب، فكأنكم تقولون ما يعني أن النظام المحافظ يستند إلى قاعدة شعبية واسعة. وكل هذا، بالتالي، لا يعني إلاّ أننا قد كافحنا وقاتلنا طوال عشرين عاماً تقريباً ضد عواطف الأمة.

وأراد أن يتابع، ولكن العقيد أوريليانو بويندیا أوقف حديثه بإشارة منه، وقال :

ـ لا تضيع وقتك يا دكتور. فالمهم أننا، منذ هذه اللحظة، لن نقاتل إلاّ من أجل السلطة.

ثم تناول الوثائق والأوراق التي قدمها له المبعوثون، دون أن يكف عن الابتسام، واستعدّ للتوقيع. ثم خلص إلى القول :

ـ فما دامت الأمور على ما هي عليه، فلا مانع لدينا من القبول.

فتبادل رجاله النظرات، بعضهم إلى بعض، مستغربين. وقال العقيد جيرينيلدو ماركيز بلطف وهدوء :

ـ معذرة، سيادة العقيد. ولكن هذه خيانة.

فتوقفت الريشة المغموسة بالحبر في يد العقيد أوريليانو بويندیا، وجمع العقيد كل ثقل سلطته، وأصدر إليه أمره قائلاً :

ـ سلم سلاحك.

وقام العقيد جيرينيلدو ماركيز، فوضع سلاحه على الطاولة، بينما تابع العقيد أوريليانو بويندیا قوله له :

ـ إذهب إلى الثكنة، وضع نفسك ثم وقّع البيان، وناول الأوراق

للمبعوثين، قائلاً لهم :

ـ تلك هي أوراقكم أيها السادة. فأرجو أن تحصلوا منها على بعض الفائدة.

وبعد يومين مما حدث، حكم على العقيد جيرينيلدو ماركيز بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى. ورفض العقيد أوريليانو بوينديا، وهو متهالك في أرجوحته، الرجاء المقدم إليه من كل من جاؤوا يسألونه الحلم والرأفة. وعشية تنفيذ الحكم، خرقت أورسولا أوامر العقيد بألا يزعجه أحد. فدخلت عليه غرفته، وقد زادتها ثياب الحداد التي ارتدتها جلالاً وهيبة نادرة . وظلت واقفة خلال المقابلة التي دامت دقائق ثلاثاً . وقالت له بهدوء وصفاء :

ـ أعرف أنك سوف تعدم جيرينيلدو، وأني لا أستطيع عمل شيء لردك عن ذلك. ولكنني جئت لكي أحذرك وأنذرك : فأقسم لك برفات أبي وأمي، وبذكرى خوزيه أركاديو بوينديا، وأمام الله، أنني ما إن أرى جثته حتى أخرجك من وكرك أنى اختبأت، وأقتلك بيديّ الاثنتين.

وقبل أن تغادر الغرفة، ودون أن تنتظر أي جواب، أضافت قائلة :

ـ وهذا ما كنت سأفعله لو أنك ولدت بذنب خنزير.

وفي تلك الليلة التي طالت، حتى كادت لا تعرف نهاية، وبينما كان العقيد جيرينيلدو ماركيز يستعيد آصال تلك الأيام الخوالي، والتي كان يمضيها مع أمارانتا في مشغل الخياطة، كان العقيد أوريليانو بوينديا يقضي الساعات الطوال، وهو يحفر بأظافيره قشرة وحدته القاسية، بينما يحدوه الأمل بأن يستطيع فصم عراها. وكانت لحظات السعادة القليلة عنده، منذ أصيل ذلك اليوم البعيد الذي اصطحبه فيه أبوه كي يشاهد الجليد، هي اللحظات التي كان يقضيها في مشغله لصياغة الفضة، حيث كان يمضي وقته، وهو يصوغ السمكات الصغيرة، ولقد أشعل اثنين وثلاثين

حرباً، ونكث بكل عهوده مع الموت، وتمرّغ كالخنزير على مزابل المجد، فعل كل ذلك لكي يكتشف متأخراً، وبعد ما يقرب من أربعين عاماً، فضائل البساطة.

وعند الفجر، وبعد أن حطّمه العذاب في تلك الليلة المؤرقة، ظهر في الزنزانة، قبل ساعة واحدة من موعد تنفيذ الإعدام فقال للعقيد جيرينيلدو ماركيز :

ـ لقد انتهت المهزلة، أيها الصديق العزيز القديم. فدعنا نرحل قبل أن يقتلك البعوض هنا.

ولم يستطع العقيد جيرينيلدو ماركيز أن يخفي الازدراء الذي أوحى له به ذلك الموقف. فأجاب :

ـ لا أوريليانو. أفضل الموت على أن أراك قد استحلت إلى طاغية جزار.

فقال العقيد أوريليانو بوينديا :

ـ لن تراني كذلك. هيا البس حذاءك، وساعدني على وضع حد لهذه الحرب القذرة.

ولم يكن يخطر له أن إشعال الحرب أسهل بكثير من إنهائها. فقد اضطر لأن يتخذ مظهر الدموي الشرس الذي لا يعرف اللين طوال عام بكامله، لكي يكره الحكومة على عرض شروط ملائمة للثوار. كما قضى عاماً آخر كي يتمكن من إقناع أنصاره ومحاربيه بأن المصلحة تقضي بقبول تلك الشروط. وقد بلغت القسوة عنده حدوداً لا يمكن أن يتخيلها المرء، عندما عزم على القضاء على ثورة ضباطه الخاصين الخلّص، الذين ثاروا عليه يعارضون المساومة على النصر. وانتهى به الأمر إلى الاستعانة بقوات العدو كي يقضي عليهم.

ولم يتميز عمره كمحارب كما تميز خلال تلك الفترة. فقد أشعل نار حماسته إيمانه بأنه إنما يقاتل من أجل تحرير ذاته، لا من أجل مثل عليا مطلقة، ولا من أجل شعارات السياسيين، الذين يحولونها كيفما طاب لهم : حتى درجة تبني ما يناقضها، حسب المناسبة. وكثيراً ما كان يعيب عليه تهوره اللا مجدي صديقه العقيد جيرنيلدو ماركيز، الذي كان يناضل من أجل الهزيمة بالإيمان نفسه الذي كان يقاتل به من أجل النصر. ولكنه كان يجيبه وهو يبتسم قائلاً :

ـ لا تقلق. فالموت أصعب مما يمكن أن يتصوره الإنسان. وقد كان ذلك صحيحاً في حالته. فلقد منحه إيمانه الاعتقاد بأن نهايته لا تحين إلا في ساعة محتومة، نتيجة لحصانة غير مرئية، وخلود مقدّر بأجل. فبات لا تضر به أخطار المعارك التي يخوضها. وأخيراً تمكن من الفوز بهزيمة كانت أكثر صعوبة، وأشد دموية، وأعظم ثمناً مما كلفه النصر إياه.

وقد كان العقيد أوريليانو بوينديا يعود إلى البيت، من حين لآخر، عشرين عاماً من الحرب. ولكن السرعة التي كان يصل بها دائماً، ومظاهر القوة التي كانت تحيط به، حيثما حلّ، والهالة الأسطورية التي كانت تعظم شأن وجوده، فتتأثر بها أمه أورسولا نفسها ؛ كل ذلك كان يجعل منه غريباً في داره.

أما في المرة الأخيرة التي وصل فيها إلى ماكوندو، وأقام في بيت آخر، مع محظياته الثلاث، فلم يزر بيت الأسرة سوى مرتين أو ثلاث، كان يفرغ فيها نفسه ويقبل الدعوة للغداء. وما كانت تعرفه ريميديوس الجميلة، ولا التوأمان(١) اللذان ولدا في الحرب إلا معرفة سطحية. حتى أمارانتا لم تكن قادرة على المواءمة فيه، بين صورة الأخ الذي قضى فتوته

(١) الثلاثة هم أبناء أركاديو، الذي هو ابن أخيه خوزيه أركاديو، والذي حكم ماكوندو في غيابه.

في مشغله يصنع سمكات ذهبية صغيرة، وبين الأخ المحارب الخرافي، الذي وضع بينه وبين سائر الإنسانية مسافة عشر أقدام (ثلاثة أمتار).

ولما شاع أن الهدنة قد أصبحت قريبة، وعندما تخيل أهله أنه سيعود إلى سابق سيرته الإنسانية، وسيرجع إلى حب أهله، استيقظت العواطف العائلية، التي كانت قد غفت طويلاً، وظهرت من جديد وبأقوى مما كانت عليه في يوم من الأيام. فقالت أورسولا :

ـ وأخيراً، سوف يكون لنا رجل في البيت من جديد.

وكانت أخته أمارانتا أول من ذهب بها الظن إلى أنهم قد فقدوه إلى الأبد، وألاّ حيلة لهم فيه. كان ذلك عند إيابه ودخوله البيت، قبل موعد الهدنة بأسبوع، دون أن يصحبه حرس، بل يتقدمه خادمان حافيان، وضعا عند عتبة البيت سرجاً أنزلوه عن ظهر البغل، كما أنزلوا الصندوق الذي كان يحتوي على أشعاره. وكان ذلك آخر ما تبقى له من أمتعته الامبريالية. ورأته أمارانتا يمر قرب باب مشغل الخياطة، فنادته. فبدا على العقيد أوريليانو بوينديا أنه يجد صعوبة في معرفتها وتذكرها. فقالت له مداعبة وفرحة سعيدة برجوعه :

ـ أنا أمارانتا.

ثم أرته اليد المربوطة بالعصابة السوداء، قائلة :

ـ انظر.

فابتسم لها العقيد أوريليانو بوينديا نفس ابتسامة ذلك اليوم الذي رأى فيه العصابة لأول مرة، وكان ذلك في صباح اليوم الذي رجع فيه إلى ماكوندو محكوماً عليه بالإعدام. وهتف قائلاً :

ـ يا للهول ! كيف يمرّ هذا الزمن !.

كان على قطعات من الجيش النظامي أن تحرس بيته. فقد سخر منه

الناس، وبصقوا حيث كان يمرّ. فقد اتهموه بأنه إنما أثار الحرب وهو لا يستهدف منها إلاّ القضاء عليها بأيّ ثمن. كان يرتعش برداً وحمى، وقد امتلأ إبطاه، من جديد، بالدمامل والبثور.

ولما سمعت أورسولا، قبل ستة أشهر خلت بقرب الهدنة، فتحت غرفة عرسه ونظفتها، وأحرقت في زواياها نبات المر، ظناً منها أنه عائد كي يقضي شيخوخته بهدوء، بين ألعاب ريميديوس(١) القديمة. والحق أنه، في السنتين الأخيرتين، قدّم للحياة، كل ديونه المستحقة، ومنها ديون الشيخوخة. ولما مرّ أمام مشغل الصياغة، وكانت أورسولا قد رتبته بعناية خاصة، لم يلحظ أن مفاتيحه كانت ما تزال في أقفالها. ولم ير كذلك آثار الزمن الحزينة الصغيرة التي خلفها وراءه، والتي يمكن أن تبدو، بعد ذلك الغياب الطويل، كارثة فادحة لمن ظلت الذكريات حيّة في نفسه. ولم يتألم لتساقط الطلاء عن الجدران، ولا لخيوط العنكبوت المتعفنة في الزوايا، ولا للغبار المتراكم على أزهار البيجونيا، ولا للشقوق والحفر التي أحدثتها الحشرات والديدان في خشب عوارض السقف، ولا للأشن الذي نبت في رزز الأبواب. ولم يؤثر فيه أي مكمن للحنين كان يترصده. فجلس في الشرفة متلفعاً بدثاره، دون أن ينزع حذاءه الطويل الساق، كأنما هو ينتظر بادرة صحو تدعوه للنهوض. وأمضى ما بعد الظهر كله يرقب المطر المتساقط من السماء على أزهار البيجونيا. وأدركت أورسولا أنها لن تحتفظ به في البيت طويلاً. وفكرت في نفسها قائلة :

ـ إن لم تأخذه الحرب فسوف يأخذه الموت. وبدا لها أن تفكيرها صاف ومقنع حتى عدّته نبوءة.

في ذلك المساء، وعلى مائدة العشاء، قطع أحد التوأمين، الذي أسموه أوريليانو الثاني، خبزه بيده اليمنى، بينما احتسى الشورباء بيده

(١) زوجته التي لم تعمر طويلاً.

اليسرى. وقطع أخوه، الذي أسموه أركاديو الثاني، خبزه بيده اليسرى، واحتسى الشورباء بيده اليمنى. وكانت حركاتهما متناسقة بدقة، حتى ليظن من يراهما أنهما ليسا أخوين جلس أحدهما قبالة الآخر، بل لعبة تجلس أمام مرآة. وقد اخترع التوأمان ذلك المشهد منذ أن أدركا تشابههما التام، ومثّلاه على شرف القادم الجديد. ولكن العقيد أوريليانو بوينديا لم ينتبه لذلك. كان يبدو غريباً وبعيداً عن كل شيء، حتى إنه لم يلاحظ ريميديوس الجميلة عندما مرّت عارية إلى غرفتها. ولم يجرؤ أحد على تعكير استغراقه وتأمله في أفكاره، سوى أورسولا. فقد قالت له في منتصف العشاء :

ـ إذا كنت تريد أن ترحل مرة أخرى، فحاول على الأقل، أن تذكر كيف كنا هذا المساء.

وعندها أدرك العقيد أوريليانو بوينديا، دون اندهاش ولا مفاجأة، أن أورسولا كانت الإنسان الوحيد الذي استطاع أن يسبر غور بؤسه. وتجرأ، للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، أن ينظر إليها وجهاً لوجه. كان كل جسمها غضوناً وتجاعيد، وكانت أسنانها منخورة، وقد حال شعرها فبات لا لون له، وانطفأ البريق الذي كان في نظراتها. فقارنها بأقدم صورة لها في ذاكرته. فعاد إلى عصر ذلك اليوم، حين شعر أن قدر المرق يكاد يسقط عن الطاولة. وما كان تذكره هذا إلا ليرى صورتها مِزقاً. وفي مثل لمح البصر، تبيّن ما خلفته فيها معيشة نصف قرن من الزمن، من خدوش وجراح وآثار بارزة وقروح وندوب، وتبيّن أن منظر هذا التهدم والانحطام لم يوقظ في نفسه أيّ إحساس بالشفقة.

وبذل أقصى جهده وهو يبحث في قلبه عن المكان الذي تعفن فيه حبه واحتراماً، ولكنه لم يجد لذلك سبيلاً. فقد كان في الماضي يخالجه شعور معقد بالخجل، عندما يكتشف في جلده رائحة أورسولا. ولقد أحسّ

أحياناً كثيرة، بأفكارها تلتقي بأفكاره. ولكن الحرب قد طوت كل ذلك. حتى ريميديوس، زوجته نفسها، لم تعد الآن سوى صورة مهزوزة لمخلوقة كان يمكن أن تكون ابنته. وأما النساء اللواتي عرفهن في صحراء الحب، وبعثرن بذوره على طول الشاطىء، فلم يخلفن أي أثر في قلبه. فقد كان أكثرهن يدخلن غرفته في حالك الظلام ويغادرنها قبل الفجر، فلا يبقى منهن غير بعض القرف والاشمئزاز في ذاكرة الجسد. أما العاطفة الوحيدة التي قاومت الزمن والحرب، فقد كانت تلك التي كان يحملها لأخيه خوزيه أركاديو عندما كانا طفلين. ولم تكن تلك العاطفة مبنية على الحب، بل على التفاهم والوفاق.

فعلق على مطلب أورسولا معتذراً بقوله:

ـ آسف، وأستميحك العذر. فالواقع أن الحرب قد أودت بكل شيء.

أمضى الأيام التي تلت، وهو يعمل على محو كل أثر لمروره في هذا العالم. فجرّد مشغل الصياغة الفضية من كل أثر شخصي، وأعطى ملابسه لخادميه، ودفن سلاحه في فناء الدار، بنفس الشعور من الندم الذي دفن فيه أبوه، ذات يوم، الرمح الذي قتل به برودينسيو أجويلار(١). ولم يبق إلا على مسدّس واحد وطلقة واحدة فيه. ولم تتدخل أورسولا. فالمرة الوحيدة التي حاولت فيها أن تثنيه عن فعلٍ ما كانت حين أراد أن يحطم صورة زوجته ريميديوس، التي كانت ما تزال في صالة الجلوس يضيء أمامها مصباح خارجي. عندها قالت له:

ـ لم تعد هذه الصورة ملكاً لك. منذ زمن طويل. إنها أثر من آثار العائلة.

وعشية الهدنة، وحين لم يبق في البيت ما يذكر به، ذهب إلى المطبخ، وهو يحمل صندوق أشعاره، في الوقت الذي كانت فيه سانتا

(١) كان ذلك إثر جولة من صراع الديكة.

صوفيا (التقية) تستعدّ لإشعال الموقد. فقال لها، وهو يناولها أول لفافة من الأوراق المصفرّة:

ـ أشعليه بهذه. فهذه أشياء قديمة أفضل اشتعالاً من سواها.

وشعرت سانتا صوفيا، وهي اللطيفة الصامتة أبداً، والتي لم تتعوّد أن تعارض أحداً حتى ابنيها الصغيرين، أنه يطلب منها أمراً غريباً لا يسمح به، فقالت له:

ـ هذه أوراق هامة.

فأجابها العقيد:

ـ لا، ليست هامة. فهي أشياء يكتبها المرء لنفسه. فقالت له:

ـ إذن، فأحرقها أنت أيها العقيد.

ولم يحرقها وحسب، بل حطم الصندوق بالقدوم، ورمى بقطعه إلى النار. وكانت، قبل ذلك بساعات، قد جاءت بيلار تيريزا لزيارته. فعجب لها العقيد أوريليانو بويندیا، فهو لم يرها منذ سنين طويلة. فكانت قد شاخت وسمنت، وفقدت ضحكتها المجلجلة الرائعة. ولكن الذي أدهشه كذلك هو مدى العمق الذي بلغته في قراءة ورق اللعب. فقالت له:

ـ حذار فمك.

وقد تساءل عما إذا كانت المرة الأخيرة، عندما قالت له ذلك وهو في ذروة مجده وعظمته، نوعاً من الرؤيا الإلهامية المفاجئة بقدره. وبعد قليل وصل طبيبه الخاص كي يكمل له عملية استئصال الدمامل والبثور من تحت إبطيه. فسأله سؤالاً عفوياً، كأنما لا يعلق عليه أية أهمية، عن الموضع الدقيق لقلبه. ففحصه الطبيب ثم رسم له دائرة بصبغة اليود على صدره.

أطل يوم الثلاثاء، يوم إعلان الهدنة، رطباً ماطراً. ودخل العقيد أوريليانو بوينديا إلى المطبخ في الساعة الخامسة صباحاً، فشرب قهوته حسب عادته. فقالت له أورسولا :

ـ لقد جئت إلى الدنيا في يوم كهذا. وقد أخفت الناس جميعاً بعينيك المفتوحتين.

فلم يدرك شيئاً مما قالته، فقد كان اهتمامه منصباً على استعدادات الجيش، وأصوات أبواق النفير، وإصدار الأوامر، التي كانت جميعاً تعكر صفاء الجو عند الفجر. وكان الطبيعي أن تبدو له تلك الجلبة شيئاً عادياً، بعد كل السنين التي قضاها في الحرب، ولكنه شعر بركبتيه تصطكان وتضعفان، وبأمواج متتابعة من القشعريرة تجتاح جلده، وهو الشعور نفسه الذي أحس به، ذات يوم، بحضور امرأة عارية. وأخيراً وقع في مصيدة من مصائد الحنين، الذي يكاد لا يبين، عندما راح يفكر في ما لو أنه تزوج من تلك المرأة. أما كان يمكن له أن يغدو إنساناً سعيداً لا يعرف المجد والحرب، مجرد حرفيّ بلا اسم، مجرّد حيوان سعيد. ومنحت هذه الهزة المتأخرة طعام فطوره طعماً مراً، ما كان ينتظر قط أن تصيبه.

وعندما حضر العقيد جيرينيلدو ماركيز، في الساعة السادسة صباحاً، مع جماعة من الضباط، كي يصحبوه، ألفاه أكثر صمتاً، وأشد استغراقاً في أفكاره، وأكثر شعوراً بالوحدة من أي وقت مضى. وحاولت أورسولا أن تضع على كتفيه دثاراً جديداً، قائلة له :

ـ ترى ماذا سيظن رجال الحكومة. قد يظنون أنك إنما استسلمت لأنك لا تملك ثمن دثار تشتريه.

ولكنه لم يقبل. وعند عتبة الباب، رأى المطر ما يزال يهطل، فوضع على رأسه قبعة قديمة من المخمل، كانت يوماً لأبيه خوزيه أركاديو بوينديا. وعندها قالت له أورسولا :

ـ عدني بأنك، إذا صادفت وقتاً عصيباً سيئاً هناك، سوف تفكر بأمك.

فابتسم لها من بعيد، ورفع يده ملوّحاً بأصابعه المتباعدة، ودون أن ينبس ببنت شفة، غادر البيت، لكي يواجه صياح الناس، وصرخات الشتيمة والسب، وصب اللعنة، التي كانت تلاحقه حتى غادر البلدة.

أسقطت أورسولا عارضة الحديد خلف الباب، وهي عازمة على ألا ترفعها ما دامت على قيد الحياة. وقالت في نفسها :

ـ لتتعفن ونهترىء هنا في الداخل. فسوف نتحول إلى رماد في هذا البيت دون رجال. ولكننا لن نمنح هذه البلدة البائسة سعادة أن ترانا نبكي وننتحب.

وأمضت صباح اليوم بطوله تبحث عن ذكرى لابنها في أكثر الزوايا إيغالاً في البعد والنسيان، ولكنها لم تقع على شيء.

جرى الاحتفال على بعد خمسة عشر ميلاً من ماكوندو، في ظل شجرة كابوك ضخمة ، بنيت حولها ، فيما بعد ، بلدة نييرلانديا ، فاجتمع مندوبو الحزب والحكومة، ولجنة الثوار الذين كانوا يلقون أسلحتهم. وقام على خدمتهم جماعة من الراهبات المبتدئات النشيطات الصاخبات، بثيابهن البيضاء، كأنهن رفّ من الحمام أجفله المطر ووصل العقيد أوريليانو بوينديا على ظهر بغل يغطيه الوحل، دون أن يحلق ذقنه. فقد كان يعذبه، أكثر من بثور إبطيه، انهيار أحلامه. فقد بلغ الحدّ الذي لم يعد بعده أمل ، بلغ ما وراء المجد والحنين إلى المجد . وقد أذعنوا لأوامره بألا تعزف الموسيقى، وألا تطلق الأسهم النارية، وألا تقرع أجراس الفرح، وألا يصدر أي هتاف من أحد. فكان لا يريد أي شيء من شأنه أن يخدش جلال حزن الهدنة. حتى أجبر المصور الجوال الوحيد على إتلاف كل لوحاته السلبية لأنه التقط له صورة، كانت هي الوحيدة، التي كان

يمكن أن تبقى من بعده .

لم يستغرق الاحتفال سوى الوقت اللازم لتوقيع الوثائق. فقد وضعت طاولة مستديرة صدئة وسط خيمة السيرك المنصوبة لهذه الغاية، وقد جلس حولها المندوبون، وبينهم آخر الضباط الذين ظلوا على وفائهم للعقيد أوريليانو بوينديا. وقبل التوقيع حاول الممثل الخاص لرئيس الجمهورية أن يقرأ وثيقة التسليم بصوت عال، فعارضه العقيد أوريليانو بوينديا قائلاً :

ـ لا لزوم لإضاعة الوقت في الشكليات.

بينما استعدّ لتوقيع الأوراق دون قراءتها. ولكن أحد ضباطه قطع الصمت المهيمن على جو الخيمة كله، قائلاً :

ـ أيها العقيد، نرجو أن تتنزل عند رجائنا في ألاّ تكون أول الموقعين.

واستجاب العقيد أوريليانو بوينديا للرجاء، ودارت الوثيقة حول الطاولة دورة كاملة، في جو من الصمت المطبق، حتى ليكاد المرء يتبيّن التواقيع من صوت حركة الريشة على الورق. وظل مكان التوقيع الأول على الوثيقة فارغاً، واستعد العقيد أوريليانو بوينديا لملء الفراغ. وعندها قال ضابط آخر :

ـ أيها العقيد، ما يزال هناك متسع لعمل الصواب.

ولكن العقيد أوريليانو بوينديا وقّع النسخة الأولى، دون أن يبدو عليه أي تغير في ملامحه أو تعابيره. وما كاد ينتهي من ذلك، حتى بدا في مدخل الخيمة أحد العقداء الثوار، يجرّ بغلاً على ظهره صندوقان. وعلى الرغم من كونه شاباً في أول ريعانه، كان ذلك العقيد جافاً وإن بانت عليه علائم الصبر. كان هذا خازن الثورة في إقليم ماكوندو. وقد استغرقت رحلته ستة أيام، وهو يجرّ بغله الجائع، لكي يصل إلى المكان عند إعلان الهدنة. فأنزل الحمولة عن البغل بطريقة احتفالية، وفتح

الصندوقين، ثم وضع على الطاولة اثنتين وستين سبيكة ذهبية، واحدة بعد الأخرى.

وكان الناس جميعاً قد نسوا كل شيء عن تلك الثروة. ففي فوضى السنة الأخيرة، وبعد أن تمزقت القيادة العامة، وانتهت الثورة إلى نزاع بين قادتها، وضاعت المسؤولية حتى استحال تحديدها، بقيت ثروة الثورة من الذهب. فحوّل الذهب إلى سبائك غطيت بالفخار، وحفظت بحيث لا تصل إليها يد. وأدخل العقيد أوريليانو بوينديا سبائك الذهب الاثنتين والستين في محضر الاستسلام واللوائح المرفقة له، ثم أنهى الحفل دون أن يسمح لأحد بإلقاء خطاب. ولكن العقيد الشاب ظل واقفاً أمامه مسمّراً يحدق فيه بعينيه العسليتين الصافيتين. فسأله العقيد أوريليانو بوينديا :

ـ هل تريد شيئاً آخر؟.

فأجاب العقيد الشاب :

ـ نعم، الإيصال.

فكتبه له العقيد أوريليانو بوينديا بخط يده. وتناول قطعة من رقائق البسكوت، وكأساً من الليمون، مما قدمته الراهبات، ثم انسحب إلى خيمة عسكرية أقيمت له لكي يستريح فيها. وعندما دخل الخيمة، خلع قميصه وجلس على حافة السرير العسكري. وفي الساعة الثالثة والربع من بعد ظهر ذلك اليوم، تناول مسدسه وأطلق الرصاصة على نفسه في وسط الدائرة المرسومة بصبغة اليود، التي رسمها طبيبه الخاص على صدره . وفي تلك الساعة نفسها ، في ماكوندو ، رفعت أورسولا الغطاء عن قدر الحليب الموضوع فوق النار في الموقد. فقد دهشت لتأخرها عن الغليان. وفوجئت لما رأتها قد امتلأت دوداً، فصاحت :

ـ لقد قتلوا أوريليانو.

ثم رنت بنظرها نحو فناء الدار بحكم ما تعوّدته في وحدتها، فرأت زوجها خوزيه أركاديو بوينديا وقد بلله المطر.

وكان يبدو حزيناً تحت المطر، وقد طغت عليه الشيخوخة والعجز أكثر مما بدا عليه يوم مماته. فقالت أورسولا :

ـ لقد أطلقوا عليه النار من الخلف. ولم يكن حوله محسن يغمض له عينيه.

ولما زحف الليل وجنّ الظلام، رأت في السماء، من خلال دموعها، دوائر مشعة تتلاقى سريعة وامضة، شبيهة برجم الشهب، فظنت أنها نذر الموت. فظلت قابعة تحت شجرة الكستناء، تبكي وتنتحب في حضن زوجها، حتى أدخلوا العقيد أوريليانو بوينديا، ملفوفاً بدثاره الخشن الملطخ بدمه الجاف، وعيناه جاحظتان وتنضحان غضباً.

لقد نجا من الخطر. فقد سلكت الرصاصة مساراً أميناً، واستطاع الطبيب أن يدخل في صدره فتيلاً مبللاً باليود، وبعد أن أخرجه من الجرح في صدره، قال بسرور :

ـ هذه أعظم عملية أجريتها في حياتي. فهذا المسار هو الخط الوحيد الذي يمكن أن تمر منه الرصاصة دون أن تمس أي عضو حيوي.

ورأى العقيد أوريليانو بوينديا الراهبات، وهن يُحطن به، ويرتلن أناشيدهن الحزينة من أجل راحة نفسه. وقد شعر بالندم، عندئذ، لأنه لم يطلق الرصاصة في فمه كما كان عازماً، ولكنه لم يفعل لأنه لم يكن يريد أن يصدق نبوءة بيلار تيرنيرا.

فخاطب الطبيب قائلاً :

ـ لو بقي لي بعض السلطة لأعدمتك دون محاكمة. لا لأنك أنقذت حياتي، ولكن لأنك أظهرتني غبياً.

وأعادت له هزيمته أمام الموت، خلال ساعات قلائل، المكانة والعظمة اللتين فقدهما. أما الناس الذين أشاعوا عنه، اختلاقاً، أنه قد باع الحرب والثورة لقاء بيت جدرانه مصنوعة من سبائك الذهب، فقد جعلوا، هم أنفسهم الآن، يروون القصص عن محاولة انتحاره، وكيف أنها دليل على الشرف، معلنين أنه شهيد عظيم.

وعندما رفض وسام الاستحقاق الذي منحه إياه رئيس الجمهورية، زاره ألدّ أعدائه في غرفته، الواحد بعد الآخر، وجعلوا يطالبون بأن ينقض شروط الهدنة ويعلن الحرب من جديد. وقد غص البيت بهداياهم، لعلهم يزيلون آثار موقفهم المعادي في الماضي.

وأخيراً، وبسبب تأثره بدعم رفاق السلاح، لم يستبعد العقيد أوريليانو بوينديا احتمال الاستجابة لرغبتهم وإلحاحهم. بل ظهرت عليه، في بعض الفترات، حماسة طاغية لفكرة الحرب من جديد. حتى ظن العقيد جيرينيلدو ماركيز أنه لم يكن ينتظر سوى السبب والمناسبة لإعلانها.

وقد جاءت المناسبة عندما رفض رئيس الجمهورية أن تدفع للمحاربين القدماء، أحراراً كانوا أو محافظين، رواتبهم، مشترطاً تقديم ملف كامل تصادق عليه لجنة خاصة. وتلا ذلك أن صدر قانون جديد بالرواتب عن مجلس النواب. فأرعد العقيد أوريليانو بوينديا هادراً :

ـ هذا إخلال بالقوانين وخروج على الاتفاق وخرق له. فسوف يبلغون أرذل العمر في شيخوختهم قبل أن يصل البريد.

وللمرة الأولى، غادر مقعده الهزّاز، الذي اشترته له أورسولا في فترة النقاهة . وأملى ، وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، برقية لرئيس الجمهورية واضحة لا لبس فيها. وكانت برقيته، التي لم يذع نصها قط، تشكّل أول خرق لمعاهدة نيرلانديا، وتهدد باستئناف حرب لا هوادة فيها، ما لم

يقرر رئيس الجمهورية دفع الرواتب، خلال مدة أقصاها خمسة عشر يوماً. وقد كان من عدالة موقفه أنه كان يتوقع انضمام قدامى المحاربين المحافظين إليه. أما جواب الحكومة فلم يكن سوى مضاعفة الحرس على باب بيته، بحجة حمايته، ثم منع الناس من زيارته مهما كان سبب الزيارة. واتخذت احتياطات وإجراءات مشابهة، في مختلف المناطق، ضد القادة الذين كانوا قيد المراقبة. وقد أجريت هذه العملية في الوقت المناسب، وكانت جذرية وحاسمة، حتى إن أقوى معاوني العقيد أوريليانو بوينديا كانوا، بعد شهرين من توقيع المعاهدة، أي حين شفي من جرحه، بين ميت أو منفي، أو موظف مستوعب في إحدى دوائر الدولة.

غادر العقيد أوريليانو بوينديا غرفته في شهر كانون الأول (ديسمبر)، وما إن حانت منه التفاتة إلى الشرفة حتى أقلع عن التفكير في الحرب.

وجددت أورسولا شباب البيت، بحيوية ونشاط لا ينتظران ممن في مثل عمرها. وقالت بعد أن تأكدت أن ابنها سوف يعيش:

ـ والآن، سيرى الناس أي نوع من البشر نحن. فلن يجدوا داراً أفضل من دارنا، ولا بيتاً أكرم من بيتنا، بيت المجانين.

فقد نظفت الدار، وطلت الجدران، وغيّرت الأثاث، وزرعت الزهور الجديدة في كل مكان، وشرّعت النوافذ وفتحت الأبواب، كي يدخل، إلى كل أنحاء البيت، ضوء الصيف الرائع. ثم أعلنت نهاية للحداد المتكرر، وخلعت الثياب السوداء التي طالما ارتدتها، المرة تلو الأخرى. وجددت، هي ذاتها، زينتها، وثيابها القديمة الخشنة التي استبدلت بها ثياب الصبايا. وصدحت في الدار موسيقى البيانو الآلي، فأحالت جو البيت إلى فرح ومرح. فتذكرت أمارانتا، وهي تسمع الموسيقى، بيترو كريسبي وزهرة الغاردينيا المسائية ورائحة الخزامى المرافقة. فأزهرت في

خبايا قلبها الذاوي بقايا ذكرى صافية بفعل الزمن.

وذات يوم عصراً، وبينما كانت أورسولا تنظم صالة الاستقبال، طلبت المساعدة من أحد الجنود الذين كانوا يحرسون البيت، فأذن له قائده بذلك. وشيئاً فشيئاً، أخذت أورسولا تكلف الجنود أعباء أخرى، كما كانت تدعوهم أحياناً لتناول طعام الغداء، وتهديهم ثياباً، وتعلمهم القراءة والكتابة.

وعندما أنهت الحكومة قيود الرقابة، بقي أحد الجنود في البيت، وعاش في خدمته سنوات طويلة. وقد وقع قائد الحرس الشاب في حب رِعيديوس الجميلة، وجنّ بها جنوناً. ولكنها صدته، فقضى عشقاً، ووجد ميتاً تحت نافذتها. وكان ذلك لدى بزوغ فجر أول يوم في السنة الجديدة.

(١٠)

بعد سنين طويلة، تذكر أوريليانو الثاني، وهو على فراش الموت، عصر ذلك اليوم المطير من شهر حزيران (يونيه)، عندما دخل غرفة النوم ليرى ابنه الأول. وعلى الرغم من أن الطفل كان هزيلاً وبكاء، ولا تبدو عليه أي من ملامح آل بوينديا، فلم يتردد لحظة في الاسم الذي يطلقه عليه. فقال :

ـ سوف ندعوه خوزيه أركاديو(١).

ووافقت زوجته فيرناندا ديل كاربيو الجميلة، التي كان قد تزوجها منذ عام مضى. أما أورسولا فلم تتمكن من إخفاء شعورها بقلق غامض. فخلال تاريخ العائلة الطويل، ونتيجة لتكرار الأسماء بشكل ملحّ، تولدت لديها مشاعر، أوصلتها إلى نتائج كانت تظن أنها محتومة. فكل من كان يحمل اسم أوريليانو كان انطوائياً مغلقاً على ذاته ونافذ البصيرة. وكل من حمل اسم خوزيه أركاديو كان عصبياً ولكنه رقيق موسوم بالمأساة، ما عدا اثنين لم يمكن تصنيفهما، وهما خوزيه أركاديو الثاني وأوريليانو الثاني. فقد كانا، في طفولتهما متشابهين، كثيري الحركة والأذى، حتى إن أمهما سانتا صوفيا لم تكن تستطيع أن تميز أحدهما من الآخر. ولذلك عمدت أمارانتا، يوم تعميدهما، إلى وضع سوار في يد كل منهما، عليه الحروف الأولى من اسمه، وألبستهما ثياباً مختلفة.

(١) باسم جده، الرجل القوي.

ولكنهما عندما بدأ الذهاب إلى المدرسة، جعلا يتبادلان السوارين والثياب، ويدعو كل منهما الآخر باسمه. وحار في أمرهما معلم المدرسة، ملكيور إسكالونا، الذي اعتاد أن يميز خوزيه أركاديو الثاني بقميصه الأخضر. فلم يدر بأية ملائكة يستجير حين اكتشف أنه يلبس سوار أوريليانو الثاني، وأنّ الآخر يقول، كذلك، أن اسمه هو أوريليانو الثاني، على الرغم من أنه كان يلبس القميص الأبيض والسوار الذي يحمل اسم خوزيه أركاديو الثاني. ومنذئذ لم يعد يميز أحدهما من الآخر بشكل يقيني. بل إن أورسولا كانت تتساءل، بعد أن كبرا، وفرقت بين ملامحهما الحياة، ما إذا كانا هما نفساهما قد أخطآ، ذات مرة، في اللعبة التي كانا يلعبانها، فاتخذ الواحد منهما اسم الآخر إلى الأبد. وقد كانا، حتى بلغا سن الرشد، كأنهما آلتان موقوتتان. فكانا يستيقظان في اللحظة ذاتها، ويحسان، في اللحظة ذاتها، بالرغبة في قضاء حاجاتهما، وتصيبهما الانحرافات الصحية ذاتها، بل كانا يريان الأحلام ذاتها.

كان أهل البيت يظنون أنهما ينسقان حركاتهما، فيما بينهما، لأنهما يستعذبان إيقاع الناس في الخطأ. ولم يدركوا حقيقة واقعهما إلاّ حين قدمت لهما أمهما الليمون، فأكد الثاني، قبل أن يذوقها الأول، أنها كانت بلا سكر. وروت سانتا صوفيا (القديسة) الحادثة لأورسولا، وأنها كانت قد نسيت فعلاً أن تضع سكراً في الكأس. فقالت أورسولا، دون أن تصيبها الدهشة :

ـ إنهم جميعاً هكذا، يولدون مجانين.

وخفّت حدة الفوضى مع الأيام، وفعل الزمن فعله فخلط بينهما. فالذي خرج من اللعبة وهو يحمل اسم أوريليانو الثاني صار كبير الهامة ضخم الجسم كأجداده، والذي بقي يحمل اسم خوزيه أركاديو الثاني صار نحيلاً ناتيء العظام كالعقيد. ولم يبق لهما سوى سمة واحدة تجمع

بينهما ورثاها عن العائلة، ألا وهي ظاهرة الوحدة. وربما كان ذلك هو الذي جعل أورسولا تظن أن خطأ قد وقع في اسميهما منذ طفولتهما فتبادلا اسميهما، لأنهما لا يتطابقان مع هيئتيهما وخلقيهما وطبعيهما وبنيتيهما.

وبرز الاختلاف الحاسم بينهما إبّان الحرب. فقد طلب خوزيه أركاديو الثاني من العقيد جيرينيلدو ماركيز أن يصطحبه ليشهد تنفيذ أحكام الإعدام. فلبّى طلبه رغم معارضة أورسولا بينما كان أوريليانو الثاني يرتجف لمجرد الحديث عن مشاهدة أحكام الإعدام، ولذلك فضل البقاء في البيت. وفي سن الثانية عشرة، سأل هذا الأخير أورسولا عما تحويه الغرفة المقفلة. فأجابته :

ـ فيها كتب ملكيادس، والأشياء الغريبة التي كتبها في أواخر سني عمره.

فزاده ذلك الجواب حباً للاستطلاع بدلاً من أن يهدئه. فألح على أورسولا أن تعطيه المفاتيح، واعداً بإصرار ألاّ يفسد شيئاً. ولم يدخل أحد مكتب ملكيادس منذ اليوم الذي خرجت فيه جثته منه. فأغلق بقفل سدّ الصدأ منافذه.

وعندما فتح أوريليانو الثاني نوافذ المكتب، دخلت إليه أشعة هادئة، وكأنها كانت تدخله كل يوم فتنير جنباته. فلم يكن في المكان أي أثر للغبار أو بيوت العناكب : على العكس من ذلك، كان كل شيء نظيفاً، وكأنه مكنوس ومنظف لتوّه، حتى بدا أنظف وأفضل مما كان عليه يوم الدفن. الحبر في قعر المحبرة لم يجف، ولمعان المعادن لم يتأكسد. والجمرات ما زالت تشعّ متقدة في الموقد الذي مكّن خوزيه أركاديو بوينديا من الحصول على الزئبق المتبخر. وكانت الكتب منضدة على الرفوف، وقد غلفت بورق مقوّى شاحب اللون شبيه بجلد الإنسان

المدبوغ، وكذلك المخطوطات التي لم تمس. وكان هواء المكان أنقى منه في سائر غرف الدار، على الرغم من أنه ظل مقفلاً على مدى أعوام طويلة. وكان كل ما في الغرفة نظيفاً وفي أحسن حال، حتى إن أورسولا، عندما دخلتها بعد بضعة أسابيع، تحمل مكنسة وسطل ماء كي تغسل أرضها، لم تجد ما تفعله فيها.

كان أوريليانو الثاني يستغرق في قراءة كتاب كان بلا غلاف ولا عنوان ظاهر. ولكن ذلك لم يمنعه من أن ينكب على محتواه بلذة عجيبة. وكان الكتاب يروي قصة تلك المرأة، التي كانت لا تأكل، إذا جلست إلى المائدة، إلا حبات أرز تلتقطها بالدبابيس، وقصة الصياد الذي استعار صابورة لشبكته من جار له. ولمّا قدم له سمكة بدلاً من ذلك، كان في بطن السمكة ماسة كبيرة، وقصة المصباح الذي يستجيب للرغبات ويلبيها، وقصة بساط الريح. وقد عجب الغلام، أوريليانو الثاني، فسأل أورسولا ما إذا كانت تلك الأمور صحيحة، فأجابته بأن الغجر، عندما كانوا يزورون ماكوندو منذ سنين بعيدة، كانوا يحملون معهم القناديل العجيبة وبساط الريح. وأضافت متنهدة :

ـ ولكنّ ما يحدث هو أن العالم صائر إلى الزوال رويداً رويداً، وأن تلك الأشياء لم تعد تصل إلى هنا.

وعندما أنهى أوريليانو الثاني قراءة الكتاب، وقد فقدت منه بعض القصص، بفقدان بعض صفحاته، بدأ بدراسة المخطوطات. واستحال عليه فهمها لأن حروفها كانت تبدو له كثياب منشورة على حبل غسيل. وكانت أقرب إلى كتابة الأنغام الموسيقية منها إلى خط الكتابة المعروفة. وبينما كان ذات يوم، شديد الحرارة ولا سيما عند الظهيرة، يبذل كل جهده للنفاذ إلى سر المخطوطات، أحس فجأة أنه لم يكن في الغرفة وحيداً. فقد كان ملكيادس جالساً، ويداه على ركبتيه، مقابل الضوء

القادم من النافذة. كان لا يبلغ الأربعين من عمره، ويرتدي صدريته الغريبة الشكل نفسها، وقبعته الشبيهة بجناحي غراب، يتلامع على صدغيه الأشيبين الشحم الذائب بفعل الحرارة، تماماً كما سبق أن رآه أوريليانو وخوزيه أركاديو في طفولتهما.

وسرعان ما عرفه أوريليانو الثاني، لأن تلك الذكرى الوراثية كانت تنتقل من جيل إلى جيل، وقد وصلت إليه عبر ذاكرة جده.

حياه أوريليانو الثاني:

- سلاماً.

فأجاب ملكيادس:

- سلاماً، أيها الفتى.

ومنذئذ، وعلى مدى بضع سنين، كانا يلتقيان كل عصر تقريباً. فحدثه ملكيادس عن العالم، وحاول أن يزرع فيه حكمته القديمة، ولكنه رفض أن يترجم له المخطوطات. وذكر له السبب قائلاً:

- ينبغي ألا يعرف أحد معناها قبل أن يبلغ سنه مئة عام.

وكتم أوريليانو الثاني أمر هذه اللقاءات، وحافظ على سريتها. ولكنه شعر، ذات يوم، بانهيار ذلك العالم الذي لا يعرفه سواه، عندما دخلت عليه أورسولا الغرفة، في اللحظة التي كان فيها ملكيادس. ولكنها لم تره. فسألته:

- مع من كنت تتكلم؟.

فأجاب أوريليانو الثاني:

- لا أحد.

فقالت أورسولا:

- ذلك ما كان يفعله جد أبيك. فقد كان مثلك يحادث نفسه أيضاً.

خلال ذلك الوقت نفسه، كان خوزيه أركاديو الثاني قد أشبع رغبته في حضور تنفيذ أحكام الإعدام. ولسوف يتذكر طوال عمره لمعات تلك الطلقات الست، التي دوّت في آن واحد، وصداها المتردد بين التلال، وتلك الابتسامة الباهتة الحزينة لأحد المحكومين بالإعدام، وعينيه التائهتين، وقد ظل منتصباً فيما أخذ يتبلل بالدم، ذلك الذي ظل مبتسماً حتى بعد أن فكوا وثاقه المربوط إلى العمود ووضعوه في صندوق مليء بالكلس. حتى قال خوزيه أركاديو الثاني في نفسه:

- ما يزال حياً. سوف يدفنونه وهو حيّ.

وقد أثّر المشهد في نفسه، حتى كره الحرب وكلّ ما هو عسكري، لا بسبب الإعدامات وحسب، وإنما بسبب تلك العادة المخيفة من دفن المعدمين وهم أحياء. ولم يذكر أحد، فيما بعد، متى بدأ على وجه التحقيق يقرع أجراس برج الكنيسة، ويساعد الأب أنطونيو إزابيل، خليفة الكاهن السابق في أداء الصلاة، ولا متى بدأ يربي ديكة القتال في باحة الأبرشية.

ولما علم العقيد جيرنيلدو ماركيز بأمره، وبخه بقسوة، وأخذ عليه أن يتعلم المهن التي يشجبها الأحرار. وعندها أجاب قائلاً:

- الحقيقة أنني أظن أنني قد تحولت إلى محافظ. وكان يبدو عليه كأنما يؤمن بأن ذلك قدر محتوم. فأثار جوابه العقيد جيرنيلدو ماركيز، فأخبر أورسولا بأمره. فأيدت موقفه قائلة:

- ذلك أمر حسن، فلعله يصبح كاهناً، ليدخل الله هذا البيت أخيراً.

وسرعان ما انكشف أن الأب أنطونيو إزابيل كان يعده لتناول القربان الأول. كان يعلمه تعاليم الدين، وهو يحلق الريش عن رقاب الديكة استعداداً للقتال. وكان يشرح له، بالأمثلة البسيطة، وهو يضع الدجاجات الحاضنات في أعشاشها، كيف فكّر الله، في اليوم الثاني من

الخليقة، أن الفراخ يمكن أن تتكون داخل البيضة.

وبعد تلك الفترة، بدأت تظهر على الخوري أعراض الشيخوخة، مما دفعه للقول، بعد بضع سنوات، أن الشيطان ربما يكون قد خرج منتصراً في ثورته ضد الرب، وأنه ربما يكون هو الذي يجلس على العرش السماوي، دون أن يكشف عن هويته الحقيقية، كي يخدع الأبرياء.

واندفع خوزيه أركاديو الثاني وراء حماسة تعلمه، فتوصل، بعد بضعة أشهر، إلى أن يكون في مثل خبرته في التعاويذ اللاهوتية التي تبلبل الشيطان، بل وأحذق منه وأمهر في المكامن والمصائد التي كانت تنصب في حظائر قتال الديكة.

وخاطت له أمارانتا بزة كتّان ذات قبة عالية وربطة عنق، واشترت له حذاء أبيض، ونقشت له اسمه بحروف مذهبة على الشريطة المعلقة بشمعته. وقبل يومين من موعد القربان الأول، اصطحبه الأب أنطونيو إيزابيل إلى غرفته، حيث أغلق الباب عليهما، ليأخذ اعترافه، ومعه قاموس الخطايا.

وكانت قائمة الخطايا طويلة جداً، حتى نام الخوري العجوز في مقعده قبل أن يبلغ نهايتها، لأنه كان معتاداً على النوم في الساعة السادسة. وكان الاستجواب تجلياً حقيقياً عند خوزيه أركاديو الثاني. ولم يعجب حين سأله الأب إن كان قد ارتكب أفعالاً قبيحة مع النساء. فأجاب صادقاً بالنفي. ولكنه شعر باختلال توازنه عندما سأله ما إذا كان قد ارتكب مثل تلك الأفعال مع الحيوانات. وكان تناوله القربان في أول يوم جمعة من شهر أيار (مايو)، مدفوعاً بحب الاستطلاع الذي كان يؤرقه. وقد ألقى السؤال، فيما بعد على بيترونيو القندلفت (خادم الكنيسة) المريض، الذي كان يعيش في البرج، ويروى أنه كان يتغذى بالخفافيش. فأجابه بيترونيو:

ـ هناك مسيحيون فاسدون خطاة، يفعلون مثل هذه الأمور بالحمير.

وألحّ خوزيه أركاديو الثاني في حبه للاستطلاع، فراح يسأل أسئلة كثيرة جداً، حتى عيل صبر بيترونيو، فاعترف له قائلاً:

ـ أنا أذهب لهذا الشأن كل ليلة ثلاثاء. فإذا وعدتني ألا تبوح لأحد فسآخذك معي الثلاثاء القادم.

ولم يخلف بيترونيو وعده ليلة الثلاثاء التالي، فنزل من البرج، وهو يحمل مقعداً صغيراً، ما كان أحد ليعلم لماذا يستعمله. واصطحب خوزيه أركاديو الثاني إلى حرج قريب في تلك الناحية. وسرّ الفتى بتلك الغزوات الليلية، حتى لم يشاهد، إلاّ بعد فترة طويلة، في مخزن كاتارينو. وأصبح من رجال مصارعة الديكة. وقد خاطبته أورسولا، عندما شاهدته أول مرة يدخل الدار ومعه تلك الطيور الجميلة المقاتلة، قائلة بحزم:

ـ لقد جلبت الديكة على هذه الدار من المرارة والبؤس ما يكفيها ويزيد، حتى تأتيها منها بالمزيد. فخذ هذه المخلوقات إلى مكان آخر، فلا أريد أن أراها هنا.

فأبعد خوزيه أركاديو الثاني الطيور عن الدار دون مناقشة، ولكنه تابع تغذيتها والاعتناء بها وتفريخها في بيت جدته بيلار تيرنيرا. فقد وضعت هذه تحت تصرفه كل ما كان يريده لعلها تراه في بيتها. وقد وضع، فيما بعد، موضع التنفيذ، كل المعرفة التي أخذها عن الأب أنطونيو إيزابيل. فربح من المال ما يكفي لتطوير تربيتها، وللحصول على ملذات الرجال الحقيقية.

في تلك الفترة، لم تكن أورسولا لتعرف، عندما تقارنه بأخيه، كيف افترق، إلى هذه الدرجة، التوأمان اللذان كانا يبدوان كأنهما كائن واحد في طفولتهما. ولكن استغرابها بدأ يتلاشى عندما لاحظت، بعد قليل،

كيف أخذ أوريليانو الثاني يتحول فجأة إلى الكسل والملذات. فقد بقي، طوال انحباسه في مكتب ملكيادس، منطوياً على نفسه كما كان العقيد أوريليانو بويندبا في شبابه. ولكنه في الفترة التي سبقت معاهدة نيرلانديا، أخرجته المصادفة البحتة من انطوائه واستغراقه، ودفعته إلى مواجهة الواقع في الحياة.

فقد دخلت عليه، يوماً، صبية تبيع أوراق اليانصيب، التي يربح فيها صاحب النصيب آلة الأوكورديون الموسيقية. حيته بمودة ظاهرة، دون أن يستغرب. فكثيراً ما كان الناس يظنونه أخاه خوزيه أركاديو الثاني. ولم يحاول هو أن يرفع اللبس، أو يصحح خطأها، حتى عندما حاولت أن تستدر عطفه بدموعها. وانتهى الموقف بأن صحبته إلى غرفتها. وقد أحبته بعد لقائهما الأول حباً دفعها للغش، عند سحب اليانصيب، فربح الأكورديون. ثم اكتشف أوريليانو الثاني، بعد أسبوعين، أن تلك الفتاة كانت تعاشره وتعاشر أخاه على التوالي، ظناً منها أنهما واحد. وبدلاً من أن يعمد إلى إيضاح الأمر، عمل على ترتيب الوضع بحيث يستمر. ولم يعد بعدها إلى مكتب ملكيادس. فكان يقضي فترات ما بعد الظهر، في فناء الدار، يتدرب على العزف على الأوكورديون اعتماداً على السمع، على الرغم من اعتراضات أورسولا، التي كانت قد منعت الموسيقى في الدار، نظراً للحداد المتتالي، ولأنها كانت تحتقر الأكورديون. فهو عندها آلة لا تصلح إلاّ للأفاقين المنبوذين، من ورثة فرانسيسكو الإنسان. ولكن أوريليانو الثاني أفلح في أن يكون عازف أوكورديون ماهراً. وقد تابع العزف عليه حتى بعد أن تزوج وأنجب أطفالاً، حتى صار واحداً من أكثر الناس احتراماً في ماكوندو.

ظل خلال ما يقرب من شهرين يقاسم أخاه تلك المرأة. بل كان يتلصص عليه ويراقبه ويفسد له خططه. حتى إذا أيقن أن خوزيه أركاديو

الثاني لن يذهب، في ليلة ما، إلى عشيقتهما المشتركة، ذهب هو إليها ليعاشرها. وقد أحس في صباح أحد الأيام أنه مريض. وبعد يومين، من ذلك، وجد أخاه في الحمام. وقد تعلق بعارضة خشبية، ينضح عرقاً ويبكي بدموع ساخنة. وعندها أدرك الأمر. واعترف له أخوه بأن تلك المرأة قد طردته لأنه نقل إليها مرضاً من الأمراض التي يدعونها بأمراض الخنا. وأخبره بأن بيلار تيرنيزا كانت تحاول علاجه. فأخضع أوريليانو الثاني نفسه، سراً، لغسولات البيرمانغنات الحارقة، والسوائل المدرة للبول. ثم شفي كل منهما، وحده، بعد أشهر ثلاثة قضياها في آلام متواصلة مكتومة. ولم ير خوزيه أركاديو الثاني تلك المرأة من بعد قط، بينما حصل أوريليانو الثاني على مغفرتها، وبقي معها حتى مماته.

كان اسمها بيترا كوتيس. وقد جاءت إلى ماكوندو إبان الحرب، مع زوج، جمعتها به المصادفة، كان يعيش على بيع أوراق اليانصيب. فلما مات تابعت هي العمل ذاته. كانت شابة خلاسية نظيفة، ذات عينين صفراوين لوزيتي الشكل، تمنحان وجهها شراسة فهد. ولكنها كانت ذات قلب كريم، وكانت فاتنة رائعة في حياة الحب.

وقد جن جنون أورسولا، عندما علمت أن خوزيه أركاديو الثاني كان يربي ديكة القتال، وأن أوريليانو الثاني كان يعزف على الأكورديون في حفلاته الصاخبة، وأنه يبادل، دون تحفظ، محظيته المسرات. وكأنهما قد جمعا فيهما كل رذائل العائلة، دون أن يأخذا أية فضيلة من فضائلها. وعندها اتخذت قرارها بألاّ يحمل أحد، بعد اليوم، اسم خوزيه أركاديو أو اسم أوريليانو. ومع ذلك لم تجرؤ على معارضة أوريليانو الثاني في إرادته. فقالت له :

ـ حسناً، ولكن بشرط واحد. وهو أن أربيه بنفسي.

وقد حافظت أورسولا على نشاطها الجسمي وحيويتها، ونزاهة

خلقها، وتوازنها العقلي، مع أنها كانت تشارف على المئة من عمرها، وتكاد تفقد بصرها نتيجة للسادات العينية (أي الماء الأزرق). ولم يكن هناك من هو أفضل منها لتربية إنسان فاضل يحرص على سمعة العائلة، إنسان لم يسمع قط بشؤون الحرب أو ديكة القتال والبغايا والمغامرات الطائشة، تلك الدواهي الأربع التي ـ حسب رأي أورسولا ـ قد جرّت سلالتهم إلى الدمار. ولذلك عاهدت نفسها، بكل وقار، قائلة :

ـ سوف يصبح هذا خورياً، وإذا مدّ الله في عمري، فإنه سوف يكون البابا.

وانفجر جميع من سمعها ضاحكاً، لا في الغرفة وحدها، بل في الدار كلها، حيث اجتمعت عصبة أوريليانو الثاني الطائشة. ونسي الناس الحرب في مستودع الذكريات، غير أن طيفها قد عاد شبحاً لدى ازدياد القعقعة الناجمة عن رفع سدادات زجاجات الشمبانيا.

قال أوريليانو الثاني، وهو يرفع كأسه :

ـ في صحة البابا.

وشرب المدعوون النخب جميعاً، وعزف صاحب الدار على الأكورديون. وانطلقت الأسهم النارية إيذاناً بالفرح، ودوّى قرع الطبول في أرجاء البلدة. ولما انبلج الفجر، وارتوى الضيوف بالشمبانيا، نحروا ست بقرات، تركوها في الشوارع للناس. ولم يفاجأ أحد بكل هذا، ولم يعتبره أحد عاراً. فقد صار مثل هذه الحفلات شيئاً عادياً منذ تسلم أوريليانو الثاني إدارة البيت. وقد كان سبب هذه الحفلة واضحاً، إذ ليس هناك أهم من ولادة البابا.

واستطاع أوريليانو الثاني، خلال سنوات قليلة، ودون جهد يذكر، إلاّ ما أسعفه به الحظ ،أن يجمع ثروة من أهم الثروات في إقليم الماريو (إقليم المستنقعات) بفضل تكاثر حيواناته غير الطبيعي. فكانت خيله تلد ثلاثة

توائم، ويبيض دجاجه مرتين في اليوم، وتسمن خنازيره حتى درجة جنونية. ولم يتمكن أحد من تفسير تلك الظاهرة من ضراوة الأنسال، إلا إذا كان يستخدم طرائق سحرية. وكانت أورسولا تقول لابن حفيدها الأرعن :

ـ لن يدوم لك هذا الحظ إلى الأبد. فاستفد منه واقتصد شيئاً الآن.

ولكن أوريليانو الثاني ما كان ليهتم بما تقول. فهو ما ينفك يفتح زجاجات الشمبانيا لكي يسكر أصدقاؤه، وما تنفك بهائمه تزداد جنوناً في الولادة. ويزداد هو اعتقاداً بأن سطوع نجمه لا يمت إلى تصرفاته بصلة، بل هو ناشىء من عشيقته بيترا كوتيس التي كان لحبها فضيلة تغيير نظام الطبيعة. وتوطدت قناعته بمصدر ثروته، حتى جعل بيترا كوتيس قرينة دائماً من حيواناته. وقد ظل يعيش معها حتى بعد زواجه وإنجاب أطفاله، بموافقة زوجته فيرناندا.

كان أوريليانو الثاني قويّ البنية، عملاقاً كأجداده، مفعماً بالحيوية. بل كان يفوق أجداده، بما لم يكن لديهم، بسحره الذي لا يقاوم. ولم يكن لديه ما يكفيه من الوقت للعناية بقطعانه. وقد كان يكفي أن يقترب من البهائم، ومعه بيترا كوتيس، فيمر، وهو على صهوة جواده، بالأرض التي تتكاثر فيها حيواناته، حتى يصاب كل حيوان منها بطاعون التكاثر الهائل والذي لا شفاء منه.

وقد حصل على تلك الثروة بمحض المصادفة، تماماً كما ظلت المصادفات هي الأصل في كل ما جرى له من أمور طيبة في حياته الطويلة.

فقد بقيت بيترا كوتيس تعيش من دخل اليانصيب حتى نهاية الحروب، وكان أوريليانو الثاني قادراً، من وقت لآخر، على سرقة مدخرات أورسولا. وكان وإياها يشكلان زوجاً خفيف الظل. فلا همّ

لهما إلاّ أن يناما معاً حتى في الأيام الممنوعة، وأن يثرثرا معاً في السرير حتى الصباح. وكانت أورسولا تصرخ في وجه ابن حفيدها، عندما تراه راجعاً في الصباح كمن يمشي في نومه :

ـ تلك المرأة سبب ضياعك ودمارك. فلقد سحرتك، وليس بعيداً أن أراك يوماً تتلوى من مرض القولنج، وقد استقرّ ضفدع طيني في بطنك.

وقد مرّ وقت طويل حتى اكتشف خوزيه أركاديو الثاني أنه قد عزل، وأن أخاه قد حلّ محله. ولم يدرك معنى عاطفة أخيه وعشقه. فكان يذكر عن بيترا كوتيس أنها امرأة عادية، وأنها كسولة في الفراش، وغير موهوبة في تعاطي الحب. وأصم أوريليانو الثاني أذنيه عن صراخ أورسولا، وسخرية أخية، وراح يفكر في احتراف مهنة تمكنه من إيجاد بيت لبيترا كوتيس، لكي يموت معها : فوقها وتحتها، في ليلة حب محمومة لا تعرف حدوداً.

وعندما عاد العقيد أوريليانو بوينديا ففتح مشغله من جديد، وانكفأ على عمله مشدوداً بملذات الشيخوخة الهادئة المطمئنة، ظن أوريليانو الثاني أن ذلك قد يكون حرفة رابحة. فماذا لو كرّس وقته لصياغة الأسماك الذهبية. وراح يمضي الساعات الطوال، في تلك الغرفة الصغيرة الحارة، وهو يشاهد كيف تتحول صحائف المعادن القاسية، بفعل الجهد والصبر من ذلك الرجل العقيد الذي ضيع أوهامه، إلى حراشف ذهبية. وبدت له المهنة شاقة، وألحت عليه ذكرى بيترا كوتيس، وشدته. فترك المشغل بعد ثلاثة أسابيع. وفي تلك الفترة، خطرت لبيترا كوتيس فكرة الأرانب، بعد تربيتها وإكثارها. فتكاثرت الأرانب، وكبرت بسرعة لم تكد تترك لها من الوقت ما يكفي لبيع تذاكر اليانصيب. ولم يلحظ أوريليانو الثاني، في البدء، التسارع المذهل في تكاثرها. ولكنه، ذات ليلة، وقد سئم أهل البلدة كل ما يتصل بيانصيب الأرانب، شعر بحركة

غريبة وراء جدار الدار. فقالت له بيترا كوتيس :

ـ لا تقلق. فهي الأرانب.

ولم يستطيعا النوم طوال تلك الليلة، بسبب الضجة الهائلة الصادرة عن تلك الحيوانات، وحركتها الدائبة. ولما فتح أوريليانو الثاني الباب عند الفجر، رأى في ضوء الصباح الوليد أرض الدار وقد غطتها أمواج الأرانب الزرق. وانفجرت بيترا كوتيس ضاحكة، ولم تستطع مقاومة النكتة المغيظة، فقالت له :

ـ هذه مواليد الليلة الماضية وحدها.

فصاح بهلع :

ـ يا إلهي، فلم لا تجربين ذلك على البقر؟ !.

وبعد بضعة أيام، وفي محاولة منها لتنظيف باحة الدار، استعاضت بيترا كوتيس عن الأرانب ببقرة. فولدت البقرة، بعد شهرين، ثلاثة توائم. وهكذا بدأت الأمور. وبين عشية وضحاها، صار أوريليانو الثاني مالكاً لأراض وقطعان لا يتسع له الوقت معها لتوسيع اسطبلاته وحظائر خنازيره. كان ذلك نوعاً من الخصب الذي يسبب الدوار، ويبعث على القهقهة بجنون. فلم يكن أوريليانو الثاني يستطيع مقاومة التصرف اللاهي تعبيراً عن فرحه ومرحه. فتراه يصيح أحياناً :

ـ كفى أيها البقر، فالحياة قصيرة.

وكانت أورسولا تتساءل، فيما بينها وبين نفسها، فيما إذا كان الرجل قد وقع في ورطة ما، أو فيما إذا كان يسرق أو صار لص حيوانات، وكانت كلما شاهدته يفتح زجاجة شمبانيا، كي يستمتع بصب رغوتها على رأسه، تصيح به معنفة إياه لإسرافه. وقد ألحت في إزعاجه، حتى إن أوريليانو الثاني، وقد استفاق ذات يوم وهو يفيض فرحاً وحبوراً،

فجاء وهو يحمل صندوقاً مليئاً بأوراق المال، وعلبة صمغ وفرشاة. ثم انطلق يغني بأعلى صوته أغاني فرانسيسكو الرجل القديمة، بينما كان يزخرف الجدران، من الداخل إلى الخارج، ومن أعلى إلى أسفل، بأوراق عملة قيمة كل منها بيزو واحد. فصار البيت القديم، الذي طلوه باللون الأبيض، منذ الفترة التي جلبوا فيها البيانو الآلي، ذا مظهر غريب، وفي خضم الضجة العائلية الكبيرة، ووسط صراخ أورسولا المتصاعد، وقد ضاقت ذرعاً بما رأت وسمعت، وفي غمرة أفراح أهل البلدة الذين غصت بهم الشوارع، وقد احتشدوا ليشهدوا ذروة المجد والإسراف، انتهى أوريليانو الثاني من عمله ذاك. بأن زيّن المكان الممتد من الشرفة حتى المطبخ، مروراً بالحمامات وغرف النوم. ثم ألقى ما تبقى من أوراق العملة في فناء الدار، هاتفاً :

ـ والآن. أرجو ألاّ يحدثني أحد في هذا البيت عن المال بعد اليوم.

وهكذا كان. فقد انتزعت أورسولا الأوراق المالية التي غطت الجدران، وأعادت طلاء البيت باللون الأبيض. ثم دعت الله قائلة :

ـ يا إلهي، أعدنا فقراء، كما كنّا يوم أسسنا هذه البلدة، كي لا تحاسبنا في الحياة الآخرة على كل ما بذّرناه.

ولكن الاستجابة لدعائها كانت معكوسة، فقد اصطدم، مصادفة، واحد من العمال الذين كانوا ينزعون الأوراق المالية عن الجدران، بتمثال ضخم من الجبس للقديس خوزيه، جاء به بعضهم، في آخر سني الحرب، إلى الدار. فتحطم التمثال الأجوف على الأرض، فكان محشواً بالقطع الذهبية. وما كان أحد ليذكر من جاء بهذا القديس بالحجم الطبيعي. قالت أمارانتا :

ـ جاء به ثلاثة رجال إلى هنا. وسألوني أن نحتفظ لهم به حتى يتوقف المطر. فطلبت منهم أن يضعوه هنا في الزاوية، فبقي حيث هو

منذ ذلك الحين، لأن الرجال لم يرجعوا قط كي يأخذوه.

في الأيام الأخيرة، كانت أورسولا توقد عليه الشموع، وتركع أمامه، وما كان ليخطر لها، ما دام ذلك قديساً، أنها كانت تعبد ما يناهز أربع مئة ليرة ذهباً. وزاد في حزنها ذلك الدليل غير المقصود على وثنيتها. ولم تشأ أن تمس تلك الكومة الهائلة من القطع الذهبية، فعبأتها في أكياس ثلاثة من القنّب، ودفنتها في مكان سري، في انتظار عودة الثلاثة المجهولين كي يستعيدوها. وكانت أورسولا بعد زمن طويل من هذا، في أواخر شيخوختها، تشارك أحياناً في أحاديث المسافرين، وتحدث من يمرون بالبيت، تسألهم إن كان سبق لهم أن مروا زمن الحرب، من هنا، وتركوا عندهم، أمانة، تمثالاً للقديس خوزيه مصنوعاً من الجبس، ريثما ينقضي فصل الشتاء.

كانت الأمور التي تشدّ انتباه أورسولا، بل وتدهشها، في تلك الحقبة، أموراً عادية. وكانت ماكوندو تغرق في تقدّم هائل. فقد حلّ محلّ بيوت الطين والقصب، التي بناها الروّاد الأوائل، أبنية من حجارة الطوب والقرميد، أبوابها ونوافذها من خشب، وأرضها من الإسمنت، مما جعل ساعتي ما بعد الظهر، الخانقتين بحرارتهما، محتملتين. ولم يبق من قرية خوزيه أركاديو بوينديا القديمة سوى أشجار اللوز المغبرّة، التي قاومت كل عوامل الطبيعة وتقلباتها المأساوية، والنهر، بمياهه الشفافة المتدفقة فوق حجارته ما قبل التاريخية، والتي أخذت تطحنها ضربات خوزيه أركاديو الثاني المجنونة. فقد عزم على تنظيف مجرى النهر، ليقيم فيه ملاحة نهرية. وكان ذلك حلماً أخرق شبيهاً بأحلام جده الأول (جدّ أبيه)، لأن المجرى الصخري كان كثير المنحدرات، سريع التدفق، مما يحول دون إنشاء ملاحة بين ماكوندو والبحر. ولكن خوزيه أركاديو الثاني كان يتشبث بمشروعه في سورة غروره غير المفهوم. وكان، حتى

ذلك الوقت، لا يبدو منه ما يدل على سعة خياله. ولم يعرف عنه أنه عاشر امرأة غير عشرته العابرة لبيترا كوتيس. وكانت أورسولا تعتبره أضأل نموذج في تاريخ العائلة كله. فلم يكن قادراً على أن يبرز في شيء، حتى صراع الديكة. حتى حدثه العقيد أوريليانو بوينديا، ذات يوم، عن المركب الإسباني الغارق على بعد ثمانية أميال من البحر، وروى له أنه رأى بعينيه إطاره المتكلّس خلال الحرب. تلك القصة التي لم يصدقها الكثيرون طوال سنين. ولكن خوزيه أركاديو الثاني وجد فيها نوعاً من الكشف، فباع ديكته لأفضل من دفع له، واستأجر رجالاً، واشترى أدوات، واندفع بعناد في مغامرته الكبرى. فعمد إلى كسر الصخور، وحفر الأقنية، وتعزيل الحجارة. وتسوية الشلالات. وكانت أورسولا تردد قائلة:

ـ أعرف كل هذا عن ظهر قلب. فكأن الزمان يعيد نفسه، وكأننا عدنا من حيث بدأنا.

ولمّا ظنّ أركاديو الثاني أن النهر بات صالحاً للملاحة، حدّث أخاه أوريليانو الثاني عن خططه تفصيلاً، فأعطاه أخوه المال اللازم للمشروع.

وتوارى خوزيه أركاديو الثاني طويلاً عن الأنظار، فبدأ بعض الناس يروون أن زعمه شراء مركب لم يكن سوى حيلة للفرار بمال أخيه. ولكن الناس ما لبثوا أن تناقلوا خبر سفينة عجيبة تقترب من البلدة. وتسارع أهل ماكوندو إلى ضفة النهر، وكانوا قد نسوا مغامرات خوزيه أركاديو بوينديا الرهيبة. فرأوا، وهم شبه مسحورين دهشة، أول مركب، وآخر مركب، يرسو في البلدة. والواقع أنه لم يكن سوى طوّافة من جذوع الأشجار، يجرها نحو عشرين رجلاً بحبال غليظة، وهم يحاذونها متقدمين عليها، على ضفتي النهر. وكان خوزيه أركاديو الثاني يجلس في مقدمة المركب، يوجه العملية المغامرة الصعبة، ويريق الرضا في

عينيه. وقد جاء معه، على القارب، جمع كبير من السيدات الفاخرات، يحتمين من الشمس الحارقة بمظلات فاقعة الألوان، ويغطين أكتافهن بشالات من حرير، وقد دهنّ وجوههن بأصبغة كثيفة، وزيّنّ شعورهن بأزهار طبيعية، وأحطن أذرعتهن بحيّات ذهبية، ورصّعن أسنانهن بأحجار ماسية.

كانت تلك الطوّافة المركب الوحيد الذي استطاع خوزيه أركاديو الثاني أن يوصله إلى ماكوندو، ولسفرة واحدة، ولو أنه لم يعترف قط أن عمله لم يكن إلاّ إذعاناً لإرادته وحسب. وقد قدّم لأخيه تقريراً تفصيلياً ووصفاً خارقاً عما تمّ له، ثم لم يلبث أن عاد إلى هوايته في صراع الديكة من جديد. ولم يبق من تلك المغامرة الفاشلة من شيء سوى روح الابتكار ونفس التجديد، مما جلبته السيدات القادمات من فرنسا، فبدّلن بكفاءتهن ومهارتهن الممتازة تقاليد الحب، وجلبن الخراب بحسن عشرتهن إلى مخزن كاتارينو، وحوّلن الشارع إلى سوق ذي قناديل يابانية وأرغنات هنغارية رقيقة. وقد كنّ هن اللواتي نظمن ذلك المهرجان الدامي الذي أغرق ماكوندو في السكر طوال ثلاثة أيام، ولم ينتج أي شيء له صفة الدوام، اللهم إلاّ أنه كان المناسبة التي تعرّف فيها أوريليانو الثاني إلى فيرناندا ديل كاربيو.

توّجت رميديوس الجميلة ملكة جمال. ولم تقو أورسولا على الحؤول دون اختيارها، ولو أن جمال ابنة حفيدها الهادىء كان يجعلها ترتجف خوفاً. وقد نجحت، حتى الآن، في منعها من الخروج إلى الشارع وحيدة. ولم تكن تخرج إلاّ للذهاب للصلاة بصحبة أمارانتا. وكانت تفرض عليها أن تغطي وجهها بخمار أسود. فكان الطائشون الفاسقون من الشباب، ممن كانوا يتنكرون بثياب رجال الدين ويرددون في مخزن كاتارينو أدعية صلواتهم الفاجرة، يقصدون الكنيسة، ولا همّ لهم إلاّ أن

يسترقوا النظر، ولو للحظة واحدة، إلى وجه ريميديوس الجميلة. وقد تناقل الناس الحديث عن جمالها الأسطوري، بحرارة ودهشة وابتهال في طول إقليم الماريو (منطقة المستنقعات) وعرضه. ومضى زمن طويل قبل أن يتمكنوا من رؤيتها. وكان الأفضل لهم لو أن الفرصة ما واتتهم قط، لأن أكثرهم لم يجدوا، من بعد، إلى النوم الهادىء سبيلاً. أما الرجل الذي توصل إلى ذلك، وكان أجنبياً، فقد فقد إلى الأبد صفاء ذهنه، وضلّ في متاهات الضياع والبؤس، إلى أن مزّقه، بعد ذلك، قطار ليليّ داسه بينما هو نائم على سكة الحديد.

وقد كان، يوم رآه الناس في الكنيسة أول مرة، يرتدي بزة من المخمل لها حواش خضراء، وصداراً موشّحاً، فأدركوا أنه قادم من بلاد نائية، وربما من مدينة خارج بلادهم، وقد جذبه السحر الخلاب في ريميديوس الجميلة. وكان فتى جميلاً تبدو عليه الجرأة والوقار. يعرف كيف يتباهى بهيئته الجميلة، حتى لكأن بيترو كريسبي، إذا قورن به، لم يكن غير طفل ما بلغ النضج بعد. فتهامست النسوة، بابتساماتهن الحاقدة، أنه الرجل الذي يستأهل صاحبة الخمار.

ولم يصاحب أحداً من ماكوندو، ولم يكن يظهر إلاّ يوم الأحد، مع إطلالة الصباح، وكأنه أمير خرافيّ، يعلو صهوة جواد ركابه من فضة، وسرجه من مخمل. ثم يغادر البلدة حالما تنتهي الصلاة. كان لحضوره سلطة أدرك الناس معها، منذ أن شاهدوه أول مرة في الكنيسة، أنّ مبارزة قاسية صامتة قد بدأت بينه وبين ريميديوس الجميلة، وأن ما انعقد بينهما هو عبارة عن اتفاق خفي، مضمونه التحدي الذي لا حيلة لأحد فيه، والذي لا يمكن أن ينتهي إلى الحب وحسب، بل ربما كان الموت نهايته المحتومة.

وظهر السيد الفارس في الأحد السادس، منذ وصوله، وهو يمسك

بيده وردة صفراء. واستمع للصلاة واقفاً كعادته. ولما انتهت الصلاة، تقدم نحو طريق ريميديوس الجميلة، فاعترضها وقدم لها وردته الوحيدة. فتناولتها منه بحركة طبيعية، وكأنما كانت قد أعدّت نفسها لهذا التكريم. وعند ذلك، وحسب، كشفت عن وجهها لحظة، وشكرته بابتسامة. ثم لم تفعل غير ذلك قط. ولم تكن تلك اللحظة للسيد الفارس وحده، بل لكل الرجال الذين شاء لهم سوء حظهم أن يروها، لحظة سرمدية خالدة.

منذ ذلك اليوم بدأ ذلك السيد الفارس يأتي بالموسيقيين إلى جوار نافذة ريميديوس الجميلة، حيث يعزفون ألحانهم، ويستمرون في ذلك أحياناً حتى الفجر. ولم يرق له غير قلب أوريليانو الثاني، الذي أشفق عليه وحاول أن يثنيه عن دأبه. وقال في ذات مساء:

ـ لا تضع وقتك أكثر مما فعلت. فنساء هذا البيت أسوأ من البغال.

ثم عرض عليه صداقته، ودعاه للاغتسال معه بالشمبانيا، وحاول أن يقنعه أن الإناث في أسرته أحشاؤهن من حجر. ولكنه لم يتمكن من أن يثنيه عن عناده. وأثارت تلك الليالي الموسيقية الطويلة حنق العقيد أوريليانو بوينديا، فهدّد بأن يشفيه من علته برصاص مسدسه. ولم يفد معه شيء، ولم يبعده عن قصده سوى اليأس الذي آل إليه. فاستحال، وهو الأنيق الكامل، إلى شخص في أسمال قذرة. وتردّد أنه كان قد تخلى عن السلطة والثروة في بلده البعيد، ولو أن أحداً لم يعرف شيئاً عن حقيقة أصله. ثم تحول إلى إنسان يتشاحن مع الآخرين ويشاجرهم في أماكن القمار، واستيقظ، ذات يوم، وقد تلطخ ببرازه. وكان أشد ما في مأساته حزناً أن ريميديوس الجميلة لم تعره اهتمامها قط، حتى عندما كان يحضر إلى الكنيسة في مظهر الأمير. وعندما قبلت الوردة الصفراء منه، فعلت ذلك دون تفكير بأي سوء. وما كان ذلك إلاّ لأنها أعجبت

بحركته فشاءت أن تلهو بها. ولم ترفع خمارها كي تريه وجهها، بل لترى وجهه جيداً.

والحق أنّ ريميديوس الجميلة لم تكن من هذا العالم. فقد ظلت أمها، سانتا صوفيا (القديسة)، تغسلها في الحمام حتى بعد أن بلغت مبلغ النساء، وكانت تلبسها ملابسها، مع أنها كانت تعرف كيف تلبس وحدها دون مساعدة. وكان أهلها يراقبونها ليحولوا دون أن ترسم حيوانات صغيرة على الجدران، بعصا مغموسة ببرازها. وقد بلغت العشرين من عمرها دون أن تتعلم القراءة والكتابة، أو تجيد استعمال الشوكة والسكين على المائدة. كانت، بطبعها، تقاوم كلّ التقاليد كائنة ما كانت. وعندما أعلن لها قائد الحرس عن وجده بها، صدّته بذكاء لأنّ خفته كانت تخيفها. فقالت لأمارانتا :

ـ أنظري ما أسذجه. فهو يدّعي أنه يموت بي، كأنني مرض القولنج العنيف.

حتى إذا وجدوه ميتاً فعلاً قرب نافذتها، لم تزد على أن تمسكت برأيها السابق، فقالت :

ـ ألا تلاحظون أنه كان بسيطاً؟ !.

كانت تبدو ذات رؤيا نافذة، تمكنها بوضوح من إدراك حقائق الأشياء الكامنة وراء شكلياتها. كان ذلك، على الأقل، رأي العقيد أوريليانو بوينديا. فهو لم يكن قط ليرى في ريميديوس الجميلة متخلفة عقلياً، كما كان الآخرون يظنون. بل، على العكس تماماً، كان يقول عنها دائماً :

ـ كأنها عائدة من حرب دامت عشرين عاماً.

أما أورسولا فكانت تحمد الرب وتشكره، لأنه كافأ العائلة فمنحها إنساناً نادر النقاء. ولكنها كانت، في الوقت ذاته، تخشى جمالها الخارق، لأنها كانت عندها فضيلة متناقضة. فهي مصيدة شيطانية في

قلب البراءة. ومن أجل ذلك قررت أن تبعدها عن العالم، وأن تصونها من كل إغراء أرضيّ، وهي تجهل أن ريميديوس الجميلة كانت في مأمن من هذه العدوى مذ كانت في بطن أمها. ولم يخطر لها، ولم تتصور أنها يمكن أن تقبل، أن يتم انتخابها ملكة جمال، في المهرجان، لأن ذلك كان عندها من عمل الشيطان. ولكن أوريليانو الثاني ؛ وقد أعجبته وسيطرت عليه الفكرة الغريبة بأن يتنكر على شكل نمر. فجاء بالأب أنطونيو إيزابيل إلى البيت، كي يقنع أورسولا بأن المهرجان (الكرنفال) ليس عيداً وثنياً، كما كانت تقول، بل هو تقليد كاثوليكي. وقد اقتنعت أخيراً، وإن على مضض، فوافقت على التتويج.

وشاع الخبر القائل بأن ريميديوس بوينديا سوف تكون ملكة المهرجان، وتجاوز، خلال ساعات قلائل، إقليم الماريو (منطقة المستنقعات) فبلغ أماكن نائية كان أهلها يجهلون إشعاع جمالها العظيم، وأيقظ حنق من كانوا يرون في اسم عائلتها رمزاً للثورة. ولم يكن للحنق والقلق أي أساس أو مبرر. فقد كان العقيد أوريليانو بوينديا أكبر الناس في تلك الحقبة، حتى غدا ضحية تقدم العمر وانقشاع الوهم. وقد بدأ شيئاً فشيئاً يفقد كل صلة له بواقع البلاد. فحبس نفسه في مشغله، ولم تبق له مع العالم الخارجي سوى العلاقات المتصلة بتجارة أسماكه الذهبية.

وكان بقي لديه جندي قديم من الحرس الذين كانوا يقيمون حول بيته، في أوائل أيام السلم، فيذهب لبيع تلك الأسماك لسكان إقليم الماريو، ويعود مثقلاً بقطع العملة والأخبار.

وقد عاد إليه مرة بخبر يفيد أن حكومة المحافظين تريد، بدعم من الأحرار، إصلاح التقويم، كي يصبح بإمكان رئيس الجمهورية أن يبقى في السلطة مئة عام، وأن الحكومة وقعت، أخيراً، اتفاقاً مع روما، وأن كاردينالاً حضر منها، يحمل على رأسه تاجاً مجللاً بالجواهر، ويجلس

على عرش من ذهب، وأنّ وزراء الأحرار حرصوا على أن يأخذوا صورة معه، وهم يجثون على ركبهم يقبلون خاتمه، وأن جماعة من قطاع الطرق الملثمين خطفت مغنية من فرقة إسبانية كانت تمر في العاصمة، وأنها في يوم الأحد، الذي تلا ذلك، كانت ترقص عارية في البيت الريفي لرئيس الجمهورية.

فقال له العقيد :

ـ لا تحدثني في السياسة. فكل ما يهمنا هو بيع الأسماك ولقد أغرقت أورسولا في الضحك عندما بلغتها شائعة تفيد بأنه لا يريد أن يعرف شيئاً عن أوضاع البلاد، لأنه كان يغتني من مشغله. وهي، بحسها العمليّ الخيف، لم تستطع أن تدرك عمل العقيد، الذي كان يبدل سمكاته الصغيرات بقطع العملة الذهبية. ثم يحول هذه القطع الذهبية إلى سمكات ذهبية صغيرة، وهكذا دواليك. فيزداد عمله وتعبه كلما باع أكثر، وكأنه كان يريد أن يملأ تلك الحلقة المفرغة المثيرة للأعصاب.

والواقع أنه لم يكن يهتم بالتجارة قدر اهتمامه بالعمل نفسه. فقد كان بحاجة إلى الدقة والتركيز الشديد لترصيع الحراشف، وغرز اليواقيت الحمراء الصغيرة في أماكن العيون، وتطريق الآذان، وجمع الزعانف فلا يبقى له وقت من الفراغ يملؤه بزوال أوهام الحرب. كانت دقة حرفته المفرطة تتطلب منه الانتباه الشديد والاستغراق التام، الأمر الذي جعله يشيخ، خلال مدة قصيرة، أكثر مما شاخ في كل سني الحرب.

وبينما كان عموده الفقري يتقوّس نتيجة لجلوسه الطويل، بدأ نظره يضعف ويشح بسبب عمله الدقيق. ولكن تركيزه الذي لا ينقطع أوصله إلى سلام الروح. وكانت آخر مرة استمع فيها إلى شيء عن الحرب، يوم جاءته جماعة من الحزبيين الروّاد تطلب منه الدعم، كي تتم المصادقة على التقاعد طوال الحياة، كما سبق أن وعدت الحكومة، وكما كان دائماً

يبدو على وشك الصدور، ولكن لم يحدث ذلك. وقد قال لهم :

ـ انسوا ذلك. وانظروا كيف أرفض أنا راتبي التقاعدي، لكي أجنب نفسي عذاب انتظاره حتى الموت.

كان العقيد جيرينيلدو ماركيز، في البداية، يأتي لزيارته في وقت الأصيل، فيجلسان معاً على عتبة باب الدار المواجه للشارع العام ويتذاكران أحداث الماضي. ولكنّ أمارانتا لم تستطع احتمال كل الذكريات التي كان يوقظها فيها ذلك الرجل المتعب، الذي أسرعت به صلعته إلى حافة الشيخوخة المبكرة، فعمدت إلى إزعاجه بلا سبب واضح، حتى انقطع عن الزيارة، إلاّ في المناسبات الخاصة. ثم آل به الأمر إلى أن توارى تماماً بعد أن أقعده الشلل.

ولم يستطع العقيد أوريليانو بوينديا، وهو الهادىء الصامت، المغلق الحس على نسمة الحياة الجديدة التي اضطرب بها البيت، أن يدرك، إلاّ بعد لأي، أن سرّ الشيخوخة السعيدة ليس إلاّ في عقد اتفاق شريف مع الوحدة. فكان يستيقظ في الساعة الخامسة صباحاً، بعد نوم خفيف، فيشرب في المطبخ فنجان القهوة المرة الدائم، ثم يحبس نفسه النهار بطوله في مشغله. وفي الساعة الرابعة، من بعد الظهر، كان يعبر الشرفة، وهو يجرّ وراءه مقعده. فلا ينتبه لنار شجيرات الورد، أو بهاء الوقت، ولا لوضع أمارانتا الصعب، التي كان لكآبتها صوت مرجل يغلي، يتبيّنه المرء واضحاً عند مغيب الشمس. ثم يجلس على عتبة الباب مقابل الطريق العام، حتى يجبره البعوض على الدخول. وفي بعض الأحيان، كان يتجرأ أحد الناس، فيسأله وهو يمر به :

ـ كيف حالك أيها العقيد؟

فيجيب قائلاً :

ـ كما ترى، أنتظر أن يمرّ موكب جنازتي.

وهكذا، لم يكن القلق الذي سببه ظهور اسم عائلته على الناس، بمناسبة تتويج رِميديوس الجميلة ملكة جمال، يستند إلى أساس. ولكن الكثيرين كانوا يرون غير ذلك.

اندفعت البلدة إلى الساحة العامة، وقد تفجّر فرحها بصخب، دون أن يتصور الناس، ولو للحظة، الخطر الذي كان يحيق بها. وبلغ المهرجان (الكرنفال) ذروته، وحقق أوريليانو الثاني حلمه في أن يتنكر في زي نمر. وكان يسير بين الحشود المتدافعة، وقد بح صوته لشدة ما صاح، عندما ظهرت فجأة، على طريق الماريو، جماعة كبيرة من المتنكرين، تبدو بينهم امرأة حملوها على منصة مذهبة. كانت المرأة لا أجمل، بل لا يمكن لخيال الإنسان أن يتصور شبيهة لها. ورفع أهل ماكوندو أقنعتهم، للحظة، ليتأملوا جيداً تلك المخلوقة المدهشة المتوجه بالزمرد، والتي كانت ترتدي عباءة من فرو السمّور الأبيض، فلم تكن تبدو ملكة تبرجت بالشذور الذهبية الرقيقة والورق المنفوش، بل ملكة حقيقية ذات سلطة شرعية. وكان بين الجمهور من رجح عقله، فشك في أن يكون التحدي وراء تلك الظاهرة. ولكن أوريليانو الثاني قطع الشك باليقين، فأعلن أن القادمين ضيوف شرف عليهم. وبحكمة سليمان، أجلس رِميديوس الجميلة والملكة الدخيلة على العرش نفسه. وساهم الغرباء، الذين تخفوا بزي البدو، في إسكار الجمهور، حتى انتصاف الليل. وزادوا في ذلك بمهارتهم الفائقة في اللعب بفن الأسهم النارية، ورشاقتهم البهلوانية، ممّا ذكّر بالغجر وألعابهم. وفجأة، وقد بلغ الاحتفال أوجه، خرق واحد من الناس ذلك التوازن الدقيق، فصاح قائلاً:

ـ عاش حزب الأحرار. عاش العقيد أوريليانو بوينديا.

وضاع بهاء الأسهم النارية في هدير البنادق، وخنقت أصوات الهلع أنغام الموسيقى، وكنس الرعب فرح المتنشين. وقد زعم الناس، حتى

سنوات طويلة من بعد، أن حرس الملكة الدخيلة كان مؤلفاً من كتيبة من جنود الجيش النظامي، أخفوا تحت ملابسهم الفخمة أسلحتهم الرسمية. وأصدرت الحكومة بياناً تعلن فيه دحض هذا الاتهام، ووعدت بالتحقيق في الحادثة الدامية. ولكن الحقيقة لم تظهر إلى النور. واستقرّت بين الناس الرواية التي تفيد أن الحرس الملكي، دون أي تحدّ من أي نوع أو أية استثارة، اتخذ له مواقع قتالية، بإشارة من قائده، ثم فتح النار على الجمهور بلا رأفة.

ولمّا خيم الهدوء، لم يبق في البلدة أي من البدو المزعومين. بينما بقي في الساحة العامة عدد كبير من القتلى والجرحى: تسعة بهلوانات، وأربع حمامات، وسبعة عشر من ملوك ورق اللعب، وشيطان واحد، وثلاثة موسيقيين، ورفيقان اثنان من أمراء فرنسا، وثلاث أمبراطورات يابانيات.

وقد نجح خوزيه أركاديو الثاني، في حمّى الفوضى التي تلت الهلع الذي ساد الحشود، في حماية رِميديوس الجميلة. وحمل أوريليانو الثاني، بين ذراعيه، الملكة الدخيلة، التي تمزّق ثوبها وتلطخت عباءتها بالدم، ونقلها إلى البيت. وكانت تدعى فيرناندا ديل كاربيو. وكان سبق لها أن انتخبت كأجمل امرأة من بين خمسة آلاف من أجمل نساء البلاد. وقد جاؤوا بها إلى ماكوندو، بعد أن وعدوها بأن تعلن ملكة جمال مدغشقر.

فاعتنت بها أورسولا كما لو كانت ابنتها، ولم تشكّ البلدة في براءتها، بل أشفقت على سذاجتها. وبعد ستة أشهر من المذبحة، وحين شفي الجرحى، وذبلت آخر الأزهار الموضوعة على القبر الجماعي، ذهب أوريليانو الثاني إلى مدينتها البعيدة، حيث كانت تعيش مع أبيها، لكي يحضرها، ثم تزوج منها في ماكوندو، وأقام لها احتفالاً بهيجاً صاخباً، دام عشرين يوماً.

(١١)

بعد شهرين اثنين، كاد الزواج أن ينتهي بالفشل. ذلك أن أوريليانو الثاني أراد أن يسترضي بيترا كوتيس، بعد أن آذاها بزواجه من فيرناندا ديل كاربيو، فدبّر التقاط صورة لها بثياب تبدو بها كملكة مدغشقر. وعندما علمت فيرناندا بالخبر حزمت أمتعتها في صناديق عرسها، وغادرت ماكوندو دون كلمة وداع. فلحق بها أوريليانو الثاني على طريق الماريجو (منطقة المستنقعات). وبعد رجاء حار، ووعد بأن يصلح ما أفسده، أفلح في إرجاعها إلى البيت، وتخلى عن محظيته بيترا كوتيس.

ولم يبد على بيترا كوتيس أي علائم للقلق، لأنها كانت عالمة بقوتها. فهي التي جعلت منه رجلاً، ولم يكن قبل إلا طفلاً، حين أخرجته من مكتب ملكيادس، وقد امتلأ رأسه بأفكار خيالية، دون أن تكون له أية صلة بالواقع. فمنحته مكانة في العالم. وكانت الطبيعة قد صنعت منه كائناً انطوائياً منسحباً، يميل إلى التأمل في وحدته، فصنعت له مزاجاً نقيضاً للأول، مليئاً بالحياة، واسع الأفق. ومنحته الفرح بالحياة، ولذة المسرّة والتبذير، حتى حوكته، باطناً وظاهراً، إلى الرجل الذي كانت تحلم به منذ يفاعتها.

هكذا، وبعد ذلك كله، تزوج، إذن، كما يتزوج الأبناء جميعاً، عاجلاً أو آجلاً. ولكنه لم يجرؤ على إعلامها مقدماً. وقد اتخذ موقفاً أشبه بمواقف الأطفال، متظاهراً بالغضب، مصطنعاً الحنق والضغينة

الكاذبة، لعله يضطر بيترا كوتيس لأن تبدأ القطيعة بنفسها. وفي أحد الأيام، وجه إليها أوريليانو الثاني إهانة بلا مبرر، فتجنبت الوقوع في المصيدة، وصححت مسار الأمور. فقالت له:

ـ معنى كل ذلك أنك تريد أن تتزوج الملكة.

وشعوراً منه بالإحراج والخجل، تصنع أوريليانو الثاني الغضب، ورد عليها بهجوم من الهياج النفعالي، زاعماً أنها لم تفهمه، وأنها قد أهانته وأساءت إليه، فانقطع عن زيارتها.

ولم تكف بيترا كوتيس لحظة عن ثقتها العظيمة بنفسها، ثقة الأيائل البرية في استراحة غفوتها. وتناهت إلى سمعها أنغام الموسيقى وأصوات الأسهم النارية احتفالاً بالزفاف. فلم تر في كل ذلك، ولا في صخب البهجة العارمة، غير نزوة طيش من نزوات أوريليانو الثاني. واستوعبت في نفسها الحدث، وجعلت تهدىء بابتساماتها حنق الناس الذين كانوا يجيئون إليها رائين لمصيرها. وكانت تقول لهم:

ـ لا عليكم. فالملكات يقمن بخدمتي.

وقد قالت، مرة، لجارة لها، بثقة خفية، عندما جاءتها الأخيرة بشموع تضيء بها صورة الحبيب الضائع.

ـ إن الشمعة الوحيدة التي ستعيده مضاءة دوماً.

وكما تنبأت تماماً، عاد أوريليانو الثاني إلى بيتها حالما انتهى شهر العسل. وقد جاءها، ومعه صحبه الدائمون ومصوّر جوّال. وقد حمل معه العباءة والثوب الأبيض، الملطخ ببعض بقع الدم، اللذين كانت فيرناندا ترتديهما يوم المهرجان. وعندما حمي وطيس الحفلة عصر ذلك اليوم، ألبس بيترا كوتيس ثياب الملكة، وأعلنها حاكمة مطلقة لمدغشقر مدى الحياة. ثم وزع على رفاقه نسخاً من صورتها. وأسلمت هي قيادها للعبة. ولكنها، في داخل نفسها، أشفقت عليه عندما أدركت الخوف

الفظيع الذي كان يعتمل في صدره، والذي دفعه إلى اختراع كل هذه المباذل استرضاء لها.

وفي الساعة السابعة مساء، استقبلته في سريرها، وهي ما تزال في ثياب الملكة. وكان قد مضى شهران على زواجه، فأدركت، على الفور، أن أمور زواجه لا تسير على ما يرام. فانتشت بلذة الانتقام. وبعد يومين لم يجرؤ خلالهما على الرجوع إليها، بل أرسل إليها، بدلاً من ذلك، وسيطاً ليرتب معها شكليات الافتراق وشروطها، أدركت عندها أنها كانت بحاجة إلى الصبر أكثر مما قدّرت. فقد بدا أنه مستعد للتضحية بنفسه في سبيل المظاهر. وهنا أيضاً حافظت على اتزانها، وسهّلت الأمور منذ البداية، وأظهرت من الخضوع والإذعان للواقع ما أكّد رأي من كانوا يقولون: إنها ليست سوى امرأة مسكينة. ولم تحتفظ من أوريليانو الثاني إلاّ بذكرى واحدة، وهي حذاؤه الجلدي الطويل اللمّاع، الذي كان يريد، كما قال هو نفسه، أن يلبسه في نعشه. وقد وضعت الحذاء في أسفل صندوق لها بعد أن لفته بالخرق، وأعدّت نفسها لانتظار لا بأس به. وكانت تقول في نفسها:

ـ يجب أن يعود، عاجلاً أو آجلاً، ولو من أجل أن يلبس هذا الحذاء.

ولم تنتظر طويلاً كما قدّرت.

فالواقع أن أوريليانو الثاني قد أدرك، منذ ليلة عرسه، أنه سوف يعود إلى بيترا كوتيس قبل اليوم الذي يجب أن يلبس فيه ذلك الحذاء الجلدي اللماع.

فقد كانت فيرناندا امرأة ضائعة في هذا العالم. فقد ولدت وشبّت على بعد ست مئة ميل من البحر، في مدينة حزينة، ما تزال تخترق شوارعها المبلطة عربات نواب الملك وهي ترفل في ليالي الفزع. وهي مدينة فيها اثنان وثلاثون ناقوساً تقرع أجراس الموت في الساعة السادسة

مساء. ولم ير أحد فيها الشمس تدخل بيت الإمارة المرصوف بحجارة القبور. الهواء نفسه كفّ عن الحياة بين سروات الدار، وفي ألوان الغرف الشاحبة، وفي القناطر الراشحة ماء في بستان الياسمين البري. ولم تعرف فيرناندا عن شؤون العالم إلاّ ما كان يتناهى إلى سمعها من نغمات حزينة يصدح بها بيانو في بيت مجاور، يعزف عليه عازف وطّد النفس خلال سنين طويلة على ألاّ يستريح أبداً.

كانت تجلس في غرفة أمها المريضة، تلك الغرفة الصفراء الخضراء بفعل الأشعة الغبراء النافذة إليها من زجاج النوافذ. فتصغي إلى التمارين الموسيقية التي كان صاحبها يدأب على عزفها بجد ونشاط، وإن كانت همته تفتر أحياناً. وكانت تشعر أن تلك الموسيقى كانت تأتي من العالم الحيّ، بينما كانت هي تتهالك وهي تضفر أكاليل الموتى من سعف شجر النخيل.

وكانت أمها تنضح عرقاً بفعل حمّى الساعة الخامسة، بعد الظهر، وهي تحدثها عن أمجاد الماضي. وقد رأت فيرناندا، عندما كانت صغيرة، امرأة جد جميلة ترتدي ثياباً بيضاء، في ليلة مقمرة، تعبر البستان إلى الكنيسة. ولم يقلقها في تلك المرأة العابرة إلا أنها كانت تشبهها في كل شيء. فكأنما كانت ترى نفسها بعد عشرين سنة. فقالت لها بين سعلتين من سعالها المتواصل:

ـ إنها أم جدتك الملكة. فقد اندق عنقها وهي تحاول أن تقطف غصن ياسمين، وماتت.

وبعد سنوات طويلة، وعندما شعرت فيرناندا أنها تشبه أم جدتها، بدأت تشك في رؤياها الطفولية، فوبختها أمها لقلة إيمانها، قائلة:

ـ نحن قوم أثرياء وذوو سلطان، وسوف تصبحين ملكة في يوم من الأيام.

وآمنت هي بذلك، مع أنهما لم تجلسا إلى الطاولة الكبيرة المغطاة بسمط من كتان، والحافلة بآنية الفضة، إلاّ لتتناولا فنجاناً من الشوكولا المذابة بالماء. وقد ظلت حتى يوم زواجها تحلم بمملكة أسطورية، على الرغم من أن أباها الدون فيرناندو اضطر إلى رهن البيت كي يشتري لها ثياب عرسها. وما كان ذلك عن سذاجة وجنون عظمة، ولكنها ربِّيت هكذا. فهي تذكر أنها منذ وعت وهي تقضي حاجتها في إناء من ذهب عليه شعار العائلة. وكانت أول مرة خرجت فيها من البيت، وهي في الثانية عشرة من عمرها، في عربة تجرها الخيول. فذهبت بها إلى الدير، مع أن المسافة لم تكن إلا عبور شارعين.

وقد عجبت زميلاتها لما رأينها تظل بعيدة عنهن، فتجلس في مقعد له مسند عال، ولا تشاركهن لعبهن في الفرص. وكانت الراهبات يقلن لهنّ:

ـ إنها تختلف عنكن. فسوف تصبح ملكة.

وصدّقت زميلاتها ذلك، لأنها كانت أجمل من رأين في حياتهن من الفتيات، وأكثرهن أناقة وأطهرهن. وقد تعلمت، في ثماني سنوات، نظم الشعر باللاتينية، والعزف على آلة الكلافسان، وتعلمت كيف تتحدث عن الصقور والبزاة وصيدها مع الرجال، وفي شؤون الدين مع الأساقفة، وأن تناقش في أمور الدولة مع الحكام الأجانب، وفي شؤون الله مع البابا. وبعد ذلك، عادت إلى بيت أهلها كي تضفر أكاليل الموت من سعف النخيل.

وقد وجدت البيت كأنما قد نهب، فلم يبق فيه سوى الأثاث الضروري. أما الشمعدانات وأواني الفضة، وأدوات البيت الأخرى، فقد بيعت تباعاً لدفع نفقات دراستها. ثم قضت أمها تحت وطأة الحمّى المائية. وكان أبوها، الدون فيرناندو، الذي كان يرتدي بزته السوداء،

ويكاد يختنق من ضغط قبته المنشّاة، ويعلق على صدره سلسلة ذهبية. يعطيها كل يوم اثنين قطعة فضية من أجل مصروف البيت، ويأخذ الأكاليل الجنائزية التي ضفرتها في أسبوعها المنصرم. كان يقضي معظم يومه حبيس مكتبه، لا يخرج إلا نادراً. حتى إذا فعل، فكان يعود قبل السادسة مساء، ليحرك حبات سبحته وهو يتلو دعاءه. لم يتخذ قط له صديقاً حميماً. ولم تسمع هي، في حياتها، شيئاً عن الحرب التي دمرت البلاد ولم تنقطع البتة عن سماع تمارين البيانو في الثالثة بعد ظهر كل يوم.

وكانت قد بدأت تنسى أحلامها في أن تصبح ملكة، حين سمعت طرقتين خفيفتين على الباب. وفتحت الباب، فرأت عسكرياً جميل الطلعة، احتفالي الحركات، في وجنته ندبة، وعلى صدره وسام. فدخل إلى مكتب أبيها، وأغلقا الباب. وبعد ساعتين جاءها أبوها في مشغل الخياطة، فقال لها:

ـ جمّعي حاجاتك، سوف تقومين برحلة طويلة.

وهكذا جاؤوا بها إلى ماكوندو. وبين عشية وضحاها، وبضربة واحدة حاسمة، أوردتها الحياة موارد الواقع، بعد أن قضى ذووها سنوات طويلة وهم يبعدونها عنه ويخفونه عنها.

وعندما عادت إلى البيت، حبست نفسها في غرفتها كي تنتحب وتبكي، فلا تعير انتباهاً لرجاء الدون فرناندو. كانت تحاول جاهدة أن تنسى جرح تلك المهزلة الفظيعة. وكانت قد أقسمت ألاّ تخرج من غرفتها إلاّ ميتة، عندما وصل أوريليانو الثاني كي يعيدها. وكان ذلك محض مصادفة وحظ. ذلك أنها، وقد أذهلها الغضب وأحنقها الخجل مما حدث، كانت قد كذبت عليه كي لا يعرف هويتها الحقيقية. وكان الدليل الوحيد عليها، عند أوريليانو الثاني عندما انطلق كي يعود بها، هو

لهجتها، وهي لهجة أهل الهضاب العالية، التي لا يمكن أن يشبهها فيها أحد، ومهنتها في ضفر الأكاليل الجنائزية من سعف النخيل.

بحث عنها دون توقف، وأبدى في بحثه تهوراً مخيفاً شبيهاً بتهور خوزيه أركاديو بوينديا، عندما تسلق الجبال كي ينشىء ماكوندو، وغروراً أعمى لا يضارعه إلا غرور أوريليانو بوينديا، الذي أشعل كل تلك الحروب التي لا طائل فيها، وعناداً صلباً كعناد أورسولا في الحفاظ على استمرار سلالتها. وهكذا بحث أوريليانو الثاني عن فيرناندا دون يأس أو ملل. سأل عن الأماكن التي تباع فيها الأكاليل الجنائزية، فاقتاده بعضهم من بيت إلى بيت، كي ينتقي أفضلها. حتى إذا سأل أين يمكن أن توجد أجمل امرأة يمكن أن تراها عين على هذه الأرض، جاءته كل الأمهات ببناتهن. وضاع في دروب ضبابية، وفي آماد زمنية مآلها إلى النسيان، وفي دهاليز تنتهي إلى رحيل الوهم. قطع الفيافي الصفراء المترامية الأطراف، يردد فيها الصدى أفكاراً ما أفصح عنها لسان، ويبعث فيها القلق سراباً مشؤوماً.

وانتهى به المطاف، دون نتيجة، إلى بلدة مجهولة، كل أجراسها تقرع معلنة نعياً. فعرف مباشرة، ولو أنه لم يكن قد رأى في حياته، وأن أحداً لم يسبق له أن وصف له، الجدران المتآكلة بملح العظام، والشرفات المنهارة بعد أن نخرها الفطير وأنهك أخشابها. وعلى الباب رأى لافتة مسمّرة، كاد يمحوها المطر، وكانت أكثر لافتة تدعو للحزن في الدنيا. وعليها:

ـ أكاليل جنائزية للبيع.

بين تلك اللحظة والصباح الجليدي، الذي غادرت فيه فيرناندا البيت، بحراسة رئيسة الراهبات، لم يمض غير قليل من الزمن، لم يكد يكفي كي تخيط لها الراهبات جهازها، وكي تكدس، في الصناديق الستة،

الشمعدانات وأواني الفضة وإناء غرفة النوم الذهبي، وبقايا أخرى كثيرة، بعضها لا نفع له، هي كل ما تخلف عن كارثة عائلية انتظرت قرنين كي تصل إلى نهايتها.

واعتذر الدون فيرناندو عن تلبية الدعوة لمرافقتهما، ووعد بأن يزورهما فيما بعد، وعندما يفرغ من أشغاله الحالية. وما إن بارك ابنته وودعها، حتى انصرف إلى مكتبه، وأغلق على نفسه بابه، كي يسجل الإعلان، بخطوط حزينة، عليها شارة العائلة، التي يمكن أن تكون أول اتصال إنساني بين فرناندا وأبيها. فقد كان ذلك، عندها، يوم ميلادها الحقيقي. أما عند أوريليانو الثاني فقد كانت، تقريباً في آن معاً، بداية السعادة ونهايتها.

كانت فيرناندا تحمل معها تقويماً ثميناً له مفاتيح مذهبة صغيرة. أشّر فيه مرشدها الديني، بحبر بنفسجي، على أيام الصيام في العلاقة مع زوجها. وهي لا تشمل أيام الجمعة العظيمة، والآحاد، وأول جمعة من كل شهر، وأيام التراجع، والتضحية، والدورة الشهرية. فإذا الأيام النافعة في تقويمها قد اختزلت إلى اثنين وأربعين يوماً، كانت موزعة مبعثرة في متاهة كأنها شبكة عنكبوت بنفسجية. وظن أوريليانو الثاني أن الزمن كفيل بحل مشكلة تلك الشبكة العدائية، فمدّد احتفالات العرس إلى أبعد مما كان منتظراً. وأتعب أورسولا ما كانت ترميه من زجاجات البراندي والشمبانيا الفارغة، كي لا تحشر البيت. وكان يحيرها أن العروسين كان ينامان في ساعات مختلفة، وكل منهما في غرفة، بينما كانت الأسهم النارية ما تزال تنطلق، والموسيقى تصدح، ويستمر ذبح المواشي احتفالاً. فتذكرت أورسولا تجربتها، وتساءلت ما إذا كانت فيرناندا تلبس حزام العفة، مما سوف يثير الأقاويل في البلدة، عاجلاً أم آجلاً، ويتسبب في حصول مأساة. ولكن فيرناندا اعترفت لها أنها،

بساطة، تنتظر مرور أسبوعين قبل أن تسمح لزوجها بمسها للمرة الأولى.

وعند انتهاء الفترة فعلاً، فتحت فيرناندا باب غرفة نومها، ووطدت نفسها على التضحية، وكأنها من أضاحي التفكير، واستطاع أوريليانو الثاني أن يرى أجمل امرأة على وجه الأرض: في عينيها بريق عين حيوان خائف، وقد انتشر شعرها النحاسي الطويل على الوسادة. أدهشه مشهدها، فتوقف لحظة، وهو لا ينتبه إلى أن فيرناندا كانت قد ارتدت قميص نوم أبيض طال حتى كعبيها، وتدلى كمّاه حتى رسغيها، وتتوسطه صدرية مستديرة كبيرة موشحة جميلة تغطي أسفل بطنها. ولم يستطع أوريليانو الثاني أن يكبت ضحكة عالية ترددت في أرجاء البيت، وقال:

- هذا أفحش ما رأيت في حياتي. فقد تزوجت راهبة من راهبات العفة.

وبعد أن أمضى شهراً دون أن يفلح في إقناع زوجته بأن تنزع عنها قميص النوم، ذهب إلى بيترا كوتيس والتقط لها الصورة بلباس الملكة، ولما استرضى فيرناندا وأرجعها إلى البيت، رضخت لمطالبه في حمّى المصالحة، ولكنها لم تستطع أن تمنحه الراحة التي كان يمني نفسه بها عندما رحل كي يعود بها من المدينة ذات الاثنين والثلاثين ناقوساً كنسياً. فلم يجد أوريليانو الثاني لديها غير إحساس عميق بالحزن. ولاحظت فيرناندا، قبيل ميلاد طفلهما الأول، أن زوجها قد بدأ يعود سراً إلى فراش بيترا كوتيس.

واعترف هو لها بذلك بذلة وحزن، قائلاً:

- هذا ما حدث فعلاً.

وتابع موضحاً:

- كان عليّ أن أفعل ذلك من أجل أن تستمر الحيوانات في التكاثر.

واحتاج لبعض الوقت كي يقنعها بتلك الذريعة الغريبة. ولكنها، أمام الأمر الواقع، وبعد أن قدّم لها أدلة لا تدحض، اكتفت بأن تحصل منه على وعد بألا يفاجئه الموت وهو في سرير عشيقته. وعاش الثلاثة على هذه الشاكلة راضين. وظل أوريليانو الثاني محباً وعاشقاً وفياً لهذه وتلك. وراحت بيترا كوتيس تتباهى بعد المصالحة، بينما كانت فيرناندا تتظاهر بجهل الحقيقة.

ولكن ذلك الحلف لم ينجح تماماً في ضمّ فيرناندا إلى العائلة. فلطالما ألحّت أورسولا عليها لتتخلص من وضع اللفحة الصوفية بعد أن تضاجع زوجها والتي كانت مثار همس لدى الجيران. ولكن جهودها ذهبت أدراج الرياح. ولم تستطع أن تقنعها باستعمال الحمام، أو مغسلة الليل، ولا أن تبيع إناءها الذهبي للعقيد أوريليانو بويندبا، كي يحوله إلى سمكات صغيرة. وكانت أمارانتا تضايق من لهجتها وطريقتها الخاصة بالكلام، ومن عادتها في تسمية الأشياء تورية. وجعلت تتعمد إغاظتها، بأن تتحدث بالطريقة العصفورية في حضورها:

- إنز بعضز النزاس بزاتزا ضباقزون فزي طزبريزي فتي زي كزالزا مزهزم.

وانزعجت فيرناندا، يوماً، من سخرية أمارانتا، وأرادت أن تعرف ما تقوله. ولكنّ الأخيرة، حرّفت كلامها، وأجابت دون تورية:

- كنت أقول أنك واحدة من أولئك اللاتي يخلطن بين إستهن والجمعة العظيمة.

وانقطع الحديث بينهما منذ ذلك الحين. حتى إذا اضطرتهما الظروف لذلك تراسلتا، أو تكلمتا بطريقة غير مباشرة. ولم تتخلّ فيرناندا، رغم عداء العائلة، عن إرادتها في إملاء تقاليدها الموروثة. فتخلصت أولاً من عادة تناول الطعام في المطبخ. وإذا جاع أحد أجبرته على الانتظار حتى

وقت الطعام المحدّد، على الطاولة الكبيرة في غرفة الطعام المغطاة بسماط الكتان، وقد وضعت عليها الشمعدانات والأواني الفضية. ولم تستغرب أورسولا ذلك الضرب من النظام، بل رأته شيئاً عادياً من صميم الحياة اليومية. ولكنه شيئاً فشيئاً، ولّد في البيت جواً مصطنعاً. وكان أول من ثار عليه خوزيه أركاديو الثاني على الرغم من طبعه الهادىء. ولكن تلك العادات ترسخت في البيت، وكذلك عادة الدعاء مع السبحة قبل تناول العشاء، مما أثار حب استطلاع الجيران. وانتشرت شائعة مفادها أنّ آل بوينديا لا يجلسون إلى طعامهم كالآخرين، بل حوّلوا تناوله إلى صلاة حقيقية كبرى. ثم اصطدمت خرافات أورسولا، ومنشؤها إلهام اللحظة لا التقليد، بما ورثته فيرناندا عن أهلها من خرافات المناسبات المكتوبة لكل حادثة. واستمرت بعض العادات القديمة ما بقيت أورسولا على قواها، وبقي لإلهامها بعض التأثير في حياة العائلة. ولكنها حين فقدت بصرها، وانزوت، تحت وطأة السنين، في إحدى زوايا البيت، أكملت الدائرة القاسية التي بدأتها فيرناندا منذ وصولها، وانغلقت. وغدت هي سيدة البيت المتصرفة بمصيره أكثر من أي إنسان آخر. أما سانتا صوفيا (التقية) فكانت ما تزال تتاجر بالكاتو والكاراميلا المشكلة على هيئة حيوانات صغيرة، كما شاءت أورسولا. فرأت فيرناندا في تلك المهنة أمراً لا يليق، فأوقفتها بعد قليل.

وأما أبواب الدار التي كانت تظل مشرعة منذ بزوغ الفجر حتى ساعة النوم، فقد صارت تغلق عند القيلولة، بحجة أن الشمس كانت تجعل حرارة الغرف لا تطاق، ثم ما لبثت الأبواب أن أبقيت مغلقة دائماً تقريباً. وأزيلت باقة الأس كما أزيل رغيف الخبز، اللذان كانا معلقين على باب الدار، منذ إنشاء ماكوندو، وحلت محلهما مشكاة فيها قلب يسوع الأقدس.

وتنبه العقيد أوريليانو بوينديا لهذه التعديلات، وحدس بعواقبها. فقال محتجاً:

ـ نحن في سبيلنا إلى أن نصبح أناساً من علية القوم. وإذا دامت الحال على هذا المنوال فسوف نقاتل النظام المحافظ مرة أخرى، ولكن، هذه المرة، لكي نقيم مكانه ملكاً.

وتحاشت فيرناندا، بلياقتها، أن تصدمه مباشرة. فقد كان لا يعجبها فيه استقلال طباعه، وكرهه للكبح الاجتماعي مهما كان نوعه. كان يضايقها منه فنجان القهوة في الساعة الخامسة صباحاً، وفوضى مشغله، ودثاره المنفوش، وعادته في القعود على باب الدار في أصيل كل يوم. ولكنها سمحت ببقاء ذلك الشذوذ في آلية الحياة العائلية، لاقتناعها بأن العقيد العجوز لم يكن سوى حيوان هدأته السنون وزوال الأوهام، ولو أنه يظل قادراً، في سورة عجز ثائرة، على أن يقتلع البيت من أساسه. وعندما قرّر زوجها أن يسمي ابنهما الأول باسم جدّه لم تجرؤ على المعارضة لأنها كانت قد وصلت البيت منذ عام فقط. ولكنها، عندما ولدت ابنتهما الأولى، أعلنت دون تردد أو لبس، أنها ستسميها روناتا باسم أمها، مع أن أورسولا كانت قد قررت أن تسميها رميديوس. ولعب أوريليانو الثاني دور الوسيط، وأعجبه دوره في المفاوضات التي آلت إلى أن تعمّد الطفلة باسم روناتا رميديوس. وظلت فيرناندا تسميها روناتا دون إضافة، بينما كانت عائلة زوجها، والبلدة جميعاً تسميها ميمي، تصغيراً لرميديوس.

ولم تكن فيرناندا، في البدء، تتحدث عن أهلها. ولكنها، مع الزمن، أخذت تجعل من أبيها مثلاً أعلى. كانت تتحدث عنه على المائدة وكأنه رجل لا مثيل له، رفض كل المظاهر الباطلة، وأنه كان في سبيله لأن يصبح قديساً. ودهش أوريليانو الثاني لهذا التقديس العارم المفاجىء

لحميه، فلم يستطع أن يكتم نكتة مهذبة، حول هذا الموضوع، في غياب زوجته. وجارته العائلة في ذلك حتى أورسولا، وهي المشهورة بحرصها المطلق وعنايتها الفائقة بانسجام العائلة، والتي كانت تتألم في سرها لكل مماحكة أو احتكاك بين أعضاء الأسرة، حتى أورسولا أجازت لنفسها أن تقول مرة إن مستقبل حفيد حفيدها في أن يكون البابا قد بات أكيداً. وتعلل ذلك بقولها:

ـ لأنه حفيد قديس، وابن ملكة وسارق بهائم.

وتعوّد الأطفال، على الرغم من تلك المؤامرة الضاحكة، على التفكير بأن جدهم كائن خرافي، يكتب لهم القصائد الدينية في رسائله، ويرسل لهم، في كل عيد ميلاد، صندوق هدايا كبيراً جداً، لا يدخل من باب الدار إلا بعد جهد كبير. ولم تكن الهدايا، في الواقع، غير بقايا الميراث الأميري. وقد استخدمت لإقامة مذبح في غرفة الأطفال، محاط بتماثيل للقديسين بأحجامهم الطبيعية، ولهم عيون بلورية تمنحهم مظهر الأحياء. أما ثيابهم فكانت من نسيج فيه توشيح فني، لم يلبس قط أهل ماكوندو أحسن منها. وشيئاً فشيئاً تحولت أبهة البيت العتيق الحزينة إلى فخامة بيت آل بوينديا المنير. وقد دفع ذلك التحول أوريليانو الثاني إلى التعليق قائلاً:

ـ لقد أرسلوا إلينا كل المقبرة العائلية، ولم يبق إلا أن يرسلوا إلينا شجرات الصفصاف الباكي وشواهد القبور.

وكان الأطفال يمضون العام بطوله وهم ينتظرون شهر كانون الأول (ديسمبر)، مع أنّ الصناديق التي كانت تصلهم لم تكن قط تحوي ما يفيد منه الأولاد في لعبهم. ولكن الهدايا القديمة كانت أشياء نادرة وجديدة على البيت. وفي عيد الميلاد العاشر، وبينما خوزيه أركاديو الصغير يستعد للذهاب إلى المدرسة، وصل الصندوق الضخم أبكر من موعده في السنوات السابقة وقد سمّره الجدّ بعناية. وإمعاناً في الحرص، طلاه

بطبقة واقية من القار. وألصق به بطاقة العنوان المعتادة، مكتوبة بالحروف القوطية:

ـ «إلى السيدة رفيعة القدر السنيورا الدونا فيرناندا ديل كاربيو دو بوينديا».

وبينما كانت في غرفتها تقرأ الرسالة، سارع الأطفال إلى فتح الصندوق. وساعدهم أوريليانو الثاني، فنزعوا طبقة القار الواقية، واقتلعوا مسامير الغطاء، ورفعوا طبقة النشارة، فوجدوا في الداخل صندوقاً آخر طويلاً من الرصاص مغلقاً بمسامير لولبية (براغي) ضخمة من النحاس. أخرج أوريليانو الثاني المسامير اللولبية الثمانية أمام إلحاح الطفلين. ولم يكد ينزع صفيحة الرصاص حتى أجفل، مطلقاً صيحة عالية، وأبعد طفليه عن منظر الدون فيرناندو، وقد ارتدى بزة سوداء، واستقرّ على صدره صليب، وقد تفسخت بشرته وبدأت تخرج غازات سامة، بعد أن بدأ ينضج ببطء في سائل تصدر عنه فقاعات كاللآلئ الحيّة.

بُعيد ولادة طفلتهما، أعلنت الحكومة عن يوبيل العقيد أوريليانو بوينديا، دون أن يكون ذلك منتظراً من أحد. وأعلنت الحكومة عن رغبتها في الاحتفال باليوبيل، بمناسبة ذكرى معاهدة السلام في نيرلانديا. ولم يكن ذلك القرار منسجماً مع السياسة الحكومية، فرفض العقيد ذلك التقدير، وأعلن معارضته الشديدة له، قائلاً:

ـ إنها المرة الأولى التي أسمع فيها بكلمة يوبيل.

ولكن مهما يكن معناها فلا بد أن تكون حيلة.

وازدحم مشغل الصياغة الصغير بالمبعوثين. وعاد المحامون بأثوابهم الداكنة، وهم أكبر سناً وأكثر كآبة من ذي قبل، عندما كانوا يحومون حول العقيد كالغربان. ولما رآهم بين يديه، وهم الذين كانوا أصلاً سبب

تعقد الحرب، لم يستطيع أن يطيق مكر تهانيهم. فأمرهم بالانصراف عنه، وأصرّ على أنه لم يكن بطلاً للأمة كما قالوا عنه، وأنه ليس سوى صانع حرفي بلا ذكريات. وهو لا يحلم إلاّ بأن يموت تعباً وقد نسيه الناس. وأثار حفيظته أكثر ما علمه من أنّ رئيس الجمهورية بالذات كان يفكر في حضور الاحتفال في ماكوندو، كي يقلده وسام الاستحقاق.

فأرسل العقيد أوريليانو بوينديا إلى رئيس الجمهورية يخبره حرفياً أنه ينتظر فعلاً، بفارغ الصبر، تلك المناسبة المستحقة، ولو أنها جاءت متأخرة، لكي يطلق عليه رصاصة، لا حساباً له على تدابير نظامه الفاسد الظالم وحسب، وإنما لأنه أخلّ بواجبات الاحترام اللازمة لعجوز لم يصدر عنه أي أذى لأحد. ولقد بلغت الشدة التي صاغ بها تهديده درجة دفعت رئيس الجمهورية إلى إلغاء رحلته في آخر لحظة. فأرسل له الوسام مع أحد ممثليه الشخصيين. وتعرّض العقيد جيرينيلدو ماركيز لكل أنواع الضغط من المسؤولين، مما حدا به إلى مغادرة سرير الكساح، والذهاب لزيارة رفيق السلاح القديم لعله يقنعه. وعندما رأى العقيد أوريليانو بوينديا ذلك المقعد المتحرك. وقد حمله أربعة من الرجال، وتمدّد بين وسائده الكبيرة صديقه الذي شاركه انتصاراته وعايشه هزائمه في عمر الشباب، لم يشك لحظة في أنه جشّم نفسه كل ذلك العناء كي يعبر له عن شدّ أزره ومعاضدته. ولكنه عندما علم عن دافع الزيارة، طرده من المشغل، قائلاً :

ـ الآن اقتنعت متأخراً، بأنني كنت يمكن أن أسدي لك معروفاً عظيماً لو أنني سمحت لهم بإعدامك.

وهكذا، جرى الاحتفال باليوبيل دون أن يحضره أي واحد من أفراد العائلة. واتفق أن تكون المناسبة مع أسبوع المهرجان (الكرنفال). ولم يستطع أحد أن ينتزع من رأس العقيد أوريليانو بوينديا الفكرة التي كان

يتشبث بها، عن أن الحكومة خططت عمداً للتوافق بين الأمرين، كي تزيد من قسوة السخرية منه. وكان في مشغله يسمع أنغام الموسيقى العسكرية تكريماً له، ودويّ المدافع المنطلقة على شرفه، والأجراس التي كانت تقرع تسبيحة الشكر لله، ويسمع بعضاً من عبارات الخطاب الذي كان يلقى أمام باب داره، عندما أطلقوا اسمه على الشارع. وبلغ به الغضب ذروته، وعصف به ضغطه، واغرورقت عيناه بالدموع، للمرة الأولى منذ أيام الهزيمة. وتألم، أشد ما تألم، لأنه لم تعد له جرأة الشباب لكي يعلنها حرباً تمحو بالدم آخر آثار النظام المحافظ. وعندما تلاشت أصداء التكريم والاحتفال، جاءته أورسولا وقرعت عليه باب مشغله، فأجاب :

ـ لا تزعجوني، فأنا مشغول.

وألحت أورسولا بصوتها العادي المألوف :

ـ افتح، فليس لهذا علاقة بالاحتفال.

وعندها رفع العقيد أوريليانو بوينديا عارضة الباب، فرأى من فرجته سبعة عشر رجلاً في هيئاتهم وأشكالهم المختلفة تماماً، على الرغم مما كان يبدو عليهم جميعاً طابع من الوحدة يكفي لمعرفة هويتهم، ولو كانوا في مختلف أصقاع الأرض.

كانوا أبناءه. وقد حضروا من غير اتفاق بينهم، بل دون أن يعرف أحدهم الآخر، من كل أنحاء الشاطىء المترامية الأطراف الضائعة، عندما سمعوا بأنباء اليوبيل. كان كل منهم يحمل باعتزاز اسم أوريليانو مع كنية أمه.

وأقاموا في البيت أياماً ثلاثة، فقلبوا عاليه سافله، حتى لكأن حرباً قد نشبت فيه. بينما كانت أورسولا في غاية الرضا من أعماق قلبها، وكانت فيرناندا في غاية اشمئزازها. وبحثت أمارانتا، بين أوراق الماضي، عن

السجل الذي قيدت فيه أورسولا اسم كل من الأولاد، وتاريخ ميلاده، ويوم عمّاده. وعندما وجدته أضافت إلى اسم كل واحد منهم عنوانه الحالي.

وقد كانت تلك القائمة كفيلة بأن يراجع فيها المرء عشرين سنة من الحرب، ويلمّ بالتفاصيل عن رحلات العقيد الليلية، منذ ذلك الفجر الذي رحل فيه عن ماكوندو، على رأس واحد وعشرين رجلاً، على طريق ثورة خيالية، حتى اليوم الذي عاد فيه آخر مرة بدثار خشن ملطخ بالدم.

ولم يترك أوريليانو الثاني هذه الفرصة تفلت منه فاحتفل بمجيء أبناء عمّ أبيه ، وأقام وليمة كبرى أراق فيها الشمبانيا وعزف على الأكورديون .
وقد كان تفسير ما فعله رغبة منه في التعويض، ولو متأخراً، عما فقده لغيابه عن المهرجان بسبب اليوبيل. ولقد حطموا في الحفلة نصف أطباق البيت وصحافه، وهشموا شجيرات الورد، وهم يطاردون ثوراً كي يركبوه حماراً. وقتلوا الدجاج برصاص المسدسات، وأجبروا أمارانتا على أن ترقص على أنغام موسيقى بيترو كريسبي الحزينة، وأقنعوا ريميديوس الجميلة بلبس بنطال رجالي، وتسلق عمود مدهون بالشحم، وأفلتوا في غرفة الطعام خنزيراً مصبوغاً بالدهن فأوقع فيرناندا.

ولكنّ أحداً لم يحزن لذلك، ولم يندم أحد لما أصاب البيت من خراب وتلف. فقد كان ما أصابه عبارة عن هزة صحيّة.

في البداية، استقبلهم العقيد أوريليانو بوينديا ببعض الشك. فقد كان يشك في نسب بعضهم. ولكنه، من بعد، طار بهم فرحاً. وأعطى كلاً منهم سمكة صغيرة ذهبية. حتى خوزيه أركاديو الثاني، الذي كان معروفاً بتقوقعه وانزوائه، نظّم لهم بعد ظهر أحد الأيام، ليقضوه في مشاهدة صراع الديكة. وكاد ذلك ينقلب إلى مأساة، لأن أكثر

الأوريليانويين(١) كانوا مهرة في التحكيم في صراع الديكة. فاكتشفوا، من النظرة الأولى، خداع الأب أنطونيو إيزابيل وحيله. وتبدّت لأوريليانو الثاني إمكانية أفراح وسرور لا حدود لها بوجود هؤلاء الأقرباء الماجنين المعربدين. فقرر أن يقيهم جميعاً في ماكوندو للعمل معه. ولم يقبل ذلك إلا واحد منهم ، هو أوريليانو تريست (الحزين) . وكان خلاسياً ، عملاقاً ، عنيفاً ، كجده يميل إلى الاكتشاف . وكان قد جاب نصف العالم بحثاً عن الثورة ، ولم يكن يهمه المكان الذي يستقر فيه .

أما الآخرون، على الرغم من كونهم عازبين، فقد كانوا يعتبرون مصيرهم محتوماً. فقد كانوا صناعاً ماهرين، من الحرفيين الذين يلزمون بيوتهم ويعيشون بسلام. وفي يوم أربعاء الرفات، وقبل أن يعودوا من حيث أتوا، ليتفرقوا على الشاطىء الطويل، عزمت أمارانتا أن تجعلهم يرتدون ثياب الأحد، ليرافقوها إلى الكنيسة. ورافقوها فعلاً، ولكن عن تسلية، لا عن إيمان، إلى المائدة المقدسة. فرسم الأب أنطونيو إيزابيل على جباههم صليب الرفات بالرماد. وعندما عادوا إلى البيت حاول أصغرهم أن ينظف جبينه. فوجد أن الإشارة لا تمحى. وكذلك كان شأن إخوته. فجربوا بالماء والصابون، والتراب والفرشاة. ثم جربوا بحجر الخفّاف ومحلول القلي، ولكنهم لم يفلحوا في محو الصليب عن جباههم. أما أمارانتا وبقية المصلين فقد أزالوه بلا صعوبة. فقالت لهم أورسولا، وهي تودعهم :

ـ لن يخطئكم أحد بعد الآن. فأنتم مميّزون.

فانطلقوا راجعين جماعة، تتقدمهم الموسيقى وطلقات الأسهم النارية.
وقد خلفوا في البلدة شعوراً بأن سلالة آل بوينديا قد نثرت بذورها لتبقى إلى قرون قادمة . وأقام أوريليانو تريست (الحزين) ، وهو الوحيد الذي بقي منهم ،

(١) أي الأولاد، لأن كل واحد منهم كان يحمل اسم أوريليانو مضافاً إلى كنية أمه.

في ضاحية البلدة. وظلّ، وصليبه على جبينه، يعمل في معمل الجليد الذي حلم به جدّه الأول خوزيه أركاديو بوينديا أيام عيشه في دوّامة الاختراع.

وبعد بضعة أشهر من وصوله، وبعد أن عرفته البلدة، واحترمه أهلها، بدأ أوريليانو تريست (الحزين) يبحث عن بيت ليأوي إليه ويأتي بأمه وأخته العازبة (وهي ليست بنت العقيد أوريليانو بوينديا). فأعجبه البيت القديم الكبير، الذي كان مهدّماً، في زاوية الساحة العامة، والذي كان يبدو خاوياً. وسأل عن أصحابه فقيل له إنه ليس لأحد، وإنه كانت تعيش فيه، من قبل، أرملة وحيدة تتغذى بالتراب وكلس الجدران، وأن أحداً لم يشاهدها في الطريق لسنين خلت سوى مرتين، وهي تلبس تبّعة مغطاة بزهور اصطناعية صغيرة، وتحتذي حذاء قديماً فضي اللون. وكانت عندها تعبر الساحة العامة في طريقها إلى مكتب البريد، كي ترسل رسائلها إلى الأسقف. وأضافوا إلى قولهم أن رفيقتها الوحيدة كانت خادمة قاسية، تقتل القطط والكلاب وأي حيوان يدخل البيت، وتلقي بجثثها إلى الخارج، كي تسمم برائحتها النتنة جوّ البلدة. وقد مضى وقت طويل على آخر حيوان مقتول جففته الشمس. فاعتبر الناس أن صاحبة البيت وخادمتها قد ماتتا قبل نهاية الحرب، ولم يبق البيت صامداً إلاّ لأن السنين الأخيرة لم تشهد شتاء قاسياً أو أنواء شديدة. وقد تآكلت رزات مصاريع الأبواب بفعل الصدأ، وكادت تسقط لولا ما كان يسندها من بيوت العناكب. وبدا على النوافذ كأنها لحمت بفعل الرطوبة، ولطول ما أقفلت. وقد تشظى بلاط الأرض، وعلته الأعشاب والزهور البرية وعششت في شقوقه السحالي، وباضت فيه حيوانات صغيرة أخرى كثيرة، وكان كل ذلك يؤكد الرأي القائل بأن أي إنسان لم يعش في البيت منذ نحو نصف قرن على الأقل. ولم ينتظر أوريليانو

الحزين، ولم يبحث، وهو الشاب النشيط، عن مزيد من الأدلة كي يبدأ العمل.

دفع الباب الرئيس بكتفه، فتساقطت أخشابه المنخورة دون صوت، في انهيار مكتوم لم يندّ عنه غير غبار الزمن وبقايا الأعشاش والديدان الترابية. وتوقف أوريليانو الحزين في الباب. حتى انقشعت غمامة الغبار، فاكتشف في وسط الغرفة، تلك المرأة الهزيلة، التي كانت ما تزال ترتدي ثياب القرن الماضي، وعلى جمجمتها المتوفة بعض شعرات صفر. ولم يبق منها ما يلفت النظر سوى عينيها الواسعتين الجميلتين، وقد انطفأ فيهما آخر بريق للأمل. وتقلّعت بشرة وجهها من جفاف الوحدة.

وارتعش أوريليانو تريست (الحزين) أمام ذلك المشهد، الذي بدا كأنما هو من عالم آخر، حتى كاد ألاّ يرى المسدس العسكري القديم الذي كانت تلك المرأة تصوبه نحوه. وتمتم قائلاً:

ـ المعذرة.

وبقيت في مكانها، من وسط الغرفة، كأنها تمثال رخام عتيق. وقد تراكم في الغرفة أثاث قديم. وأخذت تتفحص بدقة ذلك العملاق الداخل عليها، بمنكبيه العريضين ووشم الصليب على جبينه. فكانت كأنما تراه خلال غيمة من غبار، عبر ضباب عصر عاشته، وعلى كتفه بندقية صيد بطلقتين، وفي يده قلادة شكّت فيها الأرانب. فصاحت بصوت خفيض:

ـ بحق الله عليك. أفليس حراماً أن تعيدوا إليّ تلك الذكرى الآن؟!.

فقال لها أوريليانو تريست (الحزين):

ـ أريد أن أستأجر البيت.

وعندها صوبت المسدّس إلى الصليب على جبينه، وقد قبضت عليه

بيد ثابتة، ورفعت الزناد بحزم، وأمرته قائلة :

ـ اخرج من هنا.

روى أوريليانو الحزين تلك الحادثة للعائلة، على مائدة العشاء. فعجبت أورسولا، ولم تقو على كبح دموعها. ثم صاحت وهي تمسك رأسها بيديها :

ـ يا إلهي، أما زالت حية تعيش !!

لقد جار الزمن، وجارت الحرب وأعباء الدنيا عليها، فأنستها روبيكا. وكانت الوحيدة التي لم تبرح روبيكا وعيها وخيالها لحظة وحيدة هي الحاقدة أمارانتا. فقد كانت تتصورها تتعفن في حجرها. وكانت قد بدأت هي الأخرى تشيخ وتتقوقع . كانت تفكر فيها عند الفجر، حين يستيقظ جليد قلبها في فراشها اليباب. وكانت تذكرها عندما تغسل نهديها المتهدلين، وبطنها المترهل، وساقيها الناحلين بالماء والصابون : عندما تلبس شلحات الشيخوخة البيضاء وخراطاتها ذوات الطيّتين، وعندما تبدّل رباط يدها الأسود، ذكرى العقاب الفظيع، فقد كانت أمارانتا ما تفتأ تفكر بروبيكا دون انقطاع، في كل الأوقات، سواء استيقظت أم غفت، وفي أحسن لحظات عمرها وفي أسوئها. فقد حجّمت الوحدة ذكرياتها، وأحالت إلى رماد معظم الحنين الضعيف، الذي منحته الحياة لقلبها، بينما نقت الوحدة بقايا تلك الذكريات المرّة وجمّلتها وكبّرتها وخلدتها. . فهي التي عرّفت ريميديوس الجميلة بوجود روبيكا. فكانت كلما مرّت أمام بيتها الخرب، روت لها حادثة مؤلمة أو حكاية حزينة. لعلّ ابنة أخيها(١) تشاركها الضغائن التي تضنيها، فتحيا الضغينة بعد موتها. ولكنها لم تبلغ مرادها، لأن ريميديوس الجميلة كانت

(١) هي في الواقع ابنة ابن أخيها، أي حفيدته.

في منجاة عن كل العواطف التي تمليها الأهواء، بل كانت في منأى عن عواطف الآخرين.

أما أورسولا فقد نما عندها شعور معاكس لشعور أمارانتا. فكانت تستعيد ذكراها من غير سوء. كانت تستحضر صورة روبيكا، تلك الطفلة البائسة التي جيء بها إلى بيت آل بوينديا، وهي تحمل حقيبة فيها عظام أهلها، والتي انتصرت على الفعلة التي فعلتها وجعلتها لا تستحق أن تكون منتمية إلى شجرة العائلة.

وعزم أوريليانو الثاني على أن يأتوا بها لتعيش معهم في البيت. ولكن طيب نيته اصطدم برفض روبيكا العنيد. فقد كانت قد أوغلت في حياة الوحدة والانعزال. وتكيّفت لها سنين طويلة، تذوّقت خلالها كل ألوان الشقاء والعذاب. ورفضت أن تتنازل عن حياتها تلك، لقاء شيخوخة تقضيها معذبة بمشاعر الشفقة والإحسان.

في شهر شباط (فبراير)، عندما رحل أبناء العقيد أوريليانو بوينديا الستة عشر، وصليب الرماد على جباههم، حدثهم أوريليانو تريست (الحزين) عن أمر روبيكا، خلال صخب الاحتفالات. فانطلقوا إلى البيت فبدّلوا مظهره في أقل من نصف يوم : غيّروا الأبواب والنوافذ، ودهنوا الواجهة بألوان زاهية، وطلوا الجدران، وصبّوا الأرض بالإسمنت من جديد. ولكن روبيكا لم تسمح لهم بإصلاح المدخل، ولم تصل عتبة الدار. وتركتهم يرممون البيت بجهد لا يعرف الكلل. ثم حسبت ما بلغته النفقات، وأرسلت لهم، مع خادمتها العجوز أرجينيدا، حفنة من الدراهم، كانت قديمة بطل استعمالها منذ أيام الحرب، وكانت روبيكا تظن أنها ما زالت قيد التداول. وعندئذ اتضح الحد البعيد، الذي لا يصدّق، عن الانقطاع ما بينها وبين العالم. وبات جلياً أنه بات من المتعذر انتزاعها من عزلتها العنيدة ما دامت على قيد الحياة.

وفي الزيارة الثانية التي قام بها أبناء العقيد أوريليانو بوينديا إلى ماكوندو، بقي واحد آخر منهم، وهو أوريليانو ستينو، للعمل مع أوريليانو الحزين . وقد كان هذا من أوائل الذين وصلوا إلى البيت من أجل العماد. وقد كانت أورسولا وأمارانتا تذكرانه جيداً، لأنه قد حطّم، خلال ساعات، كل الأشياء اللطيفة الناعمة التي صادفتها يداه. وقد هدّأ الزمن من شدّة اندفاعه، الذي رافق نموّه، فغدا الآن شاباً متوسط القامة، في وجهه ندوب الجدري. ولكن قدرة يديه الخارقة على الكسر والتحطيم كانت ما زالت على حالها. فقد كان، أحياناً، يحطّم عدداً من الأطباق حتى دون أن يمسّها. ولذلك فضّلت فيرناندا أن تشتري له طقماً من أطباق القصدير، قبل أن يجهز لها على ما بقي من أوانيها الصينية الثمينة. ولكن هذا الإجراء لم يحم صحاف المعادن القوية من أن تتقشّر بين يديه، أو تتثنى خلال وقت قصير.

ولكن أوريليانو ستينو، إلى جانب هذه الطاقة فيه، والتي كانت تؤلمه ولا أمل في شفائه منها، كان، من جهة أخرى، دمث الخلق توحي شخصيته بالثقة . وكانت قدرته على العمل عظيمة . ففي خلال وقت قصير، استطاع أن يزيد إنتاج الجليد كمية فاقت حاجة السوق المحلية، ودفعت أوريليانو تريست إلى التفكير في توسيع عمله وإيصاله إلى قرى إقليم الماريجو (منطقة المستنقعات) جميعاً. وعندها عزم على اتخاذ خطوة هامة، ليس من أجل تحديث صناعته وحسب، بل من أجل ربط البلدة ببقية العالم أيضاً. فقال :

ـ يجب أن توصل سكة الحديد إلى هنا.

وكانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها تلك الكلمة في ماكوندو. وعندما سمعت أورسولا، وأبصرت، المخطط الذي أعدّه أوريليانو تريست(الحزين) ، والذي كان وليد النماذج والخطط التي كان خوزيه

أركاديو بوينديا يرسمها ويوضح بها مشروعه للحرب الشمسية، عندما رأت أورسولا ذلك، ازداد شعورها، وتثبت اقتناعها بأن الزمن يسير في دائرة ، والتاريخ يعيد نفسه . فما كان أوريليانو الحزين (تريست) ليختلف عن جده إلاّ بأنه لا ينقطع عن الطعام والنوم، ولا يزعج أحداً بسورات غضبه. فقد كان، على العكس من ذلك ينظر إلى أغرب المشاريع كأنها احتمالات فورية، ويقدر بالحساب تكاليفها والزمن اللازم لها بطريقة عقلية، وكان يعمل على إيصالها إلى أهدافها دون المرور في مراحل يائسة

وإذا كان أوريليانو الثاني قد ورث عن جدّ أبيه شيئاً، في حين أنه لم يرث شيئاً آخر عن العقيد أوريليانو بوينديا، فقد كان ذلك عدم مبالاته المطلقة بالسخرية وعدم استفادته من دروس الإخفاق. ولذلك دفع المال اللازم لمدّ سكة الحديد واستقدام القطار إلى ماكوندو، باللامبالاة نفسها التي موّل بها مشروع أخيه، خوزيه أركاديو الثاني، الأخرق للملاحة. وبعد أن راجع أوريليانو الحزين (تريست) مفكرته ، غادر ماكوندو يوم الأربعاء التالي، مخططاً للعودة بعد انتهاء الأمطار.

وانقطعت أخباره، وناء أوريليانو ستينو بأعباء العمل المتزايد. وبدأ يجرب صناعة الثلج بعصير الفاكهة بدل الماء. فاكتشف بهذه الطريقة، دون أن يعرف أو يقصد، المبادىء الأساسية لاختراع أنواع الشراب وعصير الفواكه. وكان في سبيله لتنويع إنتاج معمله، مفترضاً أنه صار ملكاً له وحده، لأن أخبار أخيه قد انقطعت تماماً. وقد انقضى فصل الشتاء وتبعه فصل الصيف.

وفي أوائل فصل الشتاء التالي ، كانت إحدى النساء تغسل الثياب على النهر، في وقت من أكثر ساعات النهار حرارة. فتركت ثيابها وراحت تعدو في الشوارع والطرقات مذعورة وفي حالة من الرعب شديدة، وهي تصرخ. ثم استطاعت أن توضح ما أخافها، فقالت :

- إنه آت. شيء مخيف كأنه مطبخ يجرّ وراءه قرية.

وفي تلك اللحظة، اهتزت البلدة كلها، عندما دوّى في الأفق صفير كان يتردّد صداه بشكل مخيف، ثم تلا ذلك لهاث متعب.

وكان أهل البلدة قد شاهدوا، في الأسابيع الماضية، مجموعات من العمال الذين كانوا يثبتون الخطوط الحديدية والعوارض الخشبية. ولكن أحداً لم يهتم لذلك الأمر، لأن الناس ظنوا أنه واحد من اختراعات الغجر العائدين بطبولهم ومزاميرهم وصخبها القديم، بعد أن فقدت أقاويلهم وأعمالهم قيمتها لفرط ما كرّروها على مدى مئة عام، وبعد أن فقدت طعمها رقصاتهم وأغانيهم من خصائص الإكسير الذي اخترعه عباقرة رحّالة قادمون من مدينة القدس.

ولكن، ما إن أفاق الأهلون من ذهولهم الذي أحدثه الصفير واللهاث، حتى اندفعوا زرافات إلى الشارع العام. فإذا بهم يشاهدون أوريليانو الحزين (تريست) يلوّح لهم بيده من القاطرة، ثم يرون، وهم مندهشون، القطار مجللاً بالورود، وقد وصل أخيراً، متأخراً ثمانية شهور عن الموعد المحدّد لوصوله. ذلك القطار الأصفر البريء، الذي كان لا بد له أن يحمل إلى ماكوندو الكثير من الغموض واليقين، ولحظات الخير والفرح ولحظات الشر والترح، والتغيرات الكثيرة، من الأرزاء ومشاعر الحنين.

(١٢)

طغت الاختراعات العظيمة الكثيرة على الحياة في ماكوندو، وأذهلت أهلها، فما يعلمون من أين ابتدأت دهشتهم. فكانوا يمضون الليل بطوله، يتأملون المصابيح الكهربائية الشاحبة، تغذيها مجموعة محركات كهربائية جلبها معه أوريليانو تريست (الحزين)، في رحلته الثانية في القطار. وقد مر وقت، واستُنفد جهد حتى اعتادوا صوت القطار: توم - توم، الذي كان يدهشهم بشكله وصوته وحركته. وأثارت سخطهم الصور المتحركة التي كان يعرضها برونو كريسبيد وقد أصبح تاجراً غنياً، في المسرح، الذي كانت له شبابيك تذاكر تشبه رأس الأسد. وكان مما يزعجهم أن أحد الأبطال قد مات ودفن في أحد الأفلام فذرفوا لعذابه وفراقه دموعاً سخية، ولكنه ما لبث أن ظهر في فيلم آخر حياً، وقد بدا في هيئة رجل عربي.

وما كان الجمهور الذي يدفع الواحد من أفراده سنتين، كي يقاسم الممثلين معاناتهم ومصاعبهم وأحزانهم، ليحتمل هذه السخرية التي لا مبرر لها، فحطم الناس المقاعد جميعاً، واضطرّ رئيس البلدية، عند إلحاح الدون برونو كريسبي، لأن يعلن على الملأ أن السينما ليست سوى آلة أوهام لا تستأهل الانفجار العاطفي من الجمهور المشاهد. وبعد ذلك

البيان المخيب للآمال، أدرك الناس أنهم كانوا ضحية حيلة غجرية كبيرة جديدة، فقرروا ألاّ تطأ أقدامهم أرض السينما بعد ذلك. فقد كان لديهم من الأحزان ما يكفيهم، وليس بهم حاجة ليبكوا آلام الآخرين الوهمية.

وقد حدث ما يشبه ذلك مع الحاكيات (الفونوغرافات) ذات الأسطوانات، التي جاءت بها السيدات الفرنسيات لتحل محل الأرغن المجري، والتي أضرّت، إلى وقت، ضرراً بالغاً بالموسيقيين. ففي البداية، أدّى حب الاستطلاع إلى الزيادة في أعداد روّاد الحيّ الخاص، حتى قيل إن بعض السيدات المحتشمات كنّ يتنكرن بثياب عامة الشعب، كي يذهبن لمشاهدة الحاكي عن كثب. ولكن الناس أمعنوا في فحصه حتى توصلوا إلى نتيجة أنه ليس طاحوناً سحرية، كما كان يظن الكثيرون، وكما كانت السيدات الفرنسيات يزعمن، بل هو آلة عادية لا يمكن مقارنتها بجوقة الموسيقيين الحيّة الإنسانية، المفعمة بالحقيقة اليومية. وانجلى ذلك الوهم، وتكشفت أبعاده، حتى إذا انتشر استعمال الحاكي بين الناس، ولم يعد يخلو منه بيت، صار لا يعتبر واسطة لتسلية الكبار، بل أداة يلهو بها الصغار فكاً وتركيباً.

أما الهاتف، من جهة أخرى، فلم يكن أمره كذلك. فعندما سنحت الفرصة لأحد سكان البلدة لتفحصه والتأكد من حقيقته الملموسة في محطة سكة الحديد، اعتبره الناس، لوجود يد له، تطبيقاً لمبدأ الحاكي. ولكنهم مع ذلك عجبوا له جميعاً، حتى أقلهم إيماناً.

كان أهل ماكوندو كأن الله قد شاء أن يمتحن قدرتهم على الدهشة والاستغراب، فجعلهم في حال صاعدة هابطة : بين فرح وترح، ويقين وشك، وكشف ووهم، حتى لم يكونوا يدرون ما قدر العلم الحقيقي في ما يرون، ولا أين يبدأ الواقع أو ينتهي. فقد التقت الحقائق بالأوهام، في اختلاط عجيب غريب، حتى إن شبح خوزيه أركاديو بوينديا قد عيل

صبره، ووجد نفسه مضطراً للسير، جيئة وذهاباً، يغدو في البيت في رابعة النهار.

ومنذ أن دُشّن الخط الحديدي رسمياً، وصار يصل بانتظام، في الساعة الحادية عشرة من كل يوم أربعاء، وأقيم له مكان من خشب يبيت فيه، فكان هو المحطة والمكتب وغرفة الهاتف وشباك بيع التذاكر، امتلأت ماكوندو بالناس، من الرجال والنساء، الذين كانوا في ظاهرهم لا يختلفون، من حيث السلوك، عن الناس العاديين. ولكنهم كانوا ذوي هيئات وأشكال تشبه العاملين في السيرك. فقد كان أولئك التجار الجوّالون المهرجون يعرضون، برشاقة أساليبهم، بضائعهم من القدور البخارية الصافرة (تحدث صفيراً) إلى نظام الحمية الذي يطمئن إلى تخليص النفس في اليوم السابع. ولكنهم لم يفيدوا كثيراً من ماكوندو، البلدة التي كوتها تجاربها مع الغجر، ولو أنهم كانوا يجنون أرباحاً طائلة من بسطاء الناس، ومن أولئك الذين كانوا يتظاهرون بالقناعة مللاً وسأماً.

وفي يوم من أيام الأربعاء، الذي لا يختلف عن سواه، وصل إلى ماكوندو السيد هيربرت الباسم السمين، وتناول طعام الغداء في بيت آل بوينديا. وكان من أولئك الثرثارين المسرحيين، الذين يرتدون بناطيل ركوب الخيل، ضيقة السيقان، والجوارب الطويلة، وقبعات الفلين، ويضعون على عيونهم نظارات ذات إطار حديدي، تبدو عيونهم من خلفها زمردية، ولهم بشرة كبشرة ديك نحيل.

ولم يلاحظه أحد على مائدة الطعام حتى فرغوا من أكل أول قنو من الموز. وكان أوريليانو الثاني هو الذي صادفه، حين كان يحتج، بلغة إسبانية ركيكة، في فندق جاكوب، لأنه لم يجد فيه مكاناً له. فدعاه إلى البيت، كما كان يفعل دائماً مع الكثيرين من الغرباء، وكان هذا يتاجر

بالمناطيد المقيدة، وقد قادته تجارته إلى بلدان كثيرة، حتى طاف حول نصف العالم. وجنى أرباحاً ممتازة. ولكنه لم يفلح في إقناع أحد من أهل ماكوندو بالصعود إلى الفضاء، لأن الناس وجدوا ذلك الاختراع رجعياً ومتأخراً، بالقياس إلى بساط الريح الغجري الذي عرفوه وجرّبوه. وكان يريد الرحيل في القطار التالي.

وعندما وضعوا على المائدة قنو الموز المنقّط، وقد كانوا يعلقونه أحياناً في غرفة الطعام ساعة الغداء، تناول أول موزة دون حماسة شديدة. ولكنه ما لبث أن تابع أكل الموز، بينما كان يتكلم، وكان يأكل متلذذاً، فيتذوق ويمضغ، في ذهول المفكر الحكيم أكثر من استمتاع الرجل الأكول. ولما انتهى قنو الموز الأول، رجاهم أن يأتوا بواحد آخر. وعندها أخرج من علبة أدواته، التي لم تكن تفارقه، محفظة تحوي أداة بصرية. وفحص موزة باهتمام ودقة وتأنٍّ، كأنه تاجر ماس. ثم قطع الموزة بمبضع خاص، وبدأ يزن كل قطعة منها بميزان حساس، ويحسب قطرها بمكيال صانع السلاح. وأخرج من العلبة مجموعة من الأدوات قاس بها حرارة الجو، ودرجة رطوبته، وكثافة الضوء. فأذهل الحاضرين بطقوسه تلك، فما استطاع أحد أن يأكل كما يشتهي. وكان الجميع ينتظرون أن يتكلم السيد هيربرت فينطق بالحكمة. ولكنه لم ينبس ببنت شفة، ولم يفه بحرف تعبيراً عما كان يدور في ذهنه، فلم يدر أحد ماذا كانت مقاصده.

وفي الأيام التي تلت ذلك، شاهده الناس يصطاد الفراش في حقول القرية بشبكة وسلة صغيرتين. وفي يوم الأربعاء التالي، وصلت إلى البلدة جماعة من المهندسين الزراعيين، ومهندسي الطاقة المائية والطبوغرافيا والمساحين. فأمضوا أسابيع طويلة، وهم يدرسون المنطقة التي كان يجوبها السيد هيربرت وهو يصطاد الفراش. ثم وصل السيد جاك براون في عربة مقطورة إلى آخر القطار الأصفر، مطلية بالفضة،

مخملية المقاعد، سقفها من الزجاج الأزرق. وقد وصل في هذه العربة كذلك فريق من المحامين الذين كانوا يرتدون البزات السوداء، يحيطون بالسيد براون وبين يديه، تماماً كما كانوا يفعلون مع العقيد أوريليانو بويندیا، حين كانوا يتبعون موكب تنقلاته. وقد دفع المشهد الناس إلى الظن بأن أولئك المهندسين الزراعيين، ومهندسي الطاقة المائية، والطبوغرافيين والمسّاحين، بل السيد هيربرت نفسه، بمناطيده المقيدة وفراشاته الملوّنة، حتى السيد براون بمتحفه السيّار ورعاته الألمان الشرهين، كل ذلك إنما كان ذا صلة بالحرب.

ولم يطل الشك بأهل ماكوندو، بل أنهم لم يكادوا يبدأون التساؤل حول ما سوف يحدث لبلدتهم، حتى تحولت البلدة إلى ما يشبه مخيّماً من البيوت الخشبية الصغيرة المغطاة بالتوتياء، يقيم فيها أجانب، ما انفكوا يتوافدون جماعات في القطار، الذي لم تكن تتسع لهم مقاعده فيملؤون أماكن الوقوف وسطوح العربات. ثم جلب الأميركيون زوجاتهم البدينات بثياب الموسلين وقبعات الشفوف الكبيرة. فبنوا لهم قرية منفصلة إلى الجانب الثاني من سكة الحديد، وشقوا فيها شوارع غرسوا على جوانبها أشجار النخيل. وكانت بيوت القرية ذات نوافذ لها ستائر، وأمام كل منها باحة فيها طاولة بيضاء. وقد علقت في سقوف البيوت مراوح، وامتدت أمامها مروج فسيحة تسرح فيها الطواويس وطيور السمن.

كان ذلك القسم من المباني مسيّجاً بشريط معدني شائك مكهرب. فتراه، في كل صباح من الأصبحة الباردة في فصل الصيف، وقد اسودّ لكثرة ما علق به من طيور السنونو التي احترقت حيّةً عليه.

ولم يكن أحد ليعلم ما الذي جاء بهؤلاء الناس. فقد قلبوا المنطقة رأساً على عقب، وأحدثوا صخباً لا يدانيه حتى صخب الغجر. ولو أن صخب الغجر

وضجتهم كانا عابرين، وضجة هؤلاء دائمة لا يعرف مداها أحد.

كانت لديهم أدوات ووسائل كانت من قبل من اختصاص العناية الإلهية : فقد عدّلوا نظام المطر، وعجّلوا دورات مواسم الحصاد، وحولوا النهر عن مجراه القديم. فنقلوه بحجارته البيضاء ومجاريه الجليدية إلى الناحية الأخرى من القرية خلف المقبرة، وشيدوا، في تلك الفترة قلعة من الإسمنت المسلح فوق ضريح خوزيه أركاديو، الذي بهت لون حجارته، كي لا تفسد المياه رائحة البارود المنبعثة من جثته. وحولوا شارع السيدات الفرنسيات اللعوبات، من أجل الغرباء القادمين بلا حب، إلى قرية أكبر من الأولى. وفي يوم أربعاء «مجيد» جاؤوا إلى القرية بقافلة، تفوق الخيال، من البغايا الغريبات، والإناث البابليات، اللاتي اتقنّ كل فنون التاريخ القديم وطرائقه، وامتلكن كل أنواع المراهم والوسائل والأدوات التي تستثير العنين العاجز، وتشجّع الخجول المتردد، وتشبع النهم، وتحفز الحيي المتواضع، وتعلم الفاشل المعيد، وتصحح عوج المتوحدين.

وامتلأ شارع الأتراك بمخازن الأفاويه[1] والتوابل المثيرة التي كانت تشع مضيئة طوال الليل، عارضة بضائعها المستوردة من الخارج، حالة بذلك محلّ الدكاكين السابقة ذات الألوان الزاهية. وغصّ ليل السبت بصخب جماهير المغامرين الذين يتدافعون بين طاولات القمار والميسر، وأماكن الرماية والتسديد والتصويب، إلى الشارع الصغير حيث يستطلع المستقبل وتفسر الأحلام، وبين الطاولات المزدحمة بالمشويات والمقليات وصنوف الشراب من الخمور، التي تراها في الصباح وقد انقلب بعضها فوق بعض، وقد تمددت بينها أجسام لبشر، بعضهم سكارى يتنشون بلذائذهم مستمتعين، وبعضهم فضوليون سقطوا ضحية رصاصة طائشة أو لكمة تائهة أو طعنة سكين ضلت طريقها، أو ضربة زجاجة مشروب إثر

افاويه : جمع فوه ، وهو نوع من البهارات

مشاجرة بين طرفين.

كان ذلك غزواً رهيباً فعلاً. حتى إن الناس لم يعودوا، في البدء، قادرين على الخروج من بيوتهم ليسيروا في الطرقات، لأن قطع الأثاث والصناديق كانت تسد تلك الطرقات، وبسبب الغدو والرواح والضجة في نقل الأثاث على العجلات، وعمل النجارة في بيوت أولئك الذين كانوا ينشئون بيوتهم في أية بقعة خالية دون عناء الاستئذان من أحد، وبسبب مناظر الأزواج من الفتيان والفتيات المخجلة، الذين كانوا يعلقون أراجيحهم بين أشجار اللوز، فيتضاجعون ويمارسون الحب خلف ستائرها الشفافة أمام جميع الناس جهاراً، وفي رابعة النهار.

كان الملاذ الهادىء الوحيد هو تلك الزاوية التي أنشأها الزنوج الهنود الغربيون على هيئة شارع هامشيّ صغير، بيوته من الخشب المقامة على أعمدة. وكان هؤلاء يجلسون أمام بيوتهم تلك في أصائل الأيام، ليغنوا أغانيهم ذات الأنغام الحزينة، بلغتهم الغريبة الشبيهة بزقزقة العصافير.

ولقد حدث التبدل والتغير في البلدة خلال فترة قياسية من حيث القصر. فقد تمّ كل ذلك خلال ثمانية شهور بعد زيارة السيد هيربرت. فلم يعد أهالي ماكوندو القدامى بقادرين على معرفة بلدتهم إلا بصعوبة. حتى قال العقيد أوريليانو بوينديا في تلك الفترة :

ـ انظروا البلاء الذي جلبناه لأنفسنا، لمجرد أننا دعونا أميركياً لأكل الموز عندنا.

أما أوريليانو الثاني فكان يكاد يطير من السعادة التي كانت تغمره أمام ذلك الحشد الهائل من الغرباء. فقد ازدحم البيت فجأة بالضيوف غير المعروفين، من المخمورين العالميين الذين لا يقهرون. فأضاف إلى البيت غرفاً جديدة بناها في باحة الدار، ووسّع قاعة الطعام، واستبدل بطاولة

الطعام القديمة طاولة جديدة تتسع لستة عشر شخصاً . وبدّل الصحاف القديمة . وجدّد الصحاف والأطباق وأدوات الطعام الأخرى ، وجعل يقدم الطعام على دفعات . واضطرت فيرناندا للسكوت على مضض ، بينما كانت تستقبل ، كما يليق بالملوك ، أولئك الضيوف الماجنين الذين يتصفون بكل صنوف العهر والعربدة . ينشرون أوحال أحذيتهم في الشرفة ، ويبولون في البستان ، ويفرشون حصير الخيزران الجدول في أي مكان يخطر لهم لقضاء القيلولة . ويتحدثون كيفما اتفق ، دون أن يراعوا حساسية السيدات ، كما يفعل السادة المهذبون .

وأغاظ أمارانتا غزو هؤلاء الرعاع، فعاودت الأكل في المطبخ على عادتها في الزمن الماضي. وأيقن العقيد أوريليانو بويندا أن معظم الذين كانوا يفدون لتحيته في المشغل، ما كانوا يفعلون ذلك عن محبة واحترام، بل مدفوعين بحب الاستطلاع، لعلهم يشاهدون أثراً تاريخياً، أو حيواناً محنطاً في متحف. ففضل أن يحبس نفسه في مشغله، وأن يقفل بابه بالعارضة، فلا يراه أحد، من بعد، إلاّ في فرص نادرة، عندما يخرج للجلوس عند الباب.

أما أورسولا، وقد باتت تجرّ قدميها جراً، وتستند إلى الحائط مستعينة ومهتدية به، فقد كانت تشعر بفرح طفولي عندما تحين ساعة وصول القطار. فكانت تأمر الطباخات الأربع قائلة :

ـ علينا أن نعدّ بعض اللحم والسمك.

فيسارعن لإعداد كل شيء بإشراف سانتا صوفيا التقية إشرافاً صارماً كي يكون كل شيء جاهزاً في الوقت المناسب. وتصر أورسولا قائلة :

ـ يجب أن نطهو كل شيء، لأننا لا نعرف ماذا يحب أن يأكل هؤلاء الغرباء.

وكان القطار يصل في أشد ساعات النهار حرارة، حتى إذا حان وقت

الغداء علت الضجة، وسادت الغوغاء، فاهتز البيت لشدة الصخب. وتدافع الضيوف الذين لا يعرفون مضيفهم، والعرق يتصبب منهم، وهم يتزاحمون كالقطيع، يدافع كل منهم كي يحتل أفضل مكان له على المائدة. فتصطدم الطباخات بعضهن ببعض، وهن يحملن قدور الحساء الكبيرة، والصحاف الملأى بمختلف أنواع الطعام، وأواني السلطة، وأوعية الأرز، وبراميل عصير الليمون. وتسود الفوضى، حتى تقوم قيامة فيرناندا التي يثيرها الشك في أنّ بعضهم كانوا يأكلون مرتين. وكثيراً ما كانت على وشك أن تصل حد الانفجار، فتصب جام غضبها بسيل من شتائم السوقة على ضيف يسألها بارتباك عن مقدار حسابه.

ومضى عام على زيارة السيد هيربرت، ولم يعرف الناس سوى شيء واحد، وهو أن الغرباء كانوا عازمين على زراعة الموز في تلك الأرض المسحورة التي جابها خوزيه أركاديو بويندا ورجاله، عندما كانوا يبحثون عن طريق للاختراعات العظيمة.

وجاء اثنان آخران من أبناء العقيد أوريليانو بويندا، وعلى جبين كل منهما صليب الرماد. وقد جذبتهما إلى هناك تلك الطفرة البركانية. وقد علّلا قرارهما بالمجيء بجملة تلخص أسباب مجيء كل القادمين. فقالا :

ـ جئنا لأن الناس جميعاً يأتون.

كانت ريميديوس الجميلة هي الوحيدة التي كانت لديها مناعة تحميها من وباء الموز. فقد نشأت هادئة، وتجلى شبابها الرائع، وظلت بعيدة عن كل الشكليات، كارهة للخبث عازفة عن ظنون السوء، سعيدة بعالم الحقائق البسيطة الخاص بها. ولم تكن تدري لماذا تعقّد النساء حياتهن بأنواع من الصدارات والخرايط، فخاطت لنفسها جلباباً واسعاً من نسيج القنّب، كانت تلبسه بأن تنزله من رأسها. وهكذا حلت مشكلة اللباس، فظلت تشعر بأنها عارية، لأن أفضل حلة ترتديها المرأة، في نظرها، في البيت

هي أن تبقى عارية، وأصرّ عليها أهلها أن تقص شعرها، الذي كان ينساب على جسمها كالشلال، فيغطيها حتى أخمص قدميها، وأن تعقصه بالدبابيس، أو أن تجدله وتربطه بشرائط قرمزية. فكان أن حلقت شعرها بالموسى، بكل بساطة، وصنعت منه شعراً مستعاراً للقديسين. وكان الغريب في موهبتها وقدرتها على تبسيط الأمور أنها كانت كلما أوغلت في البعد عن التقاليد، مستجيبة لعفويتها في حب ما هو عملي، ازداد جمالها إشراقاً، وازداد تأثيره في الآخرين وتسبيب الاضطراب لهم، وأثار سلوكها الرجال.

وقد تذكرت أورسولا، عندما كان أبناء العقيد أوريليانو بوينديا في ماكوندو أول مرة، أن الدم الذي يجري في عروقهم هو نفسه الدم الذي يجري في عروق حفيدة ابنها. وعاودها خوف ارتاعت له من جديد، بعد أن ظنت أنها نسيته، فأنذرتها قائلة :

ـ افتحي عينيك جيداً. إذا تزوجت أيّ واحد من هؤلاء جاء أبناؤك بأذناب خنازير.

ولكن الفتاة لم تعر قولها أي اهتمام. فلبست ثياب الرجال، وتدحرجت على الرمال، وهي تحاول تسلق العمود المشحّم. وكادت تثير مأساة بين أبناء عمها الذين فقدوا صوابهم أمام مشهدها الذي لم يكن له مثيل. ولذلك لم يكن أحد منهم لينام في البيت إذا جاء البلدة. وأصرّت أورسولا على الأربعة الذين استقروا بينهم، أن يقيموا في غرف مستأجرة. ولو أن ريميديوس الجميلة علمت بتلك الاحتياطات لماتت ضحكاً منها، فحتى اللحظة الأخيرة من حياتها في هذا العالم، لم تكن تدري أن قدرها، الذي لا محيص عنه، هو في أن تكون امرأة من نار لها في كل يوم ضحية.

وكانت كلما خالفت أوامر أورسولا، فظهرت في قاعة الطعام، أثارت

بين الغرباء ذعراً واضطراباً. فقد كان واضحاً تماماً أنها كانت عارية كل العري تحت جلبابها الخشن. وما كان أحد ليدرك إلاّ أن جمجمتها الحليقة كانت تحدّياً، وأن الجسارة التي كانت تحسر بها ثوبها عن فخذيها، كي تخفف عنها عناء الحر، إلاّ إثارة إجرامية. وكذلك كان أمر تلذذها بمص أصابعها بعد أن تأكل بيديها. أما الذي لم يعرفه أعضاء العائلة، ولكن الغرباء أدركوه سريعاً، فهو أن ريميديوس الجميلة كانت تنفث نفساً يلهب القلب. كل نفثة منه تعذب البشر. وتظل عالقة ظاهرة حتى بعد ساعات من مرورها.

وقد أكد بعض الذين خبروا اضطرابات الحب، واعترف العالم كله لهم بخبرتهم فيه ، أنهم لم يعرفوا قط في حياتهم ، رعدة شبيهة بتلك التي تنتابهم من رائحة ريميديوس الجميلة الطبيعية. فقد كان سهلاً تحديد المكان الذي حلت فيه، وكم أقامت فيه، ومتى غادرته، أكان في الشرفة ذات أزهار البيجونيا، أم في الصالة، أم في أي مكان آخر من البيت. كان أثرها واضحاً يختلف عن أثر أي إنسان آخر. ولكنّ أحداً في البيت

ذات أزهار البيجونيا ، أم في الصالة ، أم في أي مكان آخر من البيت .

العادية منذ أمد بعيد، بينما كان سهلاً على الغرباء تمييزه. ولذلك كان الغرباء عن البيت وحدهم يدركون كيف مات قائد الحرس الشاب من الحب، ولماذا استسلم لليأس ذلك الفارس الذي قدم من بلاد بعيدة.

كانت ريميديوس الجميلة تجهل الفلك الذي تدور في مساره، وتجهل البؤس المقيم الذي يصيب من تمرّ بهم. تعامل الرجال بلا خبث ولكنها في النهاية تذهب ببقايا عقولهم بلطفها الساذج . وعندما أفلحت أورسولا بإقناعها بضرورة تناول طعامها في المطبخ مع أمارانتا، كي تجنب الغرباء رؤيتها، ارتاحت لأنها تخلصت من الرضوخ لنظام المائدة. ولم تكن هي، في الواقع، تهتم بأن تأكل هنا أو هناك، أو في ساعات محدّدة،

بل أن تتصرف وفق نزوات شهيتها. فقد كانت أحياناً تستيقظ باكراً، فتتناول فطورها في الساعة الثالثة صباحاً، ثم تنام النهار بطوله، وتقضي شهوراً تعيش حسب توقيت يخضع لأهوائها، حتى تواجهها حادثة مفاجئة تعيدها إلى النظام المألوف. وعندما تتحسن الظروف، كانت تستيقظ في الساعة الحادية عشرة صباحاً، ثم تحبس نفسها حتى الساعة الثانية بعد الظهر، وهي عارية تماماً في غرفة الاستحمام، تقتل العقارب، بينما هي تخرج من خمولها العميق ونومها الطويل، وعندئذ ترشّ جسمها بماء الخزان بوساطة قرعة تستخدم لهذه الغاية، وكانت تمضي وقتاً طويلاً في هذه العملية. وتنجزها بحرص دقيق، تقف فيها وقفات تأمل، حتى ليظن من لا يعرفها جيداً أنها إنما كانت تكرسها لعبادة جسدها الجدير بذلك. أما هي فقد كانت الطقوس التي تؤديها وحدها بعيدة عن كل شهوة. ولم تكن سوى وسيلة لإزجاء الوقت حتى تحس بالجوع. وذات يوم، وبينما كانت ريميديوس تستحم، انتزع أحد الغرباء قرميدة من السقف، ووقف مبهور النفس أمام مشهد عريها العجيب. ولاحظت عينيه المشدوهتين عبر القرميد المنزوع، فكان ردّ فعلها خوفاً عليه لا خجلاً منه. وصرخت في وجهه قائلة :

ـ حذار أن تسقط.

فتمتم الغريب قائلاً :

ـ لا أريد إلاّ أن أراك.

وأجابت :

ـ آه، حسنا، ولكن انتبه، فهذا القرميد تالف.

كان وجه الرجل الغريب يعبر عن دهشة وألم، وبدأ يكافح ويعاني من إحساساته وغرائزه البدائية، كي لا يضمحل امام عينيه السراب. وظنت ريميديوس الجميلة أنه كان يعاني من الفزع، خشية أن يتحطم به

القرميد، فاستحمت أسرع من عادتها، كي تجنب الرجل البقاء في مواجهة الخطر. وروت له، وهي ترش ماء الخزان على جسدها، كيف أنها تعاني مشكلة من حالة السقف، بسبب أوراق الشجر التي تلفت من المطر، فنشأ عنها أن راحت العقارب تعيث في الحمّام. وظنّ الرجل الغريب أن ثرثرتها تلك كانت وسيلة لكتم عواطفها. فلم يستطع مقاومة الإغراء، فتقدم خطوة في مغامرته، بينما كانت ريميديوس تفرك جسمها بالصابون. وتمتم قائلاً لها :

ـ دعيني أفركك بالصابون.

فقالت له :

ـ شكراً للطفك، ولكنّ يديّ تكفيان تماماً.

وتوسّل لها الغريب :

ـ حتى ولو ظهرك فقط.

فأجابت :

ـ ذلك مضيعة للوقت، وعمل لا لزوم له. فلا أحد يفرك ظهره بالصابون.

وعندما أخذت تنشف جسدها، اغرورقت عينا الغريب بالدموع، وتوسل إليها أن تقبل الزواج منه. فأجابته بصراحة أنها لن تتزوج أبداً من رجل ساذج بسيط، يقضي نحو ساعة من الزمن، ويبقى حتى دون غداء، لمجرد أن يرى امرأة تستحم. وأخيراً، وعندما لبست جلبابها، أيقن الغريب مما كانت تذهب إليه ظنون الناس جميعاً، إذ اكتشف أنها لا تلبس شيئاً تحت الجلباب. وأحس أنه قد اكتوى إلى الأبد بسرّ ذلك الحديد الأبيض الساخن. فانتزع قرميدتين أخريين كي ينزلق إلى داخل الحمام. فأنذرته قائلة بخوف :

ـ إنه عال جداً، وسوف تقتل نفسك.

وتحطمت قطع القرميد المتهالك، وانهارت محدثة انفجاراً وقعقعة مخيفة، ولم يتسع الوقت للرجل إلاّ لأن يصيح صيحة رعب، قبل أن تتحطم جمجمته، ويموت فوراً، على الأرض الإسمنتية.

وسمع الغرباء في قاعة الطعام صوت الحطام في وقته، فهرعوا إلى المكان، ورفعوا الجثة. فتبيّنوا على جلدها رائحة ريميديوس الجميلة الخانقة. وقد انسربت الرائحة إلى أجزاء الجسد كلها، حتى إن الدم لم يتدفق من الجمجمة المحطمة، وتدفق بدلاً منه سائل كأنه زيت العنبر ضمخه عطر خفيّ. وأدرك الناس أنه رائحة ريميديوس الجميلة تظل تعذب البشر بعد الموت، حتى تحيل عظامهم رفاتاً. ولم يتبين أحد أية صلة بين هذه الحادثة الرهيبة وقصة الرجلين اللذين سبق أن ماتا من أجل ريميديوس الجميلة. ولم يصدق الغرباء، ولا القدماء من أهل ماكوندو، الأسطورة القائلة بأن ما يفوح من ريميديوس الجميلة إنما هو أنفاس موت وليس نفحات حب، إلاّ بعد ضحية أخرى. ولقد تأكدوا من هذا الأمر حين ذهبت ريميديوس الجميلة ذات عصر، بعد شهور من ذلك، مع جماعة من صويحباتها، لزيارة المزروعات الجديدة. فقد اكتسب سكان ماكوندو عادة حديثة، هي التسلية بالنزهات على الدروب الطويلة بين أشجار الموز. وكان الصمت على الطرق كأنما يجيء من عالم آخر، وهو صمت أثقل من أن يتحرك فيه الصوت. فقد كان المرء، أحياناً، لا يسمع كلمة قيلت على بعد أمتار، وفي أحيان أخرى يدرك الكلمات التي تلفظ عند الطرف الآخر من الغابة.

وكانت فتيات ماكوندو يجدن المتعة في هذه التسلية، فيتضاحكن، ويجفلن، ويخفن، ويتندّرن، حتى إذا حلّ المساء، وهن يتحدثن عن نزهتهن وكأنها خبرة تمت في الأحلام. وقد كثر حديث الناس عن ذلك

الصمت وأهمية تلك النزهة، فعزّ على أورسولا أن تحرم ريميديوس الجميلة من تلك التسلية. فسمحت لها بالذهاب، ذات عصر. ولكنها اشترطت عليها أن تلبس قبعة وثياباً محتشمة. وفي اللحظة التي أوغلت فيها الفتيات في الغابة، عبق هواؤها برائحة الموت. وفجأة أحس الرجال، الذين كانوا يعملون بين صفوف الأشجار، أنهم قد وقعوا تحت سيطرة سحر عجيب. فهناك خطر غريب يتهددهم. واستجاب كثيرون منهم لرغبة جامحة في البكاء. وقد لجأت ريميديوس الجميلة وصويحباتها إلى بيت قريب حين هاجمتهم عصابة من الذكور المتوحشين. ثم ما لبث أن أنقذهنّ الأربعة الأوريليانو، الذين كانت صلبان الرماد على جباههم توحي بالاحترام المقدس، كأنما هي شارة معنى، أو دليل على العصمة من الأذى. ولم تحدث ريميديوس الجميلة أحداً عن أنّ واحداً من أولئك الرجال المهاجمين قد استغلّ الفوضى الحاصلة، فتمكن من مهاجمتها والقبض على بطنها بيد أقرب ما تكون إلى مخلب نسر يتعلق بحافة علي شفير هاوية. وقد واجهت المهاجم بعفوية، ولمحته، في دهشتها، بما يشبه الومضة، وتبينت نظرته الحزينة، فثبتت صورته في قلبها المشفق كجمر ملتهب. وقد راح ذلك الرجل يتفاخر، في تلك الليلة، في شارع الأتراك، وهو يتحدث عن جرأته متبجحاً، ويقدّر أن سعده قريب. ولكنه ما لبث بعد ذلك إلاّ دقائق، حتى رفسه حصان، فحطم صدره بحافره. وقد شهد نزعه الأخير حشد من الغرباء في منتصف الشارع، وهو يغرق في ما يقيء من دمائه.

ومنذئذ، باتت الفرضية القائلة بأنّ في ريميديوس الجميلة قوة مميتة تعتمد على أربع وقائع لا يرقى إليها الشك. وكان بعض البارعين في الحديث يتندرون بالقول إن ليلة حب مع امرأة بمثل جمالها تستأهل أن يفارق المرء بعدها الحياة. ولكن الواقع أنّ أحداً لم يبذل أيّ جهد

للحصول على مثل تلك الليلة. وربما كان يكفي للحصول عليها، أو حتى لتحاشي خطرها، الشعور بعاطفة بدائية بسيطة هي الحب. ولكنه الشيء الوحيد الذي لم يفكر فيه أحد. وقد أقلعت أورسولا عن العناية بها. وكانت، قبل أن تيأس من فكرة امتلاكها وردها إلى الحياة الطبيعية الصائبة، تحثها على الاهتمام بمقومات الحياة العائلية. فكانت تقول لها دون إفصاح تام :

ـ إنّ الرجال يطلبون أكثر مما تظنين. فالمرأة يجب أن تطبخ دائماً، وأن تكنس بلا انقطاع. والمرأة تعاني من أجل أمور صغيرة تافهة، أكثر مما تظنين. وكانت تغالط نفسها بمحاولة تدريبها على الحياة العائلية والسعادة العائلية. فقد كانت مقتنعة بأن الرجل، أي رجل في هذا العالم، بعد أن تشبع عاطفته، لن يتحمل منها يوماً واحداً إهمالها الذي لا يوصف. وعندما ولد خوزيه أركاديو الأخير. وعزمت عزماً صادقاً على أن تجعل منه بابا، تحوّل اهتمامها عن ابنة حفيدها، ولم تعد تعنى بأمرها. تركتها لمصيرها، وهي واثقة بأن يوماً سيحل تتحقق فيه المعجزة. وما دام العالم حافلاً بكل شيء، فهو لن يضيق برجل ما، بليد إلى درجة تجعله ملائماً لزواجها منه. وقبل أورسولا، كانت أمارانتا قد توقفت عن محاولة جعلها امرأة نافعة نوعاً ما. فقد توصلت، هي الأخرى، ببساطة إلى استنتاج أن حفيدة أخيها بلهاء، منذ ذلك الوقت الذي كانتا تقضيانه معاً في مشغل الخياطة، وكانت حفيدة أخيها تدير يد آلة الخياطة دون أن يبدو عليها أنها تكترث بما تفعل . فكانت تقول لها ، وهي تعجب لعدم إحساسها بما يقوله لها الرجال من كلام :

ـ يبدو أننا سنضطر لوضعك في اليانصيب.

وفيما بعد، ولما قررت أورسولا أن ترسل ريميديوس الجميلة إلى الكنيسة، وقد غطت وجهها بخمار، ظنت أمارانتا أن مثل هذا الأمر قد

يزيد في ما يحيط بها من سر، ويثير الرجال، فلا تعدم منهم من يثور فيه حب الإطلاع، عله يبحث صابراً عن نقطة ضعف في قلبها. ولكنها، عندما شهدت الطريقة البلهاء التي عاملت بها ذلك الخاطب، وكان أفضل وأحلى من أمير في جوانب كثيرة، وطّنت نفسها على الاعتقاد بأن لا أمل فيها على الإطلاق.

أما فيرناندا فلم تحاول قط أن تفهمها. وعندما رأت ريميديوس الجميلة في زي ملكة، في يوم المهرجان الدامي، قالت عنها إنها مخلوقة رائعة. ولكنها، عندما رأتها تأكل بأصابعها، ولا تستطيع أن تتلفظ بجواب إلاّ أن يكون غاية في السذاجة وبساطة العقل، لم تأسف إلا على شيء واحد، وهو أن البلهاء في العائلة يعيشون طويلاً.

وكان العقيد أوريليانو بوينديا يعتقد، وقد استمر في اعتقاده، بأن ريميديوس الجميلة كانت أذكى من عرف في حياته، وأنها كانت ما تفتأ تقيم الدليل إثر الدليل على ذلك بقدرتها المذهلة وهي تسخر من الآخرين.

وعلى الرغم من هذا الرأي، تركوها للعناية الإلهية.

وظلت ريميديوس الجميلة تضل في صحراء الوحدة، لا تتألم من أي شقاء، تتفتح وتنضج في أحلامها دون كوابيس، وفي حماماتها التي لا تنقطع، وفي وجبات طعامها التي تتناولها في ما اتفق من ساعات اليوم، وفي صمتها الطويل العميق دون أن تجتر الذكريات. حتى أصيل ذلك اليوم من شهر آذار (مارس)، الذي قررت فيه فيرناندا أن تذهب إلى البستان، كي تطوي غسيلها المصنوع من نسيج (البرابان)، وطلبت من نساء البيت مساعدتها في ذلك. وما إن بدأن العمل حتى لاحظت أمارانتا على وجه ريميديوس الجميلة صفرة كثيفة وشحوباً شديداً. فسألتها قائلة :

ـ ألست على ما يرام؟.

وابتسمت ريميديوس الجميلة ابتسامة حزينة، وهي تمسك بالطرف الآخر من الملاءة، وقالت:

ـ على العكس تماماً. فلم أشعر قط بأنني أحسن مني الآن.

وعند هذه الكلمات، شعرت فيرناندا بنسمة ناعمة مضيئة تنتزع الملاءات من يديها، وتفرشها على اتساعها، وشعرت أمارانتا بخفيف خفيّ في طيات شلحتها، وأحست بالحاجة للتعلق بالملاءة كي لا تسقط، في اللحظة التي بدأت فيها ريميديوس الجميلة ترتفع في الجو. كانت أورسولا، وهي التي شارفت على العمى، الوحيدة التي حافظت على هدوئها وحضور ذهنها، لتدرك طبيعة تلك الريح الحازمة التي لا يوقفها شيء، فتركت الملاءات وهي تلوح بتحية الوداع بين خفقان الملاءات التي راحت ترتفع معها، متخلية عن بيئة الخنافس، عابرة طبقات الأثير، حيث يتوقف الزمن فلا تعود الساعة عندها الرابعة بعد الظهر. ثم تضيع الملاءات معها في الأفلاك العليا إلى الأبد، حيث لا تستطيع أن تدانيها حتى أعلى طيور الذاكرة ارتفاعاً وأقدرها على التحليق.

وقد ظن الغرباء، طبعاً، أن ريميديوس الجميلة لاقت مصيرها المحتوم، ورضخت لقدرها الذي لا يرد، كما هي حال ملكة النحل، وأن عائلتها إنما اخترعت قصة صعودها الخرافية لعلها تنقذ بذلك شرفها. ولكن فيرناندا، التي كادت تموت حسداً، توصلت إلى قبول المعجزة العجيبة، وصلت زمناً طويلاً لعلّ الرب يردّ إليها أغطيتها وملاءاتها. وآمن معظم الناس بالمعجزة، فأوقدوا الشموع، وأدّوا الصلوات التسع. ولولا الجريمة البشعة التي ذبح فيها الأوريليانو جميعاً لما وجد الناس حديثاً، إلى أمد طويل، غير حديث المعجزة.

ولكن الرعب حلّ محل الدهشة بعد وقوع المذبحة. وكان العقيد أوريليانو بوينديا قد توقع نهاية مأساوية لأبنائه، على الرغم من أن الإشارة

المبيتة لم تصله كالمعتاد. فقد حاول هذا الأب أن يثني ابنيه أوريليانو سيرادور، وأوريليانو أركاديا عن الإقامة في ماكوندو. وقد نزلا فيها إبان الفوضى الكبرى. فلم يكن يرى ما يمكن لهما أن يصنعاه في بلدة غدت مكاناً غير آمن بين عشية وضحاها. ولكن أوريليانو ستينو وأوريليانو تريست قدما لهما، بالاتفاق مع أوريليانو الثاني، عملاً في مصانعهما. ولقد كانت لدى العقيد أوريليانو بوينديا أسبابه التي كانت مبهمة.

فهو منذ رأى السيد براون داخلاً إلى ماكوندو في أول سيارة له ـ وكانت سيارة برتقالية مكشوفة لها صوت منبه (زمور) غريب يرعب عواؤه الكلاب ـ استثير فيه المحارب القديم. فقد غضب العقيد أوريليانو بوينديا، عندما جعل الناس يطلقون صيحات الإعجاب الدالة على الترف وفساد الخلق، لأنه أدرك التبدل الذي حدث في طباع البشر. فقد ولى الزمان الذي كان الرجال فيه يتركون نساءهم وأطفالهم، ويذهبون إلى الحرب، بنادقهم على أكتافهم. وقد أصبحت السلطات المحلية في ماكوندو، بعد هدنة نيرلانديا، وقفاً على المحافظين الذين يجهلون المبادرة والابتكار، وعلى قضاة يختارونهم للزينة من بين المسالمين المتعبين في حزب المحافظين.

وكان أوريليانو بوينديا يقول عندما يرى رجال الشرطة حفاة، سلاحهم عصا على الخشبة في لعبة (البودلينغ):

ـ أي نظام نظام المساكين هذا!! لماذا، إذن، خضنا كل تلك الحروب؟ كأنّ هدفنا لم يكن إلاّ رفض أن تدهن البيوت باللون الأزرق!!

ومهما يكن من أمر، فقد تمّ تغيير الموظفين المحليين، منذ حلت في المنطقة شركة الموز، وحلّ محلهم موظفون آخرون غرباء صارمون، أسكنهم السيد براون في زرائب الدجاج المكهربة، لعلهم يجدون فيها ـ حسب زعمه ـ الإجلال اللائق بمناصبهم، وكي لا يعانوا من حرمان البلدة

وبعدها عن الترف، وكي لا يتعرضوا للحرارة والذباب.

ذهب رجال الشرطة الأولون، وجاء بعدهم مرتزقة قتلة حقيقيون، يحملون الفراعات والفؤوس. وكان العقيد أوريليانو بوينديا عاكفاً في مشغله، يفكر في هذه التغيرات. فأحس للمرة الأولى، خلال سنوات وحدته بصمتها وكآبتها، أنه يقع تحت وطأة يقين مطلق، خلاصته: عدم الاستمرار في الحرب حتى نهايتها التامة.

في ذلك اليوم نفسه من تلك الحقبة، كان أخو العقيد ماتييفيكو فيسبال، الذي كان الناس قد نسوه الآن، يصطحب حفيده البالغ من العمر سبع سنين، كي يشتري له شراباً من إحدى العربات المقامة في الساحة العامة. فاصطدم الطفل، عن غير عمد، برقيب شرطة، فانقلب كأس الشراب على بزته. فما كان من ذلك الوحش إلاّ أن قطعه إرباً بفرّاعته. ولما تدخل الجد قطع رأسه بضربة واحدة. ورأت البلدة كلها القتيل يمرّ أمامها، حين نقله بعض الرجال إلى بيته. وقد حملت امرأة رأس الرجل البائس من شعره، وحملت الصرة التي جمعت فيها أشلاء الصبي الصغير.

كانت تلك الحادثة بمثابة ذروة العذاب للعقيد أوريليانو بوينديا. فقد أحس فجأة، وفي غمرة الألم، بالغضب الذي عرفه في شبابه، عند مشهد جثة المرأة التي قتلوها ضرباً بالعصيّ لأن كلباً مسعوراً عضّها. فنظر إلى من توافدوا إليه يستطلعون الأنباء، وتجمعوا أمام بيته، وأرعد صوت المحارب القديم، الذي عادت إليه قوّته، وعاد إليه احتقاره لذاته. فصبّ عليهم جام غضبه وحقده الذي لم يعد يطيقه، وصاح بهم قائلاً:

ـ لسوف أسلّح أولادي يوماً، لكي نتخلص من هؤلاء الأميركيين القذرين.

وفي غضون الأسبوع نفسه، وفي أماكن مختلفة من الساحل، كان

مجرمون مجهولون يطاردون أبناءه السبعة عشر، ويحرصون على تصويب بنادقهم، وإطلاق النار، على مركز صليب الرفاه (الرماد) في جباههم. فقد كان أوريليانو تريست (الحزين) خارجاً من بيت أمه قرابة الساعة السابعة مساء عندما اخترقت جبينه رصاصة بندقية انطلقت في الظلام. أما أوريليانو سنتينو فعثر عليه في أرجوحته، التي اعتاد أن ينصبها في المعمل، وقد انغرز في جبهته، حتى المقبض، مهماز يستعمل لتحريك الجليد. وأوصل أوريليانو سيرادور خطيبته إلى بيت أهلها، بعد أن صحبها إلى السينما، وعاد عبر شارع الأتراك الذي كان ما يزال مضاء، عندما أطلق عليه شخص مجهول رصاصة من مسدس قلبته على قدر من الشحم يغلي فوق النار. وبعد دقائق قرع شخص باب الغرفة التي كان فيها أوريليانو أركايا مع امرأة، وصاح قائلاً:

ـ أسرع، إنهم يقتلون إخوتك.

وروت المرأة التي كانت معه، في وقت لاحق، أنه وثب من السرير وفتح الباب، فبادرته زخّة من رصاص مسدّس هشمت جمجمته.

في ليلة الموت الرهيبة تلك، وبينما كان أهل البيت يستعدون للسهر الحزين على الجثث الأربع، خرجت فيرناندا كالمجنونة تبحث عن أوريليانو الثاني، الذي كانت بيترا كوتيس قد خبّأته في خزانة. فقد أدركت بحسها أن أمراً ما قد صدر بقتل كل من يحمل اسم العقيد. ولم تسمح له بالخروج حتى اليوم الرابع من الجرائم، وبعد أن بدأت البرقيات تتوارد من مختلف الأماكن على الساحل، منبئة بأن العدو الخفيّ (غير المرئيّ) قد استلم التوجيهات لقتل الإخوة الذين علّمت جباههم بصليب الرماد (الرفاه) وحدهم.

وجلبت أمارانتا السجل الذي قيدت فيه العناوين والمعلومات الخاصة بأبناء أخيها، وأخذت تشطب اسم كل واحد منها عندما كانت ترد برقية

تفيد بمقتله، حتى لم يبق منهم إلاّ الابن البكر.

وكان الجميع يذكرونه جيداً، بسبب التضاد الناشيء عن لون بشرته الأسمر الداكن واللون الأخضر لعينيه الكبيرتين. وكان اسمه أوريليانو أمادور (العاشق). وكان يعمل نجاراً، ويسكن في قرية نائية مخبّأة في سفوح الجبال. وبعد أن انتظرت العائلة فترة أسبوعين، لم تصل فيهما برقية تنبيء بمقتله، أرسل إليه أوريليانو الثاني رسولاً يحذره، ظناً منه أنه يجهل الخطر المحدق به. وعاد الرسول مبشراً بأن أوريليانو أمادور (العاشق) كان سالماً معافى. ففي ليلة الإبادة وصل إليه رجلان يبحثان عنه في بيته، وأفرغا عليه رصاص مسدّسيهما، ولكنهما لم يفلحا في إصابة الصليب على جبهته. واستطاع أوريليانو أمادور (العاشق) أن يقفز من فوق سور الدار، وأن يتوارى في متاهات الجبال، التي كان يعرفها جيداً بفضل صداقته للهنود وتعامله معهم في تجارة الخشب. ومنذئذ لم يستطع أحد أن يعرف أو أن يسمع عنه شيئاً.

كانت تلك أياماً سوداء في حياة العقيد أوريليانو بوينديا. أرسل إليه رئيس الجمهورية برقية تعزية يعده فيها بإجراء تحقيق واسع، ويقدم احترامه للمفقودين. وبناء على أوامر رئيس الجمهورية، حضر رئيس البلدية صلاة الجنازة، وقدّم عند الدفن أربعة أكاليل جنائزية، أراد أن يضع على كل نعش واحداً منها. ولكن العقيد أوريليانو بوينديا حال دون ذلك وأخرجه إلى الشارع. وبعد التشييع، كتب العقيد برقية شديدة اللهجة، وأخذها بنفسه إلى البريد. ولكن الموظف رفض أن يرسلها. وعندها أضاف إليها جملاً وعبارات أقسى وأشد، ووضعها في غلاف، ثم أرسلها في البريد العادي. وكما عانى العقيد يوم وفاة زوجته، وكما عانى مرات كثيرة خلال سني الحرب لدى موت أعزّ أصدقائه ،لم يصبه شعور بالحزن، بل هياج وغضب أعمى، وإحساس رهيب بالعجز عن

الفعل. فاتهم بالتآمر حتى الأب أنطونيو إيزابيل، الذي وسم أبناءه برفاة (رماد) لا يزول، كي يمكّن أعداءه من تمييزهم. وكان الراهب المسكين قد عجز، فلم يعد يستطيع ترتيب أفكاره، بل كان كثيراً ما يخيف الرهبان بتفسيراته التوراتية الغريبة يلقيها من على منبر الكنيسة. فجاء البيت ذات عصر، يحمل الإناء الذي يحضر فيه الرفاة (الرماد) كل يوم أربعاء. وأراد أن يسم كل العائلة به، لعله يثبت أنه يزول بمجرد غسله بالماء. ولكن الخوف من الكارثة كان ما يزال شديد العلوق بالأذهان، حتى رفضت أمارانتا نفسها أن تستسلم للتجربة. ولم ير أحد بعد ذلك أياً من آل بوينديا راكعاً أمام الطاولة المقدسة في أربعاء الرفاة (الرماد).

وظل العقيد أوريليانو بوينديا مدة فاقداً توازنه العقلي. ولم يكن يأكل إلاّ لماماً، وقد أهمل صناعة الأسماك الصغيرة. وأخذ يجوب البيت على غير هدى، كأنما هو منوّم، يجر دثاره خلفه، ويجتر غضبه الأعمى، وقد اشتعل رأسه شيباً خلال أشهر ثلاثة، وتهدل شارباه، المعقوفا الطرفين، على شفتيه اللتين باتتا بلا لون. ولكن عينيه، من ناحية أخرى، عادتا جمراً ملتهباً، ذلك الالتهاب الذي أفزع من رآه ساعة ولادته، والذي كانت تهتز منه الكراسي والأشياء لمجرد النظر إليها.

وحاول في عذابه وحنقه المتصلين أن يستثير في نفسه قدرته على التنبؤ والتفاؤل، التي كانت دليله، أيام شبابه، في الدروب الخطرة التي كان يسلكها، حتى وصل إلى صحراء المجد الموحشة. ولكنه كان ضائعاً، كأنما قد ضربته صاعقة فألقت به في بيت غريب ليس فيه شيء أو إنسان يمنحه أو يستثير فيه عاطفة من الحب.

وبينما كان في أحد الأيام يبحث في مخلفات الماضي، الذي سبق الحرب، فتح غرفة ملكيادس، فلم يجد فيها سوى الخراب والوسخ، وقد تراكم فيها الغبار عبر سنوات النسيان والإهمال. وقد تكدس التراب

على أغلفة الكتب التي لم يقرأها أحد منذ تلك الأيام، فأثرت فيها الرطوبة وهي مرتبة على رفوفها. وبين طبقات العفن والرطوبة والرقاع التالفة، نمت زهرة وترعرعت. وفي هواء تلك الغرفة التي لم يكن في مثل نقائه هواء، وفي إشراقتها التي لم تشابهها إشراقة في البيت، انتعشت رائحة عفنة من الذكريات القديمة.

وفي صباح أحد الأيام شاهد العقيد أوريليانو بوينديا أمه تحت شجرة الكستناء القديمة الكبيرة جالسة تبكي منحنية على ركبتي زوجها الميت منذ زمن طويل.

وكان العقيد أوريليانو بوينديا الوحيد، بين سكان البيت، الذي لم يكن قد رأى، بعد، أباه، ذلك الرجل القويّ العجوز، الذي أنهكه نصف قرن من الزمان قضاه جالساً في العراء. فنادته أورسولا قائلة:

- تعال، وحيِّ أباك.

فتوقف لحظة أمام شجرة الكستناء، فوجد أن المكان فارغ، وأن ذلك المكان لم يوقظ في نفسه أية عاطفة من الحب. فسألها:

- ماذا يقول؟.

فأجابت:

- إنه حزين جداً. وهو يعتقد أنك سوف تموت. فابتسم العقيد وقال:

- قولي له: إن الإنسان لا يموت عندما يريد، بل يموت عندما يستطيع.

وأثار نذير أبيه الميت فيه بقايا كبريائه العظيمة التي كانت ما تزال يعج بها قلبه، على الرغم من أنه رأى فيها دليلاً مفاجئاً على استعادة قوته.

ولهذا راح يصر على أمه لعلها تعلمه عن المكان في باحة الدار الذي دفنت فيه القطع الذهبية التي اكتشفت في تمثال سان خوزيه المصنوع من

الجبس. فقالت له أورسولا بالعناد الذي تصنعه الشيخوخة وقسوة تجارب الحياة:

- لن تعرف ذلك أبداً.

ثم أضافت قائلة:

- سوف يعود صاحب هذه الثروة يوماً، وهو وحده الذي يستطيع إخراجها من الأرض.

وراح أهل الدار جميعاً يتساءلون عن السبب الذي يدفع ذلك الرجل المعروف بسخائه للاهتمام بالمال متنازلاً عن كرامته ليطلبه بهذه الشهوة وذلك الإلحاح، وهو الذي ما أقام للمال، طيلة عمره، وزناً. وهو الآن لا يطلب القليل منه، الذي يكفيه لسدّ نفقاته المتواضعة ومصروفاته الطارئة. فهو إنما يطلب ثروة هائلة لا يكاد يحيط بها عقل. حتى إن أوريليانو الثاني، عندما سمع بتقديرها، أصيب بما يشبه الذهول. أما رفاق العقيد الحزبيون القدامى، الذين ذهب إليهم يطلب العون، فقد عمدوا إلى الاختباء منه وتجنب استقباله. وقد سمع عنه أنه كان يقول في تلك الفترة:

- إن الفرق الوحيد بين الأحرار والمحافظين هو أن الأحرار يذهبون للصلاة في الساعة الخامسة، بينما يذهب المحافظون للصلاة الساعة الثامنة.

وأصرّ العقيد على مطلبه واستبسل في سبيله، ورجا من أجله بكل قواه، مخالفاً في ذلك ما عرف عنه من هيبة ووقار. وقد استطاع، بالانتقال من هنا إلى هناك، وشيئاً فشيئاً، وهو يقصد كل مطرح، بحماسة وكتمان وصبر ودأب ومثابرة لا مثيل لها، أن يجمع في غضون ثمانية شهور، مالاً يزيد كثيراً على ما كانت تخفيه أمه أورسولا. وأخيراً، ذهب إلى العقيد جيرينيلدو ماركيز، الذي كان ما يزال كسيحاً، يجدد

الصلة به لعله يعينه في إشعال حرب شاملة من جديد.

والواقع أنّ العقيد جيرينيلدو ماركيز قد ظل، طوال مدة من الزمن، الرجل الوحيد الذي يقبض من مقعد كساحه على جميع خيوط الثورة الصدئة. فقد بقي، بعد هدنة نييرلانديا، على اتصال بالضباط الثوار الذين حافظوا على وفائهم له حتى في زمن الانهيار، في حين لاذ العقيد أوريليانو بوينديا بمنفاه الاختياري في مشغله مع أسماكه الذهبية الصغيرة. فقد خاض العقيد جيرينيلدو ماركيز معهم حرب الإذلال اليومية البشعة الحزينة، وعرف حرب الاستدعاءات والإنذارات و «تعالوا غداً» و «في أي وقت منذ الآن» و «نحن ندرس حالتك بما تستحق من الاهتمام»، وغيرها من علامات التسويف والإهمال. تلك الحرب الخاسرة، دون شك، ضد أناس يبدون لك الطيبة والعواطف، وينبغي لهم أن يوقعوا لك الموافقة على مرتب التقاعد، ولكنهم لا يوقعون، رغم ما يبدونه لك من علائم الإخلاص.

فلقد كانت الحرب الفعلية الأولى، التي ارتقت فيها الدماء طوال عشرين عاماً، أسهل عليهم من حرب التسويف القاتل، تلك التي تنهكهم إنهاكاً.

وكان العقيد جيرينيلدو ماركيز قد نجا من ثلاث محاولات اغتيال، وشفي من خمسة جروح، وخرج سليماً من عدد لا يحصى من المعارك. ولكن حصار الانتظار قد أضناه، فذوى شبابه، وهدّته الشيخوخة البائسة وهو يحلم بأمارانتا ويتخيلها بين بقع الضوء الساطعة على هيئة قطع الماس في البيت المستعار الذي كان يعيش فيه. أما آخر أخبار المقاتلين المخضرمين، فكانت عبارة عن صور لهم في جريدة، وهم يرفعون رؤوسهم الذليلة إلى جانب رئيس جمهورية غير معروف، يقدم لهم هدية من بضعة أزرار حفرت عليها صورته، كي يضعوها على ياقات

معاطفهم، ويعيد لهم علماً مصبوغاً بالدم والبارود كي يلفوا به نعوشهم. أما الآخرون، الأكثر عزة وشرفاً منهم، فكانوا ما يزالون ينتظرون رسالة في ظل الإحسان العام، وهم يتضورون جوعاً، ولكنهم يعيشون في حزنهم وغضبهم طويلاً، ويتعفنون في شيخوختهم على مزابل المجد التليد.

ولذلك كله، عندما دعا العقيد أوريليانو بوينديا العقيد جيرينيلدو ماركيز إلى مشاركته في أن يشعلا ثورة شعواء لا تبقي ولا تذر أثراً للفضائح والفساد الذي كان يدعمه ويؤيده المحتل الأجنبي، لم يتمالك الأخير نفسه، ولم يقو على أن يحول دونه قشعريرة شفقة هزّت بدنه، فقال متنهداً :

- آه، يا أوريليانو. فلقد كنت أعرف أنك قد شخت وهرمت. ولكنني أكتشف الآن أنك أكثر شيخوخة مما يبدو عليك.

(١٣)

كانت أورسولا، في دوامة السنوات الأخيرة من حياتها، لا تستطيع توفير سوى القليل من الوقت الذي كانت تهتم فيه بثقافة خوزيه أركاديو البابوية. ثم حان وقت إعداده للسفر سريعاً إلى الدير. وكانت أخته ميمي موزعة الوقت والعيش بين تزمت فيرناندا ومرارة أمارانتا، حتى بلغت العمر الذي ترسل فيه إلى مدرسة الراهبات، لتعيش حياة داخلية في الدير. حيث تتعلم العزف على الآلات الموسيقية كما هيأها أهلها. وكانت أورسولا تعيش معذبة بين ما كان يساورها من القلق الشديد بشأن نجاعة الوسائل التي استعملت للتخفيف من حدة طباع الحبر الأعظم العتيد، وتهدئة أعصابه.

ولم تكن أورسولا تعزو مسؤولية ذلك إلى عجزها وشيخوختها وضعفها، ولا إلى الغيوم التي كانت تحجب عن بصرها ملامح الأشياء، بل كانت تعزو ذلك إلى شيء غامض لا تستطيع سبر غوره ومعرفة كنهه بوضوح، فيلتبس الأمر على خيالها، ولا تجد سوى فساد الزمن الراهن المتدرج انحداراً في انهياره. كانت تشعر بأن زمام وقائع الحياة اليومية يفلت من يديها، فتقول:

ـ إن السنين، في هذه الأيام، لا تمرّ كما كانت تمرّ من قبل. فهي تشعر أن نمو الأطفال كان أبطأ في الأيام الخوالي. فيكفيها أن تذكر كم مضى من الزمن قبل أن يذهب ابنها البكر، خوزيه أركاديو، مع الغجر،

وكل ما حدث له حتى عاد ملوناً كالحرباء، يتحدث كعالم الفلك، وأن تذكر الأمور التي حدثت في البيت قبل أن ينسى أركاديو وأمارانتا لغة الهنود ويتعلما اللغة الإسبانية.

كان يكفي أن تستعيد ذكريات أيام الشمس وليالي العراء التي قضاها المسكين خوزيه أركاديو بوينديا تحت شجرة الكستناء، وكم بكت موته قبل أن يعود العقيد أوريليانو بوينديا ليجده على شفا الموت، ويكفيها أن تحسب أنه، بعد كل تلك الحروب التي خاضها وخرج منها سالماً، بعد كل ما عاناه من آلام، لم يبلغ الخمسين من عمره.

كانت قديماً تمضي وقتاً طويلاً في صنع حلويات الكراميلا، على هيئة حيوانات صغيرة، ويبقى لها من الوقت ما يكفي للعناية بالأطفال، والنظر إلى بياض عيونهم قبل أن تسقيهم جرعة من زيت الخروع. أما الآن فهي لا تفعل شيئاً. فهي تذرع البيت جيئة وذهاباً، من الصباح والمساء، وهي تحمل خوزيه أركاديو على جانبها. ولكن عدم كفاية الوقت كانت تجعلها تترك الأمور دون أن تكمل أكثر من نصف عملها.

كانت أورسولا، في الواقع، تقاوم الشيخوخة، وهي لا تعرف عدد سني عمرها. وهي دائماً حيث لا ينبغي لها أن تكون، ما تفتأ تلاحق الغرباء بأسئلتها المتكررة لهم، ما إذا كانوا تركوا في البيت، زمن الحرب، تمثالاً من جبس للقديس خوزيه أمانة ريثما يتوقف هطول المطر. ولم يستطع أحد أن يعرف تماماً متى بدأت تفقد بصرها. والواقع أن أحداً لم يكتشف قط أنها فقدت بصرها كلياً حتى أواخر سني حياتها، حين أقعدها العجز، ولم تعد تستطيع مفارقة سريرها. أما هي فقد أدركت عماها قبل ميلاد خوزيه أركاديو. وقد ظنت، في بادىء الأمر أن ذلك لا يتعدى ضعفاً موقتاً، فجعلت تتناول، سراً، خلاصة المخ، وتمسح عينيها بعسل النحل. ولكنها ما لبثت أن أدركت أنها إنما كانت تخبط خبط

عشواء في ظلام دامس. حتى إنها لم تخبر فعلاً باختراع النور الكهربائي، ولا تبيّنت نور أول مصباح عرفه البيت إلاّ حزراً غامضاً. ولم تحدث أحداً قط عن بلواها، لأن ذلك كان يعني عندها اعترافاً قاطعاً بعجزها وانعدام نفعها. فعاندت القدر، وراحت تعلم نفسها أبعاد الأشياء، وأصوات الناس، لعلها ترى بالذاكرة ما لا يمكنها من رؤيته ذلك الحجاب الكثيف من الغيوم السوداء الكثيفة. ثم جعلت تستعين بروائح الناس والأشياء، تستدل بها في الظلام، بقوة تغنيها عن الأحجام والألوان، وتنقذها تماماً من عار الاستسلام. فكانت تستطيع، في عتمة الغرفة، أن تدخل الخيط في سمّ الإبرة، وتخيط العروة، وتعرف متى يفور الحليب على النار. ثم اكتسبت قدرة لا تخطىء في تحديد مواقع الأشياء، حتى كثيراً ما كانت هي نفسها تنسى أنها عمياء.

وفي أحد الأيام، أقامت فيرناندا الدنيا وأقعدتها بحثاً عن خاتم زواجها الذي ضيّعته، ولم يجده غير أورسولا التي عثرت عليه على أحد الرفوف في غرفة الأطفال. وقد كان طبيعياً، في مثل حالها، أن تراقب الآخرين، في رواحهم وغدوهم، إلى هنا وهناك، دون انتباه منهم، مستخدمة في ذلك حواسها الأربع الأخرى، كي لا يكتشف أحد ضعفها. وقد استطاعت أن تكتشف بعد زمن أن كل فرد في العائلة، دون وعي منه، يسلك الطريق نفسها، ويأتي الأفعال والتصرفات ذاتها، بل يعيد تقريباً الكلمات عينها في الوقت نفسه من اليوم . وما كانوا يتعرضون لفقدان شيء إلاّ حين كانوا يخرجون عن تلك الرتابة وذلك النظام الدقيق لحياتهم بأبسط تفاصيله.

فعندما سمعت أورسولا فيرناندا تعبر عن انزعاجها وتندب حظها لضياع خاتم زواجها، اكتفت بتذكر ما فعلته فيرناندا مما يخرج على المألوف من أعمال يومها، وتوصلت إلى أنها نشرت في الشمس الحصر

التي ينام عليها طفلاها، لأن ميمي كانت قد اكتشفت في الليلة السابقة واحدةً من بقّ السرير. وبما أن الطفلين كانا حاضرين عند عملية التنظيف، فقد فكرت أورسولا بأن فيرناندا لا بد أن تكون قد وضعت الخاتم في المكان الوحيد الذي لا يصلان إليه، وهو الرف. ولم تبحث فيرناندا عن الخاتم إلاّ في أماكن تحركها اليوميّ جيئة وذهاباً. وهي لا تدري أن البحث عن الأشياء الضائعة تعوقه الرتابة في العادات وعمل الأشياء، ولذلك يذهب بحث الإنسان عنها هباء.

وقد تمكنت أورسولا، من خلال رعايتها لخوزيه أركاديو وتعليمه، من الاضطلاع بمهمة شاقة، وهي أن تكون على علم بأحدث التغيرات والتبدلات التي تحصل في البيت. فعندما علمت أن أمارانتا كانت تنوي كسوة القديسين الذين في غرفة النوم، تظاهرت بأنها تريد أن تعلم الطفل اختلاف الألوان. وكانت تقول له :

ـ هيّا، قل لي ما لون الثوب الذي يرتديه الملاك روفائيل.

وبهذه الطريقة، كان الطفل ينقل إليها المعلومات التي أفقدها إياها فقدان البصر. واستطاعت أورسولا، قبل أن يرحل خوزيه أركاديو الصغير إلى المدرسة، أن تميز ألوان ثياب القديسين من مجرد لمس قماشها. وقد كانت تحدث أحياناً بعض حالات الوقوع في الخطأ التي لم تحتط لها. ففي عصر أحد الأيام، وبينما كانت أمارانتا تطرز في الشرفة ذات أزهار البيجونيا، اصطدمت بها أورسولا. فعبرت أمارانتا عن ضيقها بذلك قائلة :

ـ انتبهي لطريقك، بحق السماء.

فما كان من أورسولا إلاّ أن أجابت :

ـ أنت التي يجب أن تنتبهي. . فالخطأ منك، لأنك لا تجلسين في مكانك.

وقد كانت واثقة مما تقول. ولكنها اكتشفت في ذلك اليوم أمراً لم يتنبه له أحد حتى ذلك الحين. فقد أدركت أن الشمس تبدل مكانها بشكل ملحوظ، على مرّ الشهور. ولذلك، كان الذين يجلسون في الشرفة يغيرون أماكن جلوسهم تدريجاً دون شعور منهم. ومنذ ذلك الوقت، كان يكفي لأورسولا أن تعرف تاريخ اليوم والشهر، حتى تستطيع تحديد المكان الصحيح الذي تجلس فيه أمارانتا.

وقد كانت أورسولا، على الرغم من الرجفة في يديها، وقد بدت ظاهرة تزداد بوضوح، وعلى الرغم من مشيتها الزاحفة بتثاقل بطيء، فقد كانت ما تزال ترى في مختلف أماكن البيت. كانت كأنها ما تزال بنشاطها الشديد أيام كانت تتحمل أعباء البيت وحدها. وقد كانت، في أواخر أيام شيخوختها، تتمتع بصفاء ذهني ملحوظ، يمكنها من مراجعة تاريخ العائلة وتفحص كل تقلباته، حتى التافه منها والبسيط. وقد استطاعت، للمرة الأولى، أن تلقي الضوء على حقائق كانت مشاغلها قد صرفتها عن ملاحظتها.

وبينما كان أهل الدار يعدون الأمور لرحيل خوزيه أركاديو إلى المدرسة، قامت أورسولا بمراجعة في غاية الدقة لما كانت عليه حياة العائلة منذ إنشاء ماكوندو. وأعادت النظر في أفكارها وآرائها القديمة بشأن أبنائها. فأدركت أن قسوة العقيد أوريليانو بوينديا، التي أفقدته حب العائلة، لم يكن سببها الحرب، كما كانت تظن من قبل. فهو رجل لم يعرف الحب قط. فهو لم يحب حتى زوجته ريميديوس، ولا نساء الليل العابرات في حياته، وهنّ كثيرات، وأقل من تلك وهؤلاء كان حبه لأبنائه، وقد ظنت أنها اكتشفت أنه لم يخض معاركه الحربية كلها عن مثالية، وأنه لم يتخلَّ عن النصر الذي كان قريباً لأنه تعب كما قدّر الآخرون، بل إنه قد ربح وخسر بدافع واحد هو خطيئة الغرور.

وتوصلت إلى نتيجة جعلتها تعتقد أن ذلك الابن، الذي كان يمكن أن تقدم حياتها من أجله ببساطة، لم يكن قادراً على الحب.

ففي إحدى الليالي، سمعته يبكي وهو ما يزال جنيناً في أحشائها. وكان نحيبه واضحاً، حتى إن خوزيه أركاديو بوينديا، وكان نائماً قرب أورسولا، استفاق فزعاً. ثم شعر بالسعادة لمجرد التفكير بأن ابنه قادر على الكلام وهو في بطن أمه. وظنّ بعض الناس أنه سوف يكون متنبئاً. أما هي فقد اهتز كيانها كله لأنها أيقنت أن الهمهمة العميقة الصادرة عن جنينها إنما كانت الدليل الأول على ذنب الخنزير. ودعت الله أن يموت الجنين في رحمها. ولكن صفاء الذهن الذي ميّز شيخوختها الطويلة، مكّنها من الاستنتاج، وهو ما ذكرته في مناسبات كثيرة، أن بكاء الطفل في رحم أمه ليس دليلاً أو مؤشراً على أنه سوف يتكلم في بطن أمه، أو أنه سوف يكون متنبئاً، بل دليل لا يقبل الخطأ على أنه سوف يكون شخصاً غير قادر على الحب. وعندما هبطت صورته في خيالها، استيقظت أحاسيس الرأفة والشفقة فيها عليه.

أما أمارانتا التي كانت تخيفها قسوة قلبها وتحزنها مرارتها العميقة، فقد أظهرت تلك المراجعة أنها أكثر النساء رقة ووجداً وحباً. وأدركت أورسولا بوضوح حزين أن العذاب الذي سببته أمارانتا لبيترو كريسبي لم يكن سببه شهوة الانتقام، كما كان يظن بعض الناس، ولم يكن سمّ مرارتها، كما ظن الآخرون، هو الذي دفعها إلى جعل حياة العقيد جيرينيلدو ماركيز خيبة وفشلاً وموتاً بطيئاً. وإنما كان ذلك كله ناشئاً عما كانت تعانيه، في الحالين، من معركة شرسة بين حب لا يعرف الحدود، وجبن لا يقاوم. وانتهى بها الأمر إلى أن انتصر فيها خوفها اللامعقول الذي ولد معها، وسبب لها عذاب قلبها الممزّق.

في تلك الفترة ذاتها، بدأت أورسولا تذكر اسم روبيكا، وتذكرها

بعطف مفاجيء زادت فيه توبتها المتأخرة والإعجاب الحديث بها. فلقد أدركت أن ريبيكا وحدها، وهي التي لم ترضع من لبنها، بل كانت تتغذّى من تراب الأرض وكلس الجدران، وهي التي لا يجري في عروقها الدم الذي يجري في عروقها هي، بل يجري بدلاً منه دم مجهول ورثته من أناس مجهولين، ما تزال عظامهم تقعقع في قبرها. ريبيكا ذات القلب الملوكي والبطن الشره، كانت هي الوحيدة التي تملك الشجاعة الحازمة التي جعلت أورسولا تتمنى لو أنها كانت ابنتها، أو لو أن ابنتها أمارانتا كانت تملكها. فكانت أورسولا تقول وهي تتقرّى تضاريس الحائط :

ـ ريبكا، ما كان أشدّ ظلمنا لك، يا ريبكا!!.

واكتفى أهل البيت بأن اعتقدوا بأن أورسولا قد فقدت صوابها وأصيبت بالخرف منذ أن بدأت تمشي وهي رافعة يدها اليمنى مثل كبير الملائكة جبرائيل. ولكنّ فيرناندا وحدها أيقنت أنّ شمساً من الوضوح الساطع كانت تختفي في ظلال التجوال. ذلك أن أورسولا كانت تعرف وتعلن، دون تردد، المبالغ التي أنفقوها خلال السنة الماضية بطولها. وقد توصلت أمارانتا إلى الفكرة عينها عندما رأت أمها في المطبخ تصيح فجأة، وهي تحرك الحساء في القدر، جاهلة أن هناك من يسمعها، أنّ مطحنة الذرة، التي كانوا قد اشتروها من الغجر الأوائل، والتي اختفت خلال الوقت الذي سبق رحلات خوزيه أركاديو الخمس والستين حول العالم، كانت ما تزال في بيت بيلار تيريزا. وكانت بيلار، هي الأخرى، قد شارفت على المئة عام من العمر، ولكنها كانت ما تزال محافظة على قوتها ورشاقة حركتها، على الرغم من سمنتها وبدانتها التي كانت تخيف الأطفال، مثلما كانت ضحكتها قديماً تخيف الحمام. ولم تندهش بيلار تيريزا عندما علمت أن أورسولا قد عرفت الحقيقة، لأنّ خبرتها علمتها أن

الشيخوخة اليقظة تمكن الإنسان من تمييز الأشياء أكثر مما يمكنه من ذلك اللجوء إلى ورق اللعب.

عندما أدركت أورسولا أن الوقت الذي أتيح لها لم يكن كافياً لتمتين مهنة خوزيه أركاديو الصغير واتجاهه، استسلمت للحزن الذي كاد يقضي عليها، ومنذئذ بدأت تقع في الخطأ تلو الخطأ، وهي تحاول أن ترى بعينيها الأشياء التي كانت تستطيع تمييزها بالحدس بشكل أفضل. ففي صباح أحد الأيام، صبّت ما في المحبرة من حبر على رأس الصبيّ، ظناً منها أنه ماء الزهر. وسبّب لها حب استطلاعها، وعادة دس أنفها في كل أمر، حوادث ونزاعات كثيرة، كانت أحياناً تؤدي بالآخرين إلى صبّ جام غضبهم عليها، وإلى خلخلة كبيرة في كيانها، عندما بدأت تشعر بالانزعاج من الضيوف ومرحهم غير اللائق. فحاولت أن تتخلص من الظلام الذي كان يطبق عليها كخيمة من بيوت العناكب. وعندئذ بدأت تعزو عدم حذقها إلى فساد الزمان الذي أصدر عليها حكمه، وليس إلى هزيمتها أمام العجز والظلام.

كانت تقول في نفسها : إنّ الأمور كانت مختلفة عندما كان الرب لا يبدّل الشهور والسنين ويخالف فيها، كما يغش الأتراك في قياس طول النسيج. والآن يكبر الأولاد أسرع، وتتطور العواطف والمشاعر بشكل مختلف.

وكانت فيرناندا اللامبالية، منذ أن صعدت ريميديوس الجميلة إلى السماء، روحاً وجسداً، تنزوي في إحدى زوايا البيت شاكية متذمرة، لأنها فقدت ملاءاتها وأغطيتها. وقبل أن تبرد جثث أولئك الذين كانوا يحملون اسم أوريليانو في القبور، أثار أوريليانو الثاني البيت كله، بلا تردد. فازدحم البيت بالسكارى يعزفون على آلة الأكورديون، ويغرقون أنفسهم بالشمبانيا حتى لكأنهم لم يعودوا مسيحيين، بل كلاب ميتة.

وكأن ذلك البيت المجنون، الذي كلف ما لا يعد ولا يحصى من الصراع والآلام، ومن حلويات الكراميلا المصنوعة على شكل حيوانات صغيرة، كان مقدّراً له أن يصبح ملتقى لكل الخلاّن من الخطاة.

عرضت أورسولا كل هذه الخواطر في ذهنها، بينما كان من في البيت يرتبون حقيبة خوزيه أركاديو الصغير للرحيل، ثم تساءلت حول ما إذا لم يكن من الخير لها أن تستقر في قبرها وتستريح، بعد أن ينهال عليها التراب. وكانت تسائل الرب، بلا وجل، ما إذا كان يرى أن البشر مصنوعون من معدن حتى يحتملوا كل هذه الصنوف من الألم والعذاب. ثم تتحول من سؤال إلى سؤال ممعنة في التأمل والتفكير، فما تزيد نفسها إلا مزيداً من تبكيت الضمير.

وفجأة، أحست برغبة شديدة في أن تتصرّف كما يتصرف الأميركيون، وأن تسمح لنفسها بلحظة ثورة وتمرد على ذاتها. فقد حانت اللحظة التي طالما تمنتها، ولكنها كانت تهصرها أو تبعدها عن إطار سلوكها. وقد عزمت الآن على أن تدفع عنها الرضا، وأن تستهتر هكذا دفعة واحدة، علها تخفف عن قلبها المسكين ما كان ينوء تحته من ملايين الأطنان من الكلمات البذيئة، التي كانت تجترها طوال قرن كامل من الانتظار الممض القاتل. فصاحت قائلة :

ـ يا للقذارة !!.

فظنت أمارانتا، وكانت ترتب الثياب في الحقيبة، أنّ عقرباً لسعتها، فسألت مذعورة :

ـ أين هي؟.

وردّت أورسولا :

ـ ماذا؟.

فقالت أمارانتا :

ـ الحشرة، البقة.

فأشارت أورسولا بأصبعها إلى موضع القلب من صدرها قائلة :

ـ هنا.

سافر خوزيه أركاديو الصغير يوم الخميس، في الساعة الثانية من بعد الظهر، إلى المدرسة. ولم تبرح صورته خيال أورسولا، منذ أن غادر البيت. فكانت تتخيله دائماً كما كان ساعة ودّع : «ضعيف البنية، جديّاً، عصيّ الدمع ـ كما علّمته أن يكون ـ يكاد يخنقه الحرّ وهو يرتدي بزته المخملية الموشحة بالأخضر والأزرار النحاسية، ذات الياقة المنشاة حول العنق. فالآن غادر غرفة الطعام التي كانت تعبق برائحة ماء الزهر الذي سكبته على رأسه وسائر جسمه، كي تستطيع اقتفاء أثره أنى تجول في الدار. وقد التقى أفراد الأسرة جميعاً في غداء الوداع. أما هي فكانت تحاول إخفاء عصبيتها خلف مظاهر المرح. فصفقت بحماسة بالغة لخطاب الأب أنطونيو إيزابيل. ولكنها، عندما خرجت الحقيبة المبطنة بالمخمل، ذات الزوايا الفضية، من البيت، انقلب الأمر كله رأساً على عقب. وكأنما الذي خرج من البيت نعش لإنسان عزيز.

أما الوحيد الذي أبى المشاركة في الوداع فهو العقيد أوريليانو بوينديا، الذي تمتم قائلاً :

ـ لم يعد ينقصنا سوى هذا الإزعاج : بابا؟ !.

وبعد ثلاثة أشهر من هذا الحدث اصطحبت فيرناندا وأوريليانو الثاني ميمي إلى المدرسة الداخلية. ثم عادا ومعهما آلة الكلافسان الموسيقية، فوضعاها مكان البيانو الآلي.

وفي تلك الفترة، بدأت أمارانتا بخياطة كفنها. وبدأت طفرة الموز. وأفاق سكان ماكوندو الأوائل على أنفسهم، وإذا بهم محاصرون، قد سدّ

عليهم الأماكن والطرقات القادمون الغرباء الجدد. فباتوا بشق الأنفس يقوون على التمسك بوسائل العيش العتيقة. ولا يعزيهم في ما انتهوا إليه إلاّ شعورهم بأنهم كانوا قادرين على البقاء والاستمرار في العيش بعد أن أغرقهم الطوفان.

وظلّ البيت يستقبل المدعوين لتناول طعام الغداء. ولكن العادات القديمة لم تعد فعلاً إلى سالف عهدها إلاّ بعد سنين وسنين، وذلك عندما رحلت شركة الموز. وقد طرأت تبدلات أساسية على معاني الضيافة التقليدية ومراسمها، بعد أن سادت قوانين فيرناندا في الدار. فقد استطاعت فيرناندا، خريجة المدرسة الملكية، بعد أن قبعت أورسولا في ظلام عماها، وانهمكت أمارانتا بإعداد كفن موتها، أن تختار الضيوف بحرية مطلقة، بعد أن تخضعهم للطقوس والعادات المتزمتة التي ورثتها عن أهلها. فأحالت صرامة طقوسها البيت إلى قلعة للتقاليد الأرستقراطية، في بلدة قلبتها رأساً على عقب فوضى الغرباء ورعاعيتهم وإسرافهم في التبديد السريع لثرواتهم.

فكانت فيرناندا، بكل بساطة، ترى أن الناس المهذبين هم الذين لا يمتون بأية صلة إلى شركة الموز. حتى صار أخو زوجها، خوزيه أركاديو الثاني، ضحية حماستها للتمييز العنصري. ذلك لأنه ترك، من جديد، ديكة القتال الممتازة، واندفع بحماسته الملتهبة المعهودة إلى العمل في شركة الموز. فقالت فيرناندا:

ـ لن تطأ قدمه أرض هذا البيت ما دام مصاباً بجرب الغرباء.

فرضت فيرناندا جوّاً طاغياً من الجدية على البيت، حتى لم يعد زوجها، أوريليانو الثاني، يطيق الحياة فيه. وبات لا يستمتع بالعيش إلا عند محظيته بيترا كوتيس. فنقل وسائل متعته وملذاته إلى بيت بيترا كوتيس بحجة إراحة زوجته من بعض المتاعب. ثم نقل الاسطبلات

والحظائر بدعوى أن خصوبة الحيوانات قد تدنّت. وأخيراً نقل مكتبه الصغير، الذي كان يجري فيه حسابات أعماله، إلى دار محظيته، زاعماً أن الحرارة في دارها أخف وأن الجوّ هناك ألطف. ولم تكن العودة إلى سابق العهد أمراً سهلاً، بعد أن أدركت فيرناندا أنها أصبحت أرملة ولكن زوجها على قيد الحياة. ولكن أوريليانو الثاني ظل يتردد على البيت ويأكل فيه، وتابع الحرص على إنقاذ بعض المظاهر، كأن يستلقي إلى جانب زوجته في السرير. ولكن هذا كله لم يعد كافياً لإقناع أحد ولا سيما فيرناندا.

وفي إحدى الليالي، سها أوريليانو الثاني، ففاجأه الصباح، وهو ما يزال في سرير بيترا كوتيس. فلم تعاتبه فيرناندا بكلمة واحدة، خلافاً لكل التوقعات. ولم تصدر عنها أية تنهيدة حزن. ولكنها أرسلت في اليوم نفسه، إلى بيت محظيته، صندوقين مليئين بثيابه. أرسلتهما في وضح النهار، وأصدرت أوامرها بأن ينقلا عبر الشارع العام، لكي يرى الناس ذلك جميعاً. وكانت ترجو ألاّ يقوى زوجها الضال على احتمال تلك الإهانة، فيعود ذليلاً إلى مذوده ومعلفه. ولكن تلك الحركة البطولية الدرامية منها لم تكن سوى دليل آخر، إذا كانت هناك حاجة لدليل، على أنها كانت تجهل تماماً طبيعة زوجها وطباعه. كما كانت تجهل طبيعة المجتمع المتأصلة فيه، والتي تختلف كل الاختلاف عن طبيعة أهلها المجتمعية. فجميع الذين رأوا الصندوقين، المحمولين في الشارع العام، أيقنوا أنّ هذه هي النهاية الطبيعية لقصة كانوا يعرفون تفاصيلها الدقيقة. أما أوريليانو الثاني فما كان منه إلاّ أن أقام وليمة كبرى دامت ثلاثة أيام، احتفالاً بالحرية التي نالها.

منذئذ أخذت فيرناندا تنحو منحى سلبياً في اتجاهاتها. فطغت عليها ثياب الرهبنة القاتمة، وغمرت نفسها بالإيقونات العتيقة، وسيطر على

سلوكها غرور لا معنى له. بينما كانت بيترا كوتيس، المحظية، تزداد تألقاً وتتفجر شباباً متجدداً. فترتدي أجمل الثياب الفاخرة من الحرير الطبيعي، ويشع من عينيها بريق السعادة والعنفوان، كما اللهب المنبعث من عيني صبية غرة متوقدة ملحاح. وقد عاد إليها أوريليانو الثاني بعنف من الفتوة شديد جديد. كما كان في العهد الأول، الذي لم تكن تحبه فيه لذاته، بل لأنها كانت تخلط بينه وبين أخيه التوأم. حتى كانت تظن أن الله قد منحها رجلاً في قوة اثنين.

وراجعهما الهوى بنزق أيامه الخوالي، فكانا كثيراً ما تلتقي عيونهما، حين يبدآن الطعام فما يلبث أن يصمت في كل منهما اللسان، وهما على المائدة، فيدعان الأطباق مغطاة، ويأويان إلى مخدعهما، حيث يكادان يموتان جوعاً ووجداً وحباً. وقد أعجب أوريليانو الثاني بما شاهده لدى السيدات الفرنسيات، في زياراته القليلة لهنّ، فاشترى لبيترا كوتيس سريراً مجللاً بكلّة (ستارة)، كأنه سرير أميرة. وجلّل النوافذ بستائر مخملية، وغطى سقف الغرفة وجدرانها بمرايا من الكريستال الشفّاف.

وازدادت شراهة أوريليانو الثاني، حتى غدا ذا بطنة متلافاً أكثر منه في أي زمن مضى. فكان القطار، القادم في الساعة الحادية عشرة من كل يوم، يحمل له صناديق من المشروبات الروحية، كالشمبانيا والبراندي. وكان عدد الصناديق في ازدياد مستمر. فكان إذا استلمها وعاد من المحطة، دعا إليه كل من صادفه في طريقه إلى وليمة مفاجئة، سواء أكان المدعو غريباً أم من أهل البلدة، معروفاً له أم مجهولاً، دون أي نوع من أنواع التمييز. حتى السيد براون نفسه، وهو المتقوقع على نفسه بعيداً عن الناس، والذي لم يكن يتكلم إلا اللغة الأجنبية، رضخ لإشارة مغرية من أوريليانو الثاني مرات كثيرة. وكثيراً ما سكر في بيت بيترا كوتيس سكراً حتى الموت. وكثيراً ما كان يتصرف تصرفاً يدفع رعاته الألمان المتوحشين

إلى الرقص على الألحان التكساسية، وهو يدندن بها مصاحباً عزف الأكورديون. حتى إذا بلغت الحفلة أوجها، كان أوريليانو الثاني يصرخ بأعلى صوته:

ـ كفى أيها البقر. كفى، فإنّ الحياة قصيرة.

لم تكن حياة أوريليانو قط أفضل مما صارت عليه الآن، ولا كان في حياته محبوباً إلى هذا الحدّ، كما لم يصل تناسل حيواناته إلى مثل الغزارة من التكاثر الذي وصل إليه. فقد كان يذبح في الولائم، التي لا حصر لها، عدداً كبيراً من رؤوس الماشية والخنازير والطيور، مما جعل أرض الدار موحلة سوداء قاتمة من كثرة الدم المسفوح، وتراكمت فيها البقايا، حتى لكأنها كومة عظام ونفايات، أو كأنها مزبلة تلقى فيها البقايا وسقط المتاع. وكثيراً ما كانوا مضطرين لتفجير أصابع الديناميت لإبعاد الطيور الجارحة الكاسرة، خشية أن تقتلع عيون المدعوين.

وازداد وزن أوريليانو الثاني، بعد أن سمن وتضخّم، نتيجة لشهيته الهائلة التي لا تشبهها سوى شهية خوزيه أركاديو عندما عاد من رحلته حول العالم.

وانتشرت شهرته بالنهم اللا إنساني، واشتهر خبر كرمه، الذي لا سابق مثيلاً له بتجاوزه حدود المعقول، حتى تجاوز ذلك حدود إقليم المستنقعات (الماريجو). فتوافد إليه ذوو البطنة المعروفون بالنهم في طول الساحل وعرضه. وأقيمت عند بيترا كوتيس مباريات النهم، لاختبار القدرة الفائقة على احتمال كميات الأكل الهائلة، وشارك في ذلك كل المشهورين بالنهم في أنحاء البلاد. وبرز أوريليانو الثاني، في المباريات، بطلاً لا يقارع ولا يغلب. حتى حلّ يوم السبت البائس، الذي ظهرت فيه (كاميلا ساجاستوم) وهي امرأة توتمية، عرفت في البلاد باسم (الفيلة). وقد استمرت المبارزة بينها وبينه من السبت حتى الثلاثاء صباحاً. فكان

العشاء في الساعات الأربع والعشرين الأولى لحم عجل مع البطاطا، والموز المقليّ، مضافاً إلى ذلك صندوق ونصف من الشمبانيا. وظن أوريليانو الثاني أنه قد انتصر. فقد كان أكثر حماسة وقوة من المرأة، خصمه العنيد، ولو أن أسلوبها أسلوب محترف. وقد يكون هذا هو السبب في أنها لم تثر الناس الذين احتشدوا في البيت، للمشاهدة، حتى ضاق بهم.

وكان أوريليانو الثاني، الذي أسكرته نشوة الظفر الظاهر، يلتهم الطعام بلا تمييز، بينما كانت (الفيلة) تقطع اللحم بحذق ومهارة كأنها جرّاح، وتأكل متأنية متلذذة. وقد كانت كبيرة الجثة هائلتها، ولكن نعومة الأنثى ورقتها تطغى على ضخامة جسدها. كانت جميلة الوجه، رقيقة اليدين ناعمتهما. وكانت شخصيتها ساحرة لا تقاوم، حتى إن أوريليانو الثاني قال بصوت خفيض لمن حوله إنه كان يفضل لو تجري المباراة بينه وبينها في السرير لا على المائدة. ولما رآها تفرغ من فخذ العجل دون أن تخرق قواعد الطعام الأصول، قال بشيء من الجدية، إن هذه الفيلة اللطيفة الرائعة المغرية التي لا تعرف الشبع، هي من بعض النواحي المرأة المثالية عنده. ولم يكن أوريليانو الثاني مخطئاً في تقديره. فقد كانت شهرتها ، والقائلة بأنها أكلة جيف ، دون أساس من الصحة ، تسبقها أنى رحلت. فهي لم تكن ـ كما ورد عنها ـ ساحقة ثيران، ولم تكن ذات لحية، ولم تكن تمت إلى السيرك اليوناني بصلة، بل كانت مديرة لمدرسة غناء. وقد تعلمت طريقتها في الأكل وهي أم محترمة لعائلة، كانت تبحث لأولادها عن طريقة نظامية تمكنهم من الغذاء الجيد، دون استعمال للمثيرات الاصطناعية، بل بوساطة هدوء الذهن المطلق. وقد استندت نظريتها، التي برهن التطبيق العملي على صحتها، إلى أن الإنسان السويّ الطبيعي يستطيع أن يأكل حتى يغلبه التعب. وقد تخلت

عن بيتها وعن دروس الغناء لأسباب خلقية وأسباب رياضية، لتنازل رجلاً مشهوراً ببطنه ونهمه، ولا يعتمد على أية قواعد أو أنظمة مدروسة، وقد ملأت شهرته بذلك البلاد.

ومنذ اللحظة التي وقعت فيها عيناها على أوريليانو الثاني، أدركت أن معدته لا تقهر، وإنما الذي يمكن أن يغلبه هو طبعه. فقد أخذ في الليلة الأولى يضيع قواه وطاقته بالضحك والثرثرة، بينما المرأة ـ الفيلة تحافظ على هدوئها. وناما أربع ساعات. وعندما استيقظا، شرب كل منهما عصير خمسين برتقالة، وأربع كاسات كبيرة من القهوة، والتهم ثلاثين بيضة نيئة، وفي صباح اليوم التالي، وبعد سهر طويل، وبعد أن أتيا على خنزيرين كاملين، وقنو من الموز، واحتسيا أربعة صناديق من الشمبانيا، خيّل للمرأة الفيلة أن أوريليانو الثاني قد اكتشف، مصادفة، نهجها وطريقتها في الأكل، ولكن بطريقة عشوائية لا مبالية. ثم أدركت أنه أخطر مما كانت تقدّر. ومع ذلك شعر أوريليانو الثاني، عندما وضعت بيترا كوتيس ديكين مطبوخين من الحبش، أنه بات على وشك الإصابة بعسر الهضم، فقالت له :

ـ إذا كنت لا تستطيع، فلا تأكل المزيد. ولنخرج من المباراة متعادلين.

وقد كانت جادة في اقتراحها، لأنها أحست أنه لم يعد يستطيع ابتلاع لقمة أخرى. وأنبها ضميرها لشعورها بأنها تساهم في قتل خصمها.

ولكن أوريليانو الثاني فسّر اقتراحها بأنه نوع من التحدي الجديد، فالتهم قطعة كبيرة من ديك الحبش، متجاوزاً حدود قدرته العجيبة. فأغمي عليه وانكفأ على وجهه فوق المائدة، وقد وقع أنفه في طبق الطعام المليء ببقايا العظام والفضلات. ثم أخذ الزبد يخرج من فمه، كأنما هو كلب، تكاد تخنقه حشرجات النزع الأخير. ثم شعر كأن يداً تدعّه، في غياهب الظلام الدامس، من علٍ نحو هوة لا قرار لها. ثم بدا له،

كومضة صحو أخيرة، كأنما الموت كان في انتظاره لدى سقوطه. وجاهد حتى استطاع أن يقول :

ـ خذوني إلى فيرناندا.

وظنّ رفاقه الذين حملوه إلى بيته أنه إنما كان ينفذ وعداً قطعه لزوجته، بألاّ يموت في سرير محظيّته.

دهنت بيترا كوتيس حذاءه اللامع المفضل لديه، والذي كان يحب أن يحتذيه في نعشه. وعندما كانت تبحث عمّن ينقله إليه في بيت فيرناندا، علمت أنه نجا من الخطر.

ثم استعاد صحته خلال بضعة أيام. فاحتفل، بعد خمسة عشر يوماً، بوليمة لا عهد لأحد بمثلها، فرحاً بخلاصه من الموت.

وظل يعيش مع بيترا كوتيس. وداوم، في الوقت ذاته، على زيارة فيرناندا يومياً، كما كان أحياناً، يتناول عندها طعام الغداء في البيت. وكأن قدره شاء أن يقلب له الأدوار في الحياة، حتى غدا عشيقاً لزوجته وزوجاً لحظيته.

كان ذلك فترة استراحة لفيرناندا. فخلال حياة الإهمال المؤرقة التي كانت تحياها، كان الشيء الوحيد الذي يشغلها ويملأ وقتها هو دروس العزف على آلة الكلافسان الموسيقية خلال ساعات القيلولة، ثم التسلّي بالرسائل الواردة من ابنها وابنتها. ولم تكن رسائلها المطولة إليهما، مرة كل أسبوعين، لتنقل شيئاً من الواقع. فقد كانت تخفي عنهما عذابها. فلا تحدثهما عن كآبة البيت، الذي بات يتحول، تدريجاً، إلى مسكن شبيه بمسكن ذويها الكلاسيكي، رغم الأنوار التي كانت تضيء أزهار البيجونيا، والحرارة الخانقة عند الساعة الثانية من بعد الظهر، ورغم موجات الاحتفالات التي كانت تتناهى إلى البيت من الشارع العام.

كانت فيرناندا تغرق في عزلتها ووحدتها، تتجول في البيت، تلازمها

ثلاثة أشباح حية وطيف خوزيه أركاديو بوينديا الميت، الذي كان يجيء إليها، فيجلس في الصالة، نصف المضاءة، مصغياً في عبوس لعزفها على آلة الكلافسان الموسيقية.

أما العقيد أوريليانو بوينديا فبات ظلاً. فهو، منذ خروجه إلى العقيد جيرينيلدو ماركيز مقترحاً عليه إشعال حرب لا أمل فيها، بات لا يغادر مشغله، إلاّ ليبول تحت شجرة الكستناء. ولم يكن يقبل زيارة أحد، إلاّ الحلاق، الذي كان يأتيه مرة كل ثلاثة أسابيع. وكان يتناول وجبة الطعام الوحيدة التي تحملها إليه أورسولا. فلا يسأل عن نوع الطعام. ويتابع صنع الأسماك الذهبية الصغيرة بحرارة الماضي وحماسته. ولكنه كفّ عن بيعها منذ أن علم أن الناس لا يشترونها حلية، بل لأنها أثر من التاريخ.

وقد أشعل في الدار ناراً هائلة، وأحرق فيها لعب ريميديوس كلها، تلك اللعب التي كانت تزين بها غرفتها يوم زواجهما. وقد علمت أورسولا، وهي التي لم يكن يخفى عليها شيء مما يدور في البيت، ما كان يفعل ابنها، ولكنها لم تجد وسيلة تمكنها من ردّه عن قراره. فقالت له :

ـ لك قلب من حجر.

فأجابها قائلاً :

ـ ليست المسألة مسألة قلب. فقد امتلأت الغرفة بالعثّ.

وكانت أمارانتا ما تزال تحوك كفنها. ولم تدرك فيرناندا لماذا كانت تكتب الرسائل إلى ميمي، بل وترسل إليها الهدايا أحياناً، ولكن دون أن تذكر لها شيئاً عن خوزيه أركاديو، كأنها لا تريد لها أن تسمع عنه شيئاً. ولما استفسرت فيرناندا عن ذلك، بوساطة أورسولا، كان جواب أمارانتا :

ـ ستموت دون أن تعرف السبب.

وقد زرع هذا الجواب في قلب فيرناندا لغزاً لم تستطع قط أن تسبر كنهه.

كانت أمارانتا طويلة القامة، عريضة المنكبين، متكبرة معتزة بنفسها، ترتدي دائماً الملابس الفاخرة المحلاّة بالدانتيلا، وتحمل في شكلها وهيئتها غروراً يغالب السنين والذكريات الحزينة. فكأنها كانت تحمل على جبينها صليب الرفاة (الرماد) المعبر عن عذريتها. والواقع أنها كانت تحمله. ولكن في الرباط الأسود على يدها، فلا تنزعه في يقظتها ولا نومها. كانت تغسله وتكويه بنفسها. وتمضي سحابة يومها، وهي توشح كفنها، حتى ليخيل للمرء أنها كانت تعمل فيه طوال يومها، وتعمل فيه عندما يجن ليلها. وكأنها لم تكن تريد بذلك أن تخمد نار عزلتها ووحدتها، بل أن تؤججها.

وما كان يشغل بال فيرناندا في سني هجرها هو أن ميمي، عندما ستعود إلى البيت لقضاء عطلتها الأولى، لن تجد أباها أوريليانو الثاني في البيت. ولكن عسر الهضم الذي أصابه قد أطاح بمخاوفها. واتفق الأب والأم، عندما وصلت ميمي، على أن تفهم ميمي أن أوريليانو الثاني كان ما يزال زوجاً مثالياً، مواظباً على واجباته المنزلية، وعلى ألاّ تلحظ ابنتهما الكآبة التي كان البيت غارقاً فيها. فكان أوريليانو الثاني يقضي في العام شهرين، يكون خلالهما زوجاً مثالياً. يقيم الحفلات التي تقدم فيها البوظة والكعك (الجاتو)، وتشيع فيها الفرح تلك الطفلة اللعوب، التي كانت تضج بالحياة ولا سيما حينما تجلس للعزف على آلة الكلافسان الموسيقية. وكان واضحاً أنها لم ترث إلاّ القليل من طباع أمها، فكانت كأنها نسخة من أمارانتا، يوم كانت الأخيرة لا تعرف مرارة العيش، توزع المرح، بطيشها، في البيت، بحركات رقصها، وهي ما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرها. كان ذلك قبل أن يلتوي قلبها بهواها المكتوم

ليترو كريسبي، فيغيره من النقيض إلى النقيض مرة واحدة وإلى الأبد.

ولكن ميمي كانت تختلف عن أمارانتا، وعن سائر أفراد الأسرة، بأنها لم يكن محكوماً عليها بقدر العزلة والوحدة. كانت منسجمة مع الناس والعالم من حولها، حتى عندما كانت تغلق على نفسها باب الصالة في الساعة الثانية من بعد الظهر، لتتدرب على آلة الكلافسان الموسيقية بشكل نظامي صارم. كانت تحب البيت، فتقضي العام وهي تحلم بصخب صويحباتها اللاتي كان يثيرهن وصولها في العطلة. ولم تكن بعيدة عن الولع بحفلات أبيها وكرمه المتلاف. وقد بدت عليها آثار الوراثة، بوضوح، عندما حلت العطلة الكبرى الثالثة. فقد وصلت ميمي إلى الدار بصحبة أربع راهبات، وستين واحدة من رفيقاتها في الصف، دعتهن لقضاء أسبوع معها عند أهلها، وحدها، دون أن تخبر أحداً بالأمر. فتأوهت فيرناندا قائلة:

ـ يا للهول، فهذه الطفلة متوحشة كأبيها.

واضطرت لاستعارة الأسرّة والأراجيح من الجيران، وأن تقدم طعام الوجبة الواحدة على تسع دفعات، وأن تنظم ساعات الدخول إلى الحمام. كما نجحت في استعارة أربعين كرسياً صغيراً، لكي لا تظل أولئك البنات يطفن، طوال النهار، ببزاتهن الزرقاء من مكان إلى آخر في الدار. وقد كانت تلك الدعوة فاشلة فشلاً ذريعاً، لأن التلميذات ما كنّ ينتهين من تناول طعام الفطور، حتى يبدأ تقديم وجبة الغداء. وهكذا دواليك حتى العشاء. فلم يقمن سوى برحلة واحدة إلى الغابة خلال الأسبوع بطوله. وما أن يحل المساء، حتى تشعر الراهبات بالإجهاد من كثرة العمل، فلا يستطعن حراكاً. أما البنات، اللواتي لم يكنّ ليعرفن التعب، فكنّ يطفن في فناء الدار، وهن يغنين مقاطع من أناشيدهن المدرسية، ضحلة المعاني. وقد كدن، ذات مرة، أن يوقعن أورسولا،

التي أصرت على أن تقوم بعمل ما نافع، ولا سيما حيث كان يكثر ازدحام البنات. وقد اضطربت الراهبات اضطراباً شديداً، في أحد الأيام، لأنهن شاهدن العقيد أوريليانو بوينديا يبول تحت شجرة الكستناء، دون أن يعير أي اهتمام للتلميذات في فناء الدار. وكادت أمارانتا تثير الفزع في الجميع، حين دخلت إحدى الراهبات إلى المطبخ، وكانت هي تملح الشورباء. فسألتها الراهبة عن ذلك المسحوق الأبيض الذي كانت ترشه بقبضة يدها على الطعام. فأجابت أمارانتا :

- زرنيخ.

وقد سببت البنات ازدحاماً هائلاً ليلة وصولهنّ، عندما حاولت كل منهن دخول الحمّام قبل أن تأوي إلى فراشها. فما انتهت أواخرهن من ذلك إلاّ مع ساعات الصباح الأولى. وعندها جلبت فيرناندا اثنين وسبعين إناء وضعتها في الغرف، فحلّت بذلك المشكلة الليلية. ولكنها أثارت بذلك مشكلة صباحية. . فقد بدأت الفتيات، منذ الفجر، يقفن صفاً طويلاً أمام بيت الخلاء، تحمل كل منهن إناءها بيدها، وتنتظر دورها لإفراغه. وقد أظهر معظمهن مقاومة شديدة لكل أنواع المصاعب. فكنّ يتنزّهن في البستان، في آخر ساعات اليوم، ما خلا بعضهن اللواتي بدت عليهن بعض ظواهر الحمّى، وتقيحت على جلودهن قرصات البعوض.

وعندما سافرت البنات، كانت أزهار الدار قد أتلفت، وتحطم الأثاث، وامتلأت الجدران بالرسوم والكتابات. وشعرت فيرناندا بالراحة لرحيلهن، وغفرت لهنّ كل صنوف التخريب. وأرجعت الأسرّة والكراسي لأصحابها، واحتفظت بالاثنين والسبعين إناء، فوضعتها في غرفة ملكيادس. وقد سميت تلك الغرفة، التي كانت مغلقة مهجورة، والتي كانت قديماً تدور حولها حياة البيت الروحية، غرفة الأواني. وقد كانت هذه التسمية، في نظر العقيد أوريليانو بوينديا، هي التسمية المناسبة

لغرفة ملكيادس، ذلك لأنه، بينما كان أفراد الأسرة ما يزالون مبهورين بسحر كون غرفة ملكيادس كانت معصومة من الغبار والدمار، كان هو يرى أنها قد استحالت إلى مكان للقمامة. وعلى كل حال، لم يكن يهمه أن يعرف الصحيح. ولم يكن ليعرف شيئاً عما آلت إليه الغرفة إلاّ لأن فيرناندا قد أزعجته بغدوها ورواحها، وسببت له الاضطراب في شغله، طوال عصر يوم كامل، وهي ترتب الأواني في تلك الغرفة.

في تلك الفترة ذاتها، عاد خوزيه أركاديو الثاني إلى الظهور في البيت من جديد. فقد مرّ أمام الشرفة دون أن يحيي أحداً من أهلها، ثم مضى في طريقه إلى المشغل لكي يتحدث إلى العقيد. وعلى الرغم من أن أورسولا لم تستطع أن تراه، فقد ميزته من صوت كعب حذائه، وعجبت لما تذكرته من الهوة التي كانت تفصله عن باقي أفراد العائلة، تلك الهوة، التي كانت تفصله حتى عن أخيه التوأم الذي كان يلهو معه، وهما صغيران، باختراع الحيل على الناس، كي يختلط عليهم أمرهما، أما الآن فلم تبق بينهما سمة مشتركة. فقد كان هو طويلاً نحيلاً، وقور الهيئة، دائم التفكير، حزيناً جاداً، كفارس عربيّ مسلم، على وجهه لمعة كئيبة من لون الخريف. وقد كان أكثر التوأمين شبهاً بأمهما سانتا صوفيا (التقية).

وقد لامت أورسولا نفسها، لأنها كانت تنساه أحياناً وهي تتحدث عن أفراد العائلة. ولكنها عندما أحست أنه في الدار، ولاحظت أن العقيد استقبله في مشغله، خلال ساعات عمله، عادت إلى ذكرياتها القديمة، تتفحصها. فاقتنعت بأنه، في فترة الطفولة، تبادل وأخاه شخصيتيهما، وأنه هو الذي كان يجب أن يدعى أوريليانو. ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن حياته. فقد عرف عنه أنه، في وقت من الأوقات، لم يكن له بيت ثابت، وأنه كان يربي الديكة عند بيلار تيرنيرا، ويبيت عندها أحياناً.

والواقع أنه كان يقضي معظم لياليه في غرف السيدات الفرنسيات. فقد كان دائماً بعيد المزار، يعيش بلا عاطفة ولا طموح، كشهاب عابر في نظام أورسولا الشمسيّ.

والواقع أن خوزيه أركاديو الثاني لم يعد واحداً من أفراد العائلة. كما لم يكن يمت إلى أية عائلة أخرى بصلة، منذ ذلك الفجر البعيد الذي صحبه فيه العقيد جيرينيلدو ماركيز إلى الثكنة، لا لكي يشهد تنفيذ الإعدام، بل ليبقى ذلك محفوراً في ذاكرته ما دام على قيد الحياة، فلا ينسى الابتسامة الحزينة الساخرة على وجه ذلك الرجل الذي تطلق عليه النار تنفيذاً لحكم الإعدام. ولم تكن تلك أقدم ذكرياته، بل كانت الذكرى الوحيدة الباقية من حياة الطفولة. وكانت هناك ذكرى أخرى، هي صورة رجل عجوز، يلبس صداراً عتيقاً، وقبعة كجناحي غراب، يروي له قصصاً عن أشياء عجيبة، أمام نافذة لها إطار يبهر البصر بنوره. ولكنه لم يستطع تحديد زمن تلك الذكرى. كانت مشوشة مضطربة في ذهنه، يكاد لا يعلم عن تفاصيلها شيئاً. فهي مجردة من الحنين، على عكس صورة المحكوم بالإعدام، التي كانت تتحكم بتوجيه حياته فعلاً، وما تنفك تراجعه بين الحين والآخر، فتزداد وضوحاً في ذاكرته، كلما ازدادت إيغالاً في الماضي، فكأن مرور الزمن يقربها منه، ولا يزيدها إلاّ وضوحاً.

وأرادت أورسولا أن تستغلّ وجود خوزيه أركاديو الثاني، علّه يخرج العقيد أوريليانو بوينديا من عزلته. فكانت تقول له :

ـ ادفعه للخروج والذهاب إلى السينما. حتى ولو كانت الأفلام سيئة، لعله يتنفس الهواء النقيّ.

ولكنها ما لبثت أن اكتشفت أنه، هو نفسه، أقلّ استجابة لرجائها من العقيد نفسه، وأنهما كليهما محصّنان بدرع لا تنفذ منه العواطف. ولم

تستطع أن تعرف قط، كما لم يستطع أحد أن يعرف، عمّا كان يتحدثان في خلواتهما الطويلة في المشغل. ولكنها أدركت أنهما الوحيدان بين أفراد العائلة اللذان يشتركان في مشاربهما، وتجمعهما صلة من نوع خاص.

والحق أن خوزيه أركاديو الثاني نفسه لم يكن قادراً على إخراج العقيد من عزلته. وقد نفد صبره في أسبوع غزوة البنات، وزعم أن العث قد سطا على غرفة عرسه على الرغم من إحراق لعب ريميديوس الحبيبة. فعلّق أرجوحته في المشغل، ولم يعد يغادره إلاّ لقضاء حاجة في البستان. وما كانت أورسولا لتستطيع التحدث معه، ولو في أتفه الموضوعات. وكانت تعرف أنه لا يلقي نظرة على ما تقدمه له من طعام. فقد كان يترك الطعام على طرف طاولة العمل، إلى أن ينتهي من صنع سمكة صغيرة. ولم يكن يعنيه في شيء سواء أتجمدت الشورباء أم برد اللحم. وقد ازداد قسوة منذ رفض العقيد جيرينيلدو ماركيز مساعدته في بدء حرب الشيخوخة التي كان ينوي إعلانها. فتقوقع على نفسه، حتى اعتبرته الأسرة كأنه قد مات. ولم تبد منه أية بادرة، تدل على ردّ فعل إنساني، حتى حلّ ذلك اليوم، الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، حين خرج إلى باب الدار يشهد مرور السيرك في الشارع العام. ولم يكن ذلك اليوم، ليختلف، عند العقيد أوريليانو بوينديا، عن غيره من سائر أيام السنة أو السنوات الأخيرة.

استيقظ في الساعة الخامسة صباحاً على صوت الضفادع والصراصير الصادر من الناحية الأخرى من السور. وكان الرذاذ يتساقط حينئذ، كما كانت الحال منذ السبت الماضي. ولم يكن بحاجة لسماع حفيفه الخافت على أوراق شجر البستان لكي يعرف بسقوطه. فقد شعر به عندما أحس بالبرد الذي ينفذ إلى عظامه. وكان، حسب عادته، يتلفع بدثاره

الصوفي"، وقد ارتدى سرواله القطني الطويل، الذي ما انفك يلبسه، حتى بات يسميه لقدمه بـ «السروال الحافظ». وقد لبس بنطاله الضيق ذاك دون أن يزرر عراه، ولم يضع في ياقة قميصه الزر الذهبي الذي اعتاد أن يضعه دائماً. فقد كان يريد أن يستحم. وغطّى رأسه بدثاره كأنه رداء حمام، ومسّد شاربيه المتهدلين بأصابعه، ثم مضى إلى البستان كي يبول.

كان الوقت ما يزال مبكراً، قبل أن تبزغ الشمس، حتى إن خوزيه أركاديو بوينديا(١) كان ما يزال، على عادته، نائماً تحت سعف النخيل التي مزقها المطر. فلم يره، كما لم يره من قبل هناك، ولم يسمع العبارة الغامضة التي وجهها شبح أبيه، لدى استيقاظه، عندما فاجأه رذاذ البول الدافىء المتساقط على حذائه. فأرجأ الاستحمام، لا لأنه شعر بالبرد والرطوبة، بل بسبب ضباب تشرين الأول (أكتوبر) الذي أثقل على صدره. وفي طريقه عائداً إلى المشغل، لاحظ رائحة الفتيلة المحترقة التي كانت سانتا صوفيا (التقية) تستعملها لإشعال الفرن. فانتظر في المطبخ حتى تسخن القهوة، فيأخذ منها فنجاناً بلا سكر. وسألته سانتا صوفيا عن أي يوم كان ذلك من الأسبوع. فقال لها إنه الثلاثاء، الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر). وتأمل تلك المرأة الصابرة، التي قد بهت رونقها، ولكن انعكاس اللهب على وجهها جعلها تتلألأ كالذهب، وهي تبدو في تلك اللحظة، أكثر من أي وقت مضى عليها، وكأنها غير موجودة. فتذكر أنه في الحادي عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وهو في أوج حربه، أيقظه من نومه شعور مفاجىء غريب بأن المرأة النائمة معه قد ماتت. وكانت ميتة فعلاً. وهو تاريخ لا ينساه، لأنها هي الأخرى سألته، قبل ساعة من نومها أي يوم كان ذلك اليوم.

ورغم هذه الذكرى، لم يدرك إلى أي مدى تخلّت عنه النبوءات.

---

(١) والد العقيد أوريليانو بوينديا الميت.

وجعل يتأمل ويفكر، بينما القهوة تغلي على النار، بتلك المرأة، دون أي ذرة من حنين، بل مجرد حب استطلاع. تلك المرأة التي لم يعرف اسمها ولم يرَ وجهها، لأنها انسلت إلى أرجوحته، وهي تتعثر في الظلام. ولم يستطع، في زحمة النسوة اللاتي كنّ يتسللن إلى أرجوحته وحياته على تلك الصورة، أن يتذكر أنها هي كادت تغرق بدموعها، وهي في نشوة اللقاء معه، وأنها أقسمت، قبل ساعة من موتها، أنها ستحبه ما دامت على قيد الحياة. ولم يعد إلى التفكير فيها من جديد، بل أقلع عن التفكير في أية امرأة أخرى، ودخل مشغله، حاملاً فنجان قهوته، والبخار يتصاعد منه. وأشعل النور كي يبدأ بصنع سمكاته الصغيرات التي كان يضعها في طاس من التوتياء. كانت عندها سبع عشرة سمكة. فقد أخذ، منذ قرّر ألا يبيعها، يصنع سمكتين في اليوم. حتى إذا وصل العدد الخمس والعشرين، صهرها في البوتقة، كي يعاود صنعها من جديد.

واستغرق في عمله الصباحي، حتى لم يعد إلى التفكير بشيء. فلم ينتبه إلى اشتداد هطول المطر عند الساعة العاشرة، ولم يلحظ مرور شخص سريعاً بباب المشغل وهو يصيح طالباً إغلاق الأبواب قبل أن يغرق البيت. بل لم يكن يشعر بوجوده ذاته، حتى دخلت عليه أورسولا، وهي تحمل له طعام الغداء، وأطفأت النور، قائلة :

ـ يا لهذا المطر !!. فأجاب :

ـ إنه تشرين الأول (أكتوبر).

قال ذلك دون أن يرفع عينيه عن سمكة اليوم الصغيرة الأولى، لأنه كان يرصّع مكان عينيها بالياقوت. ولم يحتس الشورباء إلا حين انتهى من آخر لمسة على سمكته، وضمها إلى رفيقاتها في الطاس، ثم أكل قطعة اللحم المطبوخة مع البصل ببطء شديد، وأكل الأرز الأبيض، وقطع الموز المقلية، وقد وضعت جميعاً في طبق واحد.

كانت شهيته لا تتبدل بحسب الأحداث، سيئة كانت أو حسنة. واستولى عليه، بعد الغداء، شعور بالخمول والكسل. وكان قد إعتمد، نتيجة لوساوسه العلمية، أن يدع ساعتين بعد الأكل للراحة والهضم، فلا يعمل خلالهما، ولا يقرأ، ولا يستحم. وقد سيطر عليه ذلك الاعتقاد، منذ زمن طويل، حتى إنه كثيراً ما أخرّ بعض العمليات العسكرية، كي لا يعرّض جنوده لعسر الهضم نفسه.

استلقى في أرجوحته، وراح يتشاغل بنزع الصملاخ من أذنيه برأس سكينه. وغلبه النوم بعد مضي بضع دقائق. وقد رأى، في ما يرى النائم، أنه يدخل بيتاً خالياً، جدرانه بيضاء. وقد هيمن عليه شعور بأنه أول إنسيّ يدخل إليه. وتذكر في حلمه أنه رأى الحلم نفسه في الليلة الماضية، بل في ليال كثيرة خلال السنوات الأخيرة. وتبيّن أن الصورة كانت تمّحي من ذاكرته عندما يستيقظ من نومه. ولا بد أن يكون في تكرار هذا الحلم شيء خاص به، وهو أنه لا يمكن أن يتذكره إلاّ حين يراه.

والواقع أنّ ما حصل هو أن العقيد أوريليانو بوينديا، كان قد ظن أنه أغفى طويلاً، عندما طرق الحلاق بابه، مع أنه لم يغف سوى ثوان قليلة، لم تتسع لأن يرى فيها حلماً طويلاً. فقال للحلاق:

ليس اليوم. فليكن يوم الجمعة.

وكان قد مضى على ذقنه دون حلاقة فترة ثلاثة أيام، فبدت وقد تناثرت فيها شعرات بيضاء. ولكنه لم ير من الضروري أن يحلق ذقنه اليوم، ما دام سوف يقص شعره يوم الجمعة. والأفضل أن يفعل الشيئين معاً. وقد أدّت به تلك القيلولة غير المرغوب فيها إلى أن بات ينضح عرقاً. فأيقظ سائل عرقه اللزج الندوب المتخلفة من بثور إبطيه. ولم تظهر الشمس رغم توقف المطر عن السقوط. وتجشأ العقيد أوريليانو بوينديا

تجشؤاً عالياً، فصعدت من معدته إلى فمه حموضة الشورباء. فكانت شبيهة بردة فعل عضوية، دفعته إلى وضع دثاره على كتفيه، وإلى الذهاب إلى بيت الخلاء، حيث مكث أكثر مما ينبغي، قابعاً قرب الرائحة المتخمرة التي كانت تتصاعد من الوعاء الخشبي، إلى أن تبيّن بفعل نظام عمله الرتيب أنّ ساعة العمل قد أزفت.

وتذكر خلال مكوثه الطويل أنه في يوم الثلاثاء، وأن خوزيه أركاديو الثاني لم يأت إلى المشغل، لأنه كان يوم دفع الأجور في شركة الموز. وقادته الذاكرة، كما كانت تفعل خلال السنوات الأخيرة، دون انتباه أو وعي منه، إلى التفكير بالحرب. فتذكر أن العقيد جيرينيلدو ماركيز كان قد وعده، يوماً، أن يقدم له حصاناً أنجم (ذا نجمة بيضاء في جبينه)، ثم لم يعد يسمع منه أي حديث عن الموضوع منذ ذلك الحين.

وراح ينتقل من قصة إلى أخرى، ومن ذكرى إلى أخرى، يستعيدها، دون أن يتوقف عندها أو يعلق عليها بأي حكم. فقد اعتاد أن يفكر ببرود، لعلّ الذكريات التي لا حيلة له فيها لا تلامس شغاف قلبه وحساسياته، لم يكن يقوى على تركيز ذهنه على شيء. ولما عاد إلى المشغل، شعر أن جوّه أصبح جافاً، فقرر أن يستحم، ولكنه وجد أن أمارانتا قد سبقته إلى ذلك. فبدأ بصنع سمكة يومه الثانية. ولما كان على وشك لحم ذنبها بها، برزت الشمس من خلف الغيوم، ساطعة قوية، حتى بدا كأن بريقها أحدث صوتاً شبيهاً بصوت قارب يمخر عباب اليمّ. وغصّ الجو، الذي غسله المطر على مدى ثلاثة أيام، بالنمل الطيار. وأحسّ بالحاجة للتبوّل، ولكنه حاول أن يمسك نفسه ريثما يفرغ من جلي السمكة الصغيرة. وفي الساعة الرابعة وعشر دقائق، غادر المشغل إلى البستان، فتناهى إلى أذنيه صدى آلات موسيقية نحاسية بعيدة، وقعقعة صندوق كبير، وأصوات أطفال فرحين. ولأول مرة منذ شبابه، استسلم

لما يسمع بملء إرادته، فوقع في المصيدة التي نصبها له الحنين.

وعادت إليه ذكرى عصر ذلك اليوم، يوم الغجر، عندما صحبه أبوه كي يشهد الجليد. وتركت سانتا صوفيا (التقية) ما كانت مشغولة فيه من شؤون المطبخ، وأسرعت إلى باب الدار. وصاحت بملء صوتها :

ـ إنه السيرك.

وبدلاً من أن يتجه العقيد أوريليانو بويندا إلى شجرة الكستناء، عدّل، هو الآخر، طريقه وذهب إلى باب الدار المطل على الشارع العام. واختلط بالمشاهدين المستطلعين الذين كانوا يتأملون العرض. فرأى امرأة على عنق الفيل، وقد ارتدت ثياباً محلاّة كلها بالذهب. وشاهد جملاً كئيباً. ورأى كذلك فتاة هولندية تضبط إيقاع الموسيقى بمغرفة ومقلاة. وشاهد المهرجين، في آخر العرض، يقفزون عالياً في الهواء. كما أدرك وحدته وعزلته البائستين، بعد أن مرّ العرض، واختفى كل شيء، حتى لم يبق أمامه، مما يمكن أن يرى، سوى امتداد الشارع الطويل المنير، والجوّ الذي كان يعج بالنمال الطائرة، وسوى بعض المستطلعين الذين كانوا يحملقون في فراغ عدم اليقين.

وعندما عاد نحو شجرة الكستناء، وهو يفكر في السيرك، حاول جهده أن يستمر في التفكير فيه وهو يبول، لكنه لم يستطع الاحتفاظ بشريط ذكرياته. فأنزل رأسه بين كتفيه، كما يفعل صوص صغير، حيث ظل بلا حراك دون أن يبرح جبينه جذع شجرة الكستناء. ولم يدر بأمره أحد من أفراد الأسرة، حتى صباح اليوم التالي، في الساعة الحادية عشرة، عندما خرجت سانتا صوفيا (التقية)، إلى مؤخرة البستان، لإلقاء النفايات، فراع انتباهها خفق أجنحة النسور الهابطة.

(١٤)

توافقت عطلة ميمي الأخيرة مع فترة الحداد على العقيد أوريليانو بويندا. وقد أغلق باب الدار، ولم يعد فيها مجال للحفلات، ولم يعد يتكلم أحد في الدار إلاّ همساً. وكان على الجالسين على مائدة الطعام أن يكونوا صامتين، وأن يعيدوا صلاة السبحة ثلاث مرات في اليوم. وقد صار للتمرينات على آلة الكلافسان الموسيقية نغم حزين.

وعلى الرغم من أن فيرناندا كانت تكنّ عداء خفياً للعقيد، إلاّ أنّ وقار الاحتفال، الذي أقامته الحكومة لذكرى عدوها الميت، قد أثر فيها كثيراً، حتى إنها هي التي فرضت على البيت حداداً صارماً.

وكان أوريليانو الثاني قد رجع إلى البيت كي ينام فيه خلال عطلة ابنته، ميمي، حسب الاتفاق. ولكن يبدو أن فيرناندا قد استعادت حقوق الزوجة، لأن ميمي عندما وصلت في عطلة السنة التالية، وجدت لها أختاً، كانت حديثة الولادة. وقد عمّدت، على الرغم من رأي أمها، باسم أمارانتا أورسولا.

وقد أنهت ميمي دورتها الدراسية. وكان خير برهان على صدق الشهادة التي نالتها، كعازفة جوقة على آلة الكلافسان الموسيقية، عزفها بمهارة ألحاناً شعبية رائعة من القرن السابع عشر، في الحفلة التي أقيمت بمناسبة تخرجها، وصادفت نهاية فترة الحداد. كان عزفها يدل على استحقاقها الإجازة في الموسيقى. وقد كانت الفتاة ذات شخصية نادرة،

حظيت بإعجاب المدعوين أكثر مما حظي بذلك فنها. كان يبدو عليها أن طبعها الطفولي الخفيف لا يؤهلها لأداء أية فعالية جادة، ولكنها ما إن كانت تجلس إلى آلة الكلافسان حتى تتبدل إلى فتاة مختلفة كلياً، ذات مظهر يوحي ببلوغها المبكر بإمارات غاية في الوضوح. وقد ظلت كذلك طوال حياتها.

والواقع أن ميمي لم تكن ذات موهبة جلية، ولكنها استطاعت أن تنجح في الحصول على أحسن الدرجات بجهدها المتواصل. كي لا تخالف أوامر أمها. ولو أن أمها كانت قد فرضت عليها أية مهنة أخرى لما كانت النتيجة لتختلف قليلاً أو كثيراً. فقد كانت ميمي، منذ طفولتها، ترزح تحت شدة فيرناندا، وعادتها في إتخاذ القرارات المتطرفة. ولم تكن على استعداد لمقاومة عنادها، ولو أدى ذلك بها إلى ما هو أشق من دروس الكلافسان.

وقد خيِّل لميمي، يوم حفلة التخرج، أنّ الشهادة، بحروفها القوطية، وحروفها التزيينية الكبيرة، قد حررتها من عهد قطعته تهذيباً لا خضوعاً. وظنت، في نفسها، أن فيرناندا لن تعود بعد إلى تلك الآلة الموسيقية، التي صارت الراهبات أنفسهن يعتبرنها من آثار المتاحف. ولكنها ما لبثت أن اكتشفت خطأها. فلم تعد أمها تكتفي بتنويم نصف سكان البلدة في الحفلات الموسيقية، التي كانت تقيمها في الصالة، ولا بسهرات الإحسان، والاحتفالات المدرسية، والمهرجانات الوطنية التي تنظم في ماكوندو، بل تجاوزت ذلك إلى دعوة كل قادم جديد كانت تفترض أنه يستطيع تقدير مواهب ابنتها.

ولكن، بعد موت العقيد أوريليانو بوينديا، وإعلان فترة الحداد في الدار، استطاعت ميمي أن تغلق آلة الكلافسان الموسيقية القديمة، وأن تخبيء المفتاح في إحدى الخزائن. ومنذئذ لم تكلف فيرناندا نفسها عناء

البحث عنه أو السؤال عمن أضاعه.

لقد احتملت ميمي كل تلك المظاهر بصبر صوفي غير محدود، مثلما احتملت فترة الدراسة. ولكن ثمن ذلك كان حريتها. وقد رضيت فيرناندا عن تهذيبها، وسرّها الإعجاب الذي كان يبعثه فنها في الناس، فلم تعد تعارض في قدوم صويحباتها إلى الدار، ولا في أن تقضي ما بعد الظهر في الغابة، أو أن ترافق أوريليانو الثاني، أباها، إلى السينما، أو لزيارة النساء اللواتي كانت تثق بهن، شريطة ألاّ يكون فيلم السينما مما نهى عنه الأب أنطونيو إيزابيل من على منبر الكنيسة في الصلاة.

وفي تلك اللحظات المريحة، كانت تتبدّى أذواق ميمي وملامح زهوها. فقد كانت سعادتها تتناقض مع النظام الصارم. كانت تنطلق في الحفلات الصاخبة، وفي أحاديث الحب وقصصه، وفي الاجتماعات السرية الخاصة بين الصواحب، حيث يتعلمن التدخين، ويتحدثن عن أمور الرجال وأشيائهم. وصادف مرة أن شططن فجاوزن المعقول، إذ شربن ثلاث زجاجات من مشروب الروم الكحولي، ثم تعرّين ورحن يقارنّ بين أجزاء أجسادهن. ولن تنسى ميمي، طوال عمرها، تلك الأمسية، حين عادت إلى البيت، وهي تمضغ عيدان السوس، دون أن يلحظ أحد تغير سحنتها. فجلست إلى المائدة، وكانت هناك أمارانتا وفيرناندا تتناولان الطعام دون أن تكلم إحداهما الأخرى.

وكانت قد أمضت ساعتين رهيبتين في غرفة نوم صاحبة لها، تبكي وتضحك. ومن وراء الأزمة اكتشفت ما كان ينقصها من الشجاعة، كي تهرب من المدرسة الداخلية، وتقول لأمها، بطريقة أو بأخرى، أنها تستطيع أن تضع آلة الكلافسان في شرجها.

كانت ميمي جالسة إلى طرف المائدة، تتناول حساء الدجاج، وهو ينزل إلى معدتها كأنه أكسير منعش، عندما اكتشفت أمارانتا وفيرناندا وما

حولهما من هالة الواقع التي تفضحهما. وقد بذلت جهداً كبيراً، وهي تحاول كبح عنان نفسها، كي لا تواجههما بما كانتا تنطويان عليه من الصنعة والتكلف، وفقر الروح وجنون العظمة.

كانت تعرف، منذ عطلتها الثانية، أن أباها كان لا يعيش في البيت إلاّ حرصاً على المظاهر. ونتيجة لمعرفتها بفيرناندا، أمها، وبعد أن قابلت بيترا كوتيس بنفسها، توصلت إلى أن أباها كان على حق. ولكم كانت، هي نفسها، تفضل أن تكون ابنة المحظية. وكانت ميمي ما تزال تحت تأثير نشوة الخمر، ففكرت بالفضيحة التي يمكن أن تثيرها لو أنها عبّرت بصوت عال عما كان يدور في خلدها. وقد بدا أثر ذلك كله عليها، رضاً جلياً، حتى إنّ فيرناندا لاحظت ما كانت عليه، فسألتها :

ـ ما بالك؟.

فأجابت ميمي :

ـ لا شيء. كنت فقط أتبيّن مقدار حبي لكما كليكما.

وقد ذعرت أمارانتا من شحنة الحقد الواضحة في إعلان ميمي. واضطربت فيرناندا، حتى خيّل لها أنها سوف تُجن عندما استفاقت ميمي في منتصف الليل ورأسها يكاد يتشظى من شدة الألم. ثم تقيأت سيلاً أصفر كاد يخنقها، فأعطتها أمها زجاجة من زيت الكاستور، وغطت لها بطنها بلصقات، وغمرت رأسها بأكياس الثلج، وفرضت عليها الحمية، وعزلتها عزلاً تاماً خلال خمسة أيام. ثم استدعت لها طبيباً فرنسياً جديداً غريب الأطوار.

وقرر الطبيب، بعد فحص دام ساعتين، قراراً خلاصته المبهمة السديمية أنها مصابة بأحد الأمراض النسائية الغريبة. وتخلت ميمي عن شجاعتها، وانتابتها حالة يأس حزينة، ولم يكن أمامها إلاّ أن تلوذ بالصبر تحت وطأة الألم. ولكن أورسولا، وهي، على الرغم من عماها التام، كانت ما

تزال نشيطة الإدراك، وقد توصلت إلى التشخيص الدقيق لحالة ميمي، فقالت :

ـ يبدو لي أن ما حدث لها هو ما يحدث للسكارى. ولكنها ما لبثت أن طردت تلك الفكرة من ذهنها، ولامت نفسها لمجرد التفكير بهذه الأفكار التافهة.

وشعر أوريليانو الثاني بتأنيب الضمير عندما رأى ميمي، بما كانت عليه من ضعف. وعاهد نفسه على الاهتمام بها في المستقبل. وهكذا، نشأت بين الأب وابنته علاقة صداقة صريحة مرحة، حررته من وحدة الحفلات المرة القاسية، وحررتها من وصاية فيرناندا، التي كادت تتحول إلى أزمة عائلية لا مناص منها. وأرجأ أوريليانو الثاني جميع التزاماته، لكي يواظب على صحبة ميمي، ويرافقها إلى السينما أو السيرك. وكرّس لها معظم أوقات فراغه.

وكان أوريليانو الثاني قد بدأ في الفترة الأخيرة ينزعج من بدانته وسمنته المتزايدة، حتى بات لا يقوى على ربط شريط حذائه. ومالت مبالغته في التلذذ بالأطعمة المختلفة إلى جعل طبعه نزقاً ضيقاً. ولكن اكتشافه لابنته أعاد إليه مرحه القديم، وأبعدته صحبته لها، تدريجاً، عن متابعة لذاته. ثم بلغت ميمي العمر الذي تتفتح فيه أزهار الفتاة.

ولم تكن ميمي جميلة، كما لم تكن أمارانتا في صباها. ولكنها كانت مرحة جذابة، تؤثر في الآخرين تأثيراً جميلاً، لأنها كانت بسيطة غير معقدة. وكانت طريقة تفكيرها حديثة تصدم وقار فيرناندا وحشمتها التقليديين. ولكنها، مع ذلك، كانت تجد في أوريليانو الثاني خير سند لها. فهو الذي قرر أن تغادر غرفة النوم التي كانت لها منذ طفولتها، بما فيها من تماثيل لقديسين لهم عيون متوحشة تزكي فيها مخاوف الشباب. وأثث لها غرفة جعل لها فيها سريراً كسرير الملكة. ومرآة زينة عريضة،

وستائر مخملية، دون أن يدري أنه كان ينشىء نسخة عن غرفة بيترا كوتيس.

وكان كريماً مع ميمي، فلا يعرف كم كان يعطيها، لسبب بسيط، وهو أنها تأخذ من جيوبه ما تريد. وكان يحيطها بكل أدوات الزينة ومستحضراتها التي كانت تصل إلى مخازن شركة الموز. وحفلت غرفة ميمي بقطع من حجر الخفاف لتنعيم أظافيرها، ومجعّدات الشعر، وفراشي الأسنان ومبيّضاتها، والقطرات التي تفترّ العينين، والكثير من مواد التعطير والتجميل والدهون الجديدة.

ودخلت فيرناندا غرفة ميمي، فصعقت عندما اكتشفت أن زاوية تزيين ابنتها ومرآة زينتها شبيهتان تماماً بما لدى السيدات الفرنسيات. وكانت فيرناندا، في تلك الأيام، توزع وقتها بين طفلتها الصغيرة أمارانتا أورسولا، التي كانت عليلة، وبين المراسلات المؤثرة مع أطباء غير معروفين. ولما تبينت التفاهم القائم بين الأب وابنته، بذلت كل جهدها حتى انتزعت منه وعداً بألاّ يصحبها إلى بيت بيترا كوتيس، ولا شيء غير ذلك.

ولم يكن لذلك الوعد والطلب أي معنى، لأن المحظية كانت تشعر بأشد القلق من تلك الصحبة الوطيدة بين عشيقها وابنته، حتى باتت لا تطيق ذكرها. فقد كان هناك نوع من الخوف الغامض يعذبها، فكأن غريزتها جعلتها تدرك أن إشارة من إصبع ميمي الصغيرة كانت كفيلة بأن تمكنها من الوصول إلى كل ما لم تستطعه فيرناندا. فتخسر بذلك حباً خالته دائماً ما دامت على وجه الحياة.

وجد أوريليانو الثاني نفسه، للمرة الأولى، يتعرض لعناد بيترا كوتيس، ولاحتمال سموم سخريتها. حتى بات يساوره خوف شديد من أن تردّ صناديقه ،التي جلبها من بيته ، إلى بيتها . ولم يحدث

ذلك، لأنه ليس من امرأة كانت قادرة على معرفة رجل مثلما عرفت بيترا كوتيس عشيقها. وقد كانت تدرك أن الصناديق ينبغي أن تبقى حيث هي، لأن أوريليانو الثاني كان لا يكره شيئاً كرهه لنقل الأمتعة، الذي كان يعقّد حياته. وهكذا بقيت الصناديق في أماكنها. وعزمت بيترا كوتيس على استرداد الزوج، فشحذت سلاحها الوحيد الذي لا تستطيع ابنته استخدامه معه.

ولم يكن حتى لذلك الجهد أي معنى، لأن ميمي لم تكن معنيّة بالتدخل في شؤون أبيها. ولو أنها كانت مهتمّة بذلك لكان تدخلها لمصلحة محظيته. وهي لا تكاد تجد من الوقت ما يكفيها لنفسها، فكيف تضيعه في إزعاج الآخرين. فقد كانت تكنس غرفتها بنفسها، وتسوّي سريرها كما علمتها الراهبات. وكانت، في الصباح، تهتم بثيابها، فتجلس في الشرفة للتطريز، أو تخيط مستعملة آلة أمارانتا القديمة ذات اليد للخياطة. وكانت، عندما يقيل الآخرون، تتدرب ساعتين على آلة الكلافسان الموسيقية. فكانت بهذه التضحية اليومية منها تريح نفس فيرناندا وأعصابها. ولهذا السبب ذاته، ظلت تعزف في المناسبات، والاحتفالات الكنسية، والأمسيات المدرسية، وإن كان الطلب عليها قد قلّ في الأونة الأخيرة. وكانت، بعد الظهر، تتزين قليلاً، وتلبس ثياباً بسيطة، وتحتذي حذاءها الصلب، وتذهب لزيارة صديقاتها، إذا لم يكن لديها ارتباط مع أبيها، فتبقى معهن حتى وقت العشاء. وعندئذ يصل أوريليانو الثاني، إلاّ في حالات نادرة، فيصطحبها إلى السينما.

كانت من صويحبات ميمي ثلاث فتيات أميركيات، تمكّن من خرق السياج المكهرب الذي كان يحيط بمجمّع سكنهن، وأنشأن علاقات صداقة مع بنات ماكوندو. ومن هؤلاء باتريسيا براون. وقد فتح السيد براون أبواب بيته لميمي، اعترافاً منه بكرم الأوريليانو الثاني وحسن ضيافته

له، في الحفلات الوحيدة التي يقبل الأميركيون الاختلاط فيها بالسكان الوطنيين. ولما علمت فيرناندا بالأمر نسيت طفلتها أمارانتا أورسولا والأطباء الخفيين، وأقامت الدنيا وأقعدتها. وكان مما قالته لميمي :

ـ فكري بما يمكن أن يفكر فيه العقيد في قبره. وكانت ترجو بذلك أن تدعمها أورسولا في موقفها. ولكن العجوز العمياء رأت، خلافاً لما توقعه الآخرون، ألاّ مانع من ذهاب ميمي إلى الحفلات الراقصة، وإقامة علائق الصداقة مع من كنّ في عمرها من الأميركيات، ما دامت تحافظ على عاداتها السلوكية، ولا تتحول عن مذهبها إلى البروتستانتية.

وأدركت ميمي رأي أم جدها الأول تماماً، فكانت في الصباح التالي لكل حفلة تستيقظ أبكر من عادتها، وتذهب إلى الكنيسة للصلاة. ولكن فيرناندا اشتدت في معارضتها للأمر، حتى اليوم الذي أبلغتها فيه ميمي أنّ الأميركيين يحبون أن يستمعوا لعزفها على آلة الكلافسان الموسيقية. عندها، وعندها فقط، استسلمت فيرناندا. واقتضى ذلك أن تخرج آلة الكلافسان من البيت، وتنقل إلى بيت السيد براون. وهناك أثارت العازفة الشابة عاصفة من التصفيق والإعجاب الصادق، والحماسة والتهاني. ومنذئذ صارت تدعى، خلال حفلات الرقص، إلى السباحة يوم الأحد في المسبح، وإلى الغداء مرة كل يوم جمعة.

وتعلمت ميمي السباحة حتى غدت بطلة فيها، وتعلمت لعب التنس، واعتادت أكل لحم خنزير فرجينيا مع شرحات الأناناس. وبين حفلات الرقص والسباحة والتنس، وجدت ميمي نفسها مندمجة في اللغة الإنجليزية. واشتدت حماسة أوريليانو الثاني وإعجابه بنجاح ابنته وتقدمها، فاشترى لها، من بائع متجول، موسوعة (انسيكلوبيديا) إنجليزية، من ستة أجزاء، حافلة باللوحات الملونة. فعكفت ميمي على المطالعة فيها في ساعات فراغها. وحلت القراءة لديها محل الاهتمام

الذي كانت تبديه، مع صويحباتها، بقصص الحب وتجاربه وخبراته في خلواتهن الصغيرة. ولم يكن ذلك لأنه نظام فرض عليها، بل لأنها فقدت الاهتمام بمناقشة تلك الأمور التي كانت شائعة بين الناس عامة.

وتذكرت حادثة سكرها مع صديقاتها، ونظرت إليها كمغامرة طفولية مضحكة. وروتها لأبيها، الذي رأى فيها حادثة هزلية مسلية أضحكته أكثر مما أضحكتها. وقال لها وهو يمزج كلامه بالضحك :

ـ آه، لو علمت أمك بذلك.

كما كان يردد دائماً، كلما أخبرها سراً من أسراره بشيء من الثقة. وقد جعلها تعده بأن تفضي إليه بأمر أول علاقة غرامية لها. فأخبرته بأنها تستلطف شاباً أحمر الشعر، أميركياً شمالياً، كان قد جاء لقضاء عطلته مع والديه. فقال لها أوريليانو الثاني ضاحكاً :

ـ يا للهول، لو علمت أمك بذلك !!

ولكن ميمي أضافت أن الفتى قد عاد إلى بلده، ولا تعرف عنه شيئاً.

كانت رجاحة عقل ميمي تؤمن هدوء البيت. وبناء على ذلك، جعل أوريليانو الثاني يخصص وقتاً أطول لبيترا كوتيس. ولم يكن يضيع أية فرصة لإقامة الحفلات، ولو أن روحه وبدنه لم يعودا على ما كانا عليه، فيما مضى، من القوة، مما كان يقلل من فرص استمتاعه كالسابق. وكان، في مثل هذه المناسبات، يخرج الأكورديون من مخبئه، على الرغم من أن بعض أجزائه كانت قد بليت، فربطها بأشرطة حذائه.

وكانت أمارانتا ما تزال في البيت، تطرز كفنها الذي لا ينتهي. واستسلمت أورسولا للعجز، وهو يدفعها إلى قاع الظلمات، حيث لم تعد ترى سوى شبح خوزيه أركاديو بوينديا تحت شجرة الكستناء. وكانت فيرناندا توطد سلطاتها شيئاً فشيئاً. وكانت رسائلها الشهرية إلى ابنها، خوزيه أركاديو، لا تنقل شيئاً من الكذب. ولكنها تابعت معه

التكتم بشأن رسائلها إلى الأطباء المجهولين، الذي شخصوا وجود ورم جيبي خبيث في معيها الغليظ، وكانوا يهيئونها لإجراء عملية تخاطرية(١).

صار من الممكن القول إن السلام والسعادة قد سادا وسيخيمان لمدة طويلة في بيت آل بوينديا المتعب، لولا موت أمارانتا المفاجيء، وما جلبه معه من هياج وإقلاق جديدين. فلم يكن أحد ينتظر ذلك الحدث. وعلى الرغم من أنها كانت في شيخوختها معزولة عن الناس، فكانت ما تزال تبدو قوية حازمة مستقيمة القوام، لها صحة كأنما هي الصخر الصلد، كما كانت دائماً.

لم يدر أحد ماذا كان يدور في فكرها، منذ أصيل ذلك اليوم الذي رفضت فيه نهائياً طلب العقيد جيرينيلدو ماركيز، الذي جاء يخطب ودّها، ثم حبست نفسها تبكي وحدها. وظلت على تلك الحال حتى استنفدت من مآقيها الدموع. وهي لم تبك يوم صعود ريميديوس الجميلة، ولا يوم مذبحة الأوريليانو، ولا حتى يوم موت العقيد أوريليانو بوينديا، وهو الذي ما أحبت أحداً مثلما أحبته في الدنيا. وقد كان حبها له حباً لم تتبينه هي نفسها إلا حينما شاهدت جثمانه تحت شجرة الكستناء. فساعدت في رفع جسده، وألبسته حلة المحارب، وزيّنته، وحلقت له لحيته، وسرّحت شعره، ودهنت شاربه وعقصته بعناية، لم يعرفها هو في سنوات عزه ومجده. ولم يعتقد أحد أنّ ذلك كله كان بدافع الحب. فقد اعتاد الناس من أمارانتا خبرتها الرفيعة بطقوس الموت والجنائز. ومما كان يغيظ فيرناندا فيها أنها كانت تجهل علائق الإيمان الكاثوليكي بالحياة، ولا تعرف منه إلاّ ما كان ذا صلة بالموت. فكأنه لم يكن عندها ديناً، بل احتفال جنائزي.

---

(١) Telepathy : التخاطر وهو اتصال عقل بآخر بطريقة ما خارجة عن المألوف.

والواقع أن أمارانتا كانت غارقة في حبائل ذكرياتها، فلا يتسع وقتها لفهم دقائق المنطق الديني. وقد بلغت الآن أرذل العمر، وما يزال حنينها وشوقها على أشدهما. فكانت كلما سمعت شيئاً من ألحان بيترو كريسبي، شعرت بالحاجة إلى البكاء، تماماً كما كانت تشعر زمان شبابها، حتى لكأن السنين مرّت بها دون تأثير، وكذلك كانت حال الخبرات والآلام. وقد كانت ملفات الموسيقى التي ألقت بها، بنفسها، فوق المزبلة بدعوى تعفنها بالرطوبة، ما تزال تستأثر بذاكرتها، كأنما تدق في رأسها بمطارق صغيرة لا تتوقف. وقد حاولت أن تطمس كل تلك الذكريات بعاطفتها الموحلة الغامضة، التي سمحت لنفسها بها، إزاء ابن أخيها أوريليانو خوزيه. كما حاولت أن تلوذ بحماية العقيد جيرينيلدو ماركيز القوية الهادئة، ولكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح. ولم ينجح في كبت ذكرياتها حتى لجوؤها إلى أمر تتمثل فيه دورة الشيخوخة اليائسة، حين كانت تغسّل خوزيه أركاديو الصغير، قبل سفره إلى الدير بثلاث سنين، فجعلت تعبث به وتداعبه بطريقة لا تداعب بها الجدة حفيدها، بل بالطريقة التي تتصرف فيها امرأة مع رجل، كطريقة السيدات الفرنسيات التي كان الناس يتحدثون عنها. وهي الطريقة نفسها التي طالما اشتهت أن تفعلها مع بيترو كريسبي، عندما كانت في الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها، وخصوصاً عندما شاهدته يرقص ببنطاله الضيق، ويلوح بعصاه السحرية ضابطاً إيقاع الموسيقى.

كانت أمارانتا تتعذب أحياناً من أنها تخلف وراءها البؤس والشقاء، وتتألم أحياناً أخرى بسبب وخزها أصابعها بالإبرة. وكانت كلما ازدادت ألماً ازدادت غضباً. فانكفأت إلى المرارة من الأحزان التي خلفها ذلك الحب العطر، المنتن، الذي كان يسحبها وراءه حتى الموت.

وكما كان العقيد أوريليانو بوينديا يفكر في الحرب، ولا يستطيع أن

ينساها، كذلك كانت أمارانتا لا تستطيع إلاّ أن تفكر في روبيكا. وبينما استطاع أخوها أن يطمس بعض ذكرياته، لم تجد هي سبيلاً إلاّ لإذكاء نار ذكرياتها. فكانت تدعو الله، في السنين الأخيرة، أن يجنبها أمراً واحداً، هو عقاب الموت قبل روبيكا، وكانت كلما مرّت أمام بيتها، وشاهدت تمادي الخراب فيه، شعرت بالسعادة لظنها أن الله يستجيب لدعائها. وقد كانت ذات يوم تخيط، وقت الأصيل، في الشرفة، جاءها الخبر اليقين، يطمئنها إلى أنها سوف تسمع قريباً نبأ موت روبيكا، بينما هي جالسة في مكانها، وفي وضعها ذاته، وفي ضوء الأشعة نفسها. ومكثت في مكانها جالسة تنتظر كمن ينتظر رسالة. ومرّ بها وقت كانت خلاله تقطع أزرار ثيابها كي تخيطها من جديد، كي لا يجعل التوقف عن العمل انتظارها طويلاً محضاً.

ولم يلحظ أحد في الدار أن أمارانتا بدأت منذ ذلك اليوم تحوك كفناً جميلاً لروبيكا. وعندما روى لها، أوريليانو تريست (الحزين)، فيما بعد، كيف تبدّلت حال روبيكا، فبدت شبحاً تفسّخ جلده، ولم يبق على جمجمته سوى بقايا خصل قليلة من الشعر، لم تستغرب لأن تلك الصورة التي وصفها تشبه تلك التي كانت تتخيلها منذ زمن. وكانت قد عزمت على أن تحفظ جثمان روبيكا. وأن تخفي تجاعيد وجهها وتغضناته بالدهون، وأن تضع لها شعراً مستعاراً من تماثيل القديسين. لقد قررت أن تجمل جثمانها، وأن تضعها في كفن من الكتان، في نعش مبطن بالقطيفة له إطار أرجواني، ثم تنقله في جنازة مهيبة رائعة، لتضعه من بعد تحت تصرف دود القبور.

لقد وضعت الخطة بحقد ليس له مثيل، حتى إنها أصيبت بالقشعريرة عندما سألت نفسها ما إذا كانت تستطيع أن تضع مثلها عن حب. ولكنها لم تسمح لمثل تلك الأفكار بأن تجعلها تتخبط في خطتها أو تتراجع عنها.

بل عمدت، عوضاً عن ذلك، إلى الاهتمام بتفاصيل الخطة ودقائقها، حتى إنها لم تصبح اختصاصية، وحسب، بل فنانة حقيقية في طقوس الموت وتقاليد الجنائز.

أما الأمر الوحيد الذي لم تفكر فيه، ولم يخطر لها على بال، في خطتها الرهيبة فهو أنها يمكن أن تموت هي قبل روبيكا. على الرغم من دعائها وصلاتها للرب. وكان ذلك ما حدث فعلاً. ولكنها، في لحظاتها الأخيرة، لم تشعر بالإحباط، بل، على العكس من ذلك، شعرت بالتحرر والخلاص من كل مراراتها، لأن الموت قد منحها امتياز الإعلان عن نفسه لها قبل موعده بسنين. فقد رأته في عصر يوم شديد الحرارة، يخيط معها في الشرفة، بعد رحيل ميمي إلى المدرسة بقليل. وقد رأته وعرفته، لأنه كان على هيئة امرأة ترتدي ثياباً زرقاء، ولها شعر طويل، وتبدو بهيئة عتيقة، وتشبه إلى حد ما صورة بيلار تيريزا، في العهد الذي كانت تعمل فيه في المطبخ. وقد صادف، في مرات كثيرة، أن كانت فيرناندا حاضرة عند ذاك، ولكنها لم ترها قط، على الرغم من حقيقة كونها واقعية. وذات طبيعة إنسانية، حتى إنها طلبت من أمارانتا، مرة، أن تعبر لها الخيط في إبرتها.

ولم يحدد لها الموت موعد موتها، ولا ما إذا ساعة وفاتها سوف تحين قبل ساعة وفاة روبيكا. ولكنه أعلمها بأن تبدأ بإعداد كفنها منذ اليوم السادس من شهر نيسان (أبريل) التالي. وأذن لها بأن يكون الكفن بالصورة التي تختارها زينة وجمالاً، وأن تعنى بتفصيله عنايتها بتفصيل كفن روبيكا. وأخبرها، أيضاً، بأن موتها سوف يكون دون ألم ولا تعب ولا مرارة، وسوف يحدث عند غروب شمس اليوم الذي تفرغ فيه من خياطة كفنها.

واجتهدت أمارانتا أن تطيل الزمن ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

فأوصت على خيوط من الكتان في منتهى الدقة . وغزلت الخيوط بنفسها. وأسرفت في العناية بالعملية الأخيرة، حتى جعلتها تدوم أربع سنوات. بدأت بعدها بعملية التطريز. وبالقدر الذي كانت تقترب فيه العملية من نهايتها، كان إدراكها يزداد بأن المعجزة وحدها يمكن أن تطيل أمد عملها إلى ما بعد موت روبيكا. ولكن تفكيرها منحها نوعاً من الهدوء الذي كانت تحتاجه، لعلها توطن النفس على قبول ذلك الاحتمال. وعندها أدركت معنى حلقة الأسماك الذهبية الصغيرة المنحوسة المفرغة، التي تقوقع فيها العقيد أوريليانو بوينديا. فتوقف العالم على ظاهر جلدها، بينما تحرر باطنها من المرارة كلها.

وقد تألمت أمارانتا طويلاً، حتى تجلّى لها ذلك الكشف. كان باستطاعتها، من قبل، أن تنقي ذكرياتها، وتعيد بناء عالمها تحت شمس أخرى، فتستعيد، دون أن تصاب بالقشعريرة، رائحة الخزامى المسائية لبيترو كريسبي، وتتحرر روبيكا من العذاب الذي تصطلي به، لا عن حب ولا عن حقد، بل نتيجة للإدراك العميق غير المحدود لأبعاد الوحدة.

لم تضطرب للحقد الذي لمحته، ذات مساء، في عبارة ميمي، ظناً منها أنها تعنيها، بل لأنها اكتشفت، فجأة، بأن شبابها يعود إلى صورة أخرى، لا تختلف براءة عن صورتها هي. فهي تشبهها أيضاً في أن الضغينة أفسدتها. ولكنها صممت، بكل قواها، على أن تتبع قدرها، فلا تتعذب نتيجة لإيمانها بأن كل عودة إلى الماضي مستحيلة، وبأن تقويم الماضي مستحيل. وبات هدفها الوحيد أن تكمل كفنها، بدلاً من تأخيره بتفاصيل لا لزوم لها، كما كانت تفعل في البداية. فأسرعت بالعمل. وقبل أسبوع من الموعد الذي حسبت أنها ستصنع فيه آخر غرزة، في ليلة الرابع من شباط (فبراير)، ودون أن تعلن عن الدوافع والأسباب، أوحت لميمي أن تعلن عن موعد حفلة عزف على آلة الكلافسان الموسيقية، تنظم

في اليوم التالي لذلك التاريخ. ولكن الفتاة لم تصغ لها. وعندها بدأت أمارانتا تبحث عن طريقة تؤخر بها الموضوع لثمان وأربعين ساعة. وقد حسبت أن الموت قد استجاب لرغبتها لأن عاصفة قد ثارت في ليلة الرابع من شباط (فبراير)، فحطمت محطة الكهرباء.

ولكنها في اليوم التالي، وفي الساعة الثامنة صباحاً، خاطت آخر غرزة، في كفنها، الذي بدا كأجمل قطعة فنية صنعتها امرأة. ثم أعلنت، دون أي حزن أو تمثيل، أنها سوف تموت مع غروب الشمس. ولم تكتف بإعلام أفراد الأسرة بذلك، بل أخبرت البلدة بكاملها، ذلك أن أمارانتا كانت تظهر أنها بذلك إنما تصلح سلوكها السابق، في حياة الدناءة التي عاشتها. فهي الآن تقدم خدمة أخيرة للناس، معتقدة أنها أفضل من يؤديها، وهي أن تنقل الرسائل إلى الموتى.

وقبل أن ينتصف النهار، كان قد شاع في كل أرجاء ماكوندو أن أمارانتا بوينديا سوف ترحل عن هذه الدنيا مع غروب الشمس، وأنها سوف تحمل معها بريد الموت. فما حانت الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، حتى كان في قاعة البيت صندوق كبير مملوء بالرسائل. أما الذين آثروا عدم الكتابة فقد حملوا أمارانتا رسائل شفوية، سجلتها في دفتر الملاحظات، ذاكرة مع كل رسالة اسم المرسل إليه وتاريخ وفاته. وكانت تخاطب أصحاب الرسائل، بهدوء قائلة لهم :

ـ لا تقلقوا. فأول عمل سأقوم به عندما أصل إلى هناك هو البحث عن صاحب الرسالة، ونقل رسالتكم إليه.وكان ذلك كله يبدو على شكل تمثيلية هزلية ساخرة، ولم يبد على أمارانتا أثر للقلق ولا شيء من الألم. كل ما بدا عليها أنها كانت تقوم بواجب أحبته، فأعاد إليها ذلك بعضاً من شبابها.

فقد ظلت قامتها مستوية رشيقة. ولولا نتوء وجنتيها، بشيء من

القسوة، ولولا فقدانها بعض أسنانها، لكانت هيئتها تعكس سناً أصغر من سنها الحقيقية بكثير.

لقد حرصت على أن توضع الرسائل في صندوق محكم الإغلاق، مطليّ ومختوم، وأمرت بأن يوضع في قبرها بطريقة تجعله في منأى عن الرطوبة. وفي الصباح، زارها النجار، الذي أخذ قياساتها لصنع النعش، بينما كانت منتصبة في قاعة الاستقبال وكأنما الأمر لخياطة ثوب جديد. وقد عادت إليها ديناميتها القديمة، وانتعش نشاطها، في ساعاتها الأخيرة، ، حتى حسبت فيرناندا أنها إنما كانت تسخر من الناس.

أما أورسولا فلم تشك قط في أن أمارانتا قد جاءها النذير بالموت، فقد عرفت، من تجاربها وخبرتها، أنّ آل بوينديا لا يموتون من مرض. ولكنها خشيت، عندما كثرت الرسائل، أن يدفنها الناس حية، في حماستهم وغلوائهم. لعلّ رسائلهم تصل إلى ذويهم بسرعة. ولهذا طالبت بإخلاء البيت بإصرار. وراحت تصيح بالداخلين المتطفلين ولكنها لم تفلح في إخلاء البيت حتى الرابعة من بعد الظهر. وفي تلك الساعة، فرغت أمارانتا من توزيع ثيابها على الفقراء، ولم تترك فوق نعشها الخشبي غير المكتمل سوى غيار واحد تبدل به ثيابها والحذاء المخملي البسيط الذي اختارت أن تحتذيه في الموت. وقد اهتمت بهذا الأمر الأخير، لأنها تذكرت أنهم اضطروا لشراء حذاء جديد للعقيد أوريليانو بوينديا عند موته ، لأنه لم يكن يملك ما يحتذيه غير الحذاء الذي يلبسه في مشغله .

وقبل الساعة الخامسة بقليل، وصل أوريليانو الثاني، ليصطحب ميمي إلى الحفلة الموسيقية. ففوجىء عندما رأى الدار وكأنها تستعد لعملية الدفن. فقد كانت أمارانتا تبدو، في تلك اللحظة، أكثر الناس حيوية وصفاء ، حتى اتسع لها الوقت لمحاولة اقتلاع ثآليلها . واستأذنها أوريليانو الثاني وميمي وودعاها، وهما يضحكان، ووعداها بأن يقيما حفلة كبرى

يوم السبت القادم، بمناسبة قيامتها.

وتناهت الأخبار إلى الأب أنطونيو إيزابيل بأنّ أمارانتا ستحمل الرسائل إلى الموتى، فحضر في الساعة الخامسة تماماً. ومعه القربان المقدس. وانتظر نحو ربع ساعة ريثما تخرج من ستموت من موضع الاستحمام. ولكنه عندما رآها تخرج إليه بقميص نوم من القطيفة، وقد أسدلت شعرها على كتفيها، حسب الخوري العجوز المسكين أن القوم إنما كانوا يهزؤون به. فأعاد صبي الجوقة من حيث أتى. ولكنه فكّر في أن ينتهز المناسبة، فيجعل أمارانتا تعترف الآن، بعد أن رفضت الاعتراف طوال عشرين عاماً. ولكنها اكتفت بالقول بأنها ليست بحاجة لأي عون روحي ما دام وجدانها نظيفاً.

وغضبت فيرناندا، وتساءلت بصوت عال، وكأنها أرادت أن يسمعها الآخرون، عما تكون الخطيئة المخيفة التي ارتكبتها أمارانتا حتى تفضل الموت بخسةٍ ورجسٍ على عار الاعتراف. وعند ذلك استلقت أمارانتا، وجعلت أمها، أورسولا، تقدم الدليل العلني على أنها تموت عذراء. فصاحت أورسولا بصوت تسمعه فيرناندا، قائلة :

ـ دفعاً للشبهة والوهم عند أي من الناس، إنّ أمارانتا بوينديا تغادر هذا العالم كما جاءت إليه.

لم تنهض أمارانتا بعد ذلك من رقدتها. ظلت مضطجعة على الأرائك كأنها مريضة فعلاً. ضفرت شعرها الطويل جدائل لفتها حول أذنيها، تماماً كما أمرها الموت أن تفعل قبل أن تحل في النعش. وطلبت من أورسولا مرآة، وشاهدت وجهها للمرة الأولى بعد نيّف وأربعين عاماً. فرأت وجهاً قد غيّره العمر وبدّلته المعاناة. وعجبت لمقدار الشبه بين وجهها والصورة الذهنية التي كانت له في خيالها. ثم أدركت أورسولا، من الصمت الذي خيّم على غرفة النوم، أنّ الظلام قد حلّ، فخاطبت

أمارانتا برجاء قائلة :

ـ ودّعي فيرناندا. فدقيقة من الصلح والتصافي خير من عمر من الصداقة.

فأجابت أمارانتا :

ـ لم يعد لذلك نفع الآن.

لم يسع ميمي إلا أن تفكر بها عندما أضيئت الأنوار على المسرح المعدّ، وبدأت القسم الثاني من البرنامج. وعند منتصف القطعة الموسيقية، اقترب شخص منها، وهمس في أذنها الخبر، فتوقفت الحفلة. واضطر أوريليانو الثاني إلى أن يدفع الناس، ليشق طريقه بينهم. حتى إذا وصل شاهد جثمان البتول العجوز، عجفاء، قد تبدّل لونها، وما يزال الرباط الأسود على يدها، وقد لُفّت بكفنها الرائع الجمال. وكانت مسجّاة في قاعة الجلوس، بجانب صندوق الرسائل.

لم تنهض أورسولا من سريرها ثانية بعد انقضاء الليالي التسع حداداً على أمارانتا. وكانت سانتا صوفيا (التقية) تعنى بها فتأتيها بوجبات الطعام إلى غرفة نومها، وبالماء المعطّر لتغتسل به، كما كانت تطلعها على آخر الأخبار في ماكوندو. وكان أوريليانو الثاني يزورها، حاملاً إليها الثياب. فتضعها إلى جانب سريرها، مع الأشياء التي تلزمها في حياتها اليومية، حتى استطاعت، خلال فترة قصيرة أن تكوّن لنفسها عالماً خاصاً بها في متناول يدها. واستطاعت أن تستثير محبتها الشديدة في أمارانتا أورسولا الصغيرة، التي كانت تشبهها إلى حدّ كبير، والتي علمتها القراءة.

كان وضوح ذهن أورسولا، مع مهارتها في قضاء حاجاتها، يجعل الآخرين يعتقدون أن أعباء عمر المئة عام قد هدمت كيانها، فضعف بصرها ، ولكنّ أحداً لم يظن للحظة واحدة ، أنها كانت عمياء تماماً .

وكانت الحال التي بلغتها تمنحها متسعاً من الوقت، والهدوء، والصمت الداخلي، يمكنها من مراقبة حياة البيت. فكانت أول من تنبه إلى حزن ميمي الصامت. وقد قالت لها مرة :

ـ تعالي إليّ. فما دمنا وحيدتين الآن، أرجو أن تعترفي لهذه العجوز المسكينة بما يزعجك.

ولكن ميمي تملصت من الحديث بضحكة قصيرة. ولم تلحّ عليها أورسولا، ولكن ظنونها كانت صحيحة، لأن ميمي لم تعد إلى زيارتها. كانت تشعر أنها تتهيأ للخروج قبل أن يحين موعده، وأنها لا تستطيع الهدوء، لحظة واحدة، في انتظار الموعد الذي تخرج فيه، وأنها كانت تقضي ليالي بحالها وهي تتقلب في فراشها في الغرفة المجاورة، وأن الحفيف الصادر عن طيران فراشة واحدة كان كافياً لتأريقها. وسمعتها ذات يوم تعلن عن خروجها من البيت للذهاب إلى أبيها، أوريليانو الثاني. وعجبت أورسولا لضعف ذاكرة فيرناندا وتفكيرها، عندما لم تشك في الأمر حين وصل زوجها إلى البيت يسأل عن ابنته. فقد كان واضحاً أنّ ميمي كانت واقعة في دوّامة من المشكلات والأسرار، تفضح ذلك كله المواعيد السريعة، والقلق الواضح غير المكتوم، وقد برز ذلك كله قبيل المساء الذي قلبت فيه فيرناندا البيت رأساً على عقب، لأنها شاهدت ميمي تقبل رجلاً في السينما.

كانت ميمي منطوية على ذاتها، ووصل بها الأمر إلى الحد الذي اتهمت به أورسولا بالوشاية بها. والواقع أنها هي التي وشت بنفسها. فقد كانت، في الفترة الأخيرة، تخلف وراءها من الآثار الدالة على سلوكها ما يلفت أنظار الغافلين. ولم تتأخر فيرناندا، هذه المرة، في اكتشاف أمرها إلا لأنها كانت منهمكة بعلاقاتها مع الأطباء المجهولين، وعلى الرغم من ذلك، لاحظت صمت ابنتها العميق، وارتعاشاتها

المفاجئة، ونزوات غضبها وتناقضاتها الكثيرة.

بدأت فيرناندا تراقب ابنتها مراقبة سرية شديدة. وسمحت لها بالذهاب إلى بيوت صويحباتها القديمات، وساعدتها في ارتداء ملابسها لحفلات السبت الساهرة. وقررت ألا توجه إليها أي سؤال يحرجها. ثم تجمعت لديها أدلة كثيرة تبين أن ميمي كانت تفعل غير ما كانت تزعم. ولكنها لم تبح بشكوكها، وانتظرت أن تحين الفرصة المناسبة لذلك. ففي أحد الأيام ذكرت ميمي أنها ذاهبة إلى السينما مع أبيها، ولكن فيرناندا سرعان ما سمعت، بعد ذهاب ميمي، أصوات الانفجارات، التي تعبّر عن الاحتفال، صادرة من ناحية بيت بيترا كوتيس، وتناهت إليها موسيقى أكورديون أوريليانو الثاني المعروفة تماماً. وعندها ارتدت ثيابها، وذهبت إلى السينما. ولدى دخولها تعرفّت إلى ابنتها على الرغم من الظلام المخيم على المقاعد. واستثارها الشعور بتحوّل ظنها إلى يقين، استثارة عالية، حالت دون تمييزها الرجل الذي كان يقبل ابنتها. ولكنها سمعت صوته الراجف وميزته من بين قهقهات الجمهور وصياحهم الصاخب. فقد سمعته يقول لميمي:

ـ آسف يا حبيبتي.

فانتزعت ميمي من مكانها، دون أن تقول لها كلمة واحدة، وقادتها، وهي تتعثر بعارها وخجلها، عبر شارع الأتراك المزدحم بالناس والحافل بالضجيج، حتى البيت، حيث أدخلتها غرفة نومها وأقفلت الباب عليها.

وفي اليوم التالي، وفي حوالي الساعة السادسة من بعد الظهر، سمعت فيرناندا صوت الرجل نفسه، وقد جاء يزورها. كان فتى برونزيّ اللون، له نظرة عبوس قاتمة، ما كانت لتستغربها لو عرفت الغجر. وكانت له هيئة تغري أية امرأة. ولو كان قلبها أقلّ تحجراً، لأغراها

وأوقعها في الحبائل التي أوقع فيها ابنتها. كان يرتدي بزة من كتان قديم، وقد تراكمت على حذائه طبقات من الدهان الأبيض، ويحمل بيده قبعة عريضة من قش، اشتراها يوم السبت الماضي.

لم يعرف في حياته الماضية، وربما لن يعرف في مستقبل عمره، خوفاً كذلك الذي شعر به في تلك الساعة. ولكنه احتفظ برباطة جأشه، وسيطر على أعصابه، فظلّ في منأى من الازدراء.

كان يبدو أصيل اللياقة لولا بعض العجف والشظف البادي على يديه، والتآكل في أظافيره، نتيجة للعمل الذي كان يزاوله. وكان كافياً لفيرناندا أن تلمحه سريعاً حتى تدرك أنه عامل يدويّ. وقد عرفت أنه كان يرتدي أفضل ما لديه من ثياب يوم الأحد النظيفة. ولكن جرب شركة الموز لا بد أن يكون قد أكل جلده. لم تعطه فرصة للكلام، ولم تمكنه من عبور عتبة الباب، الذي أغلقته سريعاً لأن الفراش الأصفر كان قد صار أفواجاً تزدحم قرب الباب تهمّ بالدخول. وقالت له:

ـ «ابتعد من هنا. فليس لك شأن لدى الناس المحترمين». كان يدعى موريسيو بابيلونيا. ولد ونشأ في ماكوندو. يعمل ميكانيكياً في شركة الموز. قابلته ميمي مصادفة حين ذهبت، في أصيل أحد الأيام، مع باتريسيا براون، كي تجلبا السيارة للتنزه في الغابة القريبة. وصادف أن كان السائق مريضاً، وكلف هو بقيادة السيارة بهما. ويومها حققت ميمي رغبتها بالجلوس قريباً من مقود السيارة، لتشهد، عن كثب، كيف تعمل وتسير. وقد قام موريسيو بابيلونيا بما لم يقم به السائق الأصيل، فعرّفها بما كانت تريد أن تعرف. وقد جرى كل ذلك في الفترة التي كانت فيها ميمي تتردد على بيت السيد براون. وكان الناس يرون في قيادة النساء للسيارات عملاً غير لائق. ولذلك قنعت ميمي بالمعرفة النظرية. وانقضت بعد ذلك بضعة أشهر دون أن ترى فيها موريسيو بابيلونيا.

ولكنها كانت، فيما بعد، تستعيد جمال رجولته، وكيف أثّر ذلك فيها في أثناء النزهة. ولم يكن فيه ما ينفّر سوى خشونة يديه، وقد تحدثت إلى باتريسيا براون، في وقت لاحق، عن ضيقها بتطرفه في الشعور بالثقة بنفسه حتى درجة العجرفة.

وفي المرة الأولى، بعد ذلك، التي صحبت فيها أباها إلى السينما، وكان ذلك يوم سبت، رأت موريسيو بابيلونيا يجلس قريباً من مكانهما. وقد بدا نظيف الثياب. وقد لاحظت أنه لم يكن يهتم بمتابعة الفيلم، بل يدأب على الالتفات إليها بين الحين والآخر. وكأنه لم يكن يقصد رؤيتها وحسب، بل أن تلحظ أنه كان مهتماً بها. وأزعجها منه سلوكه الفظ ذاك. وفي آخر الفيلم تقدم موريسيو بابيلونيا من أوريليانو الثاني فحياه. وقد استنتجت ميمي من ذلك أن بينهما معرفة. والواقع أنه كان قد سبق لموريسيو بابيلونيا أن اشتغل عند أوريليانو تريست (الحزين)، في بداية العمل بالإنشاءات الكهربائية. وقد لاحظت كذلك أن الشاب كان يخاطب أباها مخاطبة من هو أرفع منه مقاماً، أو الموظف لصاحب العمل. وقد بددت هذه الحقيقة الكراهية التي تكنها له بسبب تعجرفه وتعاليه.

ولم تتح لهما فرصة الاجتماع وحدهما، ولا أن يتبادلا من الكلام ما يتجاوز تحية الصباح أو المساء، حتى كانت تلك الليلة التي رأت فيها، في منامها، أنه ينقذها من الغرق، دون أن تشعر تجاهه بالعرفان بالجميل، بل بالحنق والغضب. فكأنها شعرت بأنها قد منحته فرصة كان ينتظرها، بينما كانت تبذل جهدها، بعكس ذلك، لتجنب كل من يهتم بها من الرجال جميعاً وليس موريسيو بابيلونيا تحديداً.

ولذلك اشتدّ سخطها، ولكنها بدلاً من أن تزداد كراهية له، باتت رغبتها في رؤيته لا تقاوم، ونفد صبرها خلال ذلك الأسبوع. حتى إذا

حلّ يوم السبت، بلغت رغبتها تلك حدّ الجموح. وقد بذلت جهوداً جبارة كي لا يلحظ موريسيو بابيلونيا خفقان قلبها، الذي كاد يبرح صدرها، تعاني من خليط من الشعور بالغبطة واللذة والحنق. وتجرأ موريسيو بابيلونيا، للمرّة الأولى، فضم يدها بيده. ولكنها استطاعت بعد نزهة قصيرة أن تتخلص من ذلك الشعور الذي كان يسيطر عليها. ولكن نشوتها سرعان ما تحولت إلى نوع من الرضا الحادّ، عندما لاحظت أن يده كانت كيدها نديّة متعرقة وباردة. وقد أدركت، في تلك الليلة، أنها لن تستريح لحظة واحدة قبل أن تبيّن لموريسيو بابيلونيا عدم نفع طموحه. وهكذا قضت الأسبوع بطوله تقلب ذلك القلق وتلك الرغبة في رأسها. ولجأت إلى كل صنوف الحيل كي تصحبها باتريسيا، مرة أخرى، لإحضار السيارة. وفي آخر الأمر، استعانت بالأميركي الشمالي ـ الأحمر الشعر، الذي كان قد جاء في تلك الأيام إلى ماكوندو، لقضاء العطلة. فزعمت أنها كانت تريد معرفة أنواع السيارات الجديدة. فاصطحبها إلى المرآب. ولكن ميمي ما إن رأت موريسيو بابيلونيا حتى توصلت إلى لزوم التوقف عن خداع الذات. وتبيّنت أنها في الواقع قد بلغت درجة من التوتر لا تستطيع معها أن تكبح رغبتها في أن تخلو به. ولكن اقتناعها بأنه أدرك هذا الأمر، وبدا كأنه متيقن منه عندما رآها قادمة، أغاظها حتى الحنق. قالت ميمي :

ـ جئت لأرى الأصناف الجديدة.

فقال لها :

ـ ذلك عذر جميل.

وأدركت ميمي أنه كان يختال بغروره وحمّى كبريائه، فشرعت تبحث عن طريقة تهينه بها. ولكنه لم يدع لها فرصة لذلك، إذ قال لها بصوت خفيض :

- لا تنزعجي. فليست هذه هي المرة الأولى التي تُجنُّ فيها امرأة برجل.

فشعرت بالهزيمة، حتى إنها غادرت المرآب دون أن ترى أصناف السيارات الجديدة. وأمضت ليلة طويلة، من المساء حتى الصباح، وهي تتقلب في فراشها، وتذرف دموع الثورة والغضب.

لقد بدا لها الشاب الأميركي الأحمر الشعر، والذي كانت قد بدأت تهتم به فعلاً، كأنه لم يكن سوى طفل ما يزال في قماطه. وعندما لاحظت أنّ الفراشات الصفراء كانت تسبق موريسيو بابيلونيا فتبشر بقدومه. لقد رأت تلك الفراشات، من قبل، فوق مرآب تصليح السيارات. وظنت حينذاك أن رائحة الدهان كانت هي التي تجذبها. وقد رأت تلك الفراشات تحوم حول رأسها قبل أن تدخل السينما.

وعندما بدأ موريسيو بابيلونيا يلاحقها كالشبح، لا يتبينه أحد غيرها، أدركت أن بينه وبين الفراشات علاقة من نوع ما. وقد كان موريسيو بابيلونيا، دائماً، حاضراً في الحفلات الموسيقية، وفي السينما، وفي الصلوات العامة. وما كانت تحتاج إلى مشاهدته كي تعرف بوجوده. فالفراش كان يدل عليه.

وذات يوم، أبدى أوريليانو الثاني انزعاجه من خفق أجنحة الفراش في المكان، فشعرت برغبة مفاجئة في الإفضاء له بسرها، كما سبق لها أن وعدته. ولكن غريزة الأنثى جعلتها تعتقد هذه المرة أنه يضحك، حسب عادته، ويقول: «تُرى، ماذا ستقول أمك لو علمت بالأمر». وكانت ميمي وأمها تشذبان شجيرات الورد، فصاحت فيرناندا صيحة ذعر، ودفعت ميمي عن المكان الذي وقفت فيه ريميديوس الجميلة في البستان، عندما صعدت إلى السماء، فلقد شعرت، خلال لحظة مرت كالومض، أن المعجزة ستتكرر بابنتها، لأنها تضايقت فجأة من خفق

الأجنحة المفاجىء. وكان ذلك خفق أجنحة الفراش. وشاهدت ميمي أسراب الفراش، وكأنها ولدت فجأة من النور. واضطربت خفقات قلبها.

وفي تلك اللحظة، دخل موريسيو بابيلونيا يحمل علبة كبيرة، كانت - حسب قوله - هدية من باتريسيا براون. فاحمرّ وجه ميمي خجلاً، واجتهدت حتى بلعت ريقها وتغلبت على اضطرابها، بل تمكنت من اصطناع بسمة طبيعية، حين طلبت إليه أن يتكرم بوضع العلبة على حافة الشرفة، لأن يديها كانتا ملطختين بسبب العمل في الجنينة. ولم تلحظ فيرناندا في ذلك الرجل سوى لونه الأصفر. ولن تتذكر، في المستقبل، عندما ستطرده من باب الدار، أنها سبق لها أن رأته. قالت فيرناندا:

- إنه رجل عجيب. يظن من يرى وجهه أنه سوف يموت قريباً.

وظنت ميمي أن أمها كانت ما تزال تحت تأثير الفراشات. ولما فرغت من تشذيب شجيرات الورد، غسلت يديها، ونقلت العلبة إلى غرفة نومها لتفتحها. وكانت العلبة نوعاً من اللعب الصينية، مؤلفة من خمس علب متدرجة الحجوم، في داخل كل علبة منها واحدة أصغر منها. وفي آخر العلب وأصغرها، وجدت وريقة كتب عليها بخط سيء، دون عناية، العبارة التالية:

- سوف نلتقي يوم السبت في السينما.

وقد أصابت المفاجأة ميمي بالذهول، عندما تخيلت كيف بقيت العلبة فترة طويلة على حافة الشرفة، في متناول يد فيرناندا، عرضة لحب استطلاعها. وغمرها الإعجاب بمهارة موريسيو بابيلونيا، ورق قلبها لبساطته حين توقع أنها ستوافيه إلى موعده.

كانت ميمي تعرف أن أباها سيكون مشغولاً يوم السبت. ولكنها كانت، يوماً بعد يوم، تزداد لهفة وتحرّقاً، مع مضيّ أيام الأسبوع. وأخيراً

أفلحت في إقناع أبيها بأن يسمح لها بالذهاب وحدها إلى السينما. وبأن يأتي لإعادتها إلى البيت عند انتهاء العرض. وحوّمت فوق رأسها إحدى الفراشات، بينما كانت الأضواء تملأ المكان، ثم حدث ما كان منتظراً. فلما أطفئت الأنوار، وصل موريسيو بابيلونيا وجلس بجانبها. وشعرت ميمي كأنها تخوض في مستنقع من التردد، وأن الخوف يعرقل خطوها، وأنها لن تستطيع النجاة مما هي فيه، إلا إذا أنقذها ـ كما رأت في منامها من قبل – هذا الرجل ، الذي كانت تفوح منه رائحة الشحم وزيت المحركات، والذي لم تكن تكاد تتبينه في الظلام. قال لها :

ـ لو لم تأت، لما رأيتني من بعد مرة أخرى. وأحست ميمي بثقل يده على ركبتها، وعرفت، في تلك اللحظة، أنهما باتا معاً على وشك الوصول إلى الطرف الآخر من صحراء النسيان. فقالت وهي تبتسم :

ـ ما يصدمني فيك هو أنك تقول دائماً ما لا ينبغي لك أن تقول.

وأصبحت ميمي مجنونة به. فقدت شهيتها للنوم والطعام. وانكفأت على ذاتها، وتقوقعت في أغوار وحدتها، حتى صار أبوها نفسه مزعجاً لها. وابتدعت شبكة معقدة من المواعيد الزائفة تضلل بها فيرناندا. ولم تعد ترى واحدة من صديقاتها. وتجاوزت كل التقاليد والأعراف في سبيل أن تلتقي بموريسيو بابيلونيا في أي مكان وفي أي زمان.

كانت، في البدء، تنزعج من خشونة طباعه. وفي المرة الأولى التي التقيا فيها وحدهما، في الحقل المقفر خلف مرآب تصليح السيارات، ردها، بلا رأفة أو رحمة، إلى حال بهيمية خرجت منها متعبة مجهدة. ولكنها أدركت بعد فترة من الزمن أن معاملته لها تلك كانت صورة أخرى من صور الحنان. ومنذ ذلك الحين فقدت طمأنينتها النفسية، وصارت تعيش من أجله وحدة، يعتمل فيها نهم مقيم لأن تغرق في رائحة الشحم وزيت السيارات المغسول بالصابون الرديء، التي كانت

تفقدها توازنها.

وقبل موت أمارانتا بقليل، استوقفتها واحة من الوضوح والضوء، في خضم جنونها، فأصابها الهلع من صورة مستقبلها المجهول. ثم سمعت عن امرأة تقرأ المستقبل بورق اللعب، فذهبت لزيارتها سراً. ولم تكن تلك إلا بيلار تيريزا.

ومنذ لمحت بيلار تيريزا ميمي داخلة، استطاعت أن تدرك الدوافع الخفيّة لزيارتها. فقالت لها :

ـ اجلسي، فلست بحاجة لورق اللعب لكي أعرف مستقبل فرد من آل بوينديا.

لم تكن ميمي تعرف، كما لن تعرف أبداً، أن تلك العرافة الساحرة، التي تبلغ المئة عام من العمر، ليست سوى جدة أبيها. وما كانت لتصدق أنها كذلك بعد أن أعلنت لها بواقعية فظة أن ذلك النوع من توتر العشق الذي تعانيه لا يمكن أن يهدأ إلاّ في فراش الحب. وكان هذا الرأي نفسه هو رأي موريسيو بابيلونيا، ولكن ميمي كانت تبذل المستحيل من الجهد كي لا تصدق هذا الرأي. وقد وصل بها الأمر إلى أن عزت مثل هذا التفكير منه إلى تكوين عقلي غير سويّ ملازم لطبيعة العمال. بل كانت تظن أن هذا النوع من الحب يهدم الحب الآخر. لأن من طبع الرجال أن يتنكروا للجوع بمجرد أن تشبع شهيتهم.

ولم تكتف بيلار تيريزا بأن بدّدت لميمي مخاوفها، بل زادت على ذلك بأن عرضت عليها السرير العتيق الذي حملت فيه أركاديو، جدّها (جدّ ميمي)، ثم حملت من بعد أوريليانو خوزيه وعلمتها كذلك كيف تمنع الحمل عندما لا تكون راغبة فيه، باستعمال تبخيرة لصقة من دقيق الخردل، كتلك التي تستعمل ضد البرد والزكام، وأعطتها عدة وصفات يمكنها أن تستعملها في الحالات المستعصية، فتطرد الشك، بل تبعد

تأنيب الضمير. وقد كان لتلك المقابلة أثر هائل في سلوك ميمي، إذ أكسبتها جرأة كتلك التي عرفتها في ذلك اليوم الذي أكثرت فيه من شرب الكحول. ولكن وفاة أمارانتا أكرهتها على إرجاء قرارها. وخلال ليالي السهر الحزين التسع، لم تبتعد ثانية عن موريسيو بابيلونيا. الذي اختلط بحشد الناس الذين زحفوا إلى الدار.

وتلت ذلك فترة الحداد الطويلة، مع ما يرافقها من احتجاب إجباري عن الناس. فافترقا فيها إلى أجل، فكانت تلك الأيام أيام هيجان، وتوتر داخلي لا يمكن احتواؤه والسيطرة عليه، ورغائب ملتهبة مكبوتة. فما كان من ميمي، في أول يوم خرجت فيه من الدار، إلاّ أن سارعت إلى بيت بيلار تيرنيرا. وهناك أسلمت نفسها لموريسيو بابيلونيا دون مقاومة، ولا حياء، وبلا أية شكليّات، وباندفاع طبيعي، وحدس عليم خبير، إلى درجة أن ذلك الرجل لو لجأ إلى سوء النية والظن لاتهمها بخبرة التجربة. وهكذا، وعلى مدى ثلاثة أشهر، راحا يمارسان الحب مرتين كل أسبوع، تحرسهما براءة أوريليانو الثاني الذي كان لا يشك بألاعيب ابنته. فلم يرتب في سلوكها، وكان كل همه أن يساعدها في التخلص من تشدد أمها وقسوتها.

عندما فاجأت فيرناندا ميمي وموريسيو بابيلونيا في السينما، شعر أوريليانو الثاني بعبء ثقيل على وجدانه. فقام إلى ميمي في غرفة نومها، حيث سجنتها أمها، ظناً منه أنه سيخفف عنها عندما يتيح لها أن تعترف له بأنها مدينة له بما لم تكشف له من أسرارها. ولكن ميمي أنكرت كل شيء. وكانت تبدو واثقة من نفسها، عاكفة على ذاتها، منزوية في وحدتها. حتى شعر أبوها، أوريليانو الثاني، كأن لم تكن بينها وبينه علاقة صداقة ومشاركة، وكأن الذي كان لم يكن سوى وهم ضائع.

وفكّر أوريليانو الثاني في أن يحدث موريسيو بابيلونيا في الأمر، ظاناً أن سلطته، كمعلم سابق له، يمكن لها أن تردعه وتثنيه عن خططه. ولكن بيترا كوتيس أقنعته بأن ذلك العمل هو من شؤون النساء. وظل هائماً محتاراً متردداً، لا يعزيه سوى الأمل بأن تعود ابنته عن شططها مع نهاية سجنها.

لم يبد على ميمي أي أثر للحزن، بل، على العكس من ذلك، كانت أورسولا تشعر، من غرفتها المجاورة، أن الفتاة كانت تنام نوماً هادئاً، وأنها كانت تقوم بأعمالها بهدوء، وتأكل بانتظام، وتستمتع بوحدتها. أما الشيء الوحيد الذي كان يحير أورسولا، بعد مرور شهرين على العقاب، فهو أن ميمي كانت لا تستحم في الصباح كالآخرين، بل في الساعة السابعة مساء. وقد فكرت عدة مرات في أن تنبهها لخطر العقارب، ولكن ميمي كانت مباعدة لها، ظانة أنها هي التي وشت بها. ففضلت أورسولا ألاّ تزعجها بتعالي أم جدها عليها.

وكان الفراش الأصفر يهاجم الدار مع غروب الشمس. وكانت ميمي، لدى خروجها من غرفة الاستحمام كل مساء، تصادف فيرناندا وهي تكافح، بيأس، لقتل الفراشات بمضخة مبيدة للحشرات. وكانت تطاردها، وهي تقول:

ـ إن هذا الشيء رهيب. يا للعنة. فقد علمت، طوال عمري أن فراش الليل مجلبة للشؤم.

وفي إحدى الأمسيات، دخلت فيرناندا مصادفة إلى غرفة نوم ميمي، بينما كانت الأخيرة تستحم. فوجدت في الغرفة عدداً كبيراً من الفراش لا يستطيع المرء معه أن يلتقط أنفاسه. فأمسكت بأول خرقة وقعت في يدها، وشرعت تطارد الفراشات وتطردها. ولكنها تجمدت في مكانها، وكاد قلبها يتوقف هلعاً حينما ربطت بين استحمام ابنتها في المساء وبين

لصقات دقيق الخردل التي انفرطت من الخرقة وتدحرجت أمامها على الأرض. هذه المرة، لم تنتظر الفرصة المناسبة، كما فعلت في المرة السابقة. فمنذ الصباح الباكر، في اليوم التالي، دعت محافظ البلدة الجديد إلى الغداء، وكان مثلها من أهالي المرتفعات. وطلبت منه أن يعين لها حارساً ليلياً، لباحة الدار الخلفية، لأنها لاحظت أن هناك من يسرق لها الدجاج.

في مساء ذلك اليوم، أطلق الحارس النار على موريسيو بابيلونيا، وهو ينتزع قطع البلاط والقرميد كي يتسلل إلى مكان الاستحمام، حيث كانت ميمي في انتظاره عارية ترتجف هياجاً وحباً، بين العقارب والفراش، كما كانت تنتظره كل مساء في الشهور الأخيرة. واستقرت الرصاصة في عموده الفقري، فأقعدته طريحاً في سريره حتى آخر حياته. وقد مات طاعناً في السن في عزلته، دون أنة وجع أو اعتراض على مصير، ودون لحظة خيانة واحدة. تعذبه الذكريات والفراش الأصفر الذي لم يدع له لحظة راحة وأمن، وقد لحقت به وصمة عار لكونه سارق دجاج.

(١٥)

بدأت الأحداث التي يمكن أن تودي بماكوندو، فتقصم ظهرها، تظهر جلية عندما جيء إلى بيت بويندیا بابن ميمي بويندیا. وكان الوضع العام غير متيقّن، ولا يعرف الثبات على حال، فما كان لأحد أن يهتم بالانغماس في الفضائح الخاصة. فاستطاعت فيرناندا الاستفادة من هذا الجوّ الملائم، مما مكّنها من العمل على إخفاء الطفل، وكأنه لم يوجد أصلاً. ولقد أكرهت على قبوله لأن الظروف لم تكن لتساعدها على رفضه. فقد وجدت نفسها مجبرة على احتماله طوال عمرها، لأنها لم تجد الجرأة في نفسها لتنفيذ ما كانت عازمة، في سرها، على فعله. فقد كانت تفكر فعلياً في إغراقه في الحوض.

حبست فيرناندا الطفل في مشغل العقيد أوريليانو بويندیا القديم. وأفلحت في إقناع سانتا صوفيا (التقية) بأنها وجدته، اتفاقاً، عائماً في سلة على وجه الماء. وكان من الممكن أن تموت أورسولا دون أن تعرف أصل الطفل ومنشأه. وقد صدّقت أمارانتا أورسولا الصغيرة قصة السلة العائمة، حين دخلت مرة، عن طريق المصادفة، إلى المشغل، بينما كانت فيرناندا تطعم الطفل الصغير.

أما أوريليانو الثاني، وكان قد تخلى نهائياً عن زوجته بسبب الطريقة غير المعقولة التي عالجت بها موضوع ميمي المأساوي، فلم يدر عن وجود حفيده إلا بعد ثلاث سنوات من وصوله إلى البيت. وكان ذلك عندما

أفلت الصغير مرة، في لحظة انشغال من فيرناندا، ففرّ من سجن عبوديتها. فظهر على الشرفة، خلال برهة تقل عن ثانية، عارياً كما ولدته أمه. وكان ذا شعر كأنه عوسجة، وله عضو ذكري كأنه عرف ديك حبش. فبدا كأن لم يكن طفلاً آدمياً سوياً، بل صورة مضخّمة موسوعية لواحد من أكلة لحوم البشر.

لم تكن فيرناندا تنتظر تلك الحيلة القذرة من قدرها اللعين. فكأن الطفل بمثابة تحريك للعار الذي ظنت أنها استأصلت جذوره من الدار. فمنذ اللحظة التي نقل فيها موريسيو بابيلونيا إلى بيته. عمدت إلى خطة دقيقة التفاصيل، أمعنت التفكير في كل جزء منها، لعلها بذلك تغسل كل آثار الخزي والعار إلى الأبد. ومنذ صباح اليوم التالي، حزمت أمتعتها، دون أن تخبر زوجها، ووضعت ثلاثة غيارات داخلية لابنتها في حقيبة صغيرة. ثم مضت إلى غرفة نوم ميمي، قبل موعد القطار بنصف ساعة، ونادتها قائلة :

– هيّا يا ريناتا .

ولم توضح لها ما كانت تريده منها. ولم تكن ميمي تنتظر من أمها شيئاً مثل ذلك، بل لم تكن راغبة في مثل ذلك. فهي لم تجهل الوجهة التي كانتا ستتجهانها وحسب، بل تساوت عندها الأمور، حتى لو كانوا سيأخذونها إلى المسلخ. فلم تنبس ببنت شفة، ولم تفتح فاها بقصد الكلام منذ تلك اللحظة التي دوّت فيها طلقة الحارس في الساحة الخلفية للدار، واقترنت بصرخة موريسيو بابيلونيا الأليمة.

وعندما أمرتها أمها بالخروج من غرفة نومها، خرجت دون أن تسرّح شعرها أو تغسل وجهها. فصعدت إلى القطار كأنها منوّمة، حتى إنها لم تر أسراب الفراش الأصفر الذي كان يحوم فوق رأسها أنّى توجهت. ولم تدر فيرناندا، بل لم تكلف نفسها عناء أن تدري ما إذا كانت ابنتها قط

انقطعت عن إرادة الكلام، فأصبحت كأنها شاهد ضريح، أم أنها لم تعد قادرة على النطق بسبب هول المأساة.

كانت ميمي أبعد من أن تشعر بروعة الرحلة عبر المنطقة الساحرة الخلابة. فلم تشاهد بساتين الموز الظليلة المترامية الأطراف على جانبي سكة القطار. ولم تر بيوت الأجانب البيضاء. ولا بساتينهم التي غمرها الغبار. ولم تشعر بالحرارة، ولم تشهد النسوة اللاتي خرجن بناطيلهن القصيرة، وملابس الاستحمام الخفيفة، وقمصانهن المخططة باللون الأزرق، وهن يلعبن بالورق في ظلال شرفات دورهن. ولم تر العربات التي كانت تجرها الثيران على الدروب الترابية، وقد ازدحمت فوقها قطوف الموز. ولم تشهد الصبايا اللواتي كنّ يتواثبن كالسمك في مياه الأنهار الرقراقة الصافية، فيسببن لركاب القطار حسرة مرة بمناظر نهودهن الناتئة الجميلة، ولا بيوت العمال البؤساء المتواضعة الواضحة، بينما فراشات موريسيو بابيلونيا تطير بينها، ولا الأطفال الخضر الصفر على عتبات تلك البيوت البائسة، ولا النساء الحوامل اللواتي كنّ يتفوّهن، صراخاً، بالكلمات البذيئة لدى مرور القطار بهن.

لقد سبق لتلك المشاهد أن كانت تفعم قلب ميمي غبطة وسعادة، وهي عائدة من الكلية. ولكنها الآن تمرّ بها فلا توقظ قلبها من سباته وعنائه. لم تلق نظرة واحدة عبر نافذة القطار. حتى بعد أن قطعت مروج الموز برطوبتها الخانقة. ثم مرّ القطار في حقول تغطيها شقائق النعمان، وفيها بقايا هيكل متفحم لسفينة إسبانية، ثم يمّم صوب الشاطىء ذي الهواء العليل، على الرغم من بحره القذر الأجاج، مروراً إلى المكان الذي انتهت فيه أوهام خوزيه أركاديو بوينديا منذ قرن من الزمن.

في الساعة الخامسة عصراً، وصلنا إلى آخر محطة في إقليم المستنقعات (الماريجو)، فتحركت ميمي مثلما تحركت فيرناندا. فلحقت

بها عندما نزلت من القطار. وصعدتا إلى عربة صغيرة تشبه الخفاش الكبير، يجرها حصان مريض كأنه مصاب بالربو. وعبرتا المدينة المقفرة، عبر شوارع كثيرة، تآكلت بفعل ملح البارود، يسمع من البيوت على جوانبها عزف على آلة البيانو، كذلك العزف الذي كانت تسمعه فيرناندا، أيام صباها، في وقت القيلولة.

ثم أبحرتا على متن مركب نهريّ، تحدث عجلته الخشبية الكبيرة فرقعة كأصوات الانفجارات، وله مفاصل معدنية تآكلت بفعل الأكسدة، فصار احتكاكها بعضها ببعض يصدر شرراً كما هي الحال عند باب فرن.

أغلقت ميمي على نفسها باب حجرتها. وجعلت فيرناندا تدخل عليها مرتين في اليوم، فتضع لها طبق الطعام قريباً من سريرها، لتعود فتأخذه دون أن تمسه ميمي. وما كان ذلك منها لأنها عزمت على أن تقضي جوعاً، بل لأنها كانت تقرف رائحة الطعام، ولا تقبل معدتها بقاء شيء فيها، حتى إنها كانت تلفظ الماء إذا شربته. ولم تكن تدري، حينئذ، أن خصوبتها قد تغلبت على لصقات الخردل، وهو أمر لم تعلم به فيرناندا أيضاً، إلاّ بعد عام، حين جيء بالطفل إليها.

وقد تعبت ميمي من جو الحجرة الخانق، وأمرضها اهتزاز الحواجز المعدنية، بين الحجرات وفي أرضها، وأعيتها رائحة الطين التي كانت تتعجن بفعل حركة العجلة الخشبية الكبيرة في المركب، فضيعت حساب الأيام والتاريخ. وانقضى زمن دون أن ترى آخر الفراشات الصفراء، بعد أن مزّقتها إرباً صفائح مروحة المركب ودقّته. فأدركت واقعاً لا مردّ له، ألا وهو موت موريسيو بابيلونيا. ولكنها لم تستسلم لقبول تلك الفكرة، ولم ترضخ لذلك الواقع. بل دأبت على التفكير فيه، حتى وهي على ظهر البغل تقطع الشعاب الوعرة في تلك الأرض الصحراوية المقفرة العجيبة، التي كاد يضيع فيها أبوها، أورليانو الثاني، حين جاء يبحث

عن أمها فيرناندا، أجمل امرأة عرفها وجه الأرض.

لم يبرح موريسيو بابيلونيا مخيلة ميمي ولا ذاكرتها، وهي تتسلق الجبال، على الدروب الهندية الضيقة، التي تؤدي إلى المدينة الحزينة، التي تتردّد في أزقتها الحصبة أصداء نواقيس الموت والحزن المنبعثة من اثنتين وثلاثين كنيسة فيها.

وأمضتا تلك الليلة في ذلك البيت الملكي الاستعماري القديم، الذي كان مقفراً من أهله، فوق خشبات رتبتها فيرناندا على أرض إحدى الحجرات، حيث كان العوسج قد نما. وكان غطاؤهما مزقاً من الستائر انتزعتاها عن النوافذ، وكانت رثة تتمزق كلما تحركت تحت جسم الواحدة منهما.

وتبينت ميمي مكان وجودهما حين مرّ أمامها، في حمّى الأرق الذي كانت فيه، ذلك الرجل الذي كان يرتدي حلة سوداء، والذي سبق أن رأته حين جيء به إلى البيت في صندوق من رصاص في ليلة عيد الميلاد منذ زمن بعيد. وفي صباح اليوم التالي، قادتها فيرناندا، بعد الصلاة، إلى مبنى قاتم كئيب، عرفت ميمي، مذ رأته، أنه الدير الذي كانت تحدثها عنه أمها، عندما كانت تتذكر نشأتها الملكية فيه. وعندها أدركت أنها وصلت آخر المطاف من رحلتها. ومكثت ميمي في قاعة كبيرة تزينها صور زيتية لأساقفة، تعود للعهد الملكي الاستعماري. وكانت ما تزال في ثوبها المزدان بالزهور السوداء، وتلبس حذاء له كعب عال صلد، وقد تورمت قدماها فيه بسبب برد الجليد في منطقة الهضاب، بينما كانت أمها تتحدث مع أحد الرجال في المكتب المجاور. وظلت ميمي واقفة جامدة، وسط القاعة، وهي تفكر بموريسيو بابيلونيا، بينما تتسرب، من زجاج النوافذ، أشعة صفراء. ثم دلفت إلى القاعة راهبة رائعة الجمال، وهي تحمل لميمي حقيبتها بغياراتها الداخلية الثلاثة. فأمسكت يد ميمي، حين

وصلت قربها، ودون أن تتوقف، قالت لها :

ـ تعالي، يا ريناتا.

فأمسكت ميمي بيدها، وأسلمت قيادها لها. وألقت فيرناندا آخر نظرة لها عليها، وهي تحاول أن توازن بين خطوها وخطو الراهبة. ثم رأت الباب الحديدي ينزل وراءها، فيسد مدخل الدير.

كانت ميمي، حينئذ، تفكر بموريسيو بابيلونيا، بملمس الشحم ورائحة زيت السيارات، وبالفراش الذي كان يحلق دائماً حوله. وقد ظلت تفكر فيه طوال حياتها، حتى ذلك الفجر الخريفي ـ وهو ما يزال بعيداً أمامها ـ عندما ماتت في شيخوختها، ولها هوية غير هويتها، دون أن تتلفظ بكلمة واحدة في حياتها، في مأوى للعجزة مظلم قاتم كئيب في كراكوفيا.

وعادت فيرناندا إلى ماكوندو في قطار يحرسه البوليس المسلح. ولاحظت خلال رحلتها سلوك المسافرين بعصبية، كما لاحظت الاستعدادات الحربية في القرى التي يمر بها الخط الحديدي. ودلها الجوّ العام، بما يشبه اليقين، على أن شيئاً خطيراً كان على وشك الحدوث. وتريثت حتى تصل إلى ماكوندو للحصول على المزيد من المعلومات.

روي لها أنّ خوزيه أركاديو الثاني كان يحرض عمال شركة الموز على الإضراب. فقالت في نفسها :

ـ ما ينقصنا سوى هذا ؛ فوضويّ في العائلة.

وانفجر الإضراب بعد أسبوعين من ذلك التاريخ، ولكنه لم يؤدّ إلى نتائج حاسمة جذرية. فقد كان العمال يرفضون إرغامهم على العمل ونقل قطوف الموز يوم الأحد. وهو مطلب رآه الناس مشروعاً، حتى إن الأب أنطونيو إيزابيل دافع عنه لأنه وجده متوافقاً مع شريعة الرب. ونجح الإضراب، ثم تلاحقت نجاحات العمال في الشهور التالية. وبرز خوزيه

أركاديو الثاني من عالمه المجهول. الذي كان يتوارى فيه، وهو الذي لم يكن الناس في البلدة يعرفون عنه إلاّ أنه مالىء بلدتهم بالمومسات الفرنسيات. فاتخذ قراراً نارياً مشبوباً بالعاطفة، يشبه القرار الذي اتخذه في الماضي، يوم باع ديكة القتال لكي يؤسس شركة غريبة للملاحة. استقال من عمله، رئيساً للعمل في شركة، ووقف إلى جانب العمال يساندهم.

وسرعان ما اتهم بأنه عميل في إحدى المؤامرات العالمية ضد النظام العام. وبينما كان، في إحدى الليالي خارجاً من اجتماع سري ـ وكان ذلك الأسبوع قد حفل بالشائعات السوداء ـ أطلق عليه مجهول أربع رصاصات من مسدس، نجا منها بأعجوبة. وتوتر الجو في الأشهر التالية، حتى تناهت الأخبار إلى أورسولا، وهي حبيسة الظلام في قرنتها. فشعرت أنها تعيش، مرة أخرى، واحدة من الحقب السوداء، التي خبرتها أيام كان ابنها أوريليانو (العقيد) يحمل في جيبه حبوب الثورة علاجاً لها. وشاءت أن تحدث خوزيه أركاديو الثاني، لعلها تنبهه إلى تلك السابقة، ولكن أوريليانو الثاني أخبرها أنه قد اختفى منذ الليلة التي شهدت محاولة اغتياله، وأنّ أحداً لا يعرف شيئاً عنه. فصاحت أورسولا قائلة :

ـ تماماً كما فعل أوريليانو (العقيد) . فكأن التاريخ يعيد نفسه .

ولم تكترث فيرناندا كثيراً بالمخاوف والشكوك التي كانت تسود تلك الأيام. فقد قطعت صلاتها بالعالم بعد الشجار العنيف الذي جرى بينها وبين زوجها، أوريليانو الثاني، لأنها قرّرت مصير ميمي دون الرجوع إليه . وعزم أوريليانو الثاني على إنقاذ ابنته ، ولو بمساعدة البوليس ، إذا اقتضى الأمر ذلك. ولكن فيرناندا أطلعته على أوراق تثبت أن ابنته قد اختارت العيش في الدير بمحض إرادتها.

والواقع أن ميمي قد وقعت تلك الأوراق بعد أن أصبحت خلف باب الحديد، وبنفس الازدراء اللامبالي الذي أذعنت فيه لقيادها إلى حيث وصلت. ولم يقتنع أورليانو الثاني، في داخله، بصحة ذلك الدليل. كما لم يقتنع بأن موريسيو بابيلونيا قد دخل باحة الدار ليسرق الدجاج. ولكنه تذرع بالحجتين لتهدئة وجدانه وضميره. ومكنه موقفه ذاك من العودة، بلا أسف أو حزن، إلى أحضان بيترا كوتيس. فاستأنف حفلاته الصاخبة وولائمه المترفة بحرية تامة.

كانت فيرناندا في منأى عن قلق البلدة، وقد أصمّت أذنيها عن تشخيص أورسولا المخيف. ولم يكن يهمها سوى وضع اللمسات الأخيرة على مخططها. فكتبت رسالة مطولة إلى ابنها خوزيه أركاديو، وكان قد بات على وشك أن يصبح راهباً مبتدئاً. وأخبرته في الرسالة أن أخته ريناتا قد أسلمت نفسها إلى سلام الرب، بعد إصابتها بالحمى الصفراء. ثم وضعت أمارانتا أورسولا في رعاية سانتا صوفيا (التقية) لتربيها. وانصرفت لتنظيم مراسلاتها مع الأطباء المجهولين، بعد أن اضطرب نظام تلك المراسلات، في أثناء الأحداث التي جرت لميمي. وكان أول أمر قامت به هو تحديد موعد أخير لإجراء العملية التخاطرية التي تأخرت كثيراً. وأجابها الأطباء المجهولون بأن ذلك غير ممكن ولا معقول، في ذلك الجو من الاضطراب الشعبي في ماكوندو. وكانت في عجلة من أمرها، وفي جهل لما كان يجري في البلدة فحرّرت لهم رسالة أخرى تشرح لهم فيها أنه لا وجود لمثل ذلك الجو المزعوم من الاضطرابات، وأن ليس في الأمر سوى طفرة جنون لابن حميها الذي يلهو الآن بالأعمال النقابية، كما كان يلهو، قبلاً، بصراع الديكة، ومن بعد بالملاحة.

وكان الأمر ما يزال معلقاً بينها وبينهم، حين وصلت إلى الدار راهبة عجوز، وكان اليوم أربعاء. فطرقت الباب، وهي تعلق سلة بيدها،

ففتحت لها سانتا صوفيا (التقية) الباب. وظنت أنها تحمل لهم هدية، فأرادت أن تحمل عنها السلة المجللة بستار جميل من الدانتيلا. ولكن الراهبة ردّتها، قائلة بأن الأوامر التي لديها تقضي بأن تسلمها، في غاية السرية، شخصياً إلى الدونة فيرناندا ديل كاربيو دي بويينديا.

كان ذلك ابن ميمي.

وقد كتب مدير فيرناندا الروحي السابق رسالة مطوّلة لها، يشرح فيها أن الطفل ولد قبل شهرين من موعده، وأنه سمح لنفسه بأن يعمده باسم جده، أورليانو، لأن أم الطفل لم تنبس ببنت شفة حين طلب إليها أن تذكر رغبتها في التسمية.

وحارت فيرناندا، بينها وبين نفسها، من سخرية القدر، ولكنها تماسكت، فلم تبد شيئاً من حنقها للراهبة، بل قالت لها وهي تبتسم :

ـ سوف نذكر لهم أننا وجدناه طافياً بهذه السلة. فأجابت الراهبة :

ـ ولكنّ أحداً لن يصدق ذلك.

فقالت فيرناندا :

ـ لا أرى لماذا لن يصدقني الناس، ما داموا قد صدقوا الكتاب المقدس (التوراة).

تناولت الراهبة طعام الغداء في البيت، في انتظار عودة القطار الذي ستستقله عائدة إلى حيث أتت. وقد حافظت على ما أمرت به من كتمان أمر الطفل، فلم تذكره في حديثها. ولكن فيرناندا كانت ترى فيها الشاهد الممقوت على عارها، ولكم حزنت لزوال عادة القرون الوسطى التي كانت تقضي بشنق الرسول الذي ينقل الأخبار السيئة. وعندئذ قررت أن تغرق الطفل في برميل ماء لدى رحيل الراهبة. ولكنها لم تجرؤ على تنفيذ خطتها، وآثرت الانتظار صابرة، لعلّ حلم الرب اللانهائي

يلهمها إلى ما ينقذها من ذلك العبء المزعج.

وأتم أوريليانو الجديد العام الأول من عمره في الوقت الذي تفجر فيه الغليان الشعبي بشكل عنيف ودون مقدمات. وكان خوزيه أركاديو الثاني وسائر القادة النقابيين يعملون، حتى ذلك الحين، في الخفاء. فظهروا فجأة في نهاية الأسبوع، وأشعلوا فتيل المظاهرات في قرى منطقة الموز كلها. ولم تفعل الشرطة إزاء ذلك سوى الحفاظ على النظام. ولكنها، في ليلة الإثنين، داهمت بيوت المسؤولين جميعاً. واعتقلتهم وأودعتهم سجن عاصمة الإقليم، حيث قيدت كلاً منهم بأغلال من الحديد وزنها رطلان. وكان بين المعتقلين خوزيه أركاديو الثاني، ولورنز جافيلان، وهو أحد عقداء الثورة المكسيكية المنفي إلى ماكوندو، والذي روى أنه كان شاهد عيان على بطولة رفيقه أرتيميو كروز. وقد تمّ إطلاق سراحهم، على كل حال، في غضون ثلاثة أشهر، نتيجة للخلاف بين الحكومة وشركة الموز، اللتين لم تتوصلا إلى اتفاق على من يقدم لهم الطعام في السجن. وكان احتجاج العمال، هذه المرة، على انعدام النظافة والرعاية الصحية في أماكن السكن، وغياب الخدمات الطبية، وشروط العمل القاسية الرهيبة. وقد ذكروا كذلك أن أجورهم كانت لا تدفع لهم بالدراهم، بل قسائم لا تفيدهم إلاّ لشراء لحم خنزير فرجينيا من مخازن الشركة. وقد سجن خوزيه أركاديو الثاني لأنه أعلن أن تلك الطريقة من الدفع لم تكن سوى وسيلة تموّل بها الشركة سفنها التي تنقل بها الفواكه. فقد كان على تلك السفن أن ترجع فارغة، من نيو أورليانز في أميركا الشمالية حيث توصل الموز المشحون، إلى مرافىء تحميل الموز في الإقليم، إلاّ إذا شحنت بالمواد التموينية إلى مخازن الشركة. أما الشكاوى الأخرى فقد كان الناس جميعاً يعرفونها. فلم يكن أطباء الشركة يفحصون المرضى، بل يوقفونهم في صف طويل أمام المتوصفات. ثم

تضع لهم ممرضة حبة دواء بلون الزمرّد على ألسنتهم. سواء أكان الواحد منهم مريضاً بالملاريا أم السيلان أم الإكتام (الإمساك). وقد انتشر هذا العلاج، إلى درجة أن الأطفال كانوا يندسون بين المصطفّين، مرّات ومرات، فيأخذون حبات الدواء المزعوم. وبدلاً من ابتلاعها كانوا يستعملونها مؤشرات في لعبة البنجو. وكان عمال الشركة يبيتون مزدحمين في بيوت بائسة مبنية من الخشب. وكان المهندسون، بدلاً من إنشاء المراحيض للعمال، يخصصون مرحاضاً متحركاً لكل خمسين عاملاً، يحضرونه في أيام عيد الميلاد، ويقدمون العروض العامة حول كيفية استخدام تلك المراحيض، كي تبقى صالحة للاستعمال أطول فترة ممكنة من الزمن.

وكان كبار المحامين المزيفين، بحللهم السوداء، والذين كانوا في الماضي يحيطون بالعقيد أوريليانو بوينديا، وأصبحوا الآن وكلاء شركة الموز، يلفقون للعمال كل صنوف التهم والدعاوى. وقد رفع العمال مذكرة بمطالبهم حظيت بتأييدهم جميعاً، وأمضوا زمناً طويلاً وهم يحاولون تقديمها إلى المسؤولين الرسميين في شركة الموز. ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح. لأن السيد براون، عندما عرف بالاتفاق الذي توصلوا إليه بالإجماع، لم يكن منه إلاّ أن ربط عربته البلورية الفخمة بالقطار، وتوارى عن أنظار أهل ماكوندو جميعاً، مع جميع البارزين من المسؤولين في شركته.

واتفق أن اكتشف بعض العمال واحداً من أولئك المسؤولين، يوم السبت التالي، في أحد بيوت الدعارة، فأجبروه على توقيع نسخة من مذكرتهم التي تحمل المطالب، بينما كان عارياً مع امرأة وافقت على جرّه إلى هذه المكيدة. ولكن المحامين، ذوي الوجوه الرسمية الأقرب إلى الحداد، أثبتوا في المحكمة ألاّ علاقة لذلك المسؤول بالشركة. ولكي يبعدوا

كل ملمح أو أثر للشك، لدى أي إنسان، في حجتهم، ألقوا به في غيابة السجن، بتهمة انتحال صفة غير صفته.

وبعد فترة وجيزة، فاجأ العمال السيد براون متنكراً في إحدى عربات الدرجة الثالثة في القطار. فأرغموه على توقيع نسخة من مذكرة مطالبهم. وأحضر في اليوم التالي إلى المحكمة، أمام القضاة، وقد صبغ شعره بلون أسود، وهو يتكلم اللغة الإسبانية بطلاقة. وأثبت المحامون أنه ليس السيد جاك براون مدير شركة الموز، المولود في براتيل من ولاية ألاباما ، بل تاجر نباتات طبية ، ولد في ماكوندو وعمِّد فيها باسم داجوبيرتو فونسيكا. وحين واجهت المحامين، بعد فترة، محاولة أخرى قام بها العمال، فما كان منهم إلاّ أن عرضوا على الملأ علناً شهادة وفاة السيد براون، وألصقوها في الأماكن العامة، مصدقة من قناصل ووزراء أجانب. وكانت تلك الشهادة تنص على أنه في التاسع من حزيران (يونيو) الماضي دهسته في شيكاغو سيارة إطفاء. وصارت دوامة تلك الأحداث كتفسير كتب السحر، مما أتعب العمال، وجعلهم يقلعون عن متابعة تقديم مطالبهم إلى سلطات ماكوندو. فاتجهوا صوب المحاكم العليا.

وهنا أثبت المحامون المختصون باختراع الأوهام أن ليس لمطالب العمال أي قيمة لسبب، في غاية البساطة، هو أن شركة الموز لم تستخدم في الماضي، ولا تستخدم في الحاضر، ولن تستخدم في المستقبل عمالاً خاصين بها. فهي إنما تستأجر بعض الشغيلة عند الحاجة، ولأجل محدود، كمياومين مؤقتين. وهكذا طويت حكاية خنازير فرجينيا، وحبوب الدواء العجيبة، ومراحيض ليلة الميلاد. وصدر قرار المحكمة العجيب. فقد أعلنت المحكمة بكل هيبة ووقار أن لا وجود للعمال.

وانفجر الإضراب العام الكبير. وتأثرت الزراعة بتوقف موسم القطاف

في منتصف الطريق. وأصيبت الفواكه بالتلف، وبقيت القطارات ذات المئة والعشرين عربة واقفة على الخطوط الفرعية لسكة الحديد. وازدحمت القرى والمدن بالعاطلين عن العمل. وعاد إلى شارع الأتراك بهاؤه بعد أن ضج بسبت طويل دام بضعة أيام. واضطر المشرفون على قاعة البلياردو، في فندق جاكوب، لتنظيم نوبات للعمل على مدار الساعة. وهناك كان خوزيه أركاديو الثاني، يوم اعلن أنه قد أوكلت إلى الجيش مهمة حفظ النظام العام.

لم يكن خوزيه أركاديو الثاني ممن يعتقدون بالنبوءات، ومع ذلك فقد كان ذلك النبأ عنده نذيراً بالموت، الذي كان ينتظره منذ صباح ذلك اليوم البعيد، عندما أتاح له العقيد جيرنيلدو ماركيز أن يشهد تنفيذ حكم الإعدام. ولكن النبأ والإشارة لم ينالا قط من وقاره وعزمه. فنفّذ الضربة كما سبق له أن خطط لها، دون أن يفسد ذلك عليه شيئاً.

وبعد قليل، تناهى إلى سمعه دويّ قرع الطبول العنيف، مصحوباً بعواء أبواق النفير، مختلطاً بأصوات الناس ووقع أقدام خطاهم الحثيثة. وهو لم ينته بعد من لعبة البلياردو، كما لم ينته من اللعبة الصامتة الوحيدة التي كان يمارسها بينه وبين نفسه منذ أمد طويل، أي منذ صباح تنفيذ الحكم بالإعدام.

خرج إلى الباب وشاهد صفوف الجنود. كانوا ثلاثة ألوية، تهتز الأرض تحت وقع أقدامهم، وينتظم خطوهم مع أصوات قرع الطبول، وكأنها طبول المحكومين بالأشغال الشاقة. تصدر عنهم أنفاس كأنما هي أنفاس تنين متعدّد الرؤوس والوجوه، فتملأ جو الصباح الصافي ببخار كبخار الطاعون.

كانوا قصاراً غلاظاً أفظاظاً متوحشين، يتصببون عرقاً كالخيل في الحر. لهم رائحة نتنة كرائحة لحم تعفّن في الشمس. هيئاتهم جريئة، منقبضة،

صامتة كهيئات رجال الهضاب العليا، أو كالهضاب ذاتها. واستمر العرض العسكري، من أوله إلى آخره، نيّفاً وساعة. فتبادر للمشاهد أنهم سريّة صغيرة كانت تدور حول نفسها، لشدة الشبه فيما بينهم، كأنما ولدتهم أم واحدة، فأرضعتهم نفس الغباء الذي يبدو عليهم جميعاً، وهم يحملون جعب العسكر وأكياسهم ومطراتهم، وعار بنادقهم المنتهية بحراب تبرز قرب فوّهاتها، ووباء الطاعة العمياء، والمفهوم الخاطىء لمعنى الشرف.

سمعت أورسولا كل ذلك، وهي في سرير ظلامها وعماها، فصالبت إصبعيها. وعادت سانتا صوفيا (التقية) إلى العمل الذي تخلت عنه حينها، فانحنت على غطاء مطرّز تكويه. وفكرت بابنها خوزيه أركاديو الثاني، الذي يرقب العرض العسكري، حتى آخر جندي، أمام فندق جاكوب، دون وجل، ودون أن يرتجف له قلب.

كان الجيش، بعد إعلان الأحكام العرفية، يستطيع أن يؤدي دور الحكم في الخلاف، ولكنّ أحداً لم يكن يفكر في محاولة الصلح. فانتشر جنود الجيش في كل أنحاء ماكوندو. وبعد أن نظفوا بنادقهم رتبوها في أماكنها، ثم انصرفوا إلى قطف الموز وتحميله. وبذلك أعادوا تسيير القطارات. وما كان من العمال، الذين كانوا حتى ذلك الحين يرقبون ما يجري منتظرين، إلاّ أن نهضوا إلى الجبال، لا يحملون سوى فؤوسهم وفرأعاتهم التي هي أدوات عملهم. وشرعوا يقطعون الطريق على هذا التخريب المدمر لحياتهم. فأحرقوا المزارع والمخازن، ودمّروا خطوط سكة الحديد ليمنعوا تحرك القطارات التي كانت تشق طريقها تحت وابل الرصاص ودويّ المدافع الرشاشة، وقطعوا خطوط البرق والهاتف.

واصطبغت مياه الأنهار بالدماء. واضطر السيد جاك براون ـ وكان ما يزال حياً، يعيش في زريبة الدجاج المكهربة مع بعض مواطنيه ـ إلى

الخروج من ماكوندو. فوضعوا تحت حراسة الجيش. وأوشكت الأمور أن تتحول إلى حرب أهلية دموية غير متكافئة. فدعت السلطات العمال إلى اجتماع في ماكوندو. وأعلنت، في نداء عام، أن حاكم الإقليم المدني العسكري، سوف يصل يوم الجمعة التالي للتوسط في الخلاف الناشب بين العمال وشركة الموز.

كان خوزيه أركاديو الثاني بين الحشود التي تجمهرت أمام المحطة منذ صباح يوم الجمعة الباكر. وكان، قبل ذلك، قد شارك في اجتماع نقابي أوكل إليه وإلى العقيد جافيلان أن يختلطا بالناس، وأن يوجهوهم حسب مقتضيات الظروف. وأحس بأنه على غير ما يرام، فأخذ يحرك ما بين لسانه وسقف حنكه عجينة طعمها مالح، منذ أن رأى مرابض المدافع الرشاشة، التي نصبها الجنود حول الساحة الصغيرة، والمدافع التي ركزوها خلف الأسلاك الشائكة، للدفاع عن مدينة شركة الموز. كان عدد المحتشدين، عند الظهر، نحو ثلاثة آلاف من العمال النساء والأطفال. جميعهم ينتظرون قطاراً لا يجيء. وازداد تزاحم الناس، حتى ضاقت بهم الساحة أمام المحطة. فأفاضوا على الشوارع المؤدية إليها، والتي كان الجيش قد سدّها بسياج من المدافع الرشاشة.

لم يكن المشهد مشهد استقبال وحسب، بل عيد يضج بالحيوية والمرح. فقد انتقلت إلى المكان بسطات باعة المقليات والمشروبات من شارع الأتراك. واحتمل الناس، بشجاعة وصبر، ملل الانتظار تحت أشعة الشمس الحارقة. ولما قاربت الساعة الثالثة بعد الظهر، سرت بين الناس شائعة مفادها أن القطار لن يصل قبل الغد. فندّت عن الجمهور المتعب تنهيدة قنوط. وعندها اعتلى ملازم من الجيش سطح المحطة، تحيط به أربعة مدافع رشاشة مصوبة إلى الحشد. وقرع جرس يدعو الناس للسكوت.

كانت بالقرب من خوزيه أركاديو الثاني امرأة بدينة، حافية القدمين، ويصحبتها طفلان أحدهما في السابعة والآخر في الرابعة من عمره. فحملت الصغير بين ذراعيها، وطلبت من خوزيه أركاديو الثاني ـ وما كانت تعرفه ـ أن يرفع الآخر لعله يسمع ما سيقال. فرفعه هذا وأجلسه على كتفه. ولقد ظل هذا الطفل يروي لسنوات، من بعد، دون أن يصدقه أحد، كيف شاهد الملازم، وبيده بوق لتكبير الصوت، وهو يقرأ على الناس المرسوم رقم ٤، الذي أصدره حاكم الإقليم المدني العسكري. وكان المرسوم بتوقيع اللواء كارلوس كورتيس فارغاس وأمين سره الرائد أنريكو جارسيا إيزازا. وهو يشتمل على أربع وثمانين كلمة، وردت في ثلاث مواد، ويصف المضربين عن العمل بأنهم عصابة من المشاغبين، ويخول الجيش صلاحية إطلاق الرصاص على أساس الظن والشبهة.

بعد قراءة المرسوم، ، هبّت في سماء الساحة موجة صمّاء صاخبة من صرخات الاحتجاج والاعتراض. فحلّ نقيب مكان الملازم على سطح المحطة. وأشار ببوق تكبير الصوت إلى أنه يريد أن يتكلم. فخيّم السكوت على الحشد من جديد. فقال النقيب بصوت ضعيف فاتر متعب :

ـ سيداتي . سادتي . أمنحكم خمس دقائق مهلة لكي تتفرقوا وتخلوا الساحة.

وضاع رنين البوق الذي أعلن بدء المهلة، بين الصفير والصراخ العنيف. فلم يتحرك أحد من مكانه. فاستأنف النقيب كلامه باللهجة والحدة ذاتهما، قائلاً :

ـ انتهت الدقائق الخمس. دقيقة أخرى ثم نطلق النار.

وتجمد خوزيه أركاديو الثاني وهو ينضح عرقاً بارداً. ثم أنزل الطفل عن كتفه، وأعطاه لأمه التي تمتمت قائلة :

ـ هؤلاء الأوباش أهل لأن يطلقوا النار فعلاً.

ولم يتسع الوقت لخوزيه أركاديو الثاني كي يعلق على قولها، إذ ارتفع في تلك اللحظة صوت العقيد جافيلان الأجش، مردداً كلمات المرأة بصراخ رهيب. وأصيب خوزيه أركاديو الثاني بما يشبه السكر بسبب التوتر، وعمق الصمت البليغ. وكان يؤمن بأن لا شيء يمكن أن يحرك ذلك الحشد الهائل الذي شدّه سحر الموت. فرفع خوزيه أركاديو الثاني نفسه، حتى بات فوق رؤوس الناس الواقفين أمامه. ولأول مرة في حياته، صاح بصوت جهوري :

ـ أيها الأوباش. خذوا دقيقتكم الإضافية، وسدّوا بها أدباركم.

وما إن ارتفعت صيحته حتى حدث شيء ما لم يجلب الرعب فحسب، بل سبب نوعاً من الهلوسة. أصدر النقيب أمره بإطلاق النار، فاستجاب له، في الحال، أربعة عشر مربضاً من مرابض المدافع الرشاشة. ولكن ما جرى إنما كان أشبه بتمثيلية هزلية. حتى لكأن المدافع الرشاشة كانت محشوّة بذخيرة خلّب، أو بأسهم نارية للاحتفال. ذلك أن الناس سمعوا قعقعتها اللاهثة، وشاهدوا بصاقها الناري، ولكنّ أحداً لم يشهد أي ردّ فعل لها. فلا صوت، ولا آهة ندّت عن الجمهور المتراص، وكأنّ مناعة غير عادية قد ألصقت الناس بعضهم ببعض.

وفجأة، انطلقت من صوب المحطة صرخة موت، فمزقت سحر الموقف دفعة واحدة :

ـ آخ، يا أمي.

وتلا ذلك ما يشبه هزة أرضية، وتفجرت حمم بركانية، وحدث انهدام في وجه الأرض. وانفجر كل ذلك في وسط الجمهور، وانتشر بين الناس بسرعة هائلة. ولم يجد خوزيه أركاديو الثاني متسعاً من الوقت لأكثر من أن يرفع الطفل، بينما غابت الأم وطفلها الآخر بين أمواج

الحشود التي راحت تتدافع خوفاً وهلعاً.

وظل الطفل سنين طويلة، من بعد، يروي ما جرى، حتى جاء وقت اتهمه فيه جيرانه أنه شيخ خرف فقد صوابه. كان يروي كيف حمله خوزيه أركاديو الثاني، ورفعه فوق رأسه، وكيف تناقلته الأيدي في الهواء، كأنما رفعه رعب الجماهير، فطفا فوقها باتجاه شارع جانبي. وأدرك الطفل مكانه المرتفع فوق رؤوس الناس، عندما وصل به الجمهور الجامح إلى زاوية الشارع العام. ولاحظ كيف فتحت المدافع الرشاشة أشداقها بالنار، وعلت أصوات لا حصر لها في لحظة واحدة.

- إلى الأرض، انبطحوا أرضاً.

وانطرحت صفوف الجماهير الأولى أرضاً، ولكن بعد أن كانت نيران المدافع الرشاشة قد حصدتها. وبدلاً من أن يلقي الذين ظلوا أحياء بأنفسهم أرضاً، ارتدوا إلى الساحة الصغيرة، حيث لسعهم الرعب، كأنه ذنب تنين، بشواظ من نار ألقاهم أمواجاً متراصة في بحر هائج متلاطم كان مرتداً من الجهة الأخرى للساحة تحت وطأة لسعات موجعة أخرى من ذنب التنين. فقد كانت مرابض المدافع الرشاشة الأخرى تحصدهم حصداً. وحوصر الناس في ما يشبه الدائرة الصغيرة، يلفهم إعصار هائل مجنون. وضاقت حلقة الدائرة، بفعل ضغط النيران من مختلف الجهات، وتمحورت حول بؤرة الانهدام، بالقدر الذي تقطعت فيه أوصال الإطار الخارجي. فكان الحشد كأنه بصلة تقشرها سكين الرشاش تقشيراً لا ترحم فيه ولا تشبع منه. وشاهد الطفل امرأة جاثية على ركبتها، وقد صلبت يديها على صدرها، في بقعة خالية، كأنما كانت تقيها قوة خفية من غزارة الرصاص المنهمر.

وهناك، في تلك البقعة، وضعه خوزيه أركاديو الثاني، وانهار على الأرض دامي الوجه محطوماً، قبل أن تندفع إلى ذلك الفراغ الجموع

الهائلة المجنونة المقموعة بالنار، فتكنسه هو والمرأة الجاثية، والضوء الهابط من فوق، وسماء القيظ المجلودة، والعالم الداعر الذي باعت فيه أورسولا الكثير من الحيوانات الصغيرة المصنوعة من حلويات الكراميلا .

عندما أفاق خوزيه أركاديو الثاني من غيبوبته، ألفى نفسه ملقى على ظهره في ظلام دامس، وكأنه مسافر في قافلة صامتة ليس لها نهاية. وكان شعره قد تشعّث كتلاً متلاصقة بفعل الدم المتخثر، وشعر بالألم ينبعث من كل جزء في عظامه. وطغت عليه الرغبة في النوم. وشرع يعد نفسه لنوم عميق، يغرق فيه ساعات بعد أن تحرر من الرعب والهلع. فاضطجع على جنبه الأقل إيلاماً له. وعندها اكتشف أنه يرقد فوق جثث القتلى الذين غصت بهم عربة القطار، حتى لم يبق فيها مكان فارغ عدا الممر الذي كان في وسطها. وقدّر خوزيه أركاديو الثاني أنه كانت قد انقضت على المجزرة عدة ساعات، لأن حرارة الجثث كانت كحرارة الجبس في أيام الخريف، وقد تماسكت بعضها ببعض كما يتماسك الزبد إذا تجلد. وقد رتّب المعنيون الجثث ونسّقوها تنسيقاً تاماً، لم يكن ينقصهم فيه الوقت. ووضعوها في الاتجاه الصحيح، وعلى أحسن هيئة ممكنة، تماماً كما تنضد قطوف الموز.

وقرّر خوزيه أركاديو الثاني أن يفر من هذا الكابوس. فراح يجرّ نفسه من عربة إلى عربة، باتجاه سير القطار. وتمكن، خلال انسحابه ذاك، وبسبب الأضواء المتسربة من بيوت القرى النائمة على جانبي سكة الحديد، عبر ألواح الخشب الجانبية في القطار، من رؤية الموتى عن كثب. فرأى الموتى من الرجال والنساء والأطفال، الذين كان ينقلهم القطار إلى البحر ،ليلقيهم فيه كما تلقى قطوف الموز الفاسدة . ولم يميز من بينهم سوى امرأة كانت تبيع المرطبات في الساحة، والعقيد جافيلان الذي كان ما يزال ممسكاً بحزام الموريليا، برأسه الفضي، وقد لفّه على يده عندما

حاول أن يشق به لنفسه طريقاً ساعة الجنون الكبرى.

ولما وصل خوزيه أركاديو الثاني إلى العربة الأولى، في مقدمة القطار، قفز من القطار في الظلام الدامس، وإذا هو في حفرة، فظل راقداً فيها حتى مرّ القطار بعرباته كلها. وكانت العربات تشكل أكبر قافلة رآها في حياته، فتكاد تبلغ مئة عربة، تشدها قاطرات ثلاث : واحدة في المقدمة، والثانية في الوسط، والثالثة في المؤخرة. وكان القطار يسير بسرعة ليلية خفيفة، بلا نور. فلم يستعمل حتى النور الأحمر والأزرق في المواقف. وكان خوزيه أركاديو الثاني، من موقعه في الحفرة، يرى أشباح الجنود المبهمة على سطوح عربات القطار، وهم رابضون على مدافعهم الرشاشة في وضع قتالي.

بعيد منتصف الليل، انهمر مطر غزير كأنه طوفان. وكان خوزيه أركاديو الثاني يجهل المكان الذي هو فيه. ولكنه كان يدرك أنه إذا سار في الاتجاه المعاكس لسير القطار فسوف يصل إلى ماكوندو.

فانطلق يسير في الظلام الدامس، على غير هدى، نيّفاً وثلاث ساعات وقد بلله المطر حتى بلغ منه العظام. واشتد عليه الألم في رأسه فكاد يطرحه أرضاً. وأخيراً استطاع أن يميز البيوت المتطرفة على أشعة الفجر غير الجلية. وجذبته رائحة القهوة المنبعثة من أحد البيوت، فدخل إلى مطبخ، رأى فيه امرأة تحمل بين ذراعيها طفلاً، وقد انحنت فوق الفرن تعمل شيئاً. فخاطبها بقوة قائلاً :

ـ مرحباً. أنا خوزيه أركاديو الثاني بوينديا.

وذكر اسمه كاملاً، وهو يشدّد على مقاطعه، ربما ليقنع نفسه أولاً أنه ما يزال فعلاً على قيد الحياة. وقد كان على حق في ذلك، لأن المرأة ظنت، وهي ترمقه في الباب : كئيباً، قذراً، مهدّماً، وقد تلطخ رأسه وثيابه ببقع الدم، وخيّم عليه شبح الموت ؛ ظنت أنها إنما تشاهد رؤيا في

منامها. وكانت المرأة تعرفه. فجاءته بغطاء يتلفح به، ريثما يضع ثيابه حدّ الموقد كي تجف. وسخنت له الماء كي يغسل جرحه، ولم يكن أكبر من خدش بسيط. ثم ناولته رباطاً نظيفاً يضمد بها رأسه. وقدمت له فنجان قهوة بلا سكر. فقد كانت تعرف أن آل بوينديا يشربونها هكذا. وبعد أن نشر ثيابه قريباً من النار. غمغم قائلاً :

ـ لا بدّ أنهم ثلاثة آلاف.

فاستفسرت سائلة :

ـ ماذا؟.

فأوضح لها قائلاً :

ـ الموتى. أظن أن جميع من كانوا في المحطة قد ماتوا.

نظرت إليه المرأة نظرة إشفاق، وقالت :

ـ لم يمت أحد في هذه الناحية. فمنذ زمن مات عمك العقيد. لم يحدث شيء في ماكوندو. وأعاد عليه هذا القول نفسه جميع من رآهم في المطابخ الثلاثة التي مرّ بها في طريقه :

ـ لم يمت أحد.

ومرّ خوزيه أركاديو الثاني بساحة المحطة الصغيرة، فشاهد طاولات باعة المقليات منضدة بعضها فوق بعض. ولم ير هناك أيّ أثر للمجزرة. فقد كانت الشوارع مقفرة، وكان المطر يهطل غزيراً، وكانت البيوت مغلقة، لا يندّ عنها أي مظهر للحياة. وكان أول دليل على وجود الإنسان ذلك الجرس الذي قرع إيذاناً بموعد الصلاة. طرق باب العقيد افيلان، ففتحت له الباب امرأة حبلى، طالما رآها. ثم أغلقته في وجهه، وهي تقول مذعورة :

ـ لقد رحل، عاد إلى بلاده.

وكان عند باب قنّ الدجاج الكبير، المحاط بالأسلاك الشائكة، شرطيان محليان، يعتمران خوذتيهما، ويتسربلان بمعطفيهما المشمّعين وحذاءيهما المطاطيين، جامدين بلا حراك، وكأنهما استحالا إلى تمثالين. وكان الهنود الزنوج السود، في شارعهم الجانبيّ، يرتلون مزامير سبتهم الدينية.

قفز خوزيه أركاديو الثاني من فوق سياج الدار، ودخل إلى البيت من المطبخ. وعندما رأته أمه سانتا صوفيا (التقية)، قالت له بصوت خفيض:

ـ حاذر أن تراك فيرناندا. فقد نهضت من سريرها قبل لحظة.

ثم، وكأنها تفي بعهد لم تعلنه، قادت ابنها إلى غرفة الأواني، حيث رتبت له سرير ملكيادس القديم المخلّع منذ زمن بعيد. وعند الساعة الثانية، بعد الظهر، وبينما كانت فيرناندا في قيلولتها، دفعت له من النافذة طبق طعامه.

وفاجأ المطر أورليانو الثاني وهو في البيت، فنام. وكان ما يزال هناك عند الساعة الثالثة بعد الظهر، ينتظر توقف المطر. فأخبرته سانتا صوفيا (التقية) سراً بوجود أخيه في البيت. فمضى لزيارته في غرفة ملكيادس.

ولم يستطع أورليانو الثاني، ولم يشأ، هو أيضاً أن يصدق قصة المجزرة، ولا كابوس القطار الذي شحن فيه الموتى ليلقى بهم في غيابة اليم. فأمس مساء قرأ الناس إعلاناً نشر في كل البلاد، يحيط الناس علماً بأن العمال قد أذعنوا للأمر الصادر لهم بإخلاء المحطة، وقد عادوا إلى بيوتهم في مظاهرة سلمية. وجاء في الإعلان، أيضاً، أنّ القادة النقابيين استجابوا، بدافع من حسهم الوطني العالي، فاختصروا مطالبهم إلى اثنين، هما: إصلاح الخدمات الطبية، وبناء مباول في المناطق السكنية. وشاع، فيما بعد، أن القادة العسكريين، عندما حصلوا على موافقة العمال، أسرعوا بنقل محتواها إلى السيد براون، الذي أعلن، بدوره، أنه

لا يكتفي بقبول الشروط الجديدة، بل زاد على ذلك بأن أقام وليمة للسكان جميعاً، دامت ثلاثة أيام، احتفالاً بانتهاء النزاع. وعلى الرغم من ذلك، طلب إليه العسكريون تحديد موعد لتوقيع الاتفاق. فنظر من النافذة إلى الجوّ، الذي كانت تومض فيه البروق، وتأمل طويلاً، ثم قال وكأنه يتوقع أمراً محتوماً:

ـ عندما يتوقف المطر. فما دام المطر ينهمر سوف نعلق الأعمال والأنشطة جميعاً.

وقد مضى على توقف المطر ثلاثة أشهر، وقد اشتد الجفاف في المناطق. ولكن، ما إن أعلن السيد براون قراره ذاك، حتى تدفق وابل كأنه طوفان غمر مناطق الموز كلها. وهو المطر الذي واجه خوزيه أركاديو الثاني في طريقه إلى ماكوندو. وانقضى أسبوع على ذلك التاريخ والمطر ينهمر مدراراً. وكررت الحكومة إعلانها الرسمي آلاف المرات، وعممته على كل أرجاء البلاد، وبكل وسائل الاتصالات التي تملكها، حتى انتهى الأمر بالناس إلى تصديق ذلك الإعلان: «لم يمت أحد». وقد عاد العمال، راضين قانعين، إلى عائلاتهم. وقد علقت شركة الموز كل أعمالها حتى ينقشع المطر. واستمرّ العمل بالأحكام العرفية، نزولاً عند الحاجة الناشئة عن الظروف الطارئة، والإجراءات القسرية اللازمة، بسبب الأمطار الدائمة. ولكن الجنود كانوا داخل ثكناتهم. وكانوا في النهار يسيرون في الطرقات، خائضين في السيول التي كانت تغمرها، طاوين أرجل بناطيلهم، ويلعبون بزوارق الصغار مع الأطفال. أما في الليل فكان الجنود يخلعون أبواب البيوت، في ساعات منع التجول، بأعقاب بنادقهم، ويداهمون المشبوهين في أسرّة نومهم، فيعتقلونهم ويخرجونهم من بيوتهم، ثم يصحبونهم في رحلة لا عودة منها.

كانت عمليات البحث والمطاردة والإعدام، لمن كانوا يسمون

المشاغبين، والقتلة، ومثيري الفتن، ومشعلي الحرائق، وسواهم من الخارجين على القانون، الذين شملهم المرسوم (رقم ٤)، ما تزال متواصلة وعلى اشدها. ولكن العسكريين كانوا لا يعترفون بما يفعلونه حتى لذوي الضحايا، الذين كانوا يحتشدون أمام مراكز القيادة العامة بحثاً عن الأخبار. كان الضباط يقولون لهم ويعيدون القول :

ـ لا بدّ أنكم كنتم تحلمون. فلم يحدث في السابق، ولا يحدث الآن، ولن يحدث شيء في ماكوندو. فهذه بلدة سعيدة. وهكذا استطاعوا، بهذه الطريقة، القضاء التام على القادة النقابيين.

لم يبق من القادة النقابيين واحد على قيد الحياة سوى خوزيه أركاديو الثاني. وفي ليلة من ليالي شهر شباط (فبراير)، سمع أهل البيت الضرب بأعقاب البنادق على باب الدار قوياً مدوّياً. وكان أوريليانو الثاني ما يزال ينتظر ريثما يتوقف المطر كي يغادر البيت. ففتح الباب، وإذا به أمام ستة جنود بإمرة ضابط. كانوا مبتلين من المطر، ويقطرون ماء. ودون أن يتفوه واحد منهم بكلمة، فتّشوا الدار غرفة غرفة، وخزانة خزانة، ابتداء بالقاعتين وانتهاء بالمخزن. وأفاقت أورسولا عندما أضاؤوا النور في غرفتها. فلم تنبس بكلمة، ولم تدع نفسها يعلو على مألوفه، وأبقت على إصبعيها متصالبتين طوال فترة التفتيش، تديرهما باتجاه الجنود، حيثما يفتشون، تتبعهم بهما في غدوّهم ورواحهم. واستطاعت سانتا صوفيا (التقية) أن تنذر خوزيه أركاديو الثاني، الذي كان نائماً في غرفة ملكيادس. ولكنه أدرك أن الفرار بات مستحيلاً. فأغلقت سانتا صوفيا الباب، بينما ارتدى هو قميصه وحذاءه، وجلس على حافة السرير ينتظر قدوم الجنود. كانوا آنذاك يفتشون مشغل الصياغة، فبعد أن أمر الضابط بخلع الغال، أدار نور مصباحه في أرجاء الغرفة، فشاهد الطاولة، والخزانة الصغيرة، وقوارير الأحماض، والدوارق والأدوات، وما زال كل

منها في المكان الذي تركه فيها صاحبها. فأدرك أنّ أحداً لا يسكن تلك الغرفة.

وسأل الضابط أوريليانو الثاني سؤالاً ذكياً، ما إذا كانت مهنته الصياغة. فأوضح له الأخير أنه الآن يقف في مشغل العقيد أوريليانو بوينديا. فعلق الضابط قائلاً :

ـ آه. هذا هو إذن !!.

ثم أضاء الأنوار جميعاً، وأمر بإجراء بحث دقيق، حتى لم تفتهم السمكات الذهبية الثماني عشرة الصغيرة. التي لم يتمّ صهرها، وكانت مخفية وراء الزجاجات والقوارير في صفيحة التنك. فتفحصها الضابط واحدة واحدة، على الطاولة. وعاودته، في تلك اللحظة، إنسانيته، فقال :

ـ أودّ أن آخذ واحدة منها. إذا سمحت، فقد كانت، في وقت من الأوقات، دليل تعارف، بين الثوار. ولكنها الآن تراث أثريّ.

وكان ذلك الضابط شاباً، أو بالأحرى يافعاً، ليس فيه سمة من سمات الجبن، وفي طبيعته شيء من الود والخلق الطيب، وإن كان لم يبد عليه حتى ذلك الحين. فأعطاه أوريليانو الثاني السمكة الصغيرة. فدسها الضابط في جيب قميصه، وقد لمعت عيناه بفرح طفولي، وأعاد السمكات الصغيرات الأخرى إلى الصفيحة، وأرجعها إلى حيث كانت. وقال :

ـ إنها لحظة وذكرى لا تقدّر بثمن. فقد كان العقيد أوريليانو بوينديا واحداً من أعظم رجالنا.

ولكن إنسانيته المفاجئة لم تعدّل شيئاً من سلوكه الوظيفي. وتشبثت سانتا صوفيا (التقية) بآخر أمل لها أمام غرفة ملكيادس، بعد أن أعادت

إغلاقها بالغال. وقالت :

ـ منذ قرن لم يسكن أحد في هذه الغرفة.

ولكن الضابط أمر بفتحها، وأجال فيها ضوء مصباحه. وشاهدت سانتا صوفيا (التقية) وأوريليانو الثاني عيني خوزيه أركاديو الثاني الغريبتين لحظة مرّ النور على وجهه. وأدركا أن تلك اللحظة كانت نهاية قلق وبداية قلق آخر، وألاّ راحة لهما، بعد ذلك، إلاّ بالرضا بما هو واقع. وتابع الضابط إجالة ضوء المصباح في الغرفة، مفتشاً. فلم يبد عليه أي اهتمام ذي معنى. وقد اكتشف الاثنين والسبعين إناء المكدسة في الخزائن، بعضها فوق بعض. وعندها أضاء نور الغرفة. وكان خوزيه أركاديو الثاني ما يزال جالساً على حافة السرير، متأهباً للقفز إلى خارج الغرفة، مهيباً جليلاً حالماً أكثر منه في أية ساعة من ساعات حياته.

وبانت في مؤخرة الغرفة الرفوف الكثيرة، وقد صفّت عليها الكتب القديمة المهترئة، وقراطيس الورق. وطاولة العمل المنظمة، والحبر الذي كان يبدو جديداً في المحابر. وكان الهواء يعبق بنفس النقاء، وبالحصانة والمناعة ضد الغبار والخراب، مما عرفه أوريليانو الثاني في طفولته، ووحده العقيد أوريليانو بوينديا لم يدركه. ولكن الضابط لم يكترث إلا بالأواني، فسأل :

ـ كم شخصاً يعيش في هذه الدار.

ـ خمسة.

وكان واضحاً أن الضابط لم يفهم. فوقف صامتاً، وقد استقرّ نظره على المكان الذي يرى فيه أوريليانو الثاني وسانتا صوفيا (التقية)، اللذين كانا يريان خوزيه أركاديو الثاني، الذي كان يدرك بدوره أن الجندي كان ينظر إليه دون أن يراه. ثم أطفأ الضابط النور، وأغلق الباب. وأدرك أوريليانو الثاني، عندما سمع ما قاله الضابط للجنود، أن ذلك الضابط

الشاب كان يرى الغرفة بعيني العقيد أوريليانو بوينديا. فقد سمعه يقول للجنود :

ـ من الواضح أن أحداً لم يسكن في تلك الغرفة منذ مئة سنة على الأقل. فلا بد أن تكون هناك أفاعٍ تعيش فيها الآن.

وعندما انغلق باب الغرفة، أيقن خوزيه أركاديو الثاني أن الحرب قد انتهت. فلقد حدثه العقيد أوريليانو بوينديا، لسنين خلت، عن سحر الحرب، وقدّم له أمثلة استقاها من خبراته. وآمن بأقواله. ولكنه، في تلك الليلة، عندما نظر إليه العسكريون، جالساً أمامهم، دون أن يبصروه، وهو يفكر بالرعب والتوتر الذي عاناه في الشهور الأخيرة، والحياة البائسة التي قضاها في السجن، توصل إلى نتيجة مفادها أن العقيد أوريليانو بوينديا لم يكن مهرجاً أو غبياً مغفلاً، ولقد ذكر كلاماً كثيراً كي يوضح ما كان يشعر به في الحرب، مع أن كلمة واحدة كانت كافية، وهي : الخوف، ولقد خبر خوزيه أركاديو الثاني الخوف في تلك الليلة وقبلها. ففي غرفة ملكيادس، وبينما كان النور السماوي يحميه، وعلى وقع تساقط المطر، وتحت وطأة الشعور بأنه لا يُرى، شعر بالراحة التي لم يعرفها لحظة واحدة طوال حياته الماضية، على الرغم من أن خوفه من أن يدفن حياً كان ما يزال يسيطر عليه.

وباح بما كان يعتمل في صدره من مشاعر إلى سانتا صوفيا، بينما كانت تنقل إليه طعامه، كعادتها يومياً. فوعدته بأن تبذل ما تستطيع كي تبقى على قيد الحياة أطول مما تبيحه لها قواها، لتطمئن إلى أنه لن يدفن إلاّ بعد موته. وعندما تخلّص خوزيه أركاديو الثاني من ذلك الخوف، كرّس وقته لقراءة صحائف ملكيادس ورقاعه، المرة تلو المرة. وكان استمتاعه بها يزداد ازدياداً مطرداً مع ازدياد غموضها عليه وانغلاقها على فهمه.

واعتاد صوت هطول المطر، فقد غدا عنده، بعد شهرين، صورة أخرى من صور الصمت. ولم يكن يكسر حدّة وحدته سوى دخول سانتا صوفيا وخروجها. ولهذا رجاها أن تضع له الطعام على حافة الشباك، وأن تعيد الغال إلى الباب.

وهكذا نسيته بقية العائلة، بمن فيهم فيرناندا، التي لم تر ما يمنع بقاءه في البيت، خصوصاً بعد أن علمت أن الجنود نظروا إليه دون أن يروه. وبعد ستة أشهر من العزلة، رحل الجيش عن ماكوندو، فانتزع أوريليانو الثاني الغال، لأنه كان بحاجة للحديث مع شخص آخر ريثما يتوقف هطول المطر. وعندما فتح الباب صفعته رائحة الأواني القذرة، لأنها استعملت جميعاً غير مرة. ولكن خوزيه أركاديو الثاني، وقد أصابه داء الثعلب، لم يكن ليأبه لتلك الروائح الكريهة التي أحالت جوّ الغرفة إلى جوّ منتن غير قابل للتنفس. فاستمر في قراءة صحائف ملكيادس المبهمة، وإعادة قراءتها. وكانت تضيئه الأنوار الملائكية. ولم يكن يرفع بصره عن الصحائف إلا لماماً، وخصوصاً عندما يحس بفتح الباب.

وقرأ أخوه، أوريليانو الثاني، في نظرته قدر جده المحتوم واضحاً جلياً في عيني أخيه. قال خوزيه أركاديو الثاني :

ـ كانوا أكثر من ثلاثة آلاف. أنا على يقين أنهم جميعاً توافدوا إلى المحطة.

ولم يضف إلى ذلك كلمة أخرى.

(١٦)

استمرّ هطول المطر أربع سنين وأحد عشر شهراً ويومين اثنين. وتخللت هذه المدة فترات كان المطر خلالها يتساقط رذاذاً، يتفاءل الناس به. وكأنهم يمرون بما يشبه النقاهة من مرض ألمّ بهم. فاحتفلوا بزوال المطر. ولكنهم اعتادوا، بعد ذلك، أن تلك الفترات من توقف المطر لم تكن دليل نكسات. فقد كانت السماء تلقي ما في جوفها، اندلاق المياه من أفواه القرب، في جلجلة وهزيم رعد ووميض برق، وعواصف وزوابع لا تبقي ولا تذر. ويرسل الشمال عاتي عواصفه، فتقتلع سقوف البيوت، وتهدم جدرانها، وتستأصل الأشجار من جذورها. وكما كان يحدث أيام مرض الأرق، الذي تذكرته أورسولا كثيراً في الأيام الأخيرة، كان البلاء نفسه يقود إلى ابتداع الوسيلة للتغلب على السأم. وكان أوريليانو الثاني من أكثر الذين بذلوا جهوداً جبارة للتغلب على الفراغ.

وقد مرّ بالبيت، ذات يوم، لسبب غير ذي بال من الأسباب. واتفق ذلك مع الليلة التي أطلق فيها السيد جاك براون العنان لعاصفة المجزرة. فقدمت له فيرناندا مظلة قديمة عثرت عليها على أحد الرفوف، علّه يتقي بها المطر في أثناء عودته. ولكنه قال لها :

ـ لا حاجة بي إليها. سوف أمكث هنا حتى ينقشع الغيم ويتوقف المطر.

ولم يكن مضطراً لذلك، إذ كان يستطيع أن يذهب. ولكنه اختار

البقاء. وخلال إقامته في البيت، كان يخلع ثيابه كل ثلاثة أيام، بينما يبقى في السروال، ريثما تغسل ملابسه، لأن حوائجه كلها كانت عند بيترا كوتيس. وقد عمد إلى التسلية والتسرية عن نفسه، لعله يزجي أوقات فراغه، بإصلاح ما خرب في الدار. فأصلح مفصلات الأبواب ومفاصلها، وشحّم الأقفال والغالات، وشدّ براغي المزالج ومساميرها، وعدّل ما كان مائلاً منها. وقد أمضى بضعة أشهر، يتنقل من مكان إلى آخر في الدار، وهو يحمل علبة الأدوات، التي يظن أن الغجر قد نسوها هناك أيام خوزيه أركاديو بوينديا.

ولسبب غامض من الأسباب، يمكن أن يعزى إلى الرياضة القسرية، أو إلى السأم الشتويّ، أو ما ينشأ من الإمساك عن تناول الطعام أو الرغبة عنه، بدأت سمنته تخف تدريجاً، وكأنه قربة ماء جلدية أصابها شيء من التنفيس. وغدا وجهه أشبه بسلحفاة فاغرة فاها وشحبت فغابت الدموية من عروقها. وخفّ الانتفاخ المزدوج تحت ذقنه، وبدا جسمه أقل تشوّهاً وصفاقة، وصار يستطيع ربط سيور حذائه بنفسه.

وعندما شاهدته فيرناندا يثبت مقابض الأبواب، ويصلح الساعات، دهشت وتساءلت في نفسها ما إذا كانت قد استهوته عادة صنع الأشياء وفكها وتركيبها، كما كان يفعل العقيد أوريليانو بوينديا في سمكاته الذهبية الصغيرة، أو كما كانت تفعل أمارانتا بأزرار ثيابها ثم بكفنها، أو كما كان يفعل خوزيه أركاديو الثاني بالرقاق والصحائف في عزلته، أو، أخيراً، كما كانت تفعل أورسولا بذكرياتها.

ولم يكن الأمر كذلك، فالذي حدث هو أن المطر كان يؤثر في كل شيء: فتنمو الأزهار والأعشاب بين عجلات الآلات إذا لم تزيّت مرة كل ثلاثة أيام. كما كانت أسلاكها تصاب بالصدأ، وتنمو أشتال الزعفران على الغسيل الرطب وفي المطارح الرطبة. ولم يكن الجو رطباً وحسب،

فقد فاضت المياه في كل مكان، حتى صار بوسع السمك أن يسبح داخلاً من الأبواب، متنقلاً بين الغرف، خارجاً من النوافذ.

استيقظت أورسولا ذات صباح، وهي تشعر بدوار خفيف. وأدركت أن نهايتها قد اقتربت. فطلبت أن يؤتى لها بالأب أنطونيو إيزابيل، حتى ولو جيء به محمولاً. ولكن سانتا صوفيا اكتشفت، بعد فترة، أنّ طائفة من العلق كانت تغطي ظهرها. فانتزعوها لها، واحدة بعد الأخرى، بكيّها بالحديد المحمى، قبل أن تمتص دمها. وفُرض على أهل الدار أن يحفروا في باحاتها قنوات لتصريف المياه، وتخليص الدار من الضفادع والحشرات المائية الأخرى. وبذلك تجف أرض الدار والغرف، ويمكن عندها رفع قطع القرميد التي وضعت تحت قوائم الأسرّة بسبب الماء، كما يمكن لأهل البيت أن يتنقلوا بأحذيتهم فيه.

واستغرق ذلك العمل أوريليانو الثاني، وملأ كل وقته، حتى إنه لم يفطن إلى علامات الشيخوخة التي بدأت تظهر عليه. وحلّ يوم غابت شمسه مبكرة، بينما كان يتأملها، وإذا به فجأة يذكر بيترا كوتيس دون أن ترتجف له جارحة. وكان عندها لم يعد يجد غضاضة في الرجوع إلى حب فيرناندا السقيم، بعد أن أمدها تقدم العمر بمهابة أضيفت إلى جمالها. ولكن تواصل المطر كان ينجيه من نزق العواطف، ويرفده بصفاء النفس، الذي كان بدوره يستغرق نهمه. واستسلم للتأمل في ما كان يمكنه أن يفعل في أثناء هطول المطر، الذي كان قد مضى على بدايته قرابة عام.

كان أوريليانو الثاني من أوائل الذين استوردوا صفائح التنك إلى ماكوندو. فسبق بذلك شركة الموز، إذ كان له الفضل بجعل استعمالها في البيوت أمراً مألوفاً ومرغوباً فيه. ولم يكن غرضه، حينذاك، أبعد من أن يغطي بالصفائح غرفة نوم بيترا كوتيس، ليسعد بإحساسها العميق

بالحب والمودّة والرقة، لدى سماعها أصوات تساقط المطر عليها. ولكنه ظل متبلد الحس إزاء الذكريات البلهاء العائدة لأيام شبابه الطائش. وكأن أخريات حفلاته الماجنة قد استنفدت كل ميله الموروث إلى البذخ والتبذير. فلم يبق له من ذلك سوى القدرة، على تذكره دون مرارة ودون عذاب الضمير. وكأن الطوفان قد وفّر له فرصة للخلوّ إلى نفسه والتأمل في أحواله. وكأنّ حمى أدوات التصليح حركت في نفسه طاقات كامنة فيه لممارسة حرف ومهن كثيرة كان يستطيع مزاولتها، ولكنه لم يفعل طوال عمره إذ لم تمكنه ظروفه من الاختيار والقرار. وأغرته الحياة العائلية الهادئة، وطغى عليه ميل للاكتفاء بالميسور، مع الانصراف كلياً إلى التأمل في الحياة.

ولم يكن الميل وليد ساعته، فقد كان مزروعاً فيه منذ زمن بعيد، وجاء المطر لينبشه من جوف باطنه. وكان سبق لهذا الميل أن نما وترعرع في الفترة التي كان يقرأ فيها، في غرفة ملكيادس، القصص عن بساط الريح والحيتان الهائلة التي تلتهم السفن بركابها، وغيرها من قصص العجائب.

كان خروج أوريليانو الصغير إلى الشرفة، خلال لحظة إهمال من فيرناندا في يوم كذلك اليوم. وعندها علم جده بسرّ وجوده. فقصّ له شعره، وألبسه ثياباً، وعوّده ألاّ يخاف الناس بعد اليوم. ثم ما لبث أن تبيّن أن ذلك الصغير شبيه كل الشبه بالعقيد أوريليانو بوينديا، بوجنتيه البارزتين، ونظرته الساهمة الذاهلة أبداً، وسلوكه الانفرادي المتوحد.

وهدأت وساوس فيرناندا، واطمأنّ بالها. فقد أدركت، منذ وقت طويل، أنها كانت قد تمادت في غرورها وكبريائها. وودّت لو تستطيع أن تصلح الأمور، ولكنها لم تعرف إلى ذلك سبيلاً. كانت دائمة التفكير في الحلول، ولكنها لم تجد حلاً واحداً مقبولاً. فلو أنها علمت، من قبل،

أن أوريليانو الثاني كان من الممكن أن يحمل المسألة محمل العاطفة، ويتقبلها بحب الجد الطيب، لأمكنها أن تجنب نفسها العناء وعذاب سنة بكاملها من التردد ومحاولات التمويه في الوقائع على الآخرين.

وقد وجدت أمارانتا أورسولا، التي بدأت أسنانها بالظهور، في ابن أختها سلوى رائعة لها من الملل الذي يسببه تواصل هطول المطر. وتذكر أوريليانو الثاني الموسوعة (الأنسيكلوبيديا) الإنجليزية في غرفة ميمي القديمة. فبدأ يعرض الصور على الطفلين، ولا سيما صور الحيوانات، ثم الخرائط الجغرافية وصور البلدان النائية، والشخصيات المشهورة. ولما كان يجهل اللغة الإنجليزية جهلاً تاماً، ولا يستطيع أن يميز سوى المدن والشخصيات المشهورة، فقد جعل يخترع الأسماء والقصص الخرافية، عله يشبع رغبة الأطفال في حب الإطلاع، التي لا تعرف الحدود.

كانت فيرناندا على يقين شبه تام من أن زوجها، أوريليانو الثاني، لا بد عائد إلى محظيته، ولم يكن ينتظر سوى توقف المطر. ولكم كانت تخشى، في شهور المطر الأولى، أن يحاول الدخول عليها في غرفة نومها، فتعاني من مغبة إعلامه بأنها، منذ ولادة أمارانتا أورسولا، لم تعد قادرة على إرضاء رغائبه. ولقد كان هذا الأمر سبب مراسلاتها المحمومة مع الأطباء المجهولين. وقد انقطعت تلك المراسلات نتيجة للكوارث التي حلت بالبلدة وعطلت البريد. وكان سبق لها في الأشهر الأولى من الاضطرابات، التي شاع فيها أن القطارات كانت تخرج عن خطوطها، أن استلمت رسالة من الأطباء المجهولين تفيد أن رسائلها لا تصلهم.

ولما توقفت صلات التراسل بين فيرناندا والأطباء المجهولين، فكرت جدياً بأن تضع على وجهها قناع النمر الذي لبسه زوجها يوم المهرجان الدامي، لكي يفحصها أطباء شركة الموز، بعد أن تتخذ لها اسماً مستعاراً، فلا يعرفها أحد. وحال دون تنفيذ تلك الخطة أنّ واحداً من

الذين اعتادوا زيارة البيت، لينقلوا أخبار الطوفان إلى أهله، قد أعلمها أن شركة الموز قد فككت مستوصفها ونقلته إلى مكان تقل فيه الأمطار. وعندها فقدت فيرناندا الأمل، وقررت أن تنتظر توقف الأمطار، وعودة خدمات البريد. وخلال فترة الانتظار، كانت تعمد إلى تخفيف آلامها ومعاناتها المكبوتة بوسائل من ابتكارها. فقد كانت تفضل الموت ألف مرة على الطبيب الوحيد الباقي في ماكوندو. وهو طبيب فرنسي غريب الأطوار، يتغذّى بالعشب كالحمير.

وتقرّبت فيرناندا من أورسولا، علّها تجد عندها علاجاً لما تحطم فيها. ولكن عادتها في الالتواء، وعدم تسمية الأشياء بأسمائها، كانت تجعلها تعكس الأشياء، فتقدم ما ينبغي أن تؤخر، وتستعمل «أخرج» أو «نفى» بدلاً من «ولد» أو «أنجب»، و«الحريق» بدلاً من «التدفق»، و«الانزعاج» بدلاً من «الالتهاب»، لعلها تخفف بذلك من خجلها مما تتحدث عنه. فاستنتجت أورسولا من حديثها عن مرضها أن الأعراض أعراض مرض معويّ لا أعراض مرض مهبلي. فنصحتها بأن تتناول، قبل الطعام، جرعة من الكالوميل.

والواقع أن المطر لو لم يهطل، فيزيد من آلام فيرناندا ويسبب انقطاع مراسلاتها، لما اختلف الأمر عندها كثيراً. فقد أمضت حياتها بطولها وكأن المطر متواصل لا ينقطع أبداً. ولم يكن مرض فيرناندا مما يسبب لصاحبه خجلاً، إلاّ إذا كان مصاباً أصلاً بمرض الخجل. وهكذا، لم تعدّل فيرناندا مسار حياتها اليومية. فقد رفعت طاولة الطعام على ألواح من القرميد، ورفعت الكراسي على قطع من الخشب، لتجنب الطاعمين بلل أقدامهم. ولم تنس أغطية الكتان والأواني الصينية والشمعدانات وقت العشاء.

كان من رأيها أن الكوارث الطبيعية لا تستأهل أن يغير الإنسان تقاليده

الرفيعة.

ولم يخرج أحد من الدار خلال تلك الفترة. ولو كان الأمر بيد فيرناندا، لما أذنت لأحد بالخروج حتى قبل أن يهطل المطر بزمن طويل. ذلك أن الأبواب، عندها، قد اخترعت لكي تظل مغلقة. أما حب النظر إلى ما يجري في الشوارع فقد كان عندها من عادات الساقطين والساقطات. وعلى الرغم من ذلك، كانت هي أول من نظرت إلى ما كان يجري في الشارع عندما وصلها نبأ مرور جنازة العقيد جيرينيلدو ماركيز. يومها جلست قرب النافذة، وهي نصف مفتوحة، تشهد الجنازة، وقد غمرها حزن شديد. ولكنها أنّبت نفسها، من بعد، وأسفت أسفاً شديداً رافقها مدة طويلة، بسبب لحظة الضعف تلك التي مرت بها.

لم يكن بوسع فيرناندا أن تتصور جنازة في مثل بؤس تلك الجنازة، أو تثير ما أثارته من الحزن. فقد وضع النعش على متن عربة تجرها الثيران، وتجلله قبة مبنية من أوراق شجر الموز. وكان المطر ينهمر غزيراً، مما يجعل الشوارع مليئة بالوحل والعثير، فتتعثر عجلات العربة، بين الخطوة والأخرى، وتكاد تنهدم القبة المرفوعة فوق النعش. وكانت جداول المطر الحزين المنهمرة تغسل العلم المرفوع فوق النعش، وهو ذلك العلم نفسه الملطخ بالدم والتراب ومسحوق البارود، والذي طالما كان ينكره أشجع المحاربين المخضرمين. وقد رُكِز فوق النعش أيضاً ذلك السيف المعروف بعدلياته النحاسية والفضية، وهو السيف نفسه الذي كان العقيد جيرينيلدو ماركيز يعلقه على المشجب في الصالة، قبل أن يدخل بلا سلاح إلى مشغل خياطة أمارانتا.

وكان يسير وراء العربة بعض الحفاة، وقد رفعوا أرجل بناطيلهم. وهم آخر الأحياء ممن شهدوا معاهدة الاستسلام في نيرلانديا. كانوا يخوضون في الوحل، يحمل الواحد منهم بإحدى يديه عصا، هي مهماز الفلاحة،

ويحمل باليد الأخرى إكليل زهر أفسد المطر ألوانه. فكانوا يبدون، من بعيد، كأنهم سراب يتراءى في الشارع الذي ما يزال يحمل اسم العقيد أوريليانو بوينديا. فإذا ما قاربوا دار العقيد ألقوا نظرة عليها قبل أن يصلوا إلى زاوية الساحة العامة. وهناك طلبوا المعونة من الآخرين، كي يساعدوهم في إخراج العربة من الوحل الذي علقت فيه.

في تلك اللحظة، طلبت أورسولا من سانتا صوفيا أن تحملها إلى عتبة الدار، حيث تابعت مسيرة الجنازة باهتمام شديد، لم يكن بوسع أحد أن يقدر معه أنها كانت لا ترى. وقد رفعت يدها الملائكية الرسولية تحركها على وقع عجلات العربة. ثم صاحت قائلة :

- وداعاً يا جيرينيلدو. وداعاً يا بنيّ. بلغ تحياتي لأحبائي، وأبلغهم بأنني سوف أراهم عندما يتوقف المطر عن الهطول.

وأعانها أوريليانو الثاني في العودة إلى سريرها، وسألها، بمرحه المعهود معها، عن معنى ذلك الوداع. فقالت له :

- إنها الحقيقة. فأنا لا أنتظر إلاّ توقف المطر كي أموت.

استرعت حالة الشوارع المزرية انتباه أوريليانو الثاني. ونبّهته. فقد قلق، أخيراً، بشأن مصير حيواناته. فوضع وعاء مشمّعاً على رأسه وكتفيه، ومضى مباشرة إلى بيت بيترا كوتيس. فوجدها في فناء الدار، وقد غمرتها المياه حتى خصرها وهي تحاول تعويم جثة حصان نافق. فتناول أوريليانو الثاني رافعة حديدية، وساعدها في تعويم الجثة. فدار الحيوان المنتفخ حول نفسه كالجرس، ثم انزلق في سيل الطين المائع.

كانت بيترا كوتيس تمضي وقتها كله، منذ ابتداء هطول المطر، بإخراج الحيوانات الميتة من حظائرها في ساحة الدار. وقد أرسلت، خلال الأسابيع الأولى، رسائل كثيرة إلى أوريليانو الثاني، تستدعيه لمساعدتها في معالجة الأمر. ولكنه كان يجيب بأن لا لزوم للسرعة، إذ إنّ الوضع

لم يبلغ درجة الخطورة، وبأنه سيفكر بعمل معيّن عندما يتوقف المطر ويصفو الجو. ثم أخبرته أن المراعي قد غرقت بالمياه، وأن الحيوانات صارت تلجأ إلى الهضاب، حيث لا يوجد غذاء كاف لها، وحيث تتعرض لهجمات الذئاب إذا سلمت من المرض. فأجابها أوريليانو الثاني : «لا نستطيع عمل شيء. وسوف تولد حيوانات أخرى عندما يصفو الجو وينقطع المطر».

وهكذا شهدت بيترا كوتيس موت قطعان كاملة من الحيوانات، جماعات جماعات، ولم تكن تستطيع أن تذبح منها إلاّ ما كان يغوص ويعلق في الوحل. وقد شهدت الطوفان، وهي لا حول لها ولا طول على فعل شيء، يقضي بلا رحمة ولا رأفة على ثروة كانت، حتى عهد قريب، أكبر ثروة وأقواها في ماكوندو. ولم يبق لها من كل ذلك الآن سوى رائحة النتن. وعندما قرر أوريليانو الثاني أن يذهب إليها ليرى ما كان يجري هناك، لم يجد سوى جثة الحصان، وبغلة عجفاء تنتظر في خرائب الإسطبل.

نظرت إليه بيترا كوتيس، وهو قادم نحوها بلا دهشة ولا فرح ولا حقد. ولم تعبر عن الموقف والحال التي كانت فيها إلاّ بابتسامة ساخرة. وقالت :

- إنه الوقت المناسب تقريباً. ولم يكن بالإمكان أفضل مما كان.

لقد شاخت بيترا كوتيس، ولم يبق منها سوى الجلد والعظم. وعيناها اللتان كانتا كحربتي رمح، أو كعيني ذئبة مفترسة، صارتا حزينتين بعد أن دجّنهما طول التحديق في المطر. وأقام أوريليانو الثاني عندها نيفاً وثلاثة أشهر، ليس لأنه شعر بأن حاله عندها كانت أحسن من حاله لدى أهله الذين كانوا في انتظاره، بل لأنه احتاج إلى كل ذلك الوقت لكي يتخذ قراره بأن يضع ذلك الوعاء المشمّع على رأسه وكتفيه. كان يردد ما كان

يقوله في البيت الآخر :

ـ لا حاجة للعجلة. فلننتظر، لعلّ المطر يتوقف في الساعات الآتية.

وقد بات، في الأسبوع الأول، قادراً على أن يألف آثار الزمن والمطر على وجه حبيبته وفي صحتها. ورويداً رويداً، عاد ينظر إليها فيراها كما كانت من قبل. فتذكر دلالها ومرحها، وما كان عشقها يولده من خصوبة غريبة في الحيوانات. وأيقظها من نومها، ذات ليلة في الأسبوع الثاني، في دعوة لشيء من الحب، بشيء من الملاطفة والمداعبة المفاجئتين. فتمنّعت بيترا كوتيس ولم تستجب، قائلة بصوت خفيض :

ـ عد إلى نومك. فليس هذا الأوان المناسب لمثل هذه الأمور.

وحانت نظرة من أوريليانو الثاني، فشاهد نفسه في مرايا السقف، ورأى عمود بيترا كوتيس الفقري، كأنه سلسلة من حلقات ثُبّتت في سفّود متعنقد من أعصاب مهترئة ذابلة. فأدرك أنها كانت على حق، لا بسبب الزمن، بل بسبب منها ومنه، بسببهما معاً، لأنه لم تعد تشدهما تلك الأمور.

وعاد أوريليانو الثاني إلى بيته حاملاً حقائبه، وهو متيقّن أن أهل ماكوندو جميعاً، وليس أورسولا وحدها، كانوا ينتظرون انقطاع المطر كي يموتوا. كان يشاهدهم عابرين، أو قابعين في قاعات جلوسهم، تائهة أبصارهم، وقد صالبوا أيديهم على صدورهم، وهم يشعرون بأن الزمن كان يمضي دفعة واحدة، وهو زمن لا يرحم، لا يفيد فيه تقسيمه إلى شهور وسنين، وأيام وساعات، ما دام المرء لا يستطيع فيه أن يصنع شيئاً غير أن يحدّق ويطيل التحديق في المطر، وأن يتأمل ويطيل التأمل في المطر.

واستقبل الطفلان أوريليانو الثاني بفرح غامر. فأخذ يعزف لهما على الأكورديون السقيم. ولكن جلسات الموسيقى لم تشدهما كما شدّتهما

جلسات الإطلاع على الموسوعة أو الجلسات الأنسيكلوبيدية. فاستأنفاها معه في غرفة ميمي. ولعب خيال أوريليانو الثاني بالصور لعبته. فصار المنطاد الموجه فيلاً طائراً يبحث عن مكان يرقد فيه بين الغيوم. ووقع نظره، ذات يوم، على صورة فارس مهيب غريب الأبهة، تشبه هيئته هيئة آل بويندبا. فتأمله طويلاً، وتوصل إلى أن الصورة هي صورة العقيد أوريليانو بويندبا. وأراها لفيرناندا فوافقت على الشبه بين الفارس والعقيد، بل بينه وبين كل أفراد عائلة بويندبا، ولو أنها أضافت أن الأمر لا يتعدى كونه محارباً تترياً.

وهكذا، راح أوريليانو الثاني يمضي وقته بين عملاق رودس وسحرة الأفاعي. وجاءته زوجته مرة تخبره أنه لم يبق في مخزن البيت سوى كيلوغرامات من اللحم وكيس واحد من الأرز. فسألها :

ـ وماذا ينبغي أن أفعل؟.

فأجابت قائلة :

ـ لا أدري، فهذا شأن من شؤون الرجال.

فقال أوريليانو الثاني :

ـ لا بأس. فسوف تتدبّر الأمر عندما يتوقف المطر. وعاد إلى الموسوعة الإنجليزية، يهتم بها أكثر من اهتمامه بتلك المشكلة البيتية. وقد بلغ به الوضع أن اضطر للاكتفاء، في غذائه، بقطع صغيرة من اللحم وقليل من الأرز. وكان يدأب على القول :

ـ يستحيل أن نفعل الآن شيئاً. ولكن المطر لن يدوم طوال العمر.

وكان كلما أجال نظره في حاجات المؤونة الملحّة، ازدادت فيرناندا غضباً. فكانت تحتج حيناً، وتعارض حيناً آخر، ولكنها تنفجر حيناً ثالثاً. ثم تحولت تلك النزوات العارضة إلى سيل عارم من التمرد والثورة. وبدا

تعبيرها عن ثورتها، صباح ذات يوم، كنغم صادر عن قيثارة ذات وتر وحيد. وراح يرتفع مع مضي النهار ويشتد مع تقدم ساعاته. وكانت ثورتها تتخذ شكل تعنيف، لا يهدأ ولا ينقطع، لأوريليانو الثاني. ولم ينتبه الأخير إلى تلك الطريقة في تعنيفه إلاّ بعد فطور اليوم التالي، فقد سمع تلك الدمدمة التي لا ينفك صداها يتردد في أرجاء البيت. ثم صفا الصوت وبان، مرتفعاً فوق هسهسات المطر. وكان الصوت صوت فيرناندا، وهي تروح وتجيء، ساعية في البيت، شاكية من أنها نُشِّئت وربيت كملكة، وانتهى أمرها إلى خادمة في بيت مجانين. فزوجها رجل كسول، وثني، داعر. ينام ملء جفنيه غير مبال، وينتظر أن تملأ السماء بيته خبزاً وسمناً وعسلاً. بينما تكد هي وتشقى، حتى تعدم كليتيها وهي تحاول أن تنقذ من الغرق بيتاً لم يعد يمسك بعضه إلى بعض سوى بقية باقية من دبابيس الضمادات والأربطة المهلهلة. أما العمل في البيت فيبدأ بعد بزوغ أشعة الشمس الأولى، ويكون متواصلاً لا يطاق ولا ينتهي حتى يحلّ الليل، فترقد فيرناندا في سريرها منهكة، وقد امتلأت عيناها قذى وغباراً. وفوق كل ذلك وبعده لا تجد من يقول لها كلمة طيبة أو من يحييها بتحية «صباح الخير»، أو يهتم بسؤالها ما إذا كانت ليلتها هادئة طيبة. لم يكترث أحد بها ليسألها، مثلاً، لماذا يبدو وجهها شاحباً أصفر، ولماذا تظهر حوالي عينيها، في الصباح، دوائر بنفسجية. ولم تكن فيرناندا، بطبيعة الحال، تتوقع مثل تلك الأمور من أفراد عائلة ما انفكت تعتبرها من المنغصات والمزعجات، أو خرقة بالية عتيقة تستخدم للقبض على القدر على النار، اتقاء حرّها. تلك العائلة التي كانت ترى فيها ما يشبه فزّاعة مرسومة على جدار، وتنم عليها في زوايا الدار، فتنعتها تارة بالمتدينة الورعة (فأرة الكنيسة)، وتارة أخرى بالفرنسية وبابنة القصور المتعجرفة الوقحة.

حتى أمارانتا نفسها، يرحمها الله، تجرأت عليها مرة، وزعمت بصوت عال أنها تخلط بين قفاها والجمعة العظيمة، أستغفر الله، لقد سمعت كل ما يمكن أن يسمعه الإنسان، وأسوأ ما يمكن أن ينتظره. واحتملت كل ذلك، دون أن تتلفّظ بكلمة واحدة، وأسلمت أمرها للأب الأزليّ، ربها. ولكنها لم تستطع أن تحتمل ما فوق ذلك، حين زعم ذلك الشرير، خوزيه أركاديو الثاني، أن فساد العائلة واللعنة التي حلّت بها قد نجما عن أنها سمحت بالدخول عليها لامرأة دعيّة جبلية تافهة ـ تخيلوا أيها الناس ـ دعيّة تافهة جبلية كانت واحدة من بنات المناطق العالية ـ ماذا بقي يا ربّ؟! ـ دعيّة دمها أزرق، من جبلّة الأوباش أبناء الجبال الذين جلبتهم الحكومة كي يذبحوا العمال. تُرى، هل كان يعني شخصاً غيرها؟؟.

ويتابع زعمه قائلاً: فأخبروني، مشيراً إلى فيرناندا، عن تلك البنت التي كان عرّابها دوق ألبا، وعن سيدة من تلك السلالة كانت تسبب الأضطراب في أكباد زوجات رؤساء الجمهوريات بسبب الغيرة، سيدة مثلها سليلة دم نبيل، تملك حق التوقيع بأحد عشر اسماً كلها من الوطن الأم، ابيريا، وهي الكائنة الحية الوحيدة الباقية من بلدة حافلة باللقطاء، والتي ما كانت لترتبك باستعمال ستة عشر طقماً من أدوات الطعام الفضية عندما تراها، حتى إن زوجها الداعر يكاد يموت ضحكاً، فيما بعد، وهو يقول: إن هذا العدد من الملاعق والشوكات والسكاكين لم يقصد به أن يكون للبشر، بل للزواحف. وهي الوحيدة التي كانت تستطيع أن تميز، وعيناها مغمضتان متى يقدّم النبيذ الأبيض، ومن أية جهة، وفي أي كأس، ومتى يقدم النبيذ الأحمر، ومن أية جهة، وفي أي كأس. وهي ليست كالفلاحة أمارانتا ـ يرحمها الله ـ التي كانت تظن أن النبيذ الأبيض يقدّم في النهار، بينما يقدم النبيذ الأحمر في الليل، وهي

المرأة الوحيدة، في منطقة الساحل، التي يمكنها أن تفخر بأنها لم تقض قط حاجتها إلا في إناء مذهّب. ومع ذلك تجرأ العقيد أوريليانو بوينديا ـ رحمة الله عليه ـ فسألها بلؤمه وخبثه الماسوني، من أين لها ذلك، وكيف استحقت هذا الامتياز، وما إذا كانت تخرج برازاً عادياً أم أنها تخرج ريحاناً (حبقاً) ـ فتأملوا هذا الكلام نفسه. حتى ريناتا، ابنتها ذاتها، اختبأت مرة، وراقبتها وهي تتغوّط في غرفتها، وقالت لها: إنّ الإناء فعلاً ذهب خالص وعليه شعار العائلة، ولكن ما فيه ليس سوى غائط عادي، غائط عضويّ، لا يختلف عن غائط أي من الناس إلا بأنه أسوأ، لأن صاحبته دعيّة سخيفة من بنات الأراضي المرتفعة. فتأملوا، حتى ابنتها هي كان هذا موقفها منها. فماذا كانت تتوقع من سائر أفراد العائلة. ولكنها، على الرغم من ذلك، كانت محقة في أن تتوقع من زوجها بعض الاحترام، لأن قدسية الزواج تجعله شريكاً لها في السرّاء والضرّاء، وحافظاً لحقوقها، وفاضّاً شرعياً لبكارتها. وهو الذي أخذ على عاتقه، بكل حرية وإرادة ووقار، المسؤولية الكبرى بإخراجها من قصر أهلها العتيق، الذي كانت تعيش فيه دون أن تشعر بالحرمان إزاء أي شيء أو بالألم من أي شيء. ولئن كانت تغزل فيه من سعف النخل أكاليل جنائزية، فلم يكن ذلك إلا عن لذة ومتعة وهواية تزجي بها أوقات فراغها. ذلك أن عرّابها نفسه قد كتب رسالة وقعها بيده ومهرها بخاتمه الشمعي على الغلاف، من أجل أن يقول إن يدي ابنته لم تخلقا لأعمال هذا العالم الأرضي، بل للعزف على آلة الكلافسان الموسيقية. وعلى الرغم من كل ذلك، أخرجها زوجها المعتوه من بيتها، بالتهديد والوعيد، وجلبها إلى هذه المنطقة الشبيهة بجهنم، وكأنه قدر حديدية موضوعة على النار، لشدة حرارتها التي لا يستطيع الإنسان فيها أن يلتقط أنفاسه. ومع ذلك، تركها وحدها، قبل انتهاء صوم العنصرة، راحلاً حاملاً معه صناديق الثياب وآلة الأكورديون الخاص بمجونه، كي يستمتع بالزنا مع

عشيقة شقية، يكفي أن ينظر المرء إلى قفاها ـ الذي قيل فيه ما قيل ـ ليرى حركة شبيهة بحركة مؤخرة الفرس، فيستنتج أنها امرأة. فقد كانت الصورة العكسية تماماً لفيرناندا، التي كانت تعرف كيف تظل سيدة، وتتصرف كسيدة، سواء أكانت في القصر أم في الإسطبل، على مائدة الطعام أم على السرير. فهي سيدة ماجدة من سلالة ماجدة، تخشى الرب وتأتمر بتعاليمه، وتخضع لمشيئته. ولكنها ليست المرأة التي تقبل بالخلاعة، أو ترضى بالعيش عيش الحفاة، التي يعيشها مع عشيقته التي تقبل بأي شيء، تماماً كالمومسات الفرنسيات، بل هي أسوأ منهن، لو كان له عقل يفكر به، لأنهن صادقات مع أنفسهن، على الأقل، فيضعن المصابيح المضيئة باللون الأحمر على أبوابهن. كل التفاهات والسفاهات. تخيلوا. وتأملوا. فلم يكن ينقص غير هذا، لبنت الدو ريناتا أرغوته والدون فيرناندو دبل كاربيو العزيزة الحبيبة. وأخص بالذكر، طبعاً، الإنسان القديس الذي يعد من أرقى طبقات المسيحيين، والفارس الحامل لوسام القبر المقدس، والمنتمي لطبقة الأخيار الذين شاء الله لهم أن تبقى أجسادهم سليمة صحيحة، كما هي، لا تبلى في قبورها، وأن تبقى جلودهم نظيفة لامعة كطيلسان ثوب العروس، وأن تبقى عيونهم حية صافية كحبات الزمرّد.

وهنا قاطعها أوريليانو الثاني قائلاً:

ـ ليس هذا صحيحاً. فعندما جيء به إلى هنا كان قد بدأ يتفسّخ وتفوح رائحته.

فقد احتمل الاستماع إليها النهار بطوله، حتى أمسك بها، متلبسة، في هذه الغلطة. ولم تكترث هي لمقاطعته وقوله، ولكنها خفضت صوتها. وتابعت في المساء عند وقت العشاء، فكانت دمدمتها بالشكوى تطغى على أصوات تساقط المطر. وتناول أوريليانو الثاني قليلاً من

الطعام خافضاً رأسه، ثم انسحب إلى غرفته مبكراً.

وفي اليوم التالي، عند الفطور، كانت فيرناندا ترتجف، وتشير هيئتها إلى أنها قد أمضت ليلة سيئة، ولو أنها أزاحت عن قلبها عبئاً كان يثقلها. وعلى الرغم من ذلك، وعندما سألها زوجها ما إذا كان يستطيع أن يأكل بيضة مسلوقة، لم تكتف بالقول إن البيض قد نفد قبل أسبوع، بل اندفعت بتأنيب وهجاء مقذع مرّ للرجال الذين لا همّ لهم سوى النظر إلى سرّة المرأة، ثم يطلبون أن تعدّ لهم وجبة طعام من كبد الطير.

وعندها صحب أوريليانو الثاني الطفلين، كالعادة، لمتابعة النظر في الموسوعة (الأنسكلوبيديا) الإنجليزية. وتظاهرت فيرناندا بأنها كانت تريد ترتيب غرفة ميمي، كي تسمعه ما تقوله من أنه لا بد له من قدرة كبرى على الرياء والكذب حتى يزعم للطفلين المسكينين أن صورة العقيد أوريليانو بوينديا هي الموجودة فعلاً في الموسوعة. وعندما أوى الطفلان إلى مكان قيلولتهما، لاذ أوريليانو الثاني بالشرفة، حيث جلس وحده، فلاحقته فيرناندا إليها. فوخزته بكلامها وعنّفته وقرّعته، وهي تواصل الدمدمة بالشكوى، كذبابة. وراحت تصفه كيف يجلس متأملاً هطول المطر كسلطان فارسي وليس في البيت ما يدور به لسان في فم. فهو زير نساء خامل كسول، لا نفع فيه ولا قيمة له، رخو كضمة قطن، تعوّد أن يعيش على حساب النساء، ثم أقنع نفسه أن بنى بزوجة كامرأة يونس التي كانت مقتنعة بقصة الحوت. واستمع إليها أوريليانو الثاني على مدى ساعتين دون أن تند عنه كلمة كأنه بات أصمّ. ولم يقاطعها حتى ساعة متأخرة من بعد الظهر. وعندها عيل صبره، ولم يعد يطيق سماع صدى صوتها يرنّ في أذنيه كطبل نحاسي يؤلم رأسه ويسبب له الصداع. فرجاها قائلاً:

- اصمتي، رجاء.

وبدلاً من أن تصمت، رفعت صوتها قائلة:

- ليس هناك ما يدعوني للسكوت. ومن كان لا يعجبه أن يستمع إليّ يستطيع أن يذهب إلى مكان آخر.

وهنا فقد أوريليانو الثاني السيطرة على أعصابه، فوقف دونما عجلة، كما لو كان يتمطى، وأمسك، بغيظ وحنق هادئ مكتوم منظم مدروس، بأصص الورود وأواني الأزهار من البيجونيا والخنشار والأورين، فألقى بها الواحدة بعد الأخرى أرضاً. وحطمها تحطيماً تاماً. وذعرت فيرناندا، التي لم تكن تدرك حتى ذلك الوقت ما كان يمكن أن يكون لقولها من أثر داخليّ هائل. ولكنّ إدراكها ذاك جاء متأخراً، حتى باتت إمكانية التراجع والتصحيح أمراً عسيراً. وكان أوريليانو الثاني، ثملاً بتيار الغضب الجارف، فكسر زجاج الواجهة. وفي منتهى التباطؤ والهدوء، راح يتناول أواني المائدة، الآنية بعد الأخرى. فيلقي بها أرضاً تتشظى أمامه قطعاً صغيرة تنتشر في كل مكان. وبأقصى ما يكون التأنق والهدوء، في الأداء، وببرودة الأعصاب التي زيّن بها، من قبل جدران الدار بالأوراق المالية، انطلق يسحق الكريستال البوهيمي بضرب قطعه بالحائط، وكذلك يفعل بالأواني والزهريات المزخرفة باليد، ويتبعها بلوحات العذارى السارحات في الجندولات المحملة بالزهور، فالمرايا ذات الأطر الذهبية، ثم كل ما يمكن تكسيره، ابتداء بقاعة الجلوس والمخزن، وانتهاء بالخابية (الجرة الكبيرة) القابعة في المطبخ، والتي أحدث انحطامها في وسط الدار دوي انفجار هائل مكتوم.

ثم غسل أوريليانو الثاني يديه، وألقى الغطاء المشمع فوق رأسه وكتفيه، وغاب. وعاد إلى البيت قبيل منتصف الليل بقليل، وهو يحمل بعض قطع اللحم المملح المجفف وبضعة أكياس من الأرز والذرة المخلوطة بالسوس، وبعض قطوف الموز المتغضن. ومنذ ذلك الحين لم يعد البيت

يعرف النقص في الغذاء.

كانت فترة الأمطار المتواصلة والطوفان فترة سعيدة في حياة أمارانتا أورسولا وأوريليانو الصغير. فعلى الرغم من قسوة فيرناندا، كانا يخوضان في المستنقعات الموحلة في أرض الدار، ويصطادان السحالي فيقطعانها إرباً، ويتظاهران بتسميم الشورباء بإلقاء أجنحة الفراش فيها، عندما تغفل عنهما سانتا صوفيا. وكانت أورسولا أفضل تسلية لديهما، فقد كانت عندهما لعبة كبيرة متهالكة، يجرانها في البيت من زاوية إلى أخرى، ويموهانها بلفها بخرق عتيقة ملونة، ويدهنان وجهها بالسخام أو مستحلب السمّاق. وكادا، ذات يوم، يفقآن عينيها بالمقص، كما يفعلان بعيون الضفادع. ولم يكن يفرحهما تخريفها وحديثها.

والواقع أنه كان قد اختلّ شيء ما في عقل أورسولا، في السنة الثالثة من زمن المطر. فقد بدأت تفقد الإحساس بالواقع شيئاً فشيئاً، وصارت تخلط بين الحاضر والماضي البعيد من حياتها. فقد بكت مرة بكاء متواصلاً دام ثلاثة أيام، حزناً لا يقبل العزاء، بسبب موت جدة جدتها، بيترونيلانا ايوران، وكان قد مضى على موتها نيّف وقرن. وانتهى بها الأمر إلى شيء من الضياع الغريب. فكانت ترى في أوريليانو الصغير ابنها العقيد أوريليانو في الفترة التي صحبه فيها أبوه كي يشاهد الجليد، وترى في خوزيه أركاديو، الذي كان يدرس في المدرسة الرهبانية، ابنها البكر الذي رحل مع الغجر.

وكثر حديث أورسولا عن العائلة وأفرادها وضيوفها، حتى جعل الطفلان يمثلان أناساً يجيئون لزيارتها، وهم أناس ماتوا منذ زمن طويل، أو عاشوا في فترات مختلفة من عمرها. وكانت أورسولا تجلس في سريرها، مغتبطة سعيدة، وقد غطى الرماد شعرها، واحتجب وجهها وراء منديل أحمر، تصغي لأخبار الأقارب الموهومين، والطفلان يرقبانها،

فلا تفوتهما ملاحظة دقائق الأمور وتفاصيلها، كما لو كانا يعيشانها. وتشرع أورسولا بمحادثة أجدادها عن أحداث سبقت ميلادها. فتسعد بما تسمع من أخبارهما أحياناً أخرى. وما لبث الطفلان أن أدركا، من ملاحظة لقاءاتها مع الأشباح، أنها كانت دائماً تطرح سؤالاً تستفسر فيه عمن جلب إلى البيت التمثال المصنوع من الجبس للقديس خوزيه، بالحجم الطبيعي، وطلب منها أن تحفظه له حتى يتوقف المطر.

وهكذا، تذكر أوريليانو الثاني، بهذه الطريقة، الثروة المخبوءة في مكان ما من الدار، والتي لم يعرف موضعها أحد غير أورسولا. فراح يلقي عليها أسئلة كثيرة، ذهبت كلها عبثاً، وكذلك ذهبت المناورات والحيل الذكية التي استخدمها. فقد كانت، كما يبدو، لا تزال تحتفظ ببقية من الإدراك والوعي، تمكنها، في ضياعها، من الدفاع عن سرها الذي لا تبوح به إلاّ لمن يثبت أنه صاحب الذهب المدفون فعلاً. وقد حافظت على مهارتها وقوّة ذاكرتها. فعندما علّم أوريليانو الثاني واحداً من أصحابه ورفاق ملذاته كيف يمثل أمامها دور الرجل صاحب الثروة، استطاعت أن توقعه في عدة أخطاء حين استجوبته طويلاً بأسئلة مليئة بالمصائد والمكائد الذكية.

وأخيراً، أيقن أوريليانو الثاني أن أورسولا سوف تحمل السر معها إلى القبر. فاستأجر مجموعة من الحفّارين، متذرعاً بحفر أقنية لتجفيف فناء الدار والساحة الخلفية، وبدأ يسبر غور الأرض بمعاول الحديد وكل أنواع الأدوات والأجهزة المعروفة الخاصة بالكشف عن المعادن. ومضى عليه ثلاثة أشهر، على تلك الحال، دون أن يعثر على ذهب أو ما يشبه الذهب، على الرغم من الحفر والتنقيب المضني.

فذهب إلى بيلار تيرنيزا، لعلّ أوراق اللعب تكشف ما لم يكشفه الحفّارون. وأكدت بيلار تيرنيزا وجود الكنز، وزادت على ذلك بأن

حدّدت مبلغه بسبعة آلاف ومئتين وأربع عشرة قطعة، مدفونة بثلاثة أكياس من القنب المطليّ بالقار، وقد شُدّت بأسلاك نحاسية، ووضعت في دائرة نصف قطرها ثلاث مئة وثمان وثمانون قدماً، ومركزها سرير أورسولا. وأضافت إلى ذلك قولها إنهم لن يعثروا على ذلك الكنز إلا بعد أن يتوقف المطر، وتعود شمس حزيران (يونيو) لتسطع أشهراً ثلاثة متوالية، فتحيل الطين إلى غبار.

وبدا لأوريليانو الثاني أن المعلومات التي قدّمتها بيلار تيريزا كثيرة، دقيقة التفاصيل في غموضها، حتى إنها لتشبه قصص الروحيين وحكايات مناجاة الأرواح. فبدأ في محاولاته، مع أنه كان في شهر آب (أغسطس)، وكانت أوراق اللعب تقضي بانتظار ثلاث سنين. ولكن الذي أذهل أوريليانو الثاني، وزاد في اختلاط الأمور عنده، هو أن المسافة بين سرير أورسولا وجدار الساحة الخلفية كانت فعلاً ثلاث مئة وثمان وثمانين قدماً تماماً.

وخافت فيرناندا أن يكون زوجها مجنوناً، كأخيه التوأم، عندما شاهدته منكباً على قياساته. وازداد خوفها عندما سمعته يصدر التعليمات للحفّارين بأن يجعلوا الأقنية أعمق من السابق بثلاث أقدام.

وسيطر على أوريليانو الثاني نوع من الدّوار، وشيء من حمّى الاكتشاف يمكن تشبيهه بذلك الذي أصاب جدّ أبيه عندما شرع يبحث عن طريق الاختراعات. وهكذا أضاع أوريليانو الثاني أواخر طبقات الشحم والدهن الكامنة في جسمه من الماضي، وعاد إلى الشبه بأخيه التوأم بوضوح تام. ولم يكن شبهه بأخيه النحيل من حيث قامته وحسب، ولكن من حيث الهيئة المتفردة، والتقوقع على الذات والانسحاب من حياة الناس أيضاً. ولم يعد يهتم بالطفلين كما كان يفعل من قبل. وصار يأكل في أوقات غير محدّدة وغير منتظمة، بينما الوحل

يغطيه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، في زاوية من زوايا المطبخ. ونادراً ما كان يجيب عن الأسئلة التي كانت سانتا صوفيا تطرحها عليه.

وعندما رأته فيرناندا يعمل على تلك الشاكلة التي لم تخطر لها، من قبل، على بال، ولم تتصور أنه يمكن أن يكون قادراً عليها، ظنت أن عناده دأب ومثابرة، وأن طمعه تضحية، وأن عناد رأسه اجتهاد ومواظبة. فتألمت وتمزق قلبها أسفاً لأنها عنفته بسبب ما ظنته كسلاً فيه.

ولكن أوريليانو الثاني لم يكن في وضع يجعله يقبل مصالحة أو اعتذاراً دافعه الإشفاق عليه، وقد سقط مرة، فغاص حتى عنقه في موحلة كبيرة تشكلت من الفروع اليابسة والأغصان الميتة والأزهار والأعشاب المتعفنة. وبعد أن فرغ من فناء الدار الخلفية، قلب عالي الحديقة سافلها. حتى إذا انتهى من كل ذلك، راح يحفر تحت الجناح الشرقي من البيت، ويذهب في العمق. وأفاق الناس ذات ليلة مذعورين ظناً منهم أن الذي سمعوه كان هزة أرضية، لشدة الارتجاج وأصوات التشقق المخيف الذي أحدث قرقعة هائلة. وقد نتج عن ذلك أن انهارت ثلاث من الغرف، وظهر تشقق مخيف كان يمتد من الشرفة حتى غرفة فيرناندا. وعلى الرغم من ذلك، لم يتوقف أوريليانو عن الحفر والتنقيب.

وعندما تلاشت آخر آماله، ولم يبق له سوى النكوص إلى النبوءة التي أشارت إليها أوراق اللعب، عاد إلى أساسات البيت التي خلخلها فدعّمها بالإسمنت، وسدّ الثغرة التي أحدثها. ثم بدأ الحفر تحت جناح البيت الغربي. واستمر في ذلك العمل حتى الأسبوع الثاني من شهر حزيران (يونيو) من السنة التالية. وعندها بدأ المطر يخفّ تدريجاً. وبدأت الغيوم ترتفع والسحب تتقشع شيئاً فشيئاً، وازدادت آمال الناس في أن يتوقف المطر بين لحظة وأخرى. وذات يوم جمعة، قرابة الساعة الثانية بعد

الظهر، ظهرت الشمس على البلاد والناس بنور باهت بليد خشن، كغبار القرميد، طريّ كما لو كان يحمل رذاذ ماء. وتوقف المطر. ولم تمطر السماء بعدها طوال عشر سنوات طوال.

بعد المطر الطويل، استحالت ماكوندو إلى خراب: فشوارعها مستنقعات مليئة بالأثاث المحطّم المحلّم، وقد نما على جثث الحيوانات وبقايا عظامها زنابق حمراء. وكانت تلك آخر الآثار من جموع الغرباء التي هجرت ماكوندو فراراً بنفس الجنون الذي جاءت به إليها.

صارت المساكن التي برزت فجأة، أيام حمى الموز، خاوية خالية. وأزالت شركة الموز جميع مؤسساتها، فما بقي من مدينتها القديمة المسيّجة سوى الخرائب. فكأن البيوت الخشبية والباحات التي كانت أمامها، تشهد بعد الظهر لعب الورق بهدوء، قد مرّ بها إعصار مجنون فنسفها ومحاها، كما سيمحو ماكوندو نفسها عن وجه الأرض بعد سنوات من ذلك التاريخ. فالأثر الإنساني الوحيد، الذي بقي بعد العاصفة، هو قفاز لباتريسيا براون، مهجور في سيارتها التي غطتها الأزهار البرية. أما المنطقة التي اكتشفها خوزيه أركاديو بوينديا في فترة تأسيس القرية، وازدهرت أيام زراعة القطن، فقد استحالت إلى مقالع للجذور المتفحمة، ولكن المرء يستطيع أن يرى من خلال أفقها ثبج البحر الهادىء.

في يوم الأحد الأول، الذي استطاع فيه أوريليانو الثاني أن يرتدي ثياباً جافة، خرج يستطلع أوضاع البلدة وأخبارها، فعاش أزمة قاسية، وغمره حزن شديد. فالسكان الذين نجوا من الكارثة كانوا هم أنفسهم سكان ماكوندو الأصليون قبل أن تهز بلدتهم عاصفة شركة الموز. وقد رآهم أوريليانو الثاني يجلسون وسط الشوارع، يعرضون أجسامهم لنور الشمس، وما زالت على أجسادهم خضرة الأشن، تفوح منها رائحة الجبس وعفن البلل. ولكن المرء يستطيع أن يلمح على وجوههم الفرح.

فأخيراً، استعادوا بلدتهم مهبط رؤوسهم.

وعاد شارع الأتراك إلى ما كان عليه من قبل، عندما كان العرب بأخفافهم والأقراط في آذانهم، يجوبون العالم، يبدلون بالببغاوات الألعاب، أيام وجدوا في ماكوندو بقعة صغيرة من الأرض يحطون الرحال فيها، ويستريحون من عناء رحيلهم التاريخي وتجوالهم في أنحاء المعمورة.

كانت البضائع في الأسواق، خلال سني المطر، تتساقط كالحساء، ويتلوّن المعروض منها على الأبواب بألوان الطحالب والطفيليات. وقد عاث الدود بواجهات الخشب، وتآكلت الجدران بفعل الرطوبة. ولكن عرب الجيل الثالث كانوا يجلسون في المكان نفسه، في الموضع الذي جلس فيه آباؤهم وأجدادهم، صامتين، لا يهزهم الخطر، ولا ينال منهم الزمن، ولا تضعضعهم الكارثة. فقد ظلوا، كعهدهم، بعد وباء الأرق وخلال حروب العقيد أوريليانو بوينديا الاثنتين والثلاثين. فهم لا يتغيرون في حالي الحياة والموت. فلقد أظهروا قوة روحية عجيبة، صامدين أمام بقايا موائد اللعب، وعربات باعة المقليات، وبسطات التصويب وإصابة الهدف، وفي الشارع الصغير الذي كانت تفسر فيه الأحلام ويقرأ المستقبل.

وعندما سألهم أوريليانو الثاني، بطريقته المرحة المألوفة، عن الوسيلة الخفية التي استعانوا بها كي ينجوا من الكارثة العامة، وماذا فعلوا حتى سلموا من الموت غرقاً، أجابوه جميعاً، واحداً بعد الآخر، ومن باب لباب، وهم يبتسمون له ابتسامتهم الذكية، وينظرون إليه نظرتهم الحالمة بجواب واحد، دون أن يتفقوا عليه. قالوا له:

ـ بالسباحة.

ربما كانت بيترا كوتيس الوحيدة، من السكان الأصليين، التي كان لها

قلب عربي. فقد شهدت كيف خربت الحظائر الأخيرة، وكيف دمرتها العاصفة. ولكنها جاهدت كي يظل البيت قائماً. وفي السنة الأخيرة بعثت برسائل مستعجلة إلى أوريليانو الثاني تستدعيه. فأجابها بأنه لا يعرف متى يعود إليها، ولكنه سوف يحمل إليها، عند عودته، صندوقاً مملوءاً بالقطع الذهبية تكفي لفرش غرفة نومها كلها. وعندها عصرت المسكينة بقايا عروق قلبها، واستمدت منها قوة تمنحها صموداً يمكنها من الحياة إلى ما بعد الكارثة. وكظمت غيظها واستعانت بالصبر. وأقسمت، فيما بينها وبين نفسها، أن تعيد بناء الثروة من جديد، تلك الثرورة التي بذّرها عشيقها، وأزال بقاياها الطوفان.

وكان قرارها حازماً، حتى إنّ أوريليانو الثاني، عندما عاد إليها بعد ثمانية شهور من آخر رسالة وصلته منها، وجدها خضراء لم تسرّح شعرها. عيناها غائرتان في محجريهما، وقد عاث الجرب في جلدها. ولكنها كانت تسجل على وريقات أرقاماً لتجعل منها لعبة الحظ «اليانصيب».

وقف أوريليانو الثاني أمامها مشدوهاً، وكان كئيباً نحيلاً قذراً، فأدركت بيترا كوتيس أن القادم كان يبحث عنها، ولكن هيئته جعلتها تظن أن الرجل لم يكن عشيقها وحبيب عمرها، بل أخوه التوأم. فقال لها:

ـ لا بدّ أنك قد جننت، إلاّ إذا كنت تريدين أن تلعبي اليانصيب على العظام.

فطلبت منه أن يلقي نظرة على غرفة النوم. وهناك رأى أوريليانو الثاني البغلة. كانت عجفاء جلداً وعظماً كصاحبتها، ولكنها، مثلها أيضاً، حية وحازمة. فقد أطعمتها بيترا كوتيس من غيظها وحنقها، بعد أن لم يبق لديها علف ولا ذرة ولا جذور. وعندها استضافتها في غرفة

نومها، حيث التهمت الأغطية القطنية، والسجاجيد الفارسية، وقطائف السرير، والستائر المخملية، ومظلة السرير الملوكي المطرزة بخيوط الذهب والمنمقة بالشرابات الحريرية.

(١٧)

كان على أورسولا أن تبذل جهوداً جبارة كي تستطيع تنفيذ وعدها بالموت عندما يتوقف المطر. وقد بدأت ومضات الوضوح، التي كانت نادرة أيام المطر، تزداد عدداً، بدءاً من شهر آب (أغسطس) عندما جعل الهواء الجاف، الذي قضى على الورد القرمزي وجفف مستنقعات الطين والوحل، يقذف على ماكوندو غباراً حارقاً، غطى إلى الأبد سطوح بيوتها من التوتياء المتأكسدة وأشجار اللوز التي بلغت من عمرها مئة عام.

وعندما تبيّنت أورسولا أنها كانت، على مدى ثلاثة أعوام، لعبة بين يدي الطفلين، حزنت حزناً شديداً وغلب عليها البكاء. ثم غسلت وجهها المصبوغ، وتخلصت من أشرطة القماش الزاهية التي كانت معصوبة على رأسها، ونزعت عن جسمها السحالي والضفادع الجافة، والمسابح والعقود العربية القديمة التي علقوها على جسمها كله. وأخيراً غادرت السرير، للمرة الأولى منذ موت أمارانتا، دون أن يساعدها أحد، لكي تعود إلى المشاركة في حياة العائلة. وكانت قوة قلبها، الذي لا يقهر، تقودها في غياهب الظلام. وكان الذين يلحظون تعثر خطواتها، ومن تصطدم بهم في طريقها، وهي تسير رافعة يدها الملائكية إلى مستوى عينيها، يعزون ذلك إلى مرضها وتعبها الجسدي. ولكن لم يفكر أحد البتة في أنها كانت عمياء. فلم تكن بحاجة إلى النظر لكي تعرف أن أصُص الزهور، التي زرعت بعناية كبيرة لدى إعادة بناء الدار، كانت قد

حطمها المطر. ثم جاءت الحفريات التي قام بها أوريليانو الثاني، فقضت على ما بقي منها، أو لتدرك أنّ الجدران والأرض الإسمنتية قد تشققت، وأن الأثاث قد تفكك وحال لونه، وأن الأبواب قد تخلعت وبارحت مصاريعها مفصلاتها، وأنّ العائلة كلها كانت ترزح تحت وطأة القنوط واللا مبالاة التي لم تكن مقبولة أو حتى مفهومة في أيام صباها.

كان تلمّس الطريق واسطتها للتنقل بين غرف الدار الفارغة، فتسمع قرض الديدان والحشرات المستمر للأخشاب، وصوت إمعان العث فتكاً بالخزائن، وصخب النمل الأحمر الهائل الذي تكاثر زمن الطوفان، وأخذ يعيث في أثاث البيت قضماً وتحطيماً.

وذات يوم فتحت أورسولا صندوق ثيابها، حيث ثياب القديسين، فاضطرت لاستدعاء سانتا صوفيا (التقية) لتعينها في التخلص من الصراصير التي تعلقت بجسمها، بعد أن تدافعت من الصندوق حيث أحالت الثياب الموجودة فيه إلى غبار. وصاحت قائلة:

- لا يمكن لإنسان أن يعيش في مثل هذا الإهمال. فإذا استمرت حالنا على ما هي عليه فسوف تفترسنا الحيوانات والحشرات.

ومنذ تلك اللحظة، لم تعد تعرف طعم الراحة. فكانت تستيقظ فجراً، وتحشد كل الطاقات الممكنة، وتستعين في ذلك بالطفلين. فأخرجت إلى فناء الدار بقية الثياب التي يمكن لبسها، وعرضتها للشمس، وراحت تحارب الصراصير بمبيدات الحشرات، وتكشط الدود وبقاياه وأوساخه من الخزائن والأبواب ومصاريع النوافذ، وتتصدى للنمل بالكلس الحيّ فتقضي عليه في أوكاره.

وقادتها حمى الترميم والتصليح إلى الغرف المهجورة منذ زمن، فبدأت بإزالة الركام وبيوت العناكب في الغرفة التي أضاع فيها خوزيه أركاديو بويندیا عقله وهو يبحث عن حجر الفلاسفة. وأعادت ترتيب

مشغل صياغة الفضة الذي عبث به الجنود، وجعلوا عاليه سافله. وأخيراً، طلبت مفاتيح غرفة ملكيادس لتنقذ الحالة التي آلت إليها.

وحاولت سانتا صوفيا، بكل الوسائل والحيل، أن تثني أورسولا عن عزمها، حفاظاً منها على رغبة خوزيه أركاديو الثاني، الذي منع الدخول إلى تلك الغرفة حتى تظهر له علامة حقيقية تنبئه بموعد موته. ولكن تصميم أورسولا، الذي يأبى الرضوخ، على ألاّ تدع للحشرات زاوية نائية في البيت، حتى ما كان منه غير مستعمل وغير قابل للاستعمال، جعلها تصرّ على طلبها، وتتخطى جميع العقبات التي كانت توضع في طريقها. وبعد ثلاثة أيام من الإصرار والعناد، استطاعت الحصول على المفاتيح، وفتحت لها الغرفة.

وتماسكت عندها، مستندة إلى مصراع الباب، كي لا تسقط بفعل الرائحة الكريهة التي فاجأتها. ولم يستغرق الموقف أكثر من ثانيتين حتى تذكرت أن أواني التبول الاثنتين والسبعين، التي استعملتها بنات المدرسة، كانت ما تزال هناك، وأن دورية الجنود التي جاءت، في ليلة من أوائل ليالي المطر، وفتشت البيت بحثاً عن خوزيه أركاديو الثاني، فلم تستطع أن تراه وهو جالس أمامها. وعندها هتفت قائلة:

ـ تبارك الله حامينا،

وكأنها كانت ترى كل شيء.

ـ لا يعقل، بعد كل ما بذلناه في تربيتك، أن ينتهي بك الأمر إلى أن تعيش كخنزير.

كان خوزيه أركاديو الثاني ما يزال يقرأ الرقاع. فلا يستطيع المرء أن يتبين منه، في غابة شعره الكث الكثيف، سوى أسنانه التي وشحتها خطوط من الجنزار، وعينيه الجامدتين بلا حراك. وعندما تناهى إليه صوت جدة جده، استدار نحوها، محاولاً الابتسام، ثم أعاد إلى أورسولا

جملتها التي قالتها في الماضي، دون أن يعرف أنها لها. فتمتم قائلاً:

ـ وما الذي يمكن أن ينتظر. فالزمن يمضي. فأجابت أورسولا قائلة:

ـ هكذا تسير الأمور. هذا صحيح، ولكن، ليس إلى هذه الدرجة.

وعندما ذكرت هذه الكلمات، تذكرت أنها قد أجابته بما كان قد أجابها به العقيد أورليانو بويندا عندما كان سجيناً في الزنزانة التي مات فيها. وأصابتها قشعريرة لإدراكها دليلاً جديداً على أن الزمن لا يسير ـ وهي الحقيقة التي انتهت إلى الإيمان بها ـ بل يدور حول نفسه في حلقة مفرغة. ولكنها لم ترضخ هذه المرة كعادتها. فوبخت خوزيه أركاديو الثاني، كما لو كان طفلاً، وأصرت عليه أن يستحمّ ويحلق لحيته، ثم يساعدها في إتمام إصلاح البيت. وسيطر على خوزيه أركاديو الثاني خوف شديد من مجرد التفكير في مغادرة الغرفة التي عرف فيها السلام. فصرخ قائلاً بأنه لا توجد قوة إنسانية تستطيع إخراجه من الغرفة، لأنه لم يكن ينوي أن يشاهد قطار المئتي عربة المشحون بجثث الموتى، وهو يغادر ماكوندو كل يوم قاصداً البحر عند الغروب.

وراح يصرخ قائلاً:

ـ إنهم كل الذين كانوا في المحطة. كانوا ثلاثة آلاف وأربع مئة وثمانية.

وعندها أدركت أورسولا أن عالم الظلام الذي كان يعيش فيه كان أشد حلكة من عالمها، فهو عالم منعزل ومتقوقع ومغلق كعالم جد جده. فتركته في الغرفة، بعد أن أقنعته بضرورة ألاّ يقفلها بالغال وأن تنظفها كل يوم، وألاّ يبقى فيها سوى إناء واحد للبول، بينما يلقى بباقي الآنية خارجاً، وأن يظل هو نظيفاً ولائقاً كما كان جد جده في عزلته الطويلة تحت شجرة الكستناء.

ولم ترَ فيرناندا في كل ذلك، في البداية، سوى دليل جنون عاجز

عقيم، ولكنها أكرهت نفسها، بصعوبة، على كظم غيظها. ولكنها، في ذلك الوقت ذاته، وصلتها رسالة من خوزيه أركاديو، في روما، يخبرها فيها أنه قد قرّر المجيء إلى ماكوندو قبل أن يكرّس ويقسم اليمين الأخيرة. وفاضت حماسة لهذا الخبر، فراحت تمضي يومها في حركة دائبة لا تعرف الهدوء، حتى كانت تسقي الزهور في الدار أربع مرات في اليوم، لكي تجعل منظر البيت جميلاً، فلا يترك لدى ابنها انطباعاً سيئاً. وحفزها الترقب، وزاد نشاطها، فعادت إلى مراسلة أطبائها المجهولين. وبذلت أواني أزهار الأريجان والسرخس والبيجونيا، حتى قبل أن تعلم أورسولا أنّ أوريليانو الثاني كان قد حطمها في ثورة غضبه. ثم باعت الفضيّات، واشترت صحافاً من السيراميك، وأواني وملاعق من التوتياء للحساء. فبدت بسيطة فقيرة خزانة الأواني التي كانت تزدحم بصحاف شركة الهند الصينية والكريستال البوهيمي.

وكانت أورسولا ما تفتأ تحثُّ الجميع على العمل. وتصيح بهم قائلة :

ـ افتحوا الأبواب والنوافذ. واطبخوا اللحم والسمك. واشتروا أكبر السلاحف الموجودة. وليحضر الغرباء إلى الدار، وليفترشوا زوايا الساحة، ويبولوا على شجيرات الورد. وليصطفوا على مائدة الطعام، ليأكلوا، المرة تلو المرة، ما لذّ لهم وطاب، وليتجشؤوا وليتكلموا ما شاؤوا، وليوسخوا كل شيء بأحذيتهم. وليفعلوا بنا ما يشاؤون. فتلك هي الطريقة الوحيدة التي نبعد بها الخراب.

ولكن ذلك كله لم يكن إلاّ وهماً وعبثاً. فقد كانت أورسولا في أرذل العمر. ولم تعد قادرة على استئناف معجزتها في صنع حلوياتها، على هيئة حيوانات الكراميلا الصغيرة. ولم يرث أحد من سلالتها طاقتها وقوتها، وهكذا ظلت الدار مغلقة تنفيذاً لأوامر فيرناندا.

رحل أوريليانو الثاني بأمتعته إلى بيت بيترا كوتيس، ولم يكن لديه ما يفيض عن مجرّد تجنيب عائلته الموت جوعاً. ولكنه نجح هو وبيترا كوتيس، بإجرائهما سحب قرعة اليانصيب على البغلة، في شراء مزيد من الحيوانات وبذلك تمكنا من تأسيس مشروع متواضع لليانصيب. وراح أوريليانو الثاني يتنقل من مكان إلى آخر، طارقاً الأبواب، الواحد بعد الآخر، حاملاً بطاقات اليانصيب الصغيرة، التي أعدّها بنفسه ولوّنها بألوان مختلفة من الحبر، كي تكون جذابة مغرية بالشراء. ولكنه لم يتبين أن الكثيرين ما كانوا ليشتروها إلاّ عرفاناً بالجميل، وأن أكثر الناس كانوا يشترونها بدافع الشفقة. ولكن المشترين ـ على الرغم من شرائهم بدافع الإحسان والشفقة ـ كانوا يرجون أن يربحوا خنزيراً بعشرين سنتاً، أو عجلاً باثنين وثلاثين، وكان ذلك أقلَّ ما يبعث فيهم الحماسة. فما إن يحل مساء يوم الثلاثاء حتى تزدحم بهم دار بيترا كوتيس، حتى تضيق بهم، وهم يرقبون اللحظة التي يُختار فيها طفل عشوائياً، كي يسحب من الكيس الرقم الرابح.

ثم ما لبثت هذه العملية أن تحوّلت إلى ما يشبه السوق الأسبوعية. فقد بدأت تظهر الطاولات في باحة الدار، منذ العصر، لأكل المقليات وتناول الشراب. وكان كثيرون ممن يواتيهم الحظ يضحون بالحيوان الذي يربحون فور إعلان النتيجة، شرط أن يقدم الآخرون الموسيقى والشراب. وهكذا وجد أوريليانو الثاني نفسه، دون قصد منه، مدفوعاً للعزف على الأكورديون، وللمشاركة في جولات النهم المتواضعة.

وأدرك أوريليانو الثاني كم هدأت حدته وخفّ حذقه، وهو المعروف بنهمه، عندما جعل يقارن بين حفلات الماضي المترفة وحفلات الحاضر المتواضعة الباهتة . فقد كان يزن ، عندما تحدته المرأة - الفيلة ، مئتين

وأربعين رطلاً(١). وقد تناقص وزنه حتى وصل اليوم إلى مئة وستة وخمسين رطلاً(٢). كان وجهه، قديماً، أشبه بوجه سلحفاة سمينة طيبة القلب، وغدا الآن أشبه بوجه إيغوانا(٣)، ويشعر دائماً بأنه متوتر وعلى وشك التعب والضجر.

أما بيترا كوتيس فلم تكن علاقتها به على ما كانت عليه قبلاً، وقد بات شعورها نحوه مزيجاً من الشفقة عليه والحب له، مدعّماً بالحاجة إلى التعاون التي تفرضها حالة الفقر التي كانت توحدهما. ولم يعد سريرها، الذي خلا من كل مظاهر البذخ والترف، مطرح لذة ومتعة، بل ملاذ يبث الواحد منهما الآخر فيه شجونه ويجتر ذكرياته.

باعا المرآة التي كانا يتراءيان فيها، في المزاد العلني، كي يشتريا بثمنها حيوانات تقدم جوائز للفائزين بقرعة اليانصيب، وبعد أن التهمت البغلة الستائر الدمشقية المخملية المثيرة للشهوة، باتا يقضيان ليلهما، بطوله، بلا نوم، عجوزين بريئين. يمضيان الليل في حسبة أموالهما، ويزجيان الوقت في تنقيل فلوسهما من كومة إلى أخرى، ذلك الوقت الذي كانا ينتهبانه في اغتراف لذائذهما ويهرقان فيه جديهما.

وكثيراً ما كانا يثوبان إلى رشدهما، ينبههما صياح الديكة، فيدركان أنهما قد أمضيا الليل وهما يكدسان قطع النقود في كومات صغيرة، ما يلبثان أن يزيلاها، ثم يرفعان من كومة ليضيفا إلى أخرى. فهذا جزء لسد نفقات فيرناندا، وهذا جزء لشراء حذاء لأمارانتا أورسولا، وهذا آخر يعطى لسانتا صوفيا (النقية)، التي لم تشتر لها ثياباً داخلية منذ أيام العز والغنى. وهذا جزء رابع من النقود من أجل شراء تابوت لأورسولا عندما

(١)حوالي مئة وعشرين كيلو غراما.

(٢) حوالي ثمانية وسبعين كيلو غراما.

(٣) حيوان من الزواحف في أميركا الجنوبية حجمه بين الحرذون والتمساح الصغير.

تموت. وهذا جزء خامس لشراء البن الذي كان يزداد سعره سنتاً لكل رطل (نصف كيلو غرام تقريبا) كل ثلاثة أشهر. وهذا جزء سادس لشراء السكر الذي تضاءلت تحليته، وجزء سابع للخشب الذي كان ما يزال رطباً بعد أمطار الطوفان، وثامن لشراء الورق والحبر الملوّن لصنع بطاقات اليانصيب. وأما ما بقي من النقود فكان يخصص من أجل سد العجز الذي سببه موت العجل في نيسان (أبريل)، ولم يستطيعا إنقاذ جلده إلا بأعجوبة، على الرغم من ظهور أعراض التفحم عليه. وكان كل ذلك بينما كانت بطاقات اليانصيب عليه قد بيعت كلها تقريباً. وهكذا كانت سهراتهما صلوات فقر نقية بريئة، تتم فيها طقوس توزيع الفقر، ويخصص النصيب الأكبر منها لفيرناندا، ليس تكفيراً عن ذنب أو شعوراً بلزوم الصدقة والإحسان، بل لأن بقاءها في حالة جيدة كان أهمّ لهما من بقائهما كذلك. فقد كان شعورهما تجاه فيرناندا، دون أن يدرك أي منهما ذلك، أن كليهما كان يرى في فيرناندا الابنة التي كان يتمنى لو كانت له، ولكن ذلك لم يكن. وقد وصل الأمر بهما إلى درجة أنهما، في بعض الأحيان، كان يكتفيان بأكل الفتات طوال ثلاثة أيام، لكي تتمكن هي من شراء غطاء هولندي للطاولة.

ولكنهما، على الرغم من إرهاق نفسيهما بالعمل، وعلى الرغم من التقتير على معيشتهما، ومن المشروعات التي كانا يفكران فيها، فقد كانت الملائكة ترعاهما في غفلة عنهما، وقد أضناهما التعب، بينما كانا يخبئان النقود ثم يخرجانها، محاولين ألاّ ينفقا أكثر مما يوفر لهما الكفاف. وقد كانا، في ساعات يقظتهما، وعندما تتدنى حساباتهما، يعجبان لما حدث في العالم، حتى لم تعد الحيوانات تتناسل وتتكاثر بالدافع والسرعة السابقتين، ولماذا تتسلل النقود من بين أصابعهما بهذه السهولة والكثرة، ولماذا صار الناس الذين كانوا قبل فترة قصيرة لا

يعبؤون بإحراق رزم المال أو بعثرتها على مآكلهم ومشاربهم، يعتبرون ذلك العمل، اليوم، ضرباً من السرقة والنهب، حتى باتوا يترددون في دفع اثني عشر سنتاً في بطاقة يانصيب على ست دجاجات.

كان أوريليانو الثاني يعتقد، في داخل نفسه، أن الذنب لم يكن ذنب العالم، وأن الخطأ لم يكن في الناس، ولكنه في مكان ما خفيّ في قلب بيترا كوتيس الغامض المجهول. فلا بد أنه قد حدث لقلبها، أيام الطوفان، حادث أدّى إلى عقم الحيوانات. وضياع المال. وقد حار في أمر ذلك السر، وودّ لو كان يدرك كنه ما كانت تكنه بيترا كوتيس، في أعماق قلبها، من مشاعر وعواطف. وقد ألحّ به التفكير حتى ألفى الحب الذي يعنيه. وصار همه منحصراً في أن تحبه هي كما يحبها. فعشقها عشقاً شديداً. أما بيترا كوتيس فكانت تزداد به هياماً شيئاً فشيئاً بقدر ما كانت تحس بازدياد حبه لها.

وهكذا إستسلمت بيترا كوتيس، في أوج الخريف من عمرها، لوهم الشباب الذي يقضي بأن تكون النهاية نهاية عاشقة. فراحا يستعيدان ذكريات حفلاتهما المجنونة، وفيض الثروة عليهما، وانغماسهما اللا محدود في العبث الأرعن والفجور، وكأنما لم تكن سوى حواجز بينهما. فيأسفان لذلك الماضي الذي دفعا ثمنه إلى أن اكتشفا أن الجنة هي في وحدة عاشقين.

وهكذا، جُنّ كل منهما بحبّ الآخر. وإذا بهما بعد سني عيشهما العقيمة معاً، ينعمان بعشق كل منهما الآخر بشكل لا يعرف حدوداً، على المائدة، وفي السرير، ويصلان لحظات السعادة، الواحدة بالأخرى، حتى انتهى بهما المطاف إلى عجوزين تالفين، ولكنهما يلهوان كأرنبين صغيرين، ويداعب أحدهما الآخر كجروين أليفين.

لم تتحسن قط عائدات اليانصيب. وقد كان أوريليانو الثاني، في

البداية، يقضي ثلاثة أيام أسبوعياً في مكتبه القديم لتربية الحيوانات، وهو يرسم، بمهارة أولية، بقرة صغيرة حمراء، أو خنزيراً أصغر أخضر، أو بضع دجاجات صغيرة زرقاء، حسب العدد المطروح لليانصيب. وكان أحياناً يحاول تقليد حروف الطباعة، في كتابة الاسم الذي إختارته بيترا كوتيس لمؤسستهما: «يانصيب العناية الإلهية». ولكنه شعر، بعد فترة قصيرة، أن رسم نحو ألفي بطاقة في الأسبوع عمل يتعبه كثيراً. فصنع أختاماً من المطاط للحيوانات والأسماء والأرقام. وهكذا قصر عمله على بلّ الأختام بنوع الحبر المطلوب، ثم طبع الأختام على البطاقات.

وخطرت لهما، في السنوات التالية، استبدال الأحاجي بالأرقام، وتقسيم الجائزة بين الذين يجدون الحل الصحيح. ولكنهما سرعان ما تبينا أن تلك العملية معقدة، وأنها يمكن أن تؤدي إلى إعتراضات كثيرة. فتخليا عنها بعد التجربة الثانية.

وتابع أوريليانو الثاني العمل على نشر سمعة يانصيبه وتدعيم شهرته، فاستغرق ذلك كل وقته، حتى لم يعد يجد متسعاً لرؤية إبنيه. وأدخلت فيرناندا إبنتها أمارانتا أورسولا مدرسة خاصة لا تقبل في الصف أكثر من ستة طلاب، ورفضت أن يدخل أوريليانو المدرسة الرسمية العامة. وقد اعتبرت أنها قد تنازلت عن الكثير من مبادئها حين سمحت له بمغادرة الغرفة. وعلاوة على ذلك، كان لا يقبل في المدارس الحكومية، في تلك الفترة، إلاّ الأبناء الشرعيون المولودون نتيجة لزواج كاثوليكي. أما أوريليانو فقد جيء به إلى البيت، وشهادة ميلاده المعلقة إلى صدّاره تعلن أنه لقيط. ولذلك أوكل أمره إلى رأفة سانتا صوفيا ونزوات أورسولا، فاكتشف عالم البيت من شروح جدتيه. ونشأ الصغير رقيقاً لطيفاً، مهيباً، طُلَعَة تشده أسئلة الكبار. ولكنه كان يغلب عليه الذهول، ويبدو عليه القلق. وتختلف نظرته عن نظرة العقيد الفاحصة النفاذة عندما كان

في عمره.

وفيما كانت أمارانتا أورسولا تمضي وقتها في روضة أطفال، كان أوريليانو الصغير يلاحق ديدان الأرض، ويطارد الحشرات ويعذبها. وقد فاجأته فيرناندا، ذات مرة، وهو يلتقط العقارب، ويحبسها في علبة معه، لكي يدسها، من بعد، في فراش أورسولا. فسجنته في غرفة ميمي (والدته)، حيث راح يمضي ساعات وحدته وعزلته بمشاهدة الصور واللوحات في دائرة المعارف (الأنسيكلوبيديا). وهناك صادفته أورسولا، بينما كانت تجوب البيت، في عصر أحد الأيام، وترشه بالماء المقطر، وتنشر فيه باقة من نبات قارص (قرّيص). فسألته عمن يكون، على الرغم من التقائها به كثيراً. فقال لها:

ـ أنا أوريليانو بوينديا.

فأجابت:

ـ هذا صحيح. ولقد آن الأوان لكي تتعلم صياغة الفضة.

ثم عادت تخلط بينه وبين ابنها من جديد، لأن الهواء الذي جاء بعد الطوفان فوسم عقلها ببعض ومضات الصحو والوضوح العابرة، كان قد مرّ وانقضى. ولم يعد لها عقل، قط، من بعد. فما كانت لتدخل غرفتها حتى تلتقي ببيترولينا إيغواران وقد ارتدت خراطة الكرينولين الثقيلة وصدار البوليرو المرصّع باللؤلؤ الذي كانت ترتديه كلما ذهبت إلى موعد، أو تجد جدتها ترانكويلينا ماريا ميناتا الكوكه بوينديا، وهي مقعدة جالسة في مقعدها المتحرك، تلوّح أمام وجهها بريشة طاووس، وجدّ جدها أوريليانو أركاديو بوينديا وهو يرتدي سترة تشبه سترة حرس نائب الملك، وتلتقي أباها أوريليانو إيغواران الذي اخترع دعاء يقتل دود البقر ويخرجه منها، وتلتقي أمها الورعة، وابن عمها ذا ذنب الخنزير، وخوزيه أركاديو بوينديا وأبناءها الذين ماتوا جميعاً وهم جالسون على كراسيهم

المسندة إلى الجدران وكأن ذلك كله لم يكن عندها بمثابة زيارة عائلية، بل سهرة عند رأس ميت.

وكانت تبتدع من اللا شيء حديثاً طويلاً كثير الزخرفة والتفاصيل، وتعلق على أحداث جرت في أمكنة بعيدة وأزمنة لا توافقها. فإذا عادت أمارانتا أورسولا من مدرستها، وتعب أوريليانو من تقليب دائرة المعارف، وجداها قابعة في سريرها، تحدث نفسها وغارقة في ضياع الموتى. وفي أحد الأيام، صاحت أورسولا مذعورة:

ـ النار. النار.

فنشرت الذعر في البيت كله. وما كان الذي أعلنت عنه سوى حريق اسطبل شهدته عندما كانت في الرابعة من عمرها.

وقد استطاعت أن تميز بين أحداث الماضي والحاضر، في مرتين أو ثلاث من ومضات الوضوح، عرفتها في أخريات حياتها قبل أن يداهمها الموت. ولم يكن أحد ليدري ما إذا كانت تتحدث، عندها، عما كانت تحس به في الحاضر أو تتذكره من الماضي.

وبدأت أورسولا تتضاءل وتتقلص وتصغر تدريجياً، حتى غدت كأنها جنين، بل كأنها كانت تتحنط وهي بعد حيّة. ثم راحت تضمر حتى باتت في الأشهر الأخيرة من حياتها كخوخة أو حبة زبيب قديمة جافة تضيع في ثنايا قميص النوم، بذراعها المرفوعة أبداً كيد قراشة. وكانت تمضي بضعة أيام بطولها بلا حركة، حتى تأتيها سانتا صوفيا فتهزها لكي تعرف أنها ما زالت على قيد الحياة، فتقعدها في حضنها وتطعمها الماء المحلّى بملعقة صغيرة. وكانت تبدو عجوزاً طفلة، أو طفلة عجوزاً ولدت لتوها. وكانت أمارانتا أورسولا وأوريليانو يجرانها وينقلانها ويؤرجحانها بين غرف الدار، وينيمانها فوق المذبح ليقيسا طولها بطول المسيح الطفل. ولم تكن أكبر منه بكثير. وقد خبّآها ذات عصر، في خزانة في المخزن،

فكادت تلتهمها الجرذان. وفي يوم من أيام أحد الشعانين، إغتنما فرصة وجود فيرناندا في الكنيسة، فدخلا غرفة أورسولا، وحملاها من رقبتها وكاحلها، وقالت أمارانتا أورسولا :

- مسكينة جدة جدتي، لقد ماتت من الشيخوخة. فارتعدت أورسولا ذعراً، وصاحت قائلة :

- أنا حية.

فحبست أمارانتا أورسولا ضحكها، وقالت :

- أرأيت، إنها لا تتنفس.

فصرخت أورسولا المسكينة :

- ولكنني أتكلم..

فقال أوريليانو :

- وهي لا تتكلم. لقد ماتت كصرصور صغير.

وأدركت أورسولا المسكينة الواقع، فقالت مذعنة بصوت خفيض :

- يا إلهي، هذا هو الموت إذن.

وعندها بدأت تلاوة مرثية طويلة، بصوت متعثر حزين متشنج عصبي، دامت أكثر من يومين. وقد حالت المرثية، من بعد، إلى مزيج من الصلوات لله، والنصائح العملية حول التخلص من النمل الأحمر كي لا يهدم البيت، وحول الإنتباه إلى عدم إطفاء الفانوس المضاء أمام صورة ريميديوس، وألاّ يتزوج أحد من آل بوينديا من واحدة أخرى من تلك العائلة. لكي لا يولد لهم أبناء بأذناب خنازير.

وحاول أوريليانو الثاني أن يستغل دوارها والحالة التي كانت فيها، علها تدله على المكان الذي دفنت فيه الذهب، ولكن جهده ذهب هباء، إذ قالت أورسولا العجوز وهي في لحظات الموت :

- عندما يجيء صاحبه سوف يضيء الرب دربه فيجده.

وأيقنت سانتا صوفيا أن أورسولا ستموت بين لحظة وأخرى، لأنها لاحظت، في الأيام الأخيرة، إضطراباً في ظواهر الطبيعة. فقد صار للورد رائحة الآس. وقد سقط من يدها وعاء فيه حمص، فنبتت حبات الحمص على الأرض متخذة نسقاً هندسياً على هيئة نجمة البحر. ورأت ذات ليلة سلسلة من الدوائر تعبر السماء، وكانت منيرة بلون البرتقال.

وفي يوم الخميس المقدس، وجد أهل الدار أورسولا ميتة عند الفجر، وكان، في آخر مرة ساعدوها في حساب عمرها أيام شركة الموز، قد تبين لهم أنها كانت قد بلغت ما بين مئة وخمسة عشر عاماً ومئة واثنين وعشرين.

وضعوها في صندوق أكبر قليلاً من السلة التي جيء بأوريليانو فيها، ودفنوها. وقد حضر جنازتها عدد قليل من الناس، ذلك أن الذين ظلوا يذكرونها كانوا قليلي العدد، ولأن الحر كان شديداً في منتصف ذلك النهار، حتى إن الطيور في الفضاء كانت تصاب بالدوار، فترتطم بالجدران والأشجار كوابل من الرصاص، وتصطدم بالنوافذ فتحطم أشرطتها، وتتهاوى ميتة على الأرض في الخارج، وعلى أرض الغرف داخل البيوت.

وظنّ الناس، أول الأمر، أنه نوع من الطاعون. فقد عانت ربات البيوت كثيراً من كنس الطيور الميتة، وخاصة في وقت القيلولة. وكان الرجال يحملون الطيور الميتة في عربات ويلقون بها في النهر. وفي يوم أحد الصعود، أكد الأب أنطونيو إيزابيل، الذي كان قد بلغ المئة عام من العمر، من على منبر الكنيسة، أن موت الطيور قد سببه اليهودي التائه الذي رآه في الليلة الماضية. ووصفه بأنه نغلٌ وُلد من تصالب تيس وامرأة كافرة، وبأنه حيوان جهنمي، يفسد الهواء بنفسه. وإذا مرّ بحيّ فسوف

يلد فيه العرسان الجدد طروحاً. ولكن الذين أعاروا خطبته ورؤياه انتباهاً كانوا قلة، لأن أهل البلد، كانوا يعتقدون أن الخوري كان يهرف بما لا يعرف بعد أنه بلغ من العمر عتياً.

ولكن امرأة أيقظت الناس في الساعة الأولى من فجر يوم الأربعاء، عندما اكتشفت آثار كائن ذي رجلين ظلفاهما متشعبان. وقد كانت الآثار في غاية الوضوح، فأيقن الذين ذهبوا لرؤيتها بوجود كائن مخيف شبيه بما وصفه الخوري. واتفقوا على أن يقيموا بين بيوتهم شراكاً ومصائد. وهكذا استطاعوا القبض عليه.

فبعد أسبوعين من موت أورسولا، استيقظ أوريليانو الثاني وبيترا كوتيس مذعورين على خوار عجل في الجوار. ولما نهضا وجدا جماعة من الرجال، وكانوا عندها يحاولون إخراج الوحش، الذي توقف عن الخوار، من بين الحراب المسنونة التي كانوا قد وضعوها في قعر حفرة غطوها بورق الشجر الجاف. كان أثقل وزناً من ثور ضخم، مع أنّ له جسم فتى. وكان يسيل من جراحه سائل أخضر دهنيّ. ويغطي جسمه شعر خشن كثيف، تتخلله فجوات واضحة تعلوها طبقة من الحشف كحراشف السمك. ولم يكن يختلف عما وصفه الأب أنطونيو إيزابيل، إلاّ أن أجزاء جسمه الإنسانية كانت أقرب إلى أعضاء ملاك نحيل مريض منها إلى أعضاء رجل: فكانت يداه رقيقتين ناعمتين كيدي مشعوذ، وكانت عيناه واسعتين مكفهرتين، وعلى كتفيه ندْب يدل على أثر جناحين قويين. وقد اندمل الندب وقسا مطرحه، ربما بعد أن قطعهما منجل حطاب.

علقه الناس من كاحليه على شجرة لوز، في الساحة العامة، وأبقوه على تلك الحال كي يراه الناس جميعاً. وعندما تفسخ جسده وبدأ يهترىء، وضعوه على كومة حطب وأحرقوه، ولكنهم لم يستطيعوا

تحديد طبيعته الغريبة العجيبة، أهو حيوان يلقى به في النهر، أم مسيحي يسجّى في قبر. ولم يثبت، فيما بعد، ما إذا كان هو سبب موت الطيور، ولكن العرسان الجدد لم يلدوا طروحاً حسب ما ذكرته النبوءة، كما أن درجة الحرارة لم تخفّ ولم تفتر حدتها.

ماتت روبيكا في نهاية ذلك العام، واستعانت أرجينيدا، التي بقيت في خدمتها طوال حياتها، بالسلطات المحلية لتعينها على فتح باب غرفة سيدتها، التي لم تغادرها منذ أيام ثلاثة. وعندما فتح الباب وجدت روبيكا متقوقعة في سرير عزلتها ووحدتها، وكأنها سمكة القريدس لشدة تقلص جلدها. وكان القرع قد ذهب بشعرها، وقد وضعت إبهامها في فمها.

واهتم أوريليانو الثاني بمراسم الدفن. وقد فكر في أن يرمم البيت عله يبيعه. ولكن الخراب كان قد سبقه إلى ذلك، فعاث فيه دماراً، حتى صار كأن الدمار جزء منه. فكان كلما طلى الجدران تشققت وتساقط عنها الدهان. ولم يستطع الإسمنت، مهما كثف، أن يحمي وجه الأرض من الأعشاب البرية الصلبة، ولا أن يحمي السقوف والأعمدة والدعائم أمام هياج نبات اللبلاب المتمرد.

هكذا كانت الحال، وكان سير الأمور، بعد الطوفان. وقد خيّم الكسل على الناس، وداهمهم النسيان الذي راح يقضي رويداً رويداً، بلا رأفة ولا رحمة، على جميع الذكريات قديمها وحديثها، صغيرها وكبيرها. فقد وصل إلى ماكوندو، في تلك الفترة، مبعوثون من قبل رئيس الجمهورية، بمناسبة ذكرى توقيع معاهدة نيرلانديا الجديدة. وكانوا مكلفين بتسليم أوسمة العقيد أوريليانو بوينديا، التي كان قد رفض استلامها في حياته مرات كثيرة. وقد أمضى الوفد وقت ما بعد ظهر يوم بطوله بحثاً عمن يدلهم على واحد من سلالته. وكاد أوريليانو الثاني

يقبل بالأمر، ظناً منه أنّ الأوسمة كانت من الذهب الخالص. ولكن بيترا كوتيس أقنعته بأن في قبولها مساساً بالكرامة، بينما كان المبعوثون قد فرغوا من إعداد بعض الإعلانات والخطب للاحتفال بالمناسبة.

وفي تلك الفترة ذاتها تقريباً، عاد الغجر، آخر ورثة معرفة ملكيادس وعلومه. فوجدوا البلدة قد انطفأت وتقهقرت، ووجدوا أهلها نائين عن سائر الناس في العالم. حتى راحوا يتخللون المنازل، ويتنقلون بين الدور، وهم يسحبون خلفهم قطع الحديد الممغنطة، وكأنها آخر ما توصل إليه العلماء البابليون الحكماء في العلوم والمعرفة. وركزوا الأشعة الشمسية على محور عدستهم الكبرى، فما عدموا من الناس من فغر فاه مشدوهاً عندما تساقطت المقالي والقدور، وما عدموا من يدفع خمسين سنتاً، كي يشاهد، مندهشاً ومذعوراً، غجرية تنتزع طقم أسنانها من فمها ثم تعيده إليه.

وحل قطار أصفر ضئيل ـ لا ينقل بضاعة ولا يحمل مسافرين، ولا يتوقف في المحطة الخالية إلاّ ما ندر ـ محلّ القطار الفاخر الذي كان السيد براون يقطر عربته ذات السقف البلوري ومقاعدها الوثيرة، وقوافل الثمار ذات المئة والعشرين عربة، التي لم يكن تتابع مرورها ليتوقف طوال وقت ما بعد الظهر.

وجاء موفدون من المحاكم، لكي يحققوا في مأساة الطيور، وتضحية اليهودي التائه، فرأوا الأب أنطونيو إيزابيل يلعب لعبة «الغميضة أو الاستغماية» مع الأطفال. وظناً منهم أن روايته كانت من هلوسات الشيخوخة، نقلوه إلى أحد مأوي العجزة. وبعد فترة وجيزة، عينوا بدلاً منه الأب أوغستو أنجيل، وهو صليبي من الجيل الجديد، متعصب، شديد الثقة بنفسه إلى درجة الغرور، جريء، لا يتردد في قرع الأجراس بنفسه عدة مرات في اليوم، كي لا يتيح للنعاس فرصة التسلل إلى

النفوس. وكان يقرع أبواب الناس، كي يوقظ الخانعين في وقت قيلولتهم فيذهبوا للصلاة. ولكنه لم يمضِ عليه عام حتى زحف التراخي إليه، وغلبه الخمول الذي تفوح رائحته في الهواء، والغبار المحرق الذي يجلب الشيخوخة للأشياء، ويدفعها إلى الرغبة في النوم، وكرات اللحم التي تقدم في طعام الغداء في أوج حرارة القيلولة التي لا تطاق.

بعد موت أورسولا، آلت الدار مرة أخرى إلى الإهمال الشديد، الذي لم تستطع حتى إرادة أمارانتا أورسولا القوية الحازمة أن تنقذها منه.

وقد استطاعت أمارانتا أورسولا تلك المرأة السعيدة، العصرية، التي لم تكن تحمل الضغائن والهموم، بل كانت راسخة العزيمة، تفتح الأبواب والنوافذ كي تهزم الخراب ـ استطاعت أن تستصلح البستان، وأن تقضي على النمل الأحمر الذي كان يسرح ويمرح بخطوطه التي لا تنقطع عبر الشرفة في وضح النهار. وقد حاولت، عبثاً، أن تحيي عادات الضيافة المنسية. فقد شكّل حب فيرناندا الشديد لحياة العزلة سداً منيعاً في مواجهة مئة عام من الانفتاح والصخب خلال حياة أورسولا. فلم تكتفِ، بعد مرور رياح الجفاف وانقضائها، برفض فتح الأبواب والنوافذ، بل إنها عمدت إلى إقفال النوافذ بألواح من الخشب المصلّبة سمّرتها عليها. وكأنها كانت بذلك إنما تستجيب لرغبة ذويها الكامنة في أن يدفنوا جميعاً وهم أحياء. وقد انتهت مراسلاتها الباهظة التكاليف، مع الأطباء المجهولين، إلى الفصل. فبعد الإرجاء والتأجيل المتكرر، والمماطلة الدائمة، أغلقت على نفسها باب غرفتها، في التاريخ والساعة المحدّدين، حسب الاتفاق، وقد لفعت نفسها بدثار أبيض، ووجهت رأسها صوب الشمال، وأحست في الهزيع الأخير من الليل بأن خرقة مبللة بسائل جليدي كانت توضع فوق رأسها.

وعندما استيقظت، كانت أشعة الشمس تتسرب من خلل ثقوب

النافذة، وكانت هي ترتدي قطعة قماش سميكة على شكل قوس تلتف عليها من الحوض إلى القفص الصدري. وقبل أن تمضي فترة الاستراحة المقررة، وصلتها رسالة، من الأطباء المجهولين، عجيبة غريبة. فقد ذكروا لها في الرسالة أنهم فحصوها خلال ست ساعات، ولم يجدوا شيئاً من الأعراض التي حدثتهم عنها مراراً وتكراراً، ووصفتها لهم بدقة وعناية.

والواقع أن عادتها السيئة، التي جرت عليها، في ألا تسمي الأشياء بأسمائها، قد أوقعتهم في حرج شديد، وأربكت تشخيصهم لحالتها الغريبة. فلم يجد أولئك الجراحون عن بعد (التليباثيون) لديها غير هبوط في الرحم يمكن علاجه بجهاز رافع.

أصيبت فيرناندا بإحباط شديد، بعد أن خاب أملها، فراحت تسعى للحصول على مزيد من المعلومات المفصلة والدقيقة. ولكن الأطباء المجهولين لم يعيروا رسائلها اهتمامهم، ولم يردوا عليها. وعز عليها أن توصف حالتها بأنها «غريبة». فحزمت أمرها وعزمت على أن تتغلب على خجلها. فقررت أن تستعلم عن الجهاز الرافع. فأنبئت بأن الطبيب الفرنسي كان قد شنق نفسه بإحدى خشبات السقف، لثلاثة أشهر خلت، وأن أحد رفقاء العقيد الراحل أوريليانو بوينديا في السلاح قد تولى دفنه خلافاً لإرادة البلدة كلها.

وعند ذلك لاذت فيرناندا بابنها خوزيه أركاديو، فوضعت ثقتها فيه. وأرسل لها ابنها الجهاز الرافع من روما، وزوّدها بنشرة عن طريقة استعماله. فحفظتها عن ظهر قلب، وألقت بالنشرة في المرحاض لكي لا يعرف أحد شيئاً عن طبيعة مرضها ومشكلاتها. ولم يكن لهذا الاحتياط وذلك الحذر من معنى، لأن أحداً لم يكن يهتم بأمرها، حتى من كانوا معها في البيت ما كانوا ليعيروا همومها الكثير من اهتمامهم.

فقد كانت سانتا صوفيا تعيش في عزلة الشيخوخة ووحدتها، وتمضي

القليل من وقتها في أن تعدّ لهم ما يأكلون من زاد قليل، وتكرس جلّ وقتها لخدمة خوزيه أركاديو الثاني.

وكانت أمارانتا أورسولا ـ وقد ورثت الكثير من جمال ريميديوس الجميلة ـ تقضي في تحضير دروسها الوقت الذي كانت تمضيه في العبث بأورسولا العجوز. وقد بدأ يظهر عليها من صفاء الذهن والانصراف للدراسة ما جدّد في أوريليانو الثاني الأمل الذي سبق أن ولّدته عنده ميمي. فوعدها بأن يرسلها إلى بروكسل كي تتابع دراستها، كما كانت العادة في أيام شركة الموز. ودفعه هذا الوهم إلى العمل على إعادة الحياة إلى الأرض التي دمرها الطوفان. فبات لا يأوي إلى البيت إلاّ نادراً. وكان كل همه أن يرى أمارانتا أورسولا وحسب. فقد غدا غريباً عن فيرناندا، وكان أوريليانو الصغير يزداد انزواء كلما قارب البلوغ.

كان أوريليانو الثاني متيقناً من أن الشيخوخة سوف تلين قلب فيرناندا، فتسمح للولد (أوريليانو الصغير) بأن يندمج في حياة البلدة، ولم يكن فيها من يكترث بشؤون مولده وما أحاق به من ظنون. ولكن أوريليانو نفسه كان قد بدأ يفضل العزلة والوحدة، فلم يبادر إلى أية حيلة كي يتمكن من التعرف إلى العالم الذي يبدأ، عنده، بعد عتبة الدار.

ولما فتحت أورسولا العجوز باب غرفة ملكيادس، كان يطوف حولها ويرنو إليها قرب الباب نصف المفتوح، بنظرات ملؤها الاستغراب وحب الاستطلاع. ولم يدرِ أحد بعد كيف أو متى بدأت علاقة الود بينه وبين خوزيه أركاديو الثاني. ولم يكتشف أوريليانو الثاني ذلك الأمر إلا بعد بعض الوقت، حين سمع الطفل يتحدث عن مذبحة المحطة. وقد حدث ذلك، ذات يوم، على المائدة، حين أخذ أحدهم يشكو حالة الخراب التي أصابت البلدة بعد رحيل شركة الموز. فعارضه أوريليانو الصغير بعناد صادراً في رأيه عن خبرة ونضج لا يكونان إلا لرجل راشد واعٍ. وكانت

حجته في قوله تختلف عمّا كان متداولاً ومتعارفاً في الرأي العام. فقد كان يرى أن ماكوندو ـ وهي أرض خصبة ـ ظلت تعيش حياة هانئة رضية حتى وصلت إليها شركة الموز. فزرعت فيها الفوضى، وأفسدت حياتها، وعصرتها وامتصت خيرها كما تعصر وتمتص ثمرة يانعة. وما كان الطوفان إلاّ من فعل مهندسيها الذي صنعوه ذريعة كي يتخلصوا به من الوفاء بوعودهم وتعهداتهم للعمال.

وكان أوريليانو الصغير يتكلم بحماسة وقوة حتى ظنّت فيرناندا أنها كانت أمام صورة من مشهد المسيح مع العلماء والحكماء. فوصف الولد، بتفصيل دقيق مقنع، كيف أطلق الجيش النار على ما يزيد على ثلاثة آلاف عامل محاصرين في المحطة، وكيف نقلت جثثهم إلى قطار مؤلف من مئة عربة لكي يلقى بهم في البحر.

كانت فيرناندا، كأكثر الناس في الإقليم، تصدق المقولة الرسمية المعلنة، بأن شيئاً من ذلك لم يحدث. فساورتها الظنون بأن الطفل قد ورث نزعة الفوضويين عن العقيد أوريليانو بوينديا. فأمرته بالسكوت. ولكن أوريليانو الثاني أعلن أنه مؤمن برواية أخيه التوأم للحادثة.

والصحيح أن خوزيه أركاديو الثاني كان، عند ذاك، أذكى من في الدار، ولو أن سكان الدار قد إتهموه بالجنون. وقد علّم أوريليانو الصغير القراءة والكتابة، وساعده في دراسة الصحائف والرقاق القديمة، وغرس فيه القدرة على التعليل والتحليل الشخصي لما كانت تعنيه شركة الموز بالنسبة لماكوندو. حتى إن الناس، بعد سنين من ذلك، وعندما جعل أوريليانو يختلط بهم ويشارك في عالمهم، كانوا يظنون أن روايته من صنع خياله، لأنها كانت تتعارض، جملة وتفصيلاً، مع الرواية الكاذبة المتداولة التي تبناها المؤرخون ودوّنوها في الكتب المدرسية.

كانا يجلسان في الغرفة المعزولة الكئيبة، التي لا تدخلها الريح الجافة،

ولا ينفذ إليها الغبار، ولا تطالها الحرارة. يستعيدان رؤيا كانت تتكرر في الظهور لهما. فيريان رجلاً عجوزاً، يضع على رأسه قبعة على شكل جناح الغراب. وكان يتحدث عن العالم مديراً ظهره إلى النافذة. فيتحدث عن زمن أقدم من ميلادهما كليهما.

وقد اكتشفا معاً أن الغرفة التي تشهد فيها الرؤيا تظل ذاتها لا تتغير، وأن ذلك يحدث في يوم الإثنين من شهر آذار (مارس). وعندها أيقنا أن خوزيه أركاديو بوينديا لم يكن أبله معتوهاً كما كان يروي أفراد العائلة، بل كان الوحيد، في العائلة، الذي مكنه وضوح ذهنه وصفاؤه من أن يستشف الحقيقة الأبدية، وهي أنّ الزمان يتعثر ويحفل بالحوادث، وأنه يمكن أن يتشظى فيدع في غرفة ما واحدة جزئياته السرمدية الخالدة.

وقد استطاع خوزيه أركاديو الثاني، علاوة على ذلك، أن يصنف الرموز والحروف التي في الصحائف والرقاع. كان متيقناً من أنها لا بد أن تقابل حروفاً هجائية (ألف باء) مؤلفة من سبعة وأربعين إلى ثلاثة وخمسين حرفاً. فإذا عزل كل منها على حدة بدت كخيوط العناكب وآثار أقدام الذباب. ولكنها تبدو، بخط ملكيادس الدقيق الجميل، كغسيل منشور على حبل. وتذكر أوريليانو أنه رأى لوحة شبيهة بهذه في دائرة المعارف الإنجليزية. فجاء بها إلى الغرفة كي يقارنها بتلك التي كانت مع خوزيه أركاديو الثاني. فكانت مثلها تماماً.

في تلك الفترة التي خطرت فيها لأوريليانو الثاني فكرة تنظيم يانصيب الأحاجي، كان الرجل يستيقظ وفي حلقه غصة وعقدة، فكأنما كان يحاول مقاومة الرغبة في البكاء.

وأدركت بيترا كوتيس أن سبب اضطرابه، الذي لا ينتهي، يعود إلى وضعهما السيء، فعمدت، على مدى عام، إلى دهن سقف حنكه كل صباح بعسل النحل. كما جعلت تسقيه شراب الفجل. ولكن العقدة

ألحت على أوريليانو الثاني، حتى كان يجد صعوبة في التنفس. فذهب إلى بيلار تيريزا لعلها تدله على عشبة تخفف ألمه. ولكن تلك الجدة العجوز الصلبة، التي لا يحطمها شيء، والتي كانت عندها تدير بيتاً سرياً للدعارة، أخبرته أنها لا تثق بأوهام المداواة. ثم استطلعت ورق اللعب في مشكلته. فرأت عنق (ملك الديناري) وقد ثقبها سيف (شاب السباتي). فاستنتجت من ذلك أن فيرناندا كانت تحاول إرجاع زوجها إلى البيت. فاتبعت لذلك طريقة سيئة، وهي غرز الدبابيس في صورته. ولأنها لم تكن خبيرة بفنون السحر تلك، سببت له ورماً داخلياً. ولما لم يكن لأوريليانو الثاني إلا الصور التي أخذت له بمناسبة زواجه، وكانت جميع النسخ في مجموعة الصور العائلية، فقد راح يبحث عنها في كل أرجاء البيت، مستغلاً فرص انشغال زوجته بشؤونها. وقد قاده البحث إلى أن اكتشف في أسفل خزانتها نصف دزينة من أجهزة الضغط الرافعة التي كانت ما تزال في علب منشئها.

وظنّ أوريليانو الثاني أن حلقات المطاط تلك كانت من أدوات السحر، فأخفى واحدة منها فيجيبه كي يريها لبيلار تيريزا. ولم تستطع بيلار تيريزا تحديد هوية الحلقة، ولكنها شكت فيها، فطلبت منه أن يحضر لها الباقيات. وأحرقتها جميعاً في نار كبيرة أوقدتها في الدار. ونصحت أوريليانو الثاني، لكي يتفادى المصير الذي أرادته له فيرناندا، أن يغمس في الماء دجاجة حاضنة، ثم يدفنها حية تحت شجرة الكستناء. فنفذ الوصية موقناً بنجاعتها. وما إن انتهى من دفنها وإهالة التراب والأوراق الجافة عليها حتى شعر أن تنفسه صار أفضل من السابق.

أما فيرناندا فقد عزت اختفاء الحلقات إلى انتقام الأطباء المجهولين منها، فخاطت في داخل صدارها جيباً أخفته تحت البطانة، ووضعت فيه الأجهزة الجديدة التي أرسلها ابنها إليها.

وبعد مضيّ ستة أشهر على دفن الدجاجة، استفاق أوريليانو الثاني في منتصف الليل، وقد ألحّ عليه سعال متواصل شديد، حتى أحس بأن شيئاً ما يخنقه من داخله بمخالب سرطانية. فأدرك، عندئذ، أن إحراق أجهزة الضغط الرافعة السحرية، وتعاويذ أضحيات الدجاج لا فائدة منها أمام الحقيقة الوحيدة الحزنة، وهي أنه ميت لا محالة. ولم يحدث أحداً بمخاوفه. وخاف ألا يستطيع إرسال أمارانتا أورسولا إلى بروكسل لمتابعة الدراسة، قبل أن يموت. فجد في العمل أكثر من أي وقت في حياته، حتى صار ينظم سحب اليانصيب ثلاث مرات في الأسبوع بدلاً من مرة واحدة. وكان أهل البلدة يشاهدونه وهو يجوب الأحياء، حتى يصل أبعدها وأفقرها، وهو يبيع بطاقاته الصغيرة مدفوعاً بحماسة المفارقين بالموت. وكان في تجواله، يصيح بصوت عال:

- هنا العناية الإلهية. لا تدعوا الفرصة تفوتكم، فهي لا توافي إلا مرة كل مئة عام.

وكان يحاول جاهداً أن يحتفظ بمرحه ولطفه وخفة ظله. ولكن مجرد النظر إليه، وهو يتعرق شاحباً مصفراً، كان يكفي للحكم بأنه كان يبذل ما لا طاقة له به.

كان، في بعض الأحيان، يحيد عن الطريق، فينتحي إلى أرض خالية لا يراه فيها أحد، حيث يقعد ويستريح من تلك المخالب التي كانت تمزق داخله. حتى في منتصف الليالي، وهو في أماكن اللهو الحمراء، كان يحاول تعليل النساء اللواتي كنّ يشعرن بالوحدة واليأس، يعللهن بالحظ الآني، وهن ينتحبن قرب الحاكيات (الفونوغرافات) ذات الأبواق. فتراه يقول لهنّ:

- هذا الرقم لم يظهر في السحب (لم يربح) منذ أربعة أشهر. لا تدعن الفرصة تفوتكن. فالحياة أقصر مما تتصورن.

وانتهى الأمر بالناس إلى الكفّ عن احترامه. صاروا يسخرون منه. وعزفوا في الشهور الأخيرة عن عادتهم في مناداته بالدون أوريليانو، حتى بات بعضهم يسميه، في وجوده، بالسيد «العناية الإلهية». وبدا النشاز في صوته، حتى أفلت منه توازنه. ثم انطفأ الصوت أخيراً حتى بات كأنه أنين كلب. ولكن حالته لم تثنه عن الإسراع في إجراء سحب الجوائز الكبرى في دار بيترا كوتيس. وحين طال فقدان صوته، وأدرك أنه لم يعد يستطيع احتمال ألمه فترة أطول، أيقن أنه لن يتمكن من إرسال ابنته إلى بروكسل بما كان يعود عليه من يانصيب الخنازير والعجول. فعمد إلى تنظيم اليانصيب الهائل على كل الأراضي التي أتلفها الطوفان، ويستطيع أصحاب رؤوس الأموال أن يستصلحوها.

وكانت تلك مبادرة عظيمة هلّل لها رئيس البلدية، وعبّر عن استعداده للإعلان عنها بنفسه. وتألفت الجمعيات لشراء البطاقات بسعر مئة بيزو للبطاقة الواحدة. وبيعت البطاقات كلها في أقل من أسبوع. وفي ليلة السحب أقام الفائزون بالجائزة الكبرى حفلة لم يشهد لها مثيل. فكانت كواحدة من الحفلات التي كانت تنظم أيام شركة الموز المشهورة. وعزف أوريليانو الثاني، للمرة الأخيرة في حياته، على الأكورديون ألحان فرانسيسكو الرجل المنسية. ولكنه لم يستطع أن يؤديها غناء.

وبعد شهرين من ذلك الحدث، سافرت أمارانتا أورسولا إلى بروكسل. وأعطاها أوريليانو الثاني كل ما ربحه في ذلك اليانصيب الكبير، وما كان ادّخره في الشهور السابقة، وأضاف إلى ذلك ثمن البيانو الآلي والكلافسان وسائر التحف التي باعها بعد أن فقدت في البيت قيمتها.

كان ذلك المال ـ طبقاً لحساباته ـ كافياً لدراسة ابنته، فلم يبقَ عليه إلاّ أن يوفر أجر سفر عودتها إلى البلاد.

وعارضت فيرناندا تلك الرحلة حتى آخر لحظة. فقد أزعجها التفكير في أن بروكسل قريبة من بلد الضياع: باريس. ولكن الأب أنخيل هدّأ من روعها بأن زوّدها برسالة إلى مدرسة داخلية للبنات الكاثوليكيات تديرها الراهبات. ووعدت أمارانتا أورسولا بأن تعيش فيها حتى نهاية الدراسة. واستطاع الأب أنخيل أيضاً من تسفيرها مع جماعة من راهبات الفرانسيسكان، كانت في طريقها إلى طليطلة، على أمل أن يجدن أناساً يوثق بهم فيصحبونها إلى بلجيكا.

وبينما كانت المراسلات المستعجلة تسير بطريقة رائعة، لكي يتم تنسيق جوانب كل تلك الأمور بعضها مع بعض، كان أوريليانو الثاني، وبيترا كوتيس يرتبان أمتعة أمارانتا أورسولا. وفي نفس الليلة التي فرغا فيها من ترتيب أشياء الطالبة في أحد صناديق زفاف فيرناندا القديمة، كانت الطالبة تحفظ عن ظهر قلب الثياب التي ستلبسها، مع الحذاء المخملي الواطي، والتي ستقطع بها المحيط الأطلسي، وتعرف مكان المعطف الأزرق بالأزرار النحاسية، وحذاء الجلد القرطبي الذي ستنتعله عندما تصل الشاطىء.

وقد تعلمت كيف تمشي وهي تصعد الجسر الممتد بين الرصيف والسفينة، كي لا تسقط في الماء. وأدركت أنها ينبغي ألاّ تفارق الراهبات، وألاّ تخرج من حجرتها إلاّ لتناول الطعام، وألاّ تجيب عن أي سؤال يلقيه عليها مجهول من أي الجنسين كان، ومهما كان السبب وطوال الرحلة.

وقد صحبت في جعبتها حقّاً صغيراً فيه سائل لعلاج دوار البحر، ودفتراً كتب فيه الأب أنخيل، بخط يده، ستة أدعية ضد العاصفة. وخاطت لها فيرناندا حزاماً من قماش سميك تحفظ فيه مالها، وعلمتها الطريقة التي تضعه بها، فلا تنزعه حتى عندما تنام. وأرادت منها أن

تأخذ معها إناء الغرفة الذهبي (الخاص بالتبول) بعد أن غسلته وطهرته وعقمته. ولكن أمارنتا أورسولا خشيت أن تسخر منها رفيقاتها في الكلية.

وبعد أشهر من ذلك التاريخ، تذكر أوريليانو الثاني، وهو على فراش الموت، آخر مرة رآها فيها، وهي تحاول عبثاً أن تنزل النافذة المقابلة لمقعدها، في عربة الدرجة الثانية من القطار، كي تسمع آخر وصية من فيرناندا.

كانت يومها ترتدي ثوباً من الحرير الوردي، وقد ضفرت على كتفها الأيسر باقة زهر صغيرة، من أزهار البانسي (اذكريني) الصناعية، ولبست حذاء من جلد قرطبة واطىء الكعب، وجرابين من الأطلس ينتهيان برباطين مطاطيين ينعقدان فوق ربلتي ساقيها.

كان جسمها رقيقاً، وشعرها طويلاً يتحرك بحرية. وكانت لها عينان كعيني أورسولا الحادتين جداً في مثل عمرها، وكانت لها طريقتها أيضاً في قول: «وداعاً» دون أن تبكي أو تبتسم، فتبدو للرائي قوة شكيمتها دون قناع.

كان أوريليانو الثاني يمسك بيد فيرناندا، كي لا تسقط على الأرض، ويسير وإياها بجوار القطار، الذي بدأت حركته تتسارع، حتى لم يستطع، إلا بعد لأي، أن يجيب بإشارة من يده، على القبلة التي أرسلتها له ابنته على أطراف أصابعها. وبقي وزوجته جامدين بلا حراك، في أشعة الشمس الحارقة، حتى غدا القطار نقطة سوداء في الأفق، وقد تشابك ذراعاهما للمرة الأولى في حياتهما منذ زواجهما.

في اليوم التاسع من شهر آب (أغسطس)، وقبل وصول أول رسالة من بروكسل، جلس خوزيه أركاديو الثاني وأوريليانو الصغير، في غرفة ملكيادس، يتبادلان الحديث في شؤونهما العادية. فقال له دون أن يشعر

بما كان يقول:

ـ تذكر دائماً أنهم كانوا أكثر من ثلاثة آلاف، وأنهم قد ألقوا بهم في قعر البحر.

قال هذا وسقط وجهه على الرق الذي كان بين يديه. فمات وعيناه مفتوحتان.

وفي اللحظة عينها، وفي سرير فيرناندا، انتهى أخوه التوأم (أوريليانو الثاني) إلى نهاية المطاف من كفاح طويل مرير مع مخالب السرطان الفولاذية التي كانت تلتهم حلقه شيئاً فشيئاً. وقد عاد إلى البيت، منذ أسبوع، بلا صوت. وهو مجهد غاية الإجهاد. وقد نحل حتى بدا جلداً وعظماً، وهو يصطحب حقائبه المتنقلة وأكورديون حفلاته. وكان مجيئه لكي يفي بوعد قطعه على نفسه بأن يموت عند زوجته.

أعانته بيترا كوتيس في جمع أشيائه، وودّعته دون أن تذرف دمعة، واحتفظت عندها بحذائه اللماع الذي كان يريد أن يلبسه في نعشه، فلم تسمح له به.

وعندما علمت بموته لبست ثياب الحداد السوداء، ولفّت الحذاء بجريدة، واستسمحت فيرناندا لكي ترى جثته. ولكن فيرناندا لم تسمح لها بأن تعبر عتبة باب الدار، فخاطبتها بيترا كوتيس بتوسل قائلة:

ـ ضعي نفسك في مكاني، وتصوّري كم كنت أحبه حتى أتقبل مثل هذه الإهانة.

ولكن فيرناندا أجابتها قائلة:

ـ ليس في الدنيا إهانة لا تستحقها المحظية. فانتظري موت رجل آخر من عشاقك، كي تضعي في قدميه هذا الحذاء.

ووفاءً من سانتا صوفيا بالعهد الذي قطعته، جزّت رأس خوزيه

أركاديو الثاني عن جثته بسكين المطبخ، لكي تتأكد من أنه لن يدفن حياً.

وضع جسدا الأخوين التوأمين في نعشين متماثلين، حتى تبين للناس أنهما قد عادا إلى شبههما السابق وهما ميتان، تماماً كما كانا في شبابهما.

وحضر رفقاء أوريليانو الثاني في ملذاته ولهوه، كي يضعوا على نعشه إكليلاً من الزهر، ربط عليه شريط أرجواني اللون كتب عليه:

ـ كفى، أيها البقر، فالحياة قصيرة.

وسخطت فيرناندا من قلة أدبهم واحترامهم، فألقت بإكليلهم إلى النفايات.

وفي زحمة اللحظات الأخيرة، اختلط الأمر على السكارى المحزونين، فلم يعد بوسعهم تمييز أحد النعشين من الآخر. فحملوهما من البيت ودفنوا الواحد منهما في قبر أخيه.

(١٨)

ظل اوريليانو الصغير[١] فترة طويلة دون أن يغادر غرفة مليكادس. فحفظ، عن ظهر قلب، كل الأساطير الخيالية الغريبة التي اشتمل عليها ذلك الكتاب القديم المهترىء. وعرف التركيب الخاص بدراسات هيرمان الكسيح، والملاحظات الخاصة بعلم الشيطان، ومفاتيح الحجر الفلسفي، ونبوءات نوستراداموس[٢]، والأبحاث الخاصة بالطاعون. فبلغ سن الرشد وهو لا يعرف شيئاً عن عصره، وإن كان عالماً بالثقافة الأساسية لإنسان العصور الوسطى.

كانت سانتا صوفيا، كلما دخلت إلى غرفته، وجدته منغمساً في قراءاته. كانت تقدم له فنجان القهوة المرّة عند الفجر، وتقدم له، قبيل الظهر، طبق الأرز مع شرائح الموز المقلية، وهو الطعام الوحيد الذي كان يعدّ في البيت منذ موت أوريليانو الثاني. وكانت تعنى به تماماً: فتقص له شعره، وتنظفه من الصئبان، وتفصل له ما تجده في الصناديق من ثياب قديمة. وعندما خطّ شارباه شعراً أقرب إلى الزغب، جاءته بموسى وبإناء الماء والصابون الذي كان للعقيد أوريليانو بوينديا.

لم يكن أحد من أبناء العقيد أوريليانو بوينديا يشبهه كما يشبهه أوريليانو هذا، حتى ولا أوريليانو خوزيه[٣]، وخاصة بوجنتيه البارزتين، وشكل شفتيه الحازم الشديد. وكما كانت أورسولا تظن أن أوريليانو الثاني، وهو يدرس في الغرفة، إنما كان يحدث نفسه، كذلك كانت

(١) ابن ميمي، بنت فيرناندا وخوزيه أركاديو الثاني، من الميكانيكي موريسيو بابيلونيا.

(٢) صاحب النبوءات الشهير.

(٣) ابن العقيد أوريليانو بوينديا من بيلار تيرنيرا.

سانتا صوفيا تظن بشأن أوريليانو هذا. وقد كان هو في الحقيقة يتحدث مع ملكيادس.

وفي ظهيرة أحد الأيام، وكان يوماً قائظاً، بعيد موت الأخوين التوأمين، رأى أوريليانو، في انعكاس النور على النافذة، ذلك الشيخ الحزين، بقبعته التي تشبه جناح الغراب، وكأنه ذكرى تجسّدت ماثلة في ذاكرته من قبل أن يولد.

كان أوريليانو، آنذاك، قد فرغ من تصنيف الحروف الهجائية الخاصة بالرقاع. وعندما سأله ملكيادس ما إذا كان قد إكتشف اللغة التي كتبت بها، لم يتردد في الجواب، قائلاً :

ـ السنسكريتية.

وأعلمه ملكيادس أن فرص عودته إلى تلك الغرفة باتت محدودة، ولكنه سيمضي، بسلام واطمئنان، إلى مروج الموت النهائي، وقد إرتاح ضميره، لأن الزمن الباقي أمام أوريليانو كان كافياً له لكي يتعلم اللغة السنسكريتية، فيحل رموز الرقاع المخطوطة، قبل انقضاء قرن على كتابتها. وكان ملكيادس نفسه هو الذي أشار عليه بأنه في الزقاق الصغير، الذي يؤدي إلى النهر، وفي المكان الذي كان المتنبئون يتنبؤون فيه عن المستقبل ويفسرون الأحلام، أيام شركة الموز، يوجد عالم كاتالوني يدير مكتبة فيها كتاب «مبادىء السنسكريتية»، وأن العث سوف يأكل الكتاب قبل مضي ست سنوات ما لم يبادر إلى شرائه.

ولأول مرة في حياتها، سمحت سانتا صوفيا لنفسها بالتعبير عن مشاعرها. ولم يكن ذلك سوى الدهشة الغريبة التي أبدتها عندما طلب منها أوريليانو أن تأتيه بالكتاب. وقد وجدته له فعلاً بين كتابي «تحرير القدس» و «أشعار ملتون»، على آخر الطرف الأيمن من الرف الثاني في خزانة الكتب. ولأنها كانت تجهل القراءة والكتابة، حفظت إسم الكتاب

غيباً. وباعت إحدى السمكات الذهبية السبع عشرة الباقية في المشغل، والتي لم يكن يعرف شيئاً عنها أحد غيرها وغير أوريليانو، منذ الليلة التي فتش الجنود فيها البيت وعاثوا فيه فساداً.

تقدّم أوريليانو الصغير في دراسة اللغة السنسكريتية، بينما أخذت زيارات ملكيادس تقلّ وتتباعد تدريجاً، وأخذ ينأى عن الذهن شيئاً فشيئاً، حتى راحت صورته تخبو رويداً رويداً في أوج ضوء النهار الساطع، وفي آخر مرة أحس أوريليانو بوجوده، لم يكن سوى وجود غير مرئي، وقد تمتم قائلاً :

ـ لقد مت بالحمّى على رمال سنغافورة.

ويومها زالت مناعة الغرفة ضد الحرارة والغبار، وفي مقاومة الدود والنمل الأحمر، والعث والحشرات. فغزتها حتى كادت تحيل المعرفة والحكمة المبثوثة في الرقاع إلى ما يشبه نشارة الخشب.

لم يعانِ البيت من نقص في الزاد. ففي اليوم الذي تلا موت أوريليانو الثاني، حضر إلى البيت واحد من أصدقائه، الذين حملوا إكليل الزهور فوق نعشه وعليه الكتابة الوقحة. وقد عرض ذلك الصديق على فيرناندا سداد دين كان لزوجها في ذمته. ومنذئذ، وفي كل يوم أربعاء، كان يصل إلى البيت رسول يحمل سلة فيها من الغذاء ما يكفي لأسبوع كامل.

لم يدرِ أحد أن بيترا كوتيس هي التي كانت ترسل تلك المؤن. فقد رأت في تقديم الإحسان، للمرأة التي أهانتها، خير طريقة تردّ بها لها الإهانة. ولكن أحقادها وضغائنها سرعان ما فترت وأخذت تزول بأسرع مما قدّرت هي نفسها. وهكذا، لم تنقطع عن إرسال الزاد إليهم، في البداية، غروراً ومباهاة، ثم رأفة وشفقة من بعد. فقد كانت في بعض الفترات التي تضعف فيها همتها، فلا تتمكن من بيع بطاقات اليانصيب،

أو يعزف الناس عنها، فلا يعيرونها اهتمامهم، تظل جائعة لكي تأكل فيرناندا. وما حنثت بهذا العهد، الذي قطعته وحدها على نفسها، حتى اليوم الذي مرّت فيه جنازة فيرناندا أمام بيتها.

أما سانتا صوفيا فقد وجدت في تناقص عدد سكان البيت شيئاً من الراحة، التي آن لها أن تنعم بها بعد نصف قرن من التعب والعناء. لم يعرف عن تلك المرأة الكتوم الصابرة، قط، مرة أنها شكت أو بكت أو ندبت حظها. وهي التي بذرت في العائلة بذرة ريميديوس الجميلة الملائكية، وزرعت فيها جلال خوزيه أركاديو الثاني الخفيّ الحزين.

أمضت عمرها في عزلة وصمت، وهي تسهر على تربية أطفال تكاد لا تذكر ما إذا كانوا أبناءها أو حفداءها . وقد اهتمت بأوريليانو الصغير وعنيت به حتى لكأنه خرج من بطنها، وهو لا يدري أنها جدة أمه. ولم يكن ممكناً لأي إنسان، من خارج البيت، أن يصدق أن سانتا صوفيا كانت تنام دائماً على حصير من الخيزران، بينما تصول الجرذان حولها وتجول. لم تجرؤ على أن تخبر أحداً أنها استفاقت، ذات ليلة، ترتعد فرقاً، إذ أحست أن عيناً كانت ترمقها في الظلام الدامس. ولم تكن تلك سوى عين أفعى سامة كانت تسعى على بطنها.

لم تكن تجهل أن أورسولا قد قاسمتها سريرها، وقد ذكرت لها هذا المعروف وحدثتها به. ولكن ذلك كان في الأيام التي تكاثرت فيها أعمال الخبز والطبخ. وكانت الحرب، آنذاك، في أوجها. ولم تكن تربية الأطفال لتدع للمرء فرصة لأن يفكر بنفسه وسعادته. ولم يكن ممكناً لأحد أن يكترث لشأن آخر إلاّ إذا صاح هذا في شرفة البيت بأعلى صوته.

كانت بيترا كوتيس، التي لم ترها سانتا صوفيا قط في حياتها، هي الوحيدة التي كانت تتذكرها. فقد حرصت دائماً على أن يكون لديها

الحذاء المناسب للخروج، وحرصت على أن تكون لديها الثياب اللازمة، حتى في الأوقات العصيبة التي كانت تتعثر فيها عمليات اليانصيب فلا تسير أمورها إلاّ بمعجزة. وعندما حلت فيرناندا في البيت، كانت كل الأدلة تدفعها للظن بأنها لم تكن سوى خادمة قديمة فيه. حتى بعد أن سمعت، مرات ومرات، وعلمت أنها كانت حماتها وأم زوجها، لم يزدها ذلك إلاّ استغراباً. فما دخلت تلك الفكرة رأسها إلاّ لتغادره من جديد. وما كانت سانتا صوفيا لتأبه كثيراً لوضعها وتصور الآخرين لها في المنزلة الدنيا. فقد كانت، على العكس من ذلك، يبدو عليها كأنما هي تسعد بالتنقل والحركة التي لا تهدأ في جوانب البيت ومختلف أنحائه، فلا تعرف الراحة ولا تظهر الشكوى.

كانت تسهر على النظافة، وتهتم بترتيب البيت الكبير، الذي نشأت فيه وترعرعت منذ حداثتها، والذي كان، في عهد شركة الموز، أقرب إلى الثكنة منه إلى البيت.

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد خفّت حماسة سانتا صوفيا فوق الإنسانية، منذ موت أورسولا، وفترت قدرتها العجيبة على العمل. لقد شاخت تلك المرأة الصابرة، وضعفت قواها. وشيئاً فشيئاً، أخذ البيت يعاني معها من أزمة عجز متزايدة. فبدأت الأشنة والطحالب والنباتات الطفيلية تتسلق جدرانه. ثم ما لبثت الأعشاب الضارة أن غطت أرض الدار كلها، وما لبثت أن انبثقت من تحت إسمنت الشرفة، فشققته، كما يتشقق الزجاج، وخرجت من بين شقوقه زهيرات صفراء كتلك التي وجدتها أورسولا، قبل قرن من الزمن، في الكأس التي كانت فيها أسنان ملكيادس الاصطناعية.

ولم تكن سانتا صوفيا لتجد الوقت أو الوسيلة التي تمكنها من كبح جماح الطبيعة. فراحت تقضي نهارها في طرد السحالي من غرف

البيت، لتعود هذه إلى الغرف مع حلول الليل. وقد شاهدت، في أحد الأيام، كيف أن النمل الأحمر بدأ يتخلى عن أساسات البيت بعد أن أنهكها قضماً، ويتابع رحلته عبر جنينة الأزهار، ثم ينعطف نحو الشرفة التي كانت تغطيها أزهار البيجونيا المكسوّة بغبار الأتربة، ثم ينطلق من الشرفة إلى داخل البيت.

حاولت أن تقاوم النمل الأحمر بالمكنسة، ثم بمبيد الحشرات، وأخيراً بالكلس الحيّ. ولكنه كان ما يلبث أن يعود إلى المكان نفسه في اليوم التالي. كان دؤوباً في هجومه، مثابراً قوياً عنيداً لا يقهر.

كان كل ذلك يجري، بينما فيرناندا تكتب الرسائل إلى إبنها وابنتها غير آبهة بهجوم الخراب والدمار.

وتابعت سانتا صوفيا الكفاح وحدها. فكانت تحارب الأعشاب الضارة كي لا تكتسح المطبخ. وتزيل شباك نسيج العناكب. ولكن هذه وتلك ما تلبث أن تولد من جديد. وتكشط الدود عن مواقع تكاثره. ولكنها عندما لاحظت أن غرفة ملكيادس كانت تظل تعج بالغبار وتزدحم بنسيج العنكبوت، على الرغم من أنها كانت تنظفها ثلاث مرات في اليوم، وعندما تبينت، على الرغم من حماستها الشديدة في الحرص على النظافة والترتيب، أن قدرتها وشجاعتها باتت مهددة بالإخفاق والإحباط، أيقنت أنها لا بد مهزومة أمام طابع البؤس الذي أدركه قبلها العقيد أوريليانو بوينديا وذلك الضابط الشاب الذي قام بتفتيش البيت.

عندئذ لبست ثياب الأحد القديمة المهترئة، وحذاء قديماً كان لأورسولا، وجراباً قطنياً قدمته لها أمارانتا أورسولا هدية، ووضعت الغيارين الباقيين لديها في صرة صغيرة، وخاطبت أوريليانو الصغير قائلة :

- إنني أعلن استسلامي. فلا طاقة لعظامي الضعيفة بالعمل اللازم لهذاالبيت.

وسألها أوريليانو عن المكان الذي تنوي الذهاب إليه، فرسمت له بيدها إشارة غامضة تعني أنها لا تعرف إلى أين ترحل. ثم حاولت أن تكون أكثر وضوحاً وتحديداً، بشكل أو بآخر، فذكرت أنها تريد أن تقضي بقية عمرها مع ابنة عم لها كانت تعيش في ريوهاشا. ولكن قولها ذاك لم يكن يبدو صحيحاً، إذ إنها قد فقدت كل اتصال لها بالقرية منذ موت ذويها. فهي منذ ذاك الحين لم تتلقَ رسالة أو خبراً، ولم يسمعها أحد، قط، تتحدث عن واحد من أقربائها.

كانت تستعد للرحيل، وهي كما لاحظ أوريليانو، لا تملك من حطام الدنيا غير بيزو واحد وخمسة وعشرين سنتاً. فأعطاها الأربع عشرة سمكة الذهبية، وراح يرقبها، محدقاً فيها، وهي تعبر الدار حاملة معها صرتها الصغيرة، تجرر قدميها، وقد أحنت ظهرها السنون. وراقبها وهي تدخل يدها في فتحة الباب كي ترجع المزلاج وراءها. ولم يعد أحد، بعد ذلك، يعرف عنها شيئاً.

عندما علمت فيرناندا بمغادرة سانتا صوفيا (التقية) للمنزل، راحت تولول وتصرخ، وهي تذرع الدار وغرف البيت، ذاهبة آيبة، لكي تطمئن أنها لم تحمل معها شيئاً. وقد أحرقت أصابعها عندما حاولت إشعال الفرن، للمرة الأولى في حياتها. وتوسلت لأوريليانو أن يعلمها كيف تعدّ القهوة. ومرت الأيام، وشيئاً فشيئاً آلت إليه مسؤولية إعداد الطعام في المطبخ. فكانت فيرناندا، متى استيقظت، وجدت فطورها جاهزاً. وما كانت لتغادر غرفتها إلا لتحمل الصحاف والأطباق التي وضعها أوريليانو على النار لتنضج، فتنقلها إلى المائدة، حيث تجلس لتتناول طعامها على سمط غلكتان، بين الشمعدانات، وحيدة، عند طرف الطاولة، وأمامها خمسة عشر مقعداً خالياً.

كانت فيرناندا وأوريليانو (الصغير)[1] يعيشان في عزلة عن العالم. وكان كل

(١) هو حفيدها، ابن ابنتها ميمي من الميكانيكي موريسيو بابيلونيا.

منهما يعيش في عزلة عن الآخر. فهما لا يشتركان في شيء. كلاهما يقوم بعمله في غرفته، بينما تتابع العناكب عملها، هي الأخرى، في نسج بيوتها، التي باتت شباكها تجلل أشجار الورد، وتغطي أخشاب السقف، وتستر سطوح الجدران.

في تلك المرحلة خيّل لفيرناندا أن الأشباح تسكن البيت. فقد بدا لها أنّ الأشياء، وبخاصة ما كان منها قيد الاستعمال، تتبدل مواقعها. فكانت تمضي معظم وقتها وهي تبحث عن الشيء، كالمقص مثلاً، على الرغم من تأكدها من أنها تركته على السرير. وبعد أن تقلب عالي البيت سافله، تجد المقص على رف المطبخ، وهي التي لا تذكر أنها دخلت المطبخ لأربعة أيام خلت. وقد تفتح درج أدوات المائدة مرة، فتفاجأ بأن لا تجد فيه شوكة واحدة. ثم تجد ستاً منها، فجأة، فوق المذبح، وثلاثاً أخرى فوق المغسلة. وقد كادت هذه الأمور تدفعها إلى اليأس. فإذا جلست لتكتب لابنها وابنتها، ووضعت المحبرة على يمينها، تجدها فجأة على يسارها. وتبحث عن النشّافة في كل مكان، لتجدها من بعد تحت وسادتها. وتختلط الصفحات التي تكتبها لابنها خوزيه أركاديو بالصفحات التي تكتبها لابنتها أمارانتا أورسولا. ولا تستطيع، أحياناً كثيرة، تجنب مشكلة أخرى كبيرة، إذ تضع رسالة خوزيه أركاديو في غلاف أمارانتا ـ أورسولا. وتكرر منها ذلك. ففي أحد الأيام فقدت ريشتها، وإذا بساعي البريد يردها إليها بعد أن وجدها في جعبته، وتنقل من باب إلى باب كي يستدل على صاحب الريشة.

وخيّل إليها، في البداية، أنّ كل ذلك إنما كان بفعل الأطباء المجهولين. وازداد ظنها عندما أضاعت الأجهزة، فبدأت بكتابة رسالة إليهم، ترجوهم فيها أن يدعوها وشأنها بسلام. وتوقفت عن الكتابة لقضاء حاجة لها، فلما عادت إلى الغرفة لم تجد الرسالة، وعلاوة على ذلك

زايلتها الرغبة في الكتابة.

وتوجه ظنها، في وقت من الأوقات، إلى أوريليانو. فراحت تراقبه مراقبة دقيقة. وتعمدت وضع بعض الأشياء في طريقه، علها تفاجئه في اللحظة التي يبدل مكانها. ولكنها سرعان ما اقتنعت بأنه لا يغادر غرفة ملكيادس إلاّ حين يدخل المطبخ أو بيت الخلاء. وبأنه ليس من الصنف الذي يحب المزاح.

وهكذا، تأكد لدى فيرناندا أن ما كان يحدث لها من أمور إنما كان شيئاً من أذى الأرواح والشياطين. فجعلت تعلق كل شيء في المكان الذي يمكن أن تستخدمه فيه. فربطت المقص عند رأس السرير، بالقرب من رأسها بخيط طويل. وربطت الريشة والنشّافة بقائمة الطاولة، وثبّتت المحبرة، بالصمغ، على سطح الطاولة، إلى يمين الموضع الذي كانت تكتب عادة فيه. ولكن ذلك كله لم يحمل حلاً لتلك المشكلات لليلة واحدة. فبعد بضع ساعات من ربط المقص بالخيط، بدا الخيط قصيراً لا يمكنها من القص به. فكأن الأرواح قد قصّرته. وحدث الشيء ذاته لخيط الريشة. بل إن ذراعها نفسها قصرت عن بلوغ المحبرة بعد فترة وجيزة من الكتابة.

لم تعلم أمارانتا أورسولا في بروكسل، ولا خوزيه أركاديو في روما، شيئاً عن تلك المنغصات التافهة. فقد كانت فيرناندا تخبرهما بأنها سعيدة، لسبب بسيط هو أنها قد تحررت من كل المسؤوليات والواجبات، حتى لكأن الحياة قد أعادتها إلى عالم ذويها. ولذلك لم يتأثر ولداها بمشكلات الحياة اليومية تلك، لأن الحياة، في خيالهما، كانت خالية من المشكلات.

كانت رسائلها المستفيضة، التي لا تنتهي، تصرفها عن الإحساس بالزمان، وخاصة بعد رحيل سانتا صوفيا. فقد اعتادت أن تحسب الأيام

والشهور والسنين. وترقبها، انطلاقاً من معالم ثابتة في ذاكرتها. وهي المواعيد المحدّدة لعودة ولديها. وعندما غيّرا موعد عودتهما، المرة تلو الأخرى، أصيبت بالارتباك. واختلطت عليها التواريخ باختلاف المواعيد، وتشابهت عندها الأيام، حتى فقدت الإحساس بمرور الزمن. ولكنها بدلاً من أن ينفد صبرها شعرت بنوع من الغبطة والسعادة في ذلك التأخير.

لم تقلق فيرناندا حين أخبرها ابنها خوزيه أركاديو أنه كان ينتظر الانتهاء من الدراسة العليا في اللاهوت لكي يبدأ بالدراسات الدبلوماسية، على الرغم من أن بضع سنين قد انقضت على الموعد الذي حدده لتأديته القسم الأخير. فقد كانت تدرك أن طريق الدرج اللولبي المؤدي إلى كرسي القديس بطرس كانت طريقاً صعبة ومحفوفة بالعقبات. وقد كانت، من ناحية أخرى، تتحمس لأمور تبدو غير ذات أهمية للآخرين، كأن تعلم، مثلاً، أن ابنها قد شاهد البابا. وقد غمرتها سعادة مماثلة عندما أخبرتها ابنتها ـ أمارانتا أورسولا ـ أن دراستها سوف تستغرق وقتاً أطول عما كان مقدرًا لها، لأن علاماتها الممتازة قد أهلتها للحصول على بعض الامتيازات التي لم يعتبرها أبوها حين أجرى حساباته.

كان قد مضى نيّف وثلاث سنين على الوقت الذي جلبت فيه سانتا صوفيا كتاب القراءة لأوريليانو، عندما نجح هذا الأخير في ترجمة الصحيفة الأولى من الرقاع. ولم تكن النتيجة غير مفيدة، ولكنها لم تتجاوز الخطوة الأولى على طريق طويلة لا يمكن التنبؤ بآخرها. ذلك أن النص، في الإسبانية، كان بلا معنى. فهو مجرد أسطر كتبت بالأرقام والرموز. ولم تكن لدى أوريليانو الوسائل لوضع أدلة تكشف له معانيها وأسرارها. ولكن ما دام ملكيادس قد أعلمه أن مكتبة العالم الكاتالاني الحكيم تحوي جميع الكتب التي يحتاجها للكشف عن معاني المخطوطات

والرقاع، فقد عزم على مفاتحة فيرناندا، علها تسمح له بجلبها.

جلس في الغرفة التي كانت تعاني من زحف خراب عليها لا يمكن قهره، وجعل يفكر في البحث عن أفضل طريقة لتقديم طلبه. ولكنه عندما التقى فيرناندا وهي تنقل الطعام عن النار، وهي الفرصة الوحيدة التي يمكنه أن يحدثها فيها، أُرتج عليه حتى لكأن الكلام توقف في حلقه، فنسي ما كان قد أعده، بعد تعب شديد لهذه الغاية، وضاع صوته.

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي راقب فيها أوريليانو فيرناندا. فراح يصغي لخطواتها في غرفة النوم، ويستمع إليها وهي في طريقها إلى الباب تستقبل وصول الرسائل من ولديها، وتسلم رسائلها، الموجهة لهما، إلى ساعي البريد. وكان ينصت، حتى ساعة متأخرة من الليل، لصوت الريشة الخشن الشديد على الورق، إلى أن يسمع حركة انطفاء الضوء، وتمتمة الصلوات في الظلام. وعندها كان يأوي إلى فراشه لينام، على أمل أن يمنحه الغد الفرصة التي ينتظر. ولطالما منّى النفس بأنها لن ترفض السماح له.

وفي صباح أحد الأيام، قصّ شعره الذي كان يتدلى على كتفيه، وحلق لحيته الشعثاء، ولبس بنطالاً ضيقاً وقميصاً ذا ياقة إضافية، لا يعرف عمن ورثها، وجلس في المطبخ ينتظر أن تأتي فيرناندا لأخذ فطورها. ولكن المرأة التي وصلت إلى المطبخ كانت غير المرأة التي كان يراها كل صباح. كانت امرأة أخرى. لم تكن المرأة التي اعتاد أن يراها رافعة الرأس، متعجرفة الشكل، حجرية الملامح، بل كانت عجوزاً متصابية ذات جمال فوق عادي وغير طبيعي، تسير كتمثال، وقد ارتدت معطف سمور اصفرّ لونه، وجللت رأسها بتاج من ورق مقوّى مذهّب. تشير خطواتها إلى أنها متعبة، كأنما قضت ليلها باكية بصمت وسريّة.

والواقع أن فيرناندا قد دأبت، منذ أن وجدت تلك الحلة الملكية في

حقائب ملابس أوريليانو الثاني، على أن تلبسها بين الحين والآخر، على الرغم من أن العث كان قد أنهكها فأبلاها. ولو أن أحداً رآها أمام المرآة، وقد بدت ملامحها الملكية، لظنها مجنونة. ولم تكن فيرناندا مجنونة فعلاً. فكل ما في الأمر أنها قد حوّلت تلك العلائم والإمارات الخارجية إلى آلة للذكريات.

في المرة الأولى التي ارتدت فيها تلك الحلة لم تستطع كبح قلبها عن أن ينقبض وعينيها عن أن تغرورق بالدموع. ذلك أنها، في تلك اللحظة نفسها، شمت رائحة صباغ الحذاء العسكري الذي كان يلبسه ذلك الرجل الذي جاء إلى أهلها فأخذها كي يجعل منها ملكة. وعندها أشرقت روحها بالحنين إلى أحلامها الضائعة. ولكنها أحست فجأة بأنها عجوز تقترب من نهايتها، وتبتعد، شيئاً فشيئاً، عن أجمل ساعات حياتها، فأسفت وحزنت حتى من أجل الساعات التي شهدت أسوأ الذكريات. واكتشفت أنها كانت بحاجة ماسة إلى نفحات الأوريجان في الشرفة، وإلى أنفاس الورود قبيل الغروب، بل إلى مزاج الغرباء الحيواني الثقيل، أولئك الذين كانوا يفدون إلى الدار.

إن قلبها المفعم بالرماد المكبوت، ذلك القلب الذي قاوم جميع صدمات الحياة الواقعية دون تعب أو كلل، قد انهار الآن أمام أولى هبّات الحنين. كانت الحاجة للشعور بالحزن قد أصبحت رذيلة بعد أن أنهكتها السنون. ولكن العزلة قد جعلتها إنسانية. ولكنها، على الرغم من ذلك، عندما دخلت المطبخ في ذلك الصباح رأت فتى مراهقاً شاحب الوجه، معروق الهيئة، يقدم لها فنجان القهوة، وفي عينيه تتلألأ صبوة مشدودة، أحست بجرح بليغ لكبريائها.

ولم ترفض فيرناندا السماح له بالذهاب إلى المكتبة وحسب، بل عمدت، عندئذ، إلى حمل مفاتيح الدار في الجيب الذي تخبىء فيه

الأجهزة الرافعة الضاغطة غير المستعملة.

وقد كانت احتياطاتها تلك أمراً لا ضرورة له ولا نفع فيه. فقد كان بوسع أوريليانو، لو شاء، أن يخرج من البيت ويعود دون أن تراه أو تعلم بأمره. ولكنه عزلته الطويلة في سجنه، وجهله بالعالم، وعادة الطاعة التي تأصلت فيه، جميعها قد وأدت في قلبه كل بذور الثورة والتمرد.

انكفأ أوريليانو إلى غرفته، يعيش في عزلته. يقرأ ويعيد قراءة الصحائف والرقاق. وينصت إلى فيرناندا وهي تبكي في غرفتها حتى الهزيع الأخير من الليل. وذات صباح، جاء إلى المطبخ ليوقد الفرن حسب عادته. فوجد الطعام الذي تركه لها البارحة، كما هو، فوق الرماد المنطفىء. وعندما ذهب إلى غرفة نومها، فألفاها مستلقية على السرير، وقد غطت نفسها بمعطف السمور. وقد بدت كأجمل ما تكون، بل أجمل مما كانت في أية لحظة من حياتها، حتى لكأنها استحالت صدفة من عاج.

وبعد أربعة أشهر من ذلك، وعندما وصل ابنها، خوزيه أركاديو، وجد أنها ما زالت على حالها سليمة كأن لم يمسسها شيء، وكأن لم يصبها أي أذى.

كان من المستحيل أن يشبه رجل أمه كما كان خوزيه أركاديو. كان يرتدي حلة من التفتا القاتمة، وقميصاً له ياقة مستديرة قاسية، وشريطاً حريرياً ناعماً اتخذه على شكل ربطة عنق. كان شاحب اللون، متعب الهيئة، له نظرة فزعة، وشفتان ضعيفتان. كان شعره أسود ناعماً مصقولاً، سرّحه بحيث جعل في وسطه خطاً مستقيماً فارغاً، كأنه من شعر تماثيل القديسين المستعار. وكان الظل المترائي على لحيته التي حلقها بعناية واهتمام شديدين، يعكس على وجهه البارافيني ظل وجدانه وضميره. كانت يداه ناحلتين باهتتين، تبدو العروق الخضر ظاهرة فيهما،

وتنتهي كل منهما بأصابع كالطفيليات. وفي السبابة اليسرى من أصابعه خاتم ذهبي فيه حجر كريم ملوّن مستدير.

لم يحتج أوريليانو، عندما فتح له الباب، أن يسأله عمن يكون، فقد كان واضحاً أنه قادم من مكان بعيد. وقد عبق البيت، عند دخوله برائحة العطر الذي كانت تضعه أورسولا على رأسه، في صغره، كي تستدل عليه في ظلال ما كانت تعيش فيه من ظلام. وقد ظل خوزيه أركاديو، بشكل يستعصي على التفسير، ذلك الطفل الخريفي المكتئب الحزين الوحيد.

اتجه، من فوره، إلى غرفة نوم أمه، التي كان أوريليانو قد دأب على تبخيرها بأبخرة الزئبق المغلي، طوال أربعة أشهر، مستخدماً ورق جدّ جدّه، لكي يحفظ الجثة حسب معادلة ملكيادس. ولم يوجه خوزيه أركاديو إلى أوريليانو أي سؤال. بل قبّل جبين أمه الميتة، وسحب من تحت تنورتها الجعبة المخبوءة في البطانة، التي كانت تحوي الثلاثة الأجهزة الرافعة الضاغطة، وهي بعد غير مستعملة، ومفتاح خزانة ثيابها. وقد فعل كل ذلك بدقة وثبات لا يتوافقان مع هيئته المرهقة.

وأخرج من الخزانة صندوقاً صغيراً مجللاً بالحرير الدمشقي، يحمل شارة العائلة. وقد وجد في داخل الصندوق، الذي ضاعت منه رائحة خشب الصندل، الرسالة الطويلة التي أراحت بها فيرناندا قلبها من عناء الحقائق التي كانت تخفيها عنه. قرأ الرسالة وهو واقف، بثقة ووضوح ودقة، ولكن دون نهم ولا قلق. وتوقف عند الصفحة الثالثة. فنظر إلى أوريليانو متفحصاً، كأنه يراه بعين جديدة يعيد بها تعرفه. ثم قال له بصوت حاد قاطع كالموسى:

ـ أنت اللقيط، إذن.

ـ أنا أوريليانو بوينديا.

ـ فقال له خوزيه أركاديو:

ـ اذهب إلى غرفتك.

مضى أوريليانو إلى غرفته، ولم يغادرها مرة أخرى، بل لم يخرجه منها حب الاستطلاع، عندما سمع أصوات احتفالات الجنازة التي لم يحضرها أحد.

كان، أحياناً، يرى، وهو في المطبخ، خوزيه أركاديو يذرع البيت جيئة وذهاباً، متألماً يكاد يختنق من لهاث أنفاسه. وكان يتابع سماع خطواته في غرف النوم المتهدمة، بعد منتصف الليل. وقد مضت شهور طويلة دون أن يسمع له صوتاً، لا لأن خوزيه أركاديو لم يكن يوجه إليه كلاماً وحسب، بل لأنه كذلك لم تكن لديه أية رغبة في الحديث معه، ولم يكن لديه وقت للتفكير في غير رفاقه وصحائفه.

لدى موت فيرناندا، أخرج أوريليانو السمكة الذهبية الصغيرة قبل الأخيرة، وقصد مكتبة العالم الكاتالاني الحكيم كي يشتري ما يحتاج إليه من كتب. ولم يكترث بكل ما صادفه في طريقه، لأن الأشياء لم تشكل لديه معالم، بسبب عدم ارتباطها بذكريات لديه يقارنها بها. ولذلك فقد بدت له البيوت الكئيبة الخاوية، والشوارع المهجورة كما تخيلها في الوقت الذي كان يود أن يبذل روحه في سبيل مشاهدتها ومعرفتها. لقد أجاز لنفسه الخروج من البيت، الذي رفضته له فيرناندا، لمرة واحدة وهدف واحد، وفي أقل ما يمكن من الوقت. فكأنه عبر، بخطوة واحدة، مجموعات البيوت الإحدى عشرة الممتدة في الزقاق، بين البيت والمكتبة، حيث كانت تفسَّر الأحلام في الماضي. ودخل، منهكاً مبهور الأنفاس، إلى المكتبة الصغيرة المزدحمة، حتى لا يجد المرء فيها متسعاً للحركة.

لم يكن المكان يدل على مكتبة. فقد كان أقرب إلى مجمع للنفايات، غير أن تلك النفايات كانت كتباً قديمة، مصفوفة كيفما اتفق على

الرفوف، وقد أمعنت الحشرات فيها قضماً، فأتت على أجزاء منها.

كان صاحب المكتبة جالساً إلى طاولة، في الفسحة التي كانت مخصصة للمرور. وقد تكدست على طاولته ذاتها مجلدات ضخمة من الكتب. وكان يكتب أدباً نثرياً مستفيضاً بخط أرجواني، يبدو رائعاً، على أوراق سائبة من دفتر ملاحظات مدرسي.

كان شعر رأسه، الفضي الجميل يغطي جبينه، فيبدو كعرف الببغاء. وتوحي عيناه الزرقاوان الحادتان المبطنتان قليلاً برقة ولطف رجل قرأ تلك الكتب جميعاً. وكان يرتدي سروالاً قصيراً، وينضح عرقاً. ولم يتوقف عن الكتابة ليرى الداخل إلى المكتبة.

وعلى الرغم من تلك الفوضى، لم يجد أوريليانو صعوبة في العثور على الكتب الخمسة التي جاء للبحث عنها. ذلك أن ملكيادس كان قد عيّن له مكانها الدقيق. فوضعها، دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، أمام العالم الكاتالاني، ووضع فوقها السمكة الذهبية الصغيرة. فرمقها العالم الكاتالاني متفحصاً، وقد تقلص جفناه كحيواني البطلينوس(١). وقال بلغته، وهو يهز كتفيه :

ـ لا بدّ أنك مجنون.

ثم ناول أوريليانو الكتب الخمسة والسمكة الذهبية الصغيرة، مضيفاً بالإسبانية :

ـ إنها لك. أظن أن آخر من قرأ هذه الكتب هو إسحاق الأعمى. والأحرى بك أن تفكر جيداً في ما تفعل.

أصلح خوزيه أركاديو غرفة ميمي(٢)، ونظف الستائر المخملية ورفأها. كما أصلح حرير كلة السرير (السرير الملكي). ورمّم غرفة الاستحمام المهجورة، حيث كان سطح مغطسها مغطّى بطبقة قاسية من الوسخ.

(١) من الحيوانات الرخوية أو السمك الصدفي Clam.

(٢) هي أخته وأم أوريليانو الذي وضعته في الدير.

وجعل هذين المكانين مجال إمبراطوريته الصغيرة، بما حشد فيها من مستحضرات غريبة، وملابس قديمة شبه بالية، وعطور زائفة وجواهر تقليدية رخيصة. ولم يكن يبدو عليه أنه ينزعج من شيء في سائر الدار سوى تماثيل القديسين التي كانت حول المذبح. وهكذا، أحرقها جميعاً، في أصيل يوم من الأيام، بنار أوقدها في فناء الدار.

كان ينام إلى ما بعد الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، كل يوم، ثم يذهب إلى الحمام. وقد ارتدى سترة صفراء قديمة مطرزة بثنيات مذهبة، وانتعل حذاء خفيفاً (حفّاية أو شحاطة) لها أشرطة صفراء. وهناك يمارس طقوسه الدقيقة التي تذكر، بدقتها وطولها، بريميديوس الجميلة. فكان يعطر الحوض قبل أن يستحم بأملاح يحفظها في ثلاث علب من المرمر. ولم يكن يصب الماء على نفسه بالقرعة الخاصة بذلك، بل كان يغطس في الماء المعطر، ويتمدد فيه حتى الساعة الثانية من بعد الظهر، وقد استسلم للبرودة اللذيذة ولذكرى أمارانتا.

وبعد أيام من وصوله، تخلّى عن بزّة التفتا، بسبب الحرارة التي تجلبها والتي لا تتفق مع حرّ البلدة الشديد. ولم تكن لديه بزة أخرى. فاستبدل بها بنطالاً ضيقاً شبيهاً بالبناطيل التي كان يلبسها بيترو كريسبي خلال دروس الرقص، وارتدى قميصاً من حرير حيك من خيوط دود القز الطبيعية، وقد ظهر على صدره الحرفان الأولان من اسمه.

كان يغسل ثيابه الداخلية مرتين في الأسبوع، وينتظر بالسترة حتى تجف لأنه لم يكن لديه سواها. ولم يتناول الطعام، قط، في البيت. يخرج عندما يخف قيظ وقت القيلولة، ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل. وعندها يبدأ بممارسة السير في الغرفة، ذهاباً وإياباً، وقد علا صوت أنفاسه، كقط نائم يحلم، وهو لا ينفك يفكر بأمارانتا(١). فلم يبقَ في ذاكرته من صور البيت إلا صورتان؛ صورتها وصورة القديسين

(١) هي عمة جده.

بنظراتهم المخيفة، على ضوء مصباح النوم الخافت. فلطالما فتح عينيه، في حرّ آب (أغسطس) في روما، بينما يراود عينيه حلم يضارع الحقيقة. فكان يرى أمارانتا خارجة من حوض استحمام مرمري متنوع الألوان، وهي في ثياب الدانتيلا الداخلية الشفافة، ويدها مربوطة، وقد صورها له قلق منفاه وأرقه بصورة غاية في المثالية.

لم يتصرف كما تصرف خوزيه أوريليانو، حين حاول أن يخنق صورتها في مستنقع الحرب الدامي. جهد في أن يحفظها حية في ذاكرته، بينما كان يتمرغ في حمأة الرذيلة، ويخدع أمه برسائله التي كان يروي لها فيها كذباً تفاصيل تقدمه في مهنته البابوية. ولم يدر في خلده، ولا في خلد أمارانتا، أن رسائلهما لم تكن من كليهما سوى محض تصور وخيال. فقد ترك خوزيه أركاديو، لدى وصوله إلى روما، المدرسة الرهبانية، ولكنه واظب على الرواية الخرافية المختلقة لدراسته اللاهوت والقانون الكنسي، لعله لا يعرض للخطر سمعته وميراثه الخرافي، الذي طالما حدثته عنه أمه في رسائلها الخيالية. فقد كان يطمح أن ينقذه ذلك من حياة الفاقة والذل التي كان يعيشها مع رفيقين له في غرفة ضيقة حقيرة في حي أتراستيفيري الفقير.

وعندما تسلم آخر رسالة من أمه، فيرناندا، تلك الرسالة التي أملاها عليها إحساسها بأن الموت وشيك لا ريب فيه، لملم في حقيبته بقايا عظمته الكاذبة، وعبر المحيط في قعر سفينة تقل المهاجرين، الذي كانوا يتقوقعون على أنفسهم كحيوانات مقودة إلى مسلخ. ولم يتذوق، خلال تلك الرحلة، سوى المعكرونة الباردة والجبنة المتعفنة الممتلئة بالدود.

وقبل أن يقرأ وصية فيرناندا، ولم تكن سوى رواية تفصيلية متأخرة لدقائق شقائها، ومنذ أن شاهد الأثاث المهترىء المخلّع، والأعشاب الطفيلية الضارة التي نمت في الشرفة وتحتها، أدرك أنه قد وقع في شرك،

ولم يعد له مناص مما إنتهى إليه، بعد أن اختار لنفسه الابتعاد عن حياة الفجر الماسية، وعن هواء روما الربيعيّ الفتان.

كان يعيش أرقاً مضنياً، ويعاني من ربو يكاد يخنق أنفاسه، ويحاول أن يسبر أعماق شقائه، وهو يذرع البيت المظلم، الذي تعلم فيه الخوف من العالم، على صوت اورسولا العجوز الشبيه بصوت عقاب البحر. فقد كانت العجوز تحدد له زاوية في الغرفة، كي تهتدي إلى مكانه في الظلام، فلا يحيد عنها، لأنها الزاوية الوحيدة التي يتجنب فيها الموتى الذين ما ينفكون يجوبون البيت، بعد غروب الشمس. وكانت أورسولا تقول له :

ـ سيبلغني القديسون عن كل ما تفعله.

وانقضت أمسيات طفولته المذعورة في تلك الزاوية، وهو قاعد بلا حراك حتى تحين ساعة النوم. وكان في نومه يعيش الخوف ذاته، فيرقد على كرسي صغير، سابحاً في عرقه، مذعوراً تحت وطأة أنظار القديسين الوشاة القاسية الباردة التي ترقبه. ولم يكن لكل هذا التعذيب أية ضرورة، ذلك أن خوزيه أركاديو كان يعيش في رعب داخلي من كل ما حوله، وقد أعدته تربية الرعب تلك للخوف من كل ما كان يصادفه في حياته : من النساء في الطرقات، اللواتي قد يفسدن دمه، والنساء القريبات اللاتي يلدن أطفالاً بأذناب خنازير، وديكة القتال التي تؤدي إلى مقتل الرجال، فتأنيب الضمير ما دام المرء على قيد الحياة، والأسلحة النارية التي ما إن تلمسها حتى تتسبب بعشرين سنة من الحرب، والمغامرات الطائشة التي تؤدي إلى مستقبل مرير، وإلى الجنون، ثم إلى كل ما خلقه الله، بحكمته اللا متناهية، وأفسده الشيطان.

ويستيقظ خوزيه أركاديو من نومه وقد هصرته الكوابيس، فلا يخلصه من الرعب والفزع إلا شعاع الضوء يتسرّب من ثنايا مصراع النافذة،

ومداعبة أماراتنا له في الحمام، واللذة التي يشعر بها حين ترش له المسحوق بين فخذيه بشرابة من حرير.

وكانت أورسولا نفسها تبدو مختلفة وهي تتنقل بين أضواء البستان الباهرة، لأنها لا تتحدث هناك عن الأشياء المخيفة، بل تفرك له أسنانه بمسحوق الفحم لكي تبدو إبتسامته صافية رائعة كابتسامة البابا، وتقص له أظفاره وتصقل له حوافها، كي تبدو ناعمة، فيندهش الحجاج القادمون إلى روما، من جهات العالم الأربع، أمام نقاء يدي البابا وجمالهما، حين يباركهم. كانت تمشط له شعره وتسرحه كالبابا، وتغمسه بالماء المعطر، كي يضوع جسمه وتفوح ثيابه برائحة عطر البابا.

وقد رأى خوزيه أركاديو البابا مرة في ساحة (كاستيل غاندولفو) وهو يلقي خطاباً واحداً بسبع لغات لجمهور من الحجاج، فما استرعى إنتباهه إلا بياض يديه، اللتين كانت كما لو نقعتا في ماء الكلس، ولمعان ثوبه الصيفيّ الباهر، ورائحة عطر الكولونيا الخفي التي تفوح منه.

أمضى خوزيه أركاديو عاماً في البيت. ولكي يؤمن طعامه وشرابه، اضطر لبيع الشمعدانات الفضية، وإناء الغرفة التليد المشهور. وقد تبيّن له، في لحظة الحقيقة، أنه لم يكن في ذلك الإناء من الذهب إلا الطلاء الخفيف على شارة العائلة. وكانت سلواه الوحيدة، خلال العام، أن يجمع أطفال البلد، كي يلعبوا عنده في الدار. وكان يشاهدهم، في وقت القيلولة، وهم يتواثبون في البستان، ويقفزون على الحبال، ويغنون في الشرفة، ويؤدون ألعاب التوازن مستخدمين أثاث قاعة الجلوس. أما هو فكان يتنقل من مجموعة إلى أخرى، يعظهم ويشرح لهم قواعد حسن السلوك. واهترأ، في تلك الفترة، بنطاله الضيق وثوبه الحريري، فجعل يلبس بزة عادية إشتراها من مخازن العرب. ولكنه حرص على أن يحافظ على وقاره وكرامته المتعبة وعاداته البابوية. وقد سيطر الأطفال

على الدار كلها، تماماً كما فعلت رفيقات ميمي في الماضي. فقد كان يسمع عدوهم وتراكضهم في أرجاء الدار حتى ساعة متأخرة من الليل، يثرثرون ويغنون ويرقصون، حتى غدا البيت أشبه بمدرسة داخلية تسودها الفوضى.

ولم يأبه أوريليانو لهذا الغزو طالما أن الأطفال لم يقتربوا منه أو يزعجوه في صومعته، في غرفة ملكيادس. ولكنه، في صباح أحد الأيام، فوجىء بطفلين يدفعان باب غرفته. وذعر الطفلان من منظر رجل منفر، غزير الشعر طويله، وقد إنكب على الرقاع المكدّسة على الطاولة يحلل رموزها. ولم يجرؤ الطفلان على الدخول، فراحا يدوران حول الغرفة، ويسترقان نظرات عابرة إلى داخلها، ويثرثران دون إنقطاع. ثم ما لبثا أن شرعا يرميان بعض الحيوانات الحية من إحدى الكوى. وفي يوم من الأيام أغلق الأطفال عليه باب غرفته والنافذة من الخارج، فأمضى أوريليانو نصف نهار في خلعهما. وسرّ الأطفال بأنه لا يعاقب على ذنب، فدخل أربعة منهم، ذات صباح، إلى الغرفة، وهو في المطبخ آنذاك. وأوشكوا على إتلاف الرقاع والصحائف، ولكنهم ما إن أمسكوا بتلك الأوراق الصفراء حتى رفعتهم قوة ملائكية خفية عن الأرض، وتركتهم معلقين في الهواء، حتى عاد أوريليانو إلى الغرفة وانتزع أوراق المخطوطات من أيديهم. ومنذ تلك الحادثة لم يعد يجرؤ أحد منهم قط على إزعاجه.

كان هؤلاء الأربعة الأكبر سناً، بين الأطفال، يرتدون البناطيل القصيرة على الرغم من كونهم على عتبة البلوغ، وكانوا يهتمون كثيراً، بل يشغلون أنفسهم، بمظهر خوزيه أركاديو الشخصي. يصلون إلى الدار قبل الآخرين، فيمضون الصبيحة في ترتيب حلاقته وتدليك جسمه بالمناشف الحارة، وتقليم أظفار يديه ورجليه وصقلها، وتعطيره بماء الزهر. وكثيراً

ما كانوا يدخلون معه إلى الحمام، ليغسلوه بالماء والصابون، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، بينما يعوم هو في ماء المغطس سارحاً في تفكيره يحلم بأمارانتا. ثم يجففونه ويرشون جسمه بالمساحيق ويساعدونه في ارتداء ملابسه.

وكان أحد الأولاد، وهو أشقر الشعر أجعده قرنفليّ العينين كالأرنب، قد اعتاد النوم في البيت. وكانت الروابط التي تجمع بينه وبين خوزيه أركاديو متينة جداً إلى درجة أنه كان يرافقه في أزمات الربو التي تصيبه، دون أي كلام، ويرافقه في السير ليلاً متنقلاً في أرجاء البيت. وفي ليلة من الليالي، وبينما كانا يتنقلان، دون كلام، شاهدا في الغرفة التي كانت أورسولا تنام فيها، بريقاً أصفر يشع من خلال الإسمنت الذي استحال لونه إلى لون الكريستال، وكأن شمساً كانت تسطع من تحت الأرض فبدّلت أرض الغرفة إلى لون البلور، حتى لم يشعرا بالحاجة إلى إضاءة الغرفة. ورفعا البلاطات المكسّرة التي كان يجثم فوقها سرير أورسولا، فشعّ في وجهيهما بريق باهر. لقد اكتشفا المخبأ السرّي الذي أهلك نفسه أوريليانو الثاني سعياً للعثور عليه. ووجدوا في المخبأ أكياس القنب الثلاثة المربوطة بسلك نحاسي، وفيها سبعة آلاف ومئتين وأربع عشرة مثمّنة ذهبية، تتلألأ كأنها جمر متوقد في الظلام.

كان اكتشاف الكنز كثورة بركان. وبدلاً من أن يرحل خوزيه أركاديو إلى روما بهذه الثروة المفاجئة، التي كانت ذروة أحلامه في أيام الشقاء، حوّل البيت إلى جنة مترفة متهوّرة. فاستبدل بالستائر القديمة ستائر مخملية جديدة، وغيّر كلة السرير (الستارة أو الناموسية)، وبلّط أرض الحمام، وغطى الجدران ببلاط خزفيّ مربع. وملأ خزائن غرفة الطعام بأنواع المربّى المختلفة، ولحم الخنزير، والتوابل المحفوظة بالخل. وأصلح المخزن، وكدّس فيه أصناف الخمور والمقبلات التي يجلبها بنفسه من

محطة سكة الحديد، في صناديق كتب عليها إسمه.

وفي ليلة من الليالي أقام حفلة لأربعة أكبر الأولاد، دامت حتى الهزيع الأخير من الليل. وفي الساعة السادسة صباحاً، خرجوا من الغرفة جميعاً، وهم عراة، فأفرغوا مغطس الحمام، وملؤوه بالشمبانيا، وغطسوا فيه جميعاً، وراحوا يعبثون ويلعبون بصنوف الخمر، كسرب من العصافير السابحة في سماء تزينها فقاقيع عطرة، بينما كان خوزيه أركاديو مستلقياً على ظهره على هامش الاحتفالات، يحلم، وعيناه مفتوحتان، بذكريات أمارانتا. وقد ظلت هذه حاله، منكفئاً على ذاته متقوقعاً على نفسه، يجتر مرارة مسراته الغريبة، حتى بعد أن أنهك التعب الأولاد، فعادوا صفاً واحداً إلى غرفة النوم. وهناك انتزعوا الستائر المخملية، ليجففوا أجسادهم بها. وفي حمى الفوضى التي كانوا يعيشون، كسروا مرآة الكريستال إلى أربع قطع، ومزقوا كلة السرير وحطموا طرفيه، قبل أن يتهادوا بعد أن غلبهم الإعياء والنعاس.

وعندما عاد خوزيه أركاديو من الحمام، وجدهم غارقين في نوم عميق، وهم عبارة عن كومة من الأجساد العارية بين حطام غرفة النوم البائسة. فلم يثره منظر التلف والخراب الذي أصاب الغرفة بقدر ما هزه القرف الممزوج بالحزن والرثاء لذاته، حين وجد نفسه في فراغ مذهل. فاندفع إلى حقيبته، التي كان يحتفظ في أسفلها بأسواط، مما يستخدم في تقويم عوج المسيحي، ومسح أو ثوب من الشعر، وأدوات أخرى للتعذيب والتوبة. وتناول من تلك الأدوات ما وقعت عليه يده، ثم انطلق نحو الأولاد فطردهم من البيت ولاحقهم، وهو يجعر كالمجنون، ويصب عليهم جام ضربه بلا رأفة ولا رحمة، وكأنما هو يطارد قطيعاً من الكلاب.

ثم انكفأ خوزيه أركاديو على نفسه يعاني من أزمة ربو امتدت بضعة

أيام، ولم تزايله إلا بعد أن وسمته بسمة الموتى. وكاد يختنق بعد عذاب ليال ثلاث، حتى اضطر أن يذهب إلى أوريليانو يرجوه أن يذهب فيأتيه بدواء من المساحيق يشمه، من صيدلية قريبة.

ولم يكن على أوريليانو أن يعبر أكثر من صفين من البيوت حتى يصل إلى صيدلية صغيرة، يغطي الغبار نوافذها. وفيها دوارق وزجاجات عليها أوراق كتب عليها باللاتينية. وهناك شاهد فتاة ساحرة الجمال، كأنها حية من النيل، فناولته الدواء الذي كان خوزيه أركاديو قد كتب اسمه على قطعة من الورق.

هذه هي المرة الثانية التي يرى فيها أوريليانو البلدة المهجورة، بأضوائها الخافتة الصفراء. وهي لم تحرك فيه من حب الاستطلاع أكثر مما فعلت المرة الأولى.

وظن خوزيه أركاديو أن أوريليانو قد فرّ، وإذا به يعود لاهثاً مبهور النفس، بسبب سرعته، وهو يجرر رجليه اللتين أضعفتهما العزلة وقلة الحركة.

لم يكن أوريليانو يهتم بالعالم خارج غرفته مطلقاً. فقد خرق خوزيه أركاديو، بعد أيام من تلك الحادثة، الوعد الذي قطعه لأمه، وسمح له بحرية الخروج متى وكيفما شاء. ولكن أوريليانو أجابه قائلاً :

ـ ليس لديّ ما أفعله في الخارج.

ظل أوريليانو حبيس غرفته، مستغرقاً في رقاعه. حتى استطاع، شيئاً فشيئاً، أن يستخلص مضمونها، ولكنه لم يستطع أن يفسره. ثم أخذ خوزيه أركاديو يتردد على غرفته، حاملاً إليه، أحياناً، بعضاً من شرحات لحم الخنزير، وبعضاً من مربى الفاكهة، الذي يخلف في الفم مذاقاً ربيعياً. وقد قدّم له، في مناسبتين، بعض النبيذ اللذيذ.

ولم يأبه خوزيه أركاديو للرقاع التي كان يعتبرها تسلية فلسفية. ولكن

الذي أثار دهشته هو معرفة أوريليانو، المعتزل، بالعالم، وهي معرفة عجيبة لا تقبل التفسير. فقد اكتشف، بعد ذلك، أنه يفهم اللغة الإنجليزية المكتوبة، وأنه، في أثناء تفحصه للرقاع، قد قرأ دائرة المعارف (الأنسيكلوبيديا) بأجزائها الستة، من الغلاف إلى الغلاف، كما لو كانت رواية ممتعة. وقد عزا إلى ذلك السبب في البداية، كون أوريليانو قادراً على الحديث عن روما وكأنه قد عاش فيها سنين طويلة. ولكن سرعان ما تبين أن أوريليانو يعرف أموراً ليس لها وجود في دائرة المعارف، كأسعار الأشياء، مثلاً. وحين سأله خوزيه أركاديو عن الطريقة التي حصل بها على تلك المعلومات، لم يزد على قوله :

ـ كل شيء معروف.

أما أوريليانو، من جهته، فقد دهش للاختلاف الذي تبينه بين خوزيه أركاديو عندما يرى عن كثب، وبينه عندما يرى وهو يجوب غرف البيت ليلاً. فقد كان قادراً على الضحك، وعلى أن يبدي ملاحظات، تعج بالحنين، حول ماضي البيت وذكرياته، وعلى أن يحزن ويتألم للحال البائسة التي كانت عليها غرفة ملكيادس.

وقد مكّن التقارب بين ذينك الوحيدين، اللذين يجمعهما الدم[1]، دون أن تجمعها الصداقة، من إقرارهما على احتمال العزلة السحيقة الغور، التي تفصلهما وتوحّدهما في آن معاً. بعد ذلك، صار خوزيه أركاديو يدعو أوريليانو ليساعده في حل بعض المشكلات البيتية التي كانت تواجهه وتزعجه. وصار بوسع أوريليانو أن يجلس في الشرفة للقراءة، منتظراً وصول الرسائل من أمارانتا أورسولا، التي كانت ما تزال تصل بدقة وانتظام. وصار بوسعه أن يستعمل الحمام الذي أقصاه عنه خوزيه أركاديو لدى وصوله.

في فجر يوم شديد الحرارة، استيقظ الاثنان مذعورين على صوت قرع

(١) خوزيه أركاديو ، هذا ، هو خال أوريليانو الخالي (الصغير) .

مفاجيء وملح على الباب الخارجي. كان في الباب رجل عجوز أسمر اللون غامقه، وله عينان خضراوان واسعتان تمنحان وجهه ضياء فوسفورياً غريباً، وعلى جبهته صليب من رماد. كانت ثيابه أسمالاً رثة، وحذاؤه خلقاً ممزقاً، وعلى كتفه جعبة عتيقة، هي كل ما لديه. يخاله المرء، من منظره، سائلاً (شحاذاً)، ولو أن في هيئته وقاراً يناقض مظهره. كان يكفي أن يتأمله الناظر جيداً، ولو مرة واحدة، في ظلال قاعة الجلوس، حتى يدرك أن قوة خفية هي التي مكنته من البقاء على قيد الحياة والعيش. ولم تكن تلك القوة هي غريزة حب البقاء، بل عادة الخوف.

كان ذلك أوريليانو أمادور، أو أوريليانو العاشق، الابن الوحيد الباقي على قيد الحياة، من أبناء العقيد أوريليانو بوينديا السبعة عشر[1]. وهو الذي تاه في الأرض بحثاً عن ملاذ له في حياة الفرار الرهيب الطويل.

أعلن عن هويته، وتوسل إليهما أن يؤوياه في البيت الذي طالما حلم به في حياة النفي والتشرد التي عاشها، وكان ينظر إليه كآخر ملاذ له في الحياة.

ولكنّ خوزيه أركاديو وأوريليانو لم يذكراه. وظنّا أنه لم يكن سوى سائل غليظ، فطرداه إلى خارج البيت. ولكنهما شهدا، عند باب الدار الخارجي، نهاية فاجعة لمأساة كانت قد بدأت قبل أن يبلغ خوزيه أركاديو سن الرشد بزمن طويل. فقد خرج من بين الأشجار، المشذبة على المقابل، شرطيان كانا يلاحقان أوريليانو أمادور طوال سنين، يتتبعان آثاره حيثما حلّ في أرجاء العالم، ككلبي صيد، فأطلقا عليه رصاصتين من مسدسيهما (الموزر) خرقتا جبهته في مركز صليب الرماد تماماً.

كان خوزيه أركاديو، منذ أن طرد الأولاد من البيت، ينتظر ورود أخبار عن سفينة عابرة للمحيط سوف تسافر إلى نابولي قبل عيد الميلاد. وقد تحدث مع أوريليانو في هذا الأمر، وخطط أن يترك له عملاً تجارياً

(١) وهو ابن عم جد خوزيه أركاديو الحالي.

يضمن له العيش، لأنّ سلة الغذاء والمؤونة قد توقف ورودها إلى البيت منذ دفن فيرناندا. ولكن هذا الحلم الأخير نفسه لم يتحقق !!

ففي صباح يوم من أيام شهر أيلول (سبتمبر)، وبعد أن شرب خوزيه أركاديو القهوة مع أوريليانو في المطبخ، مضى لكي يستحم، كما يفعل كل يوم. وقبل أن يفرغ من ذلك، دخل عليه، من بين فجوات القرميد والبلاط، الأولاد الأربعة الذين كان قد طردهم من البيت. فانقضوا عليه قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه، وقفزوا إلى الحوض بكامل ثيابهم. فأمسكوه من شعره، وأخفضوا رأسه تحت الماء، حيث ثبتوه، حتى تلاشت عن سطح الماء فقاقيع الهواء الدالة على تنفسه. وانزلق جسد وريث العرش، شاحباً صامتاً، إلى قعر الحوض ذي الماء المعطر. ثم حملوا أكياس الذهب الثلاثة، التي ما كان يعرف مخبأها غيرهم وغير ضحيتهم.

كانت العملية سريعة ومنظمة ووحشية وأشبه ما تكون بعملية عسكرية. أما أوريليانو، حبيس صومعته في غرفة ملكيادس، فلم يدر بشيء مما حدث. وعندما حلّ وقت ما بعد الظهر، ولما لم يكن قد رأى خوزيه أركاديو في المطبخ، راح يبحث عنه في كل أنحاء البيت. فعثر عليه طافياً على وجه الماء المعطر فوق مرايا الحوض، وقد انتفخ وتورّمت أوصاله، وما يزال يحلم بأمارانتا. وعندها، وحسب، أدرك إلى أية درجة كان قد بدأ يحبه.

(١٩)

عادت أمارانتا أورسولا مع أوائل ملائكة كانون الأول (ديسمبر)، يدفع شراعها نسيم البحر، وهي تجرّ وراءها زوجها بحبل من حرير مربوط حول عنقه. وقد وصلت دون أن يعلم أحد بمجيئها، ودون سابق إنذار، وقد ارتدت ثوباً عاجيّ اللون، وعلقت في عنقها عقداً من لؤلؤ طال حتى كاد يصل إلى ركبتيها، وأحاطت أصابعها بخواتم مرصعة بالحجارة الكريمة من الزمرد والأزرق الشفيف (التوباز)، وقد عقصت شعرها الناعم خلف أذنيها وربطته بشريط من ذيل سنونوة رقيق.

أما الرجل الذي تزوجته قبل ستة أشهر، فكان بلجيكياً (ناطقاً بالفلمنكية)، نحيل القامة رهيف الجسم، ناضجاً راشداً، وله هيئة بحار.

وما كان عليها إلاّ أن تدفع باب غرفة الاستقبال حتى تتحقق من أن طول فترة غيابها، ومقدار الخراب الهائل الذي أصاب الدار، كانا أكثر مما بلغه خيالها. فصاحت والمرح يغالب خوفها:

ـ يا إلهي.. واضح ألاّ وجود للنساء في هذا البيت.

لم تكن الشرفة لتتسع لكل أمتعتها. فقد حملت معها، إضافة إلى حقائب أمها فيرناندا، التي شحنتها معها إلى المدرسة، محفظتين أخريين من النوع الرأسي الطويل، وأربع حقائب كبيرة للملابس، وكيساً للمظلات النسائية، وأربع علب للقبعات، وقفصاً هائل الكبر فيه خمسون من طيور الكناري، ودراجة زوجها الثلاثية العجلات، وقد

فككت إلى قطع صغيرة ووضعت في علبة خاصة تمكنه من حملها كآلة الكمان الكبيرة.

لم تمنح نفسها فرصة يوم واحد للراحة، بعد رحلتها الطويلة تلك. فلبست بعض ثياب الميكانيك القديمة، التي جلبها زوجها معه، واندفعت في محاولة جديدة لترميم البيت وإصلاحه. فبدأت بمكافحة النمل الأحمر، الذي كان قد غزا الشرفة واستقرّ فيها. فقهرته، وأعادت الحياة إلى الورود الحمراء، وأزالت العشب الطفيلي الضار بعد أن استأصلته من جذوره. وغرست نبات السرخس والأوريجان من جديد، وأعادت زرع زهور البيجونيا في الأصص على حواف الشرفة. وقادت فرقة من النجارين والحدادين والسماكرة والبنائين. فرتقوا الفجوات والثغرات في الأرض، وأعادوا تركيب مصاريع الأبواب والنوافذ في مواضعها، وجددوا الأثاث، وبيّضوا الجدران وطلوها من الداخل والخارج.

بعد ثلاثة أشهر من وصول أمارانتا أورسولا، صار بوسع الإنسان أن يشم، مرة أخرى، جو الفتوة والشباب والمرح الذي كان سائداً في تلك الدار أيام البيانو الآلي. ولم تشهد الدار مثلها نشاطاً ومرحاً. فقد كانت، على مدار الساعة، وأنى تحركت في أرجاء الدار، وفي كل مناسبة، تغني وترقص، وهي تزيل من طريقها كل بائد، وتلقي في سلة المهملات كل الأشياء المنتمية إلى غير تلك الحياة. وهكذا استطاعت أن تكنس كل الذكريات الحزينة، والعلائم الجنائزية، وأكداس النفايات العقيمة، والمواد الخرافية، التي كانت مكدّسة في الزوايا. ولم تحتفظ إلا بصورة ريميديوس الجميلة، وفاء لأورسولا، فأبقتها معلقة في قاعة الاستقبال. وكانت تصيح وهي مغرقة في الضحك:

ـ جدة عمرها أربعة عشر عاماً.

وعندما روى لها أحد البنائين أنّ الدار مسكونة بالأشباح، وأن الوسيلة

الوحيدة لطردها هي في البحث عن الكنوز المخبأة فيها، أجابت، وهي مقهقهة ضاحكة، بأنها لا تؤمن بالخرافات، وأنه لا يليق بالرجال أن يكونوا خرافيين.

كانت عفوية جداً، ومتحررة تتمتع بروح حديثة حرة جداً، حتى إن أوريليانو لم يدر ماذا يفعل بنفسه عندما رآها تصل إلى الدار[١]. أما هي ففتحت ذراعيها له وصاحت، تعبيراً عن فرحها وسعادتها به، وقالت:

- يا إلهي.. يا لمحبوبي الهمجيّ آكل لحوم البشر. أنظر كم كبر وكيف صار.

وقبل أن يصدر عنه أي ردّ فعل، كانت قد وضعت أسطوانة الحاكي (الفونوغراف) النقال، الذي أتت به معها، ثم أخذت تعلمه إحدى أحدث الرقصات. وبعد ذلك أجبرته على تبديل بنطاله الرث، الذي ورثه عن العقيد أوريليانو بوينديا، وأعطته بعض قمصان الشباب المرحة، وحذاء حديثاً ذا لونين. وعندما لاحظت أنه يمضي أكثر مما ينبغي من الوقت في غرفة ملكيادس، جعلت تحثه على الخروج إلى الشارع كي يرى العالم في الخارج.

كانت نشيطة فعالة، وصغيرة، وعنيدة كأورسولا. وتكاد تكون في مثل جمال ريميديوس الجميلة وإغرائها. وقد وهبتها الطبيعة غريزة نادرة جعلتها تكون دائماً أسبق من أزياء الموسم والشهرة. فكانت، عندما تصلها مجلات التفصيل والخياطة الحديثة، تكتشف أنها لا تنفعها كثيراً. فهي تراجعها، وحسب، كي تطمئن إلى أنها لم تخطىء في النموذج الذي إبتكرته وخاطته على آلة الخياطة البدائية العتيقة التي كانت لأمارانتا.

كانت على معرفة بكل مجلات الأزياء، وبالأخبار الفنية، والموسيقى الشعبية، التي تنتشر في أوروبا. وكان يكفيها أن تلقي نظرة عابرة عليها حتى تعرف أن الأمور، في العالم، كانت تجري على ما تخيلتها عليه.

(١) أمارانتا أورسولا هي خالة أوريليانو الحالي (الصغير)، ابن ميمي.

ولم يكن أحد يدرك لماذا وكيف اختارت امرأة مثلها، وفي مثل عقليتها وروحها، العودة إلى بلدة ميتة، يسفحها الغبار، ويسحقها الحر. ولها زوج يملك من المال ما يكفيه أن يعيش عيشة رخية راضية في أي مكان يختاره في العالم. وهو يحبها إلى الدرجة التي جعلته يقبل فيها أن تجره إلى تلك البلدة برسن من حرير.

كانت رغبتها في البقاء في البلدة تتوضح أكثر فأكثر، مع مرور الزمن. فقد بدأت تفكر بمشاريع كبيرة طويلة الأجل. وجعلت تتخذ قرارات من شأنها أن تعد لها حياة هادئة ناعمة لشيخوخة مستقرة في ماكوندو. وكان قفص طيور الكناري خير دليل على أن خطتها لم تكن مرتجلة أو وليدة ما هي فيه. فقد ذكرت رسالة وصلتها من أمها، أخبرتها فيها بموت الطيور، فأخرت رحيلها بضعة أشهر، حتى تجد باخرة تتوقف في الجزر السعيدة. وهناك اختارت خمسة وعشرين زوجاً من أجمل أنواع الكناري، لعلها تعيد الحياة إلى سماء ماكوندو. وقد حاولت محاولات كثيرة لتحقيق تلك الغاية. ولكن هذه كانت أكثر مشروعاتها الكثيرة الفاشلة إخفاقاً.

كانت أمارانتا أورسولا، كلما تكاثرت الطيور عندها، أطلقت منها عدداً معادلاً للمواليد الجدد من الفراخ. ولكنها كانت، ما إن تنطلق بحرية، حتى تبادر إلى مغادرة البلدة. وقد جهدت طويلاً لأن تحببها ببرج الطيور الذي بنته أورسولا، يوم رممت البيت وجددت بناءه، وصنعت لها أعشاشاً من نبات الحلفاء على أشجار اللوز، ورشت لها الذرة البيضاء على سطوح المنازل. وهاجت الطيور الحبيسة في القفص، علّ صداحها يثني الطيور الطليقة عن فرارها. ولكن، عبثاً. فما كانت تحلق في السماء، حتى تدور فيها دورة واحدة، تكفيها لاكتشاف موقعها وتبيّن طريق العودة، ثم تيمم شطر الجزر السعيدة.

وعلى الرغم من مضيّ عام على عودة أماراتنا أورسولا، دون أن تستطيع اتخاذ أصدقاء أو إقامة حفلة واحدة، فقد ظلت تؤمن بأنها قادرة على إنقاذ أهل البلدة من الشقاء الذي أصابهم. ولم يشأ زوجها (غاستون) أن يعارضها، مع أنه أدرك منذ هبوطه من القطار، في حرّ ظهيرة قاتلة، أن ما أملى على زوجته قرارها لم يكن إلاّ حنيناً إلى سراب. كان واثقاً من أن الواقع سوف يقهرها، فلم يكلف نفسه عناء تركيب دراجته. فاهتم بجمع أكبر بيوض العناكب من بيوتها التي كان يزيلها البناؤون، فيفقسها بين أظافيره، ويتأمل العناكب الصغيرة التي تخرج منها بعد ست ساعات طويلة. وعندما لاحظ أن أماراتنا أورسولا لا تتابع إصلاحاتها إلا من أجل ألاّ تقرّ بالهزيمة، قرّر أن يركّب دراجته الجميلة، التي كانت عجلتها الأمامية أكبر بكثير من عجلتها الخلفية. ثم كرّس وقته لإصطياد كل ما كان يصادفه من الحشرات في المنطقة، ليعالجها ثم يرسلها، في أوان حافظة، إلى أستاذه القديم للتاريخ الطبيعي في جامعة ليب، حيث أتم دراسته العليا في علم الحشرات، مع أنه كان طياراً في مهنته.

. كان، عندما يركب دراجته، يرتدي بنطال بهلوان راقص على الحبال، وجرابي عازف القرب، وقبعة بوليس سريّ، كتلك المعروفة في قصص شيرلوك هولمز. أما إذا سار ماشياً فكان يرتدي بزة جوخ طبيعية لا عيب فيها، ويلبس حذاء أبيض، وربطة عنق حريرية، ويضع على رأسه قبعة بحريّ، ويحمل بيده عصا من خيزران.

كانت عيناه الشاحبتان تؤكدان هيئة الملاح فيه، وكان له شاربان كأنما هما من صوف سنجاب. وكان يكبر زوجته بخمسة عشر عاماً، ولكن مزاجه الطفولي، وعزمه الفتيّ على جعلها سعيدة، إضافة إلى مؤهلات العاشق التي يتصف بها ؛ كانت جميعاً تعوّض الفارق في السن. والواقع

أنّ الذين كانوا ينظرون إلى ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين من العمر، المتحفظ في سلوكه وعاداته، بحبل الحرير حول عنقه، وبدراجته الشبيهة بدراجات السيرك، ما كان يخطر لهم، أو أن يتخيلوا، أنه قد وقّع مع زوجته الصغيرة عقداً. وما كان لأحد أن يتخيل أنه كان يغريه، كما يغريها، لقاء المضاجعة في أقل الأمكنة مناسبة لذلك، وكلما أحسا بالدافع إلى ذلك.

فقد ظلا كما كانا في أول لقاء لهما، تشدهما، الواحد إلى الآخر، عاطفة ما تنفك تضرمها، يوماً بعد يوم، أحداث غير منتظرة، فتعمقها وتزيدها أواراً. ولم يكن غاستون بالعاشق العنيف وحسب، ولم يكن ذا حكمة واسعة وخيال رحب وحسب، ولكنه ربما كان، كذلك، الرجل الأول، في تاريخ النوع الإنساني، الذي قام بعملية هبوط اضطرارية، كاد يلاقي وحبيبته فيها الموت، من أجل هدف واحد، وهو أن يتبادلا الحب في حقل من أزهار البنفسج.

لقد تعارفا قبل ثلاث سنوات من زواجهما. وكان في ذلك اليوم يقوم بطيارته، ذات المستويين، بألاعيب بهلوانية فوق كلية أماراتنا أورسولا، وجرّب، بمناورة جريئة، أن يجانب سارية علم الكلية، فعلق إطار الراية القديم وصفيحة الألومنيوم بذنب الطائرة بفعل بعض الأسلاك الكهربائية.

ومنذ تلك الحادثة، جعل يمرّ بالكلية، في نهاية الأسبوع، كي يخرج مع أماراتنا ـ أورسولا، من سكن الراهبات الداخلي حيث كانت تقيم، وحيث لم تكن الأنظمة متشدّدة، كما كانت فيرناندا تريدها. وكان يصحبها إلى ناديه الريفي. وبدأ الحب بينهما، وهما على ارتفاع ألف وخمس مئة قدم، في جو يوم أحد، فوق الأراضي القفر. وكان حبهما يزداد بازدياد صغرالكائنات على الأرض.

كانت تحدثه عن ماكوندو، أبهى وأهدأ بلدة في العالم، وعن بيت كبير يعبق برائحة الأوريان، حيث تتمنى أن تقضي شيخوختها مع زوج وفي وصبيين. نجيبين تسميهما : رودريو وغونزالو، لا أوريليانو ولا خوزيه أركاديو، وبنت تسميها فيرجينيا، لا ريميديوس. وقد أبدت بذكرياتها تلك حرارة وحنيناً وتعلقاً بالبلدة التي جمّلها الحنين ونزّهتها العاطفة، فأدرك غاستون أنها لن تقبل الزواج منه ما لم يوافق على إعادتها إلى ماكوندو. فوافق على ذلك. كما وافق من بعد على رباط الحرير (الرسن) في عنقه، لأنه اعتقد أن تلك مجرد رغائب يتكفل الزمن بفكّ حدتها والقضاء عليها.

ولكنه بدأت تظهر عليه علائم الضيق، بعد أن أمضى عامين في ماكوندو، وما تزال أمارانتا أورسولا في مثل سعادة اليوم الأول لوصولها. كان خلال تلك الفترة قد اصطاد وشرّح كل ما يمكنه اصطياده وتشريحه من حشرات المنطقة، وتعلم الإسبانية فتحدث بها كأهل البلدة الأصليين، وحلّ كل الكلمات المتقاطعة في المجلات التي كانت تصله بالبريد. ولم يكن بوسعه أن يتذرع بالطقس للإسراع بالرجوع، لأن الطبيعة قد منحته كبداً يتكيف للعيش في المستعمرات، تحتمل دون جهد مقاومة النعاس في وقت القيلولة. كما تحتمل المياه المترعة بالطفيليات. وقد أحب الطبخ الوطني كثيراً، حتى إنه أكل في أحد الأيام، عنقوداً من اثنتين وثمانين بيضة من بيوض الإيكوان في جلسة واحدة.

كان كل ذلك، بينما كانت أمارانتا أورسولا تستقدم، عن طريق القطار، الأسماك والمحار في صناديق مثلجة، وكذلك اللحم المحفوظ وشراب الفواكه، لأنها لا تستطيع أن تأكل سواها. كما واظبت على متابعة لبس الأزياء الأوروبية وتلقي النماذج بالبريد، ولو أنها لم تكن تذهب إلى أي مكان، ولا تزور أحداً. ولكن زوجها، في ذلك الوقت لم

يعد يحتمل أن يعجب بثيابها الخفيفة والقصيرة، أو بقبعاتها المخملية وعقودها ذات السبعة أطواق. كان سرها يكمن في قدرتها دائماً على أن تجد ما تشغل به نفسها. فكانت تحل مشكلات البيت التي توجدها بنفسها، أو تصحح اليوم ما تفسده في الأمس، بحماسة مَرَضيّة تذكر بأمها فيرناندا، أو بآفة موروثة تتصل بتركيب الأشياء لا لشيء إلاّ لفكها من جديد.

وظل حب الحفلات، والبراعة فيها، حيّاً في نفسها. فكانت، كلما وصلتها أسطوانة جديدة، تدعو غاستون للسهر طويلاً، في الصالة، كي تعيد معه خطوات الرقص التي وصفتها لها، بالرسم، رفيقاتها في الكلية. وكانا غالباً ما ينتهيان إلى أن يناما معاً، ويتبادلان الحب، على الأرائك النمساوية الهزّازة، أو على أرض الصالة العارية. ولم ينقصها، لتكتمل سعادتها، سوى ولادة الأطفال. ولكنها كانت تحترم العهد الذي أبرمته مع زوجها، بألا يكون لهما أطفال إلاّ بعد مضيّ خمس سنين على زواجهما.

وسعياً من غاستون للعثور على شيء يزجي ساعات فراغه به، بدأ يعتاد قضاء الصباح في غرفة ملكيادس، مع أوريليانو الحيي الخجول. فقد كان يستمتع، وهو يستعيد معه أقصى الزوايا الخبيئة الجميلة في أرض وطنه، والتي كان أوريليانو يعرف عنها كما لو أنه قد عاش فيها زمناً طويلاً. وسأله غاستون من أين حصل على تلك المعلومات التي لا توجد في دائرة المعارف (الأنسيكلوبيديا)، فأجابه بالجواب نفسه الذي ردّ به على سؤال خوزيه أركاديو :

ـ كل شيء معروف.

تعلم أوريليانو، علاوة على اللغة السنسكريتية، اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية، وبعض اللاتينية والإغريقية. ومنذ أن بدأ يخرج من اليت كل

يوم عصراً، في تلك الفترة، وبدأت أمارانتا أورسولا تخصص له مبلغاً أسبوعياً، لنفقاته الشخصية، تحولت غرفته إلى ما يشبه فرعاً من مكتبة الكاتالوني الحكيم. وكان يقرأ بنهم حتى الهزيع الأخير من الليل. ولكن غاستون أيقن، من خلال الرجوع والاستناد إلى قراءاته، أنه لم يكن يشتري الكتب ليتعلم منها، أو ليزيد من معرفته، بل لكي يتأكد من صحتها وحسب، وأن أياً من الكتب لم يكن يهمه أو يعنيه كما كانت تهمه وتعنيه الرقاع، التي كان يكرس لمطالعتها معظم أوقات الصباح.

أحبَّ غاستون وزوجته أن يندمج أوريليانو في حياتهما العائلية، ولكنه كان إنساناً منطوياً على ذاته، تحيط به غيمة من الأسرار والغموض، ما تنفك تتكاثف مع الزمن. كان مزاجه صعب الإدراك. وقد أخفقت جهود غاستون للتقرب منه، فراح يبحث عن سلوى أخرى يزجي بها ساعاته الميتة. وقد عرضت له، في تلك الفترة، فكرة تنظيم بريد جوي.

لم يكن ذلك المشروع بالأمر الجديد عليه. فالواقع أنه كان قد قطع فيه خطوات ذات شأن قبل أن يتعرف إلى أمارانتا أورسولا. ولكن التصميم الذي كان في ذهنه لم يكن من أجل ماكوندو، بل من أجل الكونغو البلجيكي، حيث تملك عائلته أسهماً واستثمارات في زيت النخيل. وكان الزواج السبب في تأجيله، إذ عزم على أن يقضي بضعة أشهر في ماكوندو، لعله بذلك يسعد زوجته ويدخل السرور إلى قلبها. ولكنه، عندما تبيّن أن زوجته كانت مصممة ومعاندة، وأنها تفكر في تأسيس جمعية للتجديد والتحسين العام، بل أنها ضحكت وسخرت منه عندما ألمح إلى احتمال العودة، عندها أدرك أن الأمر سيطول له. فاستأنف اتصالاته وعلاقاته مع شركائه المنسيين في بروكسل، ظاناً أن كون الإنسان رائداً في الكاريبي لا يقل قيمة عنه في أفريقيا.

وبينما كانت خطواته تتقدم في ذلك الاتجاه، بدأ يعدّ مدرجاً لهبوط

الطائرة، في الإقليم القديم الساحر، الذي كان يبدو في ذلك الوقت سهلاً مكوناً من حجارة الصوان المسحوقة. ودرس اتجاه الرياح، وجغرافية الساحل، وأفضل الخطوط ملاءمة للملاحة الجوية. ولكنه لم يتنبه إلى أنّ مثابرته الشبيهة بمثابرة السيد هيربرت قد أيقظت في البلدة شكوكاً خطيرة. فقد انتهت الظنون بالناس إلى أنه لم يكن ينوي وضع خطط للطيران، وإنما لزراعة الموز.

وتحمس غاستون لتلك الفكرة التي تبرر له إقامة في ماكوندو. فسافر إلى عاصمة الإقليم عدة مرات قابل فيها المسؤولين، واستحصل منهم على الإذن الخاص بذلك، ووقع اتفاقيات خاصة. وواظب، في الوقت نفسه، على مراسلة شركائه في بروكسل مواظبة تذكر بفيرناندا وتراسلها مع أطبائها المجهولين. وقد تمكن، بإصراره، من إقناعهم بأن يرسلوا طائرة مفككة على أول سفينة قادمة، على أن يرافقها ميكانيكي خبير مجرّب، ليركب قطعها المنفصلة في أقرب مرفأ، ثم يقودها ويأتي بها جواً إلى ماكوندو.

ومضى عام على تأملاته، وقياساته وحساباته الجوية النظامية، وقد وثق بوعود مراسليه المتكررة، اكتسب خلاله عادة السير في الشوارع، - وهو يرقب السماء، ويصغي لحفيف النسيم، وينتظر تحقق الأمل بظهور الطائرة.

أحدثت عودة أمارانتا ـ أورسولا تغيراً جذرياً في حياة أوريليانو، على الرغم من أنها لم تتنبه لذلك. فقد بات، بعد موت خوزيه أركاديو، عميلاً مواظباً في مكتبة الكاتالوني الحكيم. وقد أيقظت الحرية، التي نعم بها أخيراً، ووقت الفراغ الطويل الذي كان لديه، بعض الرغبة في معرفة البلدة التي بدأ يكتشفها دون أية مفاجأة. فراح يسير في الشوارع الغبراء المقفرة، وهو يتفحص باهتمام علمي أكثر منه إنسانياً، داخل البيوت

المهدمة، وحديد النوافذ المتآكلة بفعل الأكسدة، والطيور المائتة، والبشر الذين سحقتهم الذكريات. حاول أن يبني، في خياله، أمجاد مدينة شركة الموز المهدمة، وقد صارت أثراً بعد عين، وجفّ مسبحها وامتلأ، إلى حافته، بأحذية الرجال والنساء القديمة المهترئة. ووجد بين أطلال بيوتها الخربة عظام كلب راع ألماني، ما زال مربوطاً بطوقه الفولاذي، وسمع هاتفاً يرنّ. يرنّ. يرنّ. وعندما رفع السماعة سمع، على الطرف الآخر، صوت إمرأة قلقة تسأله، من بعيد، بالإنجليزيّة. فأجابها :

«نعم، لقد إنتهى الإضراب، وإن ثلاثة آلاف قتيل قد ألقي بهم في البحر، وإن شركة الموز قد رحلت نهائياً عن ماكوندو، بسلام منذ عدة سنين، وإن ماكوندو أخيراً قد نعمت بالسلام بعد سنين طويلة».

وقاده التجوال إلى حيّ الدعارة، وقد انحط إلى الدرك الأسفل. فالحيّ الذي كانت تحرق فيه الرزم المالية لإحياء الحفلات قد غدا متاهة شوارع كل واحد منها أشد كآبة وبؤساً من الآخر. وما زالت بقايا قناديل حمر مضاءة فيه. أما قاعات الحفلات الراقصة فباتت يباباً تزينها بقايا أكاليل الزينة القديمة، تنتظر فيها نساء بدينات سمينات، أرامل أو لم يتزوجن، مهترئات، والجدات الفرنسيات والأمهات البابليات، كلهن ينتظرن قرب أجهزة الحاكي (الفونوغرافات) القديمة.

لم يصادف أوريليانو أحداً يذكر عائلته، حتى ولا العقيد أوريليانو بوينديا، ما عدا العجزة من الزنوج الهنود الغربيين. وكان بينهم شيخ عجوز كان رأسه الأبيض القطني يجعله يبدو كالنسخة السلبية للصورة (المسودّة). وكان هذا ما يزال ينشد عند باب بيته المزامير الحزينة الخاصة بالغروب.

كان أوريليانو يتحدث معه بلغته (البابيامنتو) الخاصة التي تعلمها خلال بضعة أسابيع. كما كان يقاسمه، أحياناً، الشورباء المطبوخة

برؤوس الديكة، تعدها له حفيدة إبنته. وكانت هذه امرأة سوداء ضخمة الجثة، قوية البنية، لها ردفان يشبهان مؤخرة الفرس، ونهدان كبطيختين متحركتين، ورأس مستدير كبير، تحيط به خوذة من الشعر الشبيه بالأسلاك، فيبدو كرأس درع المحارب في القرون الوسطى. وكان اسمها نيجرومانتا

كان أوريليانو يعيش في تلك الفترة من بيع الأواني الفضية والشمعدانات وبقية الأدوات التي ما تزال في البيت. وكان إذا أفلس، وتلك كانت حاله في معظم الأوقات، يقصد الحانات المتطرفة المحيطة بالسوق، فيطلب من أصحابها رؤوس الديكة، التي يرمونها عادة مع النفايات. فيحملها إلى نيجرومانتا، فتعد له بها حساء تضيف إليها البقلة وتعطرها بالنعنع. فلما مات والد جدتها، انقطع أوريليانو عن زيارة البيت، ولكنه كان يصادف نيجرومانتا تحت شجرات اللوز القائمة المحيطة بالساحة العامة، حيث تجتذب بصفيرها، الذي يشبه صفير حيوان بريّ، بقايا بوم الليل، أي رواد الليل. وكثيراً ما بقي معها، يتحدثان بالبابيامنتو عن حساء رؤوس الديكة وسواها من ملذات البؤس الأخرى. وكان يود لو يرافقها دائماً لولا أنها أفهمته أن صحبته تبعد الزبائن. وعلى الرغم من أن الشهوة أغرته أحياناً كثيرة بأن ينام معها، وعلى الرغم من أنها نفسها ربما تكون قد بدت له نهاية طبيعية لنوع من الحنين والشوق المشترك بينهما، إلا أنه لم يفعل ذلك.

وهكذا كان أوريليانو ما يزال بتولاً عذرياً عندما عادت أمارانتا ـ أورسولا إلى ماكوندو، وعانقته عناقاً أخوياً بهر أنفاسه. فكان كلما رآها، وأسوأ من ذلك كلما علمته رقصة حديثة، يحس كأن عظامه إنما تتزلق كقطعة من الإسفنج، تماماً كما أحسّ جدّه الثالث يوم تذرعت بيلار تيرنيرا بورق اللعب وأخذته إلى المخزن. وجهد في أن يغرق في وحدته ويخفف

من عذابه، فانغمس أكثر وأعمق في صحائفه ورقاعه، وحاول أن يتحاشى دعابات خالته البريئة، التي تعكر لياليه وتسبب له الاضطراب بنزواتها الغريبة. ولكنه كان كلما حاول الفرار منها ازدادت حمى انتظاره وترقبه لضحكها الصاخب المجلجل، وصيحاتها التي تشبه صيحات قطة تغمرها السعادة، وأغانيها المعبرة عن نشوتها وامتنانها، ومعاناتها العذبة وتعليقاتها الصاخبة وهي في ذروة تعاطي الحب، في أي ساعة من ساعات النهار، وفي أي مكان من البيت، حتى تلك الأماكن التي لا تخطر على بال.

وفي ليلة من الليالي، وعلى بعد ثلاثين قدماً من سريره، وعلى منضدة مشغل الصياغة الفضية، هاج الزوجان فكسرا المنضدة والخزانة بما فيها من دوارق وسوائل وعقاقير، وانتهى بهما المطاف إلى ممارسة الحب في بركة من أسيد المورياتيك. ولم يغمض لأوريليانو جفن في تلك الليلة، وقضى اليوم التالي محموماً يبكي غيظاً ويتأوه هياجاً. وفي الليلة الأولى التي أنتظر فيها نيجرومانتا، في ظل أشجار اللوز، خيّل إليه أن دهراً قد مرّ قبل أن تصل. بينما كانت إبر القلق الجليدية تمزقه، وهو يشد بيده على البيزو والخمسين سنتاً التي كان قد طلبها من أمارانتا ـ أورسولا، لا لأنه كان بحاجة إليها، بل من أجل أن يغمسها، وأن يحط من قدرها، وأن يعهّرها، بأن يجعل لها دوراً، بطريقة ما، في المغامرة التي يقدم عليها.

جرّته نيجرومانتا إلى غرفتها، حيث أوقدت شعلة من الشمعدان الزائف. ثم قادته إلى سريرها القلاب، الذي اتسخ من تكرار لياليها بتعاطي الجنس القذر، ثم شدّته إلى جسدها ككلبة شرهة، قاسية بلا روح، كأنما هي تنتظر متى تبعده كطفل يرتجف قرفاً. ولكنها فجأة وجدت نفسها أمام رجل خارق القوة يتطلب أن تبذل أحشاؤها حركة

زلزالية كي تستطيع مواكبته والانسجام معه.

وهكذا صارا عشيقين. فكان أوريليانو يمضي الصباح في دراسة الرقاع، ويذهب في ساعة القيلولة إلى غرفة النوم التي تنتظره فيها نيجرومانتا، لكي تعلمه كيف يقوم بالدور أولاً كدود الأرض، ثم كالحلزون، وأخيراً كالسرطان، إلى أن تضطر لتركه، وتستلقي في انتظار تصيّد عشاق الليل.

ومضت أسابيع قبل أن يكتشف أوريليانو أنها كانت تضع حول خصرها طوقاً أو حزاماً رقيقاً يبدو كما لو كان وتراً من كمان. لأنه قاس كالفولاذ. وهو قطعة واحدة لا أثر فيها للوصل أو اللحام. فكأنه قد ولد معها وكبر معها.

كانا دائماً يأكلان بين الضجعة والأخرى، وهما عاريان في السرير، في أتون الحرارة الشديدة، وفوقهما نجوم نهارية تتكون من لمعان الصدأ المحيق بسقف التوتياء.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يكون فيها لنيجرومانتا رجل عاشق ثابت، رفيق بيت، كما كانت تقول هي نفسها، وهي مغرقة في الضحك. بل إنّ قلبها بدأ يغزل أوهاماً حينما صرّح لها أوريليانو بالعاطفة التي تعتلج في حناياه نحو أمارانتا ـ أورسولا، وبأن التعويض معها لم يشفه من عاطفته تلك، بل زاد في تمزيقه من الداخل، وما ينفك ذلك التمزق يزداد بالقدر الذي تتسع فيه آفاق تجربته في العشق.

ومنذئذ بدأت تستقبله بنفس الحرارة والشوق، ولكنها جعلت تأخذ منه أجراً لا هوادة فيه. فإذا جاءها أوريليانو، ولا مال معه، سجلت المبلغ ديناً عليه، بخطوط تحفرها بظفرها على الباب لا بالأرقام، بل بالعلامات والخطوط. وعندما يهبط الظلام، تتخذ لها موقعاً في الساحة العامة، تزاوغ في ظلال الأشجار، بينما يمر بها أوريليانو، فيدخل الدار، ويعبر

الشرفة كالغريب، فيحيي أمارانتا ـ أورسولا وغاستون تحية حية عابرة، وهما يتناولان عشاءهما، على عادتهما في تلك الساعة، ثم يمضي إلى غرفته ويغلق الباب على نفسه، لا يقدر أن يقرأ أو يكتب ولا أن يفكر، لأنه يجد نفسه في حال من الاضطراب والقرف تسببها له الضحكات والهمسات والمداعبات واللعب، ولعلعة الفرح والمرح، ثم تأوهات النشوة لدى بلوغ النشوة في الحب، مما كان يملأ ليالي الدار.

تلك كانت حياة أوريليانو على مدى ستين، قبل أن يبدأ غاستون انتظار الطائرة. وكذلك كانت حياته في عصر ذلك اليوم، الذي ذهب فيه إلى مكتبة الكاتالوني الحكيم، فلقي أربعة فتيان رعناء صخابين، يتناقشون بحماسة حول الوسائل التي كانت تستعمل لقتل الصراصير، في القرون الوسطى. كان الكتبيّ العجوز يعرف ميل أوريليانو إلى الكتب التي لم يقرأها غير (بيدي) المحترم. فدعاه بإبتسامة، فيها خبث الكبير المجرّب، للإشتراك في المناقشة. فشرح لهم، دفعة واحدة ودون أن يلتقط أنفاسه، أن الصرصور هو أقدم ما ظهر على الأرض من الحشرات المجنحة، وأنه كان ضحية للضرب بالأحذية الخفيفة، في أيام العهد القديم. ولكنه جنس يقاوم كل المبيدات ؛ من شرائح البندورة التي ترش بالبوراكس، إلى الدقيق الممزوج بالسكر. ذلك أن أنواعه، البالغة ألفاً وست مئة وثلاثة، قاومت أقدم وأقسى ما صنعه الإنسان، منذ وجوده، لاضطهاد الكائنات الحية، ومنها الإنسان نفسه. حتى لنستطيع أن نقول، عندما نصف الإنسان بغريزة التكاثر، بأنه لا بد من إضافة صفة له، أدق وألزم، وهي غريزة قتل الصراصير، التي لم تسلم من وحشية الإنسان وشراسته إلاّ بلجوئها إلى الظلال. ففي الظلمة اكتسبت العصمة والخلاص من الموت لخوف الإنسان العضوي الوراثي من الظلام. ولكن الصرصور، بالمقابل، ضعيف أمام النور. ولذلك، تبيّن منذ القرون

الوسطى، وهذا ما يزال متبعاً، منذ قرون وقرون، وحتى اليوم. أن الوسيلة الفعالة الوحيدة لقتل الصراصير والتخلص منها هي سطوع أشعة الشمس.

وقد نشأ عن هذه المصادفة المعرفية الأنسيكلوبيدية صداقة عظيمة. فتابع أوريليانو الحرص على الاجتماع، كل عصر، بأولئك الأربعة المناقشين : الفارو، وجيرمان، وألفونسو، وغابرييل. فكان هؤلاء أول وآخر من عرف من الأصدقاء في حياته. كانت تلك الجلسات بالنسبة إليه، وهو سجين الحقيقة المكتوبة، التي تبدأ في المكتبة قرابة الساعة السادسة، قبيل المساء، وتنتهي في حي الدعارة قبيل الفجر، نوعاً من الكشف. فلم يكن يعتقد، من قبل، قط أن الأدب أفضل حيلة اخترعها الإنسان للسخرية من الآخرين. وقد برهن الفارو هذه الحقيقة في ليلة صاخبة. وقد تبين أوريليانو، بعد لأي، أن خير مثل على هذا الأمر المختلف عليه هو الكاتالوني الحكيم. فقد كانت معرفته جهداً ضائعاً. فهي لا نفع فيها ما لم تؤدِّ إلى إختراع طريقة جديدة لإعداد الفستق.

في تلك الليلة التي حاضر فيها أوريليانو عن الصراصير، انتهت المناقشة في بيت البنات اللائي يقدمن أجسادهن لقاء الطعام، بسبب الجوع، وهو ما يشبه بيت دعارة في إحدى ضواحي ماكوندو. وكانت صاحبة البيت قوادة دائمة الابتسام، يعذبها هوسها بفتح الأبواب وإغلاقها. وكانت ابتسامتها الأزلية تبدو كأنها وليدة غباء الزبائن، الذين سلموا بوجود بيتها كشيء لا يرقى إليه الشك، مع أن وجوده لم يكن من نسج الخيال. ذلك أن الأشياء المادية الملموسة فيه لم تكن واقعية. فالأثاث يتخلع إذا جلس أحد عليه. ومكبر الصوت مكسور وترقد فيه دجاجة حاضنة، وعلى الأرض أزهار من ورق، والتقويمات (الروزنامات) المعلقة فيه تنتمي لسنين سبقت زمن شركة الموز، والإطارات تحيط بصور مقتطعة

من مجلات لم تعرف الصدور. والبنات المحترفات الصغيرات في السن الخييات اللاتي كنّ يتراكضن من الجوار، عندما تخبرهن صاحبة البيت بقدوم الزبائن، لم يكنّ إلا محض اختلاق.

كنّ يأتين فلا يلقين التحية، وهنّ يرتدين ثياباً قصيرة موردة فصلت عليهن منذ ما يزيد على خمس سنين، ينتزعنها ويرتدينها بنفس المهارة والخفة والبراءة. وكنّ يصحن في ذروة نشوة الحب: «يا للسماء! انظر كيف يسقط ذلك السقف». وحين يستلمن البيزو والخمسين سنتاً، يبدلن المال برغيف خبز وقطعة جبن، تبيعها لهن صاحبة البيت، وابتساماتها أعرض ما تكون، لأنها الوحيدة التي تعلم أن الزاد لم يكن حقيقياً، تماماً ككل ما في البيت.

أما أورليانو، الذي كان عالمه، حتى ذلك الوقت، يبدأ برقاع ملكيادس وينتهي في غرفة نيجرومانتا، فقد وجد في التردد على بيت الدعارة الخيالي الموهوم الصغير خير علاج لخجله. كان يزعجه في البداية، فلا يصل إلى اللذة، أن يكون في الغرف التي تدخلها المديرة، في ألذ لحظات الحب، فتعلق ما طاب لها التعليق على جمال المتضاجعين وحميتهم وحميميتهم. ولكنه تكيف، مع الزمن، لترهات الحياة الصغيرة. وفي إحدى الليالي الرعناء تعرى من ملابسه في صالة الاستقبال الصغيرة، وعبر البيت من أوله إلى آخره، وهو يرفع على ذكره زجاجة من البيرة متوازنة دون أن تسقط أو تميل. كان هو الذي بدأ هذا النوع من الحركات الغريبة الشاذة، التي كانت المديرة، بابتسامتها الأبدية، لا تعترض عليها ولا تطمئن لها فلا ترحب بها. ومثل ذلك ما حدث في اليوم الذي أراد فيه جيرمان أن يحرق البيت كي يثبت أنه لا وجود له، أو يوم كسر ألفونسو عنق الببغاء ورماه في القدر التي كانت تغلى فيها طبخة دجاج بالخضراوات..

كان أورليانو يحس أنه أقرب إلى غابرييل من الآخرين، ولو أنه كان يرتبط مع الآخرين بنفس الود والصداقة، فلا يفكر فيهم إلاّ وكأنهم شخص واحد. وقد ولدت تلك القربى، ذات ليلة، عندما ذكر أورليانو، اتفاقاً، العقيد أورليانو بوينديا. فكان غابرييل الوحيد الذي اعتقد أنه لم يكن يسخر من أحد. حتى المديرة نفسها، وهي التي اعتادت ألاّ تتدخل في أحاديثهم ومناقشاتهم، احتدّت واعترضت بعاطفة المرأة الشديدة، زاعمة أن العقيد أورليانو بوينديا، الذي سمعت الناس يتحدثون بأمره مرات كثيرة، لم يكن سوى شخصية اخترعتها الحكومة ذريعة تقتل بسببها الأحرار. أما غابرييل، من ناحية أخرى، فلم يشك قط بحقيقة العقيد أورليانو بوينديا، لسبب بسيط هو أنه كان رفيق سلاح وصديقاً لا ينفصل عن جد جده العقيد جيرينيلدو ماركيز.

وكانت تلك المجادلات، ومماحكات الذاكرة تلك، تبلغ أقسى مراحلها عندما يصل الحديث إلى مجزرة العمال. فكانت المديرة، وبعض الأشخاص المسنين، كلما تطرق أورليانو إلى ذلك الموضوع، يرفضون بشدة حكاية العمال الذين حوصروا في المحطة، والقطار ذي المئتي عربة المحمل بالموتى. ويتمسكون بالتالي بما هو وارد في الملفات القضائية والكتب المدرسية: أي أن شركة الموز لم توجد قط. وهكذا اجتمع أورليانو وغابرييل، مشتركين، على وقائع حقيقية لا يؤمن بها أحد سواهما، ولو أنها وسمت حياتهما، فإذا بهما على الهامش، قد تلقفتهما موجة مرتدّة من عالم انتهى، لم يبقَ منه سوى الحنين.

كان غابرييل ينام في المكان الذي ينعس فيه. وقد استضافه أورليانو عدة مرات في مشغل الصياغة، فلم يغمض له جفن طوال الليل، بسبب الموتى الذين يقضون الليل، وهم يروحون ويجيئون، من غرفة إلى أخرى، حتى الفجر. وأخيراً سلمه إلى نيجرومانتا، التي كانت تأخذه

إلى غرفتها، المشغولة كثيراً، حين تفرغ من زبائنها الكثر. وتسجل ديناً على حسابه، خطوطاً عمودية صغيرة وراء الباب، في الأمكنة الخالية من ديون أوريليانو صاحبه العزيز.

كانت تلك الجماعة، على فساد حياتها، تشحذ الهمة لتبدع شيئاً خالداً ترضي به رغبات الكاتالوني الحكيم، الذي ما فتىء يحث على ذلك. وكانت دالته عليهم من تجربته وخبرته. فقد كان أستاذاً للأدب الكلاسيكي في الماضي. ويزيد في دالته ما كان لديه من كتب نادرة. فقد جعلهم يقضون ليلة كاملة في البحث عن الوضع الدرامي السابع والثلاثين، في بلدة لا يتمكن أحد من أهلها من تجاوز مرحلة الدراسة الإبتدائية.

وعندما سُحر أوريليانو باكتشاف الصداقة، وأذهله ما في العالم من سحر، هذا العالم الذي حرمته منه وضاعة فيرناندا، توقف عن دراسة المخطوطات في الرقاع، عندما بدأت تتكشف له عن أنها نبوءات في أبيات شعر كلها أرقام. ولكنه حين اكتشف، من بعد، أن الزمن يتسع لكل شيء، دون أن يتخلى عن بيوت الدعارة، عاودته الشجاعة للعودة إلى غرفة ملكيادس، وقد عزم على ألا تفتر إرادته حتى يكتشف آخر المفاتيح. وكانت تلك هي الفترة التي بدأ فيها غاستون ينتظر وصول الطائرة، والتي وجدت فيها أمارانتا ـ أورسولا نفسها وحيدة. وفي صباح أحد الأيام، دخلت إلى غرفته، وقالت له :

ـ مرحباً، يا آكل لحم البشر. لقد عدت إلى كهفك من جديد !!.

كان جمالها طاغياً لا يقاوم، وهي ترتدي ذلك الثوب الذي صممته، وتضع في عنقها ذلك العقد الطويل الذي صنعته بنفسها من فقرات السمك. فقد توقفت عن استخدام طوق الحرير، بعد أن وثقت من وفاء

زوجها، وبدأت، للمرة الأولى منذ عودتها، تبيح لنفسها لحظة من الراحة. وبما كان أوريليانو بحاجة لأن يراها كي يعرف أنها قد وصلت.

إتكأت على منضدة العمل بمرفقيها، لا حاجز يحول دونها أو يقيها، حتى كان بوسع أوريليانو أن يسمع صوت عظامها الخفيّ العميق. وأبدت اهتمامها بالصحائف والرقاع.

حاول أوريليانو أن يتغلب على اضطرابه، فاستعاد صوته الذي كان قد فقده، وإسترد حياته التي غادرته، واستنهض ذاكرته التي تحولت إلى حيوان متحجر. فحدثها عن القدر الرباني للنصوص السنسكريتية، وعن إمكان رؤية المستقبل علمياً، عبر شفافية الزمن، كما يرى الرائي ما هو مكتوب على ظهر ورقة إذا وضعت أمام النور، وعن ضرورة حل رموز النبوءات كي لا تفقد قيمتها أو تزول، وعن «قرون نوستراداموس» المتنبىء المشهور، وعن دمار كاتابريا الذي تنبأ به القديس ميلانوس.

وفجأة، ودون أن ينقطع أوريليانو عن الحديث، وكأنما دفعته قوة خفية غافية فيه منذ خلقه، وضع يده على يدها، ظاناً أنه بقراره النهائي ذاك يضع حداً لهمومه وشكوكه. وعندها أمسكت أمارانتا أورسولا بسبّابته بأسلوب الدعابة البريئة الذي كانت تمارسه معه أيام الطفولة. فقد كانت تلك عادتها. وظلت ممسكة بسبابته وهو يجيب عن أسئلتها. واستمرا هكذا، توجد بينهما سبابتان جليديتان، لا تنقلان شيئاً في أي من الاتجاهين، إلى أن استفاقت من حكمها الآنيّ، وضربت جبينها بأطراف أصابع يدها، وصاحت قائلة :

ـ النمل.

وعندها نسيت كل شيء عن الصحائف والمخطوطات، وخرجت من الباب بخطى راقصة، وطيّرت لأوريليانو، من موقعها، ومن على رؤوس

أصابعها، قبلة، هي نفسها التي طيّرتها لأبيها عصر ذلك اليوم الذي سافرت فيه إلى بروكسل. وانصرفت وهي تقول له :

ـ يمكنك أن تخبرني فيما بعد. فلقد نسيت أن اليوم هو موعد صبّ الكلس الحيّ في بيوت النمل.

دأبت أمارانتا ـ أورسولا على دخول الغرفة بين الحين والآخر، في الأوقات التي تعمل فيها حولها أو قريباً منها، فتبقى بضع دقائق سريعة، بينما كان زوجها يتابع سبر أرجاء السماء. وشجع هذا التغير أوريليانو، فجعل يتناول طعامه في البيت، وهو أمر توقف عنه منذ الشهور الأولى لعودة أمارانتا ـ أورسولا. وسُرّ غاستون بذلك التبدل. فكأنه، في الأحاديث التي تلي تناول الطعام، والتي كانت تستمر أحياناً حتى تتجاوز الساعة، يشكو شركاءه الذين يخدعونه. فقد أخبروه أنهم قد شحنوا الطيّارة في الباخرة، ولكن الباخرة لم تصل قط. وفي الوقت نفسه، كان مراسلوه البحريون يؤكدون له أن الباخرة لن تصل، لسبب بسيط، وهو أنها ليست في قائمة البواخر القادمة إلى الكاريبي. ويصرّ شركاؤه على زعمهم بأن عملية الشحن قد تمت بدقة، حتى وصل بهم الأمر أن ألمحوا، بشكل غير مباشر، إلى أن غاستون قد يكون كاذباً في رسائله. وانتهى المطاف بالمراسلة إلى نوع من الشك المتبادل، فانقطع عنها غاستون، وجعل يفكر في إحتمال القيام برحلة سريعة إلى بروكسل، كي يفهم الوضع ويصححه، ثم يعود بالطائرة.

وسقط المشروع منذ اللحظة التي كرّرت فيها أمارانتا ـ أورسولا قرارها الحازم في ألا تغادر ماكوندو حتى ولو بقيت بلا زوج.

خلال الأيام الأولى بدأ أوريليانو يميل إلى مشاطرة الرأي العام وجهة نظره في أن غاستون كان مجنوناً على درّاجة، فأحس بشعور غامض من الشفقة عليه. ولكنه، حين جمع، في بيت الدعارة، مزيداً من المعلومات

عن طبيعة البشر، أدرك أن حلم غاستون قد تكون له أصول تعزى إلى مطامحه المفرطة. فلما عرفه معرفة أفضل، وجد أن طبعه الحقيقي يختلف عن سلوكه الاستسلامي الخانع. وارتاب بأمره، حتى ذهب به الظن إلى أن انتظاره الطائرة لم يكن سوى فصل تمثيلي. وقال في نفسه إن غاستون ليس غبياً إلى الحدّ الذي يبدو على هيئته. فهو، على العكس من ذلك، رجل دؤوب مثابر ماهر، لا حدود لطاقته وصبره، فهو قد قرّر إحراز النصر على زوجته بأن يتعبها بلطفه الدائم، وبألا يقول لها «لا» أبداً. وهكذا عزم على أن يمثل الرضا غير المحدود، فيدعها تتقلب في بيت العنكبوت الذي يحيط بها، إلى اليوم الذي تسأم فيه من أوهامها، وتمل رتابة الحياة، فتحزم حقائبها بنفسها للعودة إلى أوروبا. فتحولت شفقة أوريليانو السابقة عليه إلى نوع من العداء الخفي العنيف. فقد بدا له أن طريقة غاستون مؤذية ومؤثرة، فتجرأ وأنذر أمارانتا ـ أورسولا. ولكنها هزئت بشكه المرضيّ، وشحنة الحب المتفجرة، وعلائم القلق والغيرة التي ينضح بها حديثه. ولم يخطر لها قط أنها يمكن أن تثير في أوريليانو غير العاطفة الأخوية.

وظلت الحال على هذا المنوال حتى اليوم الذي جرحت فيه يدها، وهي تفتح علبة دراق. فاندفع إليها كالسهم، وانكب على يدها المجروحة يمص دمها بنهم وتضحية وإيمان، حتى اقشعرّ جسدها. فصاحت به ضاحكة مضطربة :

ـ أوريليانو. . حاذر. . فأنت تكاد تكون مصاص دماء كالخفاش.

فاضطرب أوريليانو، وشعر بالخذلان. ثم أخذ يطبع في راحة كفها الجريح قبلاً صغيرة ملتهبة، حتى كشف عن أعمق خفايا قلبه الدفينة، وأخرج كل ما في أمعائه المتفسّخة، والحيوان الطفيليّ الرهيب الذي ترعرع في عذاباته.

روى لها كيف كان يستيقظ في منتصف الليالي، فيبكي غيظاً وحنقاً وحرماناً فوق البياضات الداخلية التي كانت تتركها لتجف في الحمام. وقصّ عليها كيف كان يطلب من نيجرومانتا، بلهفة وقلق، أن تموء كالقطة، وأن تجهش وتتأوه وهي تردد: غاستون. . غاستون في أذنه، وكيف كان يحتال حتى يسرق، من زجاجات عطورها، بعضاً من روائحها المفضلة، لعله يشم منها أثراً على أعناق الفتيات الصغيرات اللواتي كنّ يهبنه أجسادهن لكي لا يقضين جوعاً.

ذعرت أمارانتا ـ أورسولا من شطط تلك العاطفة المتفجرة، فأطبقت أصابعها، وضغطتها على راحتها فبدت يدها كحيوان صدفيّ، حتى كأن يدها الجريح برئت من الألم ومن كل آثار الشفقة، وتحوّلت إلى عقد من الزمرّد والشفيف من الحجارة الكريمة، وعظيمات حجرية لا حسّ فيها. وصاحت به، وكأنها تبصق في وجهه:

ـ غبيّ!. سوف أبحر في أول باخرة إلى بلجيكا.

في أصيل يوم من أيام تلك الفترة، جاء الفارو إلى مكتبة الكاتالوني الحكيم، وهو يعلن، بأعلى صوته، عن أحدث مكتشفاته: بيت للدعارة على هيئة حديقة للحيوان. وكان ذلك المكان يدعى «الطفل الذهبي». وهو عبارة عن قاعة كبرى مشرعة للرياح، يتنزه فيها ما لا يقل عن مئتي طائر من طيور الواق(١)، تسرح على هواها. وكانت هذه الطيور تدل على الوقت بأن تقوقىء مرة كل ساعة تماماً، بصوت قويّ يضطر الناس معه لوضع أصابعهم في آذانهم. ويستطيع المشاهد أن يرى، في الأقفاص، المسيّجة بأسلاك حديدية، المحيطة بحلبة الرقص، بين أشجار الكاميليا الأمازونية، طيور مالك الحزين الملونة، وتماسيح سمينة

(١) طائر من فصيلة مالك الحزين.

كالخنازير، وأفاعي ذات اثني عشر جرساً، وسلحفاة لها هيكل صدفي مذهّب تغوص في بحيرة صناعية. وكان يوجد في المكان كلب أبيض كبير، يستخدم لتحسين نوع الكلاب مقابل ما يقدم له من طعام.

كان جوّ المكان يعبق بكثافة بريئة جديدة، كأنما الصانع قد انتهى لتوّه من صنعه. وكانت البنات الخلاسيات الجميلات ينتظرن، بيأس وقنوط، بين تيجان الورود الدامية، بينما تصدح أسطوانات الحاكيات القديمة، وتقدم طقوساً وطرائف للحب عرفها الإنسان وتخلى عنها في جنته الأرضية.

في الليلة الأولى التي زارت الجماعة فيها مشتل الأوهام ذاك، شعرت المديرة العجوز العظيمة الصامتة، وهي جالسة على مقعد الخيزران الهزّاز، أن التاريخ يعيد نفسه، وأن الزمن عاد إلى أصوله الأولية. حدث ذلك عندما شاهدت بين القادمين الخمسة رجلاً ناتىء العظام، جنزاريّ اللون، له وجنتان تتريتان، وقد وسم بشكل أزلي وسرمديّ بداء العزلة. فتأوهت وتمتمت قائلة:

ـ يا إلهي، يا إلهي، أوريليانو!!

كانت ترى فيه العقيد أوريليانو بوينديا، تماماً كما رأته على ضوء القنديل قبل الحروب بزمن طويل، قبل عزلة المجد ونفي انقشاع الأوهام. في ذلك الفجر البعيد، الذي جاء فيه إلى غرفتها ليصدر أول أمر له في حياته: الأمر بأن تضاجعه. .

كانت تلك هي بيلار تيرنيرا. فمنذ سنين مضت، وعندما بلغت سن المئة وخمسة وأربعين عاماً، توقفت عن عادة حساب عمرها السيئة. وتابعت عيشها في زمن راكد هادىء على هامش ذكرياتها، في مستقبل واضح مرئي مطلق الكشف، وأبعد من كل مستقبل يمكن أن تزرقه أحابيل ورق اللعب وفرضياته الوهمية.

منذ تلك الليلة، لاذ أوريليانو (الصغير) برقّة جدّة جدّه المجهولة ولطفها وتفهمها وإدراكها الشفيق. كانت تجلس في مقعدها الخيزرانيّ الهزاز، وتستعيد ذكريات الماضي، وتعرض في خيالها عظمة العائلة وعزها ثم شقاءها، وأمجاد ماكوندو التي باتت يبابا.

وبينما كان الفارو يخيف التماسيح ويجفلها بقعقعة ضحكه الراعد، ويخترع ألفونسو حكايات مرعبة عن طيور الواق التي فقأت بمناقيرها عيون أربعة من الزبائن الذين لم يعرفوا كيف يحسنون التصرف والتعامل معها في الأسبوع الماضي، ويخلو غابرييل بفتاة خلاسية كثيرة الشرود والتأمل، في غرفتها، فلم تكن تطلب لقاء خدماتها مالاً، بل رسائل إلى صديقها المهرّب الذي كان سجيناً على الضفة الأخرى من نهر (أورينوكو)، لأن حراس الحدود سقوه مسهلاً وأجلسوه على إناء التبرز فملأه برازاً وماساً، كان بيت الدعارة الصحيح هذا، بصاحبته الحنون، هو العالم الذي كان أوريليانو يحلم به خلال أسره الطويل. فقد شعر فيه أنه بلغ غاية الانسجام، والصحبة الكاملة، حتى لم يعد يفكر في ملجأ آخر يأوي إليه، في عصر يومه، بعد أن أحالت أمارانتا أورسولا أوهامه أثراً بعد عين. فكان يلوذ بذلك المكان يخفف عن نفسه بالكلام، لعلّ أحداً يستطيع أن يريحه من العقد التي تضغط على صدره. ولكن ذلك لم يحدث؛ فلم يتحرر أوريليانو إلاّ بعد أن ذرف دموعاً حارة مريحة في حضن بيلار تيريزا. فقد تركته يبكي ويتأوه، بينما هي تمسّد كتفيه وتربت على رأسه برؤوس أصابعها. وقد عرفت منه، دون أن يفصح لها، أنه إنما كان يبكي الحب. فقد كانت تعرف بسرعة، من خبرتها، أقدم الدموع والتأوهات في تاريخ الإنسان. فقالت له تواسيه وتخفف عنه:

ـ حسناً، يا صغيري. والآن أخبرني من هي تلك التي تبكيها؟

عندما اعترف أوريليانو (الصغير) لبيلار تيريزا، وأخبرها بسره، ضحكت

ضحكة عميقة مدوّية، من ذلك الضحك القديم العريض الذي بات شبيهاً بسجع اليمام. فلم يحدث أن كان في قلب واحد من آل بوينديا سرّ إلاّ واستطاعت أن تنفذ إليه. فقد علمها قرن من الخبرة، بورق اللعب والتجربة، أنّ تاريخ تلك العائلة كآلة على عجلة لا يمكنها تجنب الدوران والتكرار. فهي عجلة يمكن لها أن تستمر في الدوران إلى ما لا نهاية، لولا التآكل المتزايد، والذي لا يمكن علاجه، في محور العجلة. ابتسمت وقالت له:

ـ لا تقلق.. فهي في انتظارك الآن حيثما كانت.

كانت الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، عندما خرجت أمارانتا ـ أورسولا من الحمام. وشاهدها أوريليانو تمرّ بباب غرفته، وهي تضع على جسدها مئزراً شفافاً ناعماً رقيق الطيات، وقد لفت منشفة حول رأسها فبدت كأنها عمامة. فتبعها بخفة، يكاد يسير على رؤوس أصابعه متعثراً بسكره. ودخل إلى غرفتها الزوجية في اللحظة التي كانت تفك المئزر عن جسمها، فأعادت لفّه على نفسها وهي خائفة. فأشار إشارة صامتة باتجاه الغرفة الملاصقة، حيث كان الباب نصف مفتوح، وحيث كان أوريليانو يعلم أن غاستون جالس هناك، وقد بدأ بكتب رسالة. فقالت له بلا صوت تقريباً:

ـ اخرج من هنا.

ابتسم أوريليانو، وتناولها، من خصرها، وهصرها بيديه كلتيهما، ثم رفعها كأنها آنية زهر البيجونيا. وألقى بها، على ظهرها، فوق السرير. وجردها من مئزرها بعنف وحشيّ، قبل أن يتسنى لها دفعه أو ردّه أو حتى مقاومته. ثم أطبق بجسده عليها، فوق هوّة عريها التي اغتسلت لتوها، ذلك الجسد العاري الذي لم يكن فيه شيء، من نتن أو عيب، يشوب الكمال، ذلك الجسد العاري الذي لم تكن فيه بقية زغب ولا حال

جمال خفيّ إلاّ تخيلها، من قبل، في ظلام الغرف الأخرى.

ردافعت أمارانتا ـ أورسولا عن نفسها بصدق ما أطاقت، واستعملت كل وسائل المرأة الحكيمة وحيلها. فانزلقت بجسدها الرشيق اللدن المعطر، كجسد صبية عروس، وهي تحاول أن تقطم كليتيه بركبتيها، كما حاولت أن تمزق وجهه بأظفارها. ولكنّ أحداً منهما لم يدع نبأة أو نهدة تخرج منه، فلم يصدر عنهما ما يتجاوز تنفس من يتأمل الفضاء من نافذة مفتوحة، في مساء يوم فاتر من شهر نيسان (أبريل).

لقد كانت معركة شرسة، بل كانت معركة حتى الموت. ولكنها كانت تبدو خالية من العنف، لأنها لم تعدُ الهجمات المتفرقة والاجتياح الشجيّ، والتقهقر المتباطىء المهلهل المراوغ، الذي بدأت تظهر عليه ظلال الجمال الحزين. وكان يتخلل تلك الهجمات والتراجعات من الوقت ما يكفي لشجيرات البيتونيا كي تتبرعم، وما يكفي لغاستون كي ينسى أحلام طيرانه في الغرفة المجاورة. وكأن الأمر لا يتعدى حبيبين متخاصمين يحاولان أن يتصالحا في قعر حوض ماء شفاف، في ذروة تلك الحرب الضارية الحافلة بما يشبه الطقوس.

وأدركت أمارانتا أورسولا ألاّ نفع لاستمرارها في الصمت، لأنه يمكن أن يوقظ شكوك زوجها القريب، أكثر مما توقظه أصوات المعركة التي كانا يحاولان كتمها وعندها جعلت تضحك، وشفتاها مطبقتان، ولكن دون أن تتوقف عن الكفاح والمقاومة. فأخذت تدافع عن نفسها بعضات خلبية كاذبة. ثم بدأت تحلحل جسدها قليلاً قليلاً، حتى بدأ كلاهما يشعران أنهما متعاديان ومتوافقان في آن معاً، وانجلى الأمر عن جولة حب ومجون عريق، وتحولت الهجمات الشرسة إلى مداعبات عابثة.

وفجأة، وبحركة لعوب، وبادرة شيطنة أخرى، تخلّت أمارانتا ـ

أورسولا عن المقاومة والدفاع عن نفسها. ولما حاولت العودة إلى المقاومة، بعد أن فرغت مما جعلته بنفسها ممكناً، كان ذلك منها متأخراً. فرأت أن لا مناص. فقد استقبلت دفعة قوية، أشبه بصدمة هائلة، في مركز ثقلها، فزرعتها في مطرحها، فتلاشت تماماً كل إرادة الدفاع فيها، أمام الرغبة الجامحة القاهرة في أن تستشف الصغير البرتقالي، والكرات الخفية المنتظرة على ضفة الموت الأخرى، وكاد ألا يتسع لها الوقت، لولا قليل، لتبحث بأصابعها الوانية المتباطئة عن منشفة تضعها بين أسنانها لتكبح عنان البوح بأنات وآهات وصرخات، شبيهة بمواء قطة صغيرة. فكان قد بدأ يمزق أحشاءها في داخلها.

(٢٠)

ماتت بيلار تيريزا في مقعدها الخيزراني الهزاز، في ليلة من ليالي الاحتفالات، بينما كانت تشرف بنظرها على مدخل فردوسها الجديد. وبناء على رغبتها الأخيرة، في وصيتها، لم توضع في نعش، بل في مقعدها الهزاز، الذي أنزله بالحبال ثمانية من الرجال، إلى حفرة عميقة هائلة في وسط حلبة الرقص. وأصيبت البنات الخلاسيات بالكآبة والشحوب، واصفرّت وجوههن لطول ما بكين حزناً عليها. وقد لبسن الثياب السوداء حداداً، ورحن يبتكرن طقوساً ظلالية غامضة، فينتزعن الأقراط من آذانهن، والدبابيس من شعورهن، والخواتم من أصابعهن، ويلقين بها في قبر بيلار تيريزا قبل أن يهال فيه التراب، ويسدّ إلى الأبد، وينصب فوقه حجر شاهد بلا إسم ولا تاريخ، ثم يغطى كل شيء بكومة من زهور الكاميليا الأمازونية.

وبعد أن سمّمن الحيوانات، أغلقن الأبواب والنوافذ بملاط القرميد والطين، وتفرّقن في أنحاء الدنيا، يحملن معهن صناديق أمتعتهن الخشبية المزدانة بصور القديسين، والرسوم المقتطعة من المجلات، وصور بعض الأحبة في فترات عابرة من الزمان، نائية تراود الخيال، أولئك الأحبة الذين كان بعضهم يتبرز ماساً، وبعضهم الآخر يأكل أكلة لحم البشر، أو يتوج ملكاً في ورق اللعب في أعالي البحار.

تلك كانت النهاية. ففي قبر بيلار تيريزا، بين المزامير وجواهر العهر والدعارة الرخيصة، تتعفّن آثار الماضي، وهي البقية الباقية بعد أن أغلق الكاتالوني الحكيم مكتبته ورحل إلى قرية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، حيث عرفت عيناه النور، وقد غلبته اللهفة وشدّة الحنين إلى الربيع الدائم. ولم يكن أحد يتوقع منه ذلك القرار. فقد جاء إلى ماكوندو في أوج عزها، أيام شركة الموز، فاراً من إحدى الحروب المتلاحقة الكثيرة. وقد ظن، يومها، أن أفضل ما يمكن أن يفعله هو فتح تلك المكتبة، التي كانت تحتوي على كتب تعود إلى عهد بداية الطباعة، ونسخ من مؤلفات نادرة ومصادر أصلية بلغات مختلفة. فكان الروّاد العابرون من الزبائن الطارئين يتصفحون تلك الكتب بشيء من الريبة، وكأنها نفايات الكتب. بينما كانوا يصطفون أرتالاً، أمام البيت المقابل، في انتظار أدوارهم لتفسير أحلامهم. وقضى الرجل نصف حياته، جالساً في مؤخرة مخزنه (المكتبة) يسوّد بخط يده الأنيق، بحبر أرجوانيّ، على أوراق كان ينتزعها من دفاتر الملاحظات المدرسية. ولم يستطع أحد أن يتبين يقيناً ما الذي كان ذلك الرجل يكتبه.

وعندما التقى به أوريليانو، للمرة الأولى، كان قد ملأ صندوقين من تلك الأوراق التي كانت تزخر بصحائف ملكيادس ورقاعه. ومنذ تلك الفترة حتى رحيله ملأ صندوقاً ثالثاً، مما يدل يقيناً على أنه لم يفعل سوى ذلك خلال إقامته في ماكوندو. ولم ينشىء أية علاقة مع أحد، باستثناء أولئك الأصدقاء الأربعة الذين كان يستعمل معهم أسلوب المقايضة، فيستبدل بالكتب خذاريفهم[1] وطياراتهم الورقية. فجعلهم يقرؤون (سينكا) و(أوفيد) وهم، بعدُ، تلاميذ في المرحلة الابتدائية.

كان الكاتالونيّ الحكيم يتحدث عن الأدباء الكلاسيكيين القدماء الكبار بكل بساطة ويسر، ودون تعقيد، وكأنهم قد كانوا، خلال حقبة أو

(١) خذاريف: جمع خذروف، وهو لعبة قديمة للأطفال، وتسمى في بعض بلاد الشام «البلبل» أو «الصبّاح»، وهو قطعة من خشب أو سواه مدبّبة الرأس يلف عليه خيط، ويلقى فيدور على الأرض بسرعة لفترة.

أخرى، رفاق سكنه. فكان يعرف عنهم أشياء كثيرة ينبغي ألا تكون معروفة. فقد كان يذكر، مثلاً، أن القديس (أوغستين) كان يلبس، تحت ثيابه، معطفاً من صوف لم يخلعه طوال أربعة عشر عاماً، وأنّ (أرنالدو فيلانوفا) الساحر كان عاجزاً منذ طفولته بسبب لسعة عقرب.

كان حبه للكلمة المكتوبة، وحماسته لها، أمراً يستدعي الإحترام والوقار، ويستثير في الوقت ذاته كثرة الأقاويل. حتى مخطوطاته نفسها لم تسلم من تلك الازدواجية. فحين تعلّم (ألفونسو) اللغة الكاتالانية كي يترجم تلك المخطوطات، وضع ملفاً منها في جيبه مع ما كان يملؤها به دائماً من قصاصات الجرائد والكتيّبات والأدلة الخاصة بالمهن النادرة الغريبة. وفي إحدى الليالي، فقد الملف عند الفتيات المومسات اللاتي كنّ يقدمن أجسادهن إتقاء الجوع. ولما علم العجوز الحكيم بذلك، أغرق في الضحك، بدلاً من أن يعاتبه ـ كما كان يخشى منه ـ وقال معلقاً: «ذلك هو المصير الطبيعي للأدب». ومن ناحية أخرى، لم تستطع قوة إنسانية أن تقنعه بألاّ يحمل صناديقه الثلاثة معه، حين قرّر العودة إلى مسقط رأسه. وقد أفرغ ما في جعبته من سباب وشتائم، باللغة الكارتاجينية على مفتشي سكة الحديد الذين حاولوا إرسال الصناديق بالشحن. ولكنه توصل، أخيراً، إلى إقناعهم بإبقائها معه في عربة الركاب المسافرين. وقد قال عندها:

ـ سوف ينحدر هذا العالم إلى الدرك الأسفل، عندما يسافر الناس في الدرجة الأولى، بينما يوضع الأدب في مركبة الشحن.

وكان ذلك آخر ما سمعه الناس من كلامه.

لقد قضى أسبوعاً أسود مضنياً وهو يعد آخر ترتيباته للرحلة. وكان كلما أزف الموعد إستشاط غيظاً، وطغت عليه الفوضى، فيضع الشيء في مكان ليجده في مكان آخر، حتى لكأنه كان يواجه نفس الأرواح

الشريرة التي عذبت فيرناندا. فيصرخ لاعناً شاتماً:

ـ مستعمرون. أبول على المرسوم (٢٧) لحفل لندن المقدس.

اهتمّ به جيرمان وأوريليانو وساعداه. ساعداه كما لو كان طفلاً. فعلقا التذاكر ووثائق السفر، الخاصة به، فوق جيوبه بدبابيس محكمة. وأعدّا له قائمة مفصلة بما ينبغي عليه أن يفعله، منذ اللحظة التي يغادر فيها ماكوندو حتى ينزل في برشلونة. ولكن ذلك كله لم يحل دون أن يلقي، بين النفايات، بنطالاً كان يحوي نصف ثروته المالية، دون أن يدري.

في الليلة التي سبقت الرحلة، سمّر الصناديق، ورتّب ثيابه في حقيبة الملابس نفسها التي جلبها معه يوم جاء، وقطب حاجبيه الشبيهين بالسرطان، وأشار بيده، إشارة مباركة فظة جوفاء، إلى أكداس الكتب التي استطاع بها احتمال منفاه. وقال لأصدقائه:

ـ أيها الناس، أترك لكم كل تلك القاذورات.

بعد ثلاثة أشهر على رحيله، تلقوا منه غلافاً كبيراً فيه تسع وعشرون رسالة، وما يزيد على خمسين صورة تجمّعت له، في ساعات فراغه، في أثناء رحلته في أعالي البحار. كانت تواريخ كتابة الرسائل واضحة، مع أنه لم يذكر على أي منها أي تاريخ. فقد كان في الرسالة الأولى يتحدث، بسخريته المألوفة، عن حوادث الرحلة، وعن رغبته في أن يلقي إلى البحر بربّان الباخرة الذي حاول منعه من إدخال الصناديق إلى حجرته، وعن سخف سيدة أفزعها أن يكون رقم حجرتها (١٣). ولم يكن ذلك نتيجة لتطيّرها من الرقم، وإنما لأنها كانت تعتقد أن هذا الرقم كان ينقصه شيء ما. وكان يتحدث عن الرهان الذي ربحه في أول عشاء، عندما عرف أن الماء الذي يقدم على الباخرة له طعم الشمندر

الليلي الخاص بينابيع (ليريدا). ولكنه، مع مرور الأيام، لم يعد يهتم بواقع الباخرة وما يجري على ظهرها. ذلك أن أبسط الأحداث أخذت تستبد به وتستثير حنينه. فطغت على ذاكرته الكآبة، وأخذ الحزن يستبد به، وتزداد وطأة ذلك عليه بازدياد ابتعاد الباخرة. وقد بدا الحنين المتزايد واضحاً في الصور. فقد كان في الأولى منها يبدو سعيداً بقميصه الرياضي، الشبيه بثياب المستشفيات، وبناصيته المكللة بالثلج، تحت أشعة شمس تشرين الأول (أكتوبر) الكاريبية. أما في الصور الأخيرة فكان يبدو متلفعاً بمعطف داكن، ووشاح حريري. وهو شاحب الوجه، وقد أصمته الغياب على متن مركب الحسرات والحزن، الذي يمخر اليمّ، كمن يسير وهو نائم، عبر المحيطات الخريفية.

كان جيرمان وأوريليانو يجيبان عن رسائله. وقد أكثرا من الكتابة في الأشهر الأولى التي تلت رحيله، حتى شعرا أنهما أقرب إليه منهم خلال المدة التي قضاها في ماكوندو. ولذلك بدأ حزنهم لفراقه وغضبهم لسفره يخف تدريجياً. وقد حدثهم كثيراً في البداية. فذكر لهم أن كل شيء كان ما يزال على ما كان عليه قبل رحيله إلى ماكوندو. فما يزال عنده في البيت الحلزون الوردي نفسه، وأن سمك الرَّنكة(١) المجفف ما يزال له الطعم نفسه على شطائر الخبز، وأن الشلالات في القرية ما تزال تعبق برائحة العطر، كما عهدها، عند حلول الظلام.

كانت رسائله ما تزال على صفحات من ورق دفاتر الملاحظات المدرسية السابقة، تنساب عليها الكتابة الأنيقة بالخط الأرجوانيّ القديم نفسه. وعلى الرغم من ذلك، كانت تلك الرسائل التي يتمالك فيها نفسه، ويشجعهم بها ويستثير حماسنهم، دون شعور منه، تتحول

(١) من أنواع السردين.

تدريجاً إلى نوع من الرسائل العاطفية الشبيهة بأشعار الرعاة الرومانسية. ففي إحدى ليالي الشتاء، وبينما الحساء تغلي فوق نار الموقد، بدأ يشعر بالحنين إلى الدفء والحرارة حيث كان يجلس في مؤخرة مكتبته، وإلى دقّ الشمس على أشجار اللوز الغبراء، وصفير القطار المدويّ خلال تراخي الناس في وقت القيلولة. كما كان يحن، في ماكوندو، إلى الحساء الشتائي في الموقد، وأصوات باعة القهوة المتجولين، وأسراب القبرات والحساسين في أيام الربيع.

واضطرب الكاتالونيّ الحكيم، وهو يجد نفسه ضائعاً بين نوعين من الحنين متقابلين، يواجه أحدهما الآخر، كمرآتين متوازيتين، فأضاع شعوره باللا واقع واللا معقول. وانتهى به الأمر إلى توجيه النصح إلى الأصحاب بأن يغادروا ماكوندو جميعاً، وبأن ينسوا كل ما علمهم إياه عن العالم والقلب الإنساني، وأن يبولوا على (هوراس)، وأن يتذكروا دائماً، أنى كانوا، أن الماضي لم يكن سوى كذبة، وأن لا عودة للذاكرة، وأن كل ربيع يمضي لا يمكن أن يُستعاد، وأن أعنف الحب وأطوله وأبقاه لم يكن في النهاية سوى حقيقة عابرة.

كان ألفارو أول من قبل النصيحة بمغادرة ماكوندو. فباع كل شيء، حتى النمر المدجّن الذي كان يغيظ المارّة في ساحة داره. ثم اشترى تذكرة سفر دائمة في قطار لا يتوقف عن السفر أبداً. وكان، في البطاقات التي أخذ يرسلها، يصف المحطات التي كان يعبرها بخيال شرود وإعجاب غير محدود، ويصف ما كان يشاهده، لمحاً سريعاً، من نافذة القطار باستطراد وإسهاب. فكان كأنما هو يجزىء قصيدة الزوال الطويلة إلى نتف يلقي بها في زوايا النسيان، فكان يصف الزنوج السود في حقول القطن في لويزيانا، والخيول المجنحة تسرح في مروج العشب الأزرق في كنتكي، والعشاق اليونانيين في أوقات الغروب اللاهبة في أريزونا. ويصف الفتاة

التي كانت ترتدي الكنزة الحمراء، وترسم المناظر بالألوان المائية قرب البحيرة في ميتشيغان، وكيف رفعت فرشاتها التي تلون بها إشارة أمل لا إشارة وداع، لأنها لم تكن تدري أنها كانت ترقب قطاراً عابراً لن يعود.

بعد ذلك، رحل ألفونسو وجيرمان في يوم سبت على أن يعودا يوم الإثنين الذي يليه. وانقطعت أخبارهما إلى الأبد. وهكذا، لم يبقَ بعد عام من رحيل الكاتالوني الحكيم عن ماكوندو سوى غابرييل، وهو في مهب الريح، يعيش على إحسان نيجرومانتا المتقطع حسب الظروف، ويجيب عن أسئلة في مسابقة طرحتها مجلة فرنسية، وكانت الجائزة الأولى فيها رحلة إلى باريس. وكان أوريليانو؛ وهو صاحب الاشتراك في المجلة، يساعد غابرييل في وضع الإجابات، أحياناً في بيته، وفي معظم الأوقات وسط قوارير السيراميك، في الصيدلية الوحيدة الباقية في ماكوندو، في جو مشبع برائحة الدواء والتراكيب الكيماوية، حيث كانت تعيش (ميرسيدس) صديقة غابرييل السرّية. وكان ذلك آخر ما تبقى من الماضي، ذلك الماضي الذي يتلاشى شيئاً فشيئاً، فيغدو أطلالاً، تتآكل من داخلها. فهي تنتهي، أو تكاد، في كل لحظة، ولكنها لا تنهي الإنتهاء، ولا تقوى على الزوال.

فقد بلغت البلدة أقصى حالات الخمول، إلى درجة أن غابرييل، بعد أن فاز في المسابقة ورحل إلى باريس، وهو يحمل غيارين من الملابس، وحذاء، ومؤلفات (رابليه) الكاملة، قد اضطر إلى أن يشير إلى سائق القطار كي يتوقف ويأخذه معه. صار شارع الأتراك القديم، في تلك الفترة، زاوية مهملة مهجورة، حيث كان بقايا العرب يستسلمون لأنياب الموت الزاحفة، وهم ما يزالون على عادتهم القديمة في الجلوس عند مداخل بيوتهم، على الرغم من أنهم قد باعوا، من زمن بعيد، آخر ذراع من أقمشتهم الطولية. ولم يبقَ في ظليل واجهات المعارض والحوانيت إلا

شخوص العرض المهشمة.

أما مدينة شركة الموز، التي ربما تكون باتريشيا براون قد حاولت استعادة أخبار تاريخها برواياتها لحفدائها، في ليالي القيظ التي لا تطاق، وهي تخلّل الخضر في (براتفيل) من (الاباما)؛ أما تلك المدينة فقد غدت مرجاً عشبياً برّياً.

أما الكاهن القديم الذي حلّ محل الأب أنخيل، والذي لم يهتمّ أحد حتى بمعرفة اسمه، فكان ينتظر رحمة الله، مستلقياً في أرجوحته، يعاني من داء المفاصل وأرق الشك، بينما كانت السحالي والجرذان تتنازع ميراث الكنيسة المجاورة.

في ماكوندو تلك، المنسية التي هجرتها حتى الطيور، وتراكم عليها الغبار، واستبدّ بها الحرّ، حتى لم يعد يستطيع المرء فيها أن يتنفس إلا بصعوبة بالغة، كانت أمارانتا أورسولا وأوريليانو يعيشان سجيني العزلة والحب، ورهيني عزلة الحب، في منزل يستحيل أن يقدر إنسان فيه أن يغمض عينيه، بسبب هدير النمل الأحمر. ولكن أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا، على الرغم من كل ذلك، كانا الكائنين الوحيدين السعيدين، بل أسعد مخلوقين على وجه الأرض.

لقد عاد غاستون إلى بروكسل. فقد أعياه انتظار الطائرة. وذات يوم، وضع في حقيبته الصغيرة ما لا يستغني عنه من حاجاته الضرورية، وملف مراسلاته. ثم سافر وهو عازم على العودة جواً، قبل أن يخسر الامتياز لمجموعة من الطيارين الألمان، الذين تقدّموا لسلطات الإقليم بعرض يشتمل على مشروع أكثر طموحاً من مشروعه.

وتابع أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا، منذ أول عصر التقيا فيه، إقتناص كل لحظة كان الزوج يغفل فيها عنهما، ولو أنها كانت قليلة، فيقبلان على ممارسة الحب بنهم مشبوب العواطف والشهوة. وكثيراً ما كانت

عودة الزوج المفاجئة تقطع ما تواصل من جماحهما. فلما أصبحا وحيدين في الدار غرقا في انتهاب ما فاتهما من حب. تجرفهما عاطفة ملتهبة، لا تعرف الإتزان، ولا يحكمها تعقّل، ترتعد لها فرائص فيرناندا في قبرها، حتى كانا من جموح العاطفة في توتر دائم. وكانت آهات أمارانتا أورسولا، ومواؤها وتأوهاتها، وصرخات معاناتها، وأغاني نشوتها، تنطلق متفجرة في نحو الساعة الثانية بعد الظهر على المائدة في قاعة الطعام، كما تتفجر في الساعة الثانية قبل الفجر في المخزن. وكثيراً ما كانت تصيح ضاحكة :

ـ أشد ما يؤلمني هو الزمن الطويل الذي ضيّعناه.

ورأت أمارانتا ـ أورسولا، وهي في ذروة عشقها ونشوتها، قوافل النمل الأحمر المتواصلة الهائلة، وهي تجتاح البستان، وتشبع نهمها الذي يرجع إلى ما قبل التاريخ، بقرض أعمدة البيت وأخشاب الدار الأخرى. شاهدت ذلك السيل العارم، من الحمم الحية، يستولي على الشرفة من جديد. فلم تكترث، ولم تبالِ بردّ ذلك الاجتياح حتى وصل الغزو إلى غرفة نومها.

وأهمل أوريليانو الصحائف والرقاع، ولم يعد يخرج قط من الدار. وكان يجيب، كيفما اتفق، عن رسائل الكاتالوني الحكيم.

وفقد كلاهما معنى الواقع، ومفهوم الزمن، والصلة بالحياة العادية ووقعها. وسدّا الأبواب والنوافذ، كي لا يضيعا شيئاً من الوقت في ارتداء الثياب وخلعها. فكانا يسرحان في البيت، يروحان ويجيئان، كما كانت ريميدوس الجميلة تشتهي أن تفعل. وكانا يعبثان عاريين، ويتدحرجان فوق التراب وفوق الوحل في فناء الدار عاريين، حتى كادا، ذات يوم عصراً، يغرقان في الحوض. وخلال فترة قصيرة من الزمان، خربا في البيت أكثر مما خرّب النمل الأحمر : فقد حطما أثاث الصالة. ومزقا، في

جنونهما الخارق، أرجوحة العقيد أوريليانو بوينديا، التي صمدت تحت وطأة غراميات الحرب الحزينة. وقطعا الفرشات وأفرغا حشوتها على الأرض، حتى كادا يختنقان في زوابع من القطن.

كان أوريليانو عاشقاً نهماً، وكانت شريكته مثله. ولكن أمارانتا ـ أورسولا، وهي التي كانت الآمرة الناهية، في ذلك الفردوس المنكوب، بعبقريتها الخرقاء وظمئها الخيالي، حتى لكأنها أطلقت في الحب طاقة لا تقهر، طاقة تضارع طاقة جدتها الثالثة التي هدرتها في صنع حلويات الكراميلا على هيئة حيوانات صغيرة.

وفيما كانت أمارانتا ـ أورسولا تغنّي نشوة وسعادة وتكاد تموت ضحكاً لأفانينها في مواقف الحب، كان أوريليانو يتحول شيئاً فشيئاً، إلى إنسان صامت منطوٍ على نفسه، لأن عاطفته بدأت تنكفىء على ذاتها، وكانت شديدة محرقة.

لقد بلغا معاً أقصى الأفانين، وأكثر الأوضاع عجباً وتطرفاً، حتى طوّح بهما جنونهما، وأنهكتهما إثارة ما كانا فيه، فكانا يستغلان حالة إجهادهما إلى أبعد الحدود. وانتهى بهما المطاف إلى عبادة جسديهما. فاكتشفا أن فترات الاستراحة في المضاجعة والحب تنطوي على احتمالات ، وتمنح آماداً لم تعرف بعد ، وهي تتفوق في متعتها وغناها على كل صنوف الشهوات والرغائب. فبينما كان أوريليانو يدغدغ نهدي أمارانتا ـ أورسولا الأتلعين ويدلكهما بزلال البيض، أو يطرّي بزيت جوز الهند فخذيها البضّين وردفيها المكوّرين كحبّتي درّاق وبطنها المنساب كالسفح، كانت هي تلاعب ذكره وتعبث به كأنه دمية. فترسم له عينين كعيني المهرّج بأحمر شفتيها، وشارباً كشارب التركي بقلم كحلها، وتضع في عنقه عقدة كأنها ربطة من حرير، ثم تضع على رأسه قبعة من ورق الفضة.

وذات ليلة، دهنا جسميهما، من قمة الرأس حتى أخمص القدم، بمربى الدراق، ولحس كل منهما جسم الآخر لعقاً ككلبين، ثم غرقا في المضاجعة وتعاطي الحب كمجنونين على أرض الشرفة في الدار. ولم يوقظهما من نشوتهما إلاّ سيل من النمل آكل اللحم، كان على وشك أن يمزقهما ويلتهمهما حيّين.

كانت أمارانتا ـ أورسولا تردّ على رسائل زوجها غاستون في فترات الراحة المتباعدة التي كانت تتيحها لها النشوة في حياة الحب. وكان لديها شعور طاغ بأنه بعيد ومشغول، وأنّ رجوعه مستحيل. وقد كتب لها في إحدى أوائل رسائله يخبرها بأن شركاءه قد أرسلوا له الطائرة فعلاً، ولكن أحد وكلاء الشحن في بروكسل أرسلها، خطأ، إلى تانجانيقا، حيث تمّ تسليمها إلى قبيلة الماكوندوس المنتشرة هناك. وقد نشأ عن هذا الخطأ مضاعفات وصعوبات كثيرة، حتى إن استرداد الطائرة قد يحتاج إلى مدة سنتين. وهكذا استبعدت أمارانتا ـ أورسولا من ذهنها إمكان عودته في وقت غير مناسب.

أما أوريليانو فقد انقطعت صلاته بالعالم الخارجي، إذ لم يبقَ هناك مما يصله بخارج الدار سوى رسائل الكاتالوني الحكيم، والأخبار التي كانت تصله من غابرييل عن طريق ميرسيدس، الصيدلانية الصامتة. وقد كانت تلك الأخبار، في البداية، حقيقية وذات معنى. ولكن غابرييل أعاد تذكرة رحلة العودة إلى شركة الطيران واستردّ ثمنها، كي يبقى في باريس، يبيع الجرائد والصحف القديمة والزجاجات الفارغة التي كانت الخوادم تلقي بها خارجاً، من فندق كئيب قاتم الجو في شارع (دوفين). وكان أوريليانو يتخيله، بكنزته ذات القبة العالية التي لا يخلعها إلاّ عندما تزدحم مقاهي (المونتبارناس) بالعشاق الربيعيين. كان يقضي نهاره نائماً، ويكتب في الليل كي ينسى الجوع ويبعد شبحه عنه، في تلك الغرفة التي

كانت تنبعث منها رائحة القنبيط المغلي، والتي قُدِّر لـ (روكامادور) أن يموت فيها. ثم بدأت رسائله تزداد غموضاً، تدريجياً، وصارت أخباره، شيئاً فشيئاً، أقل يقينية. وغدت رسائل الكاتالوني الحكيم قليلة متباعدة وكئيبة حزينة. فاعتاد أوريليانو أن يفكر في أخبار صاحبيه كما كانت أمارانتا ـ أورسولا تفكر في زوجها. وظلاّ معاً يعومان في عالم فارغ من كل شيء، سوى حقيقة واحدة، يومية خالدة، هي الحب.

ودون سابق إنذار، وصل نبأ عودة غاستون. فكان له وقع الصاعقة في عالم اللا وعي السعيد. فتح كل من أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا عينيه، وغاص كل منهما في روح الآخر يسبر أعماقه، ويد كل منهما على قلبه وهما يحدقان في الرسالة. وعندما أدركا أنهما كانا من القرب والمحبة، حتى غدا كل منهما الآخر، فباتا يفضلان الموت على الانفصال. وعندها كتبت أمارانتا ـ أورسولا إلى زوجها رسالة حافلة بالوقائع المتناقضة. فأكدت له، في الرسالة، حبها، وأنها قد عيل صبرها لرؤيته. ولكنها أعلنت له، في الرسالة نفسها، أن القدر قد كتب عليها ألاّ تستطيع الحياة دون أوريليانو.

وخلافاً لما توقعه أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا، أرسل إليها غاستون رسالة جوابية مطوّلة، في صفحتين كبيرتين، كانت في غاية الصفاء والهدوء، حتى كادت تبدو نصحاً أبوياً. فقد كرّس معظم الرسالة لتحذيرهما من الانسياق وراء العواطف، ومن كبوات الجموح. وختم الرسالة بفقرة تمنى لهما فيها، دون لبس أو إبهام، أن يكونا سعيدين كما كان هو خلال خبرته الزوجية القصيرة.

ولم يكن ذلك الموقف متوقعاً منه، ولا سيما من قبل أمارانتا ـ أورسولا. فشعرت بالإهانة لأنها بدت كما لو أنها قد وفرت لزوجها الذريعة التي كان ينتظرها كي يدعها ويمضي، تاركاً إياها تواجه مصيرها.

وتعمق حنقها، وازدادت ضغائنها حين أرسل إليها رسالة من ليوبولدفيل، بعد سنة من ذلك، وبعد أن توصل إلى استلام الطائرة، يطلب منها فيها، ببساطة، أن ترسل له دراجته، لأنها الشيء الوحيد الذي بقيت له قيمة عاطفية لديه، من كل ما تركه في ماكوندو.

احتمل أوريليانو، بصبر، غضب أمارانتا أورسولا وحنقها الشديد. وبذل كل جهد ممكن، كي يثبت لها أنّ بوسعه أن يكون زوجاً جيداً في أيام الشدة والضيق، كما كان في أيام الفرح والسعة. أما مواجهة الحاجات اليومية التي بدأت تلحّ عليهما، بعد أن نفدت بقية الأموال التي تركها غاستون، فقد أوجدت بينهما رابطة من التضامن، لم يكن لها ذلك الجمال ولا تلك الإثارة التي كانت للعواطف، ولكنها أقدرتهما على أن يحب أحدهما الآخر، وعلى أن يظلا سعيدين، كما كانا في أيام فجورهما وعشقهما الجنوني الجامح. وعندما ماتت بيلار تيرنيرا، كانا ينتظران طفلاً لهما.

حاولت أمارانتا ـ أورسولا، خلال فترة التثاقل والخمول التي رافقت حملها، أن تنشىء مشروع عمل، يقوم على صنع القلائد والعقود من فقرات السمك. ولكنها لم تجد زبائن لشراء قلائدها باستثناء ميرسيدس، التي اشترت اثنتي عشرة قلادة منها. وأدرك أوريليانو، للمرة الأولى، أنّ موهبته في اللغات، ومعرفته الموسوعية، ومقدرته النادرة على تذكر التفاصيل عن الأحداث القديمة في التاريخ والأماكن النائية، دون أن يراها، كانت كلها لا تسمن ولا تغني من جوع، تماماً كصندوق الحجارة الكريمة الحقيقية الذي كان عند زوجته، والذي، كان ينبغي أن يساوي كل المال الذي يستطيع جمعه كل من تبقى من سكان ماكوندو. وعلى الرغم من ذلك كان يعيشان بصعوبة حياة الكفاف.

لم تتخلَّ أمارانتا ـ أورسولا عن ظرفها وخفة روحها، ولا عن مواهبها

وعبقريتها في أفانين الحب. وكانت قد تعوّدت، شيئاً فشيئاً، أن تجلس في الشرفة بعد الغداء، لكي تقضي بعض سويعات القيلولة، يقظى حالمة. وكان أوريليانو يصحبها. كانا يقضيان معظم الوقت، أحياناً، صامتين، حتى هبوط الظلام، جالسين وجهاً لوجه، يحدق الواحد منهما في عيني الآخر، ويتبادلان الحب القديم الجنوني الجموح. ثم اشتدّ عليهما عدم الاطمئنان للمستقبل، مما علق قلبيهما بالماضي. فتخيلا نفسيهما في جنة الطوفان المفقودة، يخوضان في جنبات الدار الموحلة، ويقتلان السحالي كي يعلقاها على أورسولا العجوز، ويتظاهران بأنهما يريدان دفنها حية. وقد كشفت لهم تلك الذكريات أنهما كانا دائماً سعيدين معاً، ومنذ أن كانت لهما ذكريات تجمع بينهما.

وبينما كانت أمارانتا أورسولا تنبش ذكريات الماضي، تذكرت ذلك العصر الذي دخلت فيه إلى مشغل صياغة الفضة، وأن أمها قد روت لها أنّ أوريليانو الصغير لم يكن له أب، أو لم يكن ابن أحد منهم، لأنهم وجدوه في سلة طافية على وجه ماء الطوفان. وعلى الرغم من إيمانهما بأن تلك الرواية لم تكن صحيحة، إلا أنهما لم يكن لديهما، من المعلومات، ما يدحضها ويوصلهما إلى النبأ الصحيح. فالشيء الوحيد الذي كانا على يقين منه، بعد مراجعة كل الاحتمالات، هو أنّ فيرناندا لم تكن أم أوريليانو. وقد رجّحت أمارانتا أورسولا الاعتقاد بأنه إبن بيترا كوتيس، التي لم تحفظ عنها شيئاً سوى القصص المخجلة المعيبة. وقد أحدث ذلك الافتراض، في أعماقها انقباضاً وكآبة، وفي قلبها رعباً هائلاً.

أما أوريليانو فقد كان يعذبه خوفه من يقينه بأنه أخو زوجته. ولذلك سارع إلى الكنيسة، لكي يبحث، في أكداس الأرشيف المترطبة التي يعبث فيها العث قضماً وفساداً، عن دليل يتصل بأبويه وانتسابه. وكانت

أقدم شهادة عمّاد، عثر عليها، تعود إلى أمارانتا بورينديا، التي عمّدها الأب نيكانور رينا، عندما بلغت سن الرشد. وكان ذلك في الحقيبة التي كان يحاول فيها أن يثبت وجود الله باللجوء إلى وسائل الاحتيال بالشوكولاتة.

ثم ابتدأ أوريليانو بالتوهم أنه كان واحداً من أبناء العقيد أوريليانو بورينديا السبعة عشر، الذي كان كل منهم يدعى أوريليانو. فبحث عن شهادات ولادتهم في أربعة مجلدات، ولكنه تبيّن أنّ تواريخ عمّادهم ترجع إلى أوقات قديمة بالنسبة إلى عمره. ولما رآه الكاهن، المريض بداء المفاصل، وهو ضائع في متاهات البحث عن القرابة والنسب، يرتجف قلقاً بسبب شكوكه ووساوسه، وقد كان يرقبه من أرجوحته، سأله بلطف وودّ عن إسمه، فأجابه قائلاً :

ـ أوريليانو بورينديا.

فقال الكاهن بثقة تامة :

ـ إذن، لا تتعب نفسك بالبحث. فمنذ زمن بعيد، كان يوجد هنا شارع بهذا الإسم. وقد اعتاد الناس، في ذلك الوقت، أن يسموا أبناءهم بأسماء الشوارع.

فاستشاط أوريليانو غضباً وصاح قائلاً :

ـ هكذا، إذن، فأنت لا تصدق الأمر أيضا !!

ـ أصدّق ماذا؟

فأجاب أوريليانو :

ـ إنّ العقيد أوريليانو بورينديا قد خاض اثنين وثلاثين حرباً أهلية وخسرها جميعاً. وإنّ الجيش قد حاصر ثلاثة آلاف عامل وحصدهم بنار رشاشاته، وانّ جثثهم قد شحنت، في قطار مؤلف من مئتي عربة،

ليُلقي بها في البحر.

وحدّق فيه الكاهن بإشفاق حزين عميق، وتأوّه وهو يتأمله، طولاً وعرضاً، وقال له :

ـ آه يا بنيّ. يكفيني أن أكون على يقين بأني وإياك موجودان فعلاً في هذه اللحظة.

وهكذا تقبّل أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا قصة السلة، لا لأنهما آمنا بها، بل لأنها تخلصهما من الوساوس والشكوك التي كانت تحيق بهما. وكانا، بالقدر الذي يتقدم فيه حمل أمارانتا ـ أورسولا، يكادان يستحيلان كائناً واحداً، ويتكيفان للعزلة في البيت، ويندمجان فيها، وهي الحالة التي كانت لا تحتاج إلاّ إلى القشّة الأخيرة التي تقصمها فتهوي. واقتصرا، من البيت، على مجال ضيق يكفي للضروري من العيش، كانت حدوده غرفة ميراندا، التي عرفا فيها سحر الحب، وبداية الشرفة، حيث كانت أمارانتا أورسولا تجلس، وهي تحوك أحذية وقبعات من نسيج الصوف للطفل المنتظر، بينما يجلس، قبالتها، أوريليانو يجيب عن رسائل الكاتالوني الحكيم.

أما سائر الدار فكان عرضة للخراب الداهم، مستسلماً للزوال المحتوم. وغاب مشغل صياغة الفضة، كما غابت غرفة ملكيادس، ومملكة سانتا صوفيا (التقية) الصامتة، في أعماق الأدغال المتشابكة في الدار، حتى لم يعد أحد يجرؤ على دخولها.

وهكذا كان أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا يعيشان محاصرين بقسوة الطبيعة، ويتابعان قطف أزهار الأوريجان والبيجونيا، ويدافعان عن عالمهما الخاص بخطوط حدودية مرسومة بالكلس، وكأنهما ينشئان آخر خنادق الحرب التاريخية بين الإنسان والنمل.

تهدّل شعر أمارانتا ـ أورسولا الطويل المهمل، وظهرت على وجهها

بقع شاحبة، وتورّمت رجلاها، فتشوّه جسم تلك المخلوقة الرائعة الجمال، المغري بالحب والغزل، وتغيّر مظهرها الذي كان يتفجر طاقة وحيوية شباب يوم وصلت إلى الدار، ومعها قفص طيور الكناري سيئة الحظ، ومعها كذلك زوجها الأسير. ولكن كل ذلك التغير لم يغير حيوية روحها. فقد كانت تقول، ضاحكة، أحياناً :

ـ اللعنة. من كان يصدق أننا سننتهي فعلاً إلى العيش كآكلة لحم البشر.

وانبتّ آخر خيط كان يربطهما بالعالم الخارجي، حين وصلتهما رسالة، وهي في الشهر السادس من حملها. ولم تكن تلك الرسالة، قطعاً، من الكاتالوني الحكيم. كانت الرسالة من برشلونة، وخط الغلاف عاديّ بالحبر الأزرق، يذكر بالكتابة الإدارية. وقد كانت الرسالة ذات مظهر بريء، حياديّ، وليست لها ملامح شخصية عدائية. فخطفها أوريليانو من بين يدي أمارانتا ـ أورسولا، وهي تحاول فتحها، قائلاً لها :

ـ لا يا عزيزتي. لا تفتحي هذه الرسالة. فأنا لا أريد أن أعرف ما فيها.

كان إحساسه صائباً. فالكاتالونيّ الحكيم لم يكتب قطّ من بعد، مرة أخرى. وقد ظلت الرسالة الغريبة، التي لم يقرأها أحد، تحت رحمة العث، راقدة على الرف الذي نسيت عليه فيرناندا، ذات يوم، خاتمها. ظلت الرسالة تأكل ذاتها بذاتها، تحترق بنار أخبارها المشؤومة، بينما كان العاشقان، المستوحدان في عزلتهما، يبحران ضد تيار تلك الأيام من فصول المسرحية الأخيرة، تلك الأيام ذات الأوقات المشؤومة المنحوسة، وهي تمر بهما، فيحاولان، عبثاً، أن يحرفاها إلى فيافي زوال الأوهام والنسيان.

أحسّ أوريليانو وأمارانتا أورسولا بما كان يهدّد وجودهما، فأمضيا

الأشهر الأخيرة يمسك أحدهما بيد الآخر، لعلّ المشروع الذي بدآه بفجور جامح مجنون يكتمل في حب هادىء بريء. كانا إذا رقدا في الفراش، للنوم، يحتضن الواحد منهما الآخر، ويحيطه بذراعيه، فلا يخشيان انفجار النمل من فجاج الأرض تحتهما، ولا ضجيج العث، ولا الصفير الذي لا ينقطع، يندّ عن الأعشاب والطفيليات الضارّة النامية في الغرفة المجاورة. ولطالما كانت توقظهما تحركات الموتى المحمومة. فقد سمعا أورسولا، مرة، تصارع قوانين الخلق كي تحفظ سلالتها، وسمعا خوزيه أركاديو بوينديا يبحث عن حقيقة الاختراعات الكبرى الموهومة، وفيرناندا تصلي، والعقيد أوريليانو بوينديا يعاني معانداً، في وهم ذاتي، أمام إحدى خططه العسكرية، وإزاء السمكات الذهبية الصغيرة، وأوريليانو الثاني يموت من العزلة، رويداً رويداً، في حمى دوار ولائمه المجونية المضنية. وعندها عرفا أن الوساوس الكبرى المسيطرة يمكن أن تتغلب على الموت. وعادا إلى الشعور بالسعادة في حياتهما، وهما على يقين من أنهما سيظلان عاشقين، يحب أحدهما الآخر، حتى عندما يغدوان شبحين، وإلى زمن أبعد من ذلك الذي تظهر فيه سلالات أجناس أخرى من الحيوانات، فتسلب من الحشرات جنة البؤس التي استطاعت الحشرات أخيراً أن تسلبها من الإنسان.

وفي الساعة السادسة من بعد ظهر ذات أحد، أحسّت أمارانتا ـ أورسولا بإرهاصات الولادة المتمثلة ببدايات معاناة المخاض. فوصلت إلى البيت تلك المرأة الباسمة ، صاحبة النزل الذي كان يؤوي البنات المومسات اللواتي كنّ يقدّمن أجسادهن لقاء طعامهن. فأضجعتها على طاول غرفة الطعام، واعتلت فوق بطنها، وأخذت تعدو فوقها بطريقة فظة، حتى غطّى على صراخها وصياحها ثغاء طفل ذكر شديد عظيم. واستطاعت أمارانتا ـ أورسولا أن تشاهده، عبر دموعها، وأن تلاحظ أنه من أفضل

سلالة آل بوينديا. فقد كان كبيراً وشديداً وعنيداً مثل خوزيه أركاديو، وله عينان مفتوحتان حادتا النظر كعيني أوريليانو. وقد كان فيه كل ما يبشر بداية جديدة لهذه السلالة، ينقيها من كل آفاتها السلبية السيئة، وينجيها من عزلتها، لأنه الوحيد الذي نشأ بالحب، وولد من الحب، عبر قرن من الزمان. فعلقت قائلة :

ـ إنه آكل بشر حقيقي، وسوف ندعوه رودريجو. وعارض زوجها قائلاً :

ـ لا. سوف ندعوه أوريليانو، وسوف ينتصر في اثنتين وثلاثين حرباً.

وبعد أن قطعت له القابلة حبل الخلاص، بدأت تمسح، بخرقة، ما كان عالقاً به من الدهن المزرق، الذي كان يغطي جسمه، بينما كان أوريليانو يحمل بيده المصباح. فلما كفأته على بطنه، ظهر له شيء يختلف فيه عن بقية البشر، فاقتربوا منه وانحنوا ليروه جيداً. لقد كان ذلك ذنب خنزير.

لم يخف أوريليانو وأمارانتا ـ أورسولا، ولم ينزعجا لذلك. فقد كانا يجهلان تلك الحالة كسابقة في العائلة، وما كانا ليذكرا تحذيرات أورسولا المخيفة. وهدأت القابلة من روعهما، زاعمة أن ذلك الذنب يمكن قطعه والتخلص منه عندما يبلغ الطفل عمر ظهور الأسنان. ولم يتح لهما وقت للتفكير في الأمر، من بعد، لأن أمارانتا ـ أورسولا كانت تنزف دمها بشدة، ولم يبقَ من سبيل لإيقاف النزيف.

حاولا أن يساعداها باستخدام رفادات من نسيج العنكبوت وضمادات معبأة بالرماد، ثم بكرات من الرماد. ولكن ذلك كله كان كمن يحاول سدّ نبع باليدين. وقد جهدت المسكينة، في الساعات الأولى، أن تحافظ على مزاجها المرح. فأخذت بيد أوريليانو، حين رأته خائفاً، وتوسلت إليه ألاّ يقلق ولا ييتئس، لأن من كان مثلها من البشر لا يموت إلا بإرادته،

بينما كانت تتفجر ضحكاً، حتى تكاد تختنق، من تلك الوسائل الوحشية التي كانت تستخدمها القابلة. ولكنها كانت، بالقدر الذي كان الأمل يهجر فيه أوريليانو ويتركه حطاماً، تتلاشى شيئاً فشيئاً، كما لو أن النور الذي كان يسطع عليها بدأ يذبل ويخبو حتى أدركها سبات عميق غرقت فيه.

في فجر يوم الاثنين، جاؤوا إليها بامرأة تتلو عند رأسها صلوات النجاة التي لا تفشل في علاج الإنسان والحيوان، ولكن دم أمارانتا ـ أورسولا العاشق الحبيب ما كان يفيد فيه إلاّ الحب.

ففي أصيل ذلك اليوم، وبعد أربع وعشرين ساعة من الكفاح اليائس، عرفوا أنها ماتت لأن دفق الدم قد توقف دون علاج، وغدا عارضها شاحباً نحيلاً، وغام وجهها ورحلت منه الحمرة الوردية، فآلت إلى فجر من مرمر، ثم إنها ابتسمت من جديد.

عند هذه المرحلة. أدرك أوريليانو كم كان يحب أصدقاءه، وكم كان يفتقدهم، وكم كان على استعداد لأن يقدّم كي يكون معهم في تلك اللحظة.

وضع الطفل في السلة التي أعدّتها له أمه، وغطى بالدثار وجه الجثة، وراح يتيه في طرقات البلدة، يسير على غير هدى، وبلا هدف، ربما يبحث عن منفذ يؤدي به إلى الماضي.

طرق باب الصيدلية، التي انقطع عن زيارتها في الفترة الأخيرة، فوجد مكانها منجرة. فتحت له الباب امرأة عجوز، بيدها قنديل، فرثت لحالة الضياع التي كان فيها، وأصرّت على أنه لم تكن قط هناك صيدلية، وأنها لم تعرف، في حياتها، امرأة ذات جيد ناحل أتلع وعينين ناعستين، تدعى ميرسيدس. .

وبكى أوريليانو، وهو يسند جبهته إلى باب المكان الذي كان يوماً

مكتبة للكاتالوني الحكيم. بكى، وهو يدرك أنه كان يذرف كل ما فاته من دموع، على موت آثر ألاّ يبكيه في حينه، لعله لا يفصم عرى سحر الحب. وحطّم قبضتيه على جدران الملهى المعروف بـ «الطفل الذهبي»، وهو ينادي بيلار تيرنيرا، غير آبه بدوائر الضوء البرتقالي المشعة، التي كانت تعبر السماء، والتي طالما تأملها في ليالي الأعياد، بدهشة طفولية، وهو قائم في ساحة طيور الكروان.

في آخر حفلة مفتوحة أقامها حيّ الدعارة ذو الأضواء الحمراء، المقفر الآن من الناس، عزفت مجموعة من آلات الأكورديون الموسيقية أغاني وألحان روفائيل إسكالونا، ابن أخي المطران ووارث أسرار فرانسيسكو الإنسان. يومها، قدّم له صاحب الحان، الذي تقوّست ذراعه وشلّت لأنه رفعها مرة في وجه أمه، علبة مشروب كحولي خفيف، وردّ له أوريليانو الدعوة بأن قدّم له هو الآخر علبة أخرى. وحدثه صاحب الحان عن سوء الحظ العاثر الذي أصاب ذراعه. وحدثه أوريليانو سوء الحظ العاثر الذي أحاق بقلبه، الذي أصابه الذبول وتقوّس وجمد، بشكل أو بآخر، لأنه تصدى لأخته. وانتهى بهما المقام إلى البكاء معاً، وأحسّ أوريليانو، للحظة، أنّ ألمه قد زال. ولكنه، عندما وجد نفسه وحيداً من جديد، في آخر فجر لماكوندو، فتح ذراعيه في وسط الساحة، استعداداً لإيقاظ العالم كله. وصاح من أعماق أعماقه وبكل ما أوتي من قوة:

ـ الأصدقاء عصبة من أبناء الحرام.

تلقّفته نيجرومانتا فأنقذته من مستنقع قيء ودموع. فنقلته إلى غرفتها، حيث غسلته ونظفته وقدمت له كأساً من الحساء. وظناً منها أنها تواسيه، تناولت قطعة من الفحم، ومسحت كل ديون الحب التي كانت لها عليه، والمعلمة خلف الباب. ثم تطوّعت بالحديث عن ذروة حزنها وكآبتها في عزلتها، وعن خيباتها في الحب، لعلها تسرّي عنه بألاّ تدعه

وحيداً مع أحزانه ودموعه. وعندما أفاق من نعاس عابر، وغفوة قصيرة، صحا أوريليانو على الصداع يكاد يفجر رأسه. ففتح عينيه وتذكر الطفل.

لم يجد أوريليانو سلة الطفل. فغمره فرح مفاجىء عارم؛ فقد ظنّ أنّ أمارانتا ـ أورسولا عادت إلى الحياة كي تهتمّ بأمره وتعتني به. ولكن الجثة كانت ككومة من الحجارة تحت الغطاء. وتذكر أنه وجد باب الغرفة مفتوحاً، عندما دخل. فمرّ من الشرفة التي تعبق بعطر الأوريجان الصباحي، ثم وصل إلى غرفة الطعام، حيث كانت ما تزال فيها آثار الولادة: القدر الكبيرة، والبياضات الملطخة بالدم، وأواني الرماد، وحبل خلاص الطفل المفتول على فرشة ممدودة على الطاولة بين المقص والرباط.

خيّل إليه أن القابلة قد عادت في الليل كي تأخذ الطفل، فشعر بشيء من الهدوء، وحاول أن يفكر بوضوح. فتهاوى على المقعد الهزّاز الذي كانت ريبيكا تجلس فيه، في العهد الأول من حياة البيت، كي تعلم دروس التطريز، والذي كانت أمارانتا تلعب فيه لعبة الدامة (الشطرنج الصيني) مع العقيد جيرينيلدو ماركيز، والذي خاطت فيه، أخيراً، أمارانتا ـ أورسولا ثياب الطفل. وخلال تلك اللحظة الخاطفة من الوضوح، شعر بأن روحه لم تعد قادرة على أن تقاوم كل أثقال ذلك الماضي السحيق.

كان يبدو جريحاً، نفذت فيه حراب الحنين القاتلة، ما كان منها ذاتياً، وما سببه له الآخرون. فراح يتأمل، بإعجاب، صمود بيوت العناكب المنسوجة على شجيرات الورد الميتة، ومثابرة نبات الجودار وصبره، وهدوء الهواء وصفاءه في ذلك الفجر المتألق من شباط (فبراير).

وعندما رأى الطفل. كان كقربة منفوخة جافة، وقد تجمّع عليه كل نمل الدنيا، يحاول كل سرب منه أن يسحبه نحو وجره تحت الأرض،

سالكاً ذلك الرصيف الحجري الممتدّ في البستان الصغير. ولم يستطع أوريليانو أن يبدي أية حركة، لا لأن الدهشة قد قيّدته، أو لأن الخوف قد شلّ حركته، بل لأن مفاتيح ملكيادس النهائية قد تكشفت له في تلك اللحظة العجيبة. فقد رأى نبوءة الصحائف والرقاع جلية واضحة، وقد توضحت تماماً في نظام زمان الإنسان ومكانه:

«أول السلالة مربوط إلى شجرة، والأخير منها يلتهمه النمل».

لم يكن أوريليانو (الصغير)، في أية لحظة من حياته، في مثل ذلك الوضوح الذي سطع عليه في تلك اللحظة. فقد نسي موتاه وكل ما يتصل بموتاه. ونسي كل آلام موتاه. وعمد إلى أبواب البيت والنوافذ فسمّرها بعوارض فيرناندا الخشبية، كي يحول دون أن يزعجه أيّ إغراء يتسرّب إليه من العالم الخارجي. ذلك أنه كان يعلم، الآن، أن قدره مدوّن في رقاع ملكيادس.

وجد الرقاع سالمة، لم تُمس بأذى، بين النباتات الأقدم من التاريخ، والمستنقعات التي ينبعث منها البخار، والحشرات البرّاقة، التي أزالت من الغرفة كل أثر لوجود البشر على الأرض.

لم يطق صبراً حتى يخرجها إلى الضوء. فعمد إليها، وهو ثابت في مكانه. وراح يلتهمها قراءة بذهنه وعينيه. ولم يجد فيها أدنى صعوبة، حتى لكأنها كانت مكتوبة بالإسبانية، وكأنه كان يقرؤها في وضح أشعة الشمس الباهرة عند الظهيرة. فبدأ يحل رموزها ويقرؤها بصوت عال.

كان ذلك تاريخ العائلة، كتبه ملكيادس، ففصل فيه حتى لم تفته أدق تفاصيل الحياة اليومية، مهما بدت تافهة وبسيطة. ويعود تاريخ الكتابة إلى مئة عام من الآن. وقد كتب ذلك التاريخ باللغة السنسكريتية، لغته الأم، ورمّز الأسطر أو الأبيات الشفعية أو الزوجية بالرمز الشخصي للإمبراطور أوغست، والأسطر أو الأبيات الوترية أو الفردية بالرمز

العسكري اللاسيديموني.

وكانت آخر عقبة قد بدأ أوريليانو بتخطيها والنفاذ منها، يوم صعقه حب أمارانتا ـ أورسولا، هي أن ملكيادس لم يرتب الوقائع والأحداث حسب الزمن الذي تعارف عليه البشر. فقد يتابع الأحداث اليومية عبر قرن كامل من الزمان، ويركزها بطريقة تمضي بها جميعاً، وتعرض كلّ ما يحدث منها في آن معاً، على الرغم من إختلاف المكان.

وأذهل ذلك الإكتشاف أوريليانو، فراح يقرأ بصوت جهوريّ، دون أن يقفز عن سطر واحد، تلك الأهازيج الغنائية، التي كان ملكيادس نفسه يسمعها لأركاديو، والتي لم تكن، في الواقع، سوى النبوءة الخاصة بإعدامه.

ووجد أوريليانو النبوءة بميلاد أجمل امرأة في الدنيا، وهي تصعد إلى السماء جسداً وروحاً. وعثر على النبوءة بميلاد التوأمين المرحومين اللذين تخليا عن دراسة الرقاع وحلّ رموزها، لا عن كسل أو انعدام مقدرة، وإنما لأن محاولتهما كانت سابقة لأوانها.

وعند هذه المرحلة، لم يعد أوريليانو يطيق الانتظار حتى يعرف أصله، فقفز عن مقطع في الصحيفة من الرقاع. وعندها تحركت الريح دافئة ورطبة شديدة، ملأى بأصوات من الماضي، وهمسات من الغرانيق(١) الحمراء القديمة، وتأوهات للخلاص من السحر والوهم كأنها الرؤيا التي تسبق أعتى ضروب الحنين. ولم يلحظ كل ذلك، لأنه كان، في تلك اللحظة، قد بدأ يكتشف أوائل مؤشرات وجوده، وإنتمائه الكينوني إلى حدّ شهواني يسعى إلى لذته، اندفع، منجرفاً بطيشه، إلى هضبة خرافية، وهو يبحث عن امرأة غاية في الجمال ولكنها لا يمكن أن تجعله سعيداً.

(١) الغرنوق: نوع من النبات الأحمر القاني يسمى إبرة الراعي.

سالكاً ذلك الرصيف الحجري الممتدّ في البستان الصغير. ولم يستطع أوريليانو أن يبدي أية حركة، لا لأن الدهشة قد قيّدته، أو لأن الخوف قد شلّ حركته، بل لأن مفاتيح ملكيادس النهائية قد تكشفت له في تلك اللحظة العجيبة. فقد رأى نبوءة الصحائف والرقاع جلية واضحة، وقد توضحت تماماً في نظام زمان الإنسان ومكانه :

«أول السلالة مربوط إلى شجرة، والأخير منها يلتهمه النمل».

لم يكن أوريليانو (الصغير) ، في أية لحظة من حياته ، في مثل ذلك الوضوح الذي سطع عليه في تلك اللحظة. فقد نسي موتاه وكل ما يتصل بموتاه. ونسي كل آلام موتاه. وعمد إلى أبواب البيت والنوافذ فسمّرها بعوارض فيرناندا الخشبية، كي يحول دون أن يزعجه أيّ إغراء يتسرّب إليه من العالم الخارجي. ذلك أنه كان يعلم، الآن، أن قدره مدوّن في رقاع ملكيادس.

وجد الرقاع سالمة، لم تُمس بأذى، بين النباتات الأقدم من التاريخ، والمستنقعات التي ينبعث منها البخار، والحشرات البرّاقة، التي أزالت من الغرفة كل أثر لوجود البشر على الأرض.

لم يطق صبراً حتى يخرجها إلى الضوء. فعمد إليها، وهو ثابت في مكانه. وراح يلتهمها قراءة بذهنه وعينيه. ولم يجد فيها أدنى صعوبة، حتى لكأنها كانت مكتوبة بالإسبانية، وكأنه كان يقرؤها في وضح أشعة الشمس الباهرة عند الظهيرة. فبدأ يحل رموزها ويقرؤها بصوت عال.

كان ذلك تاريخ العائلة، كتبه ملكيادس، ففصل فيه حتى لم تفته أدق تفاصيل الحياة اليومية، مهما بدت تافهة وبسيطة. ويعود تاريخ الكتابة إلى مئة عام من الآن. وقد كتب ذلك التاريخ باللغة السنسكريتية، لغته الأم، ورمّز الأسطر أو الأبيات الشفعية أو الزوجية بالرمز الشخصي للإمبراطور أوغست، والأسطر أو الأبيات الوترية أو الفردية بالرمز

العسكري اللاسيديموني.

وكانت آخر عقبة قد بدأ أوريليانو بتخطيها والنفاذ منها، يوم صعقه حب أمارانتا ـ أورسولا، هي أن ملكيادس لم يرتب الوقائع والأحداث حسب الزمن الذي تعارف عليه البشر. فقد يتابع الأحداث اليومية عبر قرن كامل من الزمان، ويركزها بطريقة تمضي بها جميعاً، وتعرض كلّ ما يحدث منها في آن معاً، على الرغم من إختلاف المكان.

وأذهل ذلك الإكتشاف أوريليانو، فراح يقرأ بصوت جهوريّ، دون أن يقفز عن سطر واحد، تلك الأهازيج الغنائية، التي كان ملكيادس نفسه يسمعها لأركاديو، والتي لم تكن، في الواقع، سوى النبوءة الخاصة بإعدامه.

ووجد أوريليانو النبوءة بميلاد أجمل امرأة في الدنيا، وهي تصعد إلى السماء جسداً وروحاً. وعثر على النبوءة بميلاد التوأمين المرحومين اللذين تخليا عن دراسة الرقاع وحلّ رموزها، لا عن كسل أو انعدام مقدرة، وإنما لأن محاولتهما كانت سابقة لأوانها.

وعند هذه المرحلة، لم يعد أوريليانو يطيق الانتظار حتى يعرف أصله، فقفز عن مقطع في الصحيفة من الرقاع. وعندها تحركت الريح دافئة ورطبة شديدة، ملأى بأصوات من الماضي، وهمسات من الغرانيق(١) الحمراء القديمة، وتأوهات للخلاص من السحر والوهم كأنها الرؤيا التي تسبق أعتى ضروب الحنين. ولم يلحظ كل ذلك، لأنه كان، في تلك اللحظة، قد بدأ يكتشف أوائل مؤشرات وجوده، وانتمائه الكيتوني إلى حدّ شهواني يسعى إلى لذته، اندفع، منجرفاً بطيشه، إلى هضبة خرافية، وهو يبحث عن امرأة غاية في الجمال ولكنها لا يمكن أن تجعله سعيداً.

(١) الغرنوق: نوع من النبات الأحمر القاني يسمى إبرة الراعي.

وقد عرفه أوريليانو، وراح يتابع مسارب سلالته الخفية، وصولاً إلى ولادته التي يكتنفها الغموض. واكتشف اللحظة التي تمّ حمله فيها، مضغة في رحم أمه، في جوّ تحيق به العقارب والفراشات الصفراء في غرفة الاستحمام المسائي، حيث كان عامل ميكانيكي يشبع شهوته مع إمرأة كانت تمنحه جسدها بسبب تمردها.

وكان مستغرقاً في ما هو فيه من إكتشاف، فلم يشعر بهبة الريح القوية الثانية، التي انتزعت قوتها العاصفة الأبواب والنوافذ من مواقعها، وطوّحت بسطح الجناح الشرقي، واقتلعت الأساسات.

عندها، وحسب، إكتشف أوريليانو أنّ أمارانتا - أورسولا لم تكن أخته بل خالته، وأنّ السيد فرانسيس دريك قد هاجم ريوهاشا لسبب واحد هو أن يمكنهم من البحث عن بعضهم، في معارج تيه الدم المتشابكة، حتى يكون بإمكانهم إنجاب الحيوان الخرافي الذي يضع حداً للسلالة كلها.

وكانت ماكوندو قد إستحالت، عندئذ، إلى زوبعة رهيبة كالإعصار من الغبار والدمار، يذروها غضب توراتيّ عاصف. فقلب أوريليانو إحدى عشرة صفحة، قافزاً عنها، كي لا يضيع الوقت في وقائع وحقائق يعرفها تمام المعرفة. وبدأ يحل رموز اللحظة التي كان فيها ؛ يحل رموز اللحظة التي كان يعيشها وهو يعيشها، فيتنبأ عنه، في فعله ذاته، وهو يحل رموز آخر صحيفة من الصحائف والرقاع المخطوطة، فكان كأنما هو ينظر في مرآة ناطقة.

ثم قفز قفزة أخرى، وتخلى عن بعض الرموز والكلام، كأنما يستعجل النبوءات، كي يتأكد من تاريخ موته، والعلامات التي تسبقه، والعلامات التي ترافقه.

لكنه، قبل أن يبلغ البيت أو السطر الأخير، كان قد أيقن أنه لن يغادر

الغرفة التي كان فيها أبداً.

فقد كان مرئياً، أكثر مما كان متنبأ به، أن مدينة المرايا، أو مدينة السراب، سوف تجتثها الريح العاتية من الأرض وتمحو آثارها، حتى تنفيها عن ذاكرة الإنسان في تمام اللحظة التي ينتهي فيها أوريليانو بابيلونيا(١) من فك طلاسم الرموز في صحائف الرقاع. كما أدرك أوريليانو أنّ ما كان مدوّناً في تلك الرقاع لا يقبل التكرار. فهو أزليّ محتوم منذ بداية الوجود، وهو سرمدي سوف يظل إلى الأبد. فالسلالات التي حكم عليها القدر حكماً حتمياً، بزمن من العزلة يمتد مئة عام، لن تكون لها فرصة أخرى للعيش على وجه الأرض.

د. محمد الحاج خليل

انتهت الرواية

(١) نسبة إلى أبيه : موريسيو بابيلونيا.

قيل في هذه الرواية

قليلة هي الروايات التي تغير حياة الناس. وهذه واحدة من تلك الروايات.

«و. ل. و. ب. الغارديان»

هذه رواية كاسحة، تتسم بالتألق الفوضوي. وهي أقرب إلى الشعر منها إلى النثر، بل هي ملحمة موسيقية لا متناهية.

«التايمز»

هذه الرواية عمل أدبي غني، مكثف كالأدغال، حافل بالوهم المتوضّع، زاخر بالفعل، ثريّ بالمرح الحزين، يتدفق بالأحداث والفلسفة والتأمل، حتى ليدفعن إلى العجب.

«صنداي تايمز»

رائعة من الأدب الكلاسيكي الرفيع، حتى لكأن كاتبها ساحر فعلاً.

«سبكتاتور»

هذه خبرة لا تعدلها، في الغنى، خبرة أخرى.

«فايننشل تايمز»

تصحو، بعد قراءة هذه الرواية الرائعة كمن يصحو من حلم : عقلك وخيالك جامحان بل ملتهبان. . وأمامك غابرييل غارسيا ماركيز العملاق كخياله وخبرته وعظمته. فهو والرواية مدهشان.

«نيويورك تايمز»

هذه الرواية من أجمل ما قرأت. وهي، على الرغم من سمة العزلة، التي تنسحب عليها حتى إختارها لها كاتبها إسماً، وعلى الرغم من

الحتمية التي ينظر بها المؤلف للأمور من زاويته، أشبه ما تكون بالحياة : شائقة وشائكة، بسيطة ومعقّدة، صافية ومكدّرة، مفرحة ومحزنة ، مشرقة وكئيبة، متفائلة ومتشائمة، حلوة ومرّة. إنها، ككل الأدب الرفيع، جديرة بأن تقرأ، وككل الحياة تستأهل أن تعاش.

«الدكتور محمد الحاج خليل»

مؤلف الرواية

غابرييل غارسيا ماركيز

ولد في بلدة صغيرة هي قرية (سياناجا) في إقليم (أراكاتاكا) من كولومبيا ، في العام ١٩٢٨م . وتخرج في الجامعة الوطنية في بوغوتا ، وأصبح صحفياً ، وسافر كثيراً . أقام في الفترة الأخيرة بضع سنين في برشلونة مع زوجته وولديه . من مؤلفاته الأخرى مجموعات من القصص القصيرة ، منها «إرينديرا البريئة» و«لا أحد يكتب للكولونيل . . .» و«خريف البطريرك» ، و«وقائع موت معلن» و«في ساعة نحس» .

هو واحد من أبرز الأدباء المعاصرين في أميركا الجنوبية . يؤمن بأن الأدب الجديد يجب أن يكون ملتزماً يحرّض القارئ ويوعيه دون وعظ أو تلقين . وهو لذلك ملتزم بقضايا مجتمعه ، بل بقضايا الإنسان في العالم بأسره . فاز بجائزة نوبل للآداب في العام ١٩٨٢م .

وقد كان المبدعون الحقيقيون ، أمثال ماركيز ، دوماً رواداً يتقدمون الصفوف في الدفاع عن حقوق المظلومين ، كما يقول جلال النحاس في جريدة «العرب اليوم» الأردنية (العدد ١٧٢٨ بتاريخ ١٦ شباط / فبراير ٢٠٠٢م) . وهو ما يصدق على هذا الكاتب الكبير ، الذي أصدر بياناً يعلن فيه تضامنه التام مع الشعب الفلسطيني ، مستنكراً الممارسات الفاشية والاستعمارية والعنصرية والصهيونية ، ومبدياً اشمئزازه وإدانته للمجازر التي ترتكبها إسرائيل في المناطق الفلسطينية المحتلة ، ومعلناً إعجابه الشديد ببطولة الشعب الفلسطيني الذي يقاوم الإبادة ، ويناضل من أجل كرامته ووطنه .

هذا البيان الإنساني الصادق الجريء جدير بكاتب كبير مناضل ضد الظلم عُرف بإبداعه ورواياته كـ«مئة عام من العزلة» التي تجاوزت (ماكوندو) وكولومبيا وأمريكا الجنوبية ، لتصل الناس في كل مكان ، كملاحم خالدة تضيء الحياة .

مترجم الرواية

الدكتور محمد خليل الحاج خليل



ولد في بلدة الكابري قرب عكا في الجليل – شمال فلسطين ، في أواخر العام ١٩٣٧ ، تلقى بعض تعلمه الابتدائي في الكابري ، وأكمل تعلّمه في لبنان ، الذي هاجر إليه مع أهله إثر الاحتلال الإسرائيلي لبلده في العام ١٩٤٨ .

نال البكالوريوس في اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي ، والليسانس في اللغة العربية والأدب العربي ، والماجستير في الأدب العربي من الجامعة اللبنانية في بيروت . ونال الدبلوم العلي في التربية وعلم النفس من جامعة بيروت العربية – فرع جامعة الإسكندرية ، ودرجة الدكتوراه في التربية من جامعة ساحل كليفورنيا في الولايات المتحدة الأميركية .

انتقل مع أسرته من لبنان إلى الأردن ، بانتقال منظمة هيئة الأمم المتحدة / الأونروا ، التي كان يعمل فيها ، في العام ١٩٧٦ .

عمل جلّ حياته ، وما يزال ، في ميدان التربية والتعليم : معلماً ثم خبيراً مع وكالة هيئة الأمم المتحدة (الأونروا) في لبنان والأردن ، وخبيراً دولياً ومستشاراً تربوياً مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم

والثقافة (اليونيسكو) في الجمهورية اليمنية ، وسلطنة عُمان ، ومملكة البحرين ، ودولة الإمارات العربية المتحدة ، والجمهورية العراقية . كما عمل مستشاراً تربوياً في الشركة العربية الأردنية لتطوير التعليم الخاص / كلية ومدارس روضة المعارف ، وعضواً في مكتبها الدولي ، ومحاضراً غير متفرغ في الجامعة الأردنية .

أكثر مؤلفاته ومترجماته المنشورة في اللغة ، والتفكير ، والتربية والإدارة التربوية ، والمناهج وطرائق التعلّم والتعليم ، والثقافة العربية الإسلامية ، والأدب ، والكتب المدرسية . له كتابات أدبية : شعرية ونثرية ، ومنها مجموعات قصصية ، معظمها غير منشور حتى الآن .

من مؤلفاته المنشورة كتاب «التعلم السريع» و«التقويم الذاتي في التربية» و«إدارة الصف وتنظيمه» ومن مترجماته «مئة عام من العزلة» و«السلوك الإنساني في الإدارة التربوية» و«جون ملتون والثقافة العربية الإسلامية» و«الصديقان» و«شجرة البيبوب» .